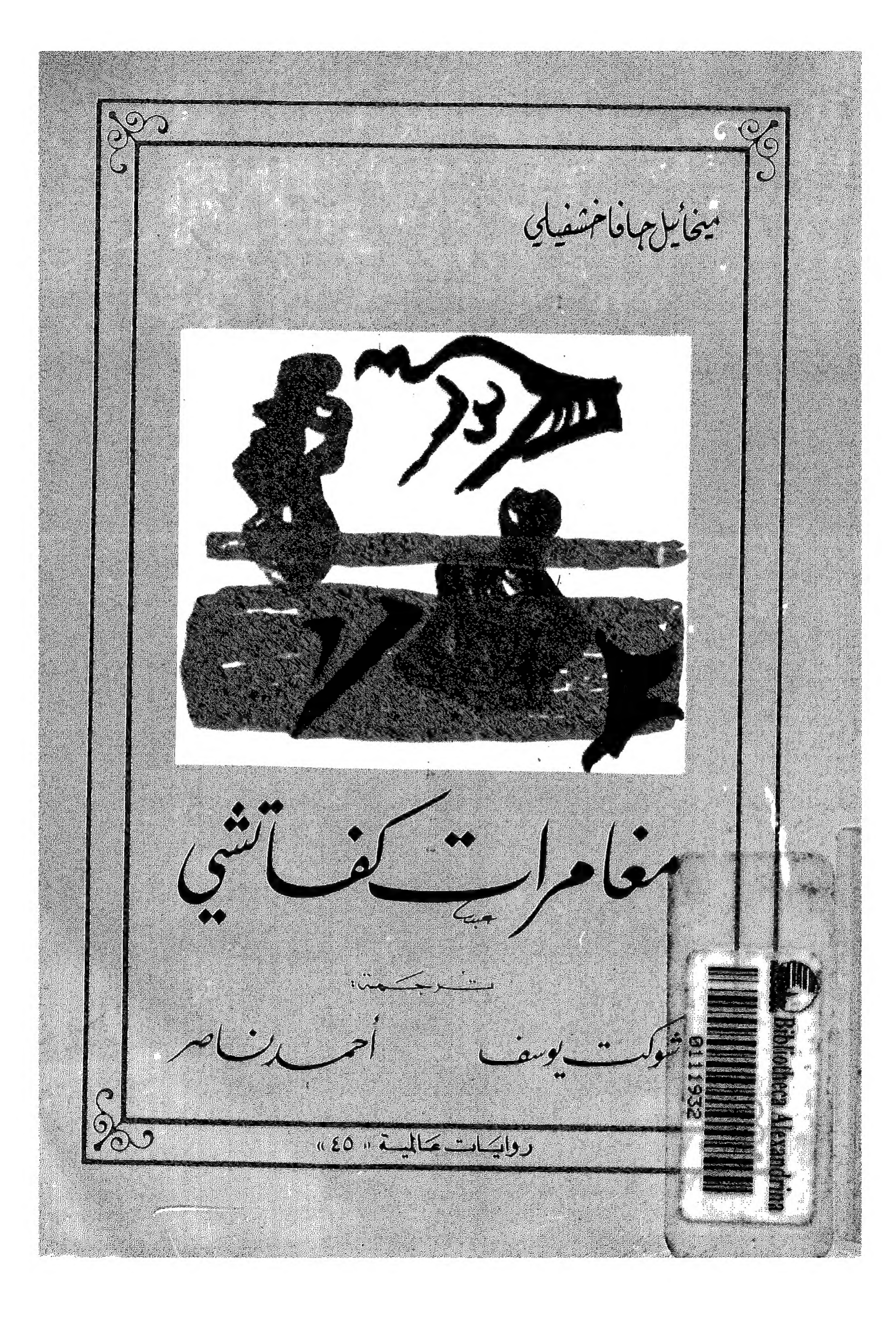

ميخائيل جافاخشفيلي
مغامرات كفاتشي
ترجمة:
شوكت يوسف
أحمد ناصر
روايات عالمية «٤٥»

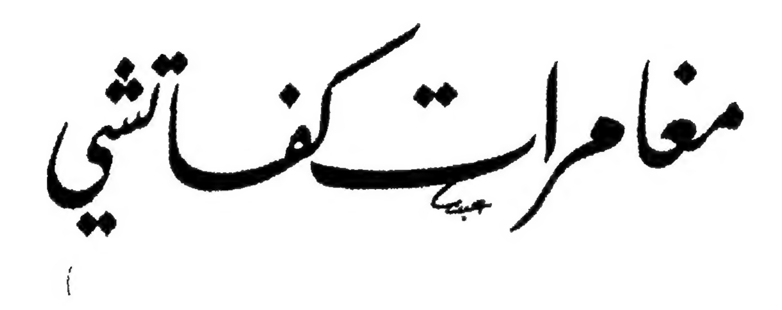


مغامرات كفاتشي

روايات عالميـة

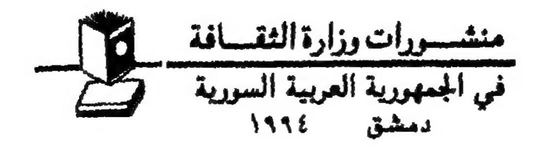
« ٤٥ »

ميخائيل جافاخشفيلي



ترجمة:

شوكت يوسف   أحمد ناصر



العنوان الأصلي للكتاب :

მიხეილ ჯავახიშვილი

კვაჭი კვაჭანტირაძე

რომანი

مغامرات كفانتشي / ميخائيل جافا خشفيلي ؛ ترجمة شوكت يوسف ، أحمد ناصر . – دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤ . – ٦٣٩ ص ؛ ٢٤ سم . – (روايات عالمية ؛ ٤٥) .

١ – ٨٩١.٧٣ ج ج ا ف م ٢ – العنوان ٢ – جافا خشفيلي ٤ – يوسف ٥ – ناصر ٦ – السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع – ١٩٩٤/٣/١٨٣





مقدّمة

الأدب الجورجي ذو تاريخ عريق يضرب بجذوره في أعماق الماضي البعيد . يعود أقدم أثر أدبي ، وصل إلينا ، إلى القرن الخامس الميلادي . لكن يعتبر القرن الثاني عشر عصر ازدهار الأدب الجورجي وعظمة الدولة الجورجية . كان ذلك ابان حكم الملكة (تامار) . برزت في هذه المرحلة روائع الأدب (لاسيما في مجال الشعر) والفن المعماري . وفي القرن الثاني عشر تحديداً عاش وأبدع الشاعر الجورجي العظيم (شوتا روستافيلي) صاحب الملحمة الخالدة (الفارس في إهاب النمر)(*) لاقت هذه الملحمة الشعرية في ترجمتها العربية استحساناً واهتماماً واضحاً من قبل القارىء العربي . وقد يعزى ذلك إلى تأثر مؤلفها بالشعر الغنائي العربي والفارسي،سواء من حيث المعنى والمبنى، وبقصص « مجانين » الحب ، اضافة إلى أن أحد أبطال الملحمة البارزين عربي وجعله المؤلف فيها رمز رجاحة العقل والحكمة وشهامة النفس .

اتسم الأدب الجورجي في القرن العشرين بتطور مميز سواء على صعيد النضج الفكري،أو الفني . فمع مطلع القرن وجدت البلاد نفسها

(*) صدرت الرواية الشعرية (الفارس في اهاب النمر) باللغة العربية في دمشق عام ١٩٨٤ ،وقام بترجمتها عن الانكليزية والفرنسية الاستاذ نزار خليلي باشراف معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الجورجية وبمساعدة الباحث العلمي الجورجي المستعرب غورام تشيكوفاني .

في ظرف تاريخي جديد . كانت القوى والجهود متجهة ومتركزة أساساً على انجاز تحولات وتغيرات سياسية – اجتماعية وثقافية في البلاد . وهكذا برز في ساح الأدب مبدعون حقيقيون في شتى الأجناس . وبرز في رأس قائمة هؤلاء الكاتب (ميخائيل جافاخشفيلي) الذي يعد واحداً من أهم الكتاب الذين أرسوا نهضة الأدب الجورجي الحديث ، لاسيما في مجال القصة والرواية الاجتماعية – البسيكولوجية . وتجدر الاشارة هنا إلى بعض أعماله المبكرة التي لفتت الأنظار إليه وأسهمت في بروزه على نطاق سوفييتي وعالمي مثل : (تشانشورا) ، (رجل الغابة) ، (لامبالو وكاشا) ، (أرسينا من مارابْدا) وغيرها . وليس مصادفة ان ترجمت هذه الأعمال الآنفة الذكر إلى لغات عالمية كثيرة .

كان سبيل ميخائيل جافاخشفيلي – كاتباً ومواطناً ومناضلاً – في الحياة صعباً وشاقاً . يكفي للتدليل على ذلك القول بأنه قد لاقى حتفه ، وهو في أوج نضجه في عام ١٩٣٩ ابان حملات القمع والتنكيل التي خسر الاتحاد السوفييتي خلالها عشرات الألوف من صفوة مبدعيه في جميع الميادين .

ولد ميخائيل جافاخشفيلي عام ١٨٨٠ في قرية (تسيراكفي) قرب تفليس . التحق في مطلع شبابه للدراسة في مدرسة زراعية ، لكن سرعان ماأبعده الأدب عن كل اهتمام آخر . بدأ منذ عام ١٩٠٣ بنشر قصصه في الدوريات الأدبية المعروفة ، كما عمل في الوقت ذاته محرراً في صحف مختلفة . في عام ١٩٠٧ أضطر الكاتب إلى مغادرة وطنه . قضى في الغرب بضع سنوات ، تخرج من جامعة باريس وسافر إلى بلدان غربية أخرى . مع مطلع العشرينات تبدأ مرحلة جديدة في حياة

الكاتب . نشر سلسلة من الروايات والأعمال الأدبية الكبيرة تميزت بمستوى فني رفيع ، وعكست تأثره بالثقافة الأوروبية الغربية . في هذه المرحلة تحديداً كتب ونشر روايته « مغامرات كفانتشي » التي نضعها بين يدي القارىء العربي .

« مغامرات كفانتشي » – واحدة من روايات المغامرة الأكثر شهرة . تقدم الرواية وصفاً لحياة فتى مغامر ، أفّاق ، عملي ، انتهازي لايقيم اعتباراً لأي شيء في الحياة سوى منفعته،وما يرضي طموحه من أجل الثروة وبلوغ مآربه . استطاع الكاتب ، عبر تصوير المغامرات والمقالب الكثيرة التي حفلت بها الرواية ، تقديم نموذج معمّم للانسان اللاأخلاقي المستعد لاقتراف أية كبيرة كانت في سبيل منفعته أو الارتقاء درجة أعلى في السلم .

تتميز الرواية بقوة فنية رفيعة وبتوتر درامي جعل بعض النقاد يرى فيها سلسلة من القصص البوليسية المحبوكة بعناية . بيد أن العمل ككل ينتمي إلى جنس الرواية الاجتماعية – البسيكولوجية . ورأى فيها نقاد آخرون بانوراما الحياة الاجتماعية – السياسية في روسيا القيصرية والاقاليم التابعة لها في مرحلة انحطاط الامبراطورية وبداية صعود قوى حية وبروز مفاهيم وأفكار جديدة استقطبت اهتمامات الجيل الجديد . كان تأثير الرواية عظيماً حتى غدا اسم كفانتشي فيما بعد بمثابة الأمثولة .

لظاهرة « كفانتشي » ، بالمعنى الواسع للكلمة ، جذور قديمة . فثمة روايات العيّارين والشطار في الأدب العالمي . كما ان العصر الذي عاش فيه البطل ، على تخوم القرنين وفي مطلع القرن الحالي في روسيا ، قد تميز بفوضى اجتماعية وفساد في القيم والأخلاق جعل ولادة

مثل هذه الرواية أمراً طبيعياً . فكفانتشي شاب ذكي أنيق المظهر حيوي ، لمّاح ومغامر، كما يفترض ان يكون عليه الشاطر . غدا أمثاله أحياناً ، في ظل ظروف تاريخية معينة ، من محركي أو صانعي التاريخ ، ولاعجب أن يغدو، بعد وقت قصير من وصوله إلى موسكو، صديقاً مقرّباً من (غريغوري راسبوتين) صاحب الصيت الذائع والدور المشهور في الادارة القيصرية قبيل ثورة أكتوبر . لقد وجد كفانتشي في راسبوتين (أو قل كل منهما في الآخر) سنداً وحماية وأكمل أحدهما الآخر . وقد استطاع الكاتب ، عبر ذلك ، أن يعرّي ويفضح « الكفانتشية » كظاهرة في المجتمع آنئذ .

وهكذا اذا كانت ترجمة « الفارس في إهاب النمر » تعريفاً للقارىء العربي باحدى روائع الأدب الجورجي في عصر نهوضه الأول ، فان ترجمة « مغامرات كفانتشي » مساهمة للتعريف بهذا الأدب في مرحلة نهضته الحديثة .

شوكت يوسف

دمشق ١٠/٩/١٩٩٠

القسم الأول

كيف ولد كفاتشي

في الأول من نيسان من ذلك العام كان الطقس في (سماتريديا) غريباً عجيباً : خيمت منذ الصباح الباكر فوق الأرض سحب سوداء داكنة ، هطل ، بشكل متناوب ، ثلج وبرد ومطر ، شعّت شمس ربيعية لطيفة ، هبت من حين لآخر عواصف قوية اهتزت وأنّت من شدتّها القرية كلها ، كما وحلّ احياناً هدوء وسكون لم تلحظ معه أية حركة للغيوم في السماء .

هكذا كان الأول من نيسان في سماتريديا ، يوماً غريباً متقلباً محيّراً وردئياً .

في ذلك اليوم ، ومنذ الصباح ، سادت في منزل (سلبيسترو كفاتشانتيرادزه) . القائم على جانب الطريق العام المؤدي إلى (خوني)(١) جلبةٌ غير اعتيادية : كانت (بوبي) زوجة سلبيسترو في حالة مخاض لأول مرة ، جميع افراد الأسرة في استنفار ، وحول المرأة الماخض في حركة دائمة أمهـا (نونيتو) والداية واحدى الجارات . أما زوجها

خوني : حالياً مدينة (صولوكيدزه) وكان اسمها قبل عام ١٩٣٦ (خوني) .

سلبيسترو ووالداها (خوخوشيشيا) فكانا في غرفة أخرى يترقبان بمزيج من اللهفة والخوف ، ولادة وارثهما الأول .

عندما انتصف النهار اكفهر الجو واظلمت الدنيا تقريباً . انقلب الهدوء فجأة إلى ضده،وثارت عاصفة هوجاء اهتز وأنّ من هولها الكون . تمايل ، مع حركة الريح،منزل كفاتشا نتيرادزه الخشبي مترنحاً وكاد ينخلع من مكانه ، صرخت الماخض ، وراح الآخرون ، لشدة ذعرهم وهلعهم ، يتحركون في فوضى هنا وهناك .

فجأة وَمَضَ برق خطف الأبصار لثوان،وسُمع،في اللحظة ذاتها، قصف رعد مخيف وصرخة قوية صادرة عن بوبي . ارتجّت الأرض بحيث تسمّر بعضهم في مكانه رعباً . . . وبعضهم هوى جالساً حيث هو . . . وبعضهم الآخر القى بنفسه باتجاه الباب . بعد ذلك خيّم سكون تام قرابة دقيقة انبعث اثرها ، في الزاوية ، صوت المولود الجديد . . .

ياع . . . يا . . . ياع . . . يا . . . ياع

وسقط ابن سلبيسترو كفاتشانتيرادزه أمامقدمي أول امرأة،قدمي أمه بوبي . قام هرج ومرج مع فرحة بادية على الوجوه . كانت عقارب الساعة آنئذ تشير إلى الثانية عشرة . . . هدأت العاصفة وتبدّد الظلام بحلول النور .

هبّ راكضاً من الغرفة المجاورة ، أثر سماع صوت الطفل ، كل من سلبيسترو وخوخوشيشيا .

صاحت الداية ملتفتة صوبهما :

ـ صبي ! ! صبي ! !

ـ الحمد لله ! الحمد لله ! ـ قال سلبيسترو .

ـ باسم الآب والابن والروح القدس ـ أضاف خوخو .

رسم الجميع إشارة الصليب وصاحوا : آمين ! آمين !

ـ سأسميه كفاتشي ـ أعلن سلبيسترو بصوت احتفالي ، وفي الحال وافقه الحضور على ذلك .

بعد وقت قصير من ذلك،اتى الصبي (باردغا) العامل في الدكان المجاور، وأخبر الجميع ان الصاعقة ضربت شجرة السرو القائمة في بستان سلبيسترو وقصتها إلى نصفين ، أما العاصفة فهدمت دكان (جونديا) . نهض سلبيسترو لمشاهدة الدكان المتهدم وعثر ، فيطريقه ، على روبل فضي .

بعد ساعة تبددت السحب ، حلّ من جديد طقس ربيعي جميل وبرزت حول قرص الشمس هالة مشعة . تقاطر سكان سماتريديا إلى الشارع لمشاهدة هذه الهالة وللنظر إلى دكان جونديا السابق، وإلى شجرة السرو التي قسمتها الصاعقة إلى نصفين .

هكذا كانت ولادة كفاتشي كفاتشانتيرادزة .

في ذلك المساء استطاعت السيدة (نوتيو) بصعوبة فتح راحة يد كفاتشي ، نظرت إليها ، صمتت برهة ثم قالت :

ـ تدل العاصفة والبرق والرعد على أنه تنتظر كفاتشي في شبابه جولات وصولات ، لكن الله كبير ، أما قبضة يده المشدودة فتعني

أنه يصعب على أي كان انتزاع شيء طالته يده . وتدل الهالة التي أحاطت بقرص الشمس يوم ولادته انه ينتظر المولود الجديد مستقبل واعد . أمـــا الصاعقة التي ضربت شجرة السرو والعاصفة التي إهدمت دكان[*] جونديا فوعد بأن الله سيمحق أعداءنا واعداء كفاتشي وستطق قلوبهم كما حصل لشجرة السرو اليوم .

انفرجت أسارير الجميع وتبددت همومهم لدى سماع هذا الكلام . انحنت بوبي صوب وليدها النائم وراحت تلاطفه هامسة : ولدي الغالي كفاتشيكا !

أنى كان لسلبيسترو أو بوبي،أو باردغا أو حتى لخوخو ونوتيو كذلك،ان يعرفوا أن في فألهم وأحلامهم شيئاً من الحقيقة،وان كفاتشيكا الراقد في مهده لن يخيّب في المستقبل آمالهم ، بل وسيصل إلى أبعد من توقعاتهم .

حول والدي كفاتشي

تعالوا الآن نتعرف على سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه وعائلته .

لد السيد المحترم سلبيسترو في (غوريا) في الفترة التي تم فيها الغاء نظام القنانة . أعطاه أبواه (أنابوديستي) و (صيصوا) ـــ طفلاً إلى خالته السيدة نوتيو وزوجها خوخوشيشيا لتربيته . وهكذا وضع خوخو ونوتيو سلبيسترو الصغير في خرج على ظهر الحصان ونقلاه معهما إلى قرية (باندزا) في منطقة (مينغريليا) حيث كانا يعيشان حينئذ.

---

[*] الدكان : مطعم ـــ خمارة يرتاده الناس لتناول وشراء الخمور ، وكان شائعاً على مستوى شعبي عام في جورجيا حتى مطلع القرن الحالي ـــ المترجمان .

ونظراً لأن اسم سلبيسترو المسيحي لم يعجب أهل مينغريليا ، فقد أعطوه اسماً جديداً (شيبي) . لكنه حافظ في وقت واحد على الأسمين ، لأن الأخير جاء دون مراسم معمودية ،ولم يدوّن في السجلات الخاصة بذلك .

مضت عشرة أعوام . خلال هذه الفترة كانت الخالة وزوجها ينقلان سلبيسترو – شيبي من حين لآخر ، في خرج ،أو سلة بين باندزا وغوريا لزيارة والديه .

عندما بدأت الحرب الروسية – التركية تطوع انابوديسّي في الحرس الشعبي الجورجي ،والتحق في صفوف المقـاتلين من أجل استرداد (باطوم) ،لكنه قتل في إحدى المعارك قرب قرية (سيخزري) ،ولم يمض عام على ذلك حتى تزوجت أمه – صيصوا وذهبت مع زوجها الجديد للعيش في أوديسا .

وهكذا غدا سلبيسترو يتيماً . وكان من حسن الطالع أن تعهدت خالته نوتيو وخوخو بتربيته في الوقت المناسب، وحافظا على ملكيته المتواضعة .

لم يكن سلبيسترو وحيداً في أسرة شيشيا . فكان لدى خوخو أخ في سماتريديا أسمه (جيفيبي شيشيا) ترمل مبكراً بعد أن خلفت له زوجته وحيدته بوبي . كان جيفيبي رجلاً كثير الأشغال ، لذا نشأت ابنته بوبي في أسرة خوخو ونوتيو . وهكذا نشأ سلبيسترو وبوبي كأخ وأخت واحب أحدهما الآخر منذ الصغر . عندما شب سلبيسترو وجد أنه من المعيب العمل في الأرض ، فتوجه إلى باطوم للبحث عن النبالة والسعادة .

استدعى جفيبي شقيقه خوخو مع الأسرة إلى سماتريديا ، فقد كان مريضاً جداً ، وقبل ان يسلم روحه إلى بارئها عهد لأخيه نهائياً بابنته بوبي وأوصى له ببيته الصغير .

لم يستطع خوخو وحده تحمل أعباء الأسرة . لذا استدعى سلبيسترو من باطوم وقال له :

ــ ولدي شيبي ! كوخ الأهل الصغير ولا قصر الغريب . في باطوم مئات الرجال المتعلمين الذين لن يفسحوا لك مجال العمل الذي تحلم به . لذا أنصحك بالعودة وبناء أسرة مثل كل الناس . السعادة تطرق بابك فلا تطردها وإلا ندمت . بوبي جيدة جميلة مهذبة ونشيطة . وهذا بيت وبستان لابأس بهما، وكل مانملك أنا ونوتيو من نصيبيكما ، فماذا تقول ياولدي شيبي ؟

ماذا على شيبي كفاتشا نيترادزة ان يقول ؟ استقبل السعادة التي قرعت بابه بذراعين مفتوحين تزوج وأهدى بوبي كنيته الشهيرة وأقام فرحته في عش بناه له آخرون .

كيف حصلوا على شهادة النبالة من (أشورديا)

كان بيت سلبيسترو ذو الطابقين واقعاً على طريق خوني . احاطت بالبيت قطعة أرض في حوالي ربع هكتار سموها بستاناً ــ كان في البستان حوالي عشر أشجار مثمرة : كرز ، كمثرى ، تفاح ، . . . وخمسة أحواض زرعت فيها خضراوات مختلفة : خس ، طرخون ، فجل ، كرفس . . . الخ . في الطابق الأرضي كان يقع ركن لاستقبال الضيوف حيث وجدت ثمة دوماً المأكولات الشعبية المعروفة اضافة إلى أصناف متنوعة من النبيذ .

احتفظ أهل البيت، كذلك، ببعض الماشية والطيور : دجاج ، بط ، أوز ، عنزتان وبضع خنازير وكلب وفيّ .

في الركن الخلفي من المنزل كان ثمة سريران مع بعض الفرش والأغطية العتيقة . كان البيت، كبناء ،قديماً متهدماً تقريباً ، لكن قربه من الطريق العام جعله مأهولاً غالباً بالزوار .

في الطابق العلويّ ثلاث حجرات فارغة تقريباً،لكن نظيفة . مع الزمن اشترى سلبيسترو بعض المتاع ،إضافة إلى أدوات المطبخ وبعض الكراسي والستائر .

باع خوخو ونوتيو كذلك متاعهما في قرية بالذزا وساهما في تأثيث البيت . عرف سكان البيت الأربعة في كل القرية بالسمعة الحسنة والتواضع واحترام الناس ، لذا اكتسبوا بسهولة الأصدقاء،الذين لقوا في هذا البيت، اضافة للطعام والشراب ، الابتسامات والمجاملات والوعود الطيبة

لم يعامل سلبيسترو وبوبي جميع الناس بشكل متساو ، فللأمراء والنبلاء والتجار . . . معاملة خاصة ، وما كان ممكناً لعابر سبيل من هذه الجماعة أن يمر قرب بيتهما دون ان يلقى تحية منهما ودعوة للزيارة وسؤالاً عن الصحة والأحوال . كان سلبيسترو يجهد للتعارف على الغرباء الذين يفدون إلى القرية ، للتواصل معهم ومعرفة مدى مايمكن أن يقدموا من منفعة له مستقبلاً .

عندما تنقطع ،أو تقل حركة العربات على الطريق العام، كان سلبيسترو يذهب إلى المحطة أو البازار ينجز أعمالاً خاصة ويعقد كثيراً من الصفقات

الصغيرة، التي تعود عليه غالباً بأرباح لابأس بها، تفي بمصروف البيت والضيافة . ويوماً بعد يوم استطاعت الأسرة ان تقف على قدمين ثابتتين قويتين .

هكذا كان حال سلبيسترو وأسرته عندما ولد كفاتشي كفاتشا نتيرادزه .

كبر كفاتشي بسرعة ملفتة للنظر . يبدأ الأطفال عادة بعد عام من ولادتهم بالمشي والكلام ، لكن كفاتشي لم يكن قد تجاوز الستة أشهر عندما بدأ ينقل قدميه وينطق على طريقته .

– بابا ، ماما ، دادا . . .

كانت نوتيو على حق عندما قالت بهذا الخصوص :

– صدّقوني أن نمو الطفل في وقت مبكر وعدٌ بتفوقه ونبوغه في المستقبل .

في هذه المرة كذلك صدقوا نوتيو وصاروا بوجه خاص يعتنون ويهتمون أكثر برعاية وتنشئة كفاتشي .

بعد ولادة كفاتشي صار سلبيسترو يلازم البيت أكثر ، يفكر في المستقبل بجدية أكثر ، يشتري بما يتوفر له من نقود شرانق حرير ، أو بيض ، وغير ذلك ، فيحصل من ذلك على ربح جيد . لكن هماً أو حلماً واحداً كان يشغل بال سلبيسترو ، لابل يؤرقه أحياناً : فهو ليس واحداً من طبقة النبلاء ، أو معذرة من هذا القول ، غير الدقيق ، فسلبيسترو نبيل حقيقي وعريق ، وهذا يعرفه الجميع . لكن هذا الشرف لم يحصل له بعد رسمياً في شهادة أو وثيقة ، ومن أجل هذا انفق سلبيسترو

الكثير من المال والوقت وسافر مراراً إلى (أزورغيلي) و (كوتايسي) دون أن يستطيع فعل شيء. فلقاء المال المنفق على هذا السبيل حصل دوماً على وعودٍ سخية وحسب ، وبقي مدوّناً في هويته الشخصية كلمة « فلاح » المعيبة والمهينة .

أخيراً نصحه بعض أهل المعروف ودلّوه على الطريق :

— أشورديا . .

وسافر سلبيسترو على الفور إلى (زوغديدي) . وبعد أخذ وردّ ومساومات طويلة حصل الاتفاق .

مرت بضع سنين على ذلك . . . وذات يوم قام هرج ومرج بشكل غير مألوف في منزل سلبيبسترو . . تهامس أهل البيت باهتمام وبدا عليهم الارتباك والانشغال :

— أشورديا قادم ! . . . اشورديا ! . . .

وفي المساء حلّ عليهم شخص غريب . استقبله جميع أفراد أسرة كفاتشانتيرادزه باحتفاء واحترام . . اقيمت الأفراح وبدت البهجة على الوجوه . حمل أشورديا معه إلى سلبيسترو نبأ مفرحاً طالما انتظره وتمناه . بقي اشورديا يبتسم للحاضرين إلى أن دارت الخمرة في الرؤوس ، فنهض وقال :

— انضمت اسرة جديدة إلى أسرتنا الكريمة الكبيرة . . فالجميع يعلم أن جد شيبي كفاتشا نتيرادزه كان من النبلاء . لكن القدر خانه ، اذ سقط أسمه سهواً ، على مايبدو من أحد السجلات . وها قد سويّت بنفسي ظلم التاريخ وأعدت لك ولأسرتك ، ياعزيزي سلبيسترو ، شرف

النبالة . اهنئك بهذه المناسبة السعيدة وأتمنى أن تحمل بجداره هبة القيصر،
أشرب نخب النبيل سلبيسترو ، نخب صحة أخي الجديد ! .

غمرت بشائر الفرح والسرور أسرة كفاتشا نتيرادزه وتعالى الصخب في المنزل . سلّم اشورديا سلبيسترو ، وبشكل احتفالي ، شهادة القيصر ، حيث قرأها ملياً في اليوم التالي وتباهى بها في طول سماتريديا وعرضها .

منذ ذلك اليوم غدا سلبيسترو وكفاتشيكا رسمياً من النبلاء . اثناء العشاء نفذ كفاتشيكا ابن الخمسة أعوام تعليمات وأوامر والده : قبلّ يد اشورديا وقال :

ـ أشكرك يا عمي ...

ابتسم أشورديا وقبّل كفاتشيكا في جبهته ولاطفه قائلاً :

ـ صغيري ! مهدت لك طريق السعادة والنجاح ، فتحت لك كل الأبواب . الباقي عليك . اشرب نخب صحة كفاتشيكا الصغير !

علا الضجيج والصخب وهمهمات الفرح من جديد .

في اليوم التالي عندما همّ اشورديا بالسفر قبّل كفاتشيكا يده مرة ثانية ، وقال له :

ـ عمّي ... عندما ترى القيصر قل له ان كفاتشيكا كفاتشا نتيرادزه لن ينسى جميلك وعندما يكبر سيشكرك .

ضحكوا جميعاً . شجعه اشورديا وهنأه .

ـ أضع أملي فيك يا صغيري ، فلا تخيب ظني ! هل سمعت ؟ وغادر .

في ذلك المساء قالت نوتيو :

ـ مامن عائق الآن أمام حبيبي كفاتشيكا ، سيغيّر وجه العالم ويسعدنا ، ويمكن أن يأتي يوم يردّ فيه لأشورديا معروفه ويزيد .

أنّى كان لنوتيو ،أو بوبي أو اشورديا ،أو حتّى لسلبيسترو ان يعلم ان كفاتشيكا الصغير سيصبح أهم من اشورديا ،ويشغل العالم ويزيّن أسم أسرته بهالة سنيّة .

لقد قدم سلبيسترو مافيه الكفاية حتّى يحصل على لقب الشرف . وكم أنفق على أشورديا ، ثم على أهل سناتريديا والوفود التي احتشدت في منزله خلال أسبوع كامل لتهنئته بهبة القيصر وبالشرف الجديد الذي ناله .

كيف جرت طفولة كفاتشي

بعد حصول سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه على رتبة النبالة تغيرت شخصيته والوضع العام لأسرته . شمخ بأنفه إلى أعلى ،وصار وأهل بيته أكثر جدية وتحفظاً في التعامل مع الجوار ، كأنما انكسر الجسر وقام عوضاً عنه جدار .

هكذا غدا سلبيسترو يعظ كفاتشيكا الصغير :

ـ انتبه ياابني ، العالم منذ الأزل قائم على قواعد راسخة : ثمة دوماً كبير وصغير ، غني وفقير ، قوي وضعيف ، سيد ومسود . ولايجدر بنبيل من الأشراف مثلك ان يخالط العوام أو يقلدهم . الفقير والفلاح لن يعطياك شيئاً ، وعلى العكس سيستغلانك . أقم علاقاتك مع النبلاء والأغنياء ، كن قريباً منهم وخالطهم كأخوة لك . تحتاج دوماً الغني والقوي : هذا يساعدك في أمر ، وآخر يهديك

شيئاً ما مفيداً ، وثالث يتسبّب لك بمنفعة . . . هذا هو الكون يابني فتبصّرْ وأعمل لمصلحتك وما ينفع مستقبلك .

كفاتشيكا زكي ، نبيه ومطيع ، لذا أدرك نصائح ووصايا أبيه وعمل بها . لم يكن قد بلغ السادسة من عمره عندما كانت له كلمته ورأيه في أمر التجارة . كان يتدخل دوماً لدى شراء والده أو باردغا شيئاً ما من الفلاحين . كأن يقول :

— هذا لاينفع . . . غالي الثمن . . . في الصباح بيع بعشرة كوبيكات فقط . . . . .

كان يستقبل الزبائن باحترام وتأدب :

— السلام عليك ياعم . . . اسمي كفاتشي . . . عمري ست سنوات . . . انا ابن سلبيسترو . . . عندنا كل شيء : فواكه خضروات بيض ، نبيذ من النوع الجيد .

في طفولته الأولى تعلم كفاتشي على يد الشماس ، وعندما بلغ الثامنة أخذه والده إلى كوتايسي للالتحاق بالمدرسة . رافقه إلى هناك بوبي ، خوخو ونوتيو أيضاً . ولكم دهشوا عندما رأوا هذه المدينة الكبيرة الغنية ، الجميلة والنظيفة — الأمر الذي دعا سلبيسترو لتنبيههم قائلاً :

— لاتبدوا الدهشة والعجب عندما ترون شيئاً ما جديداً باهراً . فقد يلاحظ الآخرون ذلك ، يكتشفون عدم خبرتكم ويسخرون منكم . عندما تكونون بين الناس وتسنح فرصة الكلام لكم قولوا انكم كنتم في (تفليس) ، عشتم فيها سنة ورأيتم وسمعتم وخبرتم كل شيء .

فهم كفاتشيكا هذا الأمر جيداً . ففي ذلك اليوم عندما حلوا في منزل قريبهم (بودوشوليا) ، وجرى الحديث اثناء الغداء عن العاصمة تفليس تدخل في الحديث وقال بثقة وهدوء :

ـ لابأس بها ، مدينة كبيرة . . . تعجبني . . . زرتها مرتين في العام الماضي ، اعجبني مسرحها ومحطة القطارات و . . .

قال كفاتشي كل ذلك دون ان يحمر وجهه،أو يتعلثم في الكلام. وهل كان يتنبأ حينئذ ان يزور حاملاً لقب أمير بطرسبورج ، باريس ، فينا ، برلين ، لندن ، وأن يعيش في قصور حقيقية .

بعد أسبوع من إقامة كفاتشيكا في كوتايسي ، عاد سليبيسترو وبقية أفراد الأسرة إلى سماتريديا . اثناء الوداع قال سليبيسترو لابنه ـ عزائه وأمله الوحيد ـ مايلي :

ـ سنفترق الآن يابني . لن أراك إلا بعد حين . سنسافر ، لكننا سنترك القلب والروح هنا . كن يقظاً واهتم بدراستك ومعلميك . لاتصاحب الاشقياء وأولاد الفلاحين . ان أحسنت الدراسة وعرفت كيف تسلك وتخالط الناس ، فقد تغدو في المستقبل على كل شفة ولسان في سماتريديا ، وخوني وفي كوتايسي أيضاً . يجب ان تفقأ عين عدوك حسداً وتفرح أهلك واقرباءك . أسافرُ وكلي أمل بك يابني ياكفاتشيكا . . .

بصعوبة استطاع اخفاء دمعة كانت تتدحرج على خديه . اجابه كفاتشيكا :

ـ كن مطمئناً . ان أخيب ظنك ، ان اسيء إلى سمعة أسرة

كفاتشانتيرادزه . ضحك الجميع ، ثم بكوا وقبّل بعضهم بعضاً وافترقوا . بقي كفاتشيكا عند أسرة بودوشوليا في شارع (بلاخفان) ، حيث كان شوليا يدير هنا حانة . وبعد أسبوع التحق كفاتشيكا بالمدرسة وانكبّ على الدراسة .

كيف كانت شخصية كفاتشي ؟

مضت بضع سنين . كبر كفاتشي ، غدا شاباً طويل القامة دون نحافة ، جميلاً بهي الطلعة . من حيث الذكاء والامكانات عُدّ بين الأوائل ، من حيث الجد بين الأواخر ، وبوجه عام كان وسطاً . كانت مذاكرة وحفظ الدروس بالنسبة له عذاباً ، لكنه وهب ذكرة قوية تستوعب بسهولة كل مايقال في الحصة الدرسية ، لم تستهوه اطلاقاً مطالعة وقراءة الكتب . أحب فقط قراءة تلك التي تصف الرحلات والمغامرات الكبيرة والصغيرة : فقرأ مرتين مثلاً ، ماين ، ريد ، كوبير ، غوستاف ايمـــار ، ومذكرات غوردون ، نيت بينكرتون ، شرلوك هولمز وكثيراً من أمثال ذلك .

رسخت وصايا سلبيسترو جيداً في رأس كفاتشي . سعى دوماً لارضاء الأقوياء والمعلمين ، التقرب منهم والحصول على اعجابهم وحبهم والاستفادة منهم . وفي هذا المجال منحته الطبيعة عطاءات سخية

كان يتمتع بموهبة مدهشة ونادرة لاكتشاف طبائع وشخصيات الناس وقدرة في الحصول على اعجابهم ونيل ثقتهم والفوز بحبهم . فاذا رغب بالتقرب من انسان ما ، رجلاً كان أم امرأة ، كان له ذلك ، وفي زمن قصير يغدو أسيره قلباً وروحاً .

كان كفاتشي ذكياً مع الأذكياء ، هادئاً مع الهادئين ، مزوحاً مع المزوحين ، حزيناً مع الحزانى ، فرحاً مع الفرحين ، مع الأقوياء خاضعاً مستسلماً منافقاً ضعيفاً ، وكان يمكنه ، اذا أقتضى الأمر ، أن يكون مع الخشنين الجسورين متواضعاً ومرناً ، ومع الضعفاء عنيفاً وقحاً ، مع المستقيمين العنيدين مرائياً منافقاً ، وأن يكون أمام الحديد شبه القطن وأمام القطن شبه الحديد .

عندما يتراجع غيره منسحباً أمام الطرق المستقيمة المباشرة المغلقة، كان كفاتشي يجد مخارج ومخارج ملتوية . لوحبسته بين أربعة جدران، دون أبواب ونوافذ،لوجد حيلاً وحيلاً للتسلق إلى برج دونه تسعة أبواب مقفلة وخرج سالماً .

ادرك كفاتشي وفهم قوة وتأثير الكلام المعسول والابتسامة اللطيفة والمديح الكاذب . كان له سحر خاص في التأثير على الناس الفوز بثقتهم واخضاعهم لما يخدم مصالحه ومنفعته .كان يقول أحياناً أمام خلصائه ، بعد أن يستغل انساناً ويحلبه حتى النهاية :

ـ في هذه الدنيا خُلق بعض مع سرج،وبعض آخر مع كرباج ومهماز . أنا افضل الكرباج والمهماز،وليلبس غيري السرج . هذا ،اقاله فولتير ذات مرة .

أو يقول :

ـ لو كان كل الناس في هذه الدنيا قساة القلوب،عديمي الثقة بالآخرين وايديهم دوماً على جيوبهم،لوجب على أمثالي ان يلقوا بأنفسهم في الماء أو يحرثوا الأرض .

أو يقول المعنى نفسه ، لكن بصيغة أخرى :

ـ تذكر دوماً ياأخي بأن الله خلق النعجة كي تحلب ويجزّ صوفها .

كانت لدى كفاتشي سرعة خاطر فريدة وحاسة شم رهيفة كما لدى الكلب الأصيل المهجّن . كان باروميترا حياً يحسّ بالطقس الرديء والحسن عندما لم يكن يتوقع آخرون أي تغيير . وكان الطقس كثير التبدل في حانة شوليا وفي أسرته ، وفي المدرسة ، والشارع وفي حياة كوتايسي بوجه عام . أحسّ كفاتشي دوماً،وفي الوقت المناسب بتبدل الطقس فاستعد لذلك، بدّل ملابسه،غيّر سلاحه،اتخذ الوضع المناسب، بصق على الشمس وحيّا الشروق ركل الضعيف ووقف بجرأة قرب الحديد الصاعد .

ندر ان تجد لكفاتشي مثيلاً،من حيث القدرة على الحصول على المال ، واندر من ذلك من كان يعرف كيفية حصوله عليه . نادراً ماكان يستقرض . وهذا في الحالات القصوى . وهنا كان له أسلوبه الخاص،كأن يتدخل في الحديث فجأة،ويقول بهدوء وثقة،على نحو غير متوقع : « اقرضني ثلاثين روبلاً » . كان يختار طبعاً الوقت المناسب والشخص المناسب ، واللحظة المناسبة،بحيث لم يواجه برفض ابداً . لكن لم يكن يمضي خمس دقائق حتى يلعن الدائن نفسه ويضرب رأسه بيده ، في حين يكون كفاتشي قد أنسحب بهدوء واختفى .

كان لدى كفاتشي عادة أخرى اتخذها قانوناً وقاعدة : لايقول لأحد « كلا » ، ولا يرفض طلباً،لكنه من جانب آخر لايفي بوعد إذا لم يجلب له ذلك منفعة أو فائدة ما اليوم ، أو غداً . لذا بدا دوماً شاباً طيباً لايرد لأحد طلباً ، ينثر الوعود بسخاء يميناً وشمالاً :

— آه ياحسرتي ! تريد مالاً ؟ كم المبلغ ؟ خمسة روبلات ؟ لماذا لم تقل لي قبل ساعة ؟ مع ذلك ، على أية حال ، سأتدبر الأمر سأعطيك .

وهكذا كان ينثر الوعود ويختفي عن الأعين ويبقى الوعد وعداً . لكن العجيب في الأمر أن المخدوعين لم يزعلوا ، أو يغضبوا منه أبداً ، لأنه كان دوماً جم التواضع معهم لطيفاً مهذباً ، يحسن التخلص بلباقة ومهارة من شتى المآزق الصعبة .

كان لكفاتشي في البداية تأثير ونفوذ كبير بين أقرانه وزملائه . إذا دخل إلى الصف أو خرج إلى الشارع تحاق حوله حشد من الشباب وحيثما حل لحق به وزملاء ورفاق كما يقتفي الذباب أثر العسل .

وكان لدى كفاتشي ، لكل منهم كلمة مناسبة ، فكرة ، ابتسامة ، نصيحة ، عظة ، وكانت تسوية الخلافات والنزاعات الصغيرة بين الزملاء ، أو بين المعلم والتلاميذ من شأنه دوماً — الأمر الذي جعل بعضهم يقول :

— لو أن كفاتشي أحب الجد والدرس لضمن مستقبلاً باهراً ، وأضاف آخرون :

— مع ذلك ، وهو على هذه الحال ، سيغدو انساناً عظيماً .

كيف كسب أول روبل بعرقه

كانت حانة بودو شوليا مطلة على شارع (بلاخفان) وشقة السكن خلفها تماماً في بناء واحد . وكثيراً ما كان كفاتشي يتسلل إلى هذه الحانة ، فيساعد بودو في التجارة وفي تصريف بعض الأمور الصغيرة أحياناً . خلال ذلك كان يراقب الزبائن ، يصغي إلى أحاديثهم ، ويكتسب خبرة وتجربة من كل ذلك .

لذا يمكن القول ان حانة شوليا غدت مدرسة حقيقية للحياة بالنسبة لكفاتشي . فقد رأى وعرف واستوعب وتعلم هنا ، وهو ابن العاشرة ، مالم يعرفه ويخبره حتى ابن العشرين :

كانت لدى بودو شوليا زوجة شابة اسمها (صفيري) ربّت كفاتشي كابنها واعتنت به ورعته . قالت لزوجها ذات مرة :

— ماذا تريد مني ! لم تستطع انجاب حتى طفل واحد . فلماذا لا أحب طفلاً غريباً ؟

وهكذا التصقت صفيري بهذا الفتى الغريب كما زوجها بحانته . لم تشعر بأي خجل ، أو حياء أو حرج من أي نوع كان تجاه الطفل الغريب . اعتادت عليه وصار أقرب الناس لها لدرجة أنها كانت تخلع عنه ملابسه بنفسها ، وهو ابن الرابعة عشرة ، وتغسله في الحمام :

كانت لكفاتشي غرفة صغيرة خاصة به بجوار الغرفة الكبيرة ، ولم يفصل بين الغرفتين سوى حائط خشبي رقيق ، لذا كان أي صوت أو نأمة أو حركة مسموعاً في الغرفتين .

كان بودو كثير المواظبة في حانته

في ذلك المساء عاد كفاتشي إلى البيت . درس قليلاً ، ثم استلقى في فراشه . دخلت صفيري لحاجة ما إلى غرفته ، لكنها بعد قليل أطفأت النور ، وجلست بجانبه على السرير ، وراحت تمازحه . . انتهت هذه المازحة كما كان ينبغي لها ان تنتهي : علّمت صفيري كفاتشي ما كان قد عرفه سابقاً ، لكن مالم يكن قد جرّبه بشكل تام مع امرأة حقيقية .

كان بودو رجلاً كبير السن مريضاً ، لذا يمكن القول أن صفيري .

قد كسبت في تلك الليلة ديكاً حقيقياً ؛ أما كفاتشيكا فجرّب أول دجاجة حقيقية . لم تدر صفيرى قبلاً شيئاً عن علاقة كفاتشي بـ (فاريا) ابنة الجيران ، التي كان قد اتخذها دجاجة له منذ بضع سنوات .

بدءاً من اليوم التالي ضاعفت صفيرى اهتمامها بكفاتشي ، وكثرت ملاطفاتها له ، وضعت في يده روبلاً فضياً وهمست في اذنه :

— اشتر ، يانور عيني ، حاجة ما لك . لكن اياك ان تقول شيئاً عن علاقتنا لأحد ، فاذا حصل ذلك وشاع الخبر كانت نهايتنا .

وهكذا كسب كفاتشي كفاتشا نتيرادزه بعرقه وجهده أول روبل . استمرأ اللعبة ولقيها سهلة لذيذة ومربحة . فتبع الروبل الأول روبل ثان وثالث فرابع . فعاشر ، إلى ان اقتنعت صفيري انها ان تستطيع الاستمرار على هذا النحو . فالنفقات تزداد وديكها يطالب بالمزيد . جفاها النوم وغدت قلقة طوال الوقت . ديكها جشع طماع تطعمه ، لكنه لاينِي يتنقل من عش لآخر — غدا ديكاً لدجاجات عدة في آن واحد . وهكذا بدأ العتاب واللوم والغيرة والمشاحنات .

لكن صفيرى أخطأت أيضاً في هذه المرة — ففي الأعشاش الأخرى نُثرتْ لكفاتشي الفضة وما هو أغلى منها .

اقتنعت أخيراً آن لافائدة من العناد ، وأنها غير قادرة على المنافسة ، لأن ذلك سيكلفها ما لاطاقة لها بتحمل تبعاته فرضيت بنصيبها كواحدة من كثيرات .

مضت سنوات ثلاث ، نهشتها الغيرة من جديد ، فوقفت كالجدار بين كفاتشي وابنة جارتها فاريا ، واستطاعت فعلاً ان تبعده عنها ، لكن ، وفي هذه المرة ، بدا من الصعب الاستمرار في المحافظة على الديك ،

إذ ازدادت تدريجياً كلفة المحافظة عليه وغدا مستحيلاً ، من جديد ، بالنسبة لصفيرى منافسة الدجاجات الأخريات..

ذات مرة حصل خلاف صغير بين صفيرى وكفاتشي . غضب هو وألمح متأخراً إلى أنه يرى من المعيب كسب المال بمثل هذا العرق وترك عشيقته تجرب هذه المرة قوة خاله الحادة .

لكن صفيرى ابتسمت بخبث وقالت :

ـ أنت على مايبدو غبي كبير . هل تعتقد انني اهديك مالاً . عندما تكبر وتعمل سترد لي الدين .. لاتكن طفلاً . . خذ ... فكر كفاتشي قليلاً ، ثم أجاب :

سأرد لك الدين مع فوائده ، إذا كنت موافقة .

ـ طبعاً ، طبعاً مع فوائده ، فأنا لاأقدم قرضة حسنة .

انتهى الحديث عند هذا الحد . من يعلم هل تذكر كفاتشي كفاتشانتيرادزه فيما بعد أن عليه ديناً في مدينة كوتايسي لأمرأة أسمها صفيرى شوليا تسكن في شارع بلاخفان . وهل صحيح ان صفيرى لم تحسب ماانفقته على كفاتشيكا ولم تسجل الدين في دفتر .

كثيراً ماألمح كفاتشي لزملائه وأقرانه بأن لديه في سوق النساء زبونات كثيرات ، لكنه تجنب الحديث عن السعر ، انما كان يقول احياناً :

ـ لاينفق مالاً على النساء سوى المجانين والمشوهين .

أو :

ـ لايعدو خاف الفتيات المتعلمات الشابات سوى الأغبياء والشعراء . العالم مليء بالنساء الخبيرات المجربات ، والخطر هنا أقل . حريتك بين

يديك ، لا تضيعْ وقتاً كثيراً ولا تضطر لإنفاق مال ، بل على العكس اذ يمكن احياناً .

وفي احدى المرات ، وبعد ان شرب ثلاث زجاجات نبيذ ، خاطب زملاءه في صيغة وعظية قائلاً :

ـــ اعقلوا ، افهموا الحياة جيداً . أعجب كيف يمكن لامرأة أو فتاة ان تسلب عقل شاب وتأسر قلبه وتفقده حريته.في ايامنا هذه أضحى ،حتى الطفل ابن العاشرة،يدرك ان المرأة خلقت للمتعة الآنية . خذ منها ماينبغي ان تأخذ ، وإذا شئت قل لها شكراً وتابع طريقك . إذا كانت مساواة فلتكن في كل شيء . لماذا يجب عليّ ان أحمل على كتفي عشرين أو أربعين سنة واحدةً من بنات حواء أياً كانت . كلانا حصل على لذة ، مضى في طريقه وانتهى كل شيء . زد على ذلك ان الحياة كفاح . ماتحصل عليه يصبح ملكك ، ومالم تطله يدك خسرته . لدى بعض النساء ، إضافة لما تملكه كل امرأة ، شيء ما آخر . والرجل الذكي هو الذي يحلب المرأة حتى النهاية.ويركب على كتفيها . اني أفضلّ ان يحملني الآخرون بدلاً من ان احملهم هذا هو حال الدنيا ، ومن كانت له عينان فلير ، ومن كانت له اذنان فليسمع ، ومن كان له عقل فليعقل . . .

على هذا النحو كان يفكر (كفاتشوني) ابن الثامنة عشرة .

كيف اجتاز كفاتشي الامتحان

تعرّف كفاتشي تدريجياً على كوتايسي بكل مافيها . وعرفته المدينة بدورها شاباً جميلاً ،مرحاً ذكياً،موهوباً ومتميزاً بالشطارة واللباقة ،

وتوقع له كل من رآه مستقبلاً باهراً . فتحت له أسر المدينة أبوابها ، صار له اصدقاء واحباء كثيرون واكتشف اقارب له جدداً . تبع في البداية خطى زملائه وأقرانه . وسرعان ماغدا يتجول في شوارع (غوتشيوري) ساغوريا . شوما وفي مقبرة (سابشيخيا) كما في حديقة منزله في سماتريديا على طريق خوني .

تعرّف كفاتشي ، فيما بعد ، على حانات الشراب وغدا من روادها المعروفين . دخل في البداية إلى الحانات المتواضعة ، التي كانت بعيدة عن مراقبة مشرف المدرسة ورجال الشرطة ، لكن سرعان ماأنضم إلى الجماعات الأكبر سناً التي ارتادت عادة الحانات المعروفة في مركز المدينة .

عندما بلغ كفاتشي الثامنة عشرة ارتقى درجة أخرى جديدة في السلم :

ضمّه اللاهون ، من ابناء الامراء والنبلاء ، إلى وسطهم ، واجروا له الاختبار الأول في حانة « الكرم الجديد » . اجتاز الامتحان بامتياز ولم يقصّر في شرب أو رقص أو غناء . انتقلت الجماعة ، بعد ذلك ، إلى حانة (لايتادزه) على طريق خوني . وهنا صبّ له زعيم وصاحب الحانة ابريقاً من الخمر على رأسه وسقوه ثلاث زجاجات في قرن تيس ، وكان ذلك بمثابة تعميد له . استمروا في السكر والعربدة هنا حتى الصباح . شربوا خمس (تشابات) من النبيذ ، أكلوا أكواماً من الطعام ، كسروا عديداً من الصحون والأواني وثقبوا السماء بالعيارات النارية .

في الصباح كانت حصيلة كل ذلك سبعة سكارى فاقدي الوعي ،

نقلوا مع زملائهم الآخرين في خمس عشرة مركبة إلى المدينة . في مساء اليوم التالي تابعوا العربدة على شرف تعميد كفاتشي في حانتي « الأسد » و « برجومي » أولاً ، ثم لدى (يرمو) البدين،الذي انعقدت بينه وبين كفاتشي في تلك الليلة ، أواصر صداقة متينة .

بينما كانت العربدة على أشدها،دخل الحانة ضابط وموظف تصحبهما امرأتان . يبدو أن احدى المرأتين كانت تعرف كفاتشي،فتبادلت وإياه الابتسامات وبعض كلمات الود والمجـاملة . لاحظ الضابط ذلك وبدا عليه الاستياء والغضب . وقف الأمير (داديانى) مدافعاً عن كفاتشي ودخل مع الضابط في نقاش تطور إلى مشاحنة ، ثم عراك . في هذه الاثناء توارى كفاتشي عن الأنظار . استلت الخناجر والمسدسات ، علا الصراخ والصفير ودبت الفوضى والبلبلة . غدت الحانة وسمعة صاحبها في خطر ، لذا سارع يرمو إلى اتخاذ الاجراءات المناسبة دفاعاً عن شرفه وسمعة حانته . فانتزع السلاح من الضابط،بعد ان فقد الموظف اثنتين من اسنانه الأمامية . عاد كفاتشي بعد ان انتهى كل شيء . قال انه ذهب لقضاء حاجة خلف الشجيرات القريبة من المكان . وعد الجميع كفاتشي بعدم الوشاية،أو ذكر اسمه في حال وصول القضية إلى السلطات ، لانه طالب مدرسة ، وقد يناله أكبر الأذى جراء ذلك .

مع ذلك وصلت القضية إلى الجهات الرسمية وبدأت التحقيقات واستدعاء الشهود . لم يكن بالامكان اخفاء علاقة كفاتشي ، لابل وجدها اعداؤه فرصة للنيل منه وراجت اشاعات كثيرة . ثمة من قال أنه يدير لعبة قمار ربح من ورائها مالاً كثيراً واتهمه آخرون بتزوير وثائق وغير ذلك مما لايعجز الحساد عن تلفيقه .

غدا موقف كفاتشي حرجاً ومصيره في خطر . لكن أخطؤوا جميعاً، بدءاً من رئيس قسم البوليس، مروراً بالمحقق وانتهاء بمدير المدرسة . فلكفاتشي حماته وانصاره الغيورون ، اذ تطوع للدفاع عنه سيدات من عليّة القوم ذوات نفوذ واسع من جهة أولى، ورسميون مهمون عاملون في الحقل الاجتماعي، من جهة أخرى ، أما صفيرى فخرجت من جلدها وقدمّت له على الفور مبلغاً كبيراً من المال .

خرج كفاتشي في نهاية الأمر منتصراً طبعــاً . كيف ردّ لسيدات المجتمع جميلهن ، هذا مالانعرفه . أما مايتعلق بالرسميين فلدينا معلومتان بهذا الخصوص نرجو الاستماع إليهما .

كيف قامت الخطوة الأولى

في الآونة الأخيرة شهدت كوتايسي وضعاً متأزماً تحول تدريجياً إلى غليان شعبي عارم . قامت موجة احتجاج وتمرد ضد السلطات شملت شتى أوساط الشعب ، عقد رفاق كفاتشي الاجتماعات ، تناقشوا انتظموا في مجموعات واستعدوا للمواجهة . حاول كثيرون جذب كفاتشي إلى صف الثائرين ، لكنه تذكر جيداً كلمات سلبيسترو، الذي كان أوصاه في ذلك العام :

— كفاتشي يابني ! العالم جنّ وفقد الناس عقولهم ، يريدون القضاء على الامراء والنبلاء واسقاط القيصر والحكومة . يقولون انهم سينتزعون ملكية الأرض من الاقطاعيين ويساوون بين الأغنياء والفقراء ويبغون الاخاء والمساواة . كن عاقلاً يابني . . حافظ على شرف النبالة، الذي كلفني جهداً وعذاباً حتى حصلت عليه . تذكر انهم لن

يقدروا على تنحية القيصر واسقاط الحكومة . نصفهم سيتلاشى في السجن والنصف الآخر في سيبيريا . اذا كان لديك عقل والديك فاحلف يميناً بألا تتدخل في شيء من ذلك وألا تلوث شرف اسرتك النبيلة .

أقسم كفاتشي اليمين وبرّ بقسمه . لكن الوضع هو الذي يحدد الوعي . فمن أين له أن يعرف حالياً من سيكون المنتصر في النهاية . أبصر بوضوح وجلاء كيف يتغير ميزان القوى في كل يوم . فالحكومة وادارة المدرسة تبديان تراجعاً وضعفاً أمام تصاعد كفاح الشعب . لكنه،مع ذلك،تردد في اتخاذ موقف حاسم، فوضع رجلاً هنا وأخرى هناك ، وبقي يراقب تطور الأحداث .

من يدري على أي نحو تنتهي هذه الانتفاضة . من جهة أخرى لم يعد من الحكمة التمهل والانتظار . اتخذ كفاتشي الخطوات المناسبة . شارك عدة مرات في الاجتماعات السرية وأطلق لموهبة الخطابة عنده العنان . في هذا المجال تجلت لديه قدرات واضحة،إذ ألهب مشاعر مستمعيه في هذه اللقاءات بالخطب الحماسية .

في غضون أسبوع غدا كفاتشي على كل شفة ولسان في كوتايسي ، لكن هذه الضجة لم تعجبه كثيراً،فقرر الابتعاد عن الأضواء قليلاً وخفض صوته، فالأمر جدي والخطر قائم لذا تراجع خطوتين . بعد حين استعاد توازنه،فوقف حتى نصفه السفلي في معسكر ونصفه الآخر في المعسكر الثاني .

دخول كفاتشي حلبة السياسة اعطاه فائدة،أو بالأحرى هبة لم يكن يتوقعها . فسأله ذات مرة المدعو (كوليا أرافادزه) المحترم والمشهور كفاية مايلي :

ـ هل أنت على معرفة وصلة بأسرة (كرابولو) ؟

ـ على معرفة وصلة جيدتين .

ـ اعتقد أنك وابنه (كبريان) صديقان ، أليس كذلك ؟

ـ تماماً .

بعد هذه الواقعة التقى كفاتشي وأرافادزه عدة مرات وتحدثا همساً وفي قضايا سرية هامة . منذ ذلك الحين شرع كفاتشي يكثر زياراته إلى أسرة كرابولو . كرابولو نفسه كان يوناني الأصل يعمل في استخراج وتصنيع خامات المنغنيز . كان يقضي معظم وقته في (تشياتورا) ، لكن اسرته عاشت في كوتايسي ،حيث يدرس أطفاله في المدرسة الثانوية . كبريان وكفاتشي كانا في صف واحد ، ومن هنا بدأت صداقتهما .

كان كفاتشي وكبريان كثيراً مايذهبان للتنزه معاً ، إلى المسرح ، إلى ساغوريا وإلى أماكن أخرى . حاول كفاتشي في الفترة الأخيرة جذب كبريان إلى طاولة القمار ، إلى حانات الشراب ، إلى بيوت المومسات ، لكنه لم ينجح في شيء من ذلك ، لأن الأخير كان ابن ابيه حيسوباً جباناً .

ذات مساء تناول أرفادزه وكفاتشي العشاء معاً . اثناء العشاء تحدثا وتحدثا طويلاً بصوت خفيض،وأنهيا حديثهما على النحو التالي :

ـ اتفقنا نهائياً ؟ ـ سأل كفاتشي

ـ اتفقنا . خمس المبلغ لك .

حسناً ! علماً أن نصيبي كان يجب أن يكون أكثر .

لكن مادامت القضية تتعلق بالمصلحة العامة ، بالقضية الوطنية، فلا بأس ، وأنا موافق .

– هل فهمت الخطة جيداً ؟

– كن مطمئناً . في تمام الساعة العاشرة سأكون هناك . كل شيء على مايرام .

– إلى اللقاء إذن !

– مع السلامة !

اليوم التالي كان يوم أحد . عشية ذلك اليوم اتفق كفاتشي ، كبريان ، سونيا خفيشيا وماروسيا شاليدزه على القيام برحلة يوم الأحد إلى غابة ساغوريا، على أن يلتقوا جميعاً في الساعة العاشرة، ويذهبا بعربة إلى هناك . كان كبريان مولهاً بحب سونيا ، لذا انتظر بزوغ الفجر بفارغ الصبر .

جرى ترتيب الأمور على نحو ماسلف . لكن في اليوم التالي قال كفاتشي لكبريان :

– البارحة مساءً أنضم إلينا آخرون ، غادروا جميعاً قبلنا ، الآن سأذهب وإياك ، وهناك سنلتقي جميعاً ، هيا نذهب ! .

جلسا في العربة على طريق الغابة المذكورة . نزلوا عند حانة بريمو ومن هناك سارا مشياً على الأقدام . قال كفاتشي لصديقه :

– تعال من هنا . . سنلتقي هناك مع الجميع . . . إلى اليمين . . . إلى الشمال . . . هاقد وصلنا . . . عشر خطوات ونصل إلى المكان المحدد ! ! !

فجأة واجههما في عمق الغابة أربعة مجهولين ، احاطوا بهما وأشهر كل منهم سلاحه .

ـ مكانكما ! إخرسا ! لاتحركا أيديكما ! إلى الأمام !

قفز كفاتشي راكضاً . ركض خلفه أحدهم،وسرعان ماامسكه من نقرته . بدأ عراك بينهما . تخلص كفاتشي من بين يديه واختفى خلف أجمة كثيفة . لحق به ، عندما ابتعدا عن الأعين راحا يضحكان ويتهامسان :

ـ كفى ! وإلا مزقت ثيابي كلها .

ـ لابأس ، دعنا نركض إثر بعض أيضاً .

ـ أخيراً أضاع كل منهما الآخر .

تاه كفاتشي في الغابة . قضى قرابة ساعتين قبل أن يعود إلى حانة بريمو ممزق الثياب بدون قبعة . في تلك الأثناء تماماً وصل المكان أيضاً سونيا ، ماروسيا والآخرون . تهامسوا لبعض الوقت واتضح ان كفاتشي لم يعرف مكان اللقاء،فقاد كبريان في طريق آخر . دب الهلع والفوضى فجأة وسار كل في اتجاه بحثاً عن كبريان .

مرت عدة أيام . قامت مناحة في منزل كرابولو وعاش جميع أفراد الأسرة أياماً في قلق وحزن وخوف . ضرب كفاتشي رأسه بيديه، لطم خدّه ، ضمّد « جرحه » ولم يفارق أسرة كرابولو طوال الوقت .

أخيراً وصلت العجوز كرابولو برقية من كلمتين :

ـ عشرون ألفاً !

أجاب على البرقية بكلمتين أيضاً :

ـ خمسة الآف !

ـ خمسة عشر ألفاً .

ـ عشرة الآف .

ـ اتفقنا نهائياً .

لم يرُ كبريان كرابولو منذ ذلك الحين في شوارع كوتايسي . بعد شهر انتقلت مناجم كرابولو إلى يد (سرابولو) وغادر مع جميع أفراد أسرته على الباخرة المبحرة إلى استامبول .

بدّل كفاتشا نتيرادزه شقته ، استأجر عربة لشهر كامل ، اشترى دراعة وقفطاناً ، تباهى بسلاحه ، أفرح والديه وأزعج اعداءه .

هل صدق كفاتشي كفاتشا نتيرادزه،في يوم من الأيام،أنه أوكل له ولرفاقه في ذلك الصيف في غابة ساغوريا تنفيذ « مهمة وطنية » من يعلم ! لكن من المؤكد ان كفاتشي لم يرد أكثر من ذلك . كسب المال والمجد في آن معاً .

كيف انهى كفاتشي المدرسة الثانوية وأنقذ الأرملة

عندما توفر لكفاتشي المال قفز دفعة واحدة عشر درجات على سلم الحياة . راودت مخيلته أحلام وأحلام ، اتقد حماسة وحباً للحياة ، تكاثر اصدقاؤه وأقاربه . بدأ المرحلة الجديدة من حياته بأن جمع أشياءه في يوم نحس بالنسبة لصفيرى ، حملها تحت ابطه وانتقل للسكن في شقة في شارع تفليس لدى عجوز روسية تدعى (فولكوفا) .

ركضت صفيرى باكية خلف ديكها الذي طار من بين يديها . لكن كفاتشي بدا متماسك الشخصية متوازناً ، اذ قال لعشيقته الأولى بكل هدوء وثقة :

— اسمعيني ياعزيزتي ! لكل أمر بداية ونهاية ، لاتبكي ولا تولولي،وإلا عرف بودو واصبحنا علكة يمضغها الناس . بالنسبة لي لايهم ، فأنا شاب غر في عرف الناس ، فكري بأمرك وسمعتك ، أنت امرأة في الخامسة والثلاثين مجربة،ربة بيت . لن أنسى حتى الممات فضلك وحبك . سأرد لك الجميل عشراً . لاتصغي لنداء القلب،حكمي عقلك وكل شيء سيكون على أحسن حال . الغرفة لن تبقى فارغة بعدي . ألا تعرفين (بيسو شيكيا)؟ أليس شاباً جيداً ؟ غداً ينتقل إلى الغرفة واعتقد انك ستتفاهمين معه بسرعة . لاتقلقي ! بلغي سلامي لبودو ، وداعاً ياعزيزتي صفيرى !

تظاهر بالحزن ، ومسح دمعتين عن خده .

بكت صفيرى عشيقها بكل جوارحها . لكنها عملت أخيراً بنصائح كفاتشي وفكرت على نحو عملي . بعد يومين « اقرضت » بيسوشيكيا ثلاث روبلات وقالت له :

— ترد لي الدين عندما يتوفر لديك . . . مع الفائدة طبعاً . . . اشتر ياعزيزي « بيسيك » ماأنت بحاجة له ، لاتخجل مني . . طبعاً ليس لدي الكثر ، لكن أستطيع دوماً بشكل ما تدبير ماتحتاجه .

لم يكن بيسو بحاجة إلى كل هذه الوصايا،لأنه كان أقل حياء من كفاتشي وعرف من اين تؤكل الكتف .

وهكذا وجدت صفيرى شوليا بأسرع مايمكن العزاء والسلوى .

استأجر كفاتشي غرفة رائعة — واسعة مضيئة ومفروشة بشكل لابأس به . سرعان ماأعجب كفاتشي العجوز فولكوفا البسيطة الصريحة . لقد كانت في واقع الأمر عجوزاً متهدمة جاهلة شبه صماء مع بصر شحيح أيضاً وعاشت مع كفاتشي كأم مع ابنها .

أطل شهر أيار . عما قريب سيقدم كفاتشي وزملاؤه امتحان الشهادة. كان هذا العام لا كالأعوام الماضية،إذ ضاق المعلمون ذرعاً بالتلاميذ وتجاوزاتهم ، وبلغ الأمر حد التهديد والوعيد . لذا كان كل همّ المعلمين وإدارات المدارس الخلاص والسلامة وحسب . وحده معلم مادة اللغة اليونانية — ساريدس تمسك بالنظام . اراد تمثيل دوره كاملاً كمعلم اثناء الامتحان ؛ فلم يأبه للتغيرات الحاصلة في البلاد ، بميزان القوى الجديد وباللجان المتشكلة حديثاً . فكر التلاميذ ملياً ، ثم كلفوا كفاتشي باتخاذ القرار المناسب . قال لهم :

— امهلوني ثلاثة أيام .

في صباح اليوم الثالث تلقى ساريدس رسالة كان مرسوماً في زاويتها جمجمة ، نعش ، خنجر ومسدس ، كما جاء فيها مايلي :

« حذار من رسوب أي من طلاب الصف . إذا كنت موافقاً على ذلك تعال في الساعة الثالثة من مساء هذا اليوم إلى البولفار . إذا قررت عدم المجيء اجمع امتعتك واستعد للرحيل عن كوتايسي خلال ثلاثة أيام ، أو هيء نعشاً لك من الآن .

رئيس لجنة الاشتراكيين — الفوضويين — السنديكاليستيين » .

بقي كفاتشي قرابة ساعة يزرع البولفار جيئة وذهاباً ، لكن ساريدس لم يأت . من جهة أخرى قدم شيكيا ، شيبونتيرادزه وشيكي ديلادزه .

— كيف الحال ؟

— ضربناه حتى كدنا نجهز عليه . رأيناه متجهاً إلى قسم البوليس للشكوى ، بقينا نرفسه إلى أن صرخ : ان يرسب أحد . . . موافق ».

برّ ساريدس بوعده ، نجح الجميع في الامتحان .

هكذا أنهى كفاتشا نتيرادزه المدرسة الثانوية ، وحصل مع زملائه الآخرين على الشهادة .

في عطلة عيد الفصح ذهب كفاتشي إلى سماتريديا . هنا كان حديث الجميع . سرت به أمه ، أبوه وأقاربه ، قهر حساده واعداءه ، بعد ذلك عاد إلى كوتايسي محملاً بتوصيات وتعليمات سلبيسترو :

— كفاتشي يابني ،العالم كما ترى في فوضى . صار أعداؤنا كثراً . أنا اصبحت عجوزاً ، لكني على استعداد لبيع كل شيء في سبيل ان تكمل تحصيلك العلمي . في أيامنا هذه الانسان بدون دبلوم لاوزن له . أمنّت لك وثيقة النبالة وجعلتك تنهي المدرسة الثانوية . سأعطيك قدراً من المال ، وعليك أنت أيضاً مساعدة نفسك .

تشوليا مثلاً تخرج من الجامعة في روسيا دون أن يتلقى قرشاً من والديه . ماذا تقول يابني ؟ مارأيك ؟

سحب كفاتشي من جيبه ورقة نقدية — مئة روبل ودسها في جيب والده وغادر. ذلك كان جوابه . دهش سلبيسترو وأسرته وغمرتهم نشوة الفرح . كفاتشي ،ابن التاسعة عشرة،قصد روسيا للدراسة على نفقته الخاصة وساعد والديه ، ياله من نجل نجيب !

منذ ذلك الحين بدا كفاتشي أكثر ثقة بنفسه،مشى في الطريق رافعاً رأسه مشرعاً أنفه كالكلب يتشمم الروائح حوله، عاش في ود وإلفة مع الأرملة فولكوفا،لعب معها بالورق ، وجعل نفسه الخاسر أحياناً ، ساعدها في تأمين بعض حاجاتها . قبض لهـا راتبها التقاعدي ، سامرها وقرأ لها أخبار الصحف في الأمسيات ، حماها ودافع عنها من أذى الفوضويين وقطاع الطرق ، الذين كثروا في تلك الآونة .

ذات مرة تلقت هذه العجوز رسالة رسم في إحدى زواياها نعش وجمجمة وخنجر ومسدس وجاء فيها مايلي :

« هيئي لنا في غضون ثلاثة أيام ثلاثة آلاف روبل.في حال الرفض جهزي لنفسك نعشاً — رئيس لجنة الاشتراكيين — الفوضويين — السنديكاليين » .

هُرعت العجوز كالمجنونة إلى كفاتشي تطلب النصح والمساعدة ، ومن لها،وهي عجوز وحيدة غريبة من (طامبوف) ، غير كفاتشي ؟ فكر كفاتشي ملياً ، أطرق برأسه وبدا قلقاً وحزينا ، أخيراً قال :

— أتكلم معك كأم ، لاتنطقي بكلمة لأحد من الناس حول هذا الأمر،وإلا لن يساعدنا المسيح — الرب . انهم بشر قساة متوحشون لايرحمون لا النساء ولا العجائز . خلال اسبوع واحد قتلوا امرأة وخنقوا عجوزاً ورموا ثالثة في النهر . رجال البوليس أنفسهم مذعورون . يقتلون النـــاس ، كما ترين كالعصافير . أول أمس قتلوا على مرأى من الناس وفي وضح النهار رجل بوليس .

كان بعض كلام كفاتشي صحيحاً ، لكنه ضخّم الوقائع وزاد عليها . وكانت الأرملة العجوز قد سمعت بمثل هذه الأخبار وعرفت

مثل غيرها ان البلاد في حالة فوضى ، لذا طلبت من كفاتشي هامسة متلعثمة المساعدة والوساطة،وأقسمت على الأنجيل أمام الايقونة انها ستحمل هذا السر معها إلى القبر .

في البداية رفض كفاتشي بقوة التوسط في الأمر فهو نفسه — كما قال — يخشى خطر هؤلاء الاشتراكيين — الفوضويين — السنديكاليين الذين لايرحمون أحداً ويقتلون الناس كالعصافير، لكنه لان أخيراً لأنه « أحب الأرملة الفقيرة فولكوفا كأمه » .

عكف كفاتشي ،منذ ذلك اليوم،على معالجة هذه « القضية الفائقة الخطورة » .

أخيراً عثر على الأثر،فجاء في حالة ذعر يخبر الأرملة العجوز :

— وقانا الله شر هؤلاء الناس ! ماذا فعلتْ ، ماذا أسأتُ لك حتى حشرتني في هذه المسالة ، ماذا تريدين مني ؟ جاء دوري،الآن يهددوني بالموت إذا لم أدفع لهم الفي روبل . قالوا سنقتلك مع الأرملة العجوز والمهلة تنتهي مساء غد .

ياإلهي بك استعنت وعليك توكلت !!

تسمرت العجوز في مكانها باهتة للحظات.ثم ارتمت على كفاتشي متوسلة :

— أرجوك أن تخلصني من هذا الشر . . . أرجوك !

في ذلك المساء تحدث كفاتشي والعجوز طويلاً . أخيراً قررا أنه يمكن حل هذه المسألة بألف وخمسمائة روبل . لدى العجوز الآن خمسمائة،أما الألف الباقية فسيقترضها كفاتشي مقابل رهن البيت .

وعد كفاتشي بتسوية الأمر . من جهة أخرى قال إنه سيهرب إلى سماتريديا إذا لم يستطع استدانة المبلغ .

في صباح اليوم التالي ذهب كفاتشي مع عجوزه إلى موثق العقود ، وضع الكمبيالية وعقد الملكية في جيبه وأسرع إلى المحطة ، انتظرت العجوز كفاتشي نهار ذلك اليوم على أحر من الجمر . في المساء عاد وبشائر الفرح بادية على وجهه . فرحت العجوز أيضاً كما لو أنها ربحت ، من خلال ذلك ، مبلغاً جديداً من المال اضافته إلى مدخراتها . أخذ كفاتشي من العجوز خمسمئة روبل وأسرع إلى لجنة الاشتراكيين — الفوضويين — السنديكاليين .

في تلك الليلة أنقذ كفاتشي الأرملة العجوز فولكوفا من موت محتم ، وخلص الفوضويين السينديكاليين .

وصل في الوقت المناسب وأتفق معهم ، بعد أخذ ورد ، على ألف وخمسمائة روبل .

اعطاهم النقود ، انتهت القضية وحلّ الفرح بعد الشدة .

لو أنه لم يصل إلى المكان المحدد في الموعد المحدد لحلّت المصيبة . كان ثلاثة رجال مقنعين على أهبة الاستعداد لتنفيذ تهديدهم .

بكت الأرملة العجوز فرحاً وحمدت ربها ثلاثاً .

في اليوم التالي صلّتْ أمام الايقونة طويلاً . . . علقت في عنق كفاتشي صليباً من ذهب ووضعت في جيبه للذكرى علبة فضية تركها زوجها المرحوم وقالت :

— يابني ! إذا كنت في عسر صلِّ على هذا الصليب . لن ينساك

الرب وسيساعدك في كل أمر . وأنا لن أنساك يابني واسأل الله أن يعينني على رد معروفك وجميلك . . .

ضمت الأرملة العجوز كفاتشي ، وعانقته ، قبلّته وبكت .

وفي هذه المرة انقذ فارس سماتريديا أرملةً عجوزاً من موت محتم .

كيف تعلم كفاتشي الموسيقا

في تلك الفترة استهوت كفاتشي الموسيقا . لم يكن يفقه في هذا الفن شيئاً ، ولم تكن لديه اذن موسيقية على الإطلاق . أحب البيانو بعض الشيء فقط من بين كل الآلات الموسيقية ، وفكر ذات مرة بشرائه ، لكن بدا له غالي الثمن فقرر استئجاره لفترة محدودة . كان (ميزلسون) - أحد معارفه يستعد للسفر خلال فصل الصيف إلى (برجومي) لذا قال له :

– أنت مسافر إلى برجومي كما سمعت . أليس كذلك ؟ ولن تعود حتى الخريف ؟

خلال هذا الوقت سأبقى أنا في كوتايسي ، ولعله من المناسب أن أخبرك ان الموسيقا هي مرضي الآن . لقد استهوتني في الآونة الأخيرة حتى شغلتني عن كل شيء تقريباً . أريد تعلم العزف على البيانو ، لذا أرجوك ان تؤجرني جهازك خلال فترة غيابك، وأكون لك من الشاكرين .

كان ميزلسون من الناس الذين يحبون المال والمنفعة أكثر من أي شيء آخر في الحياة ، لذا فكر قليلاً ثم قال بينه وبين نفسه « خلال

ثلاثة أشهر أحصل على ثلاثين روبلاً استوفي بذلك مصروف الطريق »
اتفقا في الحال . وفي المساء ذاته نقل كفاتشي البيانو إلى شقة فولكوفا .

شارف فصل الصيف على الانتهاء واقترب موعد عودة ميزلسون إلى كوتايسي . حاص كفاتشي وبدا اثناءها في عجلة من أمره. تهامس بهذا الخصوص وبيسو شيكيا الذي واظب معظم الوقت في اليوم التالي حول محل بيع الالآت الموسيقية . أخيراً دخل المحل وسأل أحد الزبائن :

— عفواً ! هل ترغب بشراء بيانو ؟ جاهز للبيع فوراً . بيانو رائع ، انتاج شركة بيكر ، جديد تماماً والمكان قريب من هنا .

— ومن يكون صاحبه ؟

— البيانو لصديقي الأمير سفريان دادباني ، هنا في شارع تفليس في شقة فولكوفا .

آخيراً التقى كفاتشي بالمدعو هارتيونوف الذي تفحص البيانو جيداً ثم سأل :

— كم سعره ؟

— سبعمائة روبل .

— اربعمائة .

— ستمائة .

— خمسمائة .

— لك فقط بهذا السعر موافق . هل تأخذه فوراً

— يجب ان أرسله اليوم إلى (بوتي)

قطّب كفاتشي جبينه وفكر لثوان . اللعبة تترتب عفوياً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ يمكنني ان أرسله لك إذا رغبت .

ـ إذا فعلت هذا المعروف ســأكون لك من الشاكرين،إذ ستوفر علي يوماً . ماذا تقولين ياسيرانوش ؟ سأل هارتيونوف زوجته .

ـ وهل ثمة أفضل من ذلك !

ـ اذن غلّف البيانو الآن وأحزمه ، أرسله إلى المحطة وسلّمه على العنوان . تعالي إليّ بعد ذلك مساء إلى فندق « فرنسا » مع إيصال الشحن واستلم باقي المبلغ . خذ الآن مائتي روبل سلفة على الحساب . يكفي ؟ .

ـ سأعطيك الآن طبعاً ايصالاً بالمائتي روبل ، لكن لي رجاء واحد هو ألاتقول لأحد شيئاً حول هذا الموضوع ، ألاّ تذكر أسمي والبيانو أمام أحد . . . فهذا أمر محرج بالنسبة لي لأن . . .

ـ لابأس . . . أفهمك .. . انتم معشر الجورجيين شعب معتدّون بأنفسكم .

ـ تماماً . فمن العيب عندنا مثلاً بيع مثل هذه الآلة الموسيقية وبوجه خاص بالنسبة للأمير داذياني .

غادر هارتيونوف وزوجته . في المساء أسرع كفاتشي إلى المحطة وعاد إلى فندق « فرنسا » حيث يحل هارتيونوف .

كل شيء جاهز وعلى مايرام . حزمت البيانو وأرسلته إلى العنوان . إليك إيصال الشحن .

تناول هارتيونوف الايصال وقرأ : الجهة المرسلة : كوتايسي . إلى أين : إلى بوتي . المادة المرسلة : بيانو . الوزن : خمسون رطلاً . المرسل : الأمير داذياني . المرسل له : هارتيونوف .

— كم بلغت نفقات الشحن ؟

— واحداً وأربعين روبلاً وخمسة وثلاثين كوبيكا . وهذا إيصال بذلك .

— مجموع المبلغ اذن ٥٥٩ روبلاً وكوبيكين . أليس كذلك ؟

— بالضبط . .

— استلمت مائتي روبل سلفة على الحساب وبقي لك بذمتي ٣٣٩ روبلاً وكوبيكان .

— تماماً الحساب صاف . وداعاً !

— لم العجلة ؟ تفضل وأشرب الشاي معنا .

— اشكركم جداً ، عندي موعد . . . الناس بانتظاري . . .

— إذا صدف وجئت إلى بوتي عرّج علينا ، بيتنا مقابل حديقة المدينة .

— طبعاً وسيكون لي الشرف . فرصة سعيدة إلى اللقاء !

في اليوم التالي التقى بيسو شيكيا بالمدعو (سوروكين) .

— عفواً انتم تبحثون عن بيانو . . . أليس كذلك ؟ جاهز للبيع ، رائع وجديد ماركة « بيكر » . المكان غير بعيد . . . تعالوا معي .

ماركة « بيكر » المكان غير بعيد . . . تعالوا معي .

شاهد الرجل البيانو ، وجرى الاتفاق بشأن الشراء .

— اعتقد انك غريب .

— فعلاً . أنا من (شياتورا) ويجب ان أشحن البيانو إلى هناك :

— نحن مستعدون لارساله لك على العنوان الذي تشاء إذا رغبت بذلك . . . .

اسرع كفاتشي ثانية إلى المحطة ،وأحضر إيصال شحن جديد إلى المهندس سوروكين نزيل فندق « اورينت » .

قبض كفاتشي ثمن البيانو واجرة الشحن مع نفقات التغليف .

— تصبحون على خير .

— وانتم بخير . مع السلامة .

انتظر بيسوشيكيا كفاتشي في الشارع .

— هل الموضوع جاهز ؟ غداً يجب ان نكون على اتم إستعداد يابيسو . . .

— تعال معي . . . صفقة جديدة . . .

— مع من ؟ انتبه ! احذر التجار المحليين واليهود وإلا . . .

— وهل تعتقدني غبياً إلى هذه الدرجة ؟ الراغب بالشراء موظف ، مفتش في مصلحة الضرائب سمه (هرتصوف) ، تزوج الرجل منذ شهر ، استأجر شقة أمس ويشتري الآن اثاثاً لها .قدم إلى كوتايسي منذ شهر مضى .

في صباح اليوم التالي اتى الموظف الشاب هرتصوف إلى شقة كفاتشي بصحبة ستة عمال نقلوا له البيانو إلى عش الزوجية ،وفي اليوم ذاته أقام كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وفيساريون (بيسو) شيكيا حفلة

تخرجهما من المدرسة الثانوية : لبسا ثياب طلاب جامعة ، فرحا ، وتزينا ، كبرا بأعين المحبين والأصدقاء والأقارب .

بمناسبة التخرج تجمهر في حانتي لايتادزه ويريمو لمدة يومين متواليين حشد كبير من الشباب والنساء ، سال الخمر انهاراً ، واستهلك المدعوون احتياطي الدجاج واللحوم والمازوات ، علاالضجيج والغناء والرقص والصراخ ، بحّ صوت المغني اليهودي دانيلا ، كلّت اصابع ايدي العازفين على الالآت الموسيقية ، لم تعد صويحبات او نديمات كفاتشي يقوين على الوقوف على أرجلهن من النعاس والتعب وارهق عشرون حوذي استأجرهم كفاتشي ليومين احصنتهم،التي بقيت تنقل المدعوين باستمرار بين البيوت والحانات .

في ختام العربدة وقف كفاتشي منتفخ العينين متثاقلاً تأتأه السكر :

ـ ماتقولون ؟ وعن أي حساب تتحدثون ؟ ارجو ألا يتجرأ أحد بالحديث عن المال . . . كل شيء على حسابي . غداً صباحاً في العاشرة تماماً ارجو من الجميع التفضل إلى منزلي مع قائمة الحساب . كلكم ضيوفي صباح غد : يريمو ، دانيلا ، الفنانون جميعاً والحوذيون . استعد يايريمو ! شيكيا يدعونا ليلة الأحد . استعد يادانيلا لاتخيب أملي بك . مرّن صوتك جيداً أيها الشباب ! تعالوا نشرب نخب يريمو .

على هذا النحو انتهت هذه العربدة الفريدة في تاريخ مدينة كوتايسي .

بعيد منتصف الليل تحركت عربة باتجاه خوني . كان على متنها شابان تدثر كلاهما بشكل جيد، بحيث لايتمكن أحد من رؤية وجهيهما ومعرفتهما . عبرت العربة كالاعصار الشارع المواجه لحانة لايتادزه ،

وبعد بضع دقائق غدت كوتايسي إلى الخلف . رفع الشابان رأسيهما ، تنفسا الصعداء وصاح أحدهما :

ـ وداعاً كوتايسي !

ـ وداعاً ، وداعاً ! من يعلم متى نراها ثانية !

في اليوم التالي ، ومنذ الساعة العاشرة ، لم تفعل الأرملة فوالكوفا شيئاً سوى ان تفتح الباب وتجيب السائلين

ـ سافر . . . سافر . . . سافر نهائياً . . . لن يعود .

ازدحمت أمام شقة فولكوفا العربات من كل نوع : أصحاب الحانات، الموسيقيون ، نساء شتى، والكل يسأل عن كفاتشي كفاتشا نتيرادزه .

وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ عاد ميزلسون من بورجومي ،

وفي الوقت ذاته ، جاء هارتيونوف من بوتي وسوروكين من شياتورا . كان الثلاثة قد تعبوا من البحث عن كفاتشي في كل زوايا كوتايسي ، والتقوا أخيراً في منزل هورتصوف . وياله من منظر . . . تحلق الجميع حول البيانو، وكل يعتبره ملكه . كاد النقاش والصراخ ان يتحول إلى شجار بين الرجال الأربعة . أخيراً سلموا بالأمر الواقع وجلس يحدّث كل منهم رفيقه بحكايته من البداية إلى النهاية . وحده ميزلسون بدا هادئاً مطمئناً . انتهت القضية بأن أشترى هورتصوف البيانو مرة ثانية من صاحبه الأصلي ميزلسون . عاد هارتيونوف إلى بوتي وسوروكين إلى شياتورا صفر اليدين يلعنان تلك الساعة التي تعرفا فيها على ذلك « الأمير » .

أقتنع الجميع بعدم جدوى البحث عن كفاتشي في هذه الظروف حيث البلاد سائبة بلا راع . من العبث ملاحقة كفاتشي التائه في أرجاء روسيا وانفاق المال سدى على المحامين .

كيف أشتروا البيت

في ذلك الحين تلقت الأرملة فولكوفا من المدعو خوخوشيشيا كتاباً عن طريق المحكمة . ماأن قرأته حتى أصفر وجهها وجحظت عيناها وهوت على الأرض فاقدة الوعي . ولحسن الحظ طرق بابها في ذلك الوقت بالذات ، جارها (لادي شيكنجيلادزه) الذي أسعفها وأعاد إليها وعيها : حركت رأسها في البداية ، أرخت ذراعيها ، حركت شفتيها وحاولت النطق . حاولت، بعد قليل، قراءة الكتاب مرة ثانية، فأغمي عليها من جديد . شخص مجهول بالنسبة لها اسمه خوخو كتب لها مايلي :

« في السابع من تموز من هذا العام اشتريت منزلك الكائن في مدينة كوتايسي، شارع تفليس وذلك من خلال كفاتشي كفاتشا نتيرادزه الذي يحمل وكالة عامة من قبلك موقعة حسب الأصول لدى الكاتب بالعدل في مدينة كوتايسي السيد (أنجابريدزه) . عدا ذلك كنت قد اقرضتك، في التاريخ المذكور اعلاه، مبلغ أربعة الآف روبل عداً ونقداً بموجب كمبيالة موقّعة من قبلك انتهت مدتها في الأول من شهر أيلول من العام الجاري . أرجو إخلاء المنزل خلال سبعة أيام من تاريخه . ذلك آني سأنتقل للسكن فيه وكذلك دفع الدين

المستحق لي بذمتك مع الفوائد المترتبة على المبلغ طبقاً للكمبيالة خلال ثلاثة أيام .

التوقيع

خوخو شيشيا

سماتريديا — طريق خوني —

منزل بوبي كفاتشا نتيرادزه

في مساء اليوم ذاته لجأت الأرملة فولكوفا إلى المحامي المشهور (تفيشيا) . نصحها بذلك المستأجر الساكن عندها شيكنجيلادزه . وماذا كان يمكن لعجوز في العقد السادس من العمر ان تعرف عن القوانين والمحامين . لقد سمعت أن ثمة في مكان ما قضاة صارمين ومحامين عن الضعفاء المساكين . من أين كان لهذه العجوز ان تعلم أنه في ذلك اليوم اجتمع على طعام الغداء في حانة شوليا على شارع بلاخفان كل من سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه ، خوخو شيشيا ، تفيتشيا ولادي شيكنجيلادزه الذي قادها حتى باب منزل المحامي المشهور تفيتشيا ؟ ومن أين كان لها أن تعرف أن تفيتشيا ذاته هو محامي سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه وخوخو شيشيا ، وأن الرسالة التي غيبتها عن الوعي صباح هذا اليوم انما كتبها وأرسلها لها تفيتشيا ذاته .

استقبل المحامي تفيتشيا الأرملة فولكوفا بتواضع جم مع ابتسامة ولطف وقد أسرتها تماماً معاملته المهذبة ، لباقته ضيافته السخية . عند ما قصت له الحكاية،من بدايتها إلى نهايتها،فكر قليلاً مصطنعاً الجد ثم قال بهدوء :

.. أشفقُ عليك كما لو كنت أمي ، لكن الشفقة وحدها لا تحل

الموضوع هنا . فأنت من جهة قدمتِ مساعدة مالية للفوضويين ، وإذا وصل هذا الأمر إلى الجهات المسؤولة إما أن تشنقي أو ترسلي إلى ماهو أبعد من سيبيريا . لاتقلقي ! هدئي من روعك . . . ! أنا أعلم أنك لم تعطي المال بمحض اختيارك ، لكن مع ذلك حصل هذا الأمر وتلقوا منك مالاً ومساعدة . بالتالي أحمدي ربك أنك وجدتني ولم تقعي على محام يوصل مثل هذه القضايا إلى الجهات الرسمية . . . انصحك كأم وكأنسانة طيبة، ألاّ تتكلمي شيئاً في أي مكان عن هذه الحكاية ، ان تعتبري ذلك سراً تأخذينه معك إلى القبر ، وإلا قد يكون مصيرك المقصلة أو الأشغال الشاقة . من جهة أخرى انت اعطيت كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وكاله رسمية عامة — أي اعطيته حق ببيع البيت . من جهة ثالثة اعطيتِ كمبيالة بقيمة أربعة آلاف روبل ، ماذا تقولين ألف فقط ؟ ولايوجد شهود ؟ أقلعي عن الحديث بهذا الموضوع . إذا رفعتِ دعوى بهذا الأمر تكونين كمن يجلب القط إلى خميرة ، السكوت هو أفضل الحلول بالنسبة لك .

أكثر المحامي من تخويفه للعجوز التي كاد أن يغمى عليها من جديد وختم كلامه قائلاً :

— نصيحتي الأخيرة لك هي التالية : أنا أعرف جيداً المدعو شيشيا . قد استطيع اقناعه ان يترك لك غرفة أو ركناً من البيت مع مايلزم من الأثاث . لك راتب تقاعدي صغير ويمكنك الحصول على دخل ما من خياطة أو خدمة أخرى، ولاتحتاج امرأة وحيدة لأكثر من ذلك . لذا أنصحك نصيحة الابن لأمه أن توافقي على ذلك وإلا قد تخرجين صفر اليدين من كل شيء . لاتزعلي مني وفكري بالأمر

جيداً ثم تعالي إلي . . . وأكرر ماقلته لك في بداية الحديث ، إياك أن تقصي هذه الحكاية لأحد ابداً وإلا . . . تصبحين على خير ! احلاماً هنيئة ! .

وقاد الأرملة العجوز حتى باب المنزل .

في الشارع ألتقت العجوز فولكوفا مصادفة بلادي شيكنجيلادزه الذي قادها إلى بيتها . وفي ذلك المساء واليوم التالي لم يبتعد عن جارته المريضة التي جاءت بعد صلوات طويلة وتفكير عميق وبكاء إلى المحامي تفيتشا ، وقالت له :

ــ أنا موافقة . لكن ساعدني كي يبقوا لي في البيت على كسرة خبز وركن اعيش فيه .

فعل تفيتشا ذلك بيسر وسرعة .

بعد أسبوع باع سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه « منزله » في سماتريديا على طريق خوني ، جمع اشياءه وانتقل للسكن في كوتايسي المدينة الجميلة النظيفة في داره الخاصة التي امتلكها كما قال « بجهده وعرقه » من أرملة عجوز اشفق عليها ، فاعطاها غرفـــة صغيرة تحت الدرج وبعض الأثاث الضروري لها .

قالت زوجة خوخو شيشيا جدة كفاتشي كفاتشا نتيرادزه السيدة نوتيو منذ الليلة الأولى التي قضتها في منزلها الخاص في شارع تفليس مذكّرة أهل بيتها ماكانت قد قالته يوم ولادة حفيدها :

ــ تذكروا الكلمات التي قلتها لكم ليلة ولادة كفاتشيكا . عندما زينت الشمس رأسها بهالة نورانية كان علامة على أنه ينتظر

كفاتشي مستقبل باهر ، وفي اليوم نفسه عندما ضربت الصاعقة شجرة السرو وهدم الاعصار حانة جونديا قلت أيضاً ان قلوب أعداء كفاتشي ستطق غيظاً ، وعندما عثر سلبيسترو على روبل فضي اشرت إلى أن كفاتشي سيصبح رجلاً ثرياً ، هذا ماقلته منذ تسعة عشر عاماً . ألم تتحقق نبوءتي ؟

تذكر الجميع توقعات نوتيو تلك ووافقوا على قولها .

اضافت بوبي والدة كفاتشي تقول :

ـ آه كم أحبك ياولدي كفاتشيكا ! جعلتني أسكن في كبري في كوتايسي .

ـ وفي بيت ملك لك أيضاً ـ أضاف خوخو جد كفاتشي ، ثم أستدار نحو سلبيسترو قائلاً : وماذا تتمنى أيضاً ؟ لم يعد ينقصك سوى رتبة عسكرية.وهل سيكون في جورجيا مارشال أفضل منك .

ـ كل شيء بيد الله . . . أنه على كل شيء قدير ـ أضافت بوبي . في تلك الليلة رأى سلبيسترو احلاماً كثيرة ، حلم بأنه أحد ضباط البلاط القيصري تزين صدره الأوسمة والميداليات والنجوم وعلى كتفيه رتب ذهبية . . .

في الليلة نفسها اشترى ابنه كفاتشي كفاتشا نتيرادزه بطاقة سفر إلى باطوم ومنها إلى روسيا .

كيف بحث كفاتشي عن محظية

وصل كفاتشي إلى محطة سامتريديا في الرابعة صباحاً . سار خلفه سيلبيسترو ، بوبي نوتيو وخوخو الذين انتقلوا للعيش في كوتايسي .

أدهش ظهور كفاتشي عمال المحطة ، فقد انتشرت اقاويل منذ عشر سنوات تفيد ان كفاتشي قد غادر للدراسة في مدرسة قازان الدينية .
بكت فتيات سامتريديا ونحن :

ــ أوى ياالمسكين ! من الاثم ان يدفن شاب جميل كهذا ! كفاتشي في الدير ؟

أوى كم هي شقية أمه بوبي ، فستلحق به وتصبح راهبة ! ثمة شيء ما وراء كل ذلك ! حين باع سلبيسترو بيته في سامتريديا تحولت الأقاويل إلى حقيقة أكيدة .

ألم أقل ان بوبي سترهب ؟ يقولون ان كفاتشي مسافر إلى كازاخستان لدراسة اللاهوت. يقولون ان بوبي لم تتحمل هذا وهي مسافرة لترهب في « بودبيا »، ولذا ستفترق عن زوجها . ولهذا ايضاً باع سيليبيسترو بيته ويبدو أنه مسافر ليعمل مشرفاً عـلى تسيير أمور النبلاء في كوتايسي .

هذه الأقاويل ، أو ماشابهها سرت في سامتريديا حول أسرة سيليبسترو التي وصلت الآن إلى المحطة،حيث جلسوا يشربون الشاي مع الليمون والبيّي فور منتظرين القطار . قال سيليبسترو لثلاثة من معارفه :

ــ آه ، لقد تقولوا باطلاً . ابني كفاتشي مسافر فعلاً إلى قازان ، لكننا لم نقرر بعد اجراء مراسم دخوله الدير ، فما زال كفاتشي طري العود وحين يختمر وينضج عندئذ نفكر بالأمر . . . أنا ؟ لقد مللت هذا المكان،سأرحل إلى كوتايسي نهائياً،يكفيني مانلته من احترام من قبلكم، والآن شرفونـا في كوتايسي . . . في البيت ؟ نعم ياعزيزي

المحترم . لقد اشتريت بيتاً صغيراً ، كلفتني غالياً الماريشالية ؟ آه أنا لاأفكر بهذا يرجونني لكن . . .

اقتحم قطار تفليس المحطة بضجة وفحيح . تحرك الجميع باهتمام ، نقلوا امتعة كفاتشي إلى العربة وبعدئذ صعدوا إلى القطار . داعبوا كفاتشي ، قبّلوه . بكوا وقدموا له مائة موعظة . أخيراً ضم سيليبسترو ولده وعزاءه الوحيد إلى صدره :

ـ هكذا يابني ياكفاتشيكو هكذا نفترق . انت الآن أكثر مني ثقافة وخبرة ومهارة ، لكن مع ذلك سأقول لك كلمتين . أنت مسافر ، يابني إلى بلاد واسعة . قد تثرى خلال يومين ، وقد تهلك وتضيع . لذا يجب أن تكون حذراً جداً من أي شخص تقابله في روسيا . هناك هناك أيضاً المحتالون الفاسدون أكثر من الشرفاء . تواجد دائماً ضمن مجموعات كبيرة من الناس . تجنّبْ مخالطة الرفاق القلقين ومختلف النصابين . ابتعد عن الخمرة والنساء والقمار وإلا سيمزحون معك مزحة غير مرضية ، لاتنس اهلك وأكتب لنا عن كل شيء . حسناً يابني ، انا اعتمد عليك . . . كن حذراً .

بكى الجميع مرة أخرى . أقلع القطار واختفى في الظلمة . اغفى كفاتشي .

أفاق بالقرب من كوبوليت . وكان الصباح قد عمّ . من الجهة اليمنى كان البحر الأسود يمتد بلا حدود يلمع أزرق صافياً كالمرآة . كان القطار يعدو تارة على الشاطىء مباشرة ، وتارة أخرى يبتعد قليلاً نحو اليسار ، وكان البحر يدمدم بصوت أجش يئن كحوت اسطوري يفح ويضج ويمتد بجانب القطار . تارة من جانب وتارة أخرى من

الجانب الآخر ، صفان من شجر السرخس الأخضر ، ومن الجهة اليسرى كانت تطير مستلقية على ظهرها الكتل الصخرية المغطاة بأشجار اللبلاب والجبال المكسوة بالغابات وبيوت الاصطياف الجميلة ومزارع البطيخ والحدائق ، كجنات عدن التي تضم نباتات غريبة لم يرها كفاتشي سابقاً . . . .

كان أحد الطلاب القدامى يحدث اثنين من المسافرين :

– تلك الشجرة الضخمة المائلة للبياض تدعى « افكاليبتوس » يتجنبها البعوض كثيراً إذ لايطيق رائحتها ، وهذه الشجيرات التي تشهي بعناقيد من الزهر – وردي اللون تدعى « ديكا » وباللغات الأوروبية » رودوندرون (١) ، وتلك الشجرات العالية الكثيفة هي الخيزرات الصيني الياباني . انها مادة نافعة جداً ، منها يصنع الأثاث والبيوت الريفية وآلاف الحاجات الأخرى ، وهذه شجرة التنوب المحلية . . وتلك صنوبرة ايطالية . . وهذه شجرة الشوح . . وهذه تدعى « بيوتا » – شجرة جميلة زاهية،أليس كذلك ؟ وهذه شجرة سرو طبعاً تعرفونها وتعرفون أيضاً هذه شجرة الدلب . هذه حورة . . وتلك أم العفزة السوداء ويدعونها « اضاليا » . . وهذه بيارات ليمون وبرتقال وهذه مزارع كبيرة للشاي . . وتلك هي « تسيخيسدزيري » القلعة التي ضحى من أجلها الروس والجورجيون بالأكداس من المقاتلين عام ١٨٧١،لكن الأتراك لم يتخلوا عنها . هي ذي تشاكفا حيث تقع أشهر حديقة للنبات وهي تحتل المركز الثاني في العالم . . المركز الأول ؟ تحتله حديقة ملبورن في استراليا .

(١) : رودوندرون : الدفلة .

وهاقد وصلنا إلى « ماخنجاوري » وهذه هي الطابيّات (١) . هناك في ذروة الجبال « طابية أرغي » وبعد « طابية حميدية » والقريبة من هنا « طابية ميغرلسكي » وعلى اليمين على الشاطىء — « طابية بارتسخان » .

اجتاز القطار « بارتسخان » مسرعاً صاخباً . دارت رأس كفاتشي وهو يستمع إلى ذلك الطالب . اتضح ان ثمة آلاف الأشياء الموجودة في وطنه بالقرب من سامتريديا وكوتايسي التي لم يرها كفاتشي ولم يعرفها .

تجمع المسافرون حول نوافذ العربات ، يتأملون مناظر لامثيل لها ، يتلفتون يميناً وشمالاً ، مبدين اعجابهم وابتهاجهم بأصوات عالية .

وأعجب كفاتشي أيضاً بتلك الجنائن والبيوت الصيفية ، لكنه لم يستطع أن يفهم أو يشعر تلك الفرحة الطاغية والبهجة الطفولية التي أبداها بعض المسافرين الذين سحرتهم الطبيعة والبحر اللامحدود الهائج ، الهائل .

وفي الأعماق كان البحر يبدو جميلاً ، لكن كفاتشي كان يستشف فيه الغدر والتقلّب وينضح أمام عينيه بالخوف والرعب والارتياب .

اجتاز القطار « بارتسخان » مسرعاً ثم خفف جريه ودخل محطة باطوم بهدوء .

---

(١) : مفردها طابية : شكل من أشكال التحصينات الحربية كانت تحاط عادة بخندق ومتراس ترابي . استخدمت منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين؟ المترجم . . .

غادر كفاتشي إلى رصيف المحطة ، تمشى قليلاً فالتقى عشرات من الطلبة الكوتايسيين ، وكان ثمة الكثير من أهالي تفليس . تعارفوا ، سأل كل منهم عن أحوال الآخر وقرروا التنزه ومشاهدة المدينة . أودعوا حاجاتهم في مستودع المحطة وانطلقوا إلى البلد . كانت السفينة ستغادر في منتصف الليل . رافق كفاتشي عدد من اصحابه . تجولوا في الشوارع والحديقة العامة ، تنزهوا طويلاً على شاطىء البحر ؛ شاهدوا طابية « بورونتابي » « ميوغيت » « عزيزية » . وأخيراً وصلوا المرفأ الذي كان يغص بالناس والسفن الشراعية والبخارية . كانت تجثم هناك أيضاً سفينة « بوشكين » الجميلة الطويلة الباسقة . كان المسافرون قد اعتلوا السفينة يتنزهون على سطحها . حملوا السفينة ، اطلقت دخانها وتهيأت للانطلاق .

أبدى البعض دهشتهم لنظافة المدينـــة ولجمال الحديقة المتنزه ولتنوع النباتات واتساع البحر وضخامة البواخر والسفن . اما كفاتشي فظل هادئاً ، تطلع إلى كل شيء بلا اهتمام كأنه لايرى جديداً أو مجهولاً بالنسبة إليه .

قطع كفاتشي في المساء تذكرة من الدرجة الثانية وصعد إلى السفينة .

كان مساء دافئاً . الشاطىء مضاء بخيط من المصابيح الكهربائية يتلألأ بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء والبيضاء . كان البحر الأسود كالقطران ، يلمع عاكساً دفقة الأنوار تلك . كثيراً ماكانت الزوارق تمخر عباب المرفأ فترتفع بالروسية والجورجية أغان ولغط وضحك . وفجأة وصلت إلى الباخرة عشر مركبات مكشوفة ملأى بالطلبة . هجموا على تلك السفينة صارخين ، صاخبين ، ضاحكين ، كما

لو كانوا سيستولون عليها عنوة . صعدوا وملؤوا سطح السفينة وكأن ذلك السطح فناء بناياتهم ، ثم سرعان ماتجمعوا في مقدمة السفينة وعلا صوت المزمار وقرع الطبل ، وراحوا يصفقون بأيديهم ويرقصون « ليكوري » المجنونة وهم يصرخون :

— تاشي — توش ، تاشي — توش !

حاول القبطان تهدئتهم . لكنه رجع خائباً وهو يلمدم شاكياً للمسافرين :

— متوحشون ، متوحشون حقيقيون ! أنا أعلم أنهم سيدمرون كل شيء إذا قلت لهم شيئاً . قبضاتهم جاهزة ، بل وربما بقروا لي بطني .

ابتسم كفاتشي وقال مؤكداً :

— أنتم على حق أيها السيد القبطان . متوحشون حقيقيون ، فأنا أعرف جيداً هذا الشعب .

التفت القبطان والمسافرون نحو كفاتشي :

— ألست جورجياً ؟

لم يكن كفاتشي متهيئاً للجواب ، لذا ارتبك قليلاً ثم قال متلجلجاً

— هيم . . نعم ، لكن . . أبي جورجي وأمي ميغريلية (١) وتربيت تربية « اميرتنية »(٢) .

فهم القبطان وأحد موظفيه مقالة كفاتشي جيداً : فتحوا الصناديق، شمّروا عن سواعدهم، نزعوا لباس الحشمة، طرحوا خمار الوقار ومرّغوا خلال ساعة رفاق كفاتشي وآباءهم وأمهاتهم في الوحل . وكان كفاتشي يهز رأسه علامة الموافقة ويقول في كل دقيقة :

---

(١) (٢) سلالتان من السلالات الجورجية — المترجم .

ـ أجل . . هي الحقيقة العارية . . كلهم سكيرون عربيدون أرهابيون مثيرون للرعب . . أجل انتم تعرفونهم جيداً . نصف هؤلاء الطلاب لم ينالوا الشهادة الثانوية وشهادة الإجازة لديهم،إما مزورة، أو مشتراة بالأموال . . من يدري كم بينهم من اللصوص ، و « الفونسات »(١) . وخاطفي الأولاد ! .

قص عليهم خمس قصص، بعضها صحيح والبعض الآخر ملفق، ثم أضاف أخيراً :

ـ انتم تعلمون دور الأسرة الكبير ودور التربية والعادات والإيمان في تنشئة الطفل . وهؤلاء لاأسر لهم ولاتربية ولا يؤمنون بالعادات ولا بالله أو بالشيطان ! حين وجد المستمعون رجلاً قريباً اليهم فكراً وعقيدة التصقوا به تبادلوا الحكايات وأطلقوا لألسنتهم العنان وكشفوا عن دخيلتم . أخيراً قال القبطان :

ـ أرجو المعذرة . . أرغب أن أتعرف بشكل أوثق بشاب ظريف ذكي وشريف . اسم عائلتي « سيدروف » :

ـ يشرفني أن أتعرف عليكم ! الأمير كفاتشي كفاتشانتيرادزه . وشد « ابن سيليبسترو » على أيدي الجميع بترفع أميري حقيقي .

دارت كلمة « مارشال » على لسان كفاتشي طويلاً ونظراً لأن أحداً لن يتجرأ علي سؤاله مباشرة عن وضعه الاجتماعي، تحيّن الفرصة ودس المسألة في حديثه بشكل عرضي :

---

(١) الفونس : يسمى بهذا الأسم العاشق الشاب الذي تنفق العشيقة عليه ـ المترجم .

— لم يستطع أبي احتمال معاشرة هؤلاء الناس الفاسدين،فقد ترك وظيفته عدة مرات — وهو مارشال نبيل — لكنهم اعادوه بما يشبه القوة . وهو الآن يخدم مجاناً ، بل على العكس ينفق أمواله في هذه الوظيفة . هذا أمر بسيط ! الجميع يطلبون منه مختلف الحيل والأكاذيب : الاعفاء من الخدمة العسكرية الالزامية ، اعطاءهم وثائق مزورة وآلاف أشكال النصب ، لكن أبي من أسرة مختلفة تماماً،وهو يفهم بشكل آخر خدمة القيصر والوطن والنبلاء . اذكر عدة مواقف . .

وروى « الأمير » كفاتشي عدة أمثلة عن خدمة « الماريشال » الشريفة ، وعن صلابته الرومانية ومثاليته النادرة . أخيراً ارغم جرس العشاء،وبشيء من الصعوبة ، كفاتشي على الصمت . توجه الجميع إلى المطعم وفي طريقه كان يقذف بجمل متفرقة :

— شعب مريع ، مريع ! لو أعطوا الحرية يوماً واحداً سيأكلون بعضهم بعضـــاً كالوحوش . . نحن نحيـــا في زمن مخيف . . ساعدنا يارب ! . . احمنا اللهم !

جلس بجانب كفاتشي على مائدة العشاء شابة طويلة شقراء،طاووسة من أوديسا وجلس من الجانب الآخر القبطان سيدوروف .

حين علم المسافرون ان كفاتشي قاصد اوديسا فرحوا كثيراً، خاصة الشقراء والقبطان سيدروف ، الذي قال أخيراً لكفاتشي :

— اذا شرفتمونا ، سأخصكم بغرفة أو غرفتين من بيتي بكل رحابة صدر . أنا لست بحاجة ماسة،لكن أستطيع ان أتخلى عن بعض الغرف لشاب ذكي لامع مثلك من أسرة نبيلة . زمن عصيب خطر ، لارجل بين اسرتي ، وإذا ماأقام رجل مثلك في بيتي سأكون مطمئناً .

أنىّ لسيدروف أن يعلم أنه لو أدخل ذئباً إلى بيته لكان أفضل من أن يسمح لكفاتشي بذلك . لكن لو أن كل الناس عرف بعضهم بعضاً لما عاش على هذه الأرض مبذر مثل « كفاتشونا » .

توقف كفاتشي فوراً عن الحديث عن « أمارته » وعن مارشالية أبيه وعن انحطاط شعبه ، إذ أن العشرات من الطلاب كانوا يجلسون على موائد العشاء . وجّه كل قواه وذكاءه وأدبه ولسانه العسلي وصوته السكري وعينيه المعبرتين باتجاه الطاووسة الشقراء ، وبعد ساعة أحتل القسم الأمامي من القلعة الأوديسية .

بعد انتهاء العشاء صعد مرة أخرى إلى السطح . زأرت صفارة السفينة للمرة الثالثة . غادر المودعون وصعد أواخر المسافرين والمتأخرون من البحارة ، رفعوا السلم والمرساة وفكوا الحبال الغليظة التي كانت تربط السفينة ، ودارت المروحـــة في مؤخرة السفينة ، تطبطب . ابتعدت السفينة عن الشاطىء بهدوء ومضت نحو وسط المرفأ ببطء،ثم التفت تدريجياً واتجهت بمقدمتها نحو عرض البحر .

بدأت الآلات تدق بشكل أقوى،ثم صفقّت واحتدّت « تنانين » نارية : لهثت،تأوهت، ثم دمدمت،اهتزت السفينة قليلاً ثم ابتلعتها الظلمة بنهم واعتزاز،ثم شقت وهي تفحّ عباب البحر الأسود كالقطران العميق الذي كان يئن في الظلمة بصوت خافت ، تتناثر المياه منه فيضج ويضج ، توارى خيط الأنوار في مرفأ باطوم تدريجياً وأنار مصباحان معلقان على صاريتين سطح السفينة الذي استسلم للهدوء .

في الشرق كان يتألق مارس (المريخ) . كان كفاتشي يقف وحيداً

في مقدمة السفينة ينصت إلى ضجيج البحر واهتزاز السفينة ودقات الآلات . تطلع في المدى الأسود اللامحدود ، في السماء المزورعة بنجوم متلألئة لاتحصى ، وفكر . تخيل وأحس ان هذا العالم الواسع اللامحدود خلق من أجله وحده فقط ، وان هذا العالم ينتظره بفارغ الصبر ،ينتظر « ابن سيليبيسترو » كفاتشي كفاتشانتيرادزه وان روسيا الرحيبة الغامضة هيأت له كل شيء . ثمة نساء نجستهن اقدارهن يردن بل ينتظرن الأمير الألمعي الأسطوري : قصور مرمرية،خدم — عبيد منكسو الرؤوس ، خمور معتقة،ليكيور عنبري ، طهاة فرنسيون ، خيول عربية وانجليزية سيارات برّاقة ، جميلات كل البلدان من مختلف الألوان والأجساد ، عربة خاصة من خيرة العاج مزدانة بالأطلس ، يخت مكسو بالديباج والمخمل ، لقب اللوق سيد الماريشالين . سلطة القيصر و . . المال ، المال ، المال ! نقود ونقود لاحصر لها . اذ ان ابن سيليبيسترو يؤمن ايماناً قاطعاً عميقاً صلباً بأن النقود هي محور وركيزة هذا العالم وكل ماتبقى في هذا الوجود ، كل شيء بلا استثناء اثر بل وغبار من غبار المال . الروح والقلب والجسد عبيد للمال،كلها تباع وتشرى بالمال تماماً كالثياب الداخلية التي اشتّراها كفاتشي في ذلك اليوم من أسواق باطوم .

رأى كفاتشي من جهة الشرق نجمة الصباح فينوس ، (الزهرة) فحدق النظار فيها ، ثم ابتسم كل منهما للآخر .

« هي ذي نجمتي ، هي ذي مرافقتي وحاميتي ! » صرخ كفاتشي في نفسه ولوح بيده محيياً صديقته السماوية،التي غمزت لكفاتشي، شجعته أكدت له ، املته بأن تحقق أحلامه وتنفذ كافة رغباته .

وهكذا سبح كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وطار متسلحاً بذلك الاعتقاد الراسخ والأمل الوطيد إلى مماكته الجديدة حيث كانت تنتظره عشيقة أسطورية الجمال لامثيل لها وزوجة فاتنة بريئة .

كيف التقى الأصدقاء وكسبوا المال وكيف وجدت الزوجة الأولى

في صباح اليوم التالي صعد كفاتشي مرة أخرى إلى السطح . كانت السفينة راسية في « بوتي » . تنزه كفاتشي على ظهر السفينة ، تطلع فيما حوله جيداً،ثم دخل مقصورته فجأة وأغلق الباب على نفسه وجلس هكذا حبيساً إلى أن أقلعت السفينة .

سبب هذا الخوف بسيط للغاية : لقد رأى كفاتشي على الرصيف المهندس «هارتيونوف»، الذي ابتاع في كوتايسي بيانو « ميزلسون » .

بعد أن مر الخطر بسلام صعد مرة أخرى إلى ظهر السفينة . كان انيق الملبس ووهب الجميع شعاعاً من ابتسامته العذبة .

شد القبطان على يده بشكل ودي،وانحنى له كبير الموظفين باحترام وابتسمت النساء له بلطف ، وهن يمعن النظر في عينيــه الواسعتين المفتوحتين محاولات استمالته . سأله القبطان :

ــ أرجو المعذرة ــ الأسم وأسم العائلة ؟

تنص شهادة ميلاد كفاتشي « انابوديستي سيلبستروفيتش » ، لكن هذا الأسم المسيحي غير معروف إلا لقلة من الناس . لشد ماتعذب كفاتشي بسبب، هذا الاسم العادي وحتى اسم « كفاتشي » غير مستساغ بالنسبة للأذن الروسية ، لذا اختلق لنفسه اسماً جديداً في لحظة :

— نابليون أبولونوفيتش .

سيطرت موجة من المرح على الجميع عند سماعهم للاسم . اعجبت به الجميلة الشقراء :

— لاأستطيع ان أعلق بشيء عــلى أسم نابليون ، لكن فيما يخص أبولون فأنت شبيه به كثيراً، ثم رنت وأدامت النظر إليه رازته تماماً كما لو أنها لم تذق الطعام منذ يومين ثم اندفعتْ نحو الشواء .

سدّد كفاتشي دينه فورا :

— أنا أملك خنصر ابولون فقط ، أما أنت أفروديت من قمة رأسك إلى أخمص قدميك .

هكذا تبادلا الحديث ، ومدح كل منهما الآخر .

ومنذ ذلك اليوم التصق هذا الأسم بكفاتشي بين الغرباء . ناداه البعض ، نابليون ، والبعض الآخر ابولون،أما النساء فكانوا يدعونه « ابولونتشيك » . امتلأ سطح السفينة تدريجياً بالمسافرين ، بالطلاب الذين صحوا مــن السكر . وهم الآن لايضجون كما في الأمس ولا ينطون،لكن مع ذلك لاترى أحداً غيرهم على سطح السفينة ولاتسمع سوى أصواتهم . التفوا جماعات جماعات ، يمزحون ويسخرون ويضحكون للبحر والشمس .

خالط كفاتشي مجموعة . سلّم على أخرى وتعرف على من لايعرفه :

— أرجو ان تتعرفو علي : انا كفاتشا نتيرادزه .

ـ. خامي ؟ (١) أأنتم كفاتشا نتيرادزه ! واه لقد سمعت عنكم كثيراً في البلدة ! وأنا ادعى سيدراك افلاباربان . يشرفني التعرف بكم.

ــ انا غابو تشوبيشفيلي » ــ قال جاموس جلف بصوت أجش وكأنه يصرخ من قاع كفيفري (٢) .

ــ صباح خير (٣) أيها الأمير كفاتشا نتيرادزه ــ قال « جليل » الطويل الذي كان يقف جانباً وهو يكشر عن اسنانه كالحصان .

ــ جليل أأنت هنا أيضاً ؟ ألى أين تسافر ؟

ــ إلى أوديسا ، أريد أن أبيع بعض الفواكه و « راحة لوكوم » (٤) لعلني أكسب بعض المال .

ــ أين كنت قبل الآن ياجليل ؟

ــ سافرت إلى تفليس ، أحضرت بعض السلع .

ــ كيف حالك ياكفاتشي ؟ ــ سأله تشيكينجيلادزه الذي ركب السفينة من بلدة « بوتي » : .

ــ هكذا ، لست سعيداً أو تعيساً .

ــ كيف لا ؟ ألا تتنقل شاباً قوياً ؟

ــ الحمد لله لست شاباً قوياً، كما يرغب أصدقائي، ولست سيئاً كما يتمنى أعدائي .

---

(١) ماذا ؟ (اللغة الأرمنية) .
(٢) كفيفري : اناء عميق لحفظ الخمر .
(٣) هكذا وردت في النص .
(٤) راحة الحلقوم .

كان ذلك الطالب – تيدوكوراناشفيلي – الذي كان يلقي في ضواحي باطوم ، بالمصطلحات اللاتينية والروسية والجورجية كالحصى ، كان يحوص حول كفاتشي ومجموعته حيث أمسك بخيط الحديث أيضاً :

– وهذا الوقت استفدت منه جيداً . في العام ماقبل الماضي اجتزت مضيق « أرخوتسكي » وفي العام الماضي عبرت « كازبكسكي » وفي هذا العام « ماميسونسكي » بالاضافة إلى انني سافرت إلى « سفانيتسي » وقد ازدادت مجموعتي غنى .

استمع كفاتشي إلى حديث الرحالة الشاب . اراد تغيير مجرى الحديث ، لكنه لم يتمكن من سحب خيط الحديث من ذلك الطالب .

لايوجد في العالم أجمل من جبل « أوشبا »،ارتفاعه ؟ أعلى قمة « ايلبروس » (١٨٤١٠) أقدام ، يليها قمة « لينح توا – ١٧٠٥٤ قدماً ، ثم ارارات،بعدها «كاشتيان – تاو»،ثم « كازبيك – الخامس »،بعدها « غيسولا » ويأتي ترتيب قمة « أوشبا » السابعة ارتفاعها / ١٥٤٠٨ / أقدام بعد جبل أوشبا زينة جبال القفقاس وشجرتها الخضراء . كانت لديّ خارطة ، قمت بتصحيحها في بعض الأماكن . . وجدت نوعاً جديداً من أنواع شجرة التنوب ، لقد أسميتها باللاتينية« هابييس نورد مانيانا جيورجيكا » . . . في الصيف المقبل هل سأقوم برحلة مخترقاً مضيق « غلوخورسكي » ؟ لا ، هذا ليس شأننا . أبحث منذ ثلاثة أعوام عن رفيق،ولم أجد جورجياً واحداً . مرة أخرى رافقني الأجانب مما أدى إلى أن الألمان والانجليز وحتى الروس يعرفون جورجيا أكثر من الجورجيين إذ أنّ الغوريين لايسافرون إلى مغريليا والمغريليين لايزورون كاخيتيا والكاخيتيين لايسافرون إلى ايميريتيا،ثم لا أحد من

الجورجيين يرى برتشالو ، جافا خيتي ، مسخيتي ، أجارا ــ تشانيتي . وطننا يعادل شبراً من الأرض وعليه حفنة من الناس،ومع هذا لانعرف أنفسنا ونرغب ان نعرف كل العالم بل ونغيره .

سئم كفاتشي من الاستماع إلى هذه « الموسوعة الحية » ، لم تلمس كلماته وأفكاره أعماق كفاتشي ولم تدخل مخه ، لذا أنتقل إلى مجموعة أخرى . كانت تتألف من خمسة شباب ، كالديوك كل منهم ممسك بالآخر ويضربه بشكل قارص ، لاذع كحبات البرد :

ــ الاتحاد . . الاستقلال الذاتي . . إقامة الاشتراكية . . بناء القومية . . استلام السلطة الشعبية . . وحدانية الكون . . المادية . . المثالية . .

وقف الآخرون جانباً . بعضهم كان يستمع ، والبعض الآخر يتحادثون . كان بيسو شيكيا هناك أيضاً . فقد صعد إلى السفينة في « بوتي » .

سرعان ماغادر كفاتشي تلك المجموعة،وانتقل إلى مجموعة ثالثة حيث أجتمع طلبة مرحون ممتلئون غطى ضحكهم المنطلق وقهقهتهم الغليظة وتهورهم ومزاحهم على كل شيء . عرف كفاتشي فوراً المجرى المناسب له ، وجد اقرباءه ورفاقه،فاندمج معهم في الحال . استلم الحديث واداره . شيء واحد فقط لم يعجب كفاتشي،شيء واحد أخجل طبيعته الحساسة ذات التربية الجيدة : طريقة مزاح افلابريان ولفظه الفج .

فتح سيدراك افلا بريان بئر معرفته واطلاعه الواسع في مجال التاريخ

والملاحم وتعرض للعلاقة بين الرجل والمرأة وتحدث عن « كينتو (*)» وعن النشالين والأوغاد .

حين وصلوا إلى سوخومي سمع كفاتشي من جديد معطيات « كورنا شفيلي » الموثقة عن تاريخ « ابخازيا » و « جورجيا » و « بتسوندا» وعن « حديقة سينوب » وسوخومي التي كانت تدعى سابقاً « ديوسكوريا».

كان يوماً مشمساً حاراً . السماء مشبعة بالبخار وكأنها تحترق والبحر غاف . من الجهة اليمنى ترتفع جبال القفقاس حتى تطاول السماء ، سفوحها الخضراء المغطاة بالأدغال تنحدر نحو البحر ، تنظر فيه فترى نفسها . وكانت المياه غامقة مائلة للاخضرار . كانت أسراب من الخنزير الهندي تلاحق السفينة ، تقفز في الهواء ، تغوص، ثم تشق بمناقيرها الماء من جديد مصطادة ببقايا الأطعمة المتناثرة حول السفينة .

وفوق السفينة كانت تحوم طيور بحرية بيضاء — طيور القادوس وبجع البحر .

في الصباح انضم إلى الطلاب مسافر كهل ، متوسط القامة ، ممتلىء أسمر اللون .

همس بيسوشيكيا إلى كفاتشي :

يريد هذا أن يلعب « بريفيرانس » فالعب أنت أيضاً، ثم تهامسا من جديد .

هبطوا إلى المقصورة وطلبوا ورق اللعب . اشترك أربعة في اللعب ،

(*) كينتو : بائع الفواكه المتجول في جورجيا القديمة وكان يلبس ثياباً خاصة .

شربوا الخمرة قضموا الفواكه . كثيراً ماكان كفاتشي ولادي تشيكنجيلادزه يدسان كلمات باللغة الجورجية أثناء اللعب :

– ورقة بستونية كبيرة . . دينارية صغيرة . . . آس زباتي . . . أنتظر ! لاتلحق بي . . ومن تحت الطاولة كانوا يشيرون لبعضهم .

تطلع كوليا جوريا في المقصورة قليلاً – سمع تلك الأحاديث، فقال لرفاقه باللغة الجورجية أيضاً :

– لادي – عيب !

– هذا ليس شأنك . . وهل هذا هو وقت الخجل بعد أن وقع حوت سلموني بين أيدينا . . أمض أيها الأخ،لاتتدخل فيما لايعنيك أذهب وتنزه أو أقرأ شعراً . .

انتهت اللعبة. احصوا الربح والخسارة . كان الخاسر الوحيد – الغريب ، والبقية رابحين . حسب الأموال ، تبين انه خسر خمسين روبلاً ، لكن الربح كان خمسمائة .

– عفوا – بكم كنا نلعب ؟

– بخمس الكوبيك – قال الغريب .

– بخمس كوبيكات وليس بخمس الكوبيك (١) – عقب بيسو على كلام الغريب موضحاً .

---

(١) في لعبة البريفيرانس تتعلق الخسارة والربح بالمبلغ المتفق مسبقاً على اللعب به ، فاذا اتفقوا على اللعب بخمس الكوبيك كانت الخسارة في كل « فيش » ١/٥ من الكوبيك وإذا كان اللعب بخمسة كوبيكات كانت الخسارة في « الفيش » الواحد خمسة كوبيكات أي ٢٥ ضعفاً والكوبيك ١/١٠٠ من الروبل .

ووافقه الآخرون مؤكدين .

عندئذ تساوت الخسارة مع الربح . أخرج الغريب خمسمائة روبلاً وقال : تفضلوا ! قسموا الربح بين الثلاثة ونهضوا .

في ذلك الوقت دخل « كوراناشفيلي » وسأل الغريب بالجورجية :
— أنت هنا ؟ انتهيتم ؟ من الخاسر ؟

— اجل انتهينا . لقد خسرت قليلاً ، هل سئمت بدوني ؟
— أجابه الغريب بلغة جورجية سليمة، ثم نهض وتوجه بحديثه إلى الطلاب :

— أيها الشباب، شكراً جزيلاً على التسلية و « تمضية » الوقت ، أسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي : أنا «باغرات دافيتاشفيلي»، ثم صافحهم وأضاف — أرجو ان تمنحوني الشرف وتتفضلوا إلي على الغداء . اليوم كل الطلبة ضيوفي . إلى اللقاء أيها السادة — وخرج .

بقي الطلاب الثلاثة في المقصورة مذهولين ، أحمروا، شحبوا وتمتموا .

— ظننته يهودياً . . ظننته سورياً . . لقد فهم كل شيء، لكنه ظل صامتاً . . ودفع الخسارة . . ماالعمل ؟ . . كيف ستتصرف ؟

اختلفوا فيما بينهم وتجادلوا . اتهم كل منهم الآخر، ثم غرقوا خجلاً . أخيراً قصد الثلاثة « دافيتا شفيلي وعرضوا عليه إعادة أموال الربح وهم يغمغمون :

— لقد حدث التباس . . نحن لم ندرك أنك جورجي . . لقد غششنا قليلاً في اللعب . .

هدّأهم دافيتا شفيلي مبتسماً ملاطفاً :

– لاتقلقوا لقد انتهت اللعبة بشكل أصولي . ضعوا تلك الأموال في جيوبكم فستلزمكم . لدي الكثير من الأموال،وهذه الكمية ليست سوى قطرة في بحر . اقتنوا كتبـــاً . لا ، لا لاتقلقوا . لاتدعوني أزعل ، حان وقت الغداء ، تفضلوا .

كان المطعم مليئاً بالطلبة وانغام «الشبّابة» وأصوات قرع الطبل وصرخات « تاشي توشي » و غناء « مرافا بلحامير » ورنين الأواني والضحكات والقهقهات وحسن البيان والبلاغة .

أخيراً طلب كفاتشي الكلام . مدح صاحب المأدبة ، أثار مشاعر الجميع ، اشتعل واشعل الجميع حماسة .

– أيها السادة أيها الأصدقاء – قال أخيراً في نهاية كلمته – لقد غلبتنا الحياة ، غلبتنا جميعاً ، ظلمتنا ، أحرقتنا ، داستنا ، أرغمتنا على البكاء دماً ودموعاً ، لكنها لم تستطع أن تحنينا وتخضعنا . نحن الجورجيين تلازمنا الفروسية والمروءة منذ الولادة . في عروقنا تجري دماء أصيلة ، ارتشفنا مع حليب امهاتنا الإدراك وحسن الشرف والأخوة والرفاقية . لقد تخلل أبداننا ودماءنا فهم الواجب المقدس تجاه الصديق وأمام وطننا الرائع جورجيا . تنتزع منا الحياة الصعبة كل شيء ، تقتل أزهار الشباب ، تحجب عنا الشمس ، لكنها لاتستطيع ارغامنا على التخلي عن فروسيتنا ومروءتنا وشرفنا وطيبتنا أبداً ، أبداً ، أيها الأصدقاء والسادة والرفاق ! أرجو ان تشربوا جرعة واحدة نخب أفضل ممثل لهذا الشرف والمروءة والفروسية والشهادة صاحب دعوتنا اليوم

الكريم الجورجي المعطاء « باغرات دافيتا شيفلي » مرحى للوطني الشهير مرحى الانسان الحقيقي ، مرحى لجورجيا التي انجبت مثل هذا الانسان ! !

— هورا ! هورا ! — واهتزت القاعة بالصراخ .

الشبّابة تعزف التوش(١) الكؤوس ترن،ونهض الجميع واختلطوا. قبّل البعض دافيتاشفيلي والبعض الآخر قبّل كفاتشا نتيرادزه وآخرون قبل" بعضهم بعضاً وتلا التوش رقصة « ليزغينكا » ثم « دافلوري »(٢) ثم اختلط الحابل بالنابل .

في ذلك المساء هبت العـاصفة الشهيرة « نورد — أوست (٣) في منطقة البحر الأسود . كانت السفينة السكرى تئن وتصرف ، مفاصلها تعلو وتهبط كالعود فوق الأمواج . اتسخت سفينة « بوشكين » النظيفة وتدنست ببقايا الطعام والشراب ، ولم يتمكن عمالها من تنظيفها إلا بصعوبة وعناء مكثرين من السباب والشتيمة .

في اليوم التالي اعزيت كل الحوادث السيئة إلى العـاصفة واستطاعت « بوشكين » في الصباح ان تقف منتصبة مترنحة بصعوبة وعناء، ثم دخلت إلى نوفوروسيسك . حين وضعوا سلم السفينة صعد إليها « تشبيبي تشو بونتيرادزه » من كوتايسي . دهشوا وذهلوا وأحاطوا به :

— مرحباً ، تشيبي ! . . كيف حالك ياتشيبي ؟ لماذا أنت هنا ؟

---

(١) التوش : اغنية قصيرة تعزف في الاحتفالات — المترجم .

(٢) دافلوري: رقصة شعبية جورجية .

(١) نورد — اوست : رياح شمالية شرقية ، المترجم

ــ فلتحل عليهم اللعنة رأساً وجسداً . هذا ماأريد قوله ! الشيطان نفسه لايفهم هؤلاء الملعونين !

ــ ماالخبر ياتشيبي ؟ كيف جئت إلى هنا ؟

ــ أكان عليّ أن أسافر إلى « غفانكيتي » ؟ هل سمع أحد ان جامعة برلين تقع في باريس وجامعة باريس في لندن ؟ يبدو أن مثل هذا حدث في روسيا . جامعة موسكو في كييف، ومن المؤكد ان جامعة كييف تقع في وارسو ؟ !

ــ ماالخبر ؟ احك ! . . ماذا حصل لك ؟

ــ فليعم الله قلب من فكر بذلك . ايعقل ان تكون جامعة « نوفوروسيسك » في أوديسا ؟ لهذا أقول ، لعل جامعة موسكو تقع في « تشوختاوري » أو « باندري »،قلت لعل جامعة نوفوروسيسك تقع في مدينة نوفوروسيسك ، لذا سافرت إلى تلك المدينة (١) .

كانت قهقهة الطلاب الأربعين تصل إلى المدينة على الشاطىء الآخر .

ــ ماالذي يضحككم أيها التعساء ؟ ماذا ألم أقل الحقيقة . !؟

واهتزت السفينة من انفجار الضحكات من جديد .

ــ أضحكوا أضحكوا ! لقد اضحيت فارغ الجيب . ماذا يهمكم أنتم ! كيف حالك ياكفانتشي ؟ لقد وضعت أملي بك،وإلا لكنت قذفت بنفسي في البحر . . وهل سأسكن في الفندق ؟ أأنفق النقود من أجل

---

(١)كانت اوكرانيا الحالية تدعى سابقاً « رومانوفي نوفوروسيا » وكانت تدعى جامعة أوديسا « نوفوروسيسك » .

ذلك ؟ ذهبت إلى مدير الثانوية.لقد أخجلني . لكن ليس وقت الخجل . قلت له : أريد نقوداً فأعطاني عشرين روبلاً . ماذا أفعل لقد تركت له عنواني . . ماذا ؟ فلينتظر ، جدتي سترسل له المبلغ . . . لماذا تضحكون أيها التعساء؟ حتى لوشنقتموني لن تجدوا معي روبلين . وفيما لوتوفرت النقود،فأنا لم أفقد عقلي كي أردها إليه . من يدري ، ماذا سيحصل بعدئذ!

وكان كورنا شفيلي يثقف إحدى المجموعات :

— هي ذي « توابسي » كانت تدعى سابقاً «نيكوبسي». هنا كانت حدود جورجيا .

قال المؤرخ : « من نيكوبسي حتى داروياندا » . . وهنا « غيلينجيك » اقطاعية آل تولستوي . . وهذه هي معامل الأسمنت. . وهذه ممتلكات « ابراودورسو » لديهم نبيذ رائع وشمبانيا .

في تلك الليلة تابع كفاتشي مغازلة الشقراء الأوديسية . أسمها وأسم عائلتها ؟ ريفيكا ايساكوفنا ايدلسون . من أي بلدة سافرت ؟ من تفليس . من هي ؟ ترددت ريفيكا في البداية،ثم تكلمت كرمى لعيني كفاتشي الساحرتين الجديرتين بكل ثقة وكرمى لسانه المعسول، الذي يحرك القلب المتحجّر،فيثيره ويرغمه على الكلام . ل « ريفيكا » زوج كهل ، تاجر غني من تجار اوديسا يشتبه رجال « الجندرما » به وبأنه قدم للثوار أموالاً ضخمة . سافر ايدلسون إلى تفليس،لكن رجال الجندرما علمت به واعتقلته . لهذا السبب كانت ريفيكا في تفليس . وهم الآن ينقلون زوجها عن طريق التسلسل، أما هي فعادت بطريق البحر . . . لا ، لاتحتاج ريفيكا للمال ، فلديها في أوديسا ثلاثة بيوت

لكن . . . ريفيكا وحيدة لاتجربة لديها . إنها تبحث عن مرشد ، مساعد تجد فيه عزاء وصديقاً . . فلتكف ريفيكا عن البكاء ! كيف لاتبكي إمرأة وحيدة تعبة بلا سلوى ؟ ! لاضرورة للبكاء ، أليس كفاتشي هنا ، الفارس الذي لايخاف ولا يعتب ؟ سيساعد المسكينة ،سيكون لها صديقاً سيصل بها إلى نهاية تلك القضية ، سيكرس نفسه لها وسيعيد إلى المرأة المنكوبة زوجها الحبيب . لاداعي للبكاء ريفيكا ! لاتدعي الحزن يعكر عينيك اللامعتين كنجمتين ، وإلا . . . والا سيبكي كفاتشي . . فقد تلاشت قوى كفاتشي أيضاً . . واغرورقت عيناه بالدموع . . . يبكي كفاتشي أيضاً . . يمسك المرأة الباكية من خصرها يقبّل يديها الناعمتين معزياً .

وفعلاً قدم لها العزاء بمروءة : احتل في البداية القسم الثاني من القلعة،ثم هد بهجوم صاعق البرج الأخير،ثم انصاعت القلعة الباسلة الشقراء له بكليّتها .

– اهنئك أيها الآغا – قال جليل مبتسماً لكفاتشي – يندر أن يحصل الرجل على مثل هذه المرأة .

– وما أدراك أيها التتري ؟ – سأله كفاتشي متعجباً .

– يرى جليل مايحدث في قاع البحر – اجابه جليل مبتسماً .

– جليل ، كم تدفع لقاء مثل هذه المرأة ؟

– عشر سنوات من حياتي ! .

* * *

القسم الثاني

كيف تشكلت مجموعة الأصدقاء

وكيف انتقل إلى بيت عشيقته الجديدة

في أوديسا استقر كفاتشي في بيت القبطان سيدوروف . خصصوا له غرفة واسعة نظيفة مرتبة . كان سيدوروف يحيا في البحر غالباً ، يمضي حياته في السفر . كانت سفينة (بوشكين) تعود مرة كل أسبوعين إلى أوديسا ، ثم تنطلق مرة أخرى بعد ثلاثة أيام إلى باطوم .

كانت لدى سيدوروف ثلاث بنات ناضجات جاهزات للطيران ، وقد اقتصر اهتمام زوجته الكهلة على الاهتمام بالأسرة وتزويج بناتها .

استقبل كفاتشي في تلك الأسرة كحارس أمين لها وكأكبر فرد فيها .

كانت « فيرا » صغرى بنات سيدوروف ، معتدلة القامة ممتلئة زرقاء العينين ، مرحة تتنقل بخفة دائمة وتقوم بعمل ما وتضحك بلا سبب . كانت تذهب في الصباح للدراسة ، ثم تساعد أمها ، وفي المساء تذهب للتنزه مع الطلاب .

كانت فيرا مقتنعة فعلاً ان كفاتشي أكبر أفراد الأسرة ، وخلال

ثلاثة أيام ازدادت منه اقتراباً ، ضحكت ومزحت معه ، حتى أنها أضحت لاتخجل منه حين تراه غير مرتد ثيابه الخارجية ، أو حين يكون مستلقياً على السرير . كانت تحضر إليه الشاي أو القهوة،وتجلس بقربه،وهي ترف برموش عينيها الزرقاوين وتزقزق كعصفور غير مبال . وبين اليقظة والحلم دعك كفاتشي عينيه،ثم تطاولت يداه وعبثتا في أماكن « ممنوعة » . اوقفت فيرا يدي كفاتشي وشتمت الشيطان القفقاسي ،بل عذبت هي بدورها ،كفاتشي واضنته. وأخيراً استطاعت أن تخرج من تلك الغرفة بصعوبة محمرة الوجه منفوشة .

كان كفاتشي قد قرر منذ زمن دراسة العلوم الحقوقية . فهذا الاختصاص ـ المخاماة القوانين ، المالية تناسبه وتتفق مع طبيعته وأهدافه . سجله بيسو في اليوم التالي ، في تلك الكلية وأمره بشراء كمية كبيرة من الكتب ، مما دفع تشيبو سيرادزه للقول بحق :

ـ أنا لاأستطيع أن أقفز فوق هذه الأعداد من الكتب فكيف يمكنني قراءتها ودراستها ؟

أنتقل اصدقاء كفاتشي للحياة معه في نفس البيت . لايمر يوم لايلتقي فيه أبناء تفليس وكوتايسي . سرعان ماتشاءموا وتآلفوا وربطت قوة خفية بين هؤلاء الستة برباط اشبه بالأسمنت المسلح .

وكان جليل أيضاً يدور حول البيت حاملاً « تاباخي »(١) صارخاً :

ـ راحات لوكوم ـ راحات لوكوم » .

---

(١) تاباخي : اناء خشبي مدور توضع فيه الفواكه والحلويات المراد بيعها .

حين رأى كفاتشي وأصدقاءه خلع قبعته ولمع بأسنانه الحصانية :

– خير خير ألسن (١) أيها الأمير، كيف الحال ؟ تفضلوا أضيفكم « نوكا »(٢) .

ساعد أصدقاء كفاتشي « جليلاً » في ترويج بضاعته فأكلوا منها لدرجة أنهم لم يشتهوا الطعام حتى في اليوم التالي .

حين قصدوا « الدكان » الجورجي لتناول « الشواء » واحتساء الخمرة الكاخيتنية أجلسوا « جليلاً » معهم، مازحوه وأرغموه على أن يغني « شيكاستا » و « بياتي » (٣) .

أقدم الجميع على الدراسة بحماس وجلد في البداية . واظبوا على حضور المحاضرات بانتظام ، وفي البيت سعوا جاهدين لدراسة موادهم ، لكنهم تراخوا تدريجياً ، نفذت قواهم وفقدوا الرغبة في ذلك . أتضح لهم ان طريق العلم طويل جداً ويصعب أجتيازه . تباطأت خطاهم تدريجياً ، تخلفوا وانضموا إلى حشد أولئك الطلبة العاطلين المتطفلين، الذين يمضون عشر سنوات في الجري وراء الدبلوم تحت أسم « طلاب ».رموا بكتبهم في الزاوية وتفرغوا للشوارع والحوانيت والمطاعم الأوروبية والمقاهي ولعب الورق والسيرك والخمر والهزل والفراغ والبحث عن بنات الهوى الرخيصات . لكن كفاتشي نزل إلى ذلك الدرك ليس إلا ، كانت تطلعاته دائماً نحو الأدوار العليا وسعى ليطفو على السطح .

---

(١) هكذا وردت في النص الأصلي – المترجم
(٢) نوكا : نوع من السكاكر ، معروف عندنا – المترجم
(٣) شيكاستا – بياتي : اغان شعبية شرقية .

عند قيام رابطة المواطنين الجورجيين نشط كفاتشي ورفاقه ، رفعوا أصواتهم ، قاموا بالدعاية اللازمة وتمكنوا من انتخاب بيسو شيكيا أميناً للصندوق . بعدئذ استطاع الرفاق أن يتنفسوا قليلاً . لكن كيف استطاعوا تأمين الأموال لهم ومن صندوق الرابطة الفارغ فهذا سر لايعرفه سوى بيسو وكفاتشي وحدهما .

لقد خصتهما العناية الإلهية بحاسة شم ككلب بوليسي ، وبموهبة الملاحظة والفهم والإدراك السريع .لم يتجول كفاتشي في الشارع دون أن يكتسب شيئاً جديداً ويقتبس منه في اليوم التالي . يلاحظ مثلاً رجلاً متأنقاً أو متسكعاً ذا هندام عصري أو ارستقراطياً نظيفاً ـ نظيفاً فيتحول في اليوم التالي نسخة مماثلة له . حتّى انه اتقن ببراعة الامساك بالسيجارة وأصابعه ممدودة قليلاً وإخراج الدخان من فمه وأنفه والتلاعب بالعصا ، ورفع قبعته وإحناء رأسه ، والإبتسامة مع لف ساقٍ على ساق . صار ينادي النادل في المقاهي والبارات باشارة من إصبعه قائلاً عبر أنفه :

ـ أي . . . ي ، غارسون !

أضف إلى أنه جميل وجسيم ، مما كان له كثير الأثر في بروزه السريع خلال فترة وجيزة . وهكذا تلاءم بسهولة ويسر ودخل مجتمعاً لايرى سوى أنفه ولايقيم وزناً لأحد .

ـ « كيف أفرج عن اسحق وكيف طارت الشيقة الأولى » ـ

لم يبتعد كفاتشي عن ريفيكا . لازمها واعتنى بها . كانت المرأة حذرة جداً فأخفت حبها . لديها الكثير من الأقارب والمعارف في

أوديسا . لذا تحاشت القال والقيل . كانا يتلاقيان تارة في شقة كفاتشي وتارة أخرى في شقتها . كانت ريفيكا تسكن في شارع « لينجيرون » . الزوج مازال في السجن . كان يحرس المرأة المنكوبة مايقارب العشرين من الأقرباء نصفهم من ذويها ، والنصف الآخر أقرباء زوجها .

استخدم كفاتشي ،منذ اليوم الأول،مفتاحاً لابديل له يمكنه ان يفتح كل أبواب القلعة باقفالها السبعة . كان يخصص في كل مرة يزورها ثلاثة روبلات لوصيفتها ومثلها للبواب ، فيعملان على تهدئة روع المرأة الخائفة ويعمي عيون حراسها عنها .

لقد كلف هذا الحب كفاتشي غالياً . عشاء ، باقة زهر ، حلويات وآلاف المصاريف الصغيرة الأخرى التي كانت تتوالى .

أخيراً،وبعد شهرين،نقلوا زوج ريفيكا « اسحق اندلسون » من تفليس إلى سجن أوديسا . ماأن علم كفاتشي بالأمر حتى تحرك وازداد نشاطاً . تولى القضية ، ثم قال لريفيكا ذات مرة :

— لقد تعرفت على رجل الجندرما « بافلوف » . اتضح أنه من معارفي القدامى . لقد خدم سابقاً في كوتايسي ، وهو المسؤول الآن عن قضية زوجك .

سألته . يبدو أن المسألة غاية في الصعوبة ، لكنها لاتدعو لليأس .

ومع ذلك فرحت ريفيكا كثيراً . لقد أعطتها معرفة كفاتشي بـ « بافلوف » أملاً في وقت كان الخطر يحيق بزوجها . وهذا ماتعرفه سابقاً . . منذ ذلك اليوم بدأ كفاتشي لعبة فنية حذرة . لقد تعرف فعلاً بـ « بافلوف » عن طريق رئيس مركز الشرطة في أوديسا « دفالشفيلي » ثم دعاه مرة — مرتين وقال له عرضاً ، أثناء المنادمة :

ــ حقاً كيف تسير قضية ايدلسون ؟ وبماذا تتهمونه ؟

ــ بانتمائه للحزب ومساعدته له .

ــ وماذا ينتظره ؟

ــ إذا ثبت الأمر ــ السجن مع الأشغال الشاقة ، وإذا لم يثبت نفي بسيط من البلد .

ــ حسناً ، أوتظن أنهم سيثبتون التهمة عليه ؟

ــ لاأظن .

عبّر كفاتشي وجهة الحديث :

ــ ألا تنوون السفر إلى أوروبا ؟

ــ هذا حلمي ، لكن أنىّ لي المال للرحلة ؟

ــ ماهذه القضية ؟ ألا يكفيك ألف روبل ؟

ــ بألف روبل أستطيع أن أزور نصف البلدان الأوروبية ، بل وأشرب الخمر كما يجب .

ــ إذا ، وكتعبير عن صداقتنا ، تقبّلوا مني ألف روبل .

لم يدهش بافلوف ولم يستخف . لقد خمن في الحال مصدر هذه الأموال . شكره كفاتشي باحترام وشد على يده مصافحاً . بعد فترة وجيزة ذكّر كفاتشي ايدلسون مرة أخرى :

ــ لي عندك رجاء بسيط . أنا واثق من أنكم ستحكمون على أيدلسون بالنفي خارج البلدة ، لذا أرجوكم ان تؤمنّوا له موافقة على السفر خارج الحدود .

— هذا أمر بسيط . أعدكم بأن أنهي القضية خلال ثلاثة أيام .

— لا . لاتفرجوا عنه الآن . عندما يحين الوقت سأخبركم بنفسي .

— رجاء آخر — قال كفاتشي بعد ساعة وعندما ارتويا خمراً — لاتقولوا لأحد ان ايدلسون يمكن أن يفرج عنه ببساطة . بالعكس هددوه بالأشغال الشاقة و . . وأشار كفاتشي باصبعيه على رقبته وهو يعني بذلك الشنق ثم أضاف — هذا ضروري بالنسبة لي وسأرد اكم الجميل . ضحك بافلوف :

— أفهم ، أفهم جيداً . هذا أيضاً أمر سهل . فليكن كذلك . سأفزع زوجته الحسناء الشقراء بحيث لن تجرؤ على الاقتراب مني أبداً والبقية أنت تعرفها .

في اليوم التالي أجاب كفاتشي ريفيكا :

— مليكتي ! يصعب علي أن أقول لك . قلبك لايتحمل وأنا أخاف .

— قل لاتخف .

— إذا لاتخشين ! ؟ اتعاهدينني ؟ لكنني أقول لك سلفاً أنه ثمة إمكانية لتلافي الخطر لكن . . آه ، ياإلهي ! لماذا ألقت الأقدار على كاهلي مثل هذا الأمر الخطير ؟

حسناً . . حسناً سأقول القضية . لدى بافلوف وثيقة تثبت التهمة على زوجك . . كما قلت . نعم تماماً كما قلت . . هذه الورقة بالذات وقعت بين يديه . . قبل أن يضمها إلى الإضبارة . . يقول سأنتظر قليلاً . . أنا أيضاً — يقول بافلوف — أريد أن أسافر مع أيدلسون إلى أوروبا ، والبقية تعرفينها . ماذا ؟ كنتِ اليوم عند بافلوف ؟ أخافكِ ؟

كم تحتاجين !آه ياإلهي وأي شأن لي في هذه الوساطة ؟، ثم أنا، في نهاية الأمر غير مستعجل على خروج أيدلسون من السجن نظراً لأن . . . خمـّني السبب ! حسناً ياحبيبتي كفى ، لاتقلقي . . لاتبكي ، وإلا سأبكي معك . . سأقول لك . . أنه يطلب الكثير خمسة الآف . . إذا أنت موافقة ؟ اعطني من فضلكِ ورقة بخط زوجكِ . أريد أن أقارنها بالنسخة الموجودة لدى بافلوف . ؟ هذه رسالته الغرامية أليس كذلك ؟ ها ـها ! سنرى كم يحبك هذا العجوز . . خمسة آلاف مبلغ كبير كبير جداً ، لكن ماذا أفعل طالما وافقتِ ماذا سأقول ؟ . حسناً إلى الغد ياعزيزتي !

وضع كفاتشي رسالة اسحق ايدلسون في جيبه ومضى .

في اليوم التالي عقد اجتماع لدى ريفيكا ضم اقرباءها . كان كفاتشي اثناء ذلك يتفحص رسالة ايدلسون بتمعن محاولاً دراسة خطه .

تناول كفاتشي وبافلوف ليلة ذلك اليوم طعام العشاء معاً . اتفقا في قاعة المطعم الفخم على كل شيء :

ـ حسناً هذه مسألة بسيطة.دعها تأتي إلي غداً ـ قال بافلوف ـ وسأقول لها . . .

في اليوم التالي دار الحديث بين ريفيكا وكفاتشي :

ـ اتضح ان بافلوف هذا جنتلمان كبير ـ قالت ريفيكا ـ لقد استقبلني بحفاوة بالغة . قال : إما المشنقة أو باريس . سيتضح كل شيء بعد أسبوع . مصيره مرتبط بأحدى الوثائق . لقد ذكرني بلك نابليون ابولونوفيتش صديقي المقرب . أنه أمين وحذر .

ـ لقد قلتُ لك ياحبيبتي الرائعة ان القضية منتهية ! والآن قولي لي من كتب تلك الوريقة ؟ عرفت ، نعم ؟ أنا استغرب كيف يستطيع اسحق المجرب أن يقترف حماقة كهذه ؟ حسناً غداً ، صباحاً سأحضر لك تلك الورقة . . سأنتظرك في بيتي غداً في العاشرة . . سندفع نصف المبلغ فيطلقون سراح اسحق ، والباقي . .

في اليوم التالي تلقى كفاتشي نصف المبلغ واحرق تلك الوثيقة أمام عيني ريفيكا . بعد أسبوع عادت ريفيكا واسحق ايداسون ـ الذي أعطي مهلة عشرة أيام ـ إلى المدينة . طلبا جوازات سفر وتهيأ للرحيل ، وقد أغلقا فميهما حتى أمام أقرب الأقرباء ، محافظين على السر ، مرتجفين من الخوف .

وفي نفس الوقت أضاف كفاتشي إلى رصيده في مصرف « آزوف » بضعة آلاف من الروبلات . أمضى كفاتشي وريفيكا ذلك اليوم الأخير معاً . لايمكن وصف ذلك اليوم الأسود والناري في آن واحد ، يوم الفراق والهجران،يوم انقطاع خيط الحب ، فراق قلبين ملتهبين ، وجسدين ملتحمين وروحين متحدين ! انهمرت بركة من الدموع وبدأت الصرخات والنشيج وآلام الجسدين العنيفين والعض تحت تأثير اللذة والكرب . كان لقاء مشبعاً بالمرارة والشجن بالعزاء والوعود ، بالجنون والعهود وبالحب الأبدي الدائم الذي لاينسى .

في تلك الليلة قصد كفاتشي المحطة لوداع ريفيكا واسحق مع أنه كما قال لـ « ريفيكا » صباحاً ـ يخاف كثيراً أن يُظهر للآخرين حزنه وألم روحه بلا شعور منه .

التقى كفاتشي ورجل الجندرما « بافلوف » على رصيف المحطة :

– انتم أيضاً مسافرون خارج البلاد ؟ سأله كفاتشي .

– أجل أنا مسافر إلى باريس .

« من أموال ايداسون – فكر كفاتشي ومشى أثر بافلوف .

كان اسحق وريفيكا قد استقرا في المقصورة وقدم بافلوف ، مصادفة ، بطاقته في نفس المقصورة . خرج الاثنان وتمهلا في الدخول .

– لابأس ! – تدخل كفاتشي – شاء الله أن يجمع بين المحقق والسجين . لن تتخاصما ، إذ أنّ معكما وسيطة حسناء مسالمة ، وقبّل يد ريفيكا وحوّل الثلاثة غضبهم وحرجهم إلى مزاح . بعد فترة وجيزة نادى اسحق كفاتشي إلى الممشى وقال له :

– لن أنسى طيبتك ماحييت . . . لاأستطيع ان أقدم الكثير . . لكن . . لا ، لا ، يجب ان تقبلوها لابد من قبولها !

دس في يده رزمة ودخل مسرعاً المقصورة . وفي تلك الدقيقة خرجت ريفيكا ، أخذت يده بيدها اليسرى ووضعت في اصبعه الوسطى خاتماً مرصّعاً بالألماس .

-- ريفيكا . . ياحبيبتي الخالدة . . ياأغلى الأصدقاء !

مسحت ريفيكا دموعها ، التي انحدرت من شدة تأثرها ، وتمتمت قائلة :

– فليبق معك للذكرى ، لاتنس حبيبتك ريفيكا ... الصديقة الصدوقة . وداعاً ! التفتا فيما حولهما ، استغلا الوقت ، قبّل أحدهما الآخر بسرعة وحرارة القبلة الأخيرة .

رن الجرس للمرة الثـالثة ، غـادر كفاتشي واقرباء المسافرين العربة .

انطلق القطار . لوّح كفاتشي وريفيكا أحدهما للآخر بالمناديل حتى غاب القطار خلف قطار آخر .

« مدام ليابوش »

في تلك الليلة ، عندما حمل القطار حبيبة كفاتشي « ريفيكا » اصطحب كفاتشي رفاقه إلى الملهى ليبدّد حزنه .

— كفى ياعزيزي— قال كفاتشي ببطء وكسل وبلثغة ارستقراطية — هذا ضيق أفق لاأكثر ولا أقل . ماهي أوديسا وأي حياة يمكن ان تكون فيها ! لن نتعلم هنا شيئاً . سأسافر إلى موسكو أو بطرسبورغ . لقد سئمت التسكع ،في هذه القرية القذرة لاتجد مكاناً تمرن فيهيديك . . . أوديسا بالنسبة لي جلد ضيق عليّ . لقد ضاقت عليّ . . سلم قصير ، لاتوجد أماكن كافية للتحليق وفتح الأجنحة . . . متى سأسافر ؟ بعد شهر أو أقل وانتم سافروا أيضاً . . . سأساعدكم،لماذا لاأساعدكم؟ كوتايسي ؟ ها — ها ! كيف يمكننا تذكر كوتايسي ! مستنقع ، مستنقع نتن . حتى لو أخذنا جورجيا ككل،لانجادل ياعزيزي . آه ، هذا غير صحيح،في العالم مائة انسان لايعرفون أسم جورجيا . أو حتى مامعنى جورجيا الكبرى ؟ إذا استلقيت للنوم ووضعت رأسك في باطوم ستصل رجلاك إلى « كيزيكي »(١) وأن عطست في سوخوم يقولون لك في سيغناخي (٢) : يرحمكم الله ! عندما يغني اليهودي دانيال في

---

(١) كيزيكي : منطقة في كاخيتي .

(٢) سيغناخي : مدينة في كاخيتي .

كوتايسي المدى « لايتادزه » أو « يريمو » يردّون عليه من « الكوزبيك » ويغنون « ديداس ليفانا » كأغنية جوابية له . إذا أخرجتَ في « بورجومي » علبة السجائر ستمتد عشرون يد من « بوتي » يطلبون منك سيجارة . إن وجدتَ منديلاً ستجري جورجيا كلها وراءك صارخة : « هذا لي ، أعطني حصتي ! » .

آه لاتذكرني بذلك . غارسون ! زجاجة أخرى من الشمبانيا « لوي رديرا »،ماذا ؟ أتفضل ، الشارتريز ؟ وأنت ياسيريوجا » أتريد شيير ؟ غارسون ! يابيسو آتنـــا الزجاجات الثلاث وأحضر أيضـــاً سرطانات بحرية ، اناناساً وبرتقالاً وماندرين .

ومد كفاتشي كفاتشانتيرادزه لضيوفه علبة السجائر الذهبية داعياً إياهم لتناول سجائر غليظة بحجم الاصبع . كانت علبة السجائر موشاة بـ « طغرات » مختلفة ، وكان منقوشاً في وسطها : « إلى الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشانتيرادزه ، رمزاً لحب ريفيكا الأبدي »، كما رسم وكتب على السجائر بحروف من ذهب شعار الامارة والحروف الأولى من اسم كفاتشي والكلمات التالية التي تلخص سلوكه في الحياة :

« لي . . مرة أخرى لي . . لي وحدي فقط . . ملكي . . من أجلي . . عني . . . » .

— أي معنى تتضمنه هذه الكلمات ياكفاتشي ؟

-- فليفهمها كل كما يريد . هاكم أيضاً .

وعرض كفاتشي لضيوفه الخاتم الثمين والساعة والعصا ذات المقبض

الذهبي ، كانت التحف الثلاث مزخرفة بالماس ونقشت عليها نفس تلك الشعارات .

– غارسون ! الشمامبانيا ليست باردة كما يجب . فظاعة ! لايقدمون في هذا المطعم شيئاً لائقاً.الاناناس أيضاً سيء ، قطعة صغيرة ...

بيسو ! تعال من فضلك واعط هذه الورقة من فئة العشرين روبلا للفرقة الموسيقية . فلتعزف لي الفالس المحبب إلى « ماريا تيريزا » .

لاحظ كفاتشي ، فجأة ملكة ذلك الموسم : مغنية الملهى الفاتنة الباريسية « مدام ليابوش » التي حضرت إلى المطعم للتو .

– سيدراك هاك « بطاقة دعوتي ».ادعُ تلك المرأة ! اسرع قبل ان يصطادها الآخرون .

قطع سيدراك طوق الرجال :

– يرجو الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نتيرادزه ورفاقه ان تشرفيهم بانضمامك إلى طاولتهم !

تفرق الرجال حاسدين ، متمتمين . .

لاقى كفاتشي الفاتنة متمهلاً وقبّل يدها باحترام .

– شارمي دافوتر كونيسانس . . الأمير كفاتشانتيرادزه . . سيل فوبلي ، مدام . . غارسون ! . . شيرمادام ، فولـــــــي فوشوازير ! (١) . .

---

(١) شيء رائع التعرف بكم . . الأمير كفاتشانتيرادزه . . تفضلي سيدتي . . أيها النادل ! سيدتي العزيزة تريدين الاختيار – المترجم

كسّر كفاتشي وسيدراك ، دنسّا وشوّها اللغة الفرنسية الرقيقة الرشيقة . سبح الأمير كفاتشا نيترادزه بين أمواج السكر ، كليلاً مغمضاً عينيه نصف اغماضة . لاحت ريفيكا المستكينة أمام عينيه ، ابتسمت معاتبة ، لكن الشبح الضبابي والخيال المؤقت سرعان ماذاب واختفى . امتصته عينا المغنية الباريسية التي أحرقت وكوت ، ببطء قلب كفاتشي الخابي .

سرعان ماانصاع كفاتشي لهاتين العينين ، جلس ذئباً دامي البوز ، وغاص في أمواج السكر ، وكحصان جامح اندفع نحو لظى الفسق والشبق .

عند بزوغ الفجر ، وبعد أن قدمت مدام ليابوش « نمرتها » الثالثة دخل فرنسي جسيم القاعة واصطحب مدام ليابوش التي ودعت كفاتشي قائلة :

— أدومان ، مون شا (١) .

دهش كفاتشي :

— ماذا ؟ وهل سأتخلى عنك له ؟ أبداً !

— ايل لي مون ماري ، مون شا (٢) .

خرج كفاتشي من المولد بلا حمص . لكن ذلك اليوم لم يستسلم لفكرة ان هذا الانسان هو زوجها . ولم يستطع نسيان تلك المرأة .

عاد كفاتشي إلى البيت خائباً واستلقى في فراشه . ايقظته الخادمة

---

(١) إلى الغد ياقطي !

(٢) هو زوجي ياقطي ! - المترجم

عند الغداء . كانت فيرا هي المعتنية الوحيدة بشؤون المطبخ . فقد غادر الجميع إلى زيارة اقربائهم . استغل كفاتشي الفرصة فوضع زجاجة من الشارتريز على مائدة الغداء التي كان يخبئها للأصدقاء .

اترعا الكأسين وتسليا . عبت فيرا الكأس الصغير ، ثم وضعته على المائدة وقالت :

ــ كفى لن أشرب بعد الآن وإلا سأثمل .

وعندما صب كفاتشي كأساً آخر قالت له :

ــ هذا هو الكأس الأخير . كما لن اسمح لك بالشراب أكثر .

احتست فيرا كأساً آخر ، ومن جديد قالت :

ــ يكفي ، هذا هو الكأس الأخير . لن أشرب أكثر وإلا سكرت .

لكن «الأخير» انتهى مع انتهاء الزجاجة . ضجت الحمرة في دماء الفتاة . لمعت عيناها وبدأت تتململ وتغني وثقل لسانها وغدا حديثهالغواً.

ــ أنت صديقي نابليون . . وأبولون صديقي أيضاً .

ــ وأنت صديقتي « فينيرا » صغيرتي ! ــ أجابها كفاتشي وجلس بجانبها وأحاط بيديه قامتها الممتلئة .

ــ أنت جميل،لكنك رجل بري . . توقف ، كيف يمكن هكذا بسرعة ! . . احبك لكنني أخاف .

ــ مم تخافين يافتاتي !

ــ لاأدري ، أخاف .

ووجدت الفتاة الخائفة في صدره ملجأ مريحاً لها ولقلبها .

ـ لماذا خفت بتلك الدرجة ؟ عبثاً تخافين مني ، لاأعض أنا ولست قاطع طريق . . سنجلس هكذا على هذا السرير ونبدأ .

جلسا وبدأ ! هو فعلاً لم يعض ، لكن جسد « فيرا » العريض وعظامها الدقيقة كانت تئن وتتأوه وتتلوى بين يدي كفاتشي الحديديتين .

ثم اختلطت النشوة بالخوف وقرعت رأس الفتاة الشابة وكالصاعقة شقتها حتى ساقيها .

مضى مايقارب الاسبوعين . ذاب جسد وجيب كفاتشي في مطاردته لمدام ليابوش . أما الشهوة التي أججتها في كيانه فكان يشبعها عن طريق « فيرا » الصغيرة الشقراء . وذات مرة ، وبمبادرة من شيكيا ، اتفق الرفاق وجاؤوا إلى بيت كفاتشي . تناول « فيلسوف الجماعة » أربعة فونتات (١) من العنب ثم قال وهو يتلمظ :

ـ أنا أعرف عنادك ياصديقي كفاتشي ، لكن يجب ان نقف عند حد معين . إذا لم يحد الانسان من رغباته سيهلك عاجلاً أم آجلاً . استمع إلى نصائح رفاقك ، فهم لايريدون لك سوى الخير .

وانبرى لمساعدة تشيكينجلادزه تشيبي تشيبو نتيرادزه الذي أختار لنفسه مهمة الاستخبارات وأسمى نفسه « عين كفاتشي » . وكالعادة تحرك « تشيبي » وتحمس :

ـ كل شيء مدوّن لدي ـ قال بسرعة ـ خلال هذين الاسبوعين انفقتَ ٢٢٣ روبلاً في الملهى و ٨٨ روبلاً ثمن الزهور و ١٤٥ روبلاً

---

(١) يعادل الفونت الروسي ٤١٠ غرامات ـ المترجم

للنوادل و ١٢٤٢ روبلاً ثمن هدايا مختلفة . المجموع ٢١٩٨ روبلاً أيعقل تبذير مثل هذا المبلغ ؟

— أيعقل هذا ؟ استغرب البقية ، أيضاً .

— من أين عرفت ماأنفقته ؟ — سأله كفاتشي .

— لهذا أنا ادعى « عينك » كي أعرف كل شيء . لكن قل لي ماذا تفعل ؟ أمن أجل هذه المرأة يجب أن تفقد عقلك ! من أجلها بعثرت تلك الأموال ؟ ! أوه ، ياماما آه لويعلم سيليبيسترو !

— أيها الأمير ، ماهذا ؟ — استغرب افلاباريان . ألستَ رجلاً ؟ واه ومن لايحب المرأة ؟ أنا أحب النساء والشباب — . واه — واه لماذا تضحك ؟ لم لاأحب ؟ أولسنا جميعاً مسيحيين ؟ كيف يمكن ان تنفق أكثر من روبل واحد على المرأة ؟ وإذا كانت المرأة غاية في الجمال ثلاثة روبلات لاأكثر . أليس من الأفضل انفاق المال مع الأصدقاء . على الأقل تعلم الحكمة من تشخوبيشفيلي . حين يفلس تماماً يخرج مساءً إلى « ريشيلي » أو إلى شارع « ديريبا سوفسكايا » ويفرح عينيه . يسرن زرافات . كل منهن أحسن من الأخرى ، وأنت الحقْ بهن كما يلاحق الذئب الغنم وعندما تطيب نفسك استدعني . أغمض عينيك وأمش خلف . إذا انفقت أكثر من ثلاث روبلات . . لماذا تضحكون أيها البطالون ، ألا أقول كلاماً معقولاً ؟

— أي . . ي . . ي ثب إلى رشدك ياكفاتشي ! على من تنفق مثل تلك الأموال ! أهديت خاتماً ثمنه آلاف الروبلات . لمن أهديته ؟ والعربة الفخمة استأجرتها شهرياً ، لمن استأجرتها ؟ تدفع مائتي روبل لقاء كل وجبة عشاء . عمن تدفع ؟ في سبيل من ومن أجل أي شيء

تتسكع هناك ليلاً نهاراً ؟ ! من الأفضل ان تنفق هذه الأموال في سبيل منفعتنا : ألسنا هنا ! ماذا ستقول لنا ؟ -- قال ذلك غابو بصراحة وخشونة . كان صاحب فكرة الهجوم -- شيكيا -- يجلس مغطياً عينيه وعاضاً لسانه .

عرق كفاتشي خجلاً واعترف بذنبه . أخيراً عاهد رفاقه ان يترك ليابوش ، لكنه في نفس المساء أرسل لها طاقة من الزهر وبعض الحلويات ، وفي منتصف الليل قصد الملهى مرة أخرى، وحتى الصباح تحرق وذاب بنفس النار .

ارتطم المنجل بالحجر ، اصطدم الغطاء بالقدر ، طار الشرر من المنجل وتثلم وبقي الحجر سليماً معافى . كان كفاتشي كفاتشانتيرادزه ابن سيليبيسترو وكانت مـــدام ليابوش بنت باريس المشبعة بحليب « مونمارتر »(١) ويقف وراءها لص مدني عريق يدعونه « الفونس » والبعض الآخر يسميه « القط » . أما هي فكانت تقدمه كزوج لها .

-- مون ماري فيان . . مون ماري أيت ايسي . . ايلي لا . . مون ماري سوفاش (٢) . --

كانت تقول ليابوش بصوت أبح وبشيء من الخوف والهلع .

وكان مسيو ليابوش يظهر ويختفي في الوقت المناسب ، يبتسم

---

(١) مونمارتر : تل بباريس تعلوه كنيسة القلب المقدس يقع على الجانب الأيمن لنهر السين ويشتهر بحياة الليل في ملاهيه -- المترجم

(٢) بالفرنسية : جاء زوجي . . . زوجي هنا . . انه هناك . . زوجي غاضب -- المترجم

ويحملق بعينيه في الوقت المناسب أيضاً . ومن حين لآخر كان يصرف بأسنانه .

نفذ صبر كفاتشي . اهتاج وتوترت أعصابه. كان يمضي بصلابة وعناد نحو الأمام باتجاه مايريد منتظراً ان تثمر جمائله والنفقات التي يبذرها .

أضحت مدام ليابوش في الآونة الأخيرة « ليست في البيت » . مرة ، ومرة أخرى تقوم بتقييد زوجها بالسلاسل .

أخيراً قطع ذاك البارون النقيب « غوغنشتاوفن » الطريق على كفاتشي ووقف حائطاً في وجهه .

ذات مساء وضع ذلك البارون — العملاق الذي يزن ثمانية بودات(١) وذو الشاربين البالغ طولهما شبراً كاملاً — وضع يديه في خصره ، وسّع عينيه اللتين تعدلان حجم الجوزة وسأله بتعالٍ ، وبصوت كصفارة الإنذار :

— من تريدون ؟ مدام ليابوش ؟ دعوتهـــا أنـــا الليلة . . ماذا ؟ وغداً وبعد غد وبعد بعد غد . . ماذا ؟ أجل إنها لي .. أقول هي لي للأبد ! ماذا ؟ أنا لم أغضب بعد ، لكن اذا أغضبتني كان الله في عونك وعون أعدائك . . . أقول أنا لست غاضباً . . ماذا فعلت ؟ إلى اللقاء ! أحلاماً سعيدة !

قال سيدراك في اليوم التالي :

— واه ، واه لوأن هذا البارون المحترم ظهر منذ شهر لكان .

(٣) بود : وحدة وزن روسية قديمة تعادل ١٦٫٣٨ كغ — المترجم

كالهبة من السماء . جاء متأخراً ؟ هذا ماأقوله . لابأس ستتعلم الآن الحكمة ! أيها الأمير ، وبعد كل هذا لاتثق بسيدراك . يصفونك بأنك ماهر ،ماان تحرك يدك حتى تأتيك الأموال من بغداد ! اخ .. أ...خ ! ألأننا ندعوك أميراً حسبت نفسك أميراً حقيقياً ؟ صدقت ؟ . . . استلف لك مائة روبل؟ ماذا ! هكذا سارت الأمور ؟ فرغت جيبك ؟ أي . . .». حسناً سأمضي واستلف . . معي ؟ لوكان مع سيدراك مائة روبل لاشترى حانوتاً في سوق الملبوسات . . حسناً ، حسناً سآتي إليك مساءً ، أما الآن فلنذهب لنأكل لحماً مشوياً (شاشليك) ، ماذا قلتم ؟

— فلنأكل — وافقه الجميع على الفور .

— إلى الشيطان — صرخ كفاتشي وكاد يحطم الطاولة — دكان « أرتين » أفضل من ذاك الملهى اللعين ، كفى طبعاً !

— لقد أعجبني هذا . ليتك خزيت الشيطان قبل الآن . أطلب من « أرتين » . ان لديه دجاجات حراجية تغدو « مدامتك » بجانبهن صغراً .

حقيقة ان رائحة الصابون والفودكا تفوح منهن ، لكن لابأس ضع في أنفك قطناً لمدة خمس دقائق . المهم ألا تلقى البارون !

بعد ساعة كان الخمسة يجلسون في القبو المظلم الرطب ويغنون « مرافابالجامير » . كانت الخمرة الغانجينية الممزوجة تنتصب إلى جانب الخمرة الكاخيتينية . وعلى الخوان القذر تتناثر قطع من الجبن الجورجي والسمك والفجل والأرغفة والخس . وكان اللحم (الشاشليك) ينش على المنقل (١) ويملأ جو القبو بالدخان والرائحة .

---

(١) وردت في النص بنفس اللفظ ، انما جاء حرف القاف جيماً مصرية، المترجم

كان « أرتين » من « سيغناخي » يصفق للخدم ليؤمن الراحة في الشراب لضيوفه . هو أيضاً كان يشرب ويطمئن سيدراك :

— طلبتم « ماروسا » و « كانتكا » أليس كذلك ؟ ستأتيان حالاً ، فقد أرسلت الغلام في أثرهما منذ ساعة . امضوا وقتاً طيباً أيها الاعزاء، اشربوا ودعوني أشرب . . هيا ، جان ، كنيارجان ! جان !

— جليل ، هيا « بيّاتي » — قال كفاتشي .

سعل جليل ، نظّف صوته ثم شرع يغني :

« أتاميندي باشي ايوخ

تشايلاري غيتشيم تاشي ايوخ ،

سورتي سارديم يانيمدا تايداشيم ايوخ . . . »(١) .

لم يتمكن كفاتشي الحاقد من كبح جماح نزواته ، فسبح ، وقد أخذت الخمرة ورائحة صابون « ماروسا » بلبّـــه ، نحو شقة مدام ليابوش . وصل إليها عند الفجر .

والتقى أمام غرفة الضيوف بنفس البارون :

— ماذا ؟ ماذا قلتم أتيتم إلى مدام ليابوش ؟ جيد جداً ! ماذا ؟ ماذا قلتم ؟ تفضلوا أنا اسمح لكم الآن . ماذا ؟ ماذا قلتم ؟ تفضلوا ودّعوها ستسافر اليوم . ماذا قلتم ؟ وداعاً ! .

وتابع طريقه مترنحاً .

---

(١) تعني : ركبت الحصان وتنزهت عبر مياه الشاطىء الرملي دونما رأس ، استلقيت بعد ذلك في فراشي دونما امرأة .

— مون شا — صرخت مدام ليابوش المعذبة عندما فتحت الباب لكفاتشي — انتظر لحظة .. انتظر هناك قليلاً . اليوم زوجي غائب .

اغلقت الباب وعادت إلى الغرفة . نظر كفاتشي من ثقب الباب فرأى زوج ليابوش الذي حمل وسادته تحت ابطه وخرج مسرعاً إلى الغرفة التالية . فتحت مدام ليابوش الباب من جديد ، ادخلت كفاتشي وقالت مرة أخرى :

— ادخل مون شا ، أدخل ! أنت اليوم محظوظ ،فزوجي ليس في البيت . تشجّع !

حين أفاق كفاتشي لم يجد أثراً في الغرفة لا لمدام ليابوش ولا ازوجها ولا لأي متاع من امتعتهم . ارتدى ملابسه وخرج من الغرفة . أراد أن يعطي خادمة الفندق روبلاً ، لكن لم يجد في جيبه حتى خمس كوبيكات . استجمع افكاره وتذكر انه وضع بالأمس في جيبه اربعمائة روبل . لكن اين انفقها وكيف اضاعها ؟ لم يتمكن كفاتشي من تذكر هذا .

بعد أن اختفت مدام ليابوش من أوديسا ، طارت واختفت أيضاً من قلب كفاتشي . بقيت فقط ذكرى مريرة . ذكرى ثلاثة آلاف روبل مهدورة والشكوى التي لاتنتهي وتأوه وتأنيب اصدقاء كفاتشي .

لزم بيسو شيكيا الصمت واكتفى بالاهتمام بخزينة الرابطة ، لكن أفلا بربان لم يستكن ، بل كان يتأوه بين كل دقيقة وأخرى :

— واه ، واه ، واه ! هذا هو « الفراتسا (١) » الأحمق الحقيقي !

---

(١) فراتسا: تعني باللغة الأرمنية « الجورجي » — المترجم

بمبلغ ثلاثة آلاف روبل كان بامكاني ان اشتري نصف سيغناخي. » لاتضحكوا !

ـ الحب يفعل هذا ـ قال تشيكنجيلادزه .

ـ انا أؤمن بالحب ليلة واحدة . هذا كل شيء طبعاً ! ـ قال أيضاً تشخوبيشفيلي .

أخيراً هزّ جليل رأسه :

ـ أتدري ماسأقوله لك أيها الأمير جان . لقد كانت امرأة جميلة جداً . لكن ثلاثة آلاف خسارة . ثلاثة روبلات ـ هوذا سعرها .

مرة أخرى حسم كفاتشي النقاش :

ـ كفى ـ اعلن بحزم ـ ماحدث قد حدث , انتهى كل شيء ! لاتذكروا أمامي بعد الآن اسم مدام ليابوش .

« كيف سقط الحب »

في اليوم التالي ، وفي حديقة جامعة اوديسا ، لاحظ كفاتشي جماعة من الطلبة الجورجيين وكانت تضم النساء أيضاً . ذهب ثم حيّا وبدأ يستمع إلى الحديث .

رأى لأول مرة بين تلك المجموعة طالبة طويلة ممشوقة القامة بيضاء كالثلج ، نظيفة سوداء الشعر والعينين رائعة وفاتنة .

تبادل كفاتشي والمرأة النظرات ، ثم حولت المرأة نظرها وبدأت تستمع بانتباه إلى « ليوشافيدزه » و « ساندروا ارسنا شفيلي » اللذين جرى بينهما جدال قديم . كثيراً ماكانت تسمع كلمات مثل :

ـــ الانطباعية . . الزمرية . . مظهر . . جوهر . . ابدية . . بيئة . .

عزم كفاتشي على الخوض في ذلك الحديث كي يسترعي انتباه النساء ، لكنه بعد ان استمع إلى مضمون النقاش فكر : «ياللشيطان ! يجب ان يتحدث الجورجيون بالسياسة أو الفلسفة . الكلمات ذات الجذور الفرنسية والتي تنتهي بـ « ايزم » افهمها ، أما الكلمات الشيطانية « جوهر » بيئة « لامظهر » ماهذه ؟ ! أو مامعنى « انعكاس » « ابسن » . . « غروبيل » . لاشك انها جورجية قديمة « غروبيل (١) » فيرلن » « ميترلنغ » . . « انونتسيو » . .

ابتعدت « ناديا أرميلادزه » و « فيرتشكا كالوشفيلي » عن المجموعة ولحق كفاتشي بهما . بدأوا يتساءلون عن شؤونهم الحياتية .

ـــ ماالخبر ياكفاتشي . لاتقترب من أحد ، أنسيتنا جميعاً ؟ هكذا يتصرف الناس ؟ ـــ قالت ناديا مؤنبة .

ـــ لانبي في وطنه ! ـــ اضافت فيرتشكا .

ـــ هذا غير صحيح ـــ برر كفاتشي موقفه ـــ لقد انشغلت بالدراسة لم يكن لدي وقت .

تضاحكوا وتمازحوا، شربوا قدحاً من القهوة وأكلوا «بيتي فور» ، تذكروا الماضي . واستعرضوا النكتات الأخيرة . سأل أخيراً كفاتشي :

ـــ ماسم تلك المرأة الواقفة هناك في الحديقة ؟ صوفيا شيفادزه ؟ اراها للمرة الأولى . . تعجبني ؟ لايمكن القول بأنها لاتعجبني رغم أنه

---

(١) غروبيل : بالجورجية « غيمة » اوردها الكاتب كجناس لفظي ـــ المترجم

يلاحقها كثيرون ؟ هذا «الايخشاه كفاتشي : حسناً عرّفاني بها . اين ؟ متى ؟ ستكون عندك اليوم في الساعة السابعة ؟ حسناً سآتي . . وسأحضر لكم شو كولا .

في ذلك المساء تعرف كفاتشي على صوفيا شيفادزة . تحدثت النساء عن الكيمياء ، فلم يستطع كفاتشي الخوض في الحديث ، ثم تذكرن اساتذتهن فانتظر كفاتشي . انتقلن إلى الأدب . صبر كفاتشي . تطلع إلى تلك المرأة – الغزال ، فثمل وامتلأ رغبة .

أخيراً غيّر مجرى الحديث . بدأ حديثاً خفيفاً جذب به « ناديا » . استمعت صوفيا وابتسمت خجلة ، لكنها لم تشارك في تلك النكات .

– إذاً ، أنت لاتكترثين بالسيرك ؟ – سأل كفاتشي صوفيا – ولا بالمصارعة ؟ إنها رائعة . سأريك بكل تأكيد « رايكين » « بامبولا » « أنو اوكيتارو » . « كوستا مايسون ادزه » « بوليا » « فاختوروف » و « القناع الأحمر » . . .

إذاً تعجبك الدراما والأوبرا ؟ انا لم ارها بعد . فلنشاهدها غداً . . لاوقت لديك ؟ ستنصرفين ؟ لماذا تستعجلين ؟ ستتمكنين من تحضير المواد غداً . . . سأرافقك حتى البيت . . ناديا فلنتنزه !

تنزهوا . كانت صوفيا على عجلة من أمرها . امسك كفاتشي بيدها أثناء المسير في الشارع . سحبت صوفيا يدها بحذر ، ثم أسرعت الخطى . شكرت الاثنين عند باب شقتها ، ثم اختفت .

– تأثر كفاتشي كثيراً . واسته ناديا قائلة :

– امرأة جافة متغطرسة . لكنها طيبة القلب . تعمل بدأب ولاوقت لديها . . .

حسناً لاتزعل ياكفاتشي ، وإلا —. . — ابتسمت ناديا محاولة اغراءه منذ ذلك اليوم . واظب كفاتشي على حضور المحاضرات . كان يرى صوفيا في قاعة المحاضرات أو على الأبواب أو في الحديقة أو في الشوارع القريبة . حشد وعزّز لباقته وخبرته وحسن تصرفه وموهبته في سحر واجتذاب النساء . لم تتجنبه صوفيا ، ولم تقترب منه . كانت تبتسم له بهدوء وتضحك بغنج ، وكأنها رضخت له جاذبة إياه إليها، لكنها حافظت على مسافة محددة بينهما . حافظت على ذلك الحاجز ولم تتخطاه، كما لم تسمح لكفاتشي بتجاوزه . حاول ان يكسر ذلك الجدار بلسانه ويده ، لكنه لم يتمكن من كسر جليد ممانعة وحصانة صوفيا .

— سيدة صوفيا ، اقسم بالله وبشرفي أنني لم أر ولم أقابل مثيلةلك!

— ثمة مئات الآلاف والملايين مثلي .

— مايحصل لي شيء عجيب ، أنا مسحور بك !

— انت المذنب الوحيد في هذا ، استيقظ !

— أحاول جاهداً ، لكنني لاأتمكن . لقد جفاني النوم وفقدت شهيتي للطعام . . .

لاأستطيع ان أقوم بأي عمل . . أنا اتألم . . أرحميني ! . .

في تلك اللحظة بالذات ، وعلى نفس المسافة ، كانت صوفيا تحيط نفسها بحلقة من الجليد .

— يكفي . أيها السيد كفاتشي ، بهذا ننهي حديثنا — . . أنا في عجلة من أمري . . وداعاً . . الزم الهدوء ، ثم قامت تخطر بقامتها

المديدة الرشيقة مسرعة في خطواتها الريمية وتلتفت أحياناً متبسمة بعينيها السوداوين ، فتحرك زوبعة السحر نفسه .

— أعملي معروفاً سيدة صوفيا ، لنذهب لحضور الأوبرا أو الدراما ! ؟

— أشكرك ، لاوقت لدي .

— فلنتنزه في الحديقة .

— أنا لاأتنزه مطلقاً في الحدائق .

— فلنذهب سوية في الزورق .

— لاأتنزه . . لاأريد ، ليس ثمة وقت .

كثيراً ماحمل كفاتشي الزهور اليها والشوكولا .

— لاتزعج نفسك ، لاتهدر هكذا كمية من النقود .

أخيراً أهداها ابياتاً من الشعر :

من أجل عينيك السوداوين عفت كل شيء ،
جفاتي النوم واشتعلت لهيبا مستعرا
إذا وهبتني الحياة سيجزيك الله خيراً ،
وان قتلتني لاتحرميني من الغناء

بهذه الأبيات أنهى كفاتشي قصيدته الطويلة التي ضمنها واشبعها بنار الحب التاربيلي (١) وبالدموع والاندفاع وانين القلب ، بالأمل والثقة بعطف صوفيا وعظمة أخلاقها .

---

(١) تاربيل : بطل قصيدة « الفارس في اهاب النمر » للشاعر شوتاروستافيلي .

لكن مع ذلك فالجليد لم يذب ولم تطرد الشمس الغيوم .

ازداد كفاتشي احتداماً وغدا أكثر عناداً وضاعف من ملاحقتها وأقدم على المزيد من الهجوم الصريح .

ذات مرة التقيا مصادفة شحاذاً مشوهاً كان يمسك المارين بغيظ وعصبية طالباً بعناد :

— أحسنوا إلى المشوّه ، أحسنوا ، اتسمعون أم لا ؟ تصدقوا أقول لكم ، أعطوني كوبيكين على الأقل أيها الوقحون البخلاء !

وأتبع السؤال بالشتيمة .

وضحك الاثنان .

— نابليون ابولوفيتش بماذا تتشابهان أنت وهذا الشحاذ ؟

— كلانا يطلب . وهو يطلب مالاً وأنا أطلب حباً !

— تصحيح بسيط : كلاكما لاتطلبان، بل تلحّان وتلحفان في السؤال بعناد وصرامة وتهديد .

أحس كفاتشي بالمهانة . فودعها ببرود دون أن ينبس بكلمة . ثم انعطف وقد قرر في نفسه ان يسرع في هجومه الأخير .

منذ ذلك اليوم تحول إلحاح كفاتشي إلى رجاء وتوسل . رجا من صوفيا الرحمة والعطف،طلب منها ان تشفق عليه وجهد ان يستدر شفقتها .

ذاب وأنّ وأزمع على قتل نفسه .

في كل يوم كان يسأله رفاقه — سيدراك ، تشيبي و « لادي» :

– كيف تسير الأمور ؟

– أخلص ، لماذا تمط الموضوع ! ؟

– إياك ان تخفي عنا انتصارك وتتهرب من تقديم (الحلوان) .

عرض كفاتشي الواقع لأصدقائه بصدق ووعدهم بحفلة شراب .

علمت كل المدينة بغرام كفاتشي وصبوته الجديدة . لذا أصبح الاستحواذ على صوفيا واخضاعها نوعاً من حب الذات . كان كفاتشي قادراً في كل أمر على السير بيسر في الطرق الملتوية متى اقتضت الظروف وعلى الالتجاء إلى الظل في الوقت المناسب . كان يتمتع بالقدرة على الصبر واختيار الوقت والمكان المناسبين والتراجع حين اللزوم ، غير ان صوفيا جردته من تلك المقدرة .

مر زمن طويل . حمسه الرفاق واستحثوه على التنفيذ ، إلا أنه لم يحرز إي تقدم ملموس .

نفذ صبره فقال : .

– اليوم وإلا لن يكون أبداً .

في تلك الليلة جثا كفاتشي عند قدمي صوفيا واعتصر يديه مبدياً أشد حزنه وقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

– ياحمامتي . . ياراثعتي . . ياإلهي وياأيقونتي ! لم أعد أقوى على الصبر . . لقد خارت قواي . . خلصيني من الآلام والعذاب . . أرحميني واشفقي علي . . ياعزيزتي صوفيا ، صوفتشكا . . وأقنع كفاتشي نفسه بهذا الحب ، إذ لمعت الدموع في عينيه وقطب وجهه .

تراجعت صوفيا عن موقفها . ذهلت وأخذتها الدهشة :

– نابليون ابولونيتش ! نابليون ابولونيتش ! . . انهض لقد أثرت شفقتي ، حسناً انهض .. انهض .. لاأستطيع .. لم أعد استطيع . .

وتهدج صوتها واغرورقت عيناها بالدموع . نكس كفاتشي رأسه وغطى وجهه بيديه . سقط على الأريكة وأخذ ينشج كالطفل ويتمتم بحزن وبأس :

– لاأستطيع . لن أستطيع أكثر من ذلك . انا الآن أعرف كل شيء،أعرف كل شيء جيداً . لم يبق أمامي شيء .. انتهى الأمر. انتهى كل شيء !

ازدادت صوفيا حيرة . وأثر الخوف والعطف والشفقة في كسر الجليد وتلطيف القلب وطرد الحذر بعيداً وتحطيم القسوة . ضعفت صوفيا ولانت . جلست مضطربة بالقرب من كفاتشي تداعب شعره الأجعد وتهدئه وتقدم إليه العزاء ، ثم قالت وقد تهدج صوتها :

– كفى . . كفى . . أهدأ . . لاتتألم . . لاتبك ! . . حسناً ، ياعزيزي ، كفى وإلا . .

التصق كفاتشي بيدها وحرقها بالدموع ، ثم أخذ مرفقيها بكلتا يديه وضمها إليه برفق .

مانعت صوفيا قليلاً وبدأ كفاتشي يضمها إليه أقوى فأقوى مبدياً أصراره أكثر فأكثر ، ثم احتضنها تماماً بكلتا يديه وشدها إلى صدره .

خافت صوفيا ، انتفضت ، رجته في البداية ، ثم قاومته ، رد كفاتشي على القوة بالقوة :

ازداد تعنتاً وخيبة ، اشتعل حماسة وتوحشاً . خاضت يداه في انحاء جسدها ثم تحولت للعراك . ألقاها أرضاً وتناثرت خصل شعرها . أشرف كفاتشي على النصر،لكن صوفيا غرزت في الوقت المناسب اسنانها في مرفقه . أنّ كفاتشي بحرقة . امسكت صوفيا بآلة حادة تستخدم لشق صفحات الكتاب ، ثم صرخت لاهثة متقطعة الانفاس :

— بسرعة ! . . غادرْ فوراً أيها السافل الخسيس ! . . أيها الشنيع ، الكريه ! .

— اعذريني . . اغفري لي . اعتذر !— تمتم كفاتشي وهو يكثر من الألم ويلف كوعه الدامي بمنديله .

— أقول لك ، هيا انصرف من هنا ! — ومشت باتجاهه والآلة الحادة في يدها ، والشرر يتطاير من عينيها — حيوان سافل ! — . وحش ! قلت لك بسرعة هيا ! ولاحقته حتى الباب ثم خرج متمتماً .

بعد شفائه عاد كفاتشي إلى بيته حاملاً معه السم ومرارة المهر المنبوذ الحاقد . .

في صباح اليوم التالي جاء اصدقاؤه إليه . تململ كفاتشي في فراشه الدافىء ، تمطى ثم ابتسم .

— كيف الحال ؟ سأل تشيكنجلادزه .

— لقد انتصف النهار، هيا انهضْ ! — دعاه سيدراك افلاباريان .

— لعله عبّد الطريق بالأمس — قال غابوتشخوبيشفيلي — لذا فهو يبتسم ويتمطى بلذة .

— وآه أحقاً مايقول ؟ !

— أهذا صحيح فعلاً ؟

— صارحنا ياكفاتشي ، لاتخف عنا شيئاً .

لم يعترف كفاتشي . كان فمه مغلقاً يحفظ السر خلف سبعة أبواب مقفلة . أخفى اسم المرأة حفاظاً على شرفها وصوناً لعرضها تماماً كما يليق بالفارس والرجل الحقيقي . كان يكتفي بالابتسامة الهادئة ويقلب عينيه ويتمطى بكسل مبدياً أعلى مظاهر اللذة والسعادة والنشوة .

— أقسم بـ « سورب ـ ساركيس » ان الأمر قد انتهى !

— مرحى لك ياكفاتشي ! الغداء اليوم على حسابك .

— هيا ، قل ، خلصنا !

ظل كفاتشي على عناده : لم يقل شيئاً ولم يعترف بأي شيء .

— آه . مااللذي يمكن قوله ! الغداء ؟ أليس العشاء أفضل من الغداء . ادعوكم ، ماالعمل ليس ثمة من مخرج .

ثم تمطى من جديد بلذة . كانت عيناه نعستين ، وعلى شفتيه ترفرف راية النصر .

لاحظ سيدراك يد كفاتشي المعضوضة فاقتنع بشكل قاطع بانتصاره ، كما أقنع الآخرين بذلك .

— واه ، واه ، أنظروا كم هي امرأة شبقة . جزاها الله الخير !

شربوا في ذلك المساء ، مرات نخب كفاتشي متمنين له مزيداً من الانتصارات مستقبلا . اسموه زير نساء وذكروا أيضاً أسم « صوفيا » .

مرة أخرى ابتسم كفاتشي ابتسامة لها أكثر من مدلول دون أن ينزع عن وجهه راية النصر ، مع أنه لم يؤكد ولم ينف قناعة الأصدقاء .

منذ ذلك اليوم سيطر على الوسط الطلابي ضباب مسموم ، هادىء ، غير مرئي أو ملموس ، سبح هذا السم متهادياً ملتفاً كالأفعى وتسلل كموجة دافئة إلى كل اذن ودخل خلسة من بيت لبيت ومن ذاك البيت إلى عشرة آخرين .

تسمم قلب صوفيا وتلطخ وتدنس اسمها الطاهر . تقطر السم تدريجياً في آذان الناس ، نما . تطور واستحال إلى مستنقع نتن .

« كيف انتهى الحب »

نحفت فيرا وذابت .كان الحب المخفي أجدى لكفاتشي . لماذا ، ونظراً لأن الدخول إلى هذا البيت أمر سهل وميسور بالنسبة له ، فقد تجنب فيرا وعلل ذلك بأنه يخشى أن يبوح القبطان سيدوروف أو زوجته أو أقرباؤهما الكثيرون بحبهما قبل الأوان . أينوي كفاتشي الزواج بفيرا ؟ طبعاً سيتزوجها . هذا شيء مفروغ منه ، لكن .. يجب ان تراعي فيرا عادات وأعراف وقانون جورجيـا ، وإلا لن يتمكن مـن دخول بيت أهله ولن يتلقى روبلاً واحـداً من جيب سيلبيسرو ، وهذا الجيب يقدر بمائة مليون روبل .

وعلى الأقل يجب أن ينال كفاتشي موافقة أهله ومباركتهم له ؛ تلك الموافقة التي ينتظرها بين يوم وآخر . طبعاً سينال الموافقة . لقد رجا سيلبيسترو » و « بوبي » كفاتشي منذ زمن ان يتزوج من امرأة روسية وبشكل خاص مثقفة . يجب ألا تقلق فيرا . يجب ان تطمئن وتنتظر رسالة سيلبيسترو .

اطمأنت فيرا عشرات المرات،وانتظرت الموافقة والمباركة من سيلبيستر و كفاتشانتيرادزه .

— مارشال طبقة النبلاء الجورجية .

ذات مرة دخلت فيرا إلى غرفة كفاتشي مسرعة وتعلقت برقبته بكلتا يديها ، وهمست في أذنه خائفة مرتجفة :

— اسمعني . . يجب ان أقول لك انني . . لاول مرة يتحرك .

هاهنا — وألتصقت بصدر كفاتشي مرتجفة منتظرة نصحه وعزاءه .

تصبب كفاتشي عرقاً بارداً . أصابه الخبل ، خاف وتجمد في مكانه . انتظرت فيرا طويلاً عزاءه واستحسانه ، ثم ذكرته من جديد :

— قل شيئاً . . كيف سأتصرف ؟

— انتظري قليلاً ، دعيني أفكر .

ثم قرر بعد أن مسح العرق عن جبينه :

— يجب ألا أبقى هنا بعد الآن . اصبحنا نحن الأثنين كأننا نحيا في سجن لانرى بعضنا ولايمكننا التحدث بحرية . عليّ ان أنتقل إلى مكان آخر . ستأتين إليّ دائماً . . وفي حال الضرورة تستطيعين الانتقال إليّ . . هكذا أفضل .

أعجبت فيرا بقرار كفاتشي .

— انتقلْ هذا اليوم . . لاضرورة للتريث . أي شيء أفضل من هذا؟ نستأجر غرفتين — ثلاث ونحيا بهدوء ريثما تتلقى موافقة أهلك . .

انتقل كفاتشي في اليوم التالي إلى شقة جديدة ، إلا أنه لم يستطع تحديد الوقت المناسب لـ « فيرا » كي يلتقي بها دونما رقيب وليتحدث معها عن المستقبل،أو كي يتعانقا وينسيا الخوف والهموم،ولو لمدة عشر دقائق .

تارة كفاتشي غير موجود وتارة أخرى يجلس لديه سيلراك أو «لادي»، وأحياناً كلهم مجتمعين ولايفكرون بالخروج . كانوا يستقبلون فيرا بود أخوي ، يسلونها ويودعونها باحترام .

وذات مرة جاءت فيرا في الموعد الذي حدّده لها كفاتشي ، لكنها وجدت بيسو شيكيا بدلا منه . استقبلها كصديق ، أجلسها وقال لها بعذوبة :

— أنا أعرفك جيداً ياصديقة . أنت امرأة هادئة عاقلة ، لذا اتجرأ على الحديث معك بصراحة .

— ياإلهي ، ماالأمر ؟ ! أحدث شيء ؟

— أجل،لكن الأمر ليس بهذه الدرجة من الأهمية،كوني هادئة ! يجب أن أقول لك أن كفاتشي تلقى جواباً من أهله .

— وبعد؟ وبعد ؟

— هم موافقون بشكل عام ، وفرحون لأن كفاتشي التقى بامرأة مثلك مثقفة ومن أسرة كريمة . يرسلون مباركتهم لكن . . .

— لكن ماذا ؟

— يكتبون : حين تنهي دراستك الجامعية عندئذ تتزوج .

اضطربت المرأة وتمتمت قائلة :

ـ حسناً . . أنا أفهم لكن ، لكن . . أنا . . ماذا أفعل ؟ كيف سأنتظر ثلاثة أو أربعة أعوام ؟ أنا . . حامل و . . . . قريباً سيكون لدي ولد .

ـ لاتكترثي بذلك . وسيعيلك كفاتشي ، سيقدم لك خمسين روبلاً في الشهر .

ـ لاأدري . . لاأستطيع ان أعقل هذا . . يجب أن أفكر . . علي أن أدرك . . .

ـ لقد قلت أنك امرأة ذكية ! ـ قال بيسو فرحاً ـ فكري ، فكري بكل تأكيد . وداعاً لاتقلقي ، أفهمي ذلك بهدوء .

مضت المرأة الشاحبة نحو الباب مترنحة . لكنها توقفت بعد أن تذكرت شيئاً فالتفتت قائلة :

ـ حقاً ، لقد نسيت ، أين كفاتشي ؟ لماذا لم يقل لي هذا بنفسه ؟

ـ كفاتشي عند عمه ، الذي قدم بالأمس من تفليس .

ـ لابأس . . . حسناً . .

ثم تابعت سيرها . ترنحت ، استندت إلى الباب ، كادت ان تقع وبصعوبة بالغة استطاعت ان تجر رجليها المخدرتين .

ترددت فيرا بعدئذ مراراً على بيت كفاتشي لتراه ، لكنها لم تجد عريسها .

ذات مرة التقيا في الشارع . أمسكت فيرا بيد كفاتشي وانتحت به جانباً ، ثم قالت له هامسة والدموع تترقرق في عينيها :

– ماذا تزمع ان تفعل بي ؟ لقد علمت أمي كل شيء وطردتني أمس الأول من البيت ، فآوتني إحدى صديقاتي . ليس لدي كسرة خبز .

– اطمئني سيكون كل شيء على مايرام . لايمكن الحديث عن هذا في الشارع . هيا خذي خمسة روبلات كمصروف، وتعالي إلي في السابعة من هذا اليوم حيث سنتحدث .

– لقد مررت عشر مرات ، لكنك لم تكن في البيت .

– ماالعمل ياحبيبتي . لاوقت لدي ، لكن سانتظرك اليوم . كوني مطمئنة لاتقلقي ! في ذلك اليوم استقبلها تشيبوتيرادزه بدلاً من كفاتشي . دعاها إلى الغرفة وقال لها بلا مقدمة :

– لماذا علقت على كفاتشي ؟ وهل أنا أسوأ منه ؟ امرأة جميلة مثلك تستطيع امتلاك رتل من الرجال وان تعيش دونما هموم .

احتضن لادي فيرا وضمها إليه . لوت فيرا وجهها عنه وراحت تنشج بشكل هستيري . خاف لادي، أحضر ماء واستطاع بصعوبة أن يعيد الوعي للمرأة ، التي كادت ان تفقد ذاكرتها .

هكذا تخلص كفاتشي من المرأة التي كان يحملها ، مازحاً، على كتفه . لكن بعد أسبوعين أبلغته الرابطة الطلابية ان الطالبة سيدوروفا قد رفعت شكوى ضده . فكر كفاتشي أولاً ، ثم تساءل :

– وهل سينظر في الدعوى علانية أمام الجمهور ؟

– طبعاً ؟

– أنا موافق .

وفي المساء تحدث كفاتشي مع بيسو :

— هذا مالن يقوم به تشيبي أو سيدراك أو غابو .

— مامعنى « لن يقوموا به »؟ وأي اصدقاء هم إذا لم يساعدوا صديقهم في محنته ؟ إذا رفضوا الانصياع قل لي وأعرف عملي . . هيا أشرح كل شيء لثلاثتهم وأرشدهم .

جرت محكمة رفاقية في ذلك اليوم أمام رابطة الطلبة الجورجيين . قصت فيرا سيدروفا باضطراب قصتها للرفاق،وقد أحمرت وشحبت خجلاً . قالت متلجلجة في كلامها : عاش كفاتشي في بيتنا ، استمالني إليه ، أعجبت به ، أحببته وأقسم لي بأنه سيتزوجني ، ثم خدعني : عشنا فترة طويلة سعيدين ، لكنه حين علم بأنني حامل برد تدريجياً . . تهرّب مني ولم يعد يلمسني . لم تدر أمي شيئاً في البداية ، لكنها بعد أن عرفت طردتني من البيت . . وبقيت بلا كسرة خبز . . يطعمني الأصدقاء شفقة . . احياناً لايملكون نقوداً لشراء الخبز . . بين يوم وآخر سأدخل مشفى التوليد، ومن أين المال ؟ وكيف؟ على من سأتكل ؟ ماذا أفعل ؟ علموني ماذا أفعل ! كيف اتصرف ؟ وأجهشت أم طفل كفاتشي المقبل ومحظيته بالبكاء . بكت كطفل غر .

— ماذا تقول ، أيها الرفيق كفاتشا نتيرادزه ؟

— كل شيء صحيح، لكن أود أن اصحح واقعة واحدة : أنا لاأدري أهو ولدي أم لا . .

— كيف لاتعرف ! طالما عشتما معاً . . ابن من إذاً ؟ قل .

— صعب أن أقول، صعب جداً . لكن، بما ان هذه المرأة لم تخجل وعرضت هذه القصة أمام الناس، فأنا مضطر أيضاً لأن أقول كل شيء .

ـ قل .

ـ القضية ان لتلك المرأة زبائن غيري . .

ـ شحبت فيرا وانتفضت :

ـ ماذا ، ماذا قلت ؟ ثمة آخرون سواك ؟ من ؟ من هم الآخرون ؟

ـ اسمحي لي بالكلام أيتها السيدة ، قولي أولاً : اتعرفين تشيبي تشيبونتيرادزه ، وسيدراك أفلاباريان ؟

ـ اعرفهما . . لقد عرفتني ـ أنت بهما . . كثيراً ماكانا يزورانك . . وماذا بعد ؟

ـ لقد كانا يزورانك أيتها السيدة أكثر مما يزورانني وكنت تزورينهما أيضاً .

سألزم الصمت الآن . تستطيعون استيضاح الشهود .

ـ كيف لا ـ أكد سيدراك مقالة كفاتشي ـ لقد زرتها وزارتني . . الحديث عن هذا شيء مخجل ، لكنني لاأرضى ان أكون مخادعاً وسأقول الحقيقة . نعم لقد حدث ذلك ، حدث لكن . متى ؟ منذ مايقارب الثمانية أشهر . .

وكرر تشيبي تشيبونتيرادزه نفس المقال بهدوء وثقة ودون خجل .

جمدت فيرا سيدوروفا ، تصلبت كالحجر ، ثم راحت تضرب الطاولة بقبضتيها الصغيرتين وتصرخ لاهثة :

ـ كذب ! كذب !

ثم خلطت الصراخ بالضحك . . ارتجفت وترنحت بين يـدي

صديقاتها وانتهى الأمر . توجه كفاتشي واصدقاؤه المخلصون إلى الدكان الجورجي حيث كـان بانتظارهم أرتين واللحم المشوي (الشاشليك) والسمك والخمرة الكاخيتينية .

هكذا انتهى حب كفاتشي الأول والأخير .

« افلاس كفاتشي وملعقة الخشب الصغيرة »

ساءت أمور كفاتشي — ساءت جداً ، نفذت نقوده . لم يعد يستطيع مماشاة رفاقه وضعف تأثيره عليهم وكفوا هم عن الالتفاف حوله وتقديم الإطراء والثناء والتمجيد له وابتعدت النساء عنه . من الصعب ان يحيا تحت الديون ، فقد بدأ الخياط والحذاء والغسالة باظهار عدم الرضى ، كما هدد الحوذي بالشكوى ، وبدا كفاتشي بلامال كسمكة بلا ماء تتلوى على الشاطىء متقطعة الانفاس .

أصبح كفاتشي ،بلا نقود،يشبه إلى حد كبير سمكة بلا ماء ، أو نسراً بلا أجنحة أو حصاناً دون قوائم .

أخيراً أخبر سيليبيسترو عن مصاعبه ، فأرسل إليه ثمانين روبلاً محملة بالنصائح والعتاب . تناول « ابن سيليبيسترو » الغداء في مطعم « أوروبا » . وبعد انتهائه من الطعام دس الملعقة الفضية في جيبه بمهارة ومضى ، وكرر هذا في اليوم الثاني والثالث .

نفذ صبر صاحب المطعم ، جمع كافة العاملين لديه وأعلن بحزم :

— كل يوم نفقد ملعقة فضية — لم يتعرض هذا المطعم لمثل هذه الفضيحة من قبل . السارق واحد منكم . أو من الزبائن . إذا لم تجدوا اللص خلال ثلاثة أيام سأفصلكم جميعاً عن العمل . هيا ابحثوا . .

وحسم قيمة الأدوات المفقودة من رواتب العمال .

في ذلك اليوم تشجع كفاتشي غاية الشجاعة . أخذ الملعقة الفضية أمام عيني الخادم ودسهـا في جيبه . دهش الخادم وجرى إلى صاحب المطعم فرحاً . استغل كفاتشي اللحظة المناسبة وأعطى الملعقة لبيسو شيكيا قائلاً له :

ـ سترى ماذا سيجري لهذا الأبله . هيا أسرع وخبىء هذه الملعقة في أي مكان .

أرسل صاحب المطعم أحد الخدم ليحضر شرطياً ، ثم مضى هو بنفسه نحو كفاتشي وقال له مبتسماً :

ـ لي عندك رجاء بسيط ، أرجو أن تتفضل إلى مكتبي لدقيقة واحدة !

بعد عدة دقائق ، وعندما وصل الشرطي إلى المكتب ، هجم صاحب المطعم على كفاتشي :

ـ لص ، قاطع طريق ، سارق الملاعق ، نشال . هات ملاعقي ! فتشوا حالاً هذا المحتال . لقد سرق عشر ملاعق . . وهاكم الآن في جيبه ملعقة .

استمع كفاتشي بصبر إلى سيل الشتائم ، ثم التفت إلى الشرطي وقال :

ـ فتشوني ، أنا موافق ، لكن . .

اعتذر الشرطي ، فتشه فوجد في جيبه اليسرى ملعقة صغيرة من الخشب .

ـ أهذه ملعقتكم ؟

نظر الجميع إلى بعضهم فاغري الأفواه .

لفّ كفاتشي رجلاً على رجل ، وقال للشرطي بهدوء :

ـ أرجو كتابة محضر فوراً ـ ثم توجه بكلامه إلى صاحب المطعم ـ سأودعك السجن جزاء ادعائك الكاذب لمدة ستة أشهر .

نتف صاحب المطعم شعر رأسه صائحاً بألم :

ـ لقد اصطادني هذا الفلاح ، اصطادني !

ـ أرجو أن يتضمن المحضر هذه الكلمات أيضاً ـ قال كفاتشي ذلك ملتفتاً نحو الشرطي . كتب الشرطي .

ـ أي محضر ؟ ماهذا المحضر ـ قال صاحب المطعم ثم وجه كلامه إلى الخدم ـ هيا انصرفوا من هنا أيها الحمقى .

وبعد انصرافهم اختطف المحضر من بين يدي الشرطي، ثم مزقه وقال بخنوع :

ـ لاضرورة لخسارة الورق . باختصار كم تريدون ؟

فقال كفاتشي بايجاز :

ـ ثلاثة آلاف .

وبدأت المساومة والمماحكة . بدأ صاحب المطعم بمائتي روبل وارتفع حتى وصل للالف . أخيراً ، وبعد جدال طويل وتدخل بيسو ، اتفقا على مبلغ ألف وخمسمائة روبل .

حمل كفاتشي تلك الأموال وطرحها على المنضدة قائلاً :

ـ هي ذي الأموال التي جاءت دونما عناء . ملعقة خشبية وعقل

كفاتشي والنتيجة ألف وخمسمائة روبل . كنت بأمس الحاجة ، وإلا لكان بامكاني أن أحصل على ثلاثة آلاف روبل، كما لو أنني أحصل على ثلاثة روبلات .

قص بيسو حكاية الملعقة الخشبية للرفاق الجائعين بالتفصيل ، وعلا الضجيج واللغط والمديح للقائد وابداء الرغبة بتقليده، ثم ضجوا وتخاصموا . أصر أفلا بريان على المبلغ المدين به لـ « أرتين » مع فوائده وطلب تشيكينجيلادزه مائة روبل ، كما طلب تشيبونتيرادزه مائتي روبل . عدوا النقود وتقاسموها .

واستطاع بيسو شيكيا ان ينقذ بصعوبة الخمسمائة روبل التي بذروها خلال الاسبوعين الماضيين .

بعد مدة قصيرة سار كفاتشي ماداً لسانه مفلساً . ساعده سيدراك، إذ أحضر له رزمة من الأوراق الجديدة وقال مرتجفاً وعيناه تقدحان غضباً :

ـــ خذ أيها الأمير . كن حذراً والا ستهلك نفسك وتهلكني معك . لاتنفقها في المخزن الكبير، أو في المطعم الفخم . تردّد على التجار الصغار، اشتر « بزراً » أو « سجائر » ، تنزه أحياناً في عزبة مكشوفة . ربع هذا المبلغ لمصروفك الشخصي . حسناً كن حذراً وإلا .

صرف كفاتشي تلك الأموال خلال يومين وكاد أن يهلك : لكن أعاد « مخلان » الأموال إليه . ذعر سيدراك :

ـــ قلت لك لاتتردد إلى الأماكن الفخمة ، لكنك لم تضبط نفسك ووزعت تلك الأموال في المقهى . طبعاً لن أعطيك بعد الآن . ماذا ؟ قلت لا . انتهت الأموال .

انتصب كفاتشي مرة أخرى ، لكنه عاد وأنحنى :-

— سيدراك ، ساعدني !

— ماذا ؟ أساعدك ؟ حسناً سأساعدك فالصديق وقت الضيق لكن اتدري ماسأقوله لك ؟ المخاطرة نهايتها وخيمة . هيا أعمل عملاً شريفاً . أنت ذكي وماهر . السمسرة تليق بك . عندي عمل لك اسمعني . .

« كيف اصبح كفاتشي وسيطاً »

بعد يومين صار كفاتشي يدور من أسرة لأسرة ومن متجر إلى متجر . آلمته عظام وجنتيه وانعقد لسانه وطن رأسه من كثرة الثرثرة .

منذ بداية أيار صار كفاتشي يبيع مدافىء من طراز جديد « غليوسا » . مدح كفاتشي البضاعة ، نفخ فيها ، بالغ في إظهار محاسنها وقرأ على المشترين محاضرة بالكيمياء الحرارية .

— تريثوا قليلاً ، استمعوا إلي . . هنا تصبون زيت الكاز وترفعون هذا . وتخفضون هذا . . هذا مكشاف حراري . نصف فونت من الكاز يدفيء خمس غرف في اليوم . خذوا الناحية الاقتصادية بعين الاعتبار .

— لانريد ، ياأخ ، عندنا مدافىء حائطية في كافة الغرف . وماحاجتنا للمدافىء . في أيار لاأحتاج إليها أبداً .

— انتظروا . هبوني خمس دقائق من وقتكم . . فكروا بالتوفير .. كانت حسابات كفاتشي تقول باقتناء المدافىء بأي شكل . فهي شبه

مجانية ومصروفها خلال العام يقارب الروبلين . باع خلال أسبوع عشر مدافىء .

أخيراً وصل إلى رجل يدعى « غوفشتين » . تصادما ثم علقا ببعضهما . استقبله غوفشتين ببرود . رفض بصلابة حتى أنه أمسك بقبعته وكأنما يتهيأ للخروج . أخيراً بدأ يصرخ :

— لاأريد ، أقول لاأريد .

ازداد كفاتشي عناداً . لم ير قبعة غوفشتين ولم يسمع لهجته التي توحي بنفاذ الصبر . وتابع وكأنه يقول : يجب ان تشتري هذه المدفأة هذا والسلام ! مالم أبعكم هذه المدفأة لن تخرج من هنا . جلس بلادعوة وأخذ راحته ، إلى أن قال له :

— كم تريدون ثمنها ؟

— سبعة عشر روبلاً وخمسة وعشرين كوبيكا .

— خذ ، ثم دعني وشأني .

— هاك إيصالاً . وداعاً !

— تريث . . أود أن أقول لك كلمتين. تفضل وأجلس .. اسمعني ، الآن أنت : تحتـــاج القطة إلى هذا الكتاب أكثر مما احتاج أنا إلى هذه المدفاة . لاترسلها، دعها لك ، أو بعها أو أقذف بها حيث تشاء أو أهدها إلى فقير محتاج . سابقاً لم يبعني أحد قط مثل هذه البضاعة التافهة . مرحى لعنادك وصلابتك ! لاشك في انك تمتلك موهبة السمسرة. أتعرف شيئاً في التأمين ؟ لا؟ لايهم ستعرف كل شيء بعد ساعة .

— اسمعني جيداً أنا خبير في التأمين أعمل في مؤسسة «سالاماندرا». إنها أضخم وأغنى الشركات الروسية . رأسمالها الأساسي مائة مليون من الروبلات ، ربحها الصافي عشرة ملايين . القيمة الأسمية لسهمها مائة روبل وقيمته الفعلية ثلاثمائة وواحد وأربعين روبلا . تصفح جريدة اليوم . . سالاماندرا تشتري وتبيع شركات « روسيا » « المرساة » « شركة الشمال » « الفولغا » و « موسكو » . . سأعينك عميلاً في شركة التأمين على الحياة ضد الكوارث . المرتب ؟ لابأس . ستقبض حسب النسبة المئوية . بعض العملاء يتقاضون الفي روبل في الشهر . نعم ألفين . سأشرح لك الآن أسس وقوانين وتقنية التأمين .

في ذلك اليوم تناول كفاتشي طعام الغداء لدى غوفشتين ، ثم تلقى درساً آخر وعاد مساء محملاً بالجداول والتسعيرات واللوحات الدعائية .

كان البحار كوليدس — صاحب البيت الذي يقطنه كفاتشي — موجوداً في المنزل .

— كيف ؟ أنت حتى الآن لم تؤمن على حياتك ؟ بحار ولايشترك في التأمين ؟ ! أنت معرض في كل يوم لخطر الغرق أو المرض أو الشيخوخة . . ماذا ستترك لأرملتك وأولادك ؟ كيف ستقابلهم في العالم الآخر ؟ ماذا ؟ أنت لاتنوي الرحيل عن هذا العالم . حسناً،إذا عشت عشرين أو خمسة عشر عاماً ستتلقى أموالك مع الفوائد . التأمين هو الطريق الوحيد لادخار وتنمية الأموال .

ان مت وأن عشت ستكسب على أية حال . . وإذا ؟ نصحوك عشر

مرات ولم يستطيعوا اقناعك ؟ تخاف الموت ؟ من الأفضل ان تموت بطمئناً بأن أسرتك لن تتسول . . أما زلت تخاف ؟ هراء ! وهل سيكون صعباً عليك دفع خمسمائة روبل في العام ؟ ليس صحيحاً.لاتنظر إلى الآخرين ، على العكس يجب أن تكون قدوة حسنة للآخرين . . هاك بعض المعلومات القليلة : في الولايات المتحدة ٩٩,٧٪ من السكان مشتركون في التأمين وفي أنجلترا ٩٧,٩٪ ،في المانيا ٩٤,٣٪ ،في روسيا ٠,١٪ .كم نحن متخلفون بالنسبة للعالم المتمدن . هاك مثال على جهلنا وعدم ثقافتنا ! لا أيها المحترم لقد أرسلت إلى أسرتك ملاكاً منقذاً ، ولن أهدأ مالم أسجلكم في التأمين . تتسرعون ؟ لابأس لاتتأخر . . لامال لديك ؟ لابأس يكفي الآن مائة روبل وستدفع البقية فيما بعد . . حين سيرسلونها من بطرسبورغ ستدفعها .

الأطباء ؟ غداً سيفحصونك . هاأنا أكتب . . اسمك !؟ اسم عائلتك ؟ تاريخ ميلادك ؟ ستؤمن بمبلغ عشرة آلاف روبل . . هاك الايصال . . وقّع هنا . . اعطني الآن مائة روبل . . اشكرك . . اذهب الآن وداعاً ! . .

خلال نصف ساعة « كسب كفاتشي » كوليدس . وبعد كوليدس تتالى المشتركون بلا انقطاع . أرسل كوليدس كفاتشي إلى إيفانوف ، وأرسله إيفانوف إلى بتروف ، ومن بتروف إلى بافلوف ومن بافلوف إلى سميرنوف .

ــ كيف لم تؤمنــوا حتى الآن ؟ عجيب ! غريب ! هــذا شكل من أشكال تخلفنا .. في الولايات المتحدة ٨٩,٧٪ من السكان

مشتركون في التأمين،في انجلترا ٨١٫٣٪ في فرنسا ٧٩٫٤ ٪ في روسيا ٧٪ .

ألحّ ، تملّق عليه ، لاحقه ، أقض مضجعه واضناه ولم يدع الضحية المختارة حتى سجلها واصطادها بشباكه .

جرى كفاتشي من الصباح وحتى المساء . دار ، فتل وهو يثرثر نفس مقالته ويكرر كلاماً محفوظاً ويضيف الكثير من التلفيق . كان يخيف البعض بالموت ويغري البعض الآخر بتكديس الأموال . ينظم الطلب والإيصال،يجمع النقود ويسلم بوليصة التأمين للزبائن ويشبع أثناء ذلك منافسيه عملاء الشركات الأخرى بالشتيمة والقذف :

— شركة « روسيا » بين يوم وآخر ستنتهي،« الفولغا » إعلنت افلاسها .، « موسكو » ؟ لاتعطي زبائنها المؤمنيّن نقوداً . . العميل « كاربوف » ؟ نشال،كاتسمان ؟ محتال . . سيخوفيتش ؟ مبذّر . . لاتثق به . . أمنّوا على حياتكم ، ثقوا بي وإلا ستندمون !

أضحى كفاتشي قريباً للجميع وجزءاً من كل أسرة .

— آ. . آ ، مرحباً أيها الأمير نابليون أبولونوفيتش،كيف حالك ؟ تفضلوا ، أيها الأمير شرفونا !

تارة كان كفاتشي يشرّف بطرس ، وتارة أخرى بافلوف ، يتغدى مرة عند ايفانوف ويتعشى مرة أخرى عند سيدور ، وينادم أحياناً « كوروما » . امتلأ جسم كفاتشي ومتن وبدأ يتعجرف .

أصبح لديه عشرات الأتباع واستأجر من جديد عربة مكشوفة شهرياً ، سدد ديونه ، لـ« سيدراك » وأمن أعمالاً لبقية رفاقه .

ومع ذلك ظلت تقلقه وتقض مضجعه فكرة واحدة: ليست لديه أموال فائضة. كان يكسب كل شيء بشق النفس وبالعمل الدؤوب. كان ينفق اليوم مايكسبه بالأمس وما سيكسبه غداً سينفقه بعد غد وبعد بعد غد سيضطر للسعي من جديد والبحث عن زبائن جدد والثرثرة كرة أخرى واقناع الناس – باختصار نفس الاهتمامات: العمل كل يوم وسفح العرق والمواظبة من جديد. لكن كفاتشي كان يحلم بحياة مغايرة تماماً. كان يتطلب من عالمه الكثير: انتظر الحرية والترف واللذة، لكن الأولى والثانية والثالثة تتحقق بالمال. هذا ماكان يعرفه كفاتشي جيداً. تتحقق بالمال الكثير الذي يودع في المصرف في حساب « جار » وما على كفاتشي سوى أن يوقع الشيكات ويوزعها شمالاً ويميناً. لاتتوفر لدى كفاتشي مثل تلك الأموال. وبها فكر كفاتشي وإليها سعى.

– لماذا لاتسجلون بأنفسكم في مؤسسة التأمين ؟ – سأل غوفشتين ذات مرة كفاتشي.

وفي ذلك اليوم سأل كفاتشي نفسه:

– فعلاً لماذا لاأؤمّن أنا بالذات ؟ لماذا لايؤمن سيلييبيسترو ؟

ومنذ ذلك اليوم اشتعل كفاتشي حماسة.

« كيف أمن على بيته وحياته »

ظل كفاتشي، كما في السابق، يجري جيئة وذهاباً، يسعى ويفكر، يفكر ويقيس، يزن ويقدر ويحسب، حسب ثم كتب:

« والدي العزيز، أبي الطيب سيلييبيسترو!

املأ القسيمة المطبوعة المرفقة بهذه الرسالة بشكل صحيح. اعطها

ﻟ (كولاتساليكادزه) كي يملأها . يجب أن اؤمن لك بمبلغ عشرة الآف روبل . لاتسألني السبب،سنلتقي قريباً وسأقول لك كل شيء . ثمة عميل لشركة « سالاماندرا » (فولوديا شاريدزه) . أذهب إليه وسيقوم هو بكل شيء . قل له إن كفاتشي عميل أيضاً ، لذا لاتدفع له أية عمولة . أرسل إليك ثلاثمائة روبل . اعط مائة روبل للعميل وخذ مائة لنفسك والمائة الثالثة تدفعها بعد أن تستلم بوليصة التأمين من بطرسبورغ . حين تتلقى البوليصة أرسل لي برقية تخبرني باستلامك لها.

سأسافر إليكم وأدبر كل شيء . لاتخطىء وتصرف كما ذكرت في رسالتي بدقة . بالإضافة إلى ذلك أمن في « شركة موسكو » على بيتك بمبلغ كبير ، وأنت لاتحتاج لارشاداتي،فأنا أعلم أنك قادر وستتدبر أمر العميل .

أنا بصحة جيدة،لاتقلقوا علي . لقد احزنتني جداً وفاة « تفيتشيا ». لقد سررت جداً لحيازتك رتبة ملازم ثان (١) . انت تستحق أكثر من ذلك ، لكن لابأس البقية ستأتي في حينهـــا . أنا مدين قليلاً ﻟ « بريمو »،« لايتادزه »، « ولليهودي دانييل » . انقل تحياتي للجميع وقل لهم أني سآتي قريباً وأسدّد ديوني .

أنا أبكي دموعاً مرة لانني لم أر منذ مدة أحبتي«بوبي»،«خوخو» و«نوتيو » . قبلاتي للجميع . من يدري ربما نقلتكم ، فيما لووفقت ، من هذه البلدة القذرة كوتايسي إلى تفليس . صلّوا للاله وسيستجيب لكم.

إبنك كفاتشي

---

(١) إذا كان الأمير أو النبيل لا يشغل منصباً حكومياً وترغب الدولة بتكريمه كانت تمنحه رتبة ملازم ثان وتسمح له بحمل تلك الرتبة .

ملاحظة : أخبرني أما تزال الأرملة التي باعتنا البيت ـ «فولكوفا» حية . انهيت السنة الثانيةوبقيت لي سنتان دراسيتان . لاتخبر أحداً بمجيئي.

ابنك كفاتشي

وفي نفس الوقت قدم كفاتشي طلباً إلى « سالاماندرا » بأنه يرغب بالتأمين على حياته ضد الأخطار بمبلغ عشرين ألف روبل .

ـ ألا تنوي ان تؤمن على حياتك ؟

ـأخاف ، لاأريد فأنا مازلت شاباً . أما الحادثة الطارئة قد تحدث لي . . كثيراً ماأسافر ،قد تتعرض العربة للاصطدام ، أو قد تقع قطعة قرميد من السطح على رأسي .

تلقى بعد أسبوعين البوليصة ، ثم استلم برقية من كوتايسي برقيةتقول : «تلقيت البوليصة ،سيليبيسترو» . بعد مرور عدة أيام أعلن كفاتشي لرفاقه فجأة : « لقد مرض أبي سيليبيسترو . سأسافر غداً إلى كوتايسي » .

سافر كفاتشي وبيسو على جناح السرعة بحراً . وفي اليوم الخامس دخل كفاتشي بيته الذي أمضى فيه العام المدرسي الأخير وحيث كلف العم « خوخو» وسيليبيسترو غاليا . علت الضجة واللغط وأصوات الفرح في أسرة سيليبيسترو ، كثرت القبلات والعناق والشراب . كادت أم كفاتشي أن تصاب بالاغماء من هول المفاجأة ، وبكى الشيخان « خوخو » و « نوتيو » . أما سيليبيسترو فكان يبتسم نافشاً ريشه إذ كانت كتافيات الملازم الثاني تزين منكبيه العريضين .

بعد أن سأل كلٌ منهم عن أحوال الآخرين وبعد أن مضت موجة

الاضطراب دخل كفاتشي وبيسو وسيليبيسترو المكتب وأغلقوا الباب ، تهامسوا ، تحادثوا وفكروا طويلاً .

فكروا بالأمر وحسبوه طوال أيام ثلاثة ، حفظ كفاتشي عن ظهر قلب بوليصتي التأمين على حياة سيليبيسترو وبيته . سر كثيراً لأن قيمة البيت لاتزيد على أربعة آلاف روبل ، في حين أمّن عليه بمبلغ عشرة آلاف.في اليوم الرابع لم يتمكن سيليبيسترو من النهوض من الفراش. كانت تؤلمه احشاؤه . فأنّ وشكى .

مر أسبوعان آخران . وجد الأطباء لدى سيليبيسترو ملاريا مرة والتهاب معدة مرة أخرى وداء السكري والسرطان في مرات أخرى .

ــ آه كيف يمكن أن نثق بالطبيب المحلي في كوتايسي : قال سيليبيسترو وأفراد أسرته ــ الحمد لله أنّ كفاتشي هنا، سيأخذ المريض إلى أوديسا أو تفليس .

دار كفاتشي وبيسو في كافة انحاء كوتايسي،تذكرا « بريمو المنتفخ » « لايتادزه » واليهودي « دانييل » ولم ينسيا « شوليا » وزوجته المخلصة « صفيرى » .

لم يجد كفاتشي « شوليا » في البيت . وهذا مالم يزعجه . وبهذا الصدد كادت رجلا « صفيرى » ألا تحملاها من الفرحة ، تذكر كفاتشي وصفيرى ايامهما الخوالي وتذوقا مرة أخرى بقايا حبهما الناعم الذي غطاه العفن .

ولم ينس بيسو أيضاً صفيرى . هو أيضاً ذكـّر سيدته السابقة بأيامهما الماضية الحلوة التافعة .

بعد أن علمت الأرملة « فولكوفا » بمقدم كفاتشي أغلقت على نفسها باب غرفتها الرطبة المظلمة وأمضت الوقت الذي صرفه كفاتشي في اللهو . أمضته بالصلاة والصوم . كانت تخجل من كفاتشي وتتحاشاه وكأنها — يبدو أنها خرفت — خدعته وسرقته ، ثم تركته بعد ان سلبته كل شيء .

أخيراً دثّر كفاتشي جيداً سيليبيسترو الضعيف الواهن ونقله إلى تفليس. وهناك في «ديدوب» استأجروا بيتاً هادئاً مؤلفاً من ثلاث غرف وبدأوا العمل . في اليوم التالي تجول كفاتشي باحثاً . فتح عينيه جيداً وأشتم ماحوله . جرى جمع وثائق ، فتّش عن شيء ما ، وأخيراً عرفه ومشى في أثره حتى وجده .

ذهب كفاتشي ذات مرة إلى عجوز روسي في الثمانين من عمره وسأله :

— أأنت صاحب هذا البيت ؟

— نعم ، أنا .

— أيعيش عندك « أوانيس شابوريانتس » ؟

— إنه حارسي . هو مريض جداً .

— مريض ؟ ماذا به ؟

— أصابه الشلل منذ أسبوعين . لقد شلت أطرافه اليمنى ولسانه .

— ياإلهي ، لماذا لم أعلم قبل الآن ؟ ربما كان بامكاني مساعدته . لاتستغربوا ! نحن أصدقاء قدامى. غرقت ذات مرة في نهر كبير فساعدني أوانيس ونشلني من النهر . .

انقذني من الموت وكاد أن يغرق هو بالذات . ثم فقدنا بعضنا ، وهاقد وصلت للتو من روسيا وعرفت مصادفة ان « أوانيس » لديكم .

ـ ستقوم بعمل نبيل فيما لو أعتنيت به . ليس له أقرباء على وجه الأرض ،ولايوجد لديه مقربون يهتمون به . إنه من تركيا هاجر إلى هنا .

ـ أعرف ،أعرف أنه أرمني من « وان » قتل الاتراك أسرته . . ياإلهي ، ماذا يحصل لي ، كم تأخرت ! أرني بحق الإله ذاك المسكين .

ـ تفضلوا ! أنا نفسي احتاج للمساعدة ، ولا أدري ماذا أفعل للعناية به . لقد أزمعت اليوم على مراجعة المستشفى راجياً عساهم يقبلونه . .

ـ آه ، لاتفعلوا هذا . أنا سأتولى العناية به .

في القبو المظلم الرطب ، القذر كان ثمة جسد هامد لاحراك فيه ملفوف بخرق نتنة .

ـ باري لوست أوانيس ! كيف حالك ؟ عرفتني نعم ! هاقد جئت . . وجدتك بصعوبة . . لقد انقذتني ذات مرة من الموت وجاء الآن دوري . . يجب أن تذهب معي . لاتخف ! خلال اسبوعين سأجعلك تقف على قدميك . . حسناً اين بطاقته الشخصية وأوراقه ؟ لديكم ؟ أعطنيها من فضلك . أحضر عمالاً ،حملوا أوانيس المصعوق إلى العربـــة ، ثم نقلوه إلى شـــقة كفاتشي . ورضي الثــلاثة : كفاتشانتيرادزه والعجوز الروسي وأوانيس شابوربانتس، وفي نفس استدعى كفاتشي الطبيب .

— أيها الطبيب ، النجدة ! . . أنجدنا بحق الإله ! .. ياللمصيبة التي حلت بي . . لماذا حق بي غضب الله ! بكى كفاتشي نادباً حظه .

— اهدأ بحق الإله ، اهدأ وحدثني ماحصل . كيف حدث ذلك ؟ ومن هو المريض ؟

— أبي سيليبيسترو كفاتشا نتيرادزه . منذ شهر وبعد انتقاله إلى تفليس ، وكان سليماً معافى لم يلاحظ عليه أي شيء . لعلكم تذكرون أن قنبلة انفجرت منذ عشرة أيام في البازار ؟

— كيف لا ، طبعاً أذكر ، أذكر جيداً .

— كنت هناك مع هذا المسكين . لقد انفجرت تلك القنبلة بين أرجلنا تقريباً . كيف نجونا الله وحده يعلم . حدثت لنا معجزة حقيقية .

وفي نفس الدقيقة ركبنا عربة ومضينا،وحتّى تاريخه مازال أبي يرتجف .

أردت استدعاء طبيب ، لكنه لم يشأ . قال : هذا مستحيل ، فأنا لم يعاينِي طبيب طوال حياتي ولاأريد ذلك الآن .

لكن اليوم أصيب فجأة بالشلل ولسانه أيضاً ، خلصنا ، اللهم من المصائب ، خذ بيدي ياإلهي !

— اهدؤوا ! لاتقلقوا ! سأعاين المريض ، لعله لم يصب بشيء من هذا ، فحص الطبيبُ المريض،نظر أوانيس بعينيه التعبتين اليهما . حرك شفتيه وفكر :

— « استواتس تيروارميان ! من هذا الشاب ؟ ماالذي يبغيه منّي ؟ ولماذا نقلوني إلى هذا البيت ؟

كاد كفاتشي ان يفقد صوابه . فكر في نفسه : هاقد أشرف المريض على الكلام !

أخيراً قال الطبيب :

ـ لاأخفي عليك،فأنت رجل يجب أن تتمالك نفسك وتبقى على استعداد دائم .

من المحتمل أن يسلم أبوكم الروح قريباً وربما عاش طويلاً .

أرعب عزاء الطبيب كفاتشي ، شدّ على شعره وتأوه ثم سقط على الكرسي :

ـ يالهي . . ياربي العظيم !

كتب الطبيب الوصفة . أعطاه الارشادات ، ثم أنصرف .

وفي نفس الوقت جاء سيلبيسترو من الشارع :

ـ كيف الحال ؟؟

ـ جيد جداً . قال : « من المحتمل أن يموت قريباً . أنت رجل عليك بالصبر والتحمل ، يجب أن تكون جاهزاً دائماً » .

ضحكا ساخرين .

ـ لاتعطه أي طعام . لاتعطه الدواء أيضاً . . .

ـ طبعاً،سيما وأن هذا سيكلفني مالاً . لكن لابد من شراء الدواء، فالطبيب سيأتي فيما بعد . . أنا ذاهب إلى الصيدلية . . غداً سآخذك إلى المشفى ، تظاهر أنت بالمرض . أبدأ بعقد لسانك . . اصبر أسبوعاً . .

ـ حسناً ، حسناً أذهب لاحضار الدواء وعدْ بسرعة !

في اليوم التالي وفي إحدى مستشفيات تفليس الكبرى سجلوا « أوانيس كارابفتش شابوريانتس في الخامسة والأربعين من عمره . . من بلدة « وان » تركي الأصل .

« أعراض شلل . . . » .

بعد أسبوعين نشرت إحدى الجرائد الجورجية النعوة التالية ؛ :

« في السابع والعشرين من أيلول ـــ هذا العام مات فجأة في مدينة تفليس ، بعد مرض عضال ـــ سيلبيستّرو كفاتشا نتيرادزه . ينعون إليكم بمزيد من الأسى وفاته : أرملته بوبي وولده اليتيم كفاتشي وحموه خوخوشيشيا وحماته نوتيو شيشيا ، سيشيع جثمانه اليوم في الثانية عشرة ظهراً من منزل الفقيد : ديدوبي شارع ساغورا مسكايا رقم الدار ٣٤ .

ملاحظة : حدث التباس صغير . نشر إعلان النعوة في نفس يوم الدفن جراء خطأ آرتكبته هيئة التحرير ،ونظراً لأن هذه الجريدة تصدر مساءً لم يشارك في قداس المرحوم ودفنه سوى أفراد أسرته المتواجدين في تفليس .

ـــ مسكين « سيلبيستّرو » . منذ اليوم التالي كان مقضياً عليه بالموت ـــ قال كفاتشي ـــ ولسبب مجهول بدأ جسمه بالتفسخ ونتّن وانتشرت منه روائح كريهة .

رتّل الخوزي والشماس ترانيم الجنازة المعهودة بكسل وبلا رغبة :

ـــ أرحم اللهم روح عبدك .

ـــ الآن ودائماً وإلى أبد الآبدين ، آمين !

ضعفت بوبي ونوتيو . خارت قواهما، بدتا حزينتين في ثياب الحداد . كان شعرهما مشعثاً ووجنتاهما ذابلتين وعيونهما كحفرة لاينضب ماؤها . ووقف خوخو وكفاتشي منكسي الرأس حزينين . كان وجهاهما كئيبين مقطبي الحاجبين ، عيونهما منتفخة محمرة بسبب الحزن الشديد وانهيار القوى والدموع والأرق .

بعد انتهاء القداس وضعوا التابوت،وجثة « سيلبيسترو » على المنصة وتوجهوا بسرعة إلى مقبرة كوكيسكي .

تبع أقرباء المرحوم التابوت وهم يتنهدون ويتأوهون ويندبون . حملقوا بأعينهم فيما حولهم بشكل غير ملحوظ ، تطلعوا نحو المارة، كانوا أحياناً يهدؤون ثم يندبون :

— آه سيلبيسترو لماذا سبقتني . مااللذي فعلته واستوجب استياءك ؟ بأي شيء أسأت إليك ؟ لماذا غادرتنا مبكراً ؟ — قالت نوتيو باكية ولطمت وجهها بشكل خفيف .

— تشيبي يابني — قال خوخو بصوت ممطوط — لماذا اختار الإله رجلاً قوياً مثله ونقله إلى جواره ؟ أية اكتاف ستزينها رتبة الماريشالية من بعدك ؟ من سيصبح أباً وماريشالاً لطبقة النبلاء بعد الآن ؟ لماذا سكب الإله ماء في موقدنا ؟ لماذا أطفأ شمعتنا ؟

— آه كم أنا شقية ! أه ياهلاكي ! — صاحت بوبي — والآن من سيذهب إلى « البازار »،من سيشتري لحمة الشواء (الشاشليك) والخضار التي تحبها كثيراً ياسيلبيسترو ؟ من سيغلق عينيّ هاتين البائستين اللتين كنت تحب ؟ عشنا معاً، والأفضل أن نمضي معاً إلى هناك . . كان هذا هو اتفاقنا ياسيلبيسترو ياصديقي المخلص ! . .

— ياالحزني — أنا التعيس — لطم كفاتشي رأسه بيديه — من سيهتم بي بعد الآن ؟ من سيقدم لي النقود للدراسة ؟ من سيمكنني من التحصيل الجامعي ؟ ! لقد هلكت أنا التعيس !

ومشى بيسو شيكيا خلفهم أيضاً منكساً رأسه ضاحكاً في الخفاء ، ذهبوا إلى المقبرة بخطى سريعة ، أنزلوا التابوت في القبر ، ردموه بالتراب ، ثم عادوا حزينين مطاطئي الرؤوس .

وفي ذلك المساء غادر « أوانيس شابور يانتس » المشفى ، ومضى إلى محطة « نافتلوغي » ، وقد رافق كفاتشي « أوانيس » .

تهامسا في الظلام ، ثم قبّل كل منهما الآخر وافترقا .

وبعد عدة أيام سجل الموظف في قسم الشرطة « فلاديكافكاس » في سجل الشرطة مايلي :

« أوانيس شابوريانتس، ٤٥ سنة، تركي الأصل . قدم من تفليس وأقام في شارع « البازار » في البناية رقم ١٦ . . . » .

« مكاسب التأمين »

رسالة مسجلة :

إلى المندوب المحلي لشركة التأمين « سالاماندرا » ميخائيل جافاخيشفيلي — مدينة تفليس ، فيرسكي رقم ٢١ الشقة رقم ٢

المرسل : كفاتشي سيليبستروفيتش كفاتشا نتيرادزه .

« معروض »

أعلمكم بكل احترام أنه في اليوم الأول من تشرين الأول من هذا

العام وفي التاسعة مساء كنت راكباً دراجتي قاصداً « ديدوبي » وحين أوشكت على اجتياز الكنيسة صدمتني عربة في الظلمة فسقطت . فحرر المحضر اللازم . طياً صورة عنه . اصيبت جراء ذلك يدي ورجلي اليسريان . أنا مؤمن ضد الحوادث الطارئة لدى شركتكم بالبوليصة رقم ١٢٤٣٩٢ تاريخ ١١ أيار من هذا العام .

بالإضافة إلى ذلك أخبركم، بمزيد من الحزن والحسرة ، أنه في الخامس والعشرين من أيلول من هذا العام وفي الرابعة والنصف صباحاً في مدينة تفليس توفي في شقتي فجأة والدي العزيز سيلبيستر و كفاتشا نتيرادزه والمؤمنة حياته لدى شركتكم بمبلغ عشرة آلاف روبل بالبوليصة رقم ٤٧٥٦٦٣ تاريخ ٤ حزيران من هذا العام .

أرفق طياً المستندات الثلاثة التالية :

— وثيقة تثبت معالجة المرض .

٢ — وثيقة الوفاة .

٣ — وثيقة الدفن .

أرجو اتخاذ الاجراءات القانونية المناسبة .

مع الاحترام . كفاتشي كفاتشانتيرادزه

الثاني من تشرين الأول عام ألف وتسعمائة و . .

مدينة تفليس شارع ساغورا مسكايا رقم ٨٤ .

وعملاً بالعرف الوظيفي المتبع والقوانين المرعية زار الموظف المحلي للتأمين ميخائيل جافا خيشفيلي في اليوم التالي شارع ساغورامسكايا وعاد كفاتشي كفاتشا نتيرادزه الذي كان ملازماً فراشه .

— أأنت السيد كفاتشا نتيرادزه ؟ لقد جئت بناء على معروضك .

أبدى الجميع اهتمامهم وخافوا : خوخو تشيشيا ، زوجته نوتيو أم كفاتشي — بوبي ، تململ كفاتشي في فراشه وأخذ يئن .

— يسعدني مجيئكم . . تفضلوا . . اجلسوا هنا . . لا هنا أفضل . .

قدم خوخو كرسي خيزران ، ادنت بوبي كرسياً صغيراً مريحاً ، وحاولت نوتيو سحب الأريكة .

— لاتزعجوا أنفسكم أيها السادة ، شكراً جزيلاً .

بدأ كفاتشي الحديث :

— أنا أعرف كل شيء من بعيد أيها السيد المحترم ، سمعت الكثير عن خصالك النبيلة . الجميع يمدحونك .

تدخل خوخو بقوله :

— الحمد لله انهم لايذمون ، بل يمدحون .

— السمعة الطيبة خير كنز يابني : — قالت نوتيو متنهدة .

— إذا نال شاب مثلك شهرة كهذه لابد من أن تذكره روسيا كلها في سني شيخوخته — قالت الأرملة بوبي متأوهة .

هكذا استقبلت أسرة كفاتشي موظف التأمين : فرشوا تحته الريش ، تزلفوا إليه ، وغمروه بعذب الكلام .

واستخدم موظف التأمين ، كرد على احترامهم الزائد، درعاً مناسباً :

— لاتصدقوا إذا مدحني الناس ، فهم أما يثرثرون أو يبالغون .

وإذا ذمني الناس فربما كانوا مقصرين . أنا أيضاً أعرفك من بعيد أيها السيد كفاتشي ! اذكرك ، لقد سافرنا معاً منذ سنتين إلى أوديسا .

— لماذا لاأبلى بالعمى ؟ — انتعش كفاتشي للحظة — أذكر أذكر جيداً . كنتم مسافرين يومئذ خارج الحدود أليس كذلك ؟ حينذاك كانت الباخرة تتحدث عنكم ، لامثيل لهذا المهندس في كل أرجاء روسيا — قال كفاتشي كاذباً إذ كانت معرفة الموظف بالهندسة كمعرفة كفاتشي بعلم الفلك أو اللغة السانسيكريتية .

وبعد أن أنتهيا من السلام والتزلف قال موظف التأمين :

— فلندخل في الموضوع . ماذا حصل لكم ؟ ماذا لديكم ؟

تباكت الأسرة وأنّت وتسابقوا في الكلام :

— ماذا حصل لنا ؟ لاأتمنى ان يصيب عدونا ماأصابنا . .

— يبدو أن غضب الإله قد حاق بنا، وإلا لماذا نزلت علينا كل تلك النوازل ؟ !

— هلكنا وخرب بيتنا ، تدمرت اسرتنا بكاملها !

بكت بوبي وخرجت إلى الغرفة الثانية . مسحت نوتيو دموعها ونكس خوخو رأسه .

— حلت بأسرتنا كل النوائب — تابع كفاتشي متأثراً . لم تعرف المرض اسرتنا . أمس الأول توفي والدي . كيف قضى نحبه ذلك الانسان، حتى أنه لم يتمكن من قول كلمة واحدة . وفي اليوم التالي احترق بيتنا في كوتايسي ، وهاكم الآن اصبت أنا .

ـ ألم يكن البيت مؤمناً عليه ؟

ـ آه ، من يفكر بهذا . لقد دفعوا لي العام الماضي أربعين ألف روبل ، لكنني لم أبعه . أما الآن فلن أتلقى أكثر من عشرة آلاف روبل ، أبكي والدي فليذهب إلى الشيطان البيت واليد والرجل !

ـ وهل اصابتكم خطيرة ؟

ـ ها ، أنظروا بنفسكم !

رفعت نوتيو الضماد بحذر شديد . أنّ كفاتشي وتململ صارفاً على أسنانه . كان المعصم والرسغ مزرقين ومنتفخين .

ـ هاكم بوليصة أبي المسكين بعشرة آلاف روبل . .

كنت أتمنى أن أدفع للشركة مائة الف روبل لوأنه بقي حياً ـ دمدم شوشو .

ـ هاكم أيضاً بوليصة تأميني . لقد أمنت على نفسي بمبلغ عشرين ألف روبل ، أمر بسيط لم أشأ أنا انما مسؤول التأمين في أوديسا حثني على ذلك . أتعرفون غوفشتين ؟

تفحص مسؤول التأمين البوليصات وكافة الوثائق .

ـ نعم ، أعرفه .

كان كل شيء نظامياً .

ـ من يطببكم ؟ من هو طبيبكم ؟

ـ بيلوف أفضل أطباء القفقاس . أتعرفونه ؟

ـ لاأعرفه.لم أسمع لدى الشركة أطباء معتمدون ، سأرسل إليكم واحداً منهم .

تيقظت عينا كفاتشي :

ـ أي طبيب ؟ من ؟

ـ رود نباوم ، مثلاً . طبيب مشهور .

ـ آخ ، لاتفعلوا هذا بحق الإله !

ـ السبب ؟

ـ شيء محرج،صعب علي أن أقول لكن .. تردد كفاتشي وتململ .

ـ ومع هذا ؟

ـ أتعرفون زوجة رود نباوم ؟

ـ رأيتها ؛ لكنني لم أتعرف بها .

ـ حسناً سأقول . لكن عليك أن تعدني بألا يعرف أحد بذلك .

ـ حسناً ، أعدك .

ـ أردت استدعاء ذلك الطبيب إلى والدي،فلم أجده في البيت . رأتني زوجته فتركت لديها عنواني ورجعت بعد ساعة . جاءت إلي الزوجة بدلاً من الطبيب و . . لن أقول أكثر من ذلك . . آه لاتسألني لا ، لن أقول لك أكثر من ذلك .

والآن قل لي كيف بامكاني أن أقبل بأن يعالجني ذلك الطبيب إذا كنت لاأحترمه ؟ أرسل إلي غابيلزه ، فهو طبيبكم أيضاً .

— كان . . والآن لم يعد طبيبنا . .. السبب ؟ لاأدري. لقد عينوا شابيشفيلي بدلاً منه . سأرسله إليك . سأذهب الآن .

— آه لاتقل هذا !.. . لم أنت مستعجل ؟ تريث قليلاً . سنشرب القهوة . لماذا تعرض عنا ؟

— كيف أعرض عنكم ؟ انني علي عجلة من أمري وحسب، وإلا لشربت معكم بكل رضى .

— أيها السيد ميخائيل — قال كفاتشي راجياً — إنه هذه القضية بسرعة. ولاتعذبني ، وإلا سأبصق على هذه الأموال وأمضي في حال سبيلي .

سأنال منها قروشاً لاتستحق العناء وضياع الوقت .

— لاتقلق سيد كفاتشي . سأرسل وثائق وفاة أبيك هذا اليوم إلى بطرسبورغ ، وبعد شهر سأسلمك العشرة آلاف روبل يداً بيد . أما فيما يخصك . فعليك بالتريث ، وبعد ان تتعافى سنسحب عشرين روبلاً عن كل يوم .

— وإذا لم أتعافَ ؟!

— كيف يمكن التفكير بذلك ؟ طبعاً ستتعافى .

— وإذا لم أتعاف ؟ كثيراً ماتتيبّس الرجل أو اليد جراء حوادث بسيطة ،

— إذا تخشبت يدك ورجلك سوف يعطونك كامل المبلغ المؤمن به . لذا كن مطمئناً ، وداعاً .

ــ وداعاً أيها السيد وداعاً ! زرنا . . . زرنا مرة أخرى . لاتنسنا أيها السيد ، لاتهملنا .

حين خرج مسؤول التأمين نظر الجميع إلى بعضهم بعيون متسائلة ثم تمتم خوخو أخيراً :

ــ آه ، لن يعرف هذا الانسان شيئاً .

ــ لن يعرف شيئاً ــ أكد كفاتشي بصوت خافت .

قال الدكتور شابيشفيلي لمندوب التأمين :

ــ أنا لاأدري شيئاً عن يد ورجل كفاتشي ، ثمة شخص يفسد ماأصلح . حين أضع الدواء واضمّد مكان الاصابة أترك علامة خفية ، وفي اليوم التالي أجد العلامة كما هي . لكن اليد والرجل المصابتين قد ازدادتا هزالاً والتواءً . من الواضح أن أحداً ما يشاركني العمل .

ــ لدي أخبار تفيد أن طبيبنا السابق « غوبيلدزه » ، يزور كفاتشي ليلاً .

بالإضافة إلى أن جدة كفاتشي « نوتيو تشيشيا » لها علاقة بالأمر .

هذه المرأة على دراية جيدة بأمراض الحوادث والكسور . يبدو أنها امرأة ماهرة في تشويه الأطراف . زبائنها كثيرون دائماً ، فهناك أناس كثيرون يريدون التهرب من الخدمة العسكرية . لدينا الصلاحية في ادخال كفاتشي إلى المشفى وتعيين مراقب دائم له . لكنني لن ألجأ الآن لمثل هذا الاجراء ، فقد يثير هذا مختلف الأقاويل وسيستغل ذلك مندبو شركات التأمين الأخرى وسنصبح مضغة في أفواه الناس وسيثيرون البلبلة ويسيؤون إلى سمعتنا . زره كل يوم وتابعه ، وسنرى كيف ستجري

الأمور بعد الآن . دع كفاتشي يشعر بشكل ما بأننا كشفنا لعبته . . أصبح يعلم ؟ جعلته يفهم ؟ حسناً فعلت ،حسناً هذا أفضل . . إلى اللقاء . . .وداعاً !..

بعد أسبوع قدم مندوب التأمين غوفشتين والدكتور شابيشفيلي إلى منزل كفاتشي بشكل مباغت . بهت كفاتشي ، ارتبك ،شحب ثم أحمرّ ، .وكان قد نحل وأصفرّ وذاب بعد مدة المعاناة .

— تحياتي للسيد نابليون أبولونوفيتش ! صرخ غوفشتين مرحاً .

— سلامات للسيد كفاتشي — حيّاه المندوب بهدوء .

— مرحباً وأهلاً وسهلاً . . ياصباح الخير . . تفضلا وأجلسا . . هاتوا الكراسي !

ابدوا اهتمامهم وارتبكوا .

— كيف الصحة ؟ كيف الحال ؟

بدأ كفاتشي يبكي ويشكي ويتأوه بطريقته السابقة :

— هلكت . . دمِّرت . . مات أبي واحترق بيتي وتهدمت الأسرة وحالتي الآن تسير من سيء إلى أسوأ .

— اعرف ، أعرف كل شيء ،بل وأعرف أكثر مما تتصور — قاطعه غوفشتين .

— أيها السيد الدكتور ،ارفع الضماد عن اليد والرجل المصابتين ، ومن جديد أنّ كفاتشي وصرخ متألماً . فكوا الضماد عن يده ورجله . نحل طرفاه ، تيبسا واصبحا كاصبعين نحيلتين .

ـ آه ، هذا هو . . هو بالذات ! رأيت أعرف ماهذا ـ قذف غوفشتين كلامه بشكل متقطع ـ ضمدوه ! ـ ثم راح ينقر بأصبعه على النافذة وينظر إلى السماء ريثما انتهى الطبيب من عمله، ثم التفت وقال بصوت صلب كالفولاذ :

ـ والآن لندخل في الموضوع . أقول بايجاز ووضوح وبصراحة : فلننته من لعبة « الغميضة » هذه . هذا لايناسبنا ، فنحن لسنا صغاراً قبل كل شيء . لقد أوكلت إليّ تصفية قضاياك الثلاثة .

ـ بما في ذلك البيت ؟

ـ أجل وقضية احتراق البيت . فلنبدأ منذ البداية أولاً :

غادرت أوديسا خلسة ودون اجراء التصفية وأخذت معك مايقارب الألف روبل . . مهلاً أيها السيد ، مهلاً نحن لانعرف « شيكيا » أو « تشيكنجلادزه » أو « افلاباريان » أو «كاتسمان» ، نحن لانعرف غيرك ولاعلاقة لنا بأحد سواك . .

ثانياً : لقد خدعت الكثيرين ، حتى ان أوديسا كلها أصبحت تتحدث عنك . . .

ماذا ؟ من خدعت ؟ هاك لائحة بأسمائهم . تفضل واقرأ . لقد دفعنا عنك للزبائن ٢٦٧٥ روبلاً .

ثالثاً : لقد رهن أبوكم البيت في المصرف العام الماضي بمبلغ ١٤٠٠ روبل ، وخمنه المصرف بمبلغ الفي روبل، وأنت أمنت عليه بمبلغ عشرة آلاف روبل . مازال السمسار في يدي . عمك أو جدك ـ هذا العجوز خوخو شيشيا لن يفلت أيضاً من قبضتي . . قلت لك مهلاً لاتتعجل ولاتتحمس والآن :

رابعاً : وهو الأهم . أنا طبيب وخبير قديم شخت وأنا أخدم كمندوب تأمين ،ومن الصعب،بل مستحيل خداعي . عاينت وعايشت آلاف المشاكل ، رأيت ومر عليّ مثل هذه الأطراف المشوهة . كيف سقطت ببراعة هكذا ، بحيث أصيبت رجلك من الداخل ويدك أصيبت من الجهة المقابلة ؟ شيء مدهش وغير مفهوم،بالإضافة إلى ذلك ماسبب تيبّس يدك ورجلك ؟ غداً سنبحث عن السبب في المشفى ، غدا يجب أن تدخل المشفى . . ماذا ؟ لاترغب ؟ لاتقلق ! سيلازمك رقيبان ليلاً ونهاراً،ماذا ؟ لايعجبك ؟ تمانع ؟ أنت تعلم جيداً بأننا نملك الحق في ذلك ومع ذلك لاترغب ؟ ماذا،ستعمل فضيحة ؟ ستحرك العالم بأسره وتجعل الجرائد كلها تتحدث عن ذلك ؟ هذا شأنك .

إذا كانت لاتهمك سمعتك وسمعة هذا العجوز،أو عميل التأمين في كوتايسي يصبح عندئذ وجودنا هنا لامعنى له ، ونحن ذاهبان .

نهض غوفشتين .

ــ انتظروا سنتحدث . . قد نتفق . . ونهض كفاتشي من الفراش .

ــ حسناً سنحاول باختصار : أترى هذه النقود ــ وأخرج غوفشتين من جيب بنطاله الجانبي رزمة من فئة الخمسمائة روبل ــ هذه النقود ستتحول إلى جيبك إذا تصرفت بعقلانية ونحوت منحى الاعتدال .

اتقدت عينا كفاتشي ولمعتا . جف حلقه ، تململ واهتز .

ــ أنا . . أنا لست جشعاً لكنني لاأحب الجدال . اتحاشى الخصام ولست هاوياً المشاكل .

ــ حسناً ، فلنتحاسب . تستحق عشرة آلاف روبل كتعويض عن وفاة والدك . هذا لاجدال فيه .

استراح قلب كفاتشي وكأن غوفشتين أزاح عنه حجراً ثقيلاً وزنه عشرات البودات .

ـ بيتكم يساوي أربعة آلاف روبل على أكثر احتمال . يصبح المبلغ خمسة عشر ألفاً ، ثم أطرافك مؤمن عليها بعشرين ألف . هذا المبلغ يمكنك المساومة عليه ، فيما لو أن أطرافك تيبست فعلاً . لكنني أصدقك القول وأؤكد لك ان رجلك لم تيبس ولا يدك . سنعالجك وستستعيد عافيتك خلال شهر حتى تستطيع الجري على ساق واحدة . سيكلفك هذا العلاج ٤٠٠ ـ ٥٠٠ روبل . سنعطيك عشرة اضعافها أي خمسة آلاف .

ـ يعني أنكم تعطوني عشرين ألفاً بدلاً من أربعين ؟

ـ نعم عشرين ألفاً . إما أن تأخذ النقود حالاً ، وأما أن تتفضل إلى المستشفى ، وإما سأمضي إلى المدعي العام .

ـ مبلغ قليل . لاأرضى .

ـ إذاً ، وداعاً .

ـ انتظروا ، لاتحددوا ، أعطوني مهلة ثلاثة أيام لأفكر .

ـ لاأستطيع . إن شئت منحتك ساعة للتفكير . سنمضي ونتنزه في « موشتند » ثم نعود .

ـ لاخيار آخر لدي . سأخضع لكم ، لكنني أحتج .

ـ حسناً إلى اللقاء ، لن أودعك .

ثلاثة خرجوا وبقي أربعة .. وبدأ الضجيج والجدال الحامي . عدوا على أصابعهم . مرت ساعة وعاد الذاهبون .

ـ فكرتم ؟ قررتم ؟ ـ سأل غوفشتين .

ـ استحق خمسة وثلاثين ألفاً ، لكنني أرضى بثلاثين .

ـ أهذا جوابك النهائي ؟

ـ نعم .

ـ إذاً ان نستطيع الاتفاق ، إذا ندمتم لاتلوموني . . وداعاً ! ـ
ثم خرجوا من جديد وحين نزلوا الدرج قفزت بوبي صائحة :

ـ انتظروا . . ارجعوا . . لاتزعلوا منا . . نريد أن نقول لكم بضع كلمات .

عادوا مرة أخرى .

ـ سبعة وعشرون ألفاً لاتنقص روبلاً واحداً ـ قال كفاتشي بصوت أجش .

ـ في هذه الحال كان علينا ألا نعود :

ـ انتظروا إلى أين تجرون ؟ خمسة وعشرون ؟

ـ عشرون.نعم أم لا ؟ أعرف . . أعرف كل شيء . . لاضرورة للكلام الزائد .

ـ نعم ، أم لا ؟ إذا وداعاً . . . .

خرجوا مرة أخرى . لحق بهم « خوخو » في نهاية الشارع يجرّ قدميه بصعوبة .

ـ لاتزعلوا منا أيها السادة إذا كنا أسأنا إليكم بشيء . . اعذرونا . . عودوا . . لقد وافق كفاتشي .

عادوا من جديد .

ـ آمل ألا نعود للمساومة . اتفقنا على مبلغ عشرين ألفاً ؟

ـ حسناً لكنكم أجريتم حسابي . أرجو ألا يحسم شيء من المبلغ .

ـ لن نحسبه ، نطرحه جانباً ، هاتوا حبراً وقلماً !

ـ إذاً انتهينا ، وبدأ يشكو ويندب ـ هلكت .. دمّرت . . كيف يمكن إقامة علاقة معهم ! ليس لديهم شرف أو ضمير أو وفاء ! إلى أين سأمضي ؟ أنّى لي الجري وراء الحق سنتين أو ثلاث سنوات . بامكاني خلال هذه المدة كسب ضعف هذا المبلغ .

كتب غوفشتين كتاباً مفصلاً .

ـ وقعوا عليه جميعاً .

قرؤوه ووقعوه ، ثم شخصوا بأعينهم نحو النقود التي أخرجها غوفشتين وعدّها .

ـ لقد هلكت . . دمرت ! ـ مرة أخرى قال كفاتشي نادباً ـ ثم دس النقود تحت الوسادة .

ـ وداعاً ! إن شاء الله تنفقون هذه الأموال بالهناء والخير .

ـ وداعاً ياسيدي ، وداعاً !

ودعّوهم حتى الدرج . دمدم غوفشتين :

ـ أخطأت . لقد أعطيتهم الكثير . كان يمكن ارضاؤهم بخمسة عشر ألفاً .

وفي منزل كفاتشي هاجم بعضهم بعضاً . كان «خوخو» و «بوبي» فرحين وراضين غاية الرضى . أما نوتيو وكفاتشي فكانا ساخطين عابسين .

اثناء ذلك دخل بيسو .

ـ بيسو ، أين أنت ؟ اين اختفيت ؟ مالك اختبأت في الوقت الحرج أيها الانسان الطيب ؟

حين خرج غوفشتين من هنا للمرة الأولى كنت قادماً إليكم ، فعدت أدراجي وأقتفيت أثرهم إلى « موشتئد » . تنصت إلى أقوالهم وعرفت أنهم لن يدفعوا أكثر من عشرين ألفاً وأخبرتك عن طريق بوبي ماذا؟رأيي.يجب أن تهدوا «ايقونة» للكنيسة لأنهم لم يسلمونا للنيابة.

بعد كلمات بيسو ضجّ الجميع فرحين منشرحي الصدور . نزعوا الضماد عن كفاتشي ،غسلوا يده ورجله بدواء خاص،ثم دهنوهما بمرهم جديد . لم يبد ألماً ولم يتأوه ، ثم جلس وكتب البرقية التالية :

« فلاديكفقاس ، شارع البازار رقم ١٦

السيد شابوريانتس

أنهينا القضية بعشرين . أرسل إليك خمسة . اشتر بيتاً. سنسافر إليكم قريباً .

« أنا بوديست »

ـ هذه الأموال والبرقية في طريقها إلى سيليبسترو ـ قال كفاتشي .ـ لحوخو ـ جهز نفسك للسفر غداً إلى كوتايسي ، بع كل مابقي لدينا هناك،بما في ذلك الأرض والأثاث.ماذا؟ كيف ستتصرف مع الأرملة « فولكوفا » ؟ وهل سأجرها ورائي حتى الممات ؟ أعطها مائة روبل وكفى ! قل للجميع إننا مسافرون إلى وارسو . . انتظر ! إشتر كونياك « مارتيل » وشمبانيا « ريدير » « مارسالا » و « خيريس » أو « بورتوين» « زجاجة شيير » أو « شارتريز » وسجائر « فيكتوريا » .

لاتنس الإسم بيسو،أكتب له . وأحضر أيضاً فواكه وأناناساً .
ماذا ؟ شاخ الرجل ولا يدري ماهو : مارسالا ، خيريس ، شيبر ، شارتريز ، أناناس ؟ بيسو ، أذهب أنت ياعزيزي واشتر كل هذه الحاجات لي . هات معك أيضاً شوكولا « القهوة » ، أو « شوشاري » . إذا لم تجد شيبرا أصلياً هات « ابريكوتين » أو « بينيديكتين » . تنتظركم هدايانا قيمة، سأشتريها بنفسي بعد أن أنهض وأتعافى . . ماذا قلت يا « نوتيو » ؟ ستجعلينني أقف على قدمي خلال عشرة أيام ؟ حسناً سأبقى مديناً لك . والآن أعطوني قليلاً من الهدوء . . لقد تعبت . . يجب أن أغفو .

واستسلم كفاتشي لنوم عميق هادىء بعد أن امضه تعب مضن، وبعد الخلاص من العملية الخطرة .

بعد أسبوعين لمح خبير التأمين في محطة تفليس شاباً وسيماً ممشوق القامة أنيقاً :

ـ مرحباً أيها السيد كفاتشي !

ـ مرحباً أيها السيد المحترم ميخائيل ! كيف الحال ؟

وشد كفاتشي على يد الخبير بنفس اليد التي كانت منذ أسبوعين يابسة متخشبة .

ـ شكراً . كيف حالكم ؟

ـ لابأس . . ليس تماماً كما كنت أرغب ، لكن لست في حال رديئة كالتي كان يتمناها غوفشتين . لابأس سأتواجه مع ذلك الخبيث في مكان ما . وداعاً !

ـ سفراً سعيداً ـ أجاب الخبير بابتسامة، وهو يتابع بنظره كفاتشي المسرع في سيره .

القسم الثالث

كيف درس كفاتشي

الأعمال المصرفية وكيف اخاف رفيقه

ريثما باع بجوخو شيشيا الأرض في كوتايسي التي كانت تضم البيت والأثاث استغل كفاتشي كفاتشا نتيرادزه الوقت ووسع أعماله في تفليس .

ومع أنه كان مايزال يعرج قليلاً ، ويده ماتزال في الضماد، إلا أنه روّض نفسه على ارتياد النوادي والمسارح وأماكن التسلية المختلفة ، تعرف بمن استطاع ، تفحص الجميع وزارهم وقيمّهم من خلال إمكانية الاستفادة منهم .

قبل أن تشفى يد كفاتشي وأصابعه تماماً لم يوفق في لعب الورق . لكنه بعد ثلاث جولات استعاد حظه ، استرد الخسارة وربح فوقها خمسة آلاف .

الحقيقة ان كفاتشي تعرض في الليلة الأخيرة لموقف مكرب : استدعاه المشرف المناوب إلى غرفته وقال له كلمات قاسية وجهاً لوجه ، لكن ذلك لم يفقد كفاتشي صوابه ولم يجعله يحمر خجلاً . فهو مسافر بعد

أيام قليلة إلى روسيا وكان سيان بالنسبة إليه مايقول عنه أو مايفكر به عشرة أو مائة شخص في تلك المدينة التي يعتبر فيها مجهولاً .

تعرّف كفاتشي أثناء اللعب بشخص يدعى « نظيموف » الموظف في مصرف « آزوف » وهو مقامر محب للشراب ، سكير أفلس في المقامرة وربح عدة مرات «بالدين»، لكنهم طالبوه أخيراً باحضار النقود ، ولم يوزعوا عليه ورق اللعب . تلفت فيما حوله، ثم قال لكفاتشي :

— أقرضني ، أيها الأمير ، عشرة روبلات إلى الغد .

— عشرة روبلات ؟ وكيف أقرض من لاأعرفه ؟

— إذا كان هذا هو السبب اسمح لي أن أقدم لك نفسي : نظيموف —

مد نظيموف يده ومد كفاتشي يده بشكل تلقائي .

— زالت العقبة. هل أصبحت الآن العشرة روبلات من حقي ؟

أعجب كفاتشي بحسن تصرف نظيموف ، فألقى إليه طواعية بعشرة روبلات وأرفقها بابتسامة . في تلك الدقيقة لمعت فكرة في رأس كفاتشي وتبعت الابتسامة ابتسامة أخرى ، وتلت الكلمة كلمة ثانية والعشرة تلتها عشرات . وفي تلك الليلة توجت الخمرة تلك الصداقة الجديدة واكتملت بالنساء الجميلات .

وجد القلب قرينه والنفس صنوها . دعا كفاتشي نظيموف مرتين — ثلاث مرات ، أقرضه قليلاً من المال ، صادقه ودجنّه — تهامسا مرة — مرتين وبعد ذلك بدأ كفاتشي يستعجل ويحث أهله على العجلة . سألته بوبي مستفسرة بعينيها .

فهم كفاتشي السؤال وأجاب :

— تفليس مدينة عجيبة — غريبة لايرجى منها نفع . وهي بالإضافة إلى ذلك مدينتنا. سأسافر وأتوارى . الأرض واسعة ومن هنا لن تصل الثرثرة والأقاويل إلى هناك : من يدري ماذا ينتظرني وأية صعوبة قد اتعرض لها ، ومتى سأحتاج لهذه المدينة ومتى ستكون ملائمة لي !

فهموا قصده ، فجهزوا أمتعتهم وتهيؤا للسفر .

توجه كفاتشي واقرباؤه باتجاه روستوف . بالقرب من فلاديكفكاس في محطة « بيسلان ». استقبلهم سيليبيسترو ، الذي أصبح أسمه أوانيس شابوزريانتس ، حليق الذقن . مرتدياً ثياباً أوروبية . تساءلوا عن أحوال بعضهم ، لاطفوا بعضهم بعضاً . ثم انحرفت أسرة سيليبيسترو باتجاه فلاديكفكاس ، وتابع كفاتشي وبيسو ونظيموف ، الذي أخذ إجازة ، طريقهم نحو روستوف التي وصلوها في اليوم التالي :

تشاوروا في المحطة قليلاً ، ثم شربوا القهوة ودخلوا إلى المصرف .

تردد كفاتشي في البداية ، خاف ، ثم انتصب فجأة ، تشجع ، تنشّط وعلا الحزم وجهه . فتح باب مكتب المدير بهدوء ، مشى نحوه مباشرة بلا اكتراث :

— اسمحوا لي أن أقدم نفسي ، أنا الأمير « أوربيلياني » .

ووضع على المكتب هوية شخصية وبطاقة مصرفية مطابقة للاسم . كانت البطاقة المصرفية تنص على مايلي :

« مصرف آزوف — الدون . . إلى فرع روستوف .

نرجوا أن تدفعوا للأمير نيكولاي بافلوفيتش أوربيلياني مبلغ ٣٧٤٣٥ روبلاً على حساب فرع تفليس للمصرف المذكور .

المدير

المحاسب

أمين الصندوق

نادى المدير الموظف المسؤول . اعطاه البطاقة وقال له آمراً :

— ابحث عن استمارة التحويل : ثم اتجه بكلامه نحو كفاتشي — أأنتم في روستوف للمرة الأولى ؟ من تعرفون ؟

مررت عبر « روستوف » ثلاث أو أربع مرات . وفيما مضى أقمت في المناطق المجاورة لدى اصدقائي مايقارب الثلاثة أيام لدى ابن السيناتور « دينيسوف » ولدى الكونت « نوتبيك » والبارون « تيزنغاوزن » . . لقد ترعرنا معاً في مدرسة (الباج)(١) . وأنا الآن أقصد « نوتبيك » . . إقطاعيته تدعى « كالينوفكا »، أليس كذلك ؟ تبعد عن هنا مايقارب الفرسخين . . ربما أصبحت صهره بعد أسبوع .

رجع الموظف ، وضع الأوراق أمام المدير . كتب المدير على تلك الأوراق « تُصرف »، ثم أعاد الهوية إلى كفاتشي وتحدث معه عن مدارس « الباج » .

وحول كفاتشي الحديث بمهارة إلى أوديسا . تحادثا . نهض كفاتشي أخيراً :

---

(١) الباج : مدرسة قبل الثورة الشيوعية وكان يدرس فيها أبناء الطبقة النبيلة ويتخرج فيها الشباب فرساناً يخدمون الاقطاعي الكبير أو القيصر — المترجمان

— لقد سررت جداً بالتعرف عليكم . أرجو أن تشرفنا إلى حفلة الزفاف . . سأدعوكم برسالة خاصة . . وداعاً !

في حين كان كفاتشي « يتدبر الأمر » اجتاحت الرجفة نظيموف . أرتعد وبدأ يهتز . ابتعد في البداية عن بيسوشيكيا ، وقف جانباً ثم همس في أذنه :

— إذا حدث أي شيء ، فأنا لاأعرفكم .

ثم انفصل عنه . ذهب نحو الشارع وقال لبيسو :

— سأنتظركم في الشارع . . لاتنس أنا لاأعرفكم .

بعد خمس دقائق دس كفاتشي النقود في جيبه الجانبي وتلفت . ليس من أثر لنظيموف .

— أين ذاك السكير ؟ سأل بيسو .

— خاف . قال فيما لوحدث أي شيء أنا لاأعرفكم . وهو الآن ينتظر في الشارع .

قطب كفاتشي جبينه ومضى نحو الباب . بعد أن أمسك بقبضة الباب توقف . تلألأ وانشرح . رجع فجأة وأمر « بيسو » هامساً . هرع « بيسو » إلى الشارع . كان نظيموف يقبع بجانب الباب .

— أسرع ، أنج بنفسك ! — همس « بيسو » لنظيموف ، ثم نكس رأسه ووسع من خطاه ومشى أثره نظيموف الشاحب .

— ماذا حصل ؟ . . . ماالقضية ؟ . . أعرفوا ! ؟

دخل شارعاً فرعياً :

- نجونا بصعوبة . . الوضع سيء - قال « بيسو » بسرعة وقد ارتجف صوته - لقد وصلت استمارة التحويل، لكن المدير تردد بصرف المبلغ . . لاأدري ، يقول ثمة خطأ في رمزكم . عليّ أن أرسل برقية إلى تفليس . خرج المدير والمحاسب إلى الغرفة المجاورة وتهامسا . . تحدثوا عن البرقية . . . قلت سأعود غداً، ثم أسرعت في الهرب، سنهلك إن لم نختف حالاً . لكن أتعرف أنا أيضاً لاأعرفك .

بدأ نظيموف يرتجف واصطكت أسنانه وراح يهذي :

- يالشقاء زوجتي وولدي . . أنا لاأملك أجرة الطريق . . كيف سأعود ؟ سيمسكون بي . . لقد هلكت !

- سأعطيك أجرة الطريق . عد فوراً . . هاك مائة روبل . دبّر أمرك أسرع ! وعاد نظيموف المذعور فارغ اليدين إلى « ستافروبول » حيث كان والداه العجوزان ينتظرانه .

وجلس كفاتشي وبيسو فرحين ضاحكين في عربة الدرجة الأولى واتجها نحو الشمال .

- إذا اعتقلوا نظيموف فليبحثوا عني في كييف . . فهو يعتبرني فعلاً دانييل . . لقد أضعت عليهم طريقي بشكل جيد ! - قال كفاتشي لصديقه المخلص وسكرتيره الشخصي « بيسو » .

« كيف انتقل كفاتشي للسكن في بطرسبورغ »

مرّ أكثر من عام على انتقال كفاتشي وبيسو إلى بطرسبورغ . استدعى كفاتشي « جليلا » من أوديسا . ثم تبعه تدريجياً أفلابريان ، تشخوبيشفيلي وبقية الرفاق .

تجددت وانتعشت من جديد الأسرة الأوديسية . نادراً ماالتفت هؤلاء إلى محراب العلم ، بل كانوا يتواجدون حيث يتواجد محبو الخمرة من الشباب والعاهرات وأصحاب اللهو المريب .

كان كفاتشي ينمو وينضج ويتفتح يوماً بعد يوم ، إذ كان المجال هنا أوسع بكثير من أوديسا ، سواء من حيث ميدان العمل ، أو المراقبة أو التقليد ، أو حتى في امكانية التحليق ونشر الأجنحة .

عاش كفاتشي وبيسو وجليل في شقة واحدة ، وانتشر الآخرون فيما حولها . كانت أعمال الرفاق مقسمة بشكل طبيعي إلى قسمين . لم يهدر كفاتشي مهارته وابداعه في صغائر الأمور . فاذا ماقام بـ « تدبير » عملية كبيرة كان يسرع لمساعدة رفاقه ويقتسم معهم الغنائم . وفي حين كان تشيكينجلادزه وجماعته يجرون وراء وحش صغير كان كفاتشي يزودهم بنصائحه ويقودهم من بعيد .

كان يصقلون ويروضون أنفسهم أثناء عملهم الدائم . لقد أيقظ « قانون الاختيار الطبيعي » وأظهر موهبتهم وذوقهم ومهارتهم وحدسهم.

ظل بيسو شيكيا أخرس كعادته . فهو إما يضنّ بكلماته أو أنه يقولها في النهاية ونتيجة عشرات الكلمات التي يهمس بها كانت تنقلب الآية ويصبح المعقد بسيطاً والغامض واضحاً . كان يتراءى ان لاوجود لبيسو ، لكن في الواقع كانت كل الخيوط ترتبط به .

أما تشيبي تشيبونتيرادزه فكان دائم المزاح ، يتبارى مع سيدراك في الهذر والنكات ولا يضاهيه أحد في تنظيم المخابرات والعمـــلاء كما لايماثله أحد في خلق المشاجرة والمشاحنة . ما أن يرى ظلاً أو يسمع

صأي فأرة ، وبدلاً من ضبط النفس وبرودة الأعصاب ، يهرع قبل الأوان ويقرع ناقوس الخطر ويصرخ :

— نحن في طريق الهلاك . . هلكنا . . أنجوا بأنفسكم ! . .

وكثيراً ماأفسد تشيبي،جراء خوفه السابق لأوانه ، الشباك المنصوبة بمهارة . وقـد أجفل مرات عديدة حوت السلمون بعد أن كان على وشك التهام الطعم .

وقد ناله الكثير جراء سلوكه هذا ، لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتخلص من مسألة اثارة الخوف . أخيراً وعندما فهم كفاتشي طبعه جيداً استبعده عن الأعمال الخطرة وأوكل إليه مهمة الاستطلاع .

وأصبح سيدراك يتهيّب الخطر ويرتعد أكثر من السابق ، وهو لم يغفل التنظيم ووضع الخطط واقتسام الغنائم ، لكنه ساعة الخطر إما أن يمرض أو يختلق امراً لابدّ من قضائه أو يتأخر،ثم يعتذر مازحاً :

— واه كم أنا « قبضاي » ، حتى أنكم احتجتم إليّ ! إذا أردتم ملاكماً فـ « غابو » يتقن الملاكمة أحسن مني ، وإذا مااحتجتم الخنجر فهو أقدر مني على استعمالها . أنا أمين صندوق أعرف عملي وغابو يعرف عمله . وظل لادي تشيكينجيلادزه كسابق عهده يتلمظ أثناء الأكل . دائماً يمضغ شيئاً ما ويشكو الجوع باستمرار . لم يكن أبداً السبّاق في الذهاب إلى « العمل » . لكن إذا مادفعته الظروف في المقدمة لايتراجع ولا يختبئ في ظل الآخرين ، بل يقوم بعمله على الوجه الأكمل .

ومع أن غابو تشخوبيشفيلي قد صقل وتهذب قليلاً ، إلا أنه ظل

جاموساً عنيداً ثقيل الخطوات . وكثيراً ماكان يوقع الأسرة بمجموعها في تشويش وبلبلة جراء صراحته الفجة وعدم لباقته ومزاجه المتقلب . لكنه كان يجرّ نيره باخلاص ويطيع كفاتشي كطفل صغير . أما جليل فلم يكن يطلب شيئاً . كان راضياً بقدره ، ينظر في عيني كفاتشي دائماً ويقول :

ــ الله سانا خير ورسين (جزاك الله خيراً أيها الأمير) أنت قدير ، أنت ذكي جداً . وكلما أعطى القدر كفاتشي طلب منه المزيد . كان يشكو قدره، بل ويلح عليه ويقارعه ويحاول فتح أبواب جديدة وجديدة للجنة .

أثناء بحثه عن محظية كان كفاتشي لايحسب حساباً لأحد ، أو شيء . فاذا وجد الأبواب موصدة اندس من النافذة وإن كانت النافذة مغلقةدخل عبر المدخنة ومدفأة الحائط . هكذا اندس ذات مرة في أسرة محترمة وقدم نفسه لامرأة كهلة صديقة صاحبة البيت الذي يسكنه :

ــ أسمحي لي أن أقدم نفسي : نابليون أبولونوفيتش كفاتشا نتيرادزه .

كان كفاتشي كفاتشا نتيرادزه شاباً أسمر اللون أجعد الشعر طويلاً جميلاً مهيباً عذب اللسان . درس ، جرب تمثّل أعراف وتقاليد وأخلاق الطبقة العليا .

لقد أدت الخبرة والشجاعة الصفيقة مفعولهما . . فتحتا الأبواب المرجوة والتي دار أمامها كفاتشي طويلاً وألح في طرقها .

« كيف بدأ كفاتشي « عملاً » جديداً »

استأجر كفاتشي ، في حي « فاسيلوفسكي اوستروف » في مدينة بطرسبورغ ، شقة تشكل الطابق الأول مؤلفة من سبع غرف ، مجهزة بأثاث ثمين جميل ، أختير بذوق رفيع . غرفة الطعام مزدانة بخشب السنديان القاتم ، بلوحات طبيعية صامتة لفنانين هولنديين وبلجيكيين وبمجموعة متناسقة من الأطباق الحائطية ، والفرفور البراق والكريستال المصنوع في البندقية .

القاعة الكبيرة تلمع وتتلألأ ، المرايا الأربع ترتفع حتى السقف . وعلى جوانب الجدران تتوزع الكراسي المطعمة بالذهب ، وفي الزاوية يقبع بيانو كبير مصنوع من خشب السدر (١) . على النوافذ والأبواب تتدلى ستائر مخيطة من الحرير والأطلس والجدران بكاملها مسربلة بالحرير والأطلس ، تزين القاعة لوحات « سيرون » « ليفتان » « ماكوفسكي » « ريبين » « شيشكين » ، وقد علقت هنا وهناك لوحات عارية مختارة من الصالونات الباريسية . كان المكتب وغرف النوم مؤثثة بعضها على الطراز الفارسي وبعضها الآخر على الطراز الأوروبي ، كما وتغص الشقة بالسجاد الخراساني والتركماني والغوبلين الفرنسي (قماش مشجر) والمخمل الهندي الموشى بالذهب . وكل الغرف ملأى بالكريستال والمرايا والبرونز والمرمر وخشب السدر والمخمل والفرو والجلود والفضة . كما لاتخلو هذه الغرف من الأعمال الخالدة لـ « تشيلبني » و « كانوف » و « رمبرانت » و « فان ديك » و « وريسدال »

---

(١) السدر : شجر جبلي واحدته « سدرة » خشبه جيد ، طيب الرائحة — المترجمان

وكثيرين آخرين وثمة أيضاً غرفتان مستقلتان تضمان المكتبة والبلياردو. ضمن هذه الغرف كان يتنقل خادم باللون الأبيض والأسود كالبومة ، وأمام المدخل كان يتسمر بوّاب أرقش كالببغاء قاسي الملامح .

كان الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نتيرادزه يجلس في المكتب وقد لفّ نفسه برداء بخاري (١) . ثمين يتصفح جريدة وينفث بسيكاره الهافاني .

عند أقدامه ، وعلى جلد النمر ، يستلقي كتمثالين مصبوبين من المعدن ، كلب انجليزي أسود « دوغ »(٢) و « سنبرنار »(٣) ضخم نحاسي اللون .

والقطة الأنقرية البيضاء ذات الذيل والوبر الطويلين تقف في النافذة تصطاد الذباب وتلاعب أشعة الشمس وتطارد ذيلها .

وعلى منضدة المكتب كان يقعي قرد وثاب صغير يلبس سترة « الفراك » والقبعة الأسطوانية يمسّد وجهه ويؤدي حركات بهلوانية أمام كفاتشي .

كان هدوء كامل وسكينة يسيطران على تلك الغرفة وعلى نفس كفاتشي كذلك .

في تلك الأثناء دخل إليه بحذر سكرتيره الشخصي وصديقه الحميم بيسو شيكيا . .

---

(١) بخارى : نسبة إلى مدينة بخارى .

(٢) دوغ : سلالة من الكلاب الضخمة ذات وبر قصير وبوز دقيق .

(٣) سنبرنار : سلالة من الكلاب الضخمة ذات وبر طويل نسبة إلى دير الالب « سانت برنارد » وكانت تلك الكلاب تستخدم كدليل للمسافرين — المترجم

ـ آ . . آ ، بيسو مالك ؟ قال كفاتشي بكسل : كيف الحال ؟ رسائل ! ماذا يريدون ؟ أما زالوا يستجدون ؟ أقذفها في السلة .

ـ ثمة أيضاً عدة رسائل أخرى . تقيم الأميرة « غوليتسنا » حفلة تنكرية من أجل ملجئها وهي تدعوك لتكون راعياً لتلك الحفلة .

ـ حسناً ضعها هناك . سنرى سنفكر ، إذا لم نذهب اشكرها وأبعث إليها بخمسمائة روبل .

ـ الأمير « كوبور ـ غوتيل » يدعوك للعشاء .

ـ آه ، لقد سئمته . . أكتب إليه بأنني أشكره ، لكن لاوقت لدي .

ـ الأمير « فولكونسكي » يعرض مهره العربي للبيع ويرجو . .

ـ دعك منه . لدي العشرات من الأحصنة العربية .

ـ غداً ستقام مأدبة عشاء على متن اليخت ـ النادي ، على شرف الأمير التركي عزيز .

ـ حسناً ، ذكرني غداً .

ـ تعرض فيدار الأوبرا « باليه » تؤديها راقصة البالية « سميرنوفا » . هاك بطاقة مقصورة .

ـ أذهب أنت . . بلّغها تحياتي وقدم إليها طاقة من الورد .

ـ هاك أيضاً رسالة أخرى . تكتب إليك تانيا « بروزوروفا » أنه سيكون عندها في العاشرة مساء .

ـ أرني بسرعة !

واختطف من بين يدي بيسو الرسالة الحريرية الوردية اللون . قرأها . تيقظ ، فرح ، ابتسم واهتاج .

ـــ أخيراً ! أخيراً ! . . هذا ماانتظرته عاماً . . اتدري عمن يدور الحديث في هذه الرسالة يابيسو ؟ لاتدري ؟ سأقول لك لكن انتظر . . سأقول فيما بعد . . فيما بعد . . .

راح كفاتشي الهائج يذرع الغرفة جيئة وذهاباً .

كانت عيناه تقدحان شرر الابداع ودماغه يغلي وقلبه يدق بعنف .

ـــ لابأس . . حسناً . . لقد حل زمن جديد . . هيا كفاتشي فالسعادة هبطت اليك من تلقاء نفسها . . . إن كنت شجاعاً لاتدعها تفلت من يديك . . حسن ، حسن جداً . . ـــ تمتم كفاتشي الذي اشتعل بنار الخطة والأمل وبدأ يحوك شباكاً مبتسماً للمستقبل .

ثم التفت نحو بيسو :

ـــ أخبرهم أن يرسلوا سيارة « بينتسا » . . انتظر لاأريد « بينتسا » طقس هذا اليوم تناسبه « المرسيدس » أو « برلي » .

ـــ طقس رائع ، الطريقة العادية أفضل .

ـــ فليكن . لكن يجب ألا يربطوا العربة بالخيول السود ، فهي جامحة . فليربطوا بها الخيول البنية أو البيضاء . . هيا أسرع . . استدع الخادم .

ثم أمسك بالهاتف :

— ألو ، يلينا ، أهذه أنت ؟ نعم أنا كفاتشي . . قبلات الصباح أطبعها على يديك الربانية . . . مساء الأمس ؟ ربحت مايقارب العشرين ألفاً . .

— آه ، لم يقولوا لك الحقيقة . ثمة من يريد ان يزرع الشقاق بيننا ، لاتصدقي ذلك . . لا ، انا لم ارافق في الوداع تلك المرأة بل اقتدت الأمير « فيتغينشتين » انا ؟ اقسم بك لم ارتد اي مكان . غادرت إلى البيت مباشرة . . حسن ، فلندع هذا الأمر ، يلينا لدي لك عمل عظيم اليوم . لقد اعجبت في المرة السابقة بخاتم الألماس سأحضره لك غداً إذا تصرفتِ بذكاء . . . ماذا ؟ بحيث لايدري احد ؟ وهل سيخصصون في بطرسبورغ رجلاً يتقن الجورجية كي يتنصت إلى احاديثنا ! حسناً ، حسناً ، أسمعك ! . . انتظريني في البيت سأصل إليك حالاً . إلى اللقاء ياصديقتي الطيبة ! — ثم التفت إلى الخادم جليل — حسناً ياصديقي جليل البسني ثيابي .

ريثما ألبسه جليل ، بدل كفاتشي الارتكاز من رجل إلى أخرى كمهر لم يروض بعد . وقال ، ولم يكن واضحاً ، أكان يكلم نفسه أم يكلم جليلاً :

— يوم جميل . . يوم رائع . . صلّ ياجليل من أجل ان تنتهي هذه القضية نهاية سعيدة بالنسبة لي . . يوم بديع . . سأرى ذاك العجوز ، ذاك المقدس ، إذا كان قديراً فليتحمل هجومي ! فليقف أمام « يلينا » . . لاأريد ربطة العنق هذه وهذه أيضاً لاأريدها . . أعطني تلك . .

رفع جليل يديه نحو السماء وقال مترنماً :

— الله ، الله ! فلينصر الله أميري وجليل !

نقل إليه القوزاق التتري :

— العربة جاهزة !

جرّ حصانان أبيضان انجليزيان العربة . كانا يتهاديان ويدقان بحوافرهما على الطريقة الانجليزية ، وكان جليل يجلس بجانب الحوذي مرتدياً قفطاناً .

سارت العربة في البداية في الشارع البحري ثم في شارع « نفسكي » . تطلع الناس إلى العربة الفخمة والجوادين الأبيضين والشاب الوسيم الذي كان يوزع التحيات بانحناءة احترام وابتسامة ساحرة .

كانوا يتحادثون على الأرصفة :

— كيف لاتعرفه ؟ الأمير كفانشا نتيرادزه ، نابليون أبولونوفيتش ، اسم رائع أليس كذلك ؟

— يملك ثروة لانفاذ لها : نفط ، منغنيز ، نحاس وخمسمائة ألف ديسياتين (١) .

وفي مجموعة أخرى يؤكد أحدهم :

— لديه قصر فخم من المرمر في « كولخيد » يقصده السياح من أمريكا ويؤكد أحد الناس في مجموعة ثالثة :

— سليل الملوك ، دمه نقي كدم الامبراطور الصيني .

---

(١) مقياس للمساحة قديم في روسيا يعادل مايقارب الهكتار .

ـــ يقال أن لديه عشر نساء فاتنات يحملن قسائم الأسهم .

ـــ منذ ثلاثة أيام عقد اجتماع عام لمالكي الأسهم في شركة « انجلوروس » . تصوروا أن كفاتشا نتيرادزه أحضر معه كتاباً رسمياً واستولى على كل شيء ماذا ؟ وكذا فعل في شركتي « سالاماندرا » و « كوسموس » ؟ لاأستغرب . . إنه رجل مال كبير ، نجم متألق .

ـــ يقال أنهم دعوه لادارة المصرف الحكومي ، وهل فقد رأسه حتى يوافق ؟ فهو قادر على شراء خمسة مصارف .

ـــ يبدو لم تبق امرأة حسناء في بطرسبورغ لم . . . ألا تذكر زوجة الهرتسوغ ، « كاتالونسكايا » ؟ لامثيل لها في الشرف والجدال . لقد قدمت العام الماضي إلى بطرسبورغ . اتدري ماحصل بعدئذ ؟ لم تتمكن من مقاومة كفاتشا نتيرادزه أكثر من ثلاثة أيام ، ثق بذلك ! ولابد أن زوجها علم . . . مبارزة ؟ لا ، لايتجرأ على فعل عمل كهذا إذ أن كفاتشا نتيرادزه يصيب الذبابة الطائرة .

ـــ منذ فترة قريبة بارز ثلاثة رجال دفعة واحدة وجرحهم جميعاً .

كان أصدقاء كفاتشي وعملاؤه يشاركون في إدارة مثل هذا الحوار فقد دربهم كفاتشي وعلمهم بشكل جيد .

توقفت العربة في شارع « سوفوروف » . وبعد خمس دقائق كان كفاتشي يقبل يدي الأرملة الشابة الجورجية الحسناء المليكة الحقيقية جسداً ووجهاً .

ـــ حسن ، يكفي أيها المجنون . . هيا قل لي أين كنت مساء الأمس ؟ خنتني أليس كذلك !

— أقسم ، يلينا ، أنني . .

— لاتقسم ، لاأصدق أي عمل تنوي القيام به ؟ ماذا ؟ أنا منذ الآن أبنة عمك ؟ يالك من صبي لعوب وما حاجتك لمثل هذا ؟ أولست لك على أية حال ؟ ! نعم م . . . م أفهم يجب أن أسمّي قريبتك ؟ ! وبعد ؟ ماذا قلت ؟ يارب غفرانك ! كيف يمكنني أن أقوم بمثل هذا ؟ أن أصبح قرينة لذاك الفلاح القذر الحيوان ؟

شرح كفاتشي لـ (يلينا) خطته بوضوح وإيجاز وكشف لها لوحة المستقبل الزاهر . لانت « يلينا » واستسلمت للحلم .

— طبعاً ، النقود شيء جميل لكن . . لكن أقول . . هو رجل متين . . مقدس ولكن ألا يكفيني أنت ؟ ماذا ؟ هو أفضل منك ؟ بأي شيء ؟ كيف ؟ حسناً أصمت لاتكن خسيساً . . آخ . . آخ أتقول الحقيقة ؟ لعلها ثرثرة فارغة وإلا آخ ، آخ بهذا ، إذاً شق طريقه حقاً ؟ نجنّا اللهم ! ايه ، ايه ! لايروق لي حتى السير مع ذلك القذر ،لكن طالما أنك تقوم بعمل كبير . . سنرى اليوم ؟ ! هكذا تتخلص مني بشكل رخيص ؟ إذا كانت المسألة ناجحة ، أشتر لي ذاك البيت الصغير الذي أعجبني ألا تذكر ذلك البيت ؟ حسناً أنا الآن أسمعك هيا ، علمني .

بقي كفاتشي ساعة كاملة يلقن يلينا ، ثم سألها مراراً ليتأكد من استيعابها ، أجرى تطبيقاً عملياً بسيطاً فأعجب أشد الإعجاب بموهبة يلينا وأعطاها آلاف الوعود ثم مضى .

« كيف تعرف كفاتشي بالعجوز المقدس وبقية أصحاب السلطة »

على ضفاف نهر النيفا يقع بيت متواضع صغير لونه رمادي قاتم . في ذلك البيت كان يسكن « الملاك الحافظ لكفاتشي » — « اناستاسيا

روزوروفا » الأرملة الكهلــة (الفريلينــا) ذات النفوذ الكبير (ستاتس داما)(١) . الحائزة على الكثير من الأوسمة .

وقد تآلف كفاتشي مع تلك العائلة حتى أنه كان يدعو المرأة (تانيا) ، ويتحدث إليها بالفة وأخوة ، وهي بدورها كانت تدعو كفاتشي « ابولونتشيكي » وكان القدر قد أنعم عليه وخصه بملاك — حارس حقيقي .

من يستطيع أن يحسب المرات التي أنقذت فيها تلك المرأة الطيبة كفاتشيكو من المصائب والكوارث ، وكم أخرجته من حفر نتنة مظلمة ، وكم أنفقت عليه ، كم مرة حرمته من دخول بيتها ، وكم مرة تراجعت عن قراراتها واستقبلته لديها من جديد .

إذا استمعنا لكلام البعض ، من يدري كم من الأقاويل يروون ، وكيف يطلقون العنان لألسنتهم السامة ! قالوا أن كفاتشي يزور « أخته » مرتين على الأقل في الأسبوع ، وأنه يرسل إليها مختلف الفواتير بدلاً من باقات الورد والحلويات ، وأن « تانيا » سئمت من دفع تلك الحسابات فخصصت لتلك « الأخوة » مبلغاً محدداً من المال شهرياً ، وأن شقة كفاتشي كانت على حساب « تانيا » وأنه بيديها . . . باختصار كان ثمة الكثير من « أن . . . وأن » بحيث لو جمعت لأضحت كلاماً لا طائل له . من كان يعرف تلك الا « ستاتس داما » ، طبعاً لن يصدق جزءاً واحداً بالمائة مما يقال . كانت هادئة ، فاعلة للخير ، مؤمنة خفرة ، طيبة القلب متنسكة ، وكان من الصعب على من يعرفها أن يصدق

---

(١) فريلينا : لقب من القاب الحاشية يعطى لعائلات الطبقة النبيلة .
ستاتس داما : أعلى الألقاب التي تعطى لأقرب المقربات من الحاشية — المترجم

ان الرذيلة والفسق يمكن أن يستوطن في جسدها الضئيل غير الشاب وفي روحها التي تنعم بالرضى الإلهي .

لم يدخل ذلك البيت الذي تزينه الايقونات والمشبع برائحة الشموع والبخور سوى السيناتورين المقوسي الظهور وأعضاء المجمع الكنسي الدرد (١) . والفريلينات والستاتس دامات ممن بلغن الستين ولايقوين على صعود درج ذلك البيت بلا مساعدة . وكان بينهم « أبولونتشيك » الشاب الوحيد لكن . . لكنه كان الاستثناء الوحيد ، ثم إلى متى ستظلون تجرون وراء الأقاويل الضبابية التي لاوزن لها ؟ ! هذه المرأة الخيرة وذاك الشاب المهذب « كفاتشيكو » لايحتاجان تبريراً أو دفاعاً . سمعتاهما نظيفتان لاتشوبهما شائبة هذا والسلام ! لذا ، وللحقيقة ، هذا البيت يشبه الدير يجب ألا يمسه أي أثر للقذارة . . . لكن . . .

في ذلك اليوم ركب كفاتشي وابنة عمه « يلينا » عربة مغلقة وتوجها في التاسعة والنصف إلى بيت تلك الأرملة حاملين إليها طاقات الزهر والحلويات .

شرب الضيوف الشاي . قدمت سيدة البيت كفاتشي وابنة عمه إلى ضيوفها .

ــ قداسته كاهن القيصر الخاص ، مستشـــار أكاديمية علوم اللاهوت . . قداسته الراهب في الدير القيصري « اليودور . . . اسقف مدينة ساراتوف » غارموغن . . . » « أرملة الجنرال لوختين . . رئيس المجمع الكنسي « لوكيانوف » . . . مساعدة سابلر . . وزير الحربية

---

(١) الردد : جمع ادرد – الفاقد اسنانه .

الجنرال « سوخوملينوف » ، ستاتس داما « كواركينا » . . . البارونة « نودين » ، وزير الداخلية ماكاروف . .

شد كفاتشي ويلينا على أيدي الجميع وهما يقولان كنيتيهما ، قبّلا أيدي البعض وانحنيا للبقية باحترام ، ثم جلسا وراحا يتأملان المعارف الجدد .

كان بين الضيوف وزراء سابقون والبعض وزراء حاليون وآخرون يطمحون للوزارة . كان البعض أبناء الأمس والبعض أبناء اليوم والبعض الآخر أبناء الغد أو بعد الغد .

في صالون الأرملة الكنسي — فقد أصبح هذا الصالون كالمعبد بمـا يحيويه مـن رجال الدين — الأسقف يطمح ليصبح رئيس الأساقفة ورئيس الأساقفة يرغب أن في يصبح مطراناً ، كما ويطمح اللواء لأن يصبح فريقاً والفريق مشيراً وساكن الريف يطمح للسكن في العاصمة والتاجر يجري وراء الربح الأكبر ويطمح المصرفي للحصول على المزيد من الامتيازات . وتساعد النساء أزواجهن وعشاقهن . وعموماً يسعى الجميع نحو الأعلى ويهدفون لارتقاء درجة واحدة في السلم .

كان يجري في أعماق قلوب هؤلاء الناس صراع خفي لايمكن السيطرة عليه — صراع قاس لاير حم ، لكن كان يغلب على وجوههم وألسنتهم رضى وأخوة وصداقة وابتسامة وطيبة المسيح وسكينةالملائكة.

وتابعت الأرملة لوختينا أحاديثها التي لاتنتهي .

تطلع كفاتشي بذهول إلى تلك الأرملة الغريبة وراح يستمع إليها .

وكانت تانيا قد حدثت كفاتشي منذ فترة وجيزة عن صفات تلك المرأة المدهشة. الأرملة لوختينا امرأة كهلة معتدة بنفسها كثيراً ، ذكية راقية ومن أسرة كريمة . منذ عدة سنوات خلت أضحت هذه الأرملة « المندوبة » الأولى لدى « غريغوري المقدس » ، وعبْدَته المطيعة الخنوع . عافت كل شيء : الأسرة ، الممتلكات ، حب الذات وأنوثتها وتبعت بإخلاص « منتظرها » الجديد سيدها وربها . لم تكن تلك المرأة المريضة خادمة وعبْدة فحسب ، بل داعية مثلى لقدسية روحه وجسده ولفسقه وهذيانه .

وأخيراً شقت تلك المرأة المعتلة الطريق أمام « المنقذ » ليصل إلى أسرة القيصر التعيسة ذات الحظ السيء واقتادت ذلك العجوز إلى سدة العرش .

وفيما بعد تخلت الأرملة عن مكانها في البلاط لامرأة أكثر شباباً وجمالاً ومهارة لـ « فيروبوفا » .

لكنها مع ذلك لم تهجر البلاط ، ولم تتخلّ عن الخدمات والعبودية ، اقتفت « الرسول العجوز » راسبوتين حيثما ذهب في كافة انحاء روسيا ودوّنت كل كلمة وكل خطوة من خطواته .

والآن اتجهت كل الأنظار إليها . كانت « العذراء » حافية وقد ارتدت ثوباً غريباً أبيض مصفراً يشبه جلباباً دينياً إلى حد كبير ، وكان هــذا الثوب مبرقشــاً بمزق متعددة الألوان من الحرير والأطلس ، وعلى رأسها طاقية غريبة تحمل الكلمات التالية بخط ذهبي عريض :

« أنا جد قديرة هاليلويا .

أملك كل القوة ، هاليلويا »

ومن وقت لآخر كانت تقع في نوبة وتتكهن :

ــ لقد رأيت أول أمس « منقذنا » ثلاث مرات ــ قالت بعينين متقدتين وصوت واجف ــ لعلكم تعلمون أنه كان مايزال في الطريق . أول أمس ليلاً كان مسافراً من موسكو ، لكن روحه سبقته وتجلى لي . كان منقذنا مرتدياً الأبيض من رأسه حتى أخمص قدميه ، فوق جبينه تشعشع هالة نورانية ويحمل الصليب بيد وسيفاً نارياً باليد الأخرى .

ــ رحمتك يارب ــ همس سابلر وصلّب واقتدى الآخرون به .

ــ بدا لي وقال : « انغمسوا أيها الارثوذكسيون بخطاياكم فقد أطل يوم الحساب العسير . ارتجفوا وارتعدوا خوفاً أيها الملحدون أيها اليهود . يامفسدي النفوس البشرية ! فخررت على أقدامه المتلألئة . مسّد رأسي وغفر خطاياي ، وحين فتحت عيني طار منقذنا إلى السموات ، وفي اليوم التالي قدم قديسنا من موسكو . قصصت عليه كل ماحدث فقال : حقيقة كنت معك بروحي يا أختاه ! « صلبّوا مرة أخرى وحركوا شفاههم الذاوية المتدلية . همسوا جميعاً بخوف وذعر :

ــ مذهلة أعمالك أيها الرب !

ــ حل يوم الحساب العسير !

ــ ارحمنا يارب ، وكفر عن سيئاتنا !

ــ هاليلويا ، هاليلويا ، هاليلويا !

نهضت المرأة . تطلعت بعينيها إلى السماء ، رفعت من وتيرة صوتها وراحت تهذي باهتياج واستلهام :

— وللحقيقة يقال لكم : أنه هو منقذنا اختارته السماء لانقاذ مذنبي هذا العالم ، لانقاذ روسيتنا المقدسة ، لادانة المذنبين واهلاك الملحدين ولاقامة وتثبيت الحياة الهنيئة الأبدية — ثم اتجهت إلى راهب الدير القيصري ايليودور — أنه « ابنه » الطاهر المضحي بنفسه في سبيل ابنائه ، وأنا المذنبة والحواري والعذراء ماريا . انغمسوا أيها الارثوذكسيون وتمادوا في خطاياكم !

نفخ الراهب ايليودور نفسه وبدأ يتململ في مكانه ومرة أخرى حرك الآخرون شفاههم ونكسوا رؤوسهم متمتمين أمام « مريم — أم الإله » .

قبّل سابلر وماكاروف يدها وتبعهما كفاتشي ويلينا وهما يصلبان ويهمسان باحترام :

— أرحمنا يارب !

ضمت « العذراء » الأربعة إلى صدرها وقبلتهم كراهبة قبلة مسيحية .

— هاقد تحققت نبوءة دوستويفسكي — قال سابلر الدامع العينين لتلك المرأة — إذ قال : سينقذ روسيا من الفوضى والخراب ويضعها على طريق السيطرة والسيادة راهب معتدل القامة مسيح فلاح ساذج يختاره الله من عامة الشعب ويهبه لنا .

— ستُنقذ البلاد بامثال هؤلاء البسطاء الذين سيمحقون الكفر بالحديد والنار وسيخلصون البلاد من الآراء الشيطانية والدسائس — قال سوخوملينوف مضيفاً .

— كان ثمة « روما » اثنتان وروسيا هي الثالثة ، لالن تكون الرابعة — تذكر لوكيانوف النقاش البيزنطي .

— يحاول اليهود القذرون وعملاؤهم الاشتراكيون المأجورون ليل نهار ويحلمون بتحطيم « روما »أي روسيا — قال راهب القيصر متأففاً .

— روما الثالثة أبدية لايمكن هدمها ، حدثت محاولات كثيرة وباءت جميعها بالفشل . لاتخافوا أيها الأرثوذكسيون فالله معنا ! — قال الثعلب العتيق الماكر سابلر .

انتهز كفاتشي الفرصة :

— سعادته قال كلمة حكيمة ، لاتخافوا لاتصدقوا إمكانية هدم روما الثالثة أنها خالدة لقد رفع القذرون رؤوسهم في القفقاس . . . لكن . .

— أأنتم من القفقاس ؟ — سأله ماكاروف .

— أجل أنا من تلك المناطق،لقد قدمت منها . هناك أيضاً دنّسوا ولطخوا اسم بلادنا المقدس . مابنته روسيا خلال مائة عام هدمه « فورونتسوف — داشكوف » ذاك الغبي الهزيل ، خلال عامين . لقد آن الأوان للتخلص من هذه الماسونية السرية . لقد صدقوا عندنا إذ قالوا : في القفقاس « فورو نتسوفان »(١) أحدهما واقف على رجليه دائماً . والآخر ملازم للفراش . لكن مع ذلك لايهدأ طريح الفراش بل يسعى باستمرار لتخريب القضية الروسية في القفقاس .

قهقهه أفراد الحاشية وضحكوا ضحكات مميزة — ضحكات من لاأسنان لهم . وتابع كفاتشي :

---

(١) الاشارة هنا إلى الأمير فورونتسوف المعافى و « فورونتسوف — داشكوف » الذي كان مقعداً في فراشه لفترة طويلة وكلمة « فورون » تعني الغراب بالروسية .

ـ الحمد لله . لدى قيصرنا المعبود بالإضافة إلى تلك الماسونية السرية الضعيفة الكثير من الموالين المخلصين امثالنا كـ : اليخونوف ، فوستورغوف ، تولماتشيف ، مارتينوف ، غريازنوف ، وآلاف آخرون. لقد قطعنا رأس التنين الثوري بقوانا الموحدة . كونوا الآن مطمئنين عيشوا دونما إكتراث .

همست تانيا في أذني جاريها . تيقظا لدقيقة : ثم قالا بشيء من الدهشة :

ـ لايمكن ! أحقاً ؟ ـ ثم التفتوا نحو كفاتشي :

ـ قص علينا أيها الشاب تلك الحكاية . . كيف جرحوك . .

ـ لاتستحق الحديث . . لاشيء يستحق الذكر . . لكن ان شئتم أصحاب المعالي . . نظراً لأنني لم أمكن اليهود والثوريين من أن يحركوا أياديهم أو يتنفسوا ، لذا دفعوا عشرة آلاف روبل ثمناً لرأسي . لقد قطعت عليهم مراراً خططهم الخبيثة . وحين تصلبت أمامهم بدءوا بمحاولة اصطيادي . لكن كنت أصيد من هؤلاء السافلين . لقد ألقوا علي ذات مرة قنبلة ، لكنني لم أصب بأذى . جريت وراءهم وقتلت ثلاثة منهم وألقيت القبض على اثنين منهم ، أطلقت المجموعة الثانية نيران بنادقها علي ففعلت بهم أكثر من سابقيهم ثم أرادوا دس السم لي فاشتروا خادمي ، لكنهم لم يفلحوا أيضاً .

لماذا الاسهاب في الكلام،لقد قتلنا وسحقنا تلك القذارة الحقيقة . تمكنوا من جرحي في رجلي لكنني انتقمت منهم مايعادل مائة ضعف .

كادت تانيا ان تؤكد جرح كفاتشي الذي أحدثه كلب سامتريدي، لكنها عضت على لسانها في الوقت المناسب ولزمت الصمت .

تكلم كفاتشي مطولاً بتباهٍ وتملق ومداراة وكأنه بلسم (١) لطفّ وهدأ قلوب اولئك الناس وفرحّهم .

دونت الأرملة لوختينا اسم كفاتشي في دفتر مذكراتها ، كما تذكر الآخرون ذلك الاسم . سمع صوت سيارة في الشارع .

— تفضلوا لقد شرفنا.قدبسنا ومنقذنا — هتفت « أم الاله » بغنّة » ووثبت ناهضة . انتصب الآخرون أيضاً . أسرعت ربة البيت و « لوختينا » تهبطان الدرج بسرعة . بعد دقيقتين دخل الصالة مسرعاً « المنقذ المقدس » غريغوري راسبوتين . بنظرة شاملة غمز كفاتشي قوي زمانه وعظيم عصره ، وتذكر وصفاً لشخصيته قرأه في إحدى الجرائد السرية ذلك اليوم :

« رجل غامض غير لبق ، غبي ، جاهل تماماً وقح سفيه ، قذر جسداً وروحاً ، فلاح سيبيري فاسق مقرف » . « الشيخ الطاهر المقدس » « انعمت به السماء رسولاً . بطريرك أصيل قدير على كل شيء ، قائد وحاكم مطلق ، مسيطر على القلوب » .

وقف الجميع منكسي الرؤوس طائعين ، لاحت على وجوههم الطهارة والتسليم والغبطة الالهية وحب أبوي متبادل .

توقف راسبوتين دقيقة عند مدخل الصالة .

كان معتدل القامة متيناً ، صلباً ، ذا شعر أسود طويل « كث » مسرّح بلا أهتمام مدهون بزيت نباتي مفروق في وسطه . كانت شفتاه

---

(١) نفس الكلمة في الروسية مع قلب السين إلى الزاي : بلزم (المترجم) .

ممتلئتين مكتنزتين شهوانيتين ومائلتين للزرقة . وكان جبينه عالياً وأنفه مفلطحاً ولحيته قليلة الشعر متركزة في الأسفل كمكنسة طويلة الساق ، وشارباه كأنهما ملصقان بشكل هزلي فوق الجزء العلوي من شفته . وجهه شاحب متهدل داكن مشحم دهني . يداه دقيقتان طويلتان ، أصابعه منحنية قليلاً وأظافره خضراء مصفرة رؤوسها سوداء ، عيناه مدهشتان غريبتان عميقتان مائلتان للزرقة لاتهدآن براقتان فيهما قوى خفية لامرئية ، جذابتان ثاقبتان حنونتان بريئتان ، لكنهما بنفس الوقت ماكرتان عميقتان ثابتتان .

كان يرتدي قميصاً روسياً من الأطلس بلون الزعرور مخيطاً بيدي « أمه » القيصرة ، ومقصباً بخيط حريري أزرق ونطاقاً حريرياً مجدولاً بخيوط ذهبية وينتهي بـ « شرابات » كبيرة ، وفي جزمته ذات الجلد اللماع حشرت أطراف سرواله المخملي الواسع .

قال القديس وكأنه يسخر :

— عليكم سلام الله وبركته !

ووثب يتلوى في مشيته ويدور متناغماً ، طاف على الجميع مصعراً خده ، ناقلاً ارتكازه من رجل إلى أخرى محركاً أطرافه المرتخية تماماً كلعبة الكاراكوز ، متكلماً بلغة روسية غريبة غير مفهومة ، قاذفاً بكلمات دينية وتعابير كنسية بين دقيقة وأخرى دونما مناسبة .

لم يغفل أحداً : ضم الجميع إلى صدره وقبلهم بفرقعة مسمومة . قبّل البعض قبلة واحدة والبعض الآخر قبلتين ، أحاط بـ « يلينا » كالدب مما أجبرها على احناء قامتها . ضاقت أنفاسها ، قبل شفتيها

وبصعوبة انسلخ عنها . قبل الجميع يده باحترام وتسليم . بارك غريشكا(١) الجميع وخص كلا منهم ببضع كلمات حيث سأل سوخوملينوف :

— امشحوذ سيف الرب في يديك ؟

وقال للاسقف « غيرموغين » :

— معنا الله معنا !

ولمح لكاهن القيصر « ايليودور » :

— لن ينتصر اليهود علينا ، سيهلكون !

وقال لـ « ماكاروف » بخشونة وامتعاض :

— آن اوان الانتهاء !

وقال لـ « يلينا » معزياً » :

— ابحثي عن البرء لدي ياأختي . سأكون رحيماً بك .

ابتسم كفاتشي بخبث ، أخيراً جاء دوره :

— أبحث وجد — قال له المقدس مشجعاً .

أشاح بوجهه عن رئيس المجمع الكنسي « لوكيانوف » فسقط « سابلر » معاون رئيس المجمع على قدميه وهو يبكي ويتمتم :

— أرجو مباركتكم أيها الأب المقدس ! مباركتكم ورحمتكم !

خرّت البشيرة ، البشيرة أم الرب ، على ركبتيها مع سابلر ، أحتضنت ركبتي القديس وقبلت الطرف العلوي من جزمته ، أنهض

---

(١) غريشكا : تصغير « غريغوري » ، وهو الأسم الصغير لـ راسبوتين — المترجم

راسبوتين الاثنين ومسح دموعهما بقبلاته ، وواساهما ثم بكى وأبكى الآخرين معه .

بعد هذا المشهد همس أحدهم للآخر :

ـ سيُحال « لوكيانوف » على التقاعد ، وسيسمى سابلر رئيس للمجمع الكنسي ، ثم جلس الجميع وبدأوا بتناول الحلويات والحديث عن إنقاذ الروح .

أجلس القديسُ « بشيرته » بجانبه و « يلينا » ـ التي بدت كالملكة ـ إلى جانبه الآخر . وضع يده على ركبتها في البداية ثم نقلها إلى حوضها . لاحظ كفاتشي تلك اليد وأخفى ابتسامته وفكر « لقد أدت مفعولها . بدأ التأثير ! » .

أحاطت « البشيرة » بخصر المعلم وألقت برأسها التعبة على كتفه في حالة أشبه بالغيبوبة . استحت « يلينا » في البداية ، نكست رأسها ثم سكنت مغمضة عينيها نصف اغماضة . كانت أحياناً تحدق بعينيها السوداوين الواسعتين كحبتي اللوز في عيني المقدس الزرقاوين الصغيرتين كحبتي الفاصولياء وكأنها تثير عاصفة رعدية ثم تحول نظرها مظللة عينيها باجفانها الكثيفة كستارة ضبابية فتزداد عيناها اسوداداً . ثم تشجعت أخيراً وألقت برأسها الجميل على صدر المقدس ، ثم تناومت وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة .

تطلع الجميع برجاء في هذه اللوحة الحية الثلاثية ، وابتسموا ببراءة ، تذكروا جميعاً اللوحة « الثلاثية » المقدسة التي تمثل المنقذ ومريم ومرتا» . يلينا تشبه مريم المجدلية أكثر من شبه « لوختينا » « لها » . فكر كفاتشي وبدأ يفكر بحيل جميلة .

فجأة أشار الشيخ المقدس بأصبعه العوجاء نحو كفاتشي وقال :

ـ من أنت :

ـ أنا الأمير كفاتشا نتيرادزه أيها الأب المقدس .

ـ يعني أنك قوقازي . . أنا لاأحب . . شعب بدائي غليظ . يتطلعون ، أبداً نحو خناجرهم . هم دخلاء .

شرح كفاتشي بعذوبة :

ـ أنا جورجي أيها الأب المقدس ، الجورجيون ارثوذكس .

دهش غريشكا :

ـ أي مسيحيون ؟ ماإسمك ؟

ـ نابليون أبولونيتش :

ـ نابليون ؟ أبولون ؟ ـ مرة أخرى أبدى غريشكا استغرابه .

شرحت له « البشيرة » ـ الأرملة لوختينا ـ عن اسمه واسم أبيه .

ـ يعني أن الأسمين اسماء كفرة ، شياطين ، معنا القوة المسيحية ! :

ـ قال غريشكا وصلّب الجميع . همست له ربة البيت :

ـ إنه شاب ، وهذه المرأة « يلينا » ابنة عمه .

أتذكر ، لقد تحادثنا مراراً عن ذلك الشاب !

لان غريشكا فوراً :

ـ آ . . آ . . أبولونتشيك ! أنت من قاتل في القفقاس في سبيل القيصر وروسيا المقدسة ؟ حسناً أعرفك ، أعرفك جيداً وقد جرحت أليس كذلك ؟ يعجبني اسمك . اقترب مني ، أتريد خمراً ؟ ـ وقبّل مرة أخرى الشاب وابنة عمه .

اعتذر كفاتشي عن شرب الخمرة قائلاً بأنه لايشرب . أعجب الجميع بعدم تناوله الخمرة وأثنوا عليه .

ثم اتجه الحديث حول مصير روسيا واليهود والثورة وروما الثالثة وسيطرتها العالمية .

استغل الشاب الفرصة وكشف للأب المقدس عن ذكائه ورقيه واخلاصه للكنيسة والعرش وكأنه يعرض كل هذا على راحة يده .

— « ستوليبين » و « شغلوفيتوف » ركيزتان أساسيتان من ركائز روسيا المقدسة . العصيان لم يستأصل بعد من جذوره تماماً ، لم يقتلع من جذوره . . .

تنين الخبث مازال حياً يتنفس . . أفعى الشغب مازالت ترحف وتتلوى ، لقد سلبوا البلاد الغالية قوتها ، أضعفوها . مازال في الدولة عملاء يهود سريون . . . مازال في الكنيسة أيضاً الكثير من الملحدين الفاسقين والكفرة . لابد من تنظيف وتجديد بلادنا الرائعة وكنيستنا المقدسة وإلا لن نتمكن من النوم باطمئنان ! ! قال كفاتشي الكثير في هذا السياق . لقد صبّ الزيت على النار الملتهبة وزاد في ذعر المذعورين .

وافقت « بشيرة المنقذ » الأرملة « لوختينا » كفاتشي على أقواله . التهبت حماسة وبدأت تتكهن مرة أخرى ، سقطت على أقدام المقدس وراحت تفحّ :

— سنهلك ، ساعدنا أيها الأب المقدس ساعدنا ، أنقذنا ! ! وبدأ سابلر بالتمتمة . اضطرب الآخرون ونهضوا ومن جديد ، تكرر

الاحتضان والتقبيل . تقرر في ذلك المساء مصير عدة وزراء ونواب وسفراء ومحافظين وأساقفة ومطارنة . بعضهم سقط وبعض آخر ترقى .

وتفرق الضيوف بهدوء .

استدرج المقدس يلينا بهدوء إلى الغرفة التي تقع على اليمين ، وأدخلت ربة البيت « تانيا » كفاتشي إلى الغرفة الواقعة على اليسار .

بعد ساعة التقى الأربعة من جديد . كانوا جميعاً هادئين راضين .

كانت يلينا متقدة محمرة الوجه . شعرها مشعث وعيناها زيتيتان . تهامس المقدس وربة البيت قليلاً :

— تعال إلى هنا — نادى غريشكا بعد ذلك كفاتشي — أنت تعجبني ، أتريد الصداقة ؟ أنت بالإضافة إلى ذلك ستقوم بحراستي ، لأن الناس والمراؤون يريدون السوء بي . تريد ؟ كون حذراً ، تانيا هاتي أيقونة سنعطي يميناً (١) .

هل يرغب كفاتشي بصداقة راسبوتين ؟ أي سؤال هذا ؟ ! لم يحلم كفاتشي طوال عام بغير ذلك ! عام كامل وهو يشق طريقه نحو هذا العجوز ! سنة كاملة وهو يبحث عنه حاملاً شمعته ، حيث كان يعرف جيداً أنه القيصر والبطريرك الحقيقي لكل روسيا وأن السلطة كلها في يده ولاشيء يحد من سلطانه على كل هذه البلاد الواسعة الشاسعة .

---

(١) الأخطاء الواردة والتي سترد على لسان راسبوتين لاحقاً للتأكيد على أميته وجهله وعدم قدرته على لفظ جملة سليمة — المترجم

أحضروا الأيقونة والكتاب المقدس واقسما على الأخوة والصداقة الأبدية ثم تذكر غريشكا :

– تقدم اليهود إلى مجلس « الدوما »(١) باستفسار عني ،سأريهم مامعنى الاستفسار !

تكدّر وغضب وطار الشرر من عينيه . فحّ بصوت نسائي – ضرب الأرض برجليه وتناثر لعابه :

– يالهم من عواهر ! يالهم من ملاعين ! يالهم من سفلة !

ثم طلب ريشة ومداداً . جلس وتصبب عرقاً طوال نصف ساعة . أنّ وتأوه . كتب برقية للقيصر والقيصرة في القرم :

– بابا وماما الحبيبين ! لقد ازداد الكلب قوة،الملعون و « الدوما » تخدمه :

ثمة الكثير من اليهود القذرين . ماذا يهمهم ؟ اسقاط مسيح الله . و « غوتشكوف » السيد ذيلهم يلفّق ويعمل فتنة استفسارات بابا ! « الدوما » لك أفعل ماتشاؤون أي استفسارات عن غريغوري هذا عبث . وقح أصدر أمراً ، نعم ! لايجوز أي استفسار نعم ! غريغوري ! نعم (٢) . هؤلاء الحراس يشبهون آثار الاوز . اعطاها لكفاتشي وقال :

– أرسل هذه البرقية اليوم فوراً ، والآن أنا ذاهب إلى البيت ، ربة بيت شمس حمرا . شكراً لك ان شاء الله بالخير – قبّل ربة البيت

---

(١) الدوما : المجلس النيابي الإداري في روسيا القيصرية .

(٢) هذه البرقية وثيقة اصيلة.لقداثيرت قضية راسبوتين في مجلس الدوما وهذاماأغاظه.

ثم التفت نحو « يلينا » : — لينوتشكا أيتها الأخت هيا معي إلى البيت وكاد أن يحمل هدية كفاتشي على راحتيه وهو يهبط الدرج . احتضنت يلينا رقبة المقدس جيداً وخبأت وجهها التعب في لحيته الطويلة . جلس الثلاثة في السيارة .

— هكذا لا ، أيتها الأخت تعالي هنا ، أجلسي هنا .

أجلس يلينا على ركبتيه نظراً « لضيق المكان » في السيارة ، وحين وصلوا إلى البيت قال المقدس لكفاتشي :

— ابولونتشيك أنتظر هنا ورافقيني أنت ، لينوتشكا إلى غرفتي . تعالوا إلي غداً ، انتما الاثنين يجب أن نتحدث — نتابع الحديث . ظل كفاتشي منتظراً في الشارع ريثما « يفحص » غريشكا « يلينا » . مضى مايقارب الساعة . أخيراً خرجت يلينا وجلس الاثنان في السيارة . كان كفاتشي مجروحاً وعابساً وابتسمت يلينا .

— أي عجوز هذا ال « غريشكا » . ليست لديه شعرة شائبة ! ؟ تمتم كفاتشي ، لم تجب يلينا . و صلا إلى البيت دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة . رافق كفاتشي يلينا إلى الغرفة وجلس ثم تمتم :

— هذا لايحتمل !

ظلت يلينا تبتسم .

— هل تفحصك جيداً ؟ ماذا قال ؟ أيؤلمك شيء ؟ أطلق كفاتشي كلماته بغيرة وحنق .

— قال ، يجب أن تبتلّ رجلا الصياد بالماء — قالت يلينا مقاطعة وهي تخلع ثيابها وتتمطى بلذة ثم ابتسمت مرة أخرى بمكر .

— أجل لكن كيف تفحصك هكذا بسرعة ؟ ماذا قال ؟

— على أية حال هو أفضل من بقية الأطباء — قالت يلينا بصورة لاذعة وخبيثة .

— أفضل مني أيضاً ؟

— منك ! ها . . ها . . أنت غرّ ياكفاتشي !

تكدّر كفاتشي .

— لا ، هذا غير صحيح !

— كان الزوج في رحلة ليلية ثم قصت الزوجة له ماحدث لها . . ها . . ها لم يعجبك هذا ؟ أنت تريد أن تفعل فعلتك وتحافظ عليّ في آن واحد حين تجري وراء أرنبين تفقدهما معاً . ماذا ؟ ماذا قلت ؟ أنت لست بحانق ؟ هذا أفضل أنت رجل ذكي عليك أن تفهم هذا .

— لاتبدئي أي عمل بدوني .

— لا ، لا تخف لن أخطو خطوة واحدة بدونك،لن يذهب من قبضتي . بدأنا معاً وسنعمل معاً ، أنت بعقلك وأنا . . أنا بالابتسامة وبعيني . تعال غداً وسنتحدث ، لاتنس اللؤلؤة التي وعدتني بها . . ماذا قلت ؟ أهو أفضل منك أم لا ؟ أولم تقل لي أنت صباحاً هو أفضل من كثيرين من أمثالك ؟ ألم أقل لك بانك غرّ . أذهب هيا أذهب ، أحلاماً سعيدة ! . .

جرى كفاتشي إلى الشارع محتدماً يكاد الغضب يخنقه والغيظ يأكله ويقرصه . ذكرٌ سلب ذكراً آخر انثاه . وكيف سلبه إياها !

لقد فضلت يلينا غريشكا راسبوتين من أعماقها وبكل وعي على كفاتشي — الشاب الفتي الجميل والقوي الشبق .

— « لو كان جديراً بذلك ! » — فكر كفاتشي محتداً — داكن اللون ، مشوه ، غبي فظ ، قذر ، فلاح كهل . . . كيف قالت يلينا هو أفضل منك ؟ أنت صبي صغير بالمقارنة معه كيف ؟

ثم فكر : ألست أنا من اقتادها إليه ؟ ألم أجمع انا بينهما ؟ ألم أرغمها بنفسي على مثل هذا ؟ أليس سيان حدث هذا اليوم أو غداً ؟ لماذا أنا مضطرب وعلام أوجع رأسي ؟ إذا كانت تفضله فلتفضله ! ففي الكون الكثير من الجميلات . .لكن لايجوز أن تفلت يلينا من يدي ، وإلا سيضيع العمل الذي بدأ بداية حسنة وسأضيع أنا معه . ثم تذكر خططه اللامحدودة واستعرض حيله الكثيرة المحبوكة بخبث ومكر . فتحت أمام كفاتشي بلاد جديدة وحقل واسع بكر سيستغله كفاتشي سيزينه ويجنيه بطريقته الخاصة .

غرقت يلينا في ظلام ذاكرته.لم يبق في نفس كفاتشي أثر للاهانة والحنق الذي سيطر عليه منذ برهة .

تململ قليلاً في فراشه ، ثم أغفى كعادته ونام بسكون وباطمئنان وراحة بال .

« كيف صار لدى القديس سكرتير خاص »

استدعى كفاتشي رفاقه في اليوم التالي وأعطاهم تعليمات وأوامر جديدة . . أعطى عنوان المقدس إلى غابوتشخوبيشفيلي وبيسو شيكيا وجليل وأمر الثلاثة بالذهاب إلى هناك في منتصف النهار تماماً وانتظار كفاتشي عند المدخل .

ثم شق الزعيم طريقه عبر شارع نيفسكي ، اشترى بعض الحاجات وأتجه إلى يلينا مصطحباً معه هدية اللؤلؤ وطاقة من الزهور .

بدت يلينا وكأنها ازدادت جمالاً كزهرة متفتحة . تقلدت الهدية على صدرها فور إستلامها . لم تعد تستطيع الوقوف على رجليها من الفرحة ، تارة تقف أمام المرآة بتكلف ، وتارة أخرى تعانق كفاتشي وتقبله ضاحكة قافزة ، ثم قالت هامسة :

— يعني لقد زعلت بالأمس ؟ ياللك من ملعون أولست من علمني ؟ .. يعني لن تزعل بعد الآن، هدأت ؟ هكذا أفضل . أنس . لقد قلت ذلك عمداً كي أغيظك وإلا كيف سيكون رجل قذر أفضل منك ؟ ! أضف إلى أن عمره ضعف عمرك . ياالقذر الذي لايغتسل تفوه ! تفوح منه رائحة الشمع والزيت النباتي . . نمضي حالاً ؟ أنا جاهزة .

بعد عشر دقائق اجتازت « مرسيدس » كفاتشي شارع « غوروخوفيا» ووصلت بيت القديس . كان بيسو وصحبه منتظرين عند المدخل .

صعد الجميع . كان السلم مزدحماً بالناس وكان البعض ينتظر دوره في الشارع .

كان المقدس يؤنب أحد الجنرالات . حين رأى كفاتشي و « يلينا » نهض مندفعاً وعانقهما . ضمهما إلى قلبه .

— أجلس وأنتظر . أنا آت — ترك كفاتشي وأقتاد يلينا إلى الغرفة الثانية وبعد أن عاد محمراً مبللاً بالعرق : قال لكفاتشي :

— ستصبح سيكليتار (سكرتيراً) لدي . استدع من تراه هاماً ونظيفاً .

تسلم كفاتشي مكتب السكرتارية وأختار « بيسو شيكيا » مساعداً له ووضع « جليلاً » بواباً ، وأوكل إلى تشخويبشفيلي وبقية الرفاق مهمة الاستخبارات والرصد ، إذ أن لذلك الشيخ القديس ألف عدوٍ والخطر يحيط به من كل جانب .

دخل مكتب غريشكا في ذلك اليوم مائة من الرجال والنساء ـ جاؤوا إلى صانع المعجزات لغايات شتّى ومن كافة الأرجاء : مـن فلاديفوستوك ووارسو ، من آفون وطشقند ، من سولوفكوف ومختلف الأصقاع ، بينهم الجنرال والمحافظ ، الكاهن والتاجر ، الصيرفي والمحامي ، الفلاح والراهب ، القس والموظف .

بعضهم كان يسعى وراء النجاح والبعض الآخر جاء يطلب العون . البعض يرغب بالانتقال والبعض الآخر يرجو العدالة :

كان المقدس يستقبل الناس النظيفين « الهامين » والنساء الجميلات أولاً ، ثم يجري على السلم ويلقي في أيدي البعض روبلاً وثلاثة روبلات في أيدي البعض الآخر وهو يصرخ :

ـــ صل من أجل القيصر ومن أجلي ! لاوقت . . لاوقت هوذا « السيكليتار » ، قل له إذا كان (ضارورة) ـــ ثم يقول وهو في الداخل ؟ ، وبعد أن يسقط على أريكة من الأطلس يتنهد : ـــ أوف ، ياللشياطين المخططين العواهر ، أهلكوني ! رأى كفاتشي في ذلك اليوم الكثير المدهش . أظهر العجوز الأخرق خبرة ومرونة وحنكة مذهلة .

كان يفرق بنظرة واحدة القوي امن الضعيف ، المفيد من غير المفيد ويعطي كلاماً مناسباً . يستقبل البعض بابتهاج واحترام ، بالاحضان

والقبلات . يحني أمام البعض رأسه ، يراوغ ويداهن . قد لايجد كلمتين لبعض الناس لكنه لايترك أمرأة جميلة دون عزاء : كان يضمها ويحضنها بشكل أخوي إذا كانت المرأة تشكو مرضاً . كان غريشكا يقتادها إلى غرفة منفردة لفحصها وعلاجها ، أو يطلب إلى كفاتشي تسجيل عنوانها ، وكان أحياناً يتعذب نصف ساعة لكتابة عشر كلمات وأحياناً كان « يزوّق » كلمات غامضة وكأن دجاجة ملوثة بالحبر مرت على الورقة وتركت آثارها .

فهم « بيسو » تعليمات كفاتشي بدقة ونفذها خلال أسبوع : في ذلك اليوم كان بيت كفاتشي محاطاً ببحر من الناس وهذا « البحر من الناس » هم زبائن االقديس . تصرف كفاتشي بذكاء : أغلق لمدة أسبوع الأقنية التي تصب المياه في حقول المقدس وحولها إلى بستانه . فهم هؤلاء الزبائن أن الطريق إلى المقدس يمر عبر شقة كفاتشي ، لذا ولكي يحصلوا على توصيات وكتب مدونة قصدوا كفاتشي مباشرة وقدموا إليه قسماً كبيراً من الهبات كي يحصلوا على كتاب من « بيسو » ، ومن ثم يتوجهون إلى راسبوتين . تناوب اصدقاء كفاتشي لحماية الأب القديس بالتعاون مع رجال الشرطة . منذ ذلك اليوم أصبح الشيخ المقدس المرتاب الخائف ينام بهدوء ويبحث عن حجة لتلقي الهبات التي أحضرها إليه كفاتشي الفطن بعد أسبوعين .

« كيف (دبر) كفاتشي أعمالاً كبيرة »

بعد عدة أيام انتشر خبر صداقة كفاتشي وراسبوتين في كافة أنحاء المدينة ، سمع بهذا الخبر رجال السلطة والأعمال قبل سواهم . كانت شقة كفاتشي محاطة ببحر من البشر يصل حتى فناء البناية .

أما النخبة أو مايسمى علية القوم فقد جرى استقبالهم على السلم المرمري ، وكانوا ينتظرون دورهم على كراسي مذهبّة .

اشتّم الصيرفي « غانوس » قبل غيره الأمر ، وعرف شقة كفاتشي . تهامس في البداية مـــع بيسو ، ثم دخل إلى كفاتشي وعرض عليه باختصار :

— أنا رجل عملي أقدر الوقت وأثمنه وأعرف أيضاً أنك لست بلا عمل ، لذا هيا للعمل . لدي فوراً عشرات الأعمال الكبرى ، وأعلم أنك تستطيع مساعدتي كي أنهي هذه الأعمال التي يتطلب القيام بها الدفع وهذا من طبيعة الأشياء . .

بدأ بقياس ووزن أعمال ضخمة تثقل الرؤوس ثم كتبا اتفاقاً ، شدا على ايدي بعضهما،تبادلا الابتسامات والمجاملات وتمنى كلاهما النجاح والنصر للآخر .

استدعى بيسو رجل أعمال ثان « غينتس » اليهودي القديم الذي غادر غرفة كفاتشي بعد ثلاث ساعات .

اختار كفاتشي بعدئذ الوقت المناسب وأدار الحديث مع غريشكا عن الاقلية التركستانية :

— كم ستكون حصتي ؟ — سأل غريشكا كفاتشي مباشرة — ستكون ثلاثة الآف ؟ سر كفاتشي لهذا السعر الرخيص . أخذ غريشكا الهاتف ، طلب أحد الوزراء ، ثم طلب الثاني وقال للاثنين :

— ماما وبابا يرغبان كثيراً هذا العمل المقدس . سيكون ابولونتشيك عندك ، سيقول لك كل شيء . أعمل مايأمرك به نعم ! هذا أرغب

به نعم ! ماذا ؟ في (القفقاس) ؟ سأكتب برقية إلى البابا والماما بهذا الشأن حالاً . .

جلس نصف ساعة ينفخ ويعرق . البرقية الأولى :

حبيبي البابا والماما :

من نرسل إلى (القفقاس) لايدعنا بسلام وهدوء،لكن الأسقف الحبيب « توبولسكي الكسي (١) » يريد الذهاب إلى هناك . له أيضاً مكان في الكابكاس . أرسلوه هذا أرغب به كثيراً . إنه يتودد إلي ويعتبر هذا نجاحاً . من الضروري تقديم الشرف له . مخلص في أي مكان مخلص وفي الكابكاس سيكون صديقنا نعم ، أنا ! غريغوري ! نعم !

البرقية الثانية :

حبيب ! هاجمت الجزاء الأب « ايفان »(٢) الأيقونة عليه : لاتستمعوا إلى ذلك هي « بازارية » ومع ذلك فهي مقدسة كالمتداول وأكثر وتجب مكافأة فوستورغوف بالقفقاس أو سيبيريا .

أعطى البرقيتين إلى كفاتشي ليرسلهما ثم أضاف :

ـ أترى كيف الاطف القبقازيين . .

لاتري هاتين البرقيتين لأحد ولا تثرثر وإلا سينالك مني !

وهدد غريشكا بأصبعه كفاتشي الذي أقسم له مرة أخرى يمين

---

(١) تحققت رغبة راسبوتين ونقل الكسي هذا رئيساً للأساقفة في جورجيا وفي عام ١٩٠٨ اغتيل في تفليس .

(٢) يقصد « ايفان فوستورغوف » الذي تورط في قضية قذرة اذ باع ايقونة مزيفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاخلاص ، ومدح « فوستورغوف » و « الكسي » وذهب لمقابلة سوخوملينوف و « كريفوشين » .

لم يسمح غريشكو لـ « يابينا » بالمغادرة قائلاً لها بأنها ماتزال بحاجة للمعالجة .

زار كفاتشي في اليوم التالي الصيرفي غانوس أولاً :

— كل شيء جاهز ، هي ذي الرسالة سنتفق الآن .

أتفقا ، كتبا العقد ووقعاه . أخذ كفاتشي الهاتف .

— ألو ! من يتكلم ؟ سيادتكم ؟ الأمير كفاتشا نتيرادزه يتحدث إليكم . . ماذا قلتم ؟ لاتعرفوني !؟ كيف لاتعرفوني . . بالأمس حدثكم بالهاتف الأب القديس عني تذكرتم ؟ لدي أيضاً رسالة إليكم من أبينا القديس . . نعم . . نعم . . سأحضر اليكم فوراً .

بعد نصف ساعة كان كفاتشي يقف أمام الخارطة في مكتب وزارة المالية ويقول :

— كانت تركستان الحالية تشكل امبراطورية تيمورلنك السالفة . اقد ازدهرت يومئذ وأطعمت مائة مايون من البشر . هاكم هذه الصحراء المترامية الأطراف الشاسعة تستطيع ان تحوي خمس دول كفرنسا . علينا ارواؤها وفلاحتها وجعلها مزهرة وتوطين شعبنا هناك . أي نوع من المحاصيل الزراعية لايجود في تلك المنطقة : التبغ ، القطن ، الأرز ، الفواكه اللذيذة ، الكرمة الرائعة والقنب والزبيب والحرير . نحن الآن نستورد بعض الخامات من آمريكا وإيران ، بعد الآن سنصدر تلك المحاصيل إلى الخارج .

تتسع تركستان لمائتي مليون نسمة بسهولة . سنملأ هذه المساحة بالسكان . (نستعمرها) ونحولها جنة مزهرة . سيتخلق الشعب بالأخلاق الروسية وسنربي مائة مليون خلال عامين — ثلاثة أعوام ، سنحقق تكافؤ في الميزان التجاري، وماذا سيحدث بعد عشر أو عشرين سنة ، من يستطيع التكهن ؟ ! والآن علينا ارواء هذا البلاد ، وهذا يحتاج لأربعمائة مليون روبل . الخزينة لاتملك مثل هذا المبلغ ، لكننا نملكه ونستطيع البدء بالمشروع اعتباراً من الغد .

سنتناقش في الأمر سنتفق . . كل شيء جاهز . . التقرير والمخططات ومشروع الاتفاق .

تكلم كفاتشي طويلاً كما لو أنه اقتنع بحديثه العذب وبكتابة غريشكا المعوجة — ذلك الوزير الهادىء العالم المتمالك لأعصابه كأنما أقنعه وأذابه وحوله إلى سحاب .

أخيراً قال الوزير :

— أنا معجب ، معجب جداً . سأدرس هذه المعطيات وغداً أحدّد اجتماعاً . في موضوع كهذا يتدخل عادة وزير الزراعة والحربية . وإذا لم يعارضا . . .

— كونوا مطمئنين لن يعارضا — قاطعه كفاتشي الذي كان يمسك الجميع بقبضته .

— وإذا شاءت إرادة القيصر — قال الوزير بحذر .

— سيوافق القيصر بكل تأكيد سيوافق — قال كفاتشي مؤكداً .

— إذاً الموضوع منته تقريباً . . . إلى اللقاء ! بلغ تحياتي لأبينا القديس . قبّل يده نيابة عني وقولوا له ان رغبته قانون بالنسبة لي .

– سأراه اليوم وأنقل إليه كل شيء الحقيقة – أعلن كفاتشي بشكل عرضي – أنني كنت بالأمس أنا والأب الروحي لدى إحدى العائلات ، وكان « فيتي » ،هناك أيضاً وقد اهتم كثيراً بأبينا المقدس لكن . . كونوا مطمئنين :

لقد اتخذت أنا و « اناستاسيا بروزوروفا » الاجراءاتاللازمةوعززنا موقعكم إلى اللقاء ! .

– أنا شاكر لكم صنيعكم أيها الأمير،شاكر جداً ... لاتنسوني أيها الأمير شرفونا إلى البيت ،أعتبر هذا شرفاً كبيراً لي .

شد على يده بكلتا يديه وودع شاكراً ومعتذراً ، ابن سيلبيسترو كفاتشيكو حتى السلم .

« شخصية الأب القديس »

كان مساء السبت حين قصد كفاتشي كنيسة أكاديمية العلوم اللاهوتية بغية الصلاة . صلى بحمية واجتهاد .

بعد انتهاء الصلاة التف حول كفاتشي الرهبان الذين تعرف عليهم في صالون تانيا . دعا رئيس الدير القيصري « فيوفان » كفاتشي إلى صومعته لتناول كأس من الشاي . وقد تواجد أيضاً الكاهن القيصري وأسقف مدينة ساراتوف . لاحظ كفاتشي في إحدى الزوايا عجوزاً ، بشع المنظر مشوهاً بلا يدين ، أحدب يكاد يكون أخرس ، أطرش يتضور ألماً والنظر إليه يثير الرعب .

– مقدسنا السائح حبا بالله « ميتياكوليابا » – قدمه الكاهن فيوفان ا « كفاتشي » . شخر (ميتيا)،عوى وفاء ، وبدأ يختلج وجهه وعيناه وكتفاه ورجلاه .

– إنه منّا ! . . هو طيب . . . هو منّا . بصعوبة بالغة استطاع كفاتشي ان يفهم شيئاً من مواء وعواء ميتيا .

فرح الجميع حين مدح ميتيا كفاتشي نظراً لأن ذلك المشوه كان طبيبهم .

جلسوا وأداروا الحديث عن انقاذ الروح . لم تفت كفاتشي كلمة واحدة . لقد عرف في ذلك المساء أشياء جديدة كثيرة . شاهد الكثير من الغرف السرية ، رفع الغطاء عن الكثير من الظواهر الغريبة المجهولة .

استطاع كفاتشي بمهارة وبطريقة بدت وكأنها عفوية أن يكشف الدافع الحقيقي وراء برقية الأب المقدس الخاصة بالأب فوستورغوف .

قص عليه الراهب « ايليودور » .

– فوستورغوف وغد كبير ، « وطني » كبير ،راهب ساقط ، وقح ، يحب المال والكذب والدم حباً جما . هذا مايعرفه الجميع ، وكان في كل يوم يحقق نجاحاً ويتلقى هدايا وقد أهدى منذ فترة قريبة « الكسي » ابن القيصر ايقونة مؤكداً أنها من إرث عائلة فوستورغوف قديمة جداً . وأثبت الدكتور «دوبروفين» ان فوستورغوف أقتنى تلك الايقونة قبل إهدائها بيوم واحد من سوق « إبراكسين » في بطرسبورغ . قامت الدنيا،دفع فوستورغوف عشرين ألفاً ثمناً لرأس « دوبروفين » وكاد أن يقدم على جريمة قتله .

بعدئذ خفضوا رتبة فوستورغوف وكادوا أن يقلموا له أظافره لولا تدخل الأب القديس ،

– وأي إنسان هو الأسقف توبولسكي ؟

— لايقل عن فوستورغوف سوءاً بل لعله أسوأ — يتقبل الرشوة دائماً، لص ، سرق أبرشية بسكوف واثبتوا تلك السرقة وأوشكوا أن « يحلقوا » له ، لكن أبانا المقدس ســاعده والآن يعيش فوستورغوف في (توبول) . الكاب يجب أن يتفسخ على طريقة الكلاب . لماذا تسألونني ؟ أسمعتم أي شيء جديد ؟ .

— لا، بالأمس قصوا علي قضيتيهما . أريد أن أفهم أقالوا لي الحقيقة أم كذبوا علي ؟

— قالوا الحقيقة، لكن أخفوا الكثير .

— ومن هو « ميتيا » هذا ؟ استفسر كفاتشي عن المشوه .

— ميتيا انسان رباني حقيقي مقدس ، رسول . قبل ظهور القديس السيبيري .كان ميتيا مستشاراً لدى القيصر والقيصرة ووسيطاً للعناية الالهية، لكن راسبوتين طرده ، إنما . . . سنرى .

— فتح كفاتشي أذنيه جيداً، لكنهم لم يسمحوا له بمتابعة الاصغاء .

— نابليون أبولونوفيتش الي . . عندك رجاء حاول الا تجمعني بعمتاك أبداً . . اذ أنها بارعة الجمال . . لاأريد ان ارتكب ذنباً في شيخوختي — قال أحد الأساقفة الشيوخ مازحاً .

ضحكوا وتذكروا النساء الجميلات، استمتعوا بالتذكر وحركوا ألسنتهم وأشعلوا الجمر المختبيء تحت الرماد .

طاف ميتيا حول الطاولة وهو يموء ويعوي ويتمتم مختلجاً .

علم كفاتشي في ذلك المساء أنه تقرر بناء كنيسة القديس غيورغي ، وقد تم جمع حوالي أربعة ملايين . فكر كفاتشي فوراً :

ــ لو اعتبرنا الربح ١٠٪ فقط تكون النتيجة ٤٠٠ ألف .

وسأل فيوفان على الفور :

ــ من يبنيها ؟

ــ ثمة ألف راغب . سيبنيها من يختاره القصر .

تذكر كفاتشي جيداً وقرر في نفسه جازماً : « إذاً أنا من سيبنيها » .
أخيراً تحول مجرى الحديث إلى راسبوتين قديس روسيا . تساءلوا : من هو هذا القديس ، أهو قديس فعلاً أم شيطان؟ شيخ بريء أم شيطان مهووس ؟ رسول أم كافر ؟ أرسول المنقذ هو أم رسول الشيطان الرجيم ؟

نظر كل منهم إلى الآخر شزراً بطرف عينه خوفاً وحذراً :

ــ الأب غريغوري قديس ! أعلن أحد الأساقفة بلا رغبة وبترد د.

ــ شيطان ! شيطان ! شيطان ــ راح المشوه ميتيا يصرخ مضطرباً حانقاً .

تمكن فيوفان من تهدئته بشيء من الصعوبة .

تجهم الجميع ولزموا الصمت . اضطرب الراهب ايليودور . غمزه غيرموغن، لكن ايليودوز لم يستطع التحمل .

ــ سأبدأ معك من بعيد قليلاً ــ قال بلهجة مضطربة ــ مذنب أنا ، كان علي أن أقر بالواقع والحقيقة أمامكم . لقد نفذ صبري .

وبعد وقفة وجيزة بدأ كلامه :

ــ قديسنا من سيبيريا . هذا ماتعرفونه . كان أبوه ــ (يفيم) ــ

سكيراً ولصاً وسارق خيول وتاجر مضاربات واقتفى الأبن مسيرة والده . أسم عائلته الحالي اسم جديد . جيرانه يعرفونه « راسبوتنيك »(١) وتعني قاطع الطريق . ثم حور الاسم من راسبوتنيك إلى راسبوتين . لقد ضرب الجيران ذاك الذي أصبح فيما بعد قديساً مراراً بسبب ملاحقته للنساء والبنات ولقد جلد بالسوط عدة مرات وفي الساحة العامة بناء على أمر من رئيس الشرطة .

أخيراً التقى بملاكه الحامي — أسقف بارناول الحالي « ميليتي » .

ذات مرة اقتاد « قديسنا » ذاك الأسقف من قرية إلى أخرى وفي الطريق أكتشف « ميليتي » لدى الشاب غريشكا موهبة للخدمة الدينية عظيمة وصدق غريشكا .

كان يعمل ذات يوم على البيدر . ترك العمل فجأة وقال :

« لقد تقرر كل شيء ! الرب يدعوني لأن أضحي بنفسي في سبيل مرضاته واسمه ، وداعاً ! » .

هجر الجميع وكل شيء وترك أسرته دونما عناية ومضى . طاف بعدئذ في كافة أنحاء روسيا — لم يهمل ناحية أو كنيسة أو ديراً ولاخورياً أو راهباً .

- والنساء ! والنساء — قال الأبله وهو يخن .

- وعظ وبشر في كل مكان في القرى والمدن وفي الأصقاع النائية ، سرد الملاحم مذكراً بالانجيل والمخلص . اتجه في الغالب إلى البسطاء وهو حتى الآن يكره المثقفين ولايطيق رؤيتهم . هو انسان مضطرب سريع

---

(١) تعني هذه الكلمة باللغة الروسية — قاطع طريق .

الانفعال لايتعب ولا يكلّ ، قوي الطباع متقد المشاعر . شجاعته لاحدود لها ، خياله متوثب وأحلامه أكبر من هذا العالم .

ولهذا استطاع أن يلعب بعقول البسطاء والأتقياء المؤمنين فساروا وراءه . استطاع غريشكا أن يلفت الأنظار إليه تدريجياً ، اكتسب شهرة ووجد حماة له أقوياء وتحول تدريجياً من الوعظ إلى التنبؤ والتكهن . ثم بدأ ينجم وأخيراً ادعى أنه صاحب معجزات .
غريشكا « خليست »

« خليست (١) حقيقي !

— صحيح ! صحيح ! أكد ميتيا الفكرة كالببغاء .

— أيليودور ، أصمت يابني ! — حذّره (غيرموغن) مؤنباً .

وتبادل الآخرون النظرات .

نهض الراهب ايليودور وقد ازداد اضطراباً وثورة :

— نعم أيها الآخوة والآباء ! أقول لكم آن غريشكا « خليست » حقيقي . أنا مذنب أمام الله وأمامكم إذ رأيت وسمعت كل شيء، لكنني تأخرت في فضح الفساد . نظراً لأنني خفت كما تخافون أنتم الآن — عرفت أعماله « المقدسة » . هو ليس قديساً بل شيطان ! — شيطان ! شيطان — مرة أخرى نعق المشوه « ميتيا » كالبوم .

---

(١) خليستي : احدى الطوائف الدينية في روسيا . وهي تحريف لكلمة « خريستي » وتعني « المسيحيون » كما تدعى هذه الطائفة « الناس — الآلهة » ولد هذا التيار الديني في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر .
وتقول هذه الفرقة الدينية بامكانية حلول الروح القدس في النفوس الصالحة وهكذا يتحولون إلى المسيح ابن الاله — المترجم

ـــ لقد ترافقنا طويلاً . جاء إلينا مرات عديدة إلى الدير القيصري ، كما زرت مراراً موطنه . ياإلهي كم سمعت وكم رأيت ! بدأ هذا الشيطان ـــ غريشكو ـــ بشفائه للأمراض وصنعه للمعجزات من الأسفل من القاعدة . بدأ بالراهبات والنساء الراغبات في الصلاة في الكنيسة ، ثم تدرج شيئاً فشيئاً وكان يوسخ ويدنس المكان الذي يدخله سواء أكانت أسرة أم كنيسة ، هكذا استقرت نظارته إلى الحياة « الأخذ من الجميع » والتمرغ في القذارة .

ـــ نعم ! نعم ! نعم ! صوصأ المشوّه .

ـــ ثم زحف إلى بطرسبورغ . تقرب من الأب « فيوفان »،راق له وخدعه وشق له الطريق إلى القيصر والقيصرة وفتحت له الأبواب .

ـــ مذنب أنت ! مذنب أنت ! ـــ قرق المشوّه وألحّ على « فيوفان » الذي وقف منكساً رأسه ـــ أعترف ! أعترف !

ـــ مذنب أنا . . آسف جداً آسف . . أرحمني يارب وكفّر عن خطاياي ! تمتم فيوفان وهو يصلّب .

ـــ وقرّبه أيضاً « يوحنا كرونشتادسكي » . هو أيضاً رأى في نفس هذا الحيوان القذرة رسولاً إلهياً وأنار له الطريق إلى سدة الحكم الكنسية والدينية . هكذا دخل هذا الوحش إلى الأوساط الحاكمة التي كانت تغص حتى قبل مجيئه بالماسونيين ومستحضري الأرواح . وهو وهو الآن يتحكم بكنيستنا الارثوذكسية وهؤلاء الناس ـــ حقيقة ـــ يخدمون الشيطان وبدلاً من خدمة الله والدين يتسلون باستحضار الأرواح، ويبحثون عن الأمل والخلاص عن طريق السحر والإيمان بالقوى الخفية والشعوذة بدلاً من الكنيسة .

في وقت كهذا ظهر رسول الشيطان في القصر واستطاع ببساطة استرقاق القيصر والقيصرة وكافة الأسرة وإخضاعهم لنفوذه . لقد ملوا وسئموا من تزلف ونفاق وخبث الحاشية وخرقها للدين فأعجبوا بصراحة وبساطة وغباء وفظاظة غريشكا . ومنذ ذلك الحين بدأ بيت القيصر وأسرته والدولة والكنيسة بالتصدع والانهيار ووصلت الأمور إلى أن هذا الفاسق غريشكا أصبح المالك لروسيا والحاكم المطلق المستبدبها .

هذا هو راسبوتين ! الشيطان الحقيقي ،رسول أبليس وخادم جهنم !

اشتعل المشوه حماساً من جديد وبدأ يهذي . . وبصعوبة كبيرة استطاع أن يميز بعضاً من هذه التمتمة :

– يدعي غريشكا بغروره بأن القيصرة زوجته . . . ويدعوها « ياعجوزتي » شيطان شيطان ! . . شيطان !

– يكفينا أيها الأخوة ماتحملنا ! الصمت بعد كل هذا يعني خدمة الشيطان . إذا كنا نخدم الكنيسة والشعب الروسي حان الوقت لتنفيذ واجباتنا المقدسة .

منذ هذا اليوم سأعلن الحرب نهائياً على غريشكا . من شاء فليمش ورائي . سيكون هذا الصراع مسيحياً وشعبياً ، حرباً ضد الهرطقة والماسونية واليهود والحكومة المستكينة لهم . لقد اجتمع كل هؤلاء ليحفروا قبر كنيستنا وقيصرنا ووطننا .

تابع الراهب « ايليودور » و « ميتيا » وبعض رجال الدين ثورتهم وهيجانهم فترة طويلة،ثم قرروا أخيراً نصب فخ لراسبوتين . استمع كفاتشي إلى كل مايود الاستماع إليه،جمع كل مايريد جمعه،ثم مضى بعد أن أشعر الجميع تلميحاً ومجازاً بأن كفاتشي مع المتآمرين قلباًوقالباً.

فكر كفاتشي طويلاً في طريق عودته وبحث عن الجوهر الأساسي والعلائق المترابطة وعلة العلل في « الظاهرة الراسبوتينية » والعظمة الأسطورية للملك الجلف، لكنه لم يستطيع أن يلمس أو يفهم بقلبه كما لم يتمكن بروحه من فهم هذا السر . عجز عن الإحاطة عقلاً ومشاعراً فقرر :

– كل هذا باطل وهراء . صراع بسيط من أجل كسرة خبز وفي سبيل حياة أفضل .

انتصر غريشكا على ميتيا كولياب . وغطت فيروبوفا على الأرملة لوختينا . فوستورغوف دفع بأحد ما إلى الأعلى . الكسي اغتصب منصب رئاسة الكنيسة من فيوفان . ماكار اختطف تاج المطرانية من أحد ما . وأيضاً ثمة من وضع شركاً ل « ايليودور » هذا كل مافي الأمر وفي هذا تكمن الفلسفات والقعقعة هذا والسلام !

« كيف أخافوا القديس وكيف دسوا على الآخرين »

اتبع كفاتشي منذ بداية تعرفه بالمقدس غريغوري طريقة واحدة : من وقت لآخر كان يشير كفاتشي إلى أحد المارة ويقول لراسبوتين :

– هذا الرجل يلاحقك أيها الأب القديس فاحذر منه .

يخاف الأب المقدس ويزداد تمسكاً بكفاتشي والتصقاً به، فيطمئنه كفاتشي ويشجعه :

– لاتقلقوا أيها الأب المقدس، فرجال المخابرات لدي مدربون بشكل ممتاز لاتفوتهم شاردة أو واردة ويخضعون لكم ويأتمرون بأمركم ، لكن شريطة أن تخبرني إلى أين ومع من تذهب .

عمل الأب بنصيحة كفاتشي . لم يستقبل أو يخرج مع أحد دون علمه وهذا ماكان يحتاجه كفاتشي . حملوه كأيقونة وطافوا به في أرجاء روسيا لجمع مكاسب وإيرادات تمركزت جميعها بين يدي كفاتشي. وحين كان يظهر غريغوري شجاعة وتمرداً عندئذ كان تشيبونتيرادزه يتجول حول الشقة موحياً بأنه يلاحق القديس.وكان كفاتشي يقتاد غريغوري إلى النافذة ويقول له مشيراً إلى تشيبونتيرادزه ، :

ـ ذلك الرجل يلاحقك،لكن لاتخش أيها الأب القديس : لقد دبرت الأمر بحيث لاتستطيع ذبابة من الدخول إلى هذه الشقة لكن لاتخرج اليوم إلى أي مكان وإلا . . . فيرضخ القديس لكفاتشي كالطفل ويتصرف بما يملي عليه كفاتشي .

ذات يوم وكروتين يومي همس كفاتشي في أذن راسبوتين :

ـ أيها المعلم العزيز ،لقد أقسمت لك بالاخلاص،لذا علي أن أنذرك : أيليودور ، فيوفان ، غيرموغين وكثيرون آخرون من أعدائك يريدون قتلك .

ويقدم إليه المعلومات الصحيحة والكاذبة .

تكدر غريغوري ، غلى ثم انفجر :

ـ آه العواهر !آه السافلون !آه الخبثاء ، آه أيها الشنيع ايليودوروشكا، ستنال حسابك مني ،لقد خلقت من هؤلاء المكربين بشراً . خلال هذه الأعوام أوصلتهم إلى البلاط القيصري ، كم من الهدايا تلقوا ! تقرر نفيهم إلى الدير الصحراوي مرتين وأنقذتهم في كل مرة.يالهم من جاحدين! ياللزواحف ! لقد تخاصمت مع « ستوليبين » من أجلهم والشعب ناقم !

ثم جلس وتصبب عرقاً .

القرية القيصرية — إلى القيصر والقيصرة

بابا وماما الحبيب :

هاهم السلاطين الأحبة كالجراء مدهشون ، المدهونون بالزيت الكنسي ،المتمردون يعاقبون المنقذ.هذا صحيح تجب مداعبتهم مكافأتهم لكن ليس دفعة واحدة بل فرداً فرداً والإ سينبح الكلبان « غيرماغين » و « أيليودركا ».نعم يجب ! هذا أنا أكتب غريغوري نعم ! تجب مداعبتهم نتيجة عملهم النبيل : نعم ! (١) .

حدس كفاتشي الأمر جيداً.أراد غريشكا مكافأة المستكينين بعضوية المجمع الكنسي ومعاقبة الأساقفة المتمردين .

— أرسلْ هذه البرقية فوراً . هذه واحدةسيليها ألف أخرى. سأجعلهم يتفسخون في الصحراء . سأدعهم يجوعون حتى أنهم سيحلمون بلحم الكلاب وأنت أبولونتشيك ، راقب الطرفين،زرهم باستمرار وأوقعهم في الحديث وأعرف كل شيء . . ماذا قلت ؟ تريد أن تبني معبداً ؟ ستكون خمسة آلاف،حسناً سأنهي الموضوع غداً. غداً سأريك القيصر والقيصرة.أبولونتشيك هل كنت تحلم بسعادة كهذه ؟ لا . لا ! تذكرني وأعرف قيمتي ولاتكن جاحداً ك « ايليودو » وإلا . . سينالك مني !

---

(١) فملا القس ايليودور والأسقف غيرموغين — هما اللذان قربا راسبوتين من البلاط ثم اصبحا عدويه اللدودين وانتصر راسبوتين عليهماحيث نقل (غيرموغين)إلى دير ناء وتمكن ايليودور من الهرب خارج روسيا واصدار كتاباً عن راسبوتين ادان فيه القيصر نيقولاي والقيصرة .

قبّل كفاتشي يده مراراً ، ثم أدخل الزائرين .

بدأ العناق المعروف ، الدهاء القبلات الارتماء على الأقدام ، المديح والإكبار ، الصلوات والدموع ، الولولة والنبوءات ، تقديم الهبات . . علاج النساء الجميلات ، طرد الشيطان والأرواح الشريرة .

بعدئذ عاد كفاتشي إلى البيت :

— بيسو ، كيف الأحوال ؟

— كل شيء هادىء . جاء اليوم مائتا شخص من أجل البطاقات .

— وغير ذلك ؟ ألم يأت غانوس أو غينتس ؟

— اتصل غينتس بالهاتف قال : اتصل به عند عودتك .

— وماذا أيضاً ؟

— مندوبنا الصحفي « كنولمان » لايتمكن من نسخ كافة الاعلانات وقص الأعمال والقسائم .

— استخدم امرأة جميلة وأريد أيضاً امرأة مثقفة ولتكن جميلة أيضاً ، وإلا إذا كان النظر اليها مقرفاً . . . . وغير ذلك ماذا عندك ؟

— أتذكر ، كان في أوديسا رجل يدعى « كورانا شفيلي » كتب كتاباً ويرجو اصداره .

— أرسل إليه ألف روبل فليكتب عليه اسمي أيضاً .

— ثمة أربعة من الطلبة يطلبن رواتبهم .

— خصص لكل منهم ستين روبلاً .

— يطلبون من أجل ترميم « غيلاتي » . .

ـ أرسل الفاً . .

ـ في صحيفة « القضية الروسية » يشتمون، ولأسبابٍ ما ساخطون علينا . هاك ماقد كتبوا .

ـ لاوقت لدي لقراءة اللغو الذي يكتبه محتال ما . جد كاتب المقالة وأرم في حلقه ثلاثمائة أو خمسمائة روبل . وإذا أصر على عناده ، قل له ان سيبيريا بانتظاره واكتفوا الآن بلكمه عشرات اللكمات .

ـ في « الصباح » صورتك مرسومة وقد كتب في أسفلها مديح وإطراء . قرأ كفاتشي المقالة . تألق وجهه واهتز فؤاده مع أنه في الآونة الأخيرة كان عليه أن يعتاد المديح وانتشار صيته . فمثل هذه الاطراءات تنشر كل يوم بمبادرة « كنولمان » الماهر ، أسرفت تلك المقالة باستخدام كلمات جميلة مرائية : « الشمس المشرقة » « اقتصادي عبقري » « طاقة لاتنضب » . . « الشهم ، المثقف ، راعي العلوم والأدب ، حامي وصديق الفن والأدب والعلم » .

ـ أرسل إلى الجريدة اعلاناً وألف روبل وللكاتب . . ماذا كتب ؟ . . هم ، يريد أن يسافر إلى باريس من أجل الثقافة ويريد نقوداً مصروف الطريق ؟ يبيع ريشته بثمن بخس، ثلاثمائة ! ماذا لديك أيضاً يا « بيسو » ؟ .

ـ يكتبون من تفليس، يريدون تأسيس جمعية لاصدار جريدة جورجية وكتب ، ولهذا . .

ـ أخ ، أخ ! ـ قاطعه كفاتشي ولوح مراراً بيده . أقذف بها في سلة المهملات ! وجدوا الوقت المناسب للأموات !

— كتب والدك بأنه سئم من الحياة هناك . يعاني الخوف باستمرار ولايستطيع أن يظهر أمام الناس .

قفز كفاتشي من مكانه وقطب جبينه .

— ماذا علي أن أفعل ؟ ماذا علي أن أفعل يا « بيسو » ؟ لوكنت أعلم آنذاك . . لكن فات أوان الحديث. ماالعمل الآن ! أتمنى أن أدفع تلك الأموال مضاعفة إلى شركة التأمين « سالاماندرا » ، لكن كيف سأظهر للناس المرحوم سيلبيسترو ؟

— الناس يعلمون مايعلمون . . ويقولون . .

— أعرف مايقولون ، لكن كيف سأظهر لهم الميت الذي عاش ؟ سيضحكون ، سيضحك كل العالم مني — وفكر ، فكر ملياً ثم قرر أخيراً — آه ، هذا ممكن ! لايجوز أن يعود إلى كوتايسي . اكتب إليه : إذا شاؤوا — هنا لاأحد يعرفهم تقريباً — فليأتوا وليعيشوا هنا . لكن مع كل هذا يجب أن يبقى سيلبيسترو ميتاً مرة أخرى . يجب أن يحيا بهوية « شابوريانتس » ، وحين يأتون سأقدم لهم النصائح اللازمة، وأنت يا « بيسو » أمّن لهم اعتباراً من الغد شقة في الضواحي ثم اذهب إلى شركة التأمين « سالاماندرا » وارتبط مع أحد الموظفين هناك بحيث ينقل لنا الأخبار طازجة فيما لو عرفوا شيئاً ، وقبل أن يتمكنوا من رفع دعوى . . لست خائفاً. سأعيد لهم المبلغ فوراً مع كافة فوائده وأجبرهم على الصمت. لكن يفضل أن أعرف سلفاً . تصرف كما قلت لك. أما الآن فدعني وحيداً .

أستلقى على أريكة منجدة بالسجاد « التكيني » وغرق في أفكاره

ترك الحرية لمخّه في العمل والحركة.حاك الخيط الأول ثم الثاني والعاشر وسرعان ماحيكت شبكة كاملة لعدد من الخطط .

— سأتلقى من غانوس بعد غد مليوناً . . آخذه إلى السوق المالية (البورصة) أبيع أسهم « انجلوروس » ثم أعود وأشتريها في الخفاء . .

أما بالنسبة لـ « كوسموس » سأفكر بشيء آخر. سأرغم الجريدة على الكلام.سأرفع سعر الأسهم وأضخمها،ومن ثم أبيعها وسأستنجد بـ « غريشكا » أيضاً . سأدس (تانيا) في اللعبة بمبلغ مائة ألف وغينتس أيضاً سيساعدني و « غانوس » و « ميندلسون » .

لعل تانيا تعرف هذا . . لقد هبطت قيمة الأسهم بسبب الخوف من دفع الأموال في سبيل عرقلة تنفيذ الطريق . . غداً سأشتري مائة سهم.

ابتكر كفاتشي الكثير من الخطط،ثم تخيل طريقة التنفيذ ووضعها كلها ضمن ترتيب منظم .

— ألو ، من يتكلم ؟ غينتس ؟ هذا أنا « ابراهام موسيفيتش » !

قل . . ماذا ؟ مستحيل ! . . إذا استبقِ لي مائة سهم على الأقل ، ستتلقى مقابلها عملاً طيباً . . . . . حسناً . . ماذا ؟ لاأستطيع التصديق آخ — آخ ! طرده ؟ . . القى به عن الدرج ؟ آخ — آخ ! ماذا ؟ صب على رأسه ؟ اها — ها ! غداً في « أركادي » ؟ حسناً سأكون هناك . . و « يلينا » ؟ ستهدؤون حين تهرمون ؟ حسناً ، حسناً سآتي . ستتخلون بالمقابل عن « كلافا » نعم ؟ حسناً ، أبراهام موسيفيتش انتم لاتبنون الكنيسة ؟ ماذا ، لقد بنيتم سابقاً عشرين ! . . اليهود يبنون الكنيسة ؟ أ — ها ماذا ؟ تبنون أيضاً معمل أيقونات ؟ ستتاجرون بالأيقونات ؟ جهزّ إذا زيت الطهارة وأفتتح أكاديمية للاهوت ،حركوا الأموال...ماالعمل

هل هذه قوانين وقواعد التجارة ... أجلْ علينا إشادة معبد كبير جداً . بالإضافة إلى ذلك تحتاج القطعات العسكرية إلى مليوني زوج من الثياب الداخلية ومليون من « الحرامات » وألف حاجة وحاجة، أي أكثر من عشرين مليوناً . . حسناً ، غداً سنتفق . انقلوا تحياتي إلى « سوزانا ماكارفنا » العزيزة . قبلوا يدها عوضاً عني ، تصبحون على خير أيها الصديق العزيز !

ونتيجة لمجهود « كنولمان » و « بيسو » وتكرار المديح بين أوساط « غينتس » و « غانوس » وعلى صفحات الجرائد وفي كل مكان فقد آمن كفاتشي بعبقريته الاقتصادية بشكل فعلي .

ألف أحد المدرسين كتاباً مدرسياً في المحاسبة وطبع في الصفحة الأولى من الكتاب « يهدي المؤلف هذا الجهد العلمي إلى العالم العظيم بالمالية وحامي العلم والعلماء ، الأمير الكريم « ن . أ. كفاتشا نتيرادزه ». وبفضل هذا الاهداء البسيط أصدر ذلك المدرس كتاباً ثانياً ومرة أخرى أشبع كفاتشي نفسه النهمة وغروره .

وقد نشرت إحدى المجلات صورة كبيرة لكفاتشي وكتب تحتها « هو مورغان روسيا » وكتبت مجلة أخرى : « أثيرت في الآونة الأخيرة ضجة كبيرة في أوساط البورصة حول حاملي الأسهم — الثنائي الفريد « غينتس وكفاتشا نتيرادزه » « فقد ارتفعت بالأمس القيمة الأسمية للسهم من مائة روبل إلى خمسمائة » .

وشرحت في مجلة ثالثة الامتيازات التركستانية بشكل مفصل ثم اختتمت المقالة بالقول « لايقدر على هذا العقد سوى يد كفاتشي القوية ورغبته المخاصة في الانتصار » .

دفع كفاتشي لقاء هاتين المقالتين غالياً ، لكنه كسب في يوم واحد ونتيجة هذه الأخبار البورصية مايمكنّه من شراء جريدة بكاملها .

كان يأسف كفاتشي في الآونة الأخيرة لأن اليوم لايضم مائة ساعة بدلاً من أربع وعشرين . لقد أمسك بأعمال مختلفة ووزع نفسه ابن سيليبسترو في مجالات شتى لدرجة أن قالت له « يلينا » ذات مرة :

ـ لقد نفدت قواك تماماً . تذكرني مرة في الأسبوع و . . . لولا مساعدة القديس غريغوري لك لكنت تركتك .

ـ كفى ، لاتتحامقي ! .ـ أجاب كفاتشي ضجراً .

لكن فيما قالته يلينا نصيباً من الحقيقة ، فقد ذاب كفاتشي ونحل جراء الثراء الزائـــد والأرق والعمـــل المحموم . لم تعد عيناه تشتعلان حماساً ولم يعددمهيتقدحرارة، كما في السابق.ولم يعد باستطاعته فعلاً إرخاء الخيوط المشدودة مالم ينه الأعمال الثلاثة الكبرى . كان عليه أن يخصص ساعات عدة للمعلم القديس ، ومن ثم يتفرغ لاستقبال الضيوف الكبار،وبعدئذ كان عليه أن يجري إلى السوق المالية ويرى غانوس وغيتس ، وأحياناً يتسلل إلى اسرتيهما ليواسي زوجتيهما وان يؤدي واجبه الأخوي تجاه تانيا ولو مرتين في الأسبوع . أيضاً كان من غير الجائز أن ينسى يلينا وتقديم آلاف الأوامر الصغيرة لها .

لكن كفاتشي لم ينحن، وجرى كجواد أصيل بأقصى سرعة نحو نجمته التي كانت تبرق للرجل الذي أختارته وتشجعه داعية إياه بإصبعها وهي تستدرجه أكثر فأكثر .

« كيف أنقذ القديس »

واصطدم كفاتشي أثناء جموحه المجنون نحو نجمته بحائط خفي ، سقط امتياز الطريق التركستانية في هوة وتعفنّت مسألة بناء معبد القديس غريغوري في الأرشيف والتزم أحدهم بتزويد الجيش ، وكذا تجمدت بقية الأعمـــال وصدئت وكفت الجرائد والمجلات عن نشر صور كفاتشي أو اطرائه .

لام غانوس كفاتشي ببرود وادعت زوجته الجميلة المرض وشمخت حتى أنها لم تسمح لكفاتشي بدخول غرفة نومها .

وكشر غينتس وأفلتت البورصة من بين يديه وابتعدت عنه تانيا ، وحتى « يلينا » فكرت بهجره .

استغرق كفاتشي في التفكير . كان واضحاً أن الابن الوحيد لسيليبسترو يغرق . لكن كفاتشيكو لم ينهزم هكذا ببساطة. وذات مرة أجهد اعصاب مخه . عصر نفسه فتمخّض عن حيلة ليست بالكبيرة .

ــ حسناً أعرف الآن المخرج ، بيسو تعال إليّ !

أجلس الصديق الصدوق بجانبه . همس له مايقارب العشرين كلمة .

ــ حسناً . . فهمت . . . أنا ذاهب فوراً . لدّي مثل هذا الانسان .

ذهب وسأل أحد المساكين المشردين وكان طالباً عازباً اضطر لترك الدراسة :

ــ أتريد ان تأكل ؟ أتريد ان تشرب ؟

كان المسكعين شبعاً ، لكنه أقسم فوراً :

ــ لم أشرب منذ ثلاثة أيام . احشائي تؤلمني !

ـ حسناً فلنذهب ولنهدىء احشاءك .

دخلا خمارة وشربا ، وبعد أن ارتوى المسكين وتعب من الثرثرة سأله بيسو :

ـ أتريد أن تكسب مائة ؟

ـ ياإلهي العظيم من أجل هذه المائة القي بنفسي فوراً في نهر النيفا !

ـ الأمر أسهل بكثير ،اتستطيع ان تطلق طلقة أو طلقتين بالمسدس في الهواء ؟

ـ لاأرمي بالمسدس فقط بل استطيع أن أقصف بالمدفع .

ـ جيد جداً . خذ عشرين روبلا وستدفع لك بقية المبلغ فيما بعد . أما الآن فهلم معي .

ـ هذه ثياب داخلية وبزة خروج نظيفة وهذا هو الحمام . استحم أولاً ، ألبس الثياب الداخلية ، ثم نم جيداً ، وبعدئذ سأقول لك كل شيء . نادى جليلاً ـ جليل تعال إلى هنا ، اعتنِ بهذا الرجل . دعه يستحم أولاً ، ثم أرقده في الفراش .

ـ أنا جاهز .

أخذ كفاتشي الهاتف :

ـ أيها الأب القديس منذ شهر والأرملة لوختينا ترجو تشريفكم ، أعملوا معروفاً وزوروها . . نعم . . نعم اليوم مساء . . ماذا ؟ خطر ؟ ليس ثمة من خطر ، سأبعث برجالي الكشافين . . حسناً سأصل إليكم بعد ساعة .

تهامس كفاتشي وبيسو قليلاً ثم افترقا .

حين حلّ الظلام تماماً خرج غريغوري وكفاتشي من شقة الأرملة لوختينا وجلسا في المركبة .

سرعان ماالتفت المركبة نحو شارع غير آهل بالسكان . تراءى خيالان في الظلمة ولعلع في نفس الوقت طلقان ناريان . قفز كفاتشي في لحظة من المركبة :

– قف ! توقف ، قف وإلا أطلقت النار ! – صرخ كفاتشي راكضاً وراء الخيالين . توقف أحد الظلين فوراً فأطلق كفاتشي ثلاثة عيارات نارية في ذلك الظل . وعندما سقط أرضاً أطلق عليه النار في صدغه ثم قفز كفاتشي المنتصر إلى المركبة وصرخ :

– تابع !

بعد ساعة بدأت الحاشية وكبار الشخصيات تهنيء راسبوتين بالسلامة وتشكر بامتنان كفاتشي . أقبل مدير مركز الشرطة حاملاً هوية الرجل المغمور وقال :

– نعرف هذا الوغد . إنه إرهابي مشهور . أخيراً تخلصنا منه .

حين استعاد راسبوتين المذعور والخائر القوى وعيه عانق كالدب كفاتشي . بكى وتمتم !

– لقد وهبتني حياتي . . لاأدري كيف أكافئك ؟ أطلب ماشئت .

استغل كفاتشي الفرصة السانحة وطلب ماكان يحلم به .

– من كل بد ، من كل بد – تمتم القديس . بعد غد سنذهب إلى البابا والماما . . نهنئهم بسلامة العودة من القرم ونقوم بعملنا . تعال أعانقك مرة أخرى ياصديقي أبولونتشيك ياصديقي المخلص .

منذ ذلك اليوم فتحت أمام كفاتشي أبواب المتنفذين على مصاريعها . في المساء تعب هاتف كفاتشي من كثرة الرنين وعلمت بطرسبورغ ان كفاتشي سيتسنم في اليوم التالي أعلى المراتب ، وزاره في ذلك المساء كثير من الصيارفة الجدد والوزراء وأعضاء البرلمان والأساقفة والجنرالات. غصت الغرف وفناء البيت بالناس،بالقبعات الاسطوانية و « الشابو » والقبعات العادية والسترات الرسمية .

هنأه البعض وقدم البعض الآخر مطالب مختلفة ، بعضٌ قدم له الشكر ، وبعض آخر زوده بالنصائح والتوجيهات .

أنهك السكرتيريون وتصببوا عرقاً وهم يسجلون اعداداً ضخمة من الناس ويحصون الأموال ، ولم يعد كفاتشي بقادر على الوقوف على قدميه .

— وآه ! أهذا عيد .

— خذ ياسيدراك مادام لديك وقت كاف — نصحه تشخوبيشفيلي الذي كانت البزة السوداء تلائمه .

— أزحْ حصالة النقود قبل أن يصطدم بها أحدكم . كم مرة امتلأت ؟ — تساءل تشيكينجيلادزه .

— هي ذي الرابعة هذا اليوم ، ثمة الكثير من الذهب والنقود الورقية . لقد رمى البعض خواتماً والبعض رموا أقراطاً وسلاسل . أخيراً خلت الغرف والفناء من الناس .

— هيا أحصوا الأموال !

أكثر كفاتشي المتعب من استعمال الهاتف :

— ألو ، يلينا أهذه أنت ؟ . . . وعرفتني أنت ؟ عندك غريشكا ؟

وعدك بأن يمنحك لقب « فرولينا » ؟ محظوظة ! أنا أيضاً سأتشفع ببضع كلمات . لأي زمن عشت ! حسناً ياحبيبتي من أنت . .

آه ، أولست عشيقة كفاتشا نتيرادزه السابقة ؟ أعرفك ، أنا أيضاً من النبلاء . . لكن لابأس ياعزيزتي لاتشمخي بأنفك فأنت بنت النبيل أشورديا في حين كان كفاتشا نتيرادزه قائداً لدى القيصر « باغرات » .

آ . . ها،إذاً أنت لاتعرفين التاريخ ! . . هنا كل شيءتذ،كري كلماتي ، لست كفاتشي ان لم أحصل غداً على لقب الامارة ، والآن وداعاً ، غريشكا مشغول الآن بطرد الشياطين ؟ تطبيبي ، تطبيبّي،لديك طبيب ممتاز من أفضل مايكون . . وداعاً ! ياحبيبتي ،ياصديقتي الجميلة وداعاً إلى اللقاء إلى الغد !

« كيف ارتقى كفاتشي إلى الدرجة العليا »

توقف القطار الفخم في محطة « القرية القيصرية » ضاجاً متأوهاً نافثاً بخاره. كان الرصيف والساحة مزدانان بمئات السترات الرسمية .

وبصعوبة بالغة تمكن غريشكا وكفاتشي من الرد على التحيات . رف جليل ، المدجج بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه بعينيه وهو يتمتم :

ـــ واه ، واه ، واه ! إذا كان الجميع سيسافرون إلى « بادشاه » فالأحصنة لاتكفي . كان ثمة مايقارب الأربعين من العربات والسيارات التي تحمل الشعار المذهب تحمل الوزراء والنواب والمقربين من الحاشية . بصق غريشكا على السيارة :

ـــ تفو ، متاع شيطاني ، قطعة ابليسية،لن أجلس فيها ماحييت ! أي . . أي .

أنت أيها الببغاء ، تعال هنا عربة !

جلسوا ، تمددوا على طنافس المقاعد وتوجهوا إلى القصر على وقع أقدام الخيل وطقطقة العربة .

كان السلم المرمري الواسع وفناء المدخل يغص بالهوسارو « أولان » و « كاليرغاردي »(١) و « كاميريونكر » و« كاميرباج »و « كاميرغير»(٢) والمئات من كبار الشخصيات من مختلف المراتب والمهام .

كان الجنرال آمر القصر يستمع إلى أوامر وزير البلاط الهادئة ومن ثم يوزع أوامره الهادئة والمناسبة يميناً وشمالاً .

دخل غريشكا وكفاتشي إلى القصر . تطلع كفاتشي في تلك القاعة الضخمة . تلألأ كل شيء في عينيه وطاش صوابه . لم يعد يدري إلى من ينظر ، من أين يبدأ وعلى أي شيء يركز : على الكريستال ، البرونز ، المرمر ، الذهب ، الفضة ، الحرير ، الغوبلين (النسيج المشجر) على اللوحات أم على التماثيل .

وقف كبار الشخصيات تزينهم ستراتهم الموشاة بالذهب كتماثيل حية.

وكان هؤلاء التماثيل يتزينون بمختلف الأشكال والألوان من الاحزمة والصلبان والميداليات والنجوم المصنعة والمطعمة بالذهب والدرر .

عند ظهور غريشكا تنكست رؤوس تلك التماثيل ، علت الابتسامة والاحترام وجوههم ، ثم عادوا لجمودهم من جديد .

---

(١) الهوسار - اولان - كافالير غاردي : تسميات لفرق الخيالة القيصرية -المترجمان

(٢) كاميرباج : الطلاب المتخرجون من المدرسة الخاصة بالنبلاء وكانت تسمى (فيلق باج) -كاميريونكر : الموظفون خريجو مدرسة النبلاء أول تعيينهم في خدمة الحاشية - كامير غير : أعلى رتبة ينالها هؤلاء الموظفون .

كانت تلك القاعة تلمع تحت شمس الخريف وتتقد كشمس صغيرة جراء ماتحويه من أحجار كريمة .

خصص لكل مكانه ، لكن كل واحد منهم حاول التقدم ولو قيد أنملة كي يظهر نفسه ويرى الآخرين بشكل أفضل .

– كيف ياأبولونتشيك ، لعل ذلك أعجبك ؟ تجحظ عينيك محدقاً ؟ لابأس تمالك نفسك ورائي – سأخرجك مخرجاً حسناً ! قال غريشكا لكفاتشي المندهش والخَفِر .

فتح الباب على مصراعيه :

– القيصر والقيصرة يتفضلان بالقدوم !

قدم الحراس – الخيالة سيوفهم محيين وأدّى العسكريون التحية وأحنى البقية رؤوسهم ، ثم احنى الجميع ظهورهم .

وظهر القيصر والقيصرة وولي العهد بالباب . مشى القيصر في الوسط وتهادت القيصرة على يساره وعلى يمينه اقتادوا طفلاً صغيراً – ولي العهد اليكسي وقد سار خلفه مربيه البحار « دريفنكو » .

كان الجميع مرتدين ثياباً بسيطة بعيدة عن البهرجة مما أذهل كفاتشي وأدهشه . انحنى ثلاثتهم يميناً وشمالاً مبتسمين ابتسامة خفيفة . فجأة حدث شيء غامض وغريب . تدفق من جميع الجهات وثوباً الكثير من المجانين والمخبولين – مشوهون بشعو المظهر ، كسحان يخلجون ويتلوون متشنجين زاعقين مصوصئين ، يثرثرون هراء وهلوسة وهم يلحقون بالقيصر والقيصرة .

همس غريشكا :

– يااللمجانين ! ياالشياطين المغفلين ! يريدون أن يسبقوا الجميع ؟

لاتعبث ابولونتشيك ، ورائي ! لاتفغر فمك ! مالك فتحت فمك على مصراعيه ! ؟ وخلص نفسه من بين الجموع ساحباً كفاتشي وراءه .

التفت القيصر والقيصرة وانحنيا وفق العادات القديمة ، انحناءة شديدة أمام هؤلاء الدراويش والمشوهين البكم ، الكسحان المساكين ، المتخلفين عقلياً ،ثم ابتسما للجميع لاطفاهم ومسداعلى رؤوسهم، ابتسم التماثيل الأحياء المحيطون بهم،لكنهم في قرارة أنفسهم كانوا يتميزون غيظاً لانفتاح الأبواب القيصرية أمام المخبولين قبل أن تفتح أمامهم هم الوزراء ورجال الحاشية .

كان رئيس التشريفات يعرف عمله جيداً . بعد عودة القيصر والقيصرة إلى مكانيهما أوقف المشوهين والمخابيل بلطف وابتسامة وحيّا غريشكا وكفاتشي باحترام وفتح الباب أمامهما . أمسك غريشكا بيد كفاتشي وأدخله الغرفة التي توارى فيها القيصر والقيصرة .

– الأب القديس !

– أحبابي ! بابا ، ماما ، اليوشا (١) .

تعانقوا ، تشابكت أياديهم وقبل بعضهم بعضاً فترة طويلة .

– ها ، ياأحبابي لقد انعشتموني وانعشتم الله ! كيف سافرتم (كيف كانت سفرتكم) ؟ وماما صحيحة الجسم أليوشا أيضاً وأنت نيكولاشا (تصغير نيكولاي) حبيبي يارب ، يارب ! هاأنا أحضرت لكم حافظي ومنقذي الأمير أبولونتشيك .

---

(١) أليوشا : تصغير أليكسي .

طيـ . . . . يب ، أوو . . . ه كم هو طيب ! وكم يصلي بصرامة ! وكم يصلي بنشاط ! تجب ملاطفته أحبائي ، هكذا أريد أنا ! نعم ! أنا ! نعم ! ثم التفت إلى ولي العهد :

ــ أليوشا ، تعال إليّ !

وأجلس الأمير ، ولي العهد الصغير على ركبتيه، قبله ودغدغه . ضحك وجره إلى الضحك .

صافح القيصر والقيصرة كفاتشي وشكراه بحرارة على إنقاذه لغريشكا ، قبّل كفاتشي يديهما باحترام .

ابتسم نيكولاي بشكلٍ بدا وكأنه محرج أو خجل من شيء ما .

ــ اسم عائلتكم أيها الأمير ؟

استجمع كفاتشي شجاعته في دقيقة وقال :

ــ كفاتشا نتيرادزه أيها الحاكم العظيم !

ــ كيف الأحوال في القفقاس ؟

ــ حصل الكثير من التدهور والفوضى . ظهر لدينا يهود ورسل الشيطان ، لكننا نحن عبيدك المخلصون ورعاياك.لم نخف ، خضنا معهم المعركة ، انتصرنا عليهم وقتلناهم والقينا بالبقية الباقية منهم تحت الأرض بحيث يعجز الشيطان نفسه عن ايجادهم .

وزوّق كفاتشي للقيصر والقيصرة أعماله البطولية : كيف ألقوا القنبلة عليه ، كيف رشوا عليه الطلقات كحبات البرد ، وكيف فكروا بتسميمه ، لكن القدر والحمد لله،ألف الحمد لله،أنقذه من كل الأخطار وكأن الإله يريد أن يختبر ولاءه للعرش وروسيا مرة أخرى .

ـ هاقد أختبركم الاله بالأمس .

ـ أجل أيها الحاكم المعظم وأنا جاهز لأبرهن لكم كل يوم عن ولائي واستعدادي للتضحية بنفسي في سبيلكم .

ـ شكراً أيها الأمير ! شكراً جزيلاً ! لن أنسى خدمتكم والآن قولوا حسب رأيكم هل هدأ القفقاس ؟

ـ ليس تماماً لكن . . لاتخشوا شيئاً بعد الآن أيها الحاكم المعظم ولايرتعش قلبكم أيها الحاكم المعظم فنحن ـ المخلصين لك وللاله ـ كثيرون في روسيا المقدسة.اعتمد على اكتافنا القوية . قوية هي وتتحمل . سنحملك ونمشي بك كالريشة ، ضم القيصر النحيل كفاتشي إلى قلبه،زرف دمعتين وهو يشكره من جديد بعد ان طمأن قلبه الواجف الخائف :

ـ أشكركم أيها الأمير اشكركم . . اعتن بالأب المقدس ،صنه فلدينا الكثير من الأعداء .

ـ لقد قلت لك يانيكولاشكا إنه أهل للعطف ـ تدخل غريشكا قائلاً :

ـ أعد ل «أبولونتشيك» لقب الأمير يانيكولاشكا ، لقد دعوته منذ لحظة « الأمير أبولونتشيك » كلمة القيصر قانون لايمكن التراجع عنها .

احمر نيكولاي . هدأه كفاتشي :

ـ أيها الحاكم المعظم ! لقد حزنا على لقب الامارة في القرن السابع . وفي القرن الثامن كان جدي قائداً للجيوش في جورجيا ، ومنذ ذلك

الحين كان ثمة أربع عشرة شخصية من آل كفاتشا نتيرادزه — وزراء ومقربون لدى قيصر جورجيا .

وفي القرن الثامن عشر هدم الأتراك وأحرقوا قلعتنا وقصرنا . وضاعت يومئذ الوثائق . كل القفقاس يعرف أننا امراء ، لذا لم يسع أجدادي للبحث عن الوثائق وبقي لنا لقب النبالة ولم أبحث أنا عن ذلك . .

— حسناً ، فليكن — تمتم القيصر وكتب ملاحظته لديه .

« أشورديا لاتقدر بثمن ! » قال هاتف في نفس كفاتشي ، ثم بدأوا الحديث عن شؤون الدولة وراح القيصر والقيصرة يتطلعان في عيني هذا المقدس كاليهودي موسى حين وقف على جبل سيناء معلناً على شعبه الوصايا العشر التي املاها الإله عليه . لقد تحقق كل ماأراده وقاله غريشكا ، وعند إحدى القضايا قال القيصر خجلاً ، خفراً :

— قلبي يقول لي شيئاً وعقلي شيئاً آخر !

رفع غريشكا قبضته فجأة وضرب بها المنضدة بكل ماأوتي من قوة . اهتزت الغرفة بكاملها . نهضت القيصرة شاحبة وبدأ ولي العهد بالبكاء . ارتجف القيصر واستغرب .

حدق غريشكا في عيني القيصر ، حدق طويلاً ثم تساءل بصراحة وبلهجة جليدية :

— ماذا ؟ أين خفق ، هنا أم هناك ؟ ثم وضع إصبعه على صدره في البداية ثم على جبينه .

— هنا . . هنا ارتعش القلب وخفق — قال نيكولاي بصوت متهدج وأشار بإصبعه إلى صدره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـــ ها . . . ها ! حين تفكر بشيء لاتثق بعقلك بل سل قلبك . القلب أفضل من العقل .

خرت القيصرة على يد « غريشكا » :

ـــ شكراً ، شكراً أيها المعلم المقدس !

ـــ حسناً . . سأتصرف هكذا . . ـــ وافق القيصر .

بصعوبة كبيرة تمكن « دريفنكا » من تهدئة ولي العهد الباكي . زانوا وقاسوا وفصلوا أضخم وأعقد المسائل الحكومية . في ذلك اليوم خفضوا من درجات بعض رجال الحاشية ورفعوا البعض الآخر .

أخيراً أنهى غريشكو لقاءه مع القيصر بقوله :

ـــ أمدّ الله في عمرك وعرشك . لكن كن حذراً من اليهود والشياطين .

ودع القيصر والقيصرة كفاتشي بحنان ، أوصياه برعاية غريشكا العزيز ودعياهما « ببساطة لاحتساء كأس من الشاي وللأحاديث الروحانية» .

خرج غريشكا وكفاتشي وفي نفس الدقيقة هجم المشوهون داخلين على القيصر والقيصرة ضاجين ، زاعقين ، باكين ضاحكين .

ـــ انتظر دقيقة أنا الآن ! ـــ قال غريشكا لكفاتشي واجتاز تلك القاعة رامحاً كالحصان وانزلق إلى الغرفة المجاورة .

تحلق حول كفاتشي وزراء ونواب وكبار شخصيات الحاشية والبلاط من معارفه وممن لايعرف ، هنؤوهما بالسلامة وسألوهما عن آخر الأخبار .

فهم كفاتشي أنه في تلك اللحظة ارتفع عالياً جداً ، لذا أجرى التغيير المناسب في لهجته وهيئته : انتصب شامخاً أرتدى لباس العظمة وأعطى رجال الحاشية مايشبه المقابلة الصحفية بلهجة لااكتراث فيها :

ـ أؤكد لكم ، وأنا بمنتهى السعادة ، أن أعز الأعزاء وأغلى الغوالي القيصر والقيصرة وولي العهد قد تحسنت صحتهم بشكل ملموس خلال إقامتهم في القرم ، وكلهم في أطيب حال ومزاج . . . في السياسة ؟ التغيرات ممكنة ،لاشيء على وجه الخصوص . . . بدهي أن تشتد ملاحقة اليهود وبقية القذرين الذين بدؤا في الآونة الأخيرة يطاون برؤوسهم . . الحرب ؟ الحرب مع تركيا غير سليمة العواقب في الوقت الراهن ، فقوانا قد تحتاج في أمور أجل وأسمى . . مع من ؟ هذا مالاأستطيع قوله الآن . . ستعرفون قريباً . . أيضاً تجب محاصرة مجلس الدوما قليلاً . . سنغربل قليلاً الوزراء والحاشية أيضاً . اهتزت قلوب الكثيرين جراء هذه الكلمات ، بعضهم خوفاً وبعضهم أملاً .

أتم كفاتشي في ذلك اليوم التعارف على الطابق العلوي من الامبراطورية .

هكذا فكر كفاتشي وراح بمباركة غريشكا يعد ويؤمل بعض أفراد الحاشية والمقربين إلى القصر ممن يداهنونه أو يتزلفون إليه كذيل له بغية التقرب منه ومصادقته في تلك اللعبة الخطرة والمعقدة التي تجري باستمرار حول القصر في سبيل تحقيق نصر أو كسب نجاح التنعم بحياة مرفهة ..

لقد أدرك كفاتشي ، مذكان صغيراً يجري في سامترديا بلا سروال ، هذا المبدأ الأساسي في الحياة ، لذا وفي هذه القاعة العظيمة راعى ذلك

المبدأ ووضعه نصب عينيه . فقد جهد بحسه الطبيعي وحدسه ويشتّى السبل ، أن يفعل مايسرّ الآخرين وألا يسيء إلى أحد وألا يخلق اعداء له لاسيما وأنه يعلم جيداً أن ظهوره في القصر والنجاح الكبير الذي حققه أخفض الكثيرين وأوغر صدور البعض بالحسد والضغينة .

اخترق وزير البلاط ــ ذلك العجوز الجميل الجسيم البارون فريد يركو ــ جموع رجال الحاشية والبلاط وقال لكفاتشي بصوت عذب :

ــ أيها الأمير ! العظمة الامبراطورية للقيصر والقيصرة تعطفت اليوم ودعتكم للتفضل على الغداء .

أثنى كفاتشي وقال :

ــ امتناني الخالص الولاء وسعادتي الطاغية لاحدود لها ولا يمكن وصفها بالكلمات .

في ذلك اليوم كان شرف الدعوة عظيماً حتى أنه اقتصر على كفاتشي وراسبوتين من بين كافة رجال الحاشية والبلاط ، وكانت هذه فعلاً الدرجة العليا في السلم التي حلم بها كفاتشي ونالها .

« كيف انقذ العرش وروسيا من الانهيار »

يكذب التاريخ دائماً . ذات مرة قال أحد القساوسة « هاليلويا » في الوقت غير المناسب ، لقد أخطأ الحكيم .

هذا ماحصل لتلك الغانية ــ التاريخ حين حرّف الحقيقة خطأ ، وسجل في افتراءاته بحروف من ذهب مكانة كفاتشي ونصيبه في تلك القضية العظيمة والتي كان لها دور أبدي على مر الأجيال والتي حدثت ذلك اليوم في القصر مع راسبوتين وكفاتشي .

انها قضية شعبية أبدية أعادت البلاد القهقرى ، ودخلت التاريخ بحروف ذهبية وكذلك أُشير وثُمّن دور كفاتشي في خدمة الشعب . لكن كفاتشي ذكر هذه المرة في هذه القضية اختصاراً بحرف « ك » إذ كان — وهذا مابرهن آلاف المرات — شاباً خفراً متواضعاً جداً ، وكان يهرب دائماً من الدعاية والشهرة ،مع أنه حتّى في الوقت الحاضر قد تجد بعض الحاسدين الذين يؤكدون ان هذا « ك » ليس كفاتشا نتيرادزه بل هو الأمير العظيم الشاعر « كونستانتين » . لكن والحمد لله ، المؤرخ الشهير « تشوريشفيلي » دحضهذه الرواية بشكل قاطع وأعطى كفاتشي مكانه المرموق في القضية الشعبية المذكورة لاحقاً .

حضر هذا الغداء التاريخي ، إلى جانب القيصر والقيصرة وولي العهد وأولاد القيصر الأربعة ، راسبوتين وكفاتشي ووزير البلاط البارون فريدريكو و « فيروبوفا » المقربة جداً من البلاط .

بعد الغداء ، وحين غادر الأولاد المائدة ، وبعد الانتهاء من الأحاديث الدينية وحديث انقاذ الروح ، قالت القيصرة بتمتمة واضطراب :

— أيها الأب القديس ، كنت دائماً صديقنا المخلص وناصحنا المرتجى . كل كلمة من كلماتك تحولت إلى نبوءة ، كل ماقلته تحقق : الهزيمة في الحرب اليابانية ، فشل الثورة ، ولادة ولي العهد وأشياء أخرى كثيرة . لذا وكما تعلم نحن لانستطيع ان نقرر أمراً بدونك .

— حسناً ماتفعلون ! — قال غريشكا .

— صار التسويف أمراً مستحيلاً . يوم كنت أيها الأب المقدس في القرم أراد نيكولاي أن يشكو لك همومه ، لكنني أرغمته على التأجيل .

أما الآن فقد حان الوقت لاعلان هذا السر الخطير ، لكن يجب أن نعلم ونعي أن هذا السر يجب أن يظل دفيناً بيننا نحن الستة ، وفي حال إذاعته قبل أوانه سيحيق بالدولة خطر رهيب .

رفع كفاتشي اصبعه متهيئاً لقسم اليمين .

— لاتزعج نفسك أيها الأمير — قالت له القيصرة — لاضرورة للقسم . اذ من غير المعقول أن يكون الصديق الذي اختاره أبونا المقدس ثرثاراً . والآن انتقل إلى الموضوع . .

من المفروض أنكم تعلمون أننا منذ خمس سنوات حين اهتزت روسيا بشكل مريع (١) . قررنا التخلي عن العرش ومغادرة البلاد . حينذاك أنقذنا وأنقذ روسيا ،رشدنا القديس الذي أقنعنا وأرغمنا تقريباً على البقاء على العرش .

— أولم تتأكد نبوءتي ؟ — سأل غريشكا .

— تأكدت أيها الأب القديس ، تأكدت بشكل كامل ، ولذا نصلي دائماً من أجلك ، ولذا نفكر ان نشيد في حياتك كنيسة القديس غريغوري . لكن القضية ان نيكولاي لم يتخلّ بعد عن فكرة التخلي العرش .

— ماذا ؟ كيف ؟ صاح غريشكا وكفاتشي بصوت واحد .

— وهو الآن يفكر بهذا طوال الوقت . يصر ويضرب على وتيرة واحدة : لن نتمكن من العيش في روسيا بأمان ، يتهددنا خطر فظيع ، سنهلك جميعاً ، ستنهار روسيا فوق رؤوسنا . . أنا لاأستطيع أن أعمل

(١) الاشارة هنا إلى ثورة ١٩٠٥ التي قامت ضد القيصر — المترجم

شيئاً بمفردي،لايمكنني اقناعه . ساعدني بشكل ما أيها الأب المقدس ، وأنت أيها الأمير أنصحه ، أخبرنا ، أيها الأب المقدس عن ارادة الرب ، يامنقذنا،يامقدسنا ساعدنا أرشدنا ! وبكت القيصرة وانشجت وغطى نيكولاي وجهه بكلتا يديه وفكر غريشكا ، وصمت الجميع طويلاً منتظرين مبادرة غريشكا ، أخيراً نهض القديس عابساً وقال آملاً :

— فلنصل للاله !

نهض الجميع ثم ركعوا أمام الأيقونة . صلوا طويلاً وسجدوا برجاء ودأب،ثم نهضوا مرة أخرى وحدقوا بغريغوري . وقف غريشكا أمام نيكولاي وسأل بحزم :

— بماذا أوحى لك ربك أثناء الصلاة ، أي جواب أعطى ؟

صمت القيصر خافضاً رأسه ، ثم اوح بيده وهمس قائلاً :

— لم ينعم عليّ بالجواب .

— لأنك غير أهلٍ لهذه النعمة ، لأنك مذنب ولا تستحق ذلك . غارق في آثامك ، نظّف قلبك من الشر حينئذ سيفتح الرب أمامك أبواب الحكمة . نصحوا القيصر الثابت واليائس طويلاً ، قدموا إليه المواعظ ، أخافوه وحذروه من أن تخليه عن العرش سيجر وراءه الشغب والفوضى وانهيار الدولة والحرب والنار والدماء ، وإن الإله سيسأله عن كل هذا وأن أحداً لايستطيع إدارة البلاد ولن يتمكن أحد سواه من الثبات على العرش .

استخدم كفاتشي أيضاً كل ملكاته العقلية وبلاغته في الحديث ،

لكن لم يجنوا شيئاً . جاس القيصر المتجهم خافضاً رأسه ولم ينبس بأية لفظة ، بل هز رأسه التعب إشارة الرفض .

اشتعل غريشكا فوراً واحتدم غيظاً ، بدأ يرتجف بشكل غريب وكأنه مصاب بالحمى ، اهتزت يداه وشفتاه وشحب وجهه وأصبح أنفه دقيقاً واشتعلت عيناه بنار زرقاء غريبة . قفز نحو القيصر ، وبدأ يصرخ في وجهه مؤنباً ضارباً الأرض برجليه ملوحاً بيديه أمام أنفه :

— ماذا ؟ لم تعد تؤمن بالشعب ولا بالإله ؟ أنسيت من يعصي الله يجب أن يلعن من قبل الكنيسة ويطرد منها . الحرمان من الكنيسة ، الحرمان من الكنيسة للقيصر الذي نسي ربه ومنصبه وكنيسته وواجبه ! حين سمع القيصر التهديد بالحرمان من الكنيسة نهض واقفاً وارتجف وذعر ، فرفع غريشكا من لهجة صراخه ووعيده :

— من أعطاك الحق في هدم الدولة ؟ كيف تجرؤ على اهلاك قدر كبير من الناس ؟ أتفهم أم لا أنك تتنازل عن العرش لليهود والشياطين !؟ يعني هـذا ان الشياطين أيضاً سيطرت عـلى روحك ! يعني أنك أنت رسول الجحيم !أنت لست بقيصر بل عدو المسيح، عدو المسيح !

— أرحمنا يارب ! — أنّ القيصر ثم صلب بيد مرتعشة صليباً واسعاً .

— أقول لك أيها القيصر،أنا غريغوري أقول لك أيها القيصر — صرخ غريشكا المشتعل حماساً — أركع على ركبتيك واكشف أمام الله عن خطاياك،صلّ للرب كي يطرد من قلبك الأرواح الشريرة وشياطين الجحيم !

وقف فوق رأس القيصر المنبطح أرضاً أمام الأيقونة وصلب وصلى بصوت عال .

ــ أيها الرب المقدس،أيها الرب القوي،أيها الرب الخالد أرحمنا !.. باسم الأب والأبن والروح القدس ، آمين !

ومن جديد وقف الستة أمام الأيقونة،صلوا طويلاً بحرارة وصوت عال ساجدين باكين . أخيراً نهض غريشكا وقال :

ــ انهض أيها الحاكم ! أنهض وقص علينا ماأوحى عليك ، بماذا نصحك ربك ؟

فجأة خرّ القيصر الضعيف الخائر القوى على ركبتيه أمام راسبوتين، ثم تبعت القيصرة القيصر وستاتس داما فيروبوفا. وقع الثلاثة على قدمي وركبتي ويدي راسبوتين وراحوا يقبلونه بلهفة ويغمرونه بالدموع ، ثم رفعوا أياديهم وصرخوا وهم يهزون مرتعشين :

ــ أيها الأب المقدس ! . . أنت منقذنا . . أنت مسيحنا ! . . أنت محررنا وقائدنا . . تعطف علينا وأرحمنا أيها الأب المقدس . !

وقف راسبوتين الشاحب متسمراً قاذفاً رأسه إلى الوراء يحدق بثبات بعينيه البراقتين الجامدتين في الأيقونة . كان يرتجف بكامل جسده،ثم وضع يده اليسرى فوق رأس القيصر وصلب باليد اليمنى صليباً واسعاً وتمتم بشفاه مرتجفة :

ــ أشكرك أيها الرب ، إذ أنقذت روسيا المقدسة وقيصرها وأسرته والكنيسة الأرثوذكسية من الخراب والجحيم . . أرحمنا اللهم ! هاليويا ، هاليلويا ، هاليلويا ، آمين ! ثم أقسمت القيصرة لراسبوتين أمام الأيقونة :

ـ أقسم بالرب العظيم وبالقديس « سيرافيم ساروفلسكي » وبأولادي وزوجي . لن أتركك ماحييت ! أبداً حتى لو وقف العالم كله ضدك سأظل معك حتى آخر حياتي . أقسم سأبقى مخلصة خاضعة لك .

سكتوا تدريجياً ، هدّأت الصلاة نفوسهم المضطربة ودماءهم المتقدة . أنهض غريشكا القيصر الخائر القوى قائلاً :

ـ انهض أيها الحاكم . أحكم في سبيل عزة روسيا وإرضاء للكنيسة المقدسة وعزاء للشعب وارهاباً باعدائك . . فلتفرح الملائكة في السماء والمسيحيون الأرثوذكسيون على الأرض . أدفع الشيطان عنا ، أدفع الشيطان ! ثم عانق نيكولاي الباكي .

ـ آمين آمين ! . . ! ادفع الشيطان ! ادفع ! ادفع ! ـ تمتم البقية بخوف وارتعاش ، ثم عانقوا وقبّلوا ، كل وبدوره ، ودموع الفرح تسيل من أعينهم ، منقذ الكنيسة وكل روسيا الأب القديس المنقذ غريغوري راسبوتين .

« مكافأة كفاتشي واعتذار امرأة وبعض الأحداث الأخرى »

ـ أرأيت ؟ أقتنعت ؟ سأل غريشكا كفاتشي الذاهل وهما في عربة القطار الملكية .

ـ أعمالك مذهلة أيها المعلم العظيم وصاحب المعجزات . رأيت ، فهمت وأقتنعت .

ـ لقد أنقذت مرة أخرى روسيا والكنيسة والقيصر من خطر كبير رهيب .

- أنتم تستحقون تمثالاً هائلاً أيها المعلم العظيم يامنقذ بلادنا . غداً سأبدأ بتشييد معبد القديس غريغوري..

- لقد فعلت هذا من أجلك أيضاً . لقد أضافت القيصرة مليوناً إلى الملايين الأربعة احتفاء بهذا اليوم . اصبح العمل عملك فأنت تدري أي كنيسة عظيمة ستبني بخمسة ملايين . يمكن اشادة معبد كبير أليس كذلك ؟

- سأشيد لك معبداً يغطي بعظمته على « آينا - صوفيا » وعلى معبد القديس بطرس في روما ، باذن ومساعدة الاله سأنجز هذا العمل المجيد ، فأنا أملك المعرفة و الخبرة لعمل كهذا .

- وثبتوا لك لقب الامارة وأعطوك « امتياز» الأقنية في تركستان، وعهدوا إليك بتجهيز عشرين مليون زوج من الثياب الداخلية للجيش .

- أعمالك خالدة أيها الأب المقدس .

- يتوجب عليك دفع عشرة آلاف .

- ستقبضها غداً أيها الأب المقدس .

- ولقد سجلت يلينا أيضاً في نساء البلاط ستاتس داما وحاملة وسام القيصر . المهم ألا تغر وألا تنسى الجميل وإلا . .

- لا . . أيها الأب المقدس لا ! يلينا ليست بالمرأة السيئة .

- وغيرنا المجلس الكنسي ، طردنا بعضهم . نقلنا الكلب « أيليودور » والعنيد (غيرموغين) إلى الصحراء . عيّنا وزراء جدداً ، أكرمنا رجال الدين الموالين لنا . أفرحوا أيها الارثوذكسيون،ارتجفوا وارتعدوا خوفاً أيها اليهود والشياطين ! لاحظ فجأة امرأة جميلة

تقطع حديقة فلحق بها وتبعه كفاتشي . بعد خمس دقائق سمع ضجة من بعيد صرخ غريشكا الثائر عند باب أحدى المقصورات :

ــ مالك تعاندين أيتها العاهرة ؟ القيصر والقيصرة يقبلان يديّ وأنت تصعرين وجهك وتراوغين ؟ ماذا ؟ لاتعرفينني ؟ ألا تعرفين غريشكا راسبوتين ؟ حسناً ، سأريك من أكون : يالك من سليطة ، يالك من صعلوكة . . يالك . . بصعوبة بالغة استطاع كفاتشي أن يعيد المعلم ، العظيم إلى مقصورته بعد توسل ورجاء ولم يهدأ المعلم بل ظل يتوعد بالاشغال الشاقة . بعد مايقارب العشر دقائق جاءت تلك المرأة وزوجها ــ وهو موظف كبير وصديق وزير العدل « شغلوفيتوف » ــ دخلا مقصورة غريشكا على رؤوس اصابعهما وطلبا المغفرة باحترام .

لم يشأ غريشكا أن يتحدث معهما . خرج الزوج خائفاً مستاء ولحق به كفاتشي ــ أبولونتشيك ! قف بالباب ولاتسمح لأحد بالدخول ! قال له غريشكا راسبوتين. استند كفاتشي إلى باب المقصورة من الخارج مانعاً زوج المرأة من الدخول إلى المقصورة مواسياً إياه على الشكل التالي :

ــ لاتغضبوا ،إهــدأوا أعاهدكم أنكم ستحصلون على وسام وستحققون نجاحاً كبيراً خلال أيام قليلة .

حاول الزوج أن يثير الشغب من جديد فأمسك « جليل » بيده كالطفل وأجلسه إلى الوراء راجياً :

ــ من فضلك أيها الشاب ،لاضرورة من فضلك.الخانم ستأتي فيما بعد.

ثم أعجب ذلك الموظف الكبير بنصيحة كفاتشي فذهب إلى مقصورته وبدأ قراءة الصحف .

حين أقترب القطار من محطة بطرسبورغ خرجت المرأة من مقصورة راسبوتين موردة الخدين مشعثة الشعر منفرجة الأسارير . سأل كفاتشي غريشكا :

– هل غفرتم لتلك المرأة ؟ اعتذرت .

– غفرت لها،لقد اعتذرت مرات عدة فغفرت لها خطاياها ، وماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ فأنا مسيحي . هاك عنوانها سجله .

– الحمد لله ، الحمد والشكر لله !

– أبولونتشيك أنا اليوم ضيفك في « أركاديا » .

– هذا الشرف لاأستطيع تحمله دفعة واحدة أيها الأب المقدس !

– دعهم يهيئون كل شيء ! أحجز مقصورة ذات ستائر ، سنمضي في الثانية عشرة تماماً.أصطحب معك يلينا، أذهب الآن إلى البيت واسترح، وأنا أيضاً عليّ أن أنال قسطاً من الراحة . هذا اليوم رهيب ! رهيب ! ارحمنا يارب واغفر خطايانا !

لم يفكر كفاتشي بالراحة . كان عليه في ذلك المساء أن يجمع ويملك ويحصد الكثير . مضى أولاً إلى غانوس :

– تهانينا ! . . لقد انتصرنا ! . . وافقوا وثبتوا الامتياز ! – قال دون أن يلتقط أنفاسه للصيرفي المذهول – حاسبني غداً قبل الثانية عشرة . . لقد أمضيت اليوم بكامله في القصر . . تخلصت بصعوبة بالغة . استبقونا للغداء،لم يسمحوا لنا بالمغادرة . ثم أخبار كثيرة،تغييرات جمة . . فليغل – أوديبوتانت . . قص ونشر مغامرات ذلك اليوم بما في ذلك « السر العظيم » ، بل وأضاف عليه الكثير من التلفيق . كثيراً ماردّد كفاتشي في حديثه عبارات :

ـ عيّنا . . نقلنا . . قررنا . . انهارت روسيا وتمكنا من أنقاذها بصعوبة . . اقنعنا القيصر . . عملنا أنا وغريشكا ، لقد وثقوا بنا في كل شيء، نفذوا كل ماأردناه . . هيّــا ماالقضايا التي لديكم ؟ هاتها بسرعة غداً حالاً ، وإلا من يدري بما قد يحدث،من يدري كيف تجري الأمور ! . .

غداً سآتي إليك في العاشرة صباحاً . يجب ان نذهب ونستلم العقد المبرم . يمكن الاتصال بالهاتف ؟ أشكرك .

واندفع كالتيس نحو الهاتف :

ـ آلو ! بيسو ، أهذا أنت ؟ ! أبحث عن سماسرتي بسرعة ! جدهم حيث شئت . سأكون هناك بعد ساعة . . حسناً ، حسناً فيما بعد . . أعطني مهلة قصيرة .

ـ ألو ! يلينا أقبلك ألف قبلة وأهنئك بلقب « الغريلين » ماذا لاتصدقين ؟ وحين ستستلمين الوثيقة غداً وبعد غد ألن تصدقي حينئذ ؟ ماذا ؟ تقولين ان غريشكا فعل هذا ؟ نعم أنا وغريشكا عملنا لك هذا ! ماذا؟ ألا تخجلين يايلينا ؟ ها ـ ها ـ ! حسناً ، حسناً لاتخرجي اليوم إلى أي مكان . سأكون عندك في العاشرة ، لي معك مسألة هامة ها ـ . . ها . . ها ! فعلاً ؟ أأصدق هذا ؟ . . حسناً أعطني مهلة قصيرة . .

ـ ألو ! اهذه شقة غينتس ؟ ابراهام موسيفيتش أهذا أنتم ؟ أهنئكم بالنجاح في كافة الأعمال . لن أقول شيئاً آخر ، سأكون عندك بعد نصف ساعة ، استدع مهندسيك ومعماريك الآن ، ؟ حسناً أنا في طريقي إليك . . عاد مرة أخرى إلى غانوس :

ـ إذا ، ياصديقي العزيز في ذمتك هدية ثمينة إلى الغد ! إلى صباح الغد . . قبلوا يد زوجتكم نيابة عني ، آسف إذ لم أرها .

دخل إلى غانتس مسرعاً ، أغرقه برشقات من الكلمات ، نفخه ونفخ نفسه غروراً :

— أنا وغريشكا فعلنا كذا . . تغدينا . . لقد تحيّنا . . عيّنا . . نقلنا . . أوكلوا إلي مهمة بناء المعبد . أتستطيعون بناءه ؟ تباشرون ؟

— أجل أتعهد القيام بأي شيء ! إذا ماكلفّوني بشق طريق حديدي إلى القمر ، سأتولى القيام بهذه المهمة .

— هي ذي المخططات وهذا هو العقد،وهذا كتاب القيصرة . . .

— سأتفحص . . سألقي نظرة . . سأحسب . .

— يحتاج الجيش عشرين مليوناً من الثياب الداخلية و « البطانيات » وآلاف الحاجات الصغيرة . هذه لائحة بها وبأسعارها . اعطني خمسة بالمائة وخذ هذا التعهد .

— سأحسب ، غداً صباحاً سأعطيك الجواب .

— إذاً وداعاً ! إلى اللقاء ! ماتزال لدي آلاف الأعمال . . ينتظرني الوزراء ورجال الحاشية في البيت . . بلغ تحياتي لزوجتك وقبّل يدها عني . . إلى اللقاء ياصديقي العزيز ! وفي البيت كان السلم يغص بالناس .

— اطردهم ! لاتستقبلوا بعد الآن مثل هذه التفاهات ! أهذا وقتهم ؟ لقد كلفوني بأعمال هامة ضخمة بحيث أضحت اموال هؤلاء الناس لاتساوي الجهد المبذول في عدها . بيسو استدع سماسرة البورصة . أغلق كفاتشي الباب، وأعطى التعليمات الكاملة للسماسرة ثم فرض عليهم تسجيل ماقيل وبعدئذ تركهم يخرجون .

— سيدراك ! انتق الناس النظيفين (الأغنياء) وأدخلهم ثم اصرف

البقية إلى بيوتهم . . تشيبي أسرع إلى المحطة واستقبل « سليبيسترو » و « بوبي » وهيىء لهما سكناً ولاتدعهما يأتيان إلي حتى أقول لك . أشرف عليهما وأعتن بهما . . . (غيغو) : خذ هذه الرسالة إلى دار الأوبرا وسلمها إلى المطربة الرئيسية « فوبلجينا » . اشتر لها طاقة من الزهر واعتذر وقل لها إنني لاأستطيع المجيء . إذا رغبت اصطحبها معك إلى « أركادي » لاتحب السيارة ؟ استأجر لها عربة حسنة ، هيا تصرف ! . . ثم أندفع مرة أخرى إلى الهاتف :

ـ ألو ! « أركادي » ؟ أنا الأمير كفاتشا نتيرادزه . . احجزوا بأسمي المقصورة الأولى والثانية،زينوها بالأزهار وليكن كل شيء جاهزاً . .

ثم التفت مرة أخرى :

ـ بيسو ، أهذا أنت ؟ من ينتظرني ؟ أعطني اللائحة . النائب « شيبين »،رئيس الدير « ماكاري » . . المحافظ « تيزنغازن » . . مدير القصر « كوتشوبي » حسناً ، حسناً فلينتظروا قليلاً . . أنا تعب .

استلقى واستراح . بعدئذ القى نظرة على شبكة الخطط ،كانت مشدودة ومحسوبة بشكل جيد . . . المهم ألا يخدعه (غينتس)،فكفاتشي لايخشى الآخرين . . حسناً سنرى غداً سنرى . .

ـ بيسو ، نادِ الحضور .

بعد ساعة كانت « مرسيدس » كفاتشي تجري في شارع سوفوروفسكي حين صعد إلى يلينا ، التقى بـ « غريشكا » على السلم ، فكر :

ـ لقد سبقني ، سبقني هذا الطمّاع !

– ابولونتشيك ، أهذا أنت ؟ ستتنادم الليلة ؟ كل شيء جاهز ؟

– سنتنادم أيها المعلم العظيم سنتنادم ! كل شيء جاهز ، في الثانية عشرة تماماً سأمر عليكم .

دخل إلى يلينا عابساً مستاء ، استقبلته يلينا الموردة الخدين والمشعثة الشعر بفرح ولطف .

– ومع ذلك سبقني هذا « الفلاح » وحدثك بكل شيء ؟

– كفاتشيكو لاتكن حسوداً ، لاتجرِ وراء كل شيء : أكتف بالأموال والإمارة وتسميتك « رجل البلاط » وإلا ستندم .

– وهل أنا أجري وراء كل شيء ياحبيبتي الطيبة ؟ مثلاً تخليت عنك لـ « غريشكا » ، أكاد أموت لكن ماالعمل ؟ حسناً لقد حـــان الوقت ارتدي ثيابك .

مرة أخرى اندفع نحو الهاتف :

– ألو ! (تانتشكا)(١) أهذه أنت ؟ أقبّلك ألف قبلة . . آمل أن تكوني بصحة جيدة ؟ أتريدين أن أريك مكاناً مليئاً بالخطايا ؟ سيكون « راعي الكنيسة » هناك أيضاً . . لن تندمي ، لاتخافي ،أتريدين أن أضع قناعاً . . ماذا تخافين ؟ أقول لك لاتخافي ،سأصطحبك إلى تلك المقصورة بحيث لن يتمكن الشيطان من رؤيتك . . يلينا ذاهبة أيضاً والمغنية « فولجينا » أيضاً .كلنا سنشكل أسرة واحدة أموافقة ؟ إذاً ألبسي ثيابك بسرعة ، سنمر عليك .

---

(١) تصغير وتحبب من اسم (تاتيانا) – المترجم

« كيف عرض القديس غريغوري « هويته الشخصية »
وكيف ضرب احدى العاهرات ضرباً مبرحاً

الثانية بعد منتصف الليل ، الموسيقى تصدح في الملهى . الجميع يأكلون ، يشربون يغازلون يرقصون ويغنون .

الصالة الضخمة تشتعل .

تلمع كالالماس الثريات المحملة باحجار الكريستال اللامعدودة ، يسمع رنين الخزف (الفرفور) .

وكانت تنسال قطرات ذهبية من فوهات زجاجات الشمبانيا المثلجة في أوعية فضيّة والملفوفة بفوط أنيقة ، كانت تنسال في أقداح كريستالية .

وكانت خمرة « الشيبر » تنساب نحاسية اللون بخرير عذب من أبريق منتفخ الجوانب ، كما وكانت تشعشع خمور « موسكات » « مارسال » بنديكتين » « بوردو » « بورغون » بيضاء وصفراء محمرة .

وفي أكواب « البكارا (١) » كان « الشارتريز » الوّهاج يتقد بنار زرقاء سماوية والفواكه المستوردة المتعددة الألوان تنضح عافية : الأناناس — البرتقال — الماندرين .

وتكاد الكمثرى الفرنسية بنوعيها سان جرمان ودي يوشيس — تذوب في الفم دون مضغ . وعلى الخوان الأبيض كالقط يتناثر بوفرة الدراق القرمزي اللون وتفاح « الكالفيل (٢) » . والعنب الأخضر

---

(١) البكارا : من أفضل انواع الكريستال الفرنسي — المترجم

(٢) الكالفيل : تفاح يجود في بلدة كالفيل واليها ينسب — المترجم —

والأصفر والأسود والأزهار والورود النادرة ، كما تمددت السرطانات الحمر وسرطانات « البستر » وبدت وكأنها تزحف .

وأبرزت الطيور المقلية صدورها وأرجلها المقمرة للأعلى .

بقيت مختلف الأطباق المشبعة بالتوابل كما هي دون أن يمسّها أحد.

وكانت ترى في كل مكان أنواع الزهور والرسوم والتماثيل ، أكتاف ونهود وأيد عارية وأرجل محاطة بخيوط العنكبوت .

واختلطت مختلف ألوان الديباج والأطلس والمخمل والتول .

وكانت المطرزات والتوشيات الذهبية والأقمشة الشرقية والمستوردة من جنوة والبندقية تبهج العيون .

والشعر الأسود والكستنائي والقرنفلي والنحاسي . . . مسبل أو مرفوع بتسريحات جميلة عالية .

وكانت جواهر الألماس واللؤلؤ ، الفيروز ، الكهرمان الزمرد ، والياقوت تخطف الأبصار ببريقها الوردي واللازوردي .

وكان دخان التبغ يرتفع ملتوياً كالأفعى نحو السقف ثم يتلاشى ورائحة العطور تدغدغ وتهيّج حاسة الشم بسحرٍ وفتون .

وتوالى الراقصون والراقصات في حفلة المنوعات ، الفرنسيون والطليان والأسبان، الجزائريون والتونسيون واليهود، اليابانيون والقادمون من مختلف أصقاع الأرض . يتسارع الرقص الاسباني والتشارداش المجري والمازوركا البولونية ويجنّ اللحن جامحاً مزهوراً كالاعصار وينثني الراقصون على أنغام رقصة « كيك . — ووك » (١) الداعرة ،

---

(١) كيك — ووك : أو رقصة القطيرة — رقصة زنجية انتشرت في الربع الأول من القرن العشرين — المترجم.

وعلى أنغام رقصة « الماتشيش » الموزونة ، ورقصة التانغو المثيرة للنزوات . والراقصات الشرقيات العاريات يهززن بطونهن بشكل شهواني . تتواثب الأرجل وتنوس الأوراك من مختلف الألوان والأشكال ، ويسمح حفيف الثياب المقصبة ، وتتراءى من وقت لآخر خاطفة الأبصار الثياب النسائية الداخلية البيضاء كالثلج .

تشابك الرجال والنساء ملتحمين ، ثملين مخدرين بأنفاس وأجساد بعضهم البعض وهم يسبحون في أمواج الرقص .

تتصاعد همسات شبقة ونكات ذات معان مواربة ، وضحكات مثيرة .

ويخترق القاعة شرر الرغبات المتقدة الذي تقذفه العيون بلا انقطاع وتتموج الصدور العارية بشهية وعلوبة .

وعلى الشفاه المحمرة بلون الدم والأسنان البيضاء كالثلج ترتعش شعلة الرغبة المثارة وتبحث الرغبة المحتدمة والمثارة بالمشروبات والأطعمة المخدرة والحادة ، تبحث عن متنفس لها .

الدماء المضطربة تتطلب بالحاح الاسترخاء واطفاء الرغبة .

القاعة مشبعة بالخدر والرغبات المتقدة .

وزأر بشكل هستيري وحش الفسق والخلاعة الدموي محتدماً متوثباً مكشراً عن أنيابه .

اشتعلت تلك القاعة ، ذابت وغرقت في لجة الفسق والاستسلام للرذيلة .

وجلس غريشكا وكفاتشي ويلينا وتانيا في مقصورة معتمة تسربلها

الستائر يتنادمون ويتطلعون من حين لآخر إلى المسرح حيث يغني ويرقص على خشبته وبشكل متتال مجموعات الروس والغجر والزنوج والرومان والفرنسيون والاسبان ، ومن وقت لآخر بدأ غريشكا الثمل يصدر أوامره :

— استدعوا إلى هنا راقصات « الكيك — ووك » ، أيضاً راقصات « الماتشيش » فليرقص ذاك من جديد . . استدعوا الغجر ! أنا أدعو الجميع ! قولوا لهم أن غريشكا راسبوتين يشرب ويأمر . . قولوا لهم ألا يزعجونني وإلا سأهدم عش هؤلاء الأبالسة !

مزّق غريشكا قميصه الحريري ورفع أكمامه ، شعث شعره وتدلى حتى حاجبيه وزاغت عيناه ، واشتعلت رأسه وغامت في ضباب . في مآقي عينيه الزيتيتين يسبح وحش مفترس . في قلبه نار تتلظى . لم يعد بقادرٍ على التزام الهدوء ، بل صار يتخبط كوحش في قفص .

يعبث بيديه كيفما اتفق ويشرب كل مايقع بين يديه ، يصرخ مغنياً بأعلى صوته أغان فاضحة وتراتيل كنسية مطلقاً كلمات وتعابير سوقية غامضة وكأنها طلقات مدفعية تصيب قلوب تانيا ويلينا والمطربة .

وكان يلح باستمرار على هذه وتلك قائلاً :

— مالك تزوين بوجهك ؟ مالك تضربين الأرض برجليك كمهر لم يروض بعد ؟ ! في المنادمة سنتنادم بطريقتنا بالطريقة الرجالية ! فكي أزرارك ، أرنا نهديك ! أخلعي ملابسك ! أخلعي ثوبك ! . .

ثم هجم على الفنانات وبدأ يمسك بهن ، ومزّق ثوب أحداهن .

ضجت النساء ، ضحك بعض منهن ، وغضب بعض آخر وتهيأن للخروج ،فأزداد غريشكا اشتعالاً وعناداً :

ـ مالكن تتدللن أيتها العاهرات ؟ لقد رأيت الآلاف من أمثالكن عاريات ، نساء أفضل منكن يراققنني إلى الحمام خمس بل وعشر نساء وحتى الملكة لاتعرض عني ، ومن أنتن ؟ هذا القميص خاطته لي « عجوزتي »(١) بنفسها . أجل الملكة بيديها خاطته وأتمته.أبولونتشيك دعني أقول لك،وأنت أخرسي ياتانيا،لقد قبّل القيصر والقيصرة اليوم يدي ورجلي ، فمن أنتم ؟

حاول كفاتشي تهدئة غريشكا المتوحش . احترقت تانيا ويلينا خجلاً ، واستدعى البعض رجال الشرطة وصاحب الملهى وتجمهر الناس حول المقصورة .

ـ ماذا ؟ لست أنا غريشكا راسبوتين ؟ لاتصدقون ؟ إذاً أنظروا ، صدقوا وتأكدوا ! فكّ أزرار سرواله وقدّم أفضل هوية شخصية له .

ـ والآن ألم تصدقوا ؟ ! ألم تتعرفوا على غريشكا؟ هاكم هويتي الشخصية ! أنظروا وتيقنّوا ! صدقوني !

صرخت تانيا ويلينا وركضتا خارجاً . تبعتهما بعض النساء لاعنات شاتمات وقهقه الباقون ، مزق أحدهم ستارة المقصورة وخرج هذا الحيوان إلى القاعة الغاصة بالناس . علا الضجيج والهرج في القاعة وتوقفت الموسيقى والرقص على المسرح . صرخ أحدهم :

ـ اعتقلوه ، أخرجوه !

وصرخ آخر :

ـ كذب ، كذب ، هذا ليس راسبوتين !

---

(١) المقصود هنا القيصرة ـ المترجم

ثم اختلط الحابل بالنابل .

— صدقوني ، أنظروا تلك هي هويتي ! هذه هي وثيقتي الشخصية ! صرخ غريشكا ماداً نفسه من المقصورة .

أضطربت القاعة ، ضحك البعض :

— ها — ها — ها — هو — هو — هو !

وصرخ البعض الآخر :

— أطردوه ، أعتقلوه ، أكتبوا محضراً بحقه ؟ ! استدعوا الشرطة ! خذوه إلى مشفى الأمراض العقلية !

وجاء الجميع إلى المقصورة كالنحل ، مهددين ، ضاحكين ، ثائرين .

أستند جليل إلى باب المقصورة كجلمود من الصخر رافعاً الخنجر بيده لامعاً بأسنانه الحصانية راجياً الناس :

— من فضلك أيها الشاب من فضلك ! لاتتدخل وإلا ستسيل الدماء .

دخل المقصورة صاحب الملهى ورئيس مركز الشرطة مرة أخرى . عاق أحدهم الستارة الممزقة منهياً بذلك عرضاً نادراً . ومن أجل تهدئة الناس ولفت انتباههم جهدت جوقة المغنين لربط الأصوات ببعضها وعزفت الفرقة الموسيقية الحانها بصخب .

واستسلم غريشكا أيضاً . ثاب إلى رشده وهدد رئيس مركز الشرطة فقط :

— سأنفيك وأحكم عليك بالأشغال الشاقة فيما لو كتبت المحضر ،

وسأرمي بلحمك للكلاب . نعم أنا أقول هذا أنا غريشكا راسبوتين ! دعني وسأذهب بنفسي ! أبولونتشيك أرم لكل من هؤلاء الكلاب مائة روبل ولننته فلنمض الآن . أين تانيا ويلينا ؟ هربتا ؟ فليصحبهما الشيطان . أقول لك لاتكتب محضراً وإلا . . .

اقتاد كفاتشي غريشكا الثمل بصعوبة بالغة مودعين بالضحك والوعيد والصراخ والصفير .

وفي منتصف الطريق غيّر غريشكا سبيله .

ـ انعطفْ إلى اليمين ، والآن إلى اليسار . . إلى الأمام . . قف . وأوقف السيارة أمام دار البغاء .

ـ ماذا تفعل أيها المعلم ؟ سيعرفوننا وسيصل خبرنا إلى القيصر والقيصرة !

ـ أبولونتشيك أصمتْ ! من يدري ؟ عجوزتي ؟ فلتعلم مازلت صغيراً لاتعرف شيئاً فلتدر هذا أفضل،ستحبني أكثر . . أنت لاتعرف شيئاً عن نفس وطبع المرأة هيا ، تعال ورائي !

دخل صالة السكارى وصاح :

ـ مرحباً ياآنسات ! . . أريد صاحبات !

وعلى أنغام البيانو نزل إلى الجناح الخاص بأناقة وحيوية مصطحباً معه عدة نساء ثم وزّع لكل من العاملين والعاملات خمسة روبلات وطلب عشرين زجاجة من الخمر والفودكا .

علت ضجة وصراخ وضحك ، وازداد الحماس للرقص والحضن

والضم ، شربوا زجاجات الخمر ، كسروا الأواني ووسخوا ودنسّوا كل ماحولهم .

أخيراً اختار غريشكا خمس نساء منهن واقتادهن معه وجرّت إحداهن كفاتشي بما يشبه القوة ، وأختار جليل شقراء تزن أكثر من سبعة بودات .

مضى نصف ساعة ، سمع من أحدى الغرف صراخ متواصل وشتائم بذيئة .

كان كفاتشي مستعداً للخروج ينتظر معلمه ، وفجأة سمعت من الغرفة التي ينفرد فيها غريشكا بالنساء استغاثة امرأة :

ـ النجدة ! قتلت !

قفز كفاتشي على الشرفة أولاً ثم إلى الشارع فرأى عند المدخل وجهاً لامرأة عارية منفوشة الشعر تجري صارخة نحو الأسفل ووراءها يجري المعلم العظيم عارياً أيضاً ويسوط المرأة بالنطاق صارخاً :

ـ آه أيتها العاهرات أيتها السافلات أيتها الملعونات خذي ، خذي ، خذي !

وكانت المرأة تتقوس تحت كل ضربة وتتلوى وتقفز إلى جهة أخرى ثم تجري من جديد :

ـ النجدة ! لقد قتلني !

لحق به في البداية كفاتشي وحارسان، ثم جاء الآخرون للنجدة . حملوا المرأة المغمى عليها وأحاط البقية بـ « غريشا » صارخين .

ـ أضربوه ! اعتقلوه !

صار جليل عنده خلال لحظة . أخرج خنجره من غمده حتى منتصفه قائلاً :

ــ من فضلك .. أذهب من فضلك .

وجاء رجال الشرطة مسرعين . لم يخف غريشكا أحداً ولم يتراجع أمام أحد :

ــ دعوني أرتدي ثيابي أولاً ، وسنرى من يجرؤ على الاساءة إلى غريشكا راسبوتين .

أيها الشرطي أطردْ هؤلاء الكلاب وإلا سأنفيك وأحكم عليك بالأشغال الشاقة.هيا بسرعة .

عند ذكر غريشكا راسبوتين علا الضجيج والضحك .

ــ صحيح ، صحيح ! هذا يجب أن يكون غريشكا راسبوتين لكن أنظروا ، أنظروا !

ــ تفرقوا ، أقول لكم ! صرخ رجال الشرطة .

أثناء ذلك دخل غريشكا مرة أخرى إلى دار البغاء ثم عاد بعد عشرة دقائق مرتدياً ثيابه . وقف قائد المركز أمامه :

ــ ماذا ؟ أتقول محضر ؟ مابك هل سئمت حياتك ؟ ألديك عائلة ؟

ــ لا ، أيها السيد أنا ، أنا لاشيء أريد فقط أن أرى بأم عيني قديسنا غريغوري . . ليس أكثر . . سأرافقكم وإلا . .

ــ لاضرورة لذلك . أبولونتشيك أشكر رئيس المركز هذا واعطه خمسة وعشرين روبلاً .

ماسم عائلتك ؟ غداً أو بعد غدٍ قابلني . وفي نفس الدقيقة تحركت السيارة .

« كيف اعترف القديس بذنوبه و كيف فجر البورصة »

كانت لدى غريشكا غرفة صغيرة ملآى بالايقونات والمواد الروحانية. كانت هذه صومعته .

دخل تلك الصومعة مترنحاً متمايلاً . حدق فيه المسيح المضاء قليلاً بشمعة واحدة بعينيه الطيبتين وكأنه يؤنبه .

خرّ راسبوتين المذنب الداعرُ على وجهه منهاراً أمام الأيقونة . سقط ناشجاً أمام المسيح :

ـ أيها الرب المقدس ، المقدس والذي لاحدود لقوته ولرحمته . أغفر لي ، أنا الجاني الحقير ، ذنوبي التي لاحصر لها وأمنحني السكينة فأنا أهل لذلك !

حل الصباح وبقي غريغوري مواظباً على صلاته . جثا مرة أخرى على ركبتيه مهيناً نفسه ، صلى متأوهاً آناً سافحاً دموعاً حارة وهو يلفظ بوضوح كلمات الصلاة ، وكان أحياناً يرتلها ترتيلاً غنائياً ويضرب صدره بقبضة يده مضنياً ركبتيه من التعب .

أسرع كفاتشي بعد منتصف النهار إلى معلمه، فقال له الخادم :

ـ الأب غريغوري مازال يصلي . منذ ليلة الأمس لم يخرج من صومعته ، لم يأكل ولم ير أحداً .

دهش كفاتشي ، لكنه لم يأسف إذ كان عليه في ذلك اليوم « حبك » عشرات الحيل . أسرع إليه في اليوم التالي ، فكرر الخادم مقاله السابق :

ـ الأب غريغوري مازال يصلي ، وهو منذ الأمس لم يخرج لم يأكل ولم ير أحداً

ــ ماالأمر ؟ ــ فكر كفاتشي ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة للغرفة التي يصلي فيها غريغوري منذ يومين .

كان ثمة العشرات من الرجال والنساء الجاثين أمام باب الصومعة وهم يتوسلون بحرارة غفران ذنوب المعلم . رأى كفاتشي تانيا بينهم وقد خارت قواها .

جثا بجانبها ، أحنى رأسه ورفع يديه إلى السماء وبدأ يحرك شفتيه . ومن الصومعة كان يسمع صوت المعلم :

ــ « ألبسوه رداء قرمزياً ووضعوا على رأسه إكليلامن شوك وقصبة في يمينه وراحوا يمرون عليه ويقولون له :

أفرح ياملك اليهود ! وزينوا رأسه بالقصب وانحنوا أمامه . وبعد ان استجوبوه نزعوا الأرجوان عنه وألبسوه بزةالكاهن واقتادوه ليصلب على «خشبةالعار» . توقف غريغوري عن قراءة الانجيل وراح ينشج بحرقة . صاحت تانيا وسقطت منبطحة وصرخت وهي تنشج :

ــ كفى ! فلينته من هذا ! يكفيه !

اهتاج الآخرون أيضاً وبكوا . نقل كفاتشي تانيا الخائرة القوى إلى الغرفة الأخرى وهدأها بصعوبة . وبما أن لديه بضع حيل لم تكتمل بعد فقد استقل السيارة وقصد الصيرفي غانوس ، ومساء استخبر بالهاتف :

ــ ألو ؟ كيف حال أبينا المقدس، كيف صحته ؟ . . ماذا لم ينته من صلاته بعد ؟ !

ــ لم يأكل شيئاً ؟ لايرغب برؤية أحد ؟ بابه مغلق مرة أخرى؟
ــ ياإلهي العظيم ماهذا ؟! حسناً سآتي غداً .

وفي اليوم الثالث مساء أسرع كفاتشي من جديد إلى غريغوري . كان باب الصومعة مازال مغلقاً وقد اجتمع أمام الغرفة مجموعة من التلاميذ . تانيا غير موجودة . أزمع البشيرون المخلصون والمريدون خلع باب الصومعة ، لكن أم الاله « اوختينا » هدّأت الجميع :

— دعوا ابن الاله يستكين وصلوا من أجل روحه . لاتبكوا فمنقذنا المقدس يستطيع الصيام أربعين يوماً وأكثر .

مضى أسبوع . أصبحت غرفة غريغوري الكبيرة ملأى برجال الحاشية والنبلاء و « البشيرين » ، صلى البعض صامتين وسقط البعض منهارين وهم يَهْزُون بكلمات غريبة مبهمة ، فجأة فتح باب الصومعة ، سمح الخادم لكفاتشي قبل الآخرين بالدخول على القديس ، كان غريغوري مستلقياً على أرض الغرفة ناحلاً فاقد القوى .

— أيها الرب العظيم ! ياأيها المعلم المقدس !

— أبولونتشيك ياأخي وصديقي الصدوق ! — همس غريغوري قائلاً بصعوبة — لاتقلق أنا بخير ، أفهم وتذكر : يفرح الرب حين يعترف المذنبون بذنوبهم .

فعندما يرسل الله الشيطان إلينا ، علينا اتباعه واقتراف الموبقات وأرتكاب الأخطاء كي يكون هذا مسوغاً للاعتراف . فلتعلم أن المقدس يهلك نفسه دائماً ان لم يقترف الذنوب ، إذ كيف يمكن للرجل الذي لم يقترف إثماً ان يعترف طالما أنه لاذنب له . هل فهمتني ؟

— فهمت وحفظت . حكمتك لاقرار ولا حدود لها أيها الإب المقدس ! صمت غريشكا قليلاً ثم تابع :

ـ أبولونتشيك ! أنت بريء وطاهر كالطفل ، إذ مازلت تجهل الكثير ، ستكبر قريباً وتفهم كل شيء . لكنني سأقول لك شيئاً واحداً لن تجـد شيطاناً أكثر آثاماً مني . سـبعة أيام من الصلوات لاتعني شيئاً . أتذكر حين هجرت أسرتي لأول مرة، نظفت إحدى المغائر في أحد الجبال وسكنت فيها ثلاثة أشهر دون أن أغادرها .

لم أذق خلال تلك المدة سوى الخبز الجاف وشربة الماء . جَرِبْتُ وأضناني الجَرَب ، تمرغت أمام الأيقونة دون أن أخلع ثيابي وبلا استحمام . وذات يوم وبعد أن خارت قواي تماماً ، تطلعت إلى أيقونة أم الرب « فرأيتها بوضوح تبكي دموعاً مرة ثم قالت لي : « غريغوري ، غريغوري أنت مطهر من كل آثامك . تكاد البلاد تهلك بين مخالب الشيطان. أنهض وأمض لانقاذ الشعب ومعالجته » . ومضيت منذ ذلك الحين وأنا أطوف خادماً المسيح ربنا . من يعلم كم مرة انفصلت عن هذا العالم الآثم طوال شهرين وثلاثة أشهر ! والآن حان وقت الفراق ياصديقي أبولونتشيك !

تخبط قلب كفاتشي من الخوف .

ـ إلى أين أيها الأب المقدس ؟ إلى أين ستتوجه ؟

ـ بعيداً ، بعيداً جداً ! إلى القدس ! عليّ أن أحني رأسي أمام تلك الأماكن المقدسة وأن أقبّل قبر السيد الرب وأتطهر نهائياً وأعترف بذنوبي التي لاتحصى ولاتعد .

ـ أيها الأب المقدس وماذا تفعل بي ؟ لمن تتركني ؟ ماذا ؟ وأنا أيضاً أستطيع أن أسافر ؟ أنا جاهز لمثل هذه الرحلة . سأفكر بذلك أيها الأب المقدس . أجل هذه الرحلة الصعبة شهرين ـ ثلاثة أشهر .

ـ لاأستطيع ، أخبرتني الأيقونة مساء الأمس قائلة : « غريغوري ، بعد ثلاثة أيام أرحل من هنا إلى القدس ، فآثامك لاحصر ولا حدود لها » . والآن هيا ياصديقي أبولونتشيك دعْ يلينا أو تانيا تأتي إلي ، تعالوا غداً في العاشرة مساءً ، علينا أن نذهب إلى أحد الأمكنة،سأريكم مالم تروه في أحلامكم .

وفي البيت كانت تنتظر كفاتشي أخبار سيئة .

منذ عودته من « القرية القيصرية » صار كفاتشي يعتبر نفسه أسعد إنسان في العالم ، إذ نال في ذلك اليوم كل مايبتغيه . أصبح أميراً ومن رجال البلاط ، وصاحب نفوذ كبير . حصل على السلطة والثروة التي ستصب في جيبه إن لم يكن اليوم فغداً . لقد تلقى جزءاً من هذه الثروة وهاهو الآن يرمح مسرعاً إلى « أونكال » والبورصة . . .

في الآونة الأخيرة كانت تتردد بضع كلمات على لسان كفاتشي : أونكال ، سندات . . قسائم . . أسهم « بوتيلوفا » « لينسكي » . . « سالاماندرا » . . « لاج » « بعت . . اشتريت ! خسرت . . ربحت وماشابه ذلك ، لكن المسألة تتلخص في أن كفاتشي صار يقول « خسرت » أكثر من « ربحت » وهذا هو سبب تجهمه. استقبله بيسو والسمسار « هاينتشتين » بأخبار خطيرة ومرّة :

ـ دفعت مائة وعشرين ألفاً إلى مصرف « أزوف » استكمالاً لحساب « أونكال » ـ قال له السمسار ـ انخفضت أسهم « لينسكي » إلى النصف تقريباً « الانجلوروس » مستمرة في الهبوط « روسبيرس » في طريقها للانهيار .

بالأمس أرغمتني على بيع أسهم « سد أورال » بمبلغ أربعمائة واليوم ارتفعت إلى الخمسمائة . لقد خسرنا ثلاثمائة ألف من أجل تخفيض هذه الأسهم،استعدنا منها مايقارب المائة ألف ، إذا لم نسدد غداً نصف مليون ستباع الأسهم المرهونة بثمن بخس .

أخيراً لاحظ كفاتشي أن شخصاً مجهولاً كان يتطلع في أوراقه أثناء اللعبة تلك . رأى كفاتشي ووعى بعد جهد أنه لم يعد قادراً على التحكم بالبورصة فحسب، بل على العكس أصبح لعبة بأيدي الآخرين وضحية من ضحاياهم . كان الوقت متأخراً كي يعض مرفقيه (لم يعد يجدي الندم) ولا يملك الشجاعة الكافية للتراجع ،وأضاع ملكة اليقظة والحذر ، لذا وبعد أن سقط في مستنقع البورصة انحدر فيه أكثر وأكثر ،ثم سبح أخيراً باتجاه عمق الدوامة حيث ينتظره إفلاس كامل أو ثروة طائلة .

ـــ غداً صباحاً ، ستتلقى التعليمات ، أسرع الآن إلى البورصة وقدم هذا الكتاب ليسجلوه في السجل المالي . وداعاً !

ثم هتف إلى صديقه الصيرفي « غينتس » :

ـــ آلو ! أهذا أنت ؟ اسمعني ! متى تسلمني الأموال فيما لو أتفقنا؟ غداً ؟ ماذا ؟ ومشروع العقد جاهز لديك ؟ وإذا لم أوافق ؟ . . ماذا ؟ ستخفض المبلغ ؟ حسناً إذاً أنا موافق . صداقتك غالية علي ، فأنا على استعداد لألقي بنفسي في الماء لأجلك . حسناً ، فليكن هذا . . إذاً إلى الغد !

ثم التفت إلى بيسو :

— ماذا كان بامكاني أن أفعل ؟ علي ان أنتظر خمس سنوات لبناء المعبد وستة أشهر لتقديم الثياب إلى الجيش . طبعاً كان يمكنني أن أكسب ثلاثة أضعاف المبلغ فيما لو صبرت وتابعت الأمر حتى النهاية ، لكنني أحتاج الآن للنقود وإلا،لا،لن أهلك ! حين سألقي غداً مليوناً في البورصة سترى كيف سأهدم وأفجر كل شيء هناك . لاتستقبل أحداً يود الوصول إلى راسبوتين ، لقد جُنّ ، سيسافر في شيخوخته إلى القدس من أجل إنقاذ روحه ، فليضربه الشيطان ! لديه من القذارة والخطايا بحيث لاتستطيع القدس أو حتى ألف ملاك وقديس أن تغسل عنه تلك القذارة وهرع من جديد إلى الهاتف .

— حقاً لقد نسيت ! ألو ! يلينا أهذه أنت ؟ ينتظرك غريشكا ، يقول إن عليه أن يرتكب الخطيئة من جديد كي يتمكن من الاعتراف ، ماذا ؟ لاوقت لديك ؟ ماذا حدث ؟ جدي قليلاً من الوقت لي أيضاً ! .. ماذا قلتِ ، تريدين الذهاب إلى الأوبرا ؟ حسناً جهزي نفسك سآتيك حالاً . . . سأبعث بـ « تانيا » إلى غريشكا . حسناً أنا قادم . .

في اليوم التالي تنازل كفاتشي لـ « غينتس » عن بناء المعبد والتعهد بتقديم الثياب إلى الجيش ، ثم زود السمسار بتعليمات معقدة لـ « تفجير وهدم البورصة » ، بدأ السمسار بتفجير البورصة عن طريق أموال وسندات كفاتشي ، وأنتهى ذلك الهجوم كسابقيه . ضاق جيب كفاتشي وتغضّن جبينه ، وتضاعفت أموال غيتس وعميله السري « هاينتشين » . لكن فرحة العمل الذي قام به غطى على ظل الخسارة ولم يبد كفاتشي خسارته في ذلك اليوم للآخرين .

« مجريات العشاء السري »

وفي تلك الليلة وفي الساعة الحادية عشرة اصطحب غريشكا راسبوتين كفاتشي ويلينا وتانيا إلى أمسية « أخيار الله » السرية .

ارتدى كل من غريشكا وكفاتشي قميصاً أبيض وتانيا ويلينا فستاناً أبيض واسعاً فضفاضاً طويلاً . هذا ماتتطلبه عادات وأعراف « الهراطقة » إذ يمثل اللون الأبيض محور تعاليمهم ويعتبر رمزاً لهم في الأخوة والطهارة . . .

اجتمع « طاقم سفينة الخليست (١) » في أطراف المدينة في بيت منخفض ، التقى مايقارب الستين من الرجال والنساء في صالة كبيرة ، كان بينهم الشباب والكهول، كلهم مرتدون اللباس الأبيض ، وفي الزاوية وقفت زمرة كفاتشي ممّن سُمح لهم بأمر من القائد حضور هذا العشاء السري .

في صدر القاعة كانت تتربع « أم الاله » ـ الأرملة لوختينا . كانت أيضاً مسربلة بالبياض مزينة بمختلف أشكال البهرجة وفوق شعرها المرسل كانت تتدلى جديلة أصيلة غريبة تحمل العبارة التالية :

« أملك كل أسباب القوة ، هليلويا » .

وكالعادة كانت « أم الاله » حافية القدمين . بدأ القداس . تلت أم الاله الصلاة ، ماان سمعت راسبوتين حتّى انطلقت نحوه مندفعة وهي تصيح :

ـ هوذا ابن الاله مقدسنا ، الرسول والمعلم ! سأقول لكم الحق : أنهضوا وانحنوا له ، فابن الاله جدير بالتمجيد والاحترام ! وأرتمت على قدميه، قبلّت يديه ورجليه وأطراف ثوبه الأبيض . أحاط الجميع براعي الكنيسة ، سقط بعضهم على قدميه وقبل البعض الآخر يديه وجسده .

---

(١) خليست : شرحت سابقاً وتعني مسيحي زائف .

احتضن غريشكا الجميع وقبلهم قبلات أخوية ، ثم مشوا مع أم الاله إلى المنضدة . بدأت أم الاله بترتيل الترانيم وآزرها الجميع ممجدين باسم الأب والروح القدس اللذين كانا ، حسب اعتقادهم ، متواجدين في القاعة آنذاك . غنوا الكثير من الأناشيد والترانيم الدينية ثم شرعوا يرددون « المسيح قام » . غنوا بايقاع منتظم وبحماس وابتهاج واتكال ثم أرتفعت وتيرة الغناء تدريجياً وغرقوا في موجة صوفية . بعد أن انتهوا من الغناء ، بدأ راعي الكنيسة ابن الاله موعظته .

وقف كفاتشي في احدى الزوايا وأصاخ بسمعه إلى غريشكا . أصبح كفاتشي يتمكن بشكل مامن فهم وتحليل حديث « المقدس » ، وأحياناً كان لايفقه شيئاً مما يقول نظراً لأن لغة راسبوتين الروسية كانت مزركشة بكثير من التعابير البسيطة المغرقة في العامية والمفردات السلافية القديمة .

ذكر غريشكا ابناء تلك الكنيسة أولاً بالوصايا الاثنتي عشرة التي تتضمنها تعاليمهم الخاصة :

« انا ابن الاله ، تجليت للناس كي أغفر لهم خطاياهم وليس من إله سواي »

— لاتتخلوا عنه بعد أن تيقنتم منه »

« التزموا الايمان ونفذوا تعاليم الرب »

« لاتشربوا المسكرات ، لاتقترفوا الاثم الجسدي ، لاتزنوا »

« لاتتزوجوا ! أيها المتزوجون أفسخوا زيجاتكم ! من لديه زوجة فليعش معها كأخ وأخت » ،

« لاتفحشوا بألسنتكم ، ولا تسرقوا فالسارق سيثبت في العالم الآخر على قطعة « خمسة كوبيكات » نحاسية ولن نغفر ذنوبه مالم تنصهر تلك القطعة » .

ثم شرح تلك الوصايا بلغة « مكسرّة» وعن طريق الايماءات وأكد على الوصية المتعلقة بالحياة الزوجية والعلاقة الجنسية :

ــ الروح طاهرة والجسد شرير ، لذا علينا أن نعذب ونضعف ونميت هذا الجسد الشرير . وهذا يتطلب المواظبة على الصيام والابتعاد عن أكل اللحوم وعن احتساء المسكرات والاقلاع عن التدخين وعن لعب الميسر وعدم الرقص وتجنب الزنى . الحياة الزوجية إثم لكن بعد هذه الصلاة سيمنحكم الروح القدس صديقة روحية .

العلاقة بين هذين الزوجين لاتعتبر إثماً أو زنى والعلاقات مع زوجات الآخرين لاتعتبر علاقة آثمة، فمثل ذلك الحب أشبه بهديل زوجين من الحمام .

أرواحنا خالدة أبدية ، كانت منذ القدم ، لكننا لانعرف في أي أجساد حيوانية استقرت وكم من الزمن استغرقت .

بعد وفاتنا ، وإذا كان الانسان قد قام بتنفيذ وصايا الرب بدأب ، تتحول روحه إلى ملاك ، أما إذا كان آثماً فتنتقل روحه إلى جسد حيوان تتفق طباعه مع طباع روحه أو يعود طفلاً روحه غير صافية بعد ريثما يعمد كما يجب .

الرب واحد ، لكنه هو وابنه المسيح يتجسدان في كثير من الأحيان في شخص قديس أو أكثر من بني البشر .

كان عيسى المسيح شخصاً قابلاً للموت مثلي . مات ودفن في القدس .

ثم ذكر غريشكا سيده الرب وبعض قديسيه والمسيح ورجال الدين والشهداء :

فيليبوف الذي ارتفع إلى السماء ، ايفان سوسلوف ، بروكوفي لوبكين ، أندريه بتروف ، تاتارينوفا ، أواكوم ، كوبيلوف ، كاتاسونوف وكثيرين آخرين ممن كرسوا أنفسهم للكنيسة الحقة المقدسة . أخيراً تذكر نفسه :

-- ذات مرة رأيت كيف انشقت السموات وجاء القدس كحمامة قادمة من السماء . جاء ووقف فوقي وسمعت صوتاً من السماء يقول : غريغوري ، أنت ابني الحبيب الذي خلقته رحيماً ، وفجأة اقتادني الروح القدس إلى الصحراء وبقيت هناك ستين يوماً واختبرني الشيطان وعاشرت الوحوش . كانت الملائكة تقوم بخدمتي وتغذيت هناك بالجراد والعسل البري .

ثم ذكر بعدئذ اغراءات الشيطان المهلكة للروح . النساء والشياطين الذين قدموا من أجل هلاك روح غريغوري وذكر مآثره ومعجزاته :

— قابلت في القفقاس الكثير من المجذوبين والمذنبين الذين استقر الشيطان في أرواحهم فقلت لاحدهم : أفتح فمك وأطرده! فسقط من روح المذنب . هتف عالياً وولى عنه .

وانتشرت في كل القرى والمدن الروسية حكاية طرد غريغوري للشيطان .

— وفي بلدة ساراتوف كانت إحدى الراهبات تشكو من الحمى فقيل لي أن أذهب إليها . مررت بيدي عليها فأبرأتها وغادرتها الحمى في الحال ، ثم نهضت وقامت بخدمتنا . وما ان غابت الشمس وحل الظلام حتى جاءني الكثير من المرضى المسكونين بالشياطين ، اجتمعت حولي كل المدن والنساء وأبرأت الجميع من عللهم وأمراضهم . ولم تستطيع الشياطين أن تقول لهم كلمة واحدة ، اذ كانوا يعرفون أنني أنا المسيح . وقلت لتلاميذي لقد زرنا هذه القرية ولنمض الآن إلى القرى والمدن المجاورة كي أعظ وأطرد الشيطان من المرضى ، إذ من أجل هذا ظهرت .

وعظتُ كل الجماهير في كل أنحاء روسيا طارداً الشيطان .

ثم لقن غريغوري تلامذته :

— ريثما يأتي يوم القيامة ويحل ملكوت الله توبوا وآمنوا بي . سأجعلكم أوسع صدراً وسأعمدكم بالروح القدس وأشفيكم من كل النوائب الشريرة وأطرد من نفوسكم الشيطان وأسحق الأرواح الخبيثة وسأغرس في أنفسكم — أيتها الامهات والأخوة والأخوات — السلام الأبدي والبهجة السماوية والفرح الرباني والحب الأخوي والحنان الأبوي.

وتطلع المعلم المقدس بعد فترة صمت قصيرة إلى تلامذته وقال :

— هاكم ، ياأمهاتي وياأخوتي وأخواتي من ينفذ مشيئتي إنما ينفذ مشيئة الرب المبتهج ، كما في السماء فان الاله والروح القدس معكم ياأمهاتي وياأخوتي وأخواتي . أحبوا بعضكم بعضاً ، ففي الجنة يتبادلون الهديل كالحمائم وأنا أصدقكم القول : ليس في الحب الأخوي والأسري

إثم أو فحش فلتبتعد الشياطين عنا والمجذومون والمرضى والأرواح المذنبة !

— فلتبتعد ! فلتبتعد ! — ردد المؤمنون وراءه بصوت واحد .

اشتعل الأب المقدس غريغوري حماسة ، ارتفع عالياً وطال السماء .

تذكر كفاتشي كفاتشا نتيرادزه — تلميذه وصديقه المخلص — تذكر ذلك اليوم حين وعظ غريغوري القيصر وصلى من أجله، تذكر أيضاً توبة غريغوري الصادقة . حدّق بامعانٍ في ذلك الانسان المحلق في السماء في قامته المتقدة حماسة في عينيه الناريتين ، تأمل صوته الراعد وفهم سر قوة « المقدس » الفريدة وتأثيره اللامحدود وقدرته الكلية .

تابع المقدس غريغوري حديثه بكلمات نارية :

— فلتتوثق بين أرواحنا وأجسادنا روابط الحب الالهي والنعيم السرمدي !

— آمين ! — دوّت القاعة من جديد .

— سنكون جسداً واحداً ، سنهلل ونبتهج ونغني ! سنمجد سيدنا الرب ! — وأنهى موعظته بغناء هليلويا ! . .

ووقف المؤمنون ، أمسكوا بأيادي بعضهم البعض وغنوا جوقة واحدة ، ورقصوا رقصات أخوية .

وكالملائكة وجنيات البحر غنوا بصوت عذب سماوي وبقلب حمائمي ونفس مقدسة :

— هليلويا ! هلي — لو — يا !

كان ابن الاله يمسك بيد « يلينا » وبأم الرب لوختينا باليد الأخرى ،

وكانت تانيا تقف على يسار كفاتشي وعلى يمينه امرأة شقراء منفوشة الشعر . واختار كل من رفاق كفاتشي امرأة متينة البنيان وانضموا إلى كامل الجوقة .

تحركت الجوقة في البداية متلاحمة متشابكة ببطء وبشكل متدرج وغنوا بتوافق ونبرة منسجمة ، ثم ازدادت حماستهم تدريجياً وتأججوا أكثر فأكثر . في وسط الجوقة كان ثمة عدد من الرجال والنساء يرقصون دائرين في أماكنهم على ايقاع الغناء .

ثم انتقلوا من رقصة « الحلقة » إلى رقصة « الجدار » وبعدئذ انقسموا إلى عدة مجموعات مسرعين في وتيرة الرقص رافعين أصواتهم ثم حلّوا « الجدار » وشكلوا مايشبه « السفينة » . تحركوا الواحد تلو الآخر كطيور اللقلق . ازدادوا حماساً واشتعالاً وأسرعوا في خطاهم وبعد أن تعبوا تماماً انتظموا على شكل صليب وراحوا يرقصون وقد ازدادوا حرارة وإثارة .

أخيراً صرخ غريشكا :

ـــ لفوا ودوروا . افرحوا . . افرحوا !

فكوا أياديهم ودار كل منهم حول نفسه كالدوامة . احمرت وجوه المؤمنين والمؤمنات ، واشتعلت حرارة . ونفشت شعورهم وتشعثت ، تضببوا عرقاً . داخت رؤوسهم وفقدوا رشدهم ، لكن مع ذلك تابعوا دورانهم كالزوبعة . تمايلت الرؤوس والأيدي والأرجل دون وعي ، وبدلاً من الغناء كانت حناجرهم تصدر حشرجة وهم يثرثرون بكلام مبهم بشكل متقطع متلفظين بكلمات غريبة .

وصل الجميع لدرجة الخدر وسقطوا في غيبوبة . انهار أحدهم في البداية كشجرة قطعت من جذورها ، ثم تبعه ثان وثالث . . وسادس وعاشر . . في كل دقيقة كان يسمع صوت السقوط وتغطت أرض الصالة بالفساتين والقمصان البيضاء . كان الصامدون منهم مازالوا يتحملون تلك الدوامة المجنونة ، لكنهم بدؤا يترنحون وبدأت حناجرهم تصدر حشرجة وفحيحاً بدلاً من الغناء . وكان الساقطون طرحى كالأموات في الأكفان يبربرون بكلمات غريبة مبهمة . كان يسمع من هنا وهناك هذيان و تمتمة وصرخات وهمس وغمغمة ضعيفة واهنة .

.. معكم ابن الاله !

يارجال ونساء الله أفرحوا واغتبطوا !

— أنا الروح القدس أيها الأخوة والأخوات .

أنا حمامة سماوية أم الاله — تمتمت أم الاله لوختينا — جئت فاتكلوا علي ياأخوتي الأحبة . لدي كل القوة والحب اللامحدود ومن أجل هذا ظهرت . .

هليلويا ! . . هليلويا ! . . هليلويا ! أيها الأب المقدس أنا مريضة بالحمى ، جئت إليك فامسحني بيديك واشفني من المرض الخبيث ..

— أرى المستلقين في السماء والروح القدس يطوف كالحمامة فوقنا ، أرحمنا أيها الرب ! آن وقت حلول ملكوت السموات . أنصاعوا أيها الآباء والأخوة وآمنوا بي .

— ياعيسى المسيح ! تعال إلي أنت ياأخي وثبّت في نفسي الحب الأخوي والحنان السماوي والغبطة السرمدية والراحة الآخروية . تعال

يا أخ تعال إليّ ! – تمتمت تانيا مادة ذراعيها باتجاه كفاتشي . لم يقرر كفاتشي السقوط بعد . تحرك مترنحاً نحو اليسار حيث تستلقي تلك الشقراء التي يلاحقها منذ فترة على ظهرها .

غمز كفاتشي سيدراك الذي وقع حالاً بالقرب من تانيا . فجأة أطفأت العاصفة المصباح وسقط كفاتشي فوراً في مكانه المحدد . .

وخيمت ظلمة دامسة ورأى الأخوة والأخوات الآباء والامهات السماوات فاتحة أبوابها والروح القدس يطوف فوقهم كحمامة السلام .

وخيم على القاعة حب أخوي وحنان سماوي ومرح أبوي وراحة أهل الجنة .

وقبل أن تضاء السماء وتشق الشمس ملأ الاسماع هديل الحمائم وصداح حوريات البحر والملائكة، زمجرة وفحيح الوحوش عواء وزعيق القردة ، هرير وتأوهات الشياطين والأرواح الشريرة المطرودة من الجحيم جائعة مريضة إلى أبد الآبدين .

في تلك الليلة دخل الأخوة والأخوات الغرف وبدّل الأخوة الأخوات ووجدت الأخوات أخوة جدداً وتذوقن حباً جديداً .

هكذا أنتهت أمسية « عباد الله » السرية .

اجتمعوا مرة أخرى واختاروا من جديد « غريشكا راسبوتين » ابناً للاله والأرملة لوختينا أماً له وأثني عشر رجلاً وأمرأة كرسل قديسين كان بينهم كفاتشي ويلينا وتانيا وعدد من رجال البلاط والحاشية.

ثم مضى الجميع إلى المحطة وهم يغنون حاملين الأيقونات مودعين ابن الاله غريغوري المتوجه إلى المدينة المقدسة « القدس » بغية الاعتراف وغفران ذنوبه الشخصية وذنوب أخوته وأخواته وأمهاته .

وفي الطريق أنضم إلى هؤلاء المصلين المقدسين الكثير من المتعاطفين والباحثين اللاحقين والتلاميذ الذين ترنموا بأغانٍ دينية وسروا لانقاذ روح ابن الاله في القريب العاجل وزرفوا الدموع اذ حانت ساعة الفراق .

وفي المحطة سمعت التأوهات والتنهدات وعلا الانين والصراخ وكثر لطم الخدود ونتف الشعر وأنهالت القبلات التي لاحصر لها .

كانت وجنات التلاميذ وعيونهم ذابلة كحفرات ناضبة من المياه . وزعقت السيارات بقوة ورهبة .

وابتلعت السيارات الشيطانية ابن الاله ، الرسول المقدس راعي الكنيسة البطرك والحاكم المطلق لكل روسيا — غريشكا راسبوتين .

وانتشر تلامذته ليبشروا بالتعاليم المقدسة مكررين العشاءات السرية ، ممجدين ابن الاله .

آمين !

* * *

القسم الرابع

كيف غرب عش الرفاقية

بعد أن سافر راسبوتين إلى القدس أحس كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وأصدقاؤه بأنهم تيتموا فعلاً .

بدا كفاتشي وكأنه فقد سنداً وأساساً متينين ، أو كأن يده اليمنى قد بترت أو نبعاً منعشاً له قد نضب . غدا كسمكة أخرجت من الماء ، أو كنسر جناحاه من قش ، أو كطفل هجرته أمه وتركته للقدر . أحس باليتم وسأل نفسه :

ـ آه ، ماذا حلّ بي ؟ لدي الكثير من المال . معارفي والناس الذين أعتمد عليهم كثر أيضاً ، غريشكا لم يكن يعيلني ! إذا أفاق أعدائي وحاولوا مزاحمتي فالقيصر والقيصرة موجودان بالإضافة للآلاف من رجال البلاط والحاشية الذين سعوا بالأمس لخلق البسمة على شفتي ولكسب رضائي .

هدأ كفاتشي نفسه بمثل هذه الأفكار ، لكن الخوف غير المرئي والضيق الداخلي لم يختفيا .

لم يجد في البيت بعد عودته من المحطة أحداً سوى العميل « هاينشتين » :

ـ كيف الأحوال ؟

ـ سيئة ، سيئة جداً . مازالت المصارف تطلب إيداع الأموال وتغذية الحساب الجاري لديها وتهدد ببيع أسهمنا وإذا ماأغرقوا البورصة بهكذا بكمية من الأسهم ستتدهور قيمتها مما سيضطرنا غداً لتغذية الحساب الجاري من جديد .

ـ بيعوا أسهم « أنجلوروس » وأودعوا قيمتها في المصرف . ليس ثمة من حل آخر .

ـ ستكون النتيجة واحدة ، سترتفع قيمة الأسهم .

ـ إذاً ، ماالعمل ؟ أين سأجد مثل هذه الكمية من النقود ؟ .

ـ ضم مالديك إلى أسهم غانوس أو غينتس .

أمضى كفاتشي وهاينشتين اليوم بكامله في الجري بين المصارف والبورصة والناس حاملي الأموال ، لكنهما كانا يرتطمان في كل مكان بجدار خفي لايمكن تخطيه . أخيراً تبع كفاتشي ، الذي تعب من التخبط في المصائد ، عميله هانيشتين الذي قاده في الطريق الذي حدده غينتس . رهن بعض الأسهم وباع بعضها وفك رهان البعض الآخر وأشترى بعضها . لكنه مع ذلك لم يتمكن من تحقيق شيء . استمر في الغرق ولم يستطع الخروج من ذلك المستنقع إلى ضفة الأمان .

في اليوم التالي أرتفعت قيمة الأسهم المباعة وانخفضت الأسهم المشتراة . تتالت الأيام وتتالت الخسائر وازداد كفاتشي تخبطاً في الشباك الخفية التي كانت ستقوده في نهاية الأمر إلى إفلاس نخلي . صار في الآونة الأخيرة يسمع أكثر فأكثر العبارات التالية

ـ سدد الفروق . . أودع . . أُدفع . .

وتخبط كفاتشي عبثاً وبلا هدف في شباك الافلاس وكرر كالببغاء :

ـ بيعوا . . أودعوا . . أشتروا . . فكوا الرهان . . ادفعوا . . اسحبوا !

أخيراً فتح عينيه . رأى وأدرك كل شيء ، فهم وزأر :

ـ أنقذوني ، أنا أهلك ، النجدة !

لكن فات الأوان . بدلاً من المساعدة كانوا يلتفون حوله ويضغطون عليه .

اتجه كفاتشي في البداية نحو يلينا ثم تانيا ، لكن بعدما حصل في « أركاديا » من الفضيحة العلنية وبعد سفر المقدس غريغوري إلى القدس غادرتا خارج البلاد وتركتا لكفاتشي رسالة قصيرة :

« صديقنا العزيز ! بعدما حصل في أركاديا أصبح بقاؤنا هنا محالاً . سنسافر مؤقتاً إلى أوروبا ونحن ننصحك بالهجرة من هنا . لم نختر بعد مدناً لنستقر فيها . إلى اللقاء ! كان الله في عونك . . مع أننا نحن الاثنتين لدينا ماتقوله لك،ألا اننا نؤجل ذلك لوقت آخر . صديقتاك تانيا ويلينا » .

ثم صب عليه غينتس وغانوس ماء بارداً . اهتز كفاتشي عدة مرات في الشباك خبط بيديه ورجليه،ثم ترك البورصة بهدوء وبشكل نهائي .

تقاسم غينتس وعملاؤهما فيما بينهم كفاتشي الصيرفي ومالك الأسهم ورجل البورصة .

جلس الأبن الوحيد لسليبيسترو وحيداً متجهماً . راح يضرب رأسه ويفكر :

« تقاسموا ملابسي واقترعوا على قميصي » .

جاء أصدقاء كفاتشي في نفس اليوم :

— سيدراك ساعدني !

— نعم ؟ أفلست ؟ هل تنفعك مائة روبل ؟

— انصرف من هنا !

— قذفت بالملايين في الماء،وكيف يتمكن سيدراك من مساعدتك حالياً ؟ — أجابه تشخوبيشفيلي معنفاً .

تدخل أيضاً تشيكينجيلادزه :

— هذا مايحدث حين لايثق الصديق بأصدقائه ! قل لنا ماذا عسانا أن نفعل الآن .

— لقد تعقدت الأمور — قال بيسو بهدوء وفتح الصحف أمام عيني كفاتشي :

هيا اقرأ !

جلسوا وقرؤا .

أبرقت صحيفة « القضية الروسية » وأرعدت حول مسألة بناء المعبد الارثوذكسي مشيرة إلى أن العمل أوكل إلى أحد القفقاسيين البدائيين « ك » الذي سلمه بدوره إلى أحد اليهود .

وأكدت صحيفة أخرى بأن « ك » كفاتشا نتيرادزه « دخل القصر

بهوية مزوره ، وأن لقب النبالة الذي كان يحمله مشكوك فيه ، أما الامارة فقد طلبها من القيصر هو و « أحد المقدسين الشيوخ » « بحيلة ماكرة » .

وأعلنت صحيفة ثالثة نبأ إفلاس كفاتشي وأعطت نبذة عن سيرة حياته . ثم أضافت مهددة :

— سننشر خلال أيام سيرة حياته كاملة ، اسم ذلك الشاب واسم عائلته والمغامرات التي قام بها .

اغتاط كفاتشي ، شحب وجهه وخاب أمله . مزّق تلك الصحف إرباً إرباً ، ثم سقط على الأريكة وراح يتأوه ويئن :

— طبعاً . . كل شيء . . احترق كل شيء واندثر !

صمت الجميع طويلاً . انطرح كفاتشي خائر القوى مغمضاً عينيه ، فاركاً جبينه الشاحب ، ثم قفز فجأة وانتصب وقدحت عيناه شرراً ، وغدا صوته حديدياً فولاذياً :

— آه ، هذا ليس صحيحاً ! لن يهلك كفاتشي كفاتشا نتيرادزه هكذا بسهولة ياسيدراك !

— ماذا ؟

— اذهب حالاً وهيىء عشرات جوزات السفر الأجنبية ، وليكن أحد هذه الجوازات بأسم الأمير « باغراتيوني — مهرانسكي » ، وآخر بأسم الأمير الأفغاني — ولي العهد وبقية الجوازات المرافقين له . أختر بنفسك أسماءهم واسماء عائلاتهم . وليكن كل شيء جاهزاً صباح الغد فهمت ؟

– ماذا ؟ فهمت طبعاً !

– هيا ، تصرف ! وأنتم تشيبي ، لادي ، جليل ، غابو ، اذهبوا حالاً إلى هيئات تحرير تلك الصحف وأرغموا كلا منهم على الصمت ، بالوعيد أو بالمال . قولوا لهم هاجر الرجل وغادر إلى فلسطين بصحبة راسبوتين . قل لهم أن يدّعوني وشأني ، أن يصمتوا وإذا لم تلزموا الصمت وتكفوا عن « خمشه » سيعود ولن يلقى أحد منكم مايسره .

خذوا معكم ثلاثة رجال أشداء ، وعند اللزوم كسّروا كل شيء وأضربوا حتى تكلوا . حسناً ، هيا أنصرفوا ! فهمتم كل شيء ؟

– وآه ، وهل ثمة أسهل من هذا ؟ اطلب هذا مني فقط ، فالعراك هو عمل تشخوبيشفيلي (١) .

– بيسو ، هيا تحرك ! جد أحد الأثرياء وبع كل شيء . ماذا قلت ؟ كل هذا تعود ملكيته لتانيا ؟ أعلم ، لكن هل ثمة وقت للحديث عن تانيا فأنا أكاد أحترق ! أجل بع الاثاث والأحصنة والسيارة ، بع كل شيء وتهيأ لسفر طويل . . لاتخبر أحداً عن هذه الرحلة . هيا تحركوا ، وأنا ذاهب أيضاً لشأن بسيط . . جليل أسرع وألبسني ثيابي ! نادِ « بيرلي » .

– هيا تحركوا بسرعة !

قصد كفاتشي أحد الوزراء :

– لاوقت لسعادته .

---

(١) العراك باللغة الجورجية يعني « تشيخوبي » ثمة تلاعب لفظي بين تشخوبي وتشخوبيشفيلي .

أسرع كفاتشي إلى وزير آخر :

— سيادته ليس في البيت .

قصد كفاتشي رئيس الأساقفة :

— غبطته مريض .

مضى أيضاً إلى خمسة من رجال حاشية البلاط ، لكن أبوابهم ظلت مغلقة في وجهه ، أدروا له ظهورهم ونسوا إحسانه .

— حسناً ! — صرخ كفاتشي غضباً — طالما أنكم قطعتم كل الطرق علي وأغلقتم في وجهي كل الأبواب ، سأدفع الباب الأخير وإذا صدم أنف أحد منكم فلا يلومنني .

وذهب في نفس اليوم إلى زوجة غانوس وقال لها :

— اسمعيني ياجميلتي ! لقد قرر أعدائي دفني وللأسف زوجك شريك في هذا العمل القذر . أنا رجل طيب وشريف ، ولن أنزل إلى قبري باختياري . الطرق كلها مقطوعة أمامي ، وغدوت أنت أملي الوحيد . عليك أن تساعديني وإلا . . وإلا سأذهب إلى زوجك وأقدم له رسائلك — هذه الرسائل . . لاتقلقي ، أهدئي واسمعيني :

لقد كسب زوجك بمساعدتي سعة خمس عربات من الذهب والآن جاء دوري . أنا بحاجة للمساعدة . ماذا قلت ؟ كيف ستساعدينني؟ يجب أن تقرضيني أموالاً . . . ماذا قلت ؟ أي مبلغ تستطيعين تأمينه ؟ أبحثي هنا وهناك وستجدين . لديك أملاك خاصة وزوجك أيضاً يحتفظ بكمية من الأموال للتداول ، وان شئت تستطيعين ترميم المبلغ الناقص من جيب زوجك . . لاتريدين استكمال المبلغ من أموال زوجك ؟

هذا شأنك . أعطني حقي واتفقي مع زوجك العجوز كيفما تشائين .
حسناً هل أعود إليك غداً ؟ جيد جداً ، إذاً إلى الغد !

وفي نفس الوقت ذهب رفاق كفاتشي بقيادة غابو تشخوبيشغيلي إلى هيئات تحرير الصحف فدفعوا لاحداها ألف روبل لقاء إعلان عن اقامة « بازار » في « تساريفو كوكشا يسكي » ، وفيما يخص ماورد في عدد الأمس أرغموا على نشر إيضاح وتصحيح مفاده أن المعني بـ (ك . ك ـ دزه « هو » كوستانتين كوموتشادزه » طبعاً والشخصية مزعومة .

ثم أرضوا هيئة تحرير الصحيفة الثانية . أما رئيس هيئة تحرير الصحيفة الثالثة فقد أظهر عناده وممانعته .

ـ إذاً سمّ شهودك في المبارزة !

ـ ماذا ؟ مبارزة ؟ هيمْ ! هذا عمل المتوحشين !

ـ في هذه الحال تصبح المسؤولية على عاتقكم فيما لوسالت الدماء .

وأشهر الرفاق مسدساتهم . لان رئيس التحرير والموظفون لديه في الحال :

ـ ماالقضية ؟ ماذا حصل حتّى اندلعتم كالبارود ؟

ـ عجيب أمركم ، فوراً أشهرتم السلاح !

ـ من أجل ملاحظة بسيطة ؟ ها ! ماالمطلوب ؟ طباعة ملاحظة بسيطة أخرى.. ؟

ها ! ستستهلك أكثر من عشرين سطراً .

ـ حسناً ، سنكتبها وننتهي .

كتبوها وانتهوا تبادلوا الابتسامات ، أرضوهم ، ربتوا على أكتاف بعضهم البعض ثم افترقوا .

بعد ثلاثة أيام سوّى كفاتشي كل الأمور وركب قطار وارسو .

« كيف استقبلوا الأمير ، وكيف اصيب كفاتشي بالبكم »

كان القائد متدثراً برداء آسيوي باهظ الثمن ، وقد لف رأسه بعمامة ثمينة . وكانت حاشيته تحتل المقصورة المجاورة ، وهؤلاء أيضاً كانوا يرتدون زياً غريباً .

كان كفاتشي يضع في جيبه جواز سفر باسم الأمير الافغاني رابيبول عبد الرحمن شيخ علي ، وفي محفظته خمسة جوازات سفر أخرى باسم أحد الأمراء وباسم أحد البارونات وباسم أمراء من مختلف الجنسيات . « من يدري أي جواز قد يحتاج إليه » . أيضاً كان أصدقاء كفاتشي يملكون مثل هذه الجوازات الجاهزة ، وقد أشير في أسفل كل منها إلى الدرجة والصفة ـ ياور ، سكرتير ، خدم ، كما هي العادة في تصنيف المقربين من الرجل العظيم .

بعد أن تعرف الجابي على شخصية كفاتشي وعلم بأنه أمير نقل الخبر إلى الجنـــدرما (الشرطة) التي أبرقت إلى وارسو مخبرة الجنرال المحافظ عن رحلة الأمير .

حين وصلوا إلى محطة وارسو ، دخل العربة ضابط بهي الطلعة وسأل تشيبي تشيبونتيرادزه باحترام :

ـ أأنتم سكرتير سمو الأمير الأفغاني ؟ أخبروا فخامة الامير ان الياور ـ جنرال محافظ وارسو يرغب برؤيته .

طار تشيبي المذعور إلى المقصورة :

ـ هلكنا ! . . أمسكوا بنا ! . . . عرفونا !

لم يخف كفاتشي ، بل قطّب جبينه ، فكر ثم قال بهدوء :

ـ لاتجنوا ! أنتم تدرون أنني لاأعرف اللغة الروسية . سيدراك أنت سكرتيري ومترجمي . وأنت يابيسو طبيبي . كونوا شجعاناً . يحدث هنا شيء ما . كونوا حذرين لاتظهروا بغتة معرفتكم للغة الجورجية ، تحدثوا بشيفرتنا الخاصة . حسناً دعه يتفضل ـ واستلقى على الأريكة مدخناً نرجيلة كهرمائية .

حيّاه « الياور » ببراعة قائلاً :

ـ لي الشرف أن أخبركم ان فخامته ، الجنرال محافظ وارسو يرحب بكم ويرجو أن تشرفوه بقدومكم إلى الغداء .

تنفس الجميع الصعداء. نقل سيدراك رجاء « الياور » وترحيبه بالشيفرة :

ـ ويتسا بوتسينيلتسا ، تيسيبيسي برتشيغليسيشا تسيوتسي .

وضجت العربة بالحديث بشيفرة بسيطة « تسي » و « تسا ـ تسا ». ابتسم كفاتشي ابتسامة خفيفة ، ثم قال :

ـ لقد قلت لكم أن شيئاً ما يحصل هنا ! اشكره وقل له أن الطبيب قد منعني من الخروج من العربة نظراً لمرضي .

ترجم سيدراك وأكد بيسو . أبدى « الياور » أسفه لمرض ولي عهد الأمير وأخبرهم ان موظفين كباراً ينتظرون سموه على رصيف المحطة .

-- دعهم يتفضلون !

دخلوا كذكور الازو الواحد تلو الآخر : المحافظ وقائد الشرطة ورئيس البلدة وكثيرون آخرون ممن يسعون وراء المكافآت . وقفوا أمام كفاتشي بعد أن انحنوا وابتسموا له مهنئين بالسلامة من الرحلة الميمونة . سأل كل منهم الآخر عن الصحةوالأحوال . تبادلوا النظرات والابتسامات والسؤال عن الاخبار ، وهم ينحنون أمامه .

شمل كفاتشي الجميع بعطفه ، وزّع عليهم ابتساماته الحارة ومساعدته ورعايته الواضحة دون كلام ، وأمر سكرتيره أن يكتب أسماءهم وأوسمة هؤلاء الموظفين،وكانت هذه لفتة واضحة أنه حين سيعود الأمير إلى بلده من سفرته إلى الخارج ، لابد سيغرق على الأسماء الواردة في اللائحة بالأوسمة الأفغانية ، ثم انحنوا مبتسمين وخرجوا كذكور الاوز من العربة واستغرق الأمير الافغاني وحاشيته في الضحك .

— ماالسر ؟ كيف عرفوا برحلتي هذه ؟ — تساءل كفاتشي .

— ماذا ؟ لقد قال الجابي لـ « تشيبي » » : شرفتمونا . لعله قال لصديقه ، وصديقه قال لآخر ثم أبرقوا إلى الخط بكامله .

— ها ، هذا خطر جداً،ربما وضعوا أرجلهم بين أرجلنا وأنزلقنا ، يجب ألا نترك أثراً وإلا . . .

انتقلوا إلى قطار كراكوف قاصدين النمسا .

حين اقتربوا من « كراكوف » جمعت الشرطة جوازات السفر للتدقيق فيها واعطاء تأشيرة الخروج .

في المحطة الحدودية وقبل مغادرة القطار ، دخل شرطيان إلى العربة ، لاحظ كفاتشي وهو يقف بباب المقصورة ان الشرطيين يسألان المسافرين عن اسمائهم ثم يخرجان من الرزمة الجواز ويسلمانه إلى صاحبه . أخيراً دخلا مقصورة كفاتشي :

— ماأسمك واسم عائلتك ؟

صعق كفاتشي وتصبب عرقاً بارداً . ارتبك شحب حمرّ ودبتّ الرعشة في جسمه . لقد تذكر كيف أخرج بيسو أول جواز وقع تحت يده من جوازات كفاتشي الستة وقلمه للشرطي دون أن ينظر فيه .

— اسم عائلتي ؟ — لمعت الفكرة في رأسه — أنّى لي أن أعرف أي جواز سفر قدّم ؟ أأجيب باللغة التترية ؟ أم لعله قدم جواز السفر باسم البارون « تيرنغاوزن » ؟ أأجيبه بالجورجية ؟ ولعل في يد الشرطي جواز سفر الأمير « ترويتسكي » !

— اسمك واسم عائلتك ؟ سأله الشرطي للمرة الثانية .

تعرّق كفاتشي ورف بعينيه بلا معنى ونظر إلى الباب منتظراً قدوم بيسو . نظر إليه الشرطي بريبة :

— أقول لك ماأسمك وماأسم عائلتك ؟ ماالأمر ؟ ماذا بك ؟ هل خرست ؟

« ماذا قال : خرست ؟ طبعاً ، خرست فعلاً لقد خمن هذا الشرطي وأحسن التقدير : كفاتشي أبكم ، أبكم منذ الولادة ! » .

وهدأ روعه ، ابتسم وهمهم :

ـ و . . و . . و . . ما . . م. . م. . م. . . مي ـ هزّ كفاتشي مبتسماً مدعياً البكم ، أشار إلى فمه بيده وتقدم نحو جوازات السفر . ابتسم الشرطيان أيضاً .

ـ يبدو أنه أخرس فعلاً ـ قال أحدهما وقدم إليه رزمة الجوازات ـ هيا أبحث عنه بنفسك .

فتش كفاتشي في رزمة الجوازات .

« أخيراً والحمد لله ! » قال كفاتشي لنفسه وقدم للشرطيين جواز سفره كأنه يقول : هوذا جواز سفري .

ـ الأمير هرقل غيورغيفتش باغراتيوني ـ مهرانسكي ! قرأ الشرطي بصوت عال ماجاء في الجواز وابتسم، ثم ذاب لطفاً وليونة . أثناء ذلك دخل سيدراك وبيسو المقصورة .

ـ سيوقع بي هذان الملعونان ! فكر كفاتشي بذلك ثم اندفع نحوهما . دس إليهما جواز سفره وراح يخبط برجليه ويلوح بيديه كالأخرس مهمهماً :

ـ و . . و . . م ، م . . و . . ما ، و . . و . . مووو . . .

جحظ الاثنان أعينهما وفغرا فميهما .

ـ واه لقد أصيب بالخرس ! قال سيدراك مستغرباً .

هز كفاتشي المسرور رأسه بقوة حتى كاد أن يقطع شرايين رقبته وكأنه يقول : نعم ، نعم ، هاقد خرست !

غمز سيدراك بيسو :

ــ أجل لقد خرس !

ــ مسكين هذا الأمير ــ قال أحد الشرطيين معقباً ــ شاب فتي جميل وأخرس ؟ وماهو أصل هذا ــ أضاف الشرطي الثاني ــ باغرا .. تيون مهـ . . رانسكي ، هرقل غيور . . غي . . فيتش !

ــ أجل ، أجل ــ قال شيكيا مؤكداً ــ هو أبكم منذ الولادة ولهذا نصطحبه إلى طبيب مشهور في فيينا .

أعطى الشرطيان جوازات السفر إلى سيدراك وبيسو ثم خرجا ، أغلق كفاتشي ورفاقه الباب فوراً .

ــ ماالخبر ؟ ماذا حصل ؟

فليذهب بيسو إلى الشيطان ، هذا ماحصل !

وقص عليهما الحكاية .

ــ ها ــ ها ، أوه ! قهقه سيدراك وبيسو .

ــ لماذا تضحكان أيها التعيسان ؟ ــ قال كفاتشي مغتاظاً ــ كدتُ أهلك أنا السيء الطالع !

ثم صار يتذكر قصة بكمه فيضحك ويمرح .

وبعد أن اجتازوا الحدود ، قفزوا كالعجول وصهلوا كالخيول .

« كيف ادعى كفاتشي الخبل في فيينا وكيف وصلوا إلى عاصمة العالم »

بعد ساعة دخل صاحب الفندق والمدير الاداري ورئيس الخدم ليقابلوا ويزوروا الأمير العظيم « باغراتيوني » وليعربوا له عن احترامهم .

ثم جاء أيضاً اليهودي الروسي الشهير والمتواجد حتماً في كل مكان :

ــ أحيي الأمير . . أنا دليل سياحي ، أعيش في فيينا منذ عشرين عاماً . . سأريكم كل شيء . . سيكلفكم هذا عشرة كرونات في اليوم .

خرجوا وتفرجوا على المدينة .

طافوا خمسة أيام . اقتادهم الدليل باتجاه الآثار والتماثيل التاريخية والفنية .

أراد أن يدلهم ويريهم المتحف والجامعة ومعبد سان ستيفان ومسرح غوفبورغ والبورصة وأكاديمية الفنون ومبنى البلدية والقصر وآلاف الأماكن الجديرة بالمشاهدة . لكن كفاتشي تعب وكاد أن يهلك من مشاهدة متحف واحد مما دفعه للاحتجاج بوجع الرأس واجل كل شيء ماعدا « رانغشتراس » و « براتير » حيث كان يمضي نهاره وليله ، الشوارع الضخمة والمعارض والحدائق والساحات والغابة الانجليزية وأحواض تربية الأسماك ، وحديقة الحيوان والمطاعم المتنوعة والمقاهي وأقبية الخمرة والعروض الشعبية الهزلية ومسرح الدمى (العرائس) والأراجيح ومختلف أماكن اللهو التي لاحصر لها ، كلها كانت دائماً ملآى بالناس والنساء ، نساء فيينا المجيدات وكأنهن كلهن مختارات : طويلات ، ممتلئات الجسم باعتدال ، بهيّات ، جميلات القد ، بيض محمرات البشرة قليلاً من لفح أشعة الشمس ، أصيلات ، ذهبيات الشعر ، فيروزيات العيون .

هذه السوسنات الحية عرقلت طريق كفاتشي وأرّقته ، أفقدته شهيته للطعام ، غيرت خططه وأثارت روحه وقلبه حتّى أنه نسي عدة

مقالب كانت مرسومة بحذاقة وأجلّها على أمل أنه سيصل قريباً إلى باريس حيث سينفذها هناك .

خلال تلك الأيام القليلة ثمل كفاتشي وخارت قواه ، ذاب جراء الحب العنيف ، القوي ذي الشعلة البيضاء .

وبالمقابل أظهر كفاتشي لتلك النساء البيضاوات ومنحهن فرصة تذوق حرارة دم البحر الأسود وتوقد الشاب الشرقي وخشونة شواربه والشوق في عيون الباشق وغتامة العروق الجورجية التي زادتها الشمس والزمن صلابة وقوة .

وتمكن سيدراك وبيسو بصعوبة بالغة من انتزاع كفاتشيكو من شباك الحوريات البيض وسرّقوه إلى باريس .

طار قطار الشرق السريع كالزوبعة بمحاذاة مياه الدانوب « سالسغا » .

ـ كفاتشي وصلنا إلى سالسبورغ « لقد اثنوا عليها في كتاب « بيديكير » كمدينة تاريخية قديمة فلنغادر القطار ولنتفرج عليها .

ـ آه ، أشعر بالكسل وليس لدي دافع لرؤية القديم ، إذ يذكر بالأموات .

ـ كفاتشي ! لقد وصلنا إلى « ميونيخ » وهي عاصمة مقاطعة « بافاريا » مدينة نظيفة وجميلة بمثابة متحف عالمي للبناء والفن. فيها الكثير مما يستحق المشاهدة : النقش على المعادن والأروقة الأغريقية المحاطة بالأعمدة ومسرح « فاغنر » و « أوديون » .

ـ والبيرة « الميونخية » رائعة ، البيرة السوداء ، هيا يابيسو أحضر عشرين زجاجة بسرعة وسندع كل ماهو قديم للشياطين !

— كفاتشي اوصلنا إلى « ستراسبورغ » أنظر إلى ذاك المعبد إن له شهرة عالمية .

— أخ ، هذا لايستحق أن أنهض من مكاني ! — ويستمر في تقليب صفحات « ألبومات » الصور العارية التي اشتراها من فييناوميونيخ.

في العاشرة مساء قال بيسو لكفاتشي :

— بعد نصف ساعة تماماً سنصل إلى باريس . انظر اقد لاحت من بعيد .

قفز كفاتشي كالملسوع واندفع نحو النافذة .

في البعيد وعبر الظلام والمسافات النائية كانت تبدو قبة السماء موشاة باللون الأحمر وكأن الأرض قد اشتعلت وبان انعكاس ذلك الحريق في السماء .

والطائر الحديدي المشتعل حماساً لايهدأ، بل يطير نحو هذا الحريق ضاجاً ، صافراً . أخيراً اقتحم المدينة ، جرى فيها طويلاً إلى أن حط في المحطة لاهثاً ، آناً .

وفي الحال ظهر اليهودي الأوديسي المتواجد في كل مكان .

— منذ عشرين عاماً وأنا أحيا هنا في باريس ، درست وخبرت كل شيء كما أعرف أصابعي الخمسة ، أتقن تسع لغات ، عشرون فرنكاً في اليوم بالاضافة للطعام .

نظر كفاتشي إلى ذلك اليهودي .

— اسحق ابراميتش ! . . اسحق ايدلسون !

حدق اليهودي في وجه كفاتشي عند ذكر هذا الاسم ثم تهلل وجهه وهتف :

— نابليون أبولونوفيتش أهذا أنتم ؟ ياإلهي العظيم !

— ماذا تفعلون هنا ياإسحق إبراميتش ؟

— ايه ، سأقص عليكم فيما بعد . لقد أفقرتُ ، أفقرتُ يانابليون أبولونوفيتش . سأقص عليكم فيما بعد .

— و « ريفيكا » ؟ كيف حال ريفيكا ؟

— لابأس ، لابأس لكن . . سأقص عليكم فيما بعد،سأقص كل كل شيء،أما الآن فتعال ورائي .

جلس الأربعة في السيارة ومضوا إلى أفضل فندق عبر شارع ستراسبورغ . سارت السيارة ببطء في الشوارع المشجرة بأمر من كفاتشي .

— لقد اجتزنا حديقة عامة كبيرة — شرح اسحق أيدلسون معرفاً بمدينة العالم « باريس ».هذه جادة سان — ديني . . وهاك « بون نوا » . . بواسونيير وهذا مونمارتر الشهير . . لقد دخلنا الآن شارع الطليان . . وهذا هو معبد « مادلين » الشهير . .

استمع كفاتشي إلى الهذيان المتدفق على لسان اسحق المليء بالكلمات المعروفة وغير المعروفة . لم يدرك شيئاً من حديث الدليل إذ غطى تأثره في لحظة واحدة على تفكيره ككل .

وفي لحظة غاص كفاتشي ورفاقه في قلب عاصمة الدنيا.. احتاروا وارتبكوا وتبلدوا . على جانبي تلك الجادات الواسعة كان يرتفع جداران من الأبنية ذات الأدوار السبعة أو الثمانية المضاءة .

وعبر هذا المجرى كان ينساب نهران من البشر جيئة وذهاباً ، وكان من الصعب العبور من رصيف إلى آخر ، إذ كان الشارع يغص بالمركبات المكشوفة والمغطاة ، وبالباصات ذات الطبقتين وبالترامات والسيارات ومختلف أنواع عربات الخيل . وفي تقاطع الطرق كان يقف رجال الشرطة ، يوجهون السير بعصيّهم القصيرة ويسدّون كمغلاق الترع أمام تيار بشري ليسمحوا لتيار آخر بالعبور ، وبعد دقائق يغلقون التيار الثاني ويحررون التيار الأول .

كانت المقاهي المشعشعة بمختلف الأضواء تعجّ في داخلها وعلى الأرصفة بالناس المتأنقين وآلاف الدعايات الضوئية الخاطفة تبهر العيون . من آلاف المحلات كانت تتلألأ وتومض الكتابات الكهربائية الحمراء والصفراء والزرقاء والخضراء .

أسرت كفاتشي ودغدغت أعصابه وسلبت لبه ضجة المدينة الخفية وهديرها وصخبها ، تنهدها وأنينها .

ــ آه ، يابيسو أتذكرت الآن بلدتك « سامتريديا » أو « كوتايسي » ؟! قال كفاتشي مبتسماً .

ــ أنها أفضل من سامتريديا ، لكن لايمكن مقارنتها بكوتايسي — قال بيسو شكيا مازحاً .

ــ انعطفوا نحو « مادلين » وأطلوا على ساحة « الكونكورد » الواسعة ثم تخطوا هذا المشهد القريد ، ذابوا بين صفوف أشجار « الاليزيه » الخمسة المنتظمة الكثيفة . اجتازوا « ساحة النجوم » ووصلوا فندق « حدائق الاليزيه » حيث تتألق سبع غرف رائعة تليق بأعظم أمير من أمراء روسيا العظيمة وبالأمير الأفغاني والبارون وحاشيته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الطواف على بابل الحديثة وبعض المناظر العقلية »

وقف كفاتشي واصدقاؤه و « كورانا شفيلي » الذي التقوه بالأمس في الحي اللاتيني على قمة برج « ايفيل » .

تحت أقدامهم تمتد باريس — كبرياء العالم ، العاصمة الفاتنة ، أولى الأوائل ، مركز العالم ، أجمل الجميلات كما يراها الجميع في شتى أصقاع العالم .

فيما وراء باريس وفي كافة الاتجاهات على مدى النظر ينتشر عدد لايحصى من المدن الصغيرة والكبيرة ، والقرى والمزارع التي تمتد جاهدة نحو قلب البلاد وتحيط بباريس وكأنها تتحلق حول هذه الحورية الفاتنة تحرسها وتقوم على خدمتها .

لاحت ، من فوق جبال « المارن » وعبر الضباب الصباحي ، كرة حمراء هائلة صبغت الهضاب الخضراء المحيطة بباريس باللون الوردي .

كان الضباب الصباحي يلف ويغطي كالجلباب ، ثنايا ذلك المدى اللامحدود وسفوح الهضاب والمدينة ووادي (السين) .

وتخلع باريس شيئاً فشيئاً ، الجلباب الضبابي ، تستيقظ تدريجياً، تتمطى، ثم تبتسم ابتسامة الصباح .

وينداح هذا الضباب وتلك الابخرة الليلية وأنفاس الشمس والمدينة — ينداح عن الهضاب ويتجه نحو الغرب ويتوضع في ضواحي سان جرمان — أرجانتاي وفي مجرى نهر السين .

وأمام أعين « الباحثين عن السعادة » امتدت وتفتحت كالزهرة

تلك الحورية ، أجمل الجميلات مستحمة مسرحة الشعر نظيفة غنوجاً مبتسمة ضاحكة زاهية الألوان مشرقة رحبة لايحدها بصر ، عش الغرام والمعبد ، جدار الرغبات ومحط أحلام كل الخليقة علماءً وفنانين .

وقف الجورجيون على ارتفاع ثلاثمئة متر ، وقفوا مرتعدين حيال هذا الارتفاع والجمال .

في البعيد ، البعيد يتلوى باتجاه الجنوب والشرق نهرا « المارن » و « السين » الرقراقان . يلتقي كلاهما على أبواب باريس في « الشارانتون » يتحدان ويتعانقان، ثم يشق ذلك النهر باريس إلى نصفين ويتجه بعدئذ نحو الجنوب، ثم يتحول بالقرب من « سان كلو » و « بولون » نحو الشمال ثم يعود مرة أخرى ويتجه بالقرب من سان ديلي إلى الجنوب . وعند سان جرمان يكمل الدائرة من جديد ويسير باتجاه الشمال ثم ينعطف وينصرف نحو الغرب في غابة سان جرمان الضخمة المغافة بالضباب .

وعبر هذا النهر تسبح صعوداً وهبوطاً قوافل كثيرة من السفن والقوارب التي تبدو من ذلك الارتفاع ديداناً تزحف على مرآة طويلة ملتوية .

وقد قطع هذا النهر — المرآة بما يقارب الأربعين جسراً حديدياً وحجرياً التي كانت تبدو كالأحزمة على البطون . كما يتخلله كمزق وشقوق مايقارب الأربعين من الجزر الخضراء .

وحول « مركز العالم » هذا كان يقف في ثلاثة أرتال نحو أربعين من مخافر الحرس نصفهم تحت الأرض مدرعين بالحديد وبحوالي ألف

مدفع . وكان الجنود ينظرون بصرامة وعبوس ناحية الألمان باتجاه « شارانتون » و « فينسن » و « مون فاليريان » و « سان — دينيس » .

وكانت تخترق هذه الحسناء كأسهم طويلة في صميم قلبها ومن جميع الجهات حوالي العشرة من الخطوط الحديدية ، وفي الوسط أيضاً كانت مزنّرة كالأحزمة بالطرق الحديديـة والجادات المشجرة وبالخنادق الواسعة العميقة وبالجدران الثخينة العالية المشادة بالأحجار المنحوتة .

عشرات القطر تنفث بخاراً ودخاناً وتتلوى كأفاع سوداء زاحفة في شتّى الاتجاهات . عدد من المدن والقرى ومالايحصى من البنايات والطرق والأقنية كأنها كلها ، خططت ورسمت وخيطت إلى السجادة الخضراء التي لايحدها بصر .

كان مايزال جلباب باريس — الغابات والحدائق والاحراج — ينفث بخاراً صباحياً . شرقاً تمتد غابة فرسين الواسعة المرقشة بالبحيرات ، وجنوباً تمتد أيضاً غابات « ميدون » و « سنكلو » و « سيفر » و «فرساي» الواسعة .

وضمن باريس سكبت كمادة خضراء لزجة حدائق وأحراج وبماش مشجرة : تويرلى ، لوكمبسورغ حديقة النبات « مونسو » ، تزوكاديرو ، مونصوري ، الاليزيه وغيرها وغيرها . . .

وكانت قبة « قصر العجزة » الذهبية تتوهج لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية ومن بين بحر الأبنية كانت تتعالى وتشمخ بمهابة بانتيون ، كنيسة « القلب الأقدس » الجديد ، كنيسة « العذراء » ،

سان — جرمان ، ديبر ، سان — تروكاديرو ، الأبراج ، القصور ، المتاحف ، الكثير من الأبنية الهامة القديم منها والحديث. على مثل هذا الارتفاع كان مسموعاً دوي ودمدمة واهتزاز ولهاث أنفاث المدينة الاسطورية التي استيقظت لتوها .

كان كفاتشي كفاتشا نتيرادزه لايحس عادة بجمال الطبيعة ولاتحرك روحه وقلبه : كانت لاتثيره ولا تسحره ولا تعطيه أية متعة الجبال التي تطاول السماء أو البحر الذي لايحده بصر أو المنظر البديع المزركش ، لكنه الآن وعندما أطل من علو ثلاثمائة متر على الحسناء المستلقية عند أقدامه — باريس ، شعر بعمق بالجمال المذهل لتلك المدينة العالمية التي لايدري أحد متى وكيف زركشت بمثل هذه الكمية من الحجارة والحديد والأبخرة والدخان .

لم تكن لدى كفاتشي اذن موسيقية ، ولم يكن بمقدوره أن يفرق بين « نوطة » وأخرى ، لذا لم يحب الموسيقى ولم يفقه شيئاً فيها ، لكنه الآن وعلى ارتفاع ثلاثمائة متر سحرته وأسكرته ورفعته إلى السماوات تلك الدمدمة الخفية ودوي هذه المدينة وضجيجها .

أثناء ذلك حمل نسيم الصباح رائحة الفحم والنفط من مرتفعات « بيل فيل » إلى برج ايفيل فاستقبلها أنف كفاتشي كعبير ناعم الرائحة .

وقفوا صامتين طويلاً تحت وطأة الاعجاب الكبير مفعمين بشعور لذيذ لامثيل له . كورانا شفيلي فقط كان يمد أصبعه بين الفينة والأخرى باتجاه وتارة أخرى باتجاه آخر مشيراً إلى كنوز جديدة .

— أمام فندقكم قنطرة من أضخم القناطر وفيما حولها تفترق

اثنا عشر طريقاً وجادة كأشعة النجم ولهذا يدعى المكان « ساحة النجوم — ايتوال » .

وهذا هو قصر الاليزيه مقر رئيس الجمهورية . . ذاك هو قصر « البوربون » مقر مجلس الشعب حالياً . . وتلك التي تبدو تحت أقدامنا « الأكاديمية الحربية » .

. . وهذان هما القصر الصغير والكبير للفن والصناعة .

— تشبه باريس حسناء حية ، فتاة فرنسية عارية مستلقية على ضفاف السين يقصدها الناس من كافة أصقاع العالم ليروها وإلا علام يجري إلى هنا النبلاء الجورجيون المفلسون المتغطرسون ؟ — قال كفاتشي . .

لم يوافقه سيدراك :

— وآخ ! وهل يعيش في باريس اصحاب الملايين فقط ؟ فمصرف محلي وحيد هنا أو « محل للصيرفة » يشتري ويبيع جورجيا بكاملها بل وثلاثة أضعافها . يسعى الذباب حيث يتوفر العسل ، وإلا أي مجنون سيأتي من أمريكا أو اليابان أو تفليس من أجل النساء الحسناوات ؟ حين تتوفر الأموال تجد الكثير من النساء الجميلات .

— ولهذا تقصد النساء الحسناوات باريس من كافة بلدان العالم ، ففي باريس الكثير من الأموال — قال بيسو الصامت هامساً .

— في لندن ونيويورك أموال أكثر بكثير مما في باريس — تدخل كورانا شفيلي قائلاً — لكن النساء الجميلات والرجال الأغنياء والمفلسين يقصدون باريس ، لاأدري فيما يخصكم ،لكن بالنسبة لي لاتستطيع مائة ألف حسناء أن تجرني إلى هنا !

ـ إذاً لماذا يسعى كل العالم إلى هنا ـ تساءل كفاتشي .

ـ النساء الجميلات جانب واحد فقط من جوانب باريس . من خلال ملاحظاتي الخاصة أستطيع أن أقول لكم أن في باريس رجالاً جميلين أكثر من النساء الجميلات . وهذا ماتؤكده النساء المحليات . ثمة في باريس جانب ثان وثالث وخامس وعاشر . وإذا مابدأت بالشرح سيطول المقام ، بالإضافة إلى أن ماسأقوله لن تفهموه مالم تشعروا به بأنفسكم . عيشوا الآن ولاحظوا ودققوا في كل شيء وبعدئذ ستحسون وتدركون بأنفسكم سحرها وتتأكدون من أن لكل انسان وطنين وطنه الأصلي وفرنسا . عبر السلم الكهربائي المتحرك نزلوا إلى الطابق الثاني في البرج حيث تتوفر المطاعم . تناولوا الافطار ، ثم ذهبوا لمشاهدة اللوفر .

حينما أصبحوا على جسر « الاسكندر » حدق كفاتشي باهتمام في زينته الرائعة . التماثيل ، الاعمدة ، المرمر ، الزخرفة الذهبية ، الحديد المصنّع ، البرونز ، ثم التفت إلى رفاقه :

ـ لن تجد مثيلاً له في كل جورجيا .

ـ يذكرني بالجسر الأبيض في كوتايسي . ها ـ ها ـ ها !

ـ لايوجد مثل هذا الجسر لافي أوروبا ولا في روسيا ـ أضاف كوراناشفيلي موضحاً . واستحوذت ساحة « كونكورد » المثمنة الاضلاع على إعجاب كفاتشي . كانت زواياها الثمانية مزدانة بتماثيل تعود للمدن الثمانية الكبيرة في فرنسا . كان تمثال مدينة «ستراسبورغ» محاطاً بالسواد رمزاً للحداد . في وسط الساحة تنتصب نافورتان رائعتان وبقربهما ترتفع مسلة طولها يقارب الواحد والعشرين متراً نقلها نابليون من مصر .

— في هذه الساحة نصبوا المقصلة أيام الثورة الفرنسية العظمى — قدم كوراناشفيلي هذه المعلومات — هنا قطعوا رأس الملك لويس وكثيرين آخرين .

سيطرت الرعشة على كفاتشي ولوى وجهه بسرعة .

اجتازوا حديقة « الملوك القدماء » في تيولري ، وقوس النصر ثم دخلوا اللوفر .

مروا ، في البداية على التماثيل في الطابق الأسفل . القاعة تلو القاعة والعصر تلو العصر ، وحضارة بلاد تليها حضارة بلاد أخرى . لم يعد يسمع كفاتشي شيئاً . لقد أختار من المتحوتات التي لاحصر لها « النساء العاريات » وأعطى الأفضلية لأعمال «كانوفا » الغنية. دار حول منحوتاته العارية من كافة الجوانب ، حدق بثبات وأفعم نزواته وعبادته تدريجياً .

وحين دخلو القاعة الهيلينستية رأوا الأعمال الفذة « سكوباس » « ميرون » « براكسيتل » . وحين شاهدوا تماثيل أفروديت الربانية وفينيرا آلهة العشق جالسات ، بلا أرجل ، بلا أيدي بلا عيون يغمر كفاتشي انفعال فيّاض ويصيح :

— ياللأيدي التي خلقت هذه النساء الرائعات ! بيسو ، أنظر إلى هذه الفينيرا الجالسة بلا رأس وبلا يدين ، ضع يدك على حوضها وتأكد أهي حية أم من المرمر ؟ . . . ماذا ؟ اللمس ممنوع ؟ حسناً لكن . . ياإلهي يالطيف ؟ كيف صنع ذات النحات الاغريقي هذه النساء بحيث ينضح الحجر برائحة وحرارة الجسد الحي ، بيسو أذهب ياحبيبي

من فضلك واستعلم بكم يبيعون هذه الفينيرا الفتية ؟ انها رائعة لعلها زوجة أحد الأمراء البولونيين أو الروس . إذا كان سعرها ألف فرنك فمادون سأشتريها وأضعها عند السلم وأصنع لها يديها المبتورتين وسأضع في إحداها زهوراً وفي الأخرى مصباحاً كهربائياً . ألا تزين حقاً قصر كفاتشا نتيرادزه ؟

ثم تابعوا الجري مسرعين عبر ذلك البناء الضخم طوال ساعات ثلاث محنيي الظهور . كان كورانا شفيلي هو الوحيد الهادىء حيث كان يراها للمرة العاشرة وقد هضمها جيداً .

ثم استعرضوا مسرعين أبولون ومعرض الزهور وتيولري القديم .

وفي قاعة أبولون التصق كفاتشي كالنهم الطماع بأحد الصناديق البلورية ولم يعد باستطاعته انتزاع نفسه منه . اشتعلت عيناه وحدجتا الصندوق واهتز قلبه وارتجف كل جسده . كان في الصندوق عدة قطع من الماس بيضاء كل منها بحجم بيضة الحمام، كما كان سيف نابليون مرصعاً بالماس وبمختلف الأحجار الكريمة الأخرى ، كان الصندوق يبرق ويشعشع تماماً كعيني كفاتشي في تلك الدقيقة .

تلفت كفاتشي فيما حوله . كان ثمة حارس يتجول في القاعة بهدوء . اضطرب كفاتشي، شُدِهَ وعوى . علق في البداية على كورانا شفيلي، ثم أسرع إلى الحارس :

— كومبيان كوت سيت شوز ، سيل فوبلي / كم تساوي هذه الأشياء من فضلك / .

— سي تسامسيو اون دي كارانت أو سكانت مليون / لاأدري أيها السيد، يقال أن ثمنها أربعون أو خمسون مليوناً / .

بصعوبة بالغة استطاع كفاتشي ان ينتزع نفسه عن هذا الكنز . وسار بعدئذ ذاهلاً شارد اللب بليداً وكأن الشياطين قد سكنت رأسه ، أو كأن فكرة ما نضجت وحيكت خيوطها وأكتمل نسيجها في رأسه .

ـ يالها من تحف رائعة مختارة من اللوحات العالمية الأصلية ـ تابع كورانا شفيلي حديثه . نبدأ من عصر النهضة الايطالية هوذا « كوريجيو » . . وهذا « تيتسيان » . . . وهذا « بيروجيو » وهذا هو الرومانسي الناعم « بوتيتشيلي » . . . وهذه هي « الجوكندا » رائعة ليوناردو دافنشي الفذة .

ـ أهذه هي « الجوكندا » ؟ ـ قال كفاتشي مستغرباً ـ أهي التي سرقوها العام الماضي ؟ سارقها أحمق تماماً ! كم تساوي هذه اللوحة ؟

ـ لاتقدر بثمن ، لاتباع ، لكن الخبراء يقدرون ثمنها بمليون . وكذا تساوي « فينيرا » .

ـ ياإلهي ، كم من الحمقى في هذا العالم ! أنا لاأشتريها بعشرات من الروبلات ، انظر بيسو ،أنظر كيف تنظر شزراً ! آه حمقى بكل تأكيد وإلا كيف يمكن أن يدفع أي مجنون حتى مائة روبل ثمناً للوحة تمثل بنتاً ريفية ؟ أراهن أنني استطيع اليوم الحصول على خمس نساء احياء أجمل منها بمبلغ مائة روبل ، وأنا لاأدفع أكثر من ذلك ثمناً لهذه « اللوحة » .

ـ وآه ، أنظروا أي شيء هنا ! ـ قاطع سيدراك حديث كفاتشي قائلاً عبر أبواب القاعة الأخرى : انعطفوا إلى قاعة اللوحات الفرنسية حيث تعلق بسخاء النساء العاريات على الجدران .

– روزا بونير . . برودوم . . ديلاكروا . . فاتو . . ميسونيي – تابع كوراناشفيلي حديثه ، لكن أحداً لم يسمعه ، إذ اقترب الثلاثة من « رقيقة » أنغر العارية المستلقية في الزاوية شاحبة مذعورة ، ناعمة لينة الأطراف لاعظام فيها .

– واه أنظر إلى مؤخرتها – قال سيدراك وقد تأثر وترطبت عيناه .

– هذه امرأة ! هذه لوحة . امرأة حية مثلها تساوي ألف روبل واللوحة كذلك .

– لاأدري فيما يخص المرأة الحية ، لكن بمبلغ الف روبل يمكن رسم نسخة عنها ، هو ذا الفنان .

كان ثمة ثلاثة فنانين يعملون هناك وينسخون عن اللوحات الأصلية . سألوا أحدهم ، اتفقوا على السعر ، أعطوه العنوان ثم تابعوا طريقهم .

– وهنا الفن الاسباني . . موريلو . . فيلاسكيس . . غويا . . وهذه المدرسة الانجليزية ، رينولدس . . بيسكين . . ووت ، والمدرسة الهولندية : فان – نيك . . رويسدال . . روبنس . . بوت والعبقري ريمبرانت . .

تحرق غابو وسيدراك واشتعلا رغبة بالنساء الحمراوات كالياقوت ، كلهن كن ممتلئات ، سمينات ، عظيمات جليلات جمراوات بيضاوات ، شبيهات بالحليب الممزوج قليلاً بالنبيذ .

خارت قوى كفاتشي ودبقت عيناه تعباً وصار يجر قدميه بصعوبة .

– لقد شاهدنا الثلث تقريباً ، وما تبقى نستطيع الآن رؤيته بشكل عابر ، ثم بعدئذ – إذا شئتم – يمكنكم استكمال الاطلاع خلال أسبوعين على الأقل – قال كورانا شفيلي ناصحاً .

ـ آه ، آه ، آه ! ـ نفض كفاتشي يده ضجراً ـ لاأستطيع أن أفعل ذلك . ليس من أجل هذا قدمت إلى هنا ، كفى ، فلنمض .

خرجوا ، اجتازوا عدة بنايات والساحة ، ثم تطلعوا من هناك إلى اللوفر المبني من الحجارة المنحوتة والممتد مسافة فرست (١٠٦٠ متراً) والذي تخترقه الشوارع بشكل عرضاني وعبر بواباته كانت تسير الباصات وعربات الخيل الكبيرة .

ـ شيء طريف ، هل تبادل فرنسا هذا المبنى بجورجيا كلها وبكل ثرواتها ؟ ـ تساءل كفاتشي بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه .

استأجروا سيارة واجتازوا مسرحي « شاتلي ». و « برنار » وبرج سان ـ جاك والمجلس البلدي وكاتدرائية السيدة العذراءالباريسية ، ثم دخلوا الحي اللاتيني .

ـ هذه هي السوربون . . تلك هي الكوليج دي فرانس . . دار الكتب الوطنية ،وهذا هو « باتيون » » الشهير ، وأمامه تمثال النحات المشهور « رودان » الذي يمثل الرجل المفكر .

يجلس رجل جبار برونزي يلف ساقاً على ساق ويسند ذقنه بقبضة يده ويفكر بقوة وشدة وصلابة ارادة حتى أن شرايين رجليه قد انتفخت وتوترت وكأن الأفكار تضغط على تلك الشرايين أو كأنه يستنجد بها .

حدّق كفاتشي في الانسان البرونزي وقال :

ـ إنه يخطط لأمر عظيم ، لوقابلت هذا الرجل لكان لي خير رفيق !

ـ هذا متحف اللوكسمبورغ و « كلوني » ، هيا فلنر .

ـ آه ، أنا تعب ، كفى ! فلنذهب إلى مطعم جيد ونتناول طعام الغداء . قصدوا « ديوفال » فاستاء كفاتشي :

ـ ماهذا ؟ لاينفع . إنه أشبه بمطعم طلابي . لن تجد الجيد .

لم يدركوراناشفيلي ، فهو لايفقه شيئاً بالمطاعم الجيدة والسيئة إذ كان أحياناً يقتات في بعض المطاعم بفرنك واحد .

ـ إذاً فلنذهب إلى فندقنا . . ماذا ؟ تخجل ؟ ليس لديك ملابس لائقة ؟ إذاً وداعاً ، غداً سنلتقي .

ركبوا السيارة ، أما كوراناشفيلي ، الذي ثارت شهيته للطعام ، فقد قفل عائداً إلى الملحق حيث يعيش .

آراء وأفكار « ايدلسون » المجرب

لبس الأصدقاء الـ « ريدنغوت » (١) وثبتوا زهرة من زهور الـ « كرسانتيم (٢) » إلى صدورهم ونزلوا إلى المطعم .

أقبل صاحب المطعم والقائمون على الخدمة فيه إلى الزبائن الجدد . استفسروا باحترام عن الطلبات وتساءلوا عن الانطباعات وعن الخدمة .

كان مطعماً هادئاً حيث يتفاهم الجميع همساً ، ليس فيه منادمة أو انخاب أو شراب .

---

(١) ريد نغوت : سترة فضفاضة ، استخدمت في البداية لركوب الخيل ثم غدت زياً دارجاً ـ المترجم

(٢) جنس من النباتات الحولية أو المعمرة تزرع في الشرق منذ أكثر من ألفي عام . يزهر متأخراً بمختلف الألوان والأحجام ، بعضها صغيرة كالاقحوان ، وبعضها كبيرة مستديرة الشكل ـ المترجم

حين انتهوا من تناول طعام الافطار التقوا عند الباب بـ « إسحق ايدلسون » الذي أسر الثلاثة ونقلهم بالسيارة .

ــ ألو نشان سيل فوبلي ! (إلى لونشان من فضلك !) .

حدث أيدلسون كفاتشي عن نفسه باختصار .

وصل الزوجان المطرودان من أوديسا إلى باريس . واصطحب اسحق الكثير من الأموال .

ــ كان يمكنني أن أحيا بهذه الأموال باكتفاء ، لكن مأساتي في أنني يهودي .

فاليهودي ولو كان يملك الملايين ، لايستطيع أن يبقى بلا عمل . وأنا أيضاً لم استطع الاطمئنان ففتحت محلاً كبيراً لصياغة الذهب . تكبدت خسارة كبيرة ، ولم أقف عند حدي في الوقت المناسب ، حرنت وتابعت العمل حتى النهاية .

ــ أنا لاأصدق ان اسحق ايدلسون قد أفلس فعلاً .

ــ أفلست . أبقيت على مبلغ صغير فتحت به محلاً للخياطة لـ « ريفيكا » .

ــ يعني ان ريفيكا تعمل الآن ؟

ــ كلانا يعمل . لدي ابنة أخي اليتيمة . هي أيضاً تعمل . اقد فرحت ريبي كثيراً حين علمت بقدومكم .

ــ سأزورها حتماً سأزورها .

ساروا في جادة « غراند ــ أرمي » ثم أجتازوا غابة بولون ثم

أطلوا على ميدان سباق الخيل الذي كان يغص بالجماهير ، وأية جماهير ؟! لقد كان في الميدان حسب تقديرات كفاتشي عشرون ألف انسان على الأقل .

كان ذلك الميدان الرحب محاطاً بأزهار العوسج ، وكان الضجيج في كل مكان كخلية النحل. الجميع منشغلون، ولم تتمكن عينا كفاتشي ، خلال ساعتين ، من الاحاطة بُبحر النساء الذي لاينضب . لكن بعد انتهاء السباق لقنه اسحق الحيلة في غابة « بولون » وبجانب الطريق يقع مقهى ومطعم كبير « أرمنوفيل » ..

و « الصفوة » لابدّ لها من السير عبر هذا الطريق ولابدّ للشعب الباريسي المحب للمنادمة من أن يخلد للراحة في أحضان ذلك المقهى ويحتسي قليلا من الشراب ويتطلع في الآخرين كما يترك الفرصة للآخرين للتطلع نحوه . ..

اشترى كفاتشي أولاً حصاناً أصيلاً للركوب كان قد فاز في السباق ذلك اليوم ، ثم أسرع إلى ذلك المطعم .

جلسوا وطلبوا « بوظة » وراحوا يحتسون الماء العذب وتركوا العنان لقلوبهم وعيونهم النهمة العطشى .

فعلاً كانت كل باريس تتنزه أمام أعينهم . آلاف كثيرة من الفرسان والسيارات والعربات والمركبات مرت أمام كفاتشي الذي كان يرنو ويحدق متفحصاً مختاراً المميزين من الصفوة . وكان يعرّي النساء الجميلات الفاتنات بعينيه فيما كان يضبط بسرعة ومهارة جهاز النظارات على عينيه بشكل كان سيحسده معلمه وزير البلاط البارون فريديك لورآه . مهدّ اسحق ـــ الدليل المحنك الطريق أمام كفاتشي :

- هذا الرئيس « بوان كاري » وهؤلاء – سفراء : روسيا ، ألمانيا ، أنجلترا ، وزراء سابقون وشخصيات غير وزارية : ساوية ، كايون، كليمانصو . . وهؤلاء أصحاب الملايين. . . شوشار ، روتشيلد . . . غيرش . . ديوفال . . . وهاهو ملك الحديد والصلب ... ملك الاسكان والبناء . .. ملك المصارف . . وذاك الذي يمتطي الحصان الجنرال « غاليغي » لعلكم سمعتم عن « بنطال » (١) غاليغي ؟ هذا الشخص قتل مايقارب الألف من أعضاء كومونة باريس . . وهذا هرتسوغ . . أمير . . ماركيز . . بارون . . . كونت . . . ، رجال الفن والصحافة : ستينلي . . مارسيل . . بريفو . . كالميت . سارا برنار . . روجان . . . لوزان . . . .

وسرد أثناء ذلك نبذة قصيرة عن مغامراتهم وأخبارهم الغرامية . ثم التفت نحو الناس الذين دخلوا المطعم :

– اولاء النسوة – الموضة الحية . تتولى دور الأزياء كل نفقاتهن ، تلبسهن ، وترسلهن إلى كل مكان حيث يظهرن لكل الناس . « الموضة » الجديدة . . هذا عملهن . . وهذه عشيقة البارون غرنفي . . وتلك عشيقة « كوندي » وتلك . . وأشار إلى عشرات النساء الكهلات ، وذكر أسماء مثل ذلك العدد من أصحاب الملايين .

– كيف ؟ – استغرب كفاتشي – أولاء النساء الكهلات ؟ ألم يجد أصحاب الملايين فتيات ؟

---

(١) غاليغي : بنطال ضيق حتى الركب واسع جداً فيما فوق الركب – وقد سمي هذا البنطال باسم هذا الجنرال الفرنسي الذي اعتاد ارتداءه – المترجم

ــ آ . . آ . ابتسم ايدلسون ــ آثار الشبــاب وقلة الخبرة بادية عليك . سيدات المجتمع الباريسي الراقي لايقبلن الفتاة الطائشة ، الغرة ، القليلة الخبرة ، غير المحترفة والتي لاتعرف أصول مهنتها جيداً . مثل تلك الفتاة الغرة ، الطائشة اللعوب ، الضجوج ، المضحاك ، الانفعالية الطباع تأخذ أصول حرفتها من المقاهي الطلابية . وبحسب هذا الاعتبار نقسم باريس إلى عالمين على ضفتي السين : الحي اللاتيني ومونتمارتر..

المرأة الشابة تبدأ من الضفة الأخرى ثم تنتهي هنا . هناك تتعمد وهنا تصبح راشدة وتتجذر ، هناك تفلح وتزرع وهنا تحصد . هي هناك فتاة وهنا أمرأة .

على تلك الضفة يعلمها الطلاب الحب وهنا تصبح ماهرة واستاذة في الحب . في الحي اللاتيني تبتسم فتاة الحب بخفر وتضحك بصوت رنان وأحياناً يمكنها أن تبكي بحنان وان تدغدغ قلبها فتمزح . أما المرأة في حي مونمارتر فتضحك وتقهقه بملء صوتها حزنها يعوي وحبها يهر وشيخوختها تزمجر . . الغزل في تلك الجهة نسيم خفيف وفي هذه الجهة عاصفة هوجاء .

هناك الشهوة لهيب وهنا جمر متقد . الفتيات الطائشات اللعوبات ينفحن طيباً كالوردة والبنفسجة ، أما نساء مونمارتر وعشيقات المليونيرين فهن كالمخللات و . . كامامبر أو جبنة « روكفور » أو . . ماذا ؟ أنت لم تر جبنة روكفور ؟ غارسون ! أحضر طبقين مــن الركفور ، وطبقين آخرين من الكامامبر العفنة . . نعم لقد قلت لك : من يملك الملايين ؟ الشيوخ المسنون . إذاً فالنساء المختارات سيكن بحوزتهم

ويجب أن تتحلى النساء بالإضافة لجمال الشفاه والعيون بالرزانة والطباع الهادئة . فرجل كهل مثلي لايحب الفتاة اللعوب ، النزقة ، القهقاهة ، العابثة ، المتقلبة الأطوار المدرارة الدمع والشبيهة بالعقعق المهزار . نحن نفضل الهادئة الرزينة المجربة القديمة ، الحكيمة والقديرة ، كالغراب . نعم ، أقول هذا أنا اليهودي الأوديسي ، المحنك ايدلسون ، أنا الذي سحتُ ودرتُ في هذا العالم خلال نصف قرن من الزمان ، حيث رأيت وعرفت وجربت وفهمت الكثير — الكثير . لم تبق بقعة صغيرة من الأرض لم أرها . أعرف عشر لغات ومارست تسع مهن . هالقد جاؤوا بالكامامبر والروكفور . حسناً جربوها وتذوقوها . . رائحتها أطيب بمائة مرة من « اللوريغان » و « اوبيغان »(١) .

كلوا ولا تقطبوا . حين ستعتادون عليها ستضعونها باستمرار في جيوبكم ألا تشتمون في هذه الجبنة رائحة المرأة ؟ ألا تفوح من هذه المرأة رائحة الجبنة ؟ بلى تفوح . . أجـــل تفوح ! . إذاً عم كنت أتحدث ؟ أنا اتقن تسع مهن . كنت في البداية ساعاتياً في أوديسا ثم ثوريا . لاتستغربوا فهذه مهنـــة أيضاً ، مهنة خطرة وغير حميدة . منذ ثلاثين عاماً فررت من سيبيريا إلى اميركا . كان لدي معمل في بوسطن لتصنيع القمامة والنفايات . ولقد بحثت عن الذهب في كلونديت . وفي فيرجينيا كنت مالكا لمزرعة قطن ، وصنّعت السكر في كوبا واصطدت السمك في غرينلند ومارست الصيد في آلاسكا ونقبت عن الألماس في بريتوريا وتاجرت في زنجبار بالعاج واستخرجت اللؤلؤ

---

(١) لعل « لوريغان » و « اوبيغان » من أنواع العطور التي كانت سائدة في بداية القرن العشرين — المترجم

من أعماق البحر في سيلان . كما مارست عشرات الأعمال الأخرى .
ثم عدت أخيراً إلى أوديسا حيث مارست خمس مهن تعرفون الأخيرة
منها . لقد اختبلت في شيخوختي والتحقت بالثوريين ها ـ ها وأنقذت
بجهودكم من الأعمال الشاقة . هكذا ابتسم القدر لي ، وبدلاً من
أن يذهب اسحق أيدلسون إلى سيبيريا صار في باريس .

واصطحبت الكثير من الأموال . . أجل عم كنت أتحدث ؟
لقد صرت مليونيراً خمس مرات وأفلست عشر مرات والآن . . .
الآن أرافق الناس المحترمين أمثالكم ، هكذا أكسب كسرة الخبز
لأسرتي .

استمع كفاتشي ورفاقه مستغربين فاغرين أفواههم إلى العجوز
إسحق الذي رأى وسمع وكابد الكثير .

مرة أخرى استقلوا السيارة واجتازوا بعض ضواحي باريس ،
سيفر ، سان ـ كلو ، كورفيبوا ، كليش . جلسوا في المساء على شرفة
مقهى « ريش » ، وطلبوا كأساً من « غرينادين » لكل منهم . شربوا
هذا الشراب بالقشة وراحوا يراقبون الجادات الكبيرة .

غربت الشمس وتراءت سحابة غريبة من جهة « مادلين » . بدت
تلك السحابة كطائر أحمر أسطوري قد فرش جناحيه وانقض نحو
الأسفل . بدا ذلك الطائر الناري وكأنه يحمل كرة حمراء ضخمة ...
الشمس الحمراء التي صبغت بلونها الأرجواني تلك الجادة الطويلة :
الأبنية العالية والممرات المشجرة والبحر البشري المضطرب ، ومختلف
المركبات .

توهجت النوافذ وزجاج واجهات المحلات باللون الأحمر مذكرة بلون الدم .

اشبع الهواء بالضباب الذهبي ، وعبر هذا الضباب سبح الرجال والنساء .

وكم حوت هذه الموجة من البشر : الغني والفقير ، صاحب الدخل الثابت والعامل ، صاحب العيال المسرع إلى بيته والمتسكع العاطل عن العمل ، الباذخ المتأنق والمتسول ، الفرنسي المهموم والخالي البال . ثم لاأحد يدري أية موجة قذفت بهم ، من أين ولماذا أتوا : الروس والهنود ، العرب والانجليز والباحثون عن السعادة من اصقاع العالم كافة .

أحس كفاتشي بشيء ما يدغدغ نفسه ويهز قلبه : نظر بنهم إلى كل ماحوله وبحث عن سبب سر هذه النشوة واللذة ، لكنه عجز عن فك هذا اللغز ثم توجه إلى اسحق :

— اسحق ابراموفيتش ! كثيراً ما أمضيت مثل هذه الأمسيات في شارع النيفسكي في بطرسبورغ أو في شوارع فيينا و « براتر » وكان الطقس رائعاً مثل اليوم والناس لم يكونوا أسوأ من الحاضرين الآن . . لكن . . لكن مع ذلك لا أدري السر الكامن وراء السحر الخاص لهذه الشوارع .

— ها ! — ضحك اسحق ساخراً — لقد رأيت أكثر من هذا بعشرة أضعاف .

فرديد ريخشتراس في بردين ، كورسو في روما ، بيكاديلي في لندن ، برادو في مدريد ، الجادة الخامسة في نيويورك ، دلهي ، القاهرة

تونكين ، الشمال والجنوب ، الشرق والغرب ، لكنني لم أجد مدينة سحرية مثل باريس .

السبب ؟ لقد بحثت عن السبب عشرين عاماً وأخيراً وجدت بعضه ها ! .

هيا انظروا إلى هذه المباني . أرأيتم أفضل منها في أي مكان ؟ ؟

ـ مباني فيينا أفضل ، فهي أحدث ، ملونة جميلة .

ـ ماهو حق فهو حق ! والآن انظروا إلى هذه السماء واستنشقوا هذا الهواء .

ـ سماء وهواء فيينا أكثر نظافة ولطفاً .

ـ وهذا أيضاً صحيح . انظروا إلى هؤلاء الناس .

ـ الناس في فيينا نظيفون أيضاً ومتأنقون .

ـ أجل هم أكثر نظافة وأناقة.والآن قارنوا بين النساء . المرأة هي التي تزين الشعب أي شعب ، هي وردة كبيرة بين طاقة من الزهور البرية . هي نجمة الصباح في سماء مرصعة بالنجوم الشاحبة ، هي أفضل زينة لكل أسرة ولكل مدينة ولكل شعب . والآن قارنوا بين النساء والفينيات والباريسيات .

ـ النساء الفينيات ؟ هن أكثر مهابة ونبلاً .

أما النساء الباريسيات فهن أكثر . . أكثر . .

ولم يجد الكلمات المناسبة فبدأ يحرك أصابعه .

مرة أخرى جاء العجوز ايدلسون لنجدته :

ـ أنهن أكثر حباً للحياة وغنجاً وكياسة،أليس كذلك ؟ في عيون الباريسيات وخطواتهن ودمائهن وميض رائـع لاينضب . الرهافة ، الذوق ، الرشاقة والظرافة ، الذكاء الحاد،حس الجمال ، حب الحياة وحسن التصرف بها ، اذا ما سر جاذبية باريس ؟سأخبركم . السرّ يكمن في أن الهواء والحياة مشبعان بفتنة وعذوبة خاصة بسحر قوة خفية .

ماذا تدعي هذه الفتنة وذاك السحر ؟ روح ودم الشعب ـ هذا هو مفتاح السر البسيط .

ـ يعني أنه لدى الفرنسيين دم مغاير ! ـ قال كفاتشي ساخراً :

ـ بكل تأكيد . صدقوا العجوز اسحق . لوكان الدم واحداً لدى الجميع لكانت اللغة واحدة أيضاً والقانون واحد والقامة والمذاهب والاخلاق والعادات . ايدلسون ليس عالماً ولم ير أبواب المدرسة الثانوية ، لكنه طاف في بلدان العالم كافة . لديه سمع وبصر والعقل ودقة الملاحظة . لقد رأى وسمع وفهم كل شيء .

إنه لايمارس العرافة . صدقوا العجوز ايدلسون . . نعم عمَّ كنت اتحدث ؟ حين خلق الرب الانسان الفرنسي صب في شرايينه دماء حارة ووضع في صدره قلباً ملتهباً وفي رأسه مخاً نظيفاً جيداً ، كما غرس فيه حب الحياة وحسن التصرف بها وغريزة حس الجمال ، ثم نثر فوق كل هذا فلفلا . أخذ هذا الشعب وتلك الغريزة وحب الحياة والدم الحار وجعل الروح تطفو على السطح وبعثرها في كل مكان في الجادات المشجرة والمباني والهواء وترك بصماته على كل شيء ، هذا كل مافي الأمر .

أقول لكم أنا العجوز اسحق ايدلسون . أجل هذا ماأقوله والسلام .

سكب العجوز ايدلسون حكمة الشيوخ لكفاتشي ومافتيء يشير إلى المارة :

ـــ هذا هو الفنان الفذ « موني سولي » . . هذا المجنون « ليبود » ملك الصحارى ، المليونير المفلس وهذه مغنية الأوبرا« فولي برجير »، «فون» «غولدي» ـــ الملياردير الأمريكي الذي هام بالكلاب والخيول والسباق . . .

وهذا الجنتلمان الحليق « تشيكلتون » ـــ الرحالة الانجليزي العظيم . . . ـــ وقفز اسحق فجأة وهتف ـــ راحيل ! راحيل ! انتظري ياصغيرتي ، انتظري انا ذاهب أيضاً ـــ ثم التفت من جديد إلى كفاتشي وقال : هذه المرأة هي ابنة أخي . انها موسيقية بارعة،هل اعجبتكم ؟ سأعرفكم ، سأعرفكم بها بكل تأكيد وداعاً إلى الغد ! وفي لحظة ابتلع البحر البشري اسحق الصغير . نظر كفاتشي ورفاقه في البداية بعيون دهشة إثر راحيل ، ثم نظر كل منهم إلى الآخرين ، أخيراً قال كفاتشي :

ـــ هذه المرأة تستطيع ان تفقد جدي خوخو عقله . أظن ان العجوز اسحق يخطط لشيء ما . سنرى .

« كيف زار الأصدقاء الملاهي الليلية وكيف تجدّد الحب »

تناول الاصدقاء طعام الغداء في « غراند اوتيل » ثم انطلقوا إلى الملاهي الباريسية . بدأوا بالحي اللاتيني . عرّجوا لفترة قصيرة على البار الاميركي « سوفلو »،« داركور » ثم مضوا عبر شارع « سيباستوبول »

ودخلوا « فولي برجير » . تطلعوا في صور النساء المرسومة ثم استمعوا إلى مقاطع من تمثيلية نهارية لم يفهموا منها إلا القليل إذ كانت تعتمد على التورية اللفظية وفهمها يحتاج لإتقان بشكل كامل .

تابع كفاتشي الرقصات وخطوات الفرنسيين . تذكر « أركاديا » بطرسبورغ ، قارن بينهما وقال :

ـ ذكرت الدب الأبيض والغزال .

خرجوا قبل انتهاء العرض، ثم دسوا أنوفهم في « اولمبيا » وبعدئذ ساروا على مهل باتجاه حي مونمارتر المرتفع والذي يستيقظ في منتصف الليل ومروا في طريقهم على «الكاباريه » . احتسوا كأساً من الخمر ومتعوا عيونهم بمناظر جديدة .

زاروا مايقارب العشرة من الكباريهات : « مونيكو » « الأميرة » .. . . ثم دخلوا ، « مولندوش » . استقبلهم بابتسامة واحترام البواب المزركش والمشرف على العمال والخدم الذين كانوا يرتدون بزات سهرة رسمية وقمصاناً بيضاء مما جعلهم يشبهون طيور العقعق ، ثم رافقوهم إلى قاعة كبيرة مكتظة بالناس واقتادوهم إلى مقصورة مرموقة . وفي نفس الدقيقة بدأت الفرقة بعزف النشيد الروسي « فليحفظ الله القيصر » . نهض الجميع ومدوا اعناقهم ملتفتين نحو مقصورة كفاتشي .

ـ فيف لاروس ! فيف لاروس ! ضجت الصالة وصفق الجميع ومدوا كامل أجسامهم باتجاه كفاتشي واغدقوا عليه الهدايا في كافة الجهات : الزهور والحلوى ، الشمبانيا ، المارسال ، بنديكت ومختلف أنواع الخمور .

أثناء ذلك الهتاف والتصفيق وتقديم الهبات كان كفاتشي ينحني من مقصورته محيياً الجميع شاكراً إياهم بالابتسامات وحركات اليدين ، ثم التفت وأعطى الإشارة إلى الجوقة فعزفت « مارسيلييز »(١) الحماسي .

– فيف لافرانس – صرخ كفاتشي بصوت عال بعد انتهاء المارسيلييز .

– فيف لافرانس ، فيف لافرانس – اهتزت الصالة وضجت مدوية .

– أرجو ان ترسلوا ثلاثمائة فرنك وعشر زجاجات من الشمبانيا إلى الفرقة الموسيقية – أمر كفاتشي المشرف على العمال والخدم – وأبعث لكل من شرفني بهدية ضعف قيمتها : للنساء زهوراً وللرجال شراباً .

وأعطى المشرف على العمال الذي أخفض رأسه احتراماً حزمة من بطاقات التعريف كتب عليها بماء الذهب :

– الأمير ايراكلي باغراتيوني – مهرانسكي .

جلسوا وطلبوا الطعام والشراب .

وفجأة ارتجف كفاتشي : لمح في زاوية الصالة عينين متقدتين انغرزتا في قلبه كسهم ثاقب .

– مدام ليابوش ، بيسو ، سيدراك ! . . مدام ليابوش !

---

(١) مارسيلييز : أغنية ثورية فرنسية أصبحت فيما بعد النشيد الفرنسي – المترجم

عرفا بعضهما تبادلا الابتسام وتشابكت أعينهما وقلباهما .

— سيدراك ، أدعُها وإلا . . أسرع !

بعد خمس دقائق أحضر سيدرا · إلى كفاتشي « ليزيت ليابوش شبه العارية والمسبوكة من العاج وزين ذلك العاج والشعر الأسود والشفتان الحمراوتان والعينان السوداوان المتقدتان مقصورة كفاتشي واضاءتها وبعثت الحيوية فيها . وتفتق الجرح القديم وتجددت القروح واشتعلت النار من تحت الرماد وتفجر النبع الناضب وانتعش الحب والجموح الذي قطع قبل أوانه .

كادا أن يحطما أيدي بعضهما ، تبادلا اللوم بعد تذكرهما في أوديسا .

ثم سألها كفاتشي :

— أووى فوترماري ؟ / أين زوجك ؟ / .

تنهدت ليزيت بحزن :

— ايلي مور ، مون شا / لقد مات قطي / .

— واه ، حسناً فعل ! — قال سيدراك .

فعقب كفاتشي قائلاً :

— لقد اقترف حماقة كبيرة ، إذ تأخر في الموت !

وبداوا تدريجياً بتناول المأدبة ،دفأوا أنفسهم شيئاً فشيئاً حتى احتدموا وغلوا . . واشتعلت الصالة الكبرى : تلمع كالالماس الثريات والبلورات اللامعدودة المدلاة ويرن الخزف الشمالي (الفرفور) وتتلألأ الا « بكّارا »(١) .

---

(١) بكارا : من أجود أنواع الكريستال — المترجم

وتنساب الشمبانيا المبردة في دلاء فضية والملفوفة بفوط خاصة ، برذاذها الذهبي في الأكواب الكريستالية .

وينسكب « الشيبر » الذهبي اللون من دوارق مفلطحة وتتألق مبهرة العيون خمور « الموسكات » « المارسال » « البينيديكتين » « البوردو » و« خمرة البورغون » الحمراء المائلة للصفرة تشعشع خاطفة الأبصار .

ويشتعل « الشارتريز » في الأكواب الكريستالية بلهب أزرق .

ويسيل بعشرات الألوان العصير المنتج في مختلف الفواكه النادرة كالأناناس والبرتقال والماندرين .

ومن تلقاء نفسه يذوب الاجاص الفرنسي والسانجرماني و«ديوشيس »(١) . وكان الخوان الأبيض كالثلج مثقلاً بالدراق المورد اللون والعنب الأخضر والأصفر ، الأحمر والأسود وبالزهور والورد النادرة .

وتمددت السرطانات الحمر واللبستر وكأنها تسبح . ورفعت الطيور قوائمها وصدورها المحمرة .

وكانت الأطعمة الزكية الرائحة منشورة بسخاء على الموائد . أكل القليل منها وظل أكثرها على حاله دون أن يلمسه أحد .

وبسخاء أيضاً عرضت الاكتاف والأيدي والصدور العارية والأرجل المختلفة الألوان والبنية ، والأجسام تنشر عليها غلالات رقيقة كخيوط العنكبوت .

---

(١) ديوشيس : نوع ممتاز من أنواع الاجاص – المترجم

واختلطت كافة أنواع الديباج والأطلس والمخمل والتول .

ومما كان يبهج النظر والعين التطريز بخيوط الذهب والزخرفة والتوشيات المستوردة من الشرق ومن البندقية وبروكسل وفالانسيا .

شعور منفوشة ، مسبلة ، مرفوعة: الأسود والكستنائي والذهبي والقمحي (بلون سنبلة القمح) .

وبهر وخطف الأبصار بريق الالماس والياقوت والفيروز والزمرد واللؤلؤ والجمان والياقوت الأحمر والأصفر .

وكان دخان السجائر يتلوى كأفاع صغيرة خضراء ويصعد نحو السقف .

وكان نفح الأطياب يضفي جواً من الحنان سحرياً .

ويتتالى في الحفلة الراقصون والمطربون الفرنسيون والطليان والاسبان واليهود الجزائريون والعرب واليابانيون القادمون من أصقاع الأرض كافة .

تجن وتعلو في السماء موسيقى رقصة « با » الاسبانية الجامحة و« تشارداش » الهنغارية والمازوركا البولونية ورقصة «كيكوبوك» الصفيقة والتانغو مثير النزوات ورقص هزّ البطن الشهواني .

تهتز وتتواثب الأوراك والأرجل المختلفة الألوان والأشكال ويسمع حفيف الأثواب الحريرية وتتلألأ الأثواب الداخلية .

يسبح النساء والرجال ويتمايلون مع أمواج الرقص بحماس متعانقين متشابكين ملتفّين وقد ثملوا وفقدوا صوابهم جراء الأنفاس المختلطة وملامسة بعضهم البعض .

وترامت إلى الأسماع الهمسات الشهوانية والنكات الصريحة والضحكات المثيرة . واضطرمت الصدور العارية بالرغبة ، كثيراً مااخترق الصالة برق العيون المشتعلة شهوة وتراقصت على الشفاه الدامية والأسنان اللؤلؤية شعلة الشبق المثار .

يبحث الجسد المتوتر الذي أثارته الأطعمة الحارة والمسكرات ، عن إشباع رغبته وتنتظر الدماء المحماة المشتعلة بلهفة والحاح مايبّردها ويسكّنها .

وتشبعت الصالة البراقة بلهيب الشهوة والسكر .

اهتاج وزمجر وحش الفسق والخلاعة دامي الفم قاطع الأنياب وقد ثار واحتدم حرارة .

احترقت تلك الصالة وذابت في أتون الفجور والرغبات المتهتكة .

انخرط كفاتشي أيضاً في هذا الحريق وامتطى ذلك الوحش الدامي الفكين ، سبح في أمواج الخدر واندفع كالحصان الأصيل في حمأة الفسق والشهوة .

اندفع وغرق طوال مايقارب الاسبوعين في ذلك البحر واحترق بتلك النار .

رأى وتذوق كل شيء : الجنة والجحيم ، أقبية اللصوص وأوكار العاهرات ، حدائق الضواحي والبيوت السرية حيث يلتقي الرجال والنساء ، الحب المأجور وممارسته في غرف خاصة ينظر عبر شقوقها القاصرون الجنسيون ثملين متلذذين .

ولم يعد يسمع كفاتشي الخدر المتوحش فيما حوله سوى فحيح الشهوة المتوثبة وعواء الرغبات العارية والهرير والأنّات .

لم ير كفاتشي في « عاصمة الدنيا » ولم يشعر إلا بالعزي الحيواني المتهتاك ، بالولائم والأعياد المستمرة بالفرح والنعيم ، بالراحة والترف .

وكان كفاتشي واثقاً بأن مدينة الشمس هذه وكل الفرنسيين يمضون حياتهم ويصرفون قواهم كما يفعل هو — كفاتشي .

ولم يدركفاتشيكو ابن سيلييسترو — وانّى له أن يعلم وكيف يمكنه أن يفكر أو يصدق ؟ ! — انه في حين كان يمضي تلك الليالي في حمأة الشهوة واللذة.كان ثمة تسعة وتسعون بالمائة من هذا الشعب الكبير يجرون ويكدون في سبيل لقمة العيش لهم ولأسرهم وصوناً لشرفهم ، تقوست ظهورهم وكرّسوا حياتهم كلها لاستمرار هذا البهرج والفحش .

« كيف بعث الحب القديم وكيف وُجدت خليلة جديدة »

بعد ثلاثة أيام من وصول كفاتشي إلى باريس ، دعا اسحق كفاتشي إلى منزله . كانت لدى ايدلسون في الحي اللاتيني شقة جميلة صغيرة . كانت ريفيكا ، وقد ارتدت أجمل ثيابها ، محمرة الوجنتين متأثرة ، مهتاجة . لقد امتلأت قليلاً خلال الخمس سنوات الماضية وازدادت بهاء . تساءل كفاتشي وريبي عن أحوال بعضهما البعض وكل منهما يأكل الآخر بعينيه .

وجلس الثلاثة حول مائدة الغداء .

— تعمل ابنة أخي راحيل في مكان بعيد — قال اسحق — مما يضطرها لتناول الغداء هنالك وتأتي للنوم معنا ، سأعرفك بها يوماً ما ، إنها مطربة رائعة .

وبعد أن انتهى اسحق من تناول الغداء قال :

. أرى لزاماً علي ان أعتذر،فلدي زبون جيد ، سينتظرني في الساعة الثامنة ، تابعا حديثكما أو أذهبا وتنزّها أما أنا فعلي ان أسرع .

ستتنزه – قالت ريبي مودعة زوجها ثم عادت إلى الغرفة وتعلقت برقبة كفاتشي :

– ياحبيبي « أبولون » ياحبيبي نابليون !

– حبيبتي ريبي . . ريفيكا ياعزيزتي !

واستعادا الحب القديم لهاثاً وعرقاً . .

منذ ذلك اليوم صار كفاتشي يزور ريفيكا مرتين في الأسبوع .

استأجر كفاتشي « فندق – قصر » مؤثثاً على الطراز الفرنسي يقع بالقرب من حدائق الاليزيه . كان يعشعش في ذلك القصر كفاتشي واصدقاؤه والقارىء الخاص لكفاتشي بالاضافة إلى معلمة اللغة الفرنسية – المرأة الفرنسية التي وجدها بيسو – وكانت قصيرة القامة ممتلئة نشطة ، سريعة ومرحة وخمس عاملات صغيرات وعشرة من العمال والخدم إضافة إلى طباخين وبستاني وحوذي وسائق .

تعلم كفاتشي اللغة الفرنسية بيسر ، وبسهولة أيضاً استدلّ وتعرّف على شوارع تلك المدينة الرئيسية والفرعية،وسرعان مااستوعب عاداتها وأعرافها وقوانين المتسكعين ومالكي الأسهم الذين ينفقون من أرباحها .

وكانت (سوزان) أحياناً تعلم كفاتشي بالاضافة للغة الفرنسية الحب الفرنسي ، وكانت راضية مسرورة لنجاحات تلميذها ومثابرته .

كان كل معارف كفاتشي واصدقاؤه يحملون ألقاباً : الأمير والهرتسوغ ، والكونت والماركيز والبارون والبقية القليلة منهم كانوا مثقفين أو من أصحاب رؤوس الأموال .

في الصباح الباكر كان كفاتشي يأخذ « تابعه » على الحصان الانجليزي الأصيل ويجتاز حدائق الاليزيه وغابة بولونيا ، ثم يشرب قهوة الصباح في الجادات الواسعة المشجرة ، ثم يتناول طعام الافطار في قصره ، وفي الساعة الخامسة يتناول الشراب في « كارلتون » أو « انجلترا » ، وأحياناً في « مدريد » أو في مقهى الاليزيه ، وفي الساعة السابعة يرتاد « مكسيم » أو « غراند أوتيل » أو المطاعم الفاخرة المختارة، حيث يتناول طعام الغداء . أما السهرة والليل فيقضيهما في الملاهي .

غالباً ماكان يستضيف الكثيرين في منزله،أو يكون ضيفاً في المقاهي – المطاعم . إذ أن كل معارفه واصدقائه من الاجانب يقيمون في الفنادق . ولم يتمكن كفاتشي من التغلب على حذر وخفر الفرنسيين ، ولم يستطع ان يفتح أبواب أسرهم .

ذات مرة شاهد كفاتشي في المتحف الوطني الفرنسي الطاقم الذهبي الذي كان يستخدمه نابليون :

– بأي شيء أنا أسوأ منه ؟ ! وأحمل نفس الأسم ! – وأقتني أدوات منزلية ذهبية .

ولكفاتشي دائماً مكانه الخاص حيث يحل ولم يدع مناسبة تفوته : تدشين معارض ، معارض فنية ، أوبرا ، نزهات خاصة ، سباق الخيل ، « فولي – برجير » أولمبياد وكافة عروض التسلية واللهو الرسمية .

ذات مرة وأثناء تدشين أحد المعارض الباريسية بهت كفاتشي :

– يلينا ! . . تانيا ! . . ياإلهي . . من أين ؟ وكيف ؟

مرت أربعة أشهر على هجرة يلينا وتانيا درءاً للسوء بعد فضيحة « أركاديا » التي أحدثها غريشكا . سافرتا إلى باريس وهما تقيمان منذ ذلك الوقت بالقرب من حديقة « فونبورغ — سانت أنوري » لكنهما لم تدريا حتى الآن بقدوم كفاتشي إلى باريس .

وقد سافر الأمير « فيتغينشتين » إلى باريس أيضاً ورافق يلينا وتانيا في النزهات ، لكنه لاطف ومال إلى تانيا أكثر نظراً لأنه كان مفلساً في ذلك الوقت .

واستغرق حالا ً ، في التفكير . فعلاً ً كان على كفاتشي ان يهتم بـ « ليابوش » وسوزان ، ريفيكا ، ويلينا . لكنه في ذلك اليوم فكر ملياً في تلك المهمة الجديدة وصاغها في رأسه على هذا النحو :

— علام التفكير الزائد ! ثروة تانيا تكفي لاعالة عشرين امرأة وكافة النفقات الأخرى . شيء ً واحد لم يستطع البت فيه : بمن سيضحي هذه الليلة بتانيا أم بيلينا ؟ ! أخيراً حل هذه القضية على الشكل التالي :

— يعز علي أنني لاأستطيع أن أخصكما بهذه الليلة ، ياعزيزتي . أنا مضطر لمغادرتكما . عليّ أن أسافر إلى « شالون » لزيارة صديقي الفيكونت « شوازيل » ، سنذهب غداً صباحاً للصيد .

وهكذا مشى كفاتشي بين تانيا ويلينا ، تأبط الاثنتين ، وضغط على يدي كل منهما وغمز كلا بدورها وأوحى اليهما برغبته بلاكلام ، ثم قبل يديهما ومضى في سبيله .

في حوالي التاسعة مساء مرّ كفاتشي في حديقة « سانت — أونوري » . كانت نافذة تانيا مضاءة .

ـــ وإذا شاهدتك يلينا هنا ؟ ــ سألت تانيا كفاتشي بعد ساعة من دخوله .

ـــ سأقول لها في هذه الحالة ، انني تأخرت عن القطار ــ أجابها كفاتشي .

ـــ وإذا شاهدتك تانيا هنا غداً صباحاً ماذا ستقول لها ؟ ــ سألت يلينا كفاتشي في نفس الليلة .

ـــ سأقول لها لقد تأخرت عن القطار .

هكذا اتصلت الخيوط الثلاثة التي انقطعت منذ أربعة أشهر خلت . وبقدر ما كان كفاتشي النهم والمنهك ، يبحث عن الجديد كان يجد دائماً أشياء جديدة ، مما جعل المثل القديم ينطبق عليه تماماً : كان كفاتشي يلبس ويطعم خليلاته فيأتي الآخرون ، ممن يعرف ولايعرف ، يعرّون اولئك النساء ويساعدون كفاتشي . انطبق هذا المثل عليه ، لكن كفاتشي أغمض عينيه عمداً عن كل هذا طالما ان ارتداء وخلع ملابس خليلاته والمآدب ونفقات الفندق ستعود ببساطة إلى جيب « تانيا بروزورفا » الممتلىء .

في ذلك الوقت وعندما كان كفاتشي جالساً على شرفة « مقهى ــ ريش » وهو يحتسي العصير ، وقف اسحق ايدلسون فوق رأسه وقال له مؤنباً .

ـــ شققت طريقك ، أليس كذلك ؟ لم تعد تعرف العجوز اسحق ؟ أيجوز هكذا نسيان انسان تعرفه منذ زمن قديم ؟ بالأمس جاء وجهي في وجهك ، حييتك دون ان ألقى جواباً أيجوز هذا ؟ ! اصبحت انساناً عظيماً ، أليس كذلك ؟ .

ـ لا ، ياسيد ايدلسون لا ، أنا لم أرك . لوأنني رأيتك لتحدثت معك ، يسعدني الحديث معك دائماً . أنت رجل ذكي ومجرب ، وهذا فعلاً ماأرغب به .

ـ ذكي ومجرب وشريف ـ أضاف اسحق .

ـ صحيح انت شريف ، هيا أجلس بجانبي وحدثني كيف تحيا ريبي ! ؟

ـ شكراً ، بشكل جيد . انها تسأم بدونك . أنا لست وحيداً هنا . هاهي ابنة أخي « راحيل بجيت » هناك .

ـ حقاً ؟ إذاً ادعها ، دعها تتفضل . . فلتشرفنا !

ـ راحيل ! تعالي إلى هنا يابنيّتي تعالي ! تعرّفي : الأمير باغراتيوني ـ كفاتشا نتيرادزه الشهم الذكي ، الشريف والنبيل .

ـ تفضلا واجلسا . . اطلبا كل ماتشتهيان ! . . غارسون !

ـ كانت في البداية سلالة باغراتيوني الملكية في جورجيا ثم ظهر بعدها ملكنا « داؤد » ـ قال اسحق لراحيل .

ـ أحقاً ؟ فعلاً ؟ كيف ؟ من أين ؟

ـ أجل ـ أكد كفاتشي وكرر على راحيل سرد الأسطورة القديمة .

قفز اسحق فجأة :

ـ سأعود حالا ، لدي عمل بسيط .

وجرى خلف أحد الرجال .

في البداية تفحص كفاتشي راحيل من الأعلى إلى الأسفل ، ثم اقترب منها حتى تلامس وركاهما وكتفاهما فتدفأا ثم احترقا وتحولا إلى رماد .

كانت راحيل امرأة من نوع خاص وذات طباع تختلف تماماً عن بقية نساء « حريم كفاتشي » .

طويلة ، نحيفة ، بيضاء ناصعة ، في جلدها أثر بسيط للنمش ، حمراء الشعر ، خضراء العينين ، متطاولة الوجه مليحة الشكل جذابة ، لايستطيع المارة رفع أبصارهم عنها .

« عن متحف الفنون »

لمح كفاتشي ، فجأة ، شيئاً غريباً : حين انحنت راحيل ، توسعت فتحة الثوب وبانت خطوط عريضة على صدرها .

— مادموزيل ماهذا الذي على صدرك ؟

— أوى ! . . أرأيته ؟ لاشيء أقسم لاشيء ! — تمتمت راحيل خجلة وأغلقت بيديها شق الثوب الذي انسد تلقائياً .

— ومع ذلك ، قصي علي بحق الاله ، قصي .

— لاشيء يدعو للعجب . سأحكي لك : حين كان عمري عشرة أعوام ، كنا نعيش في جزيرة سيلان . وكان يسكان بالقرب منا فنان شهير يغطي الجسد برسومه بالحبر الصيني . وقد أعجبت أمي بالنساء اللاتي رسمن أجسادهن ، فأعطتني إليه أيضاً . هذا كل مافي الأمر لاأكثر .

— قولي لي ، أرسم كثيراً ؟

ـ كثيراً . . كل جسدي : هنا . . وهنا . .

ـ أأستطيع أن أمتع ناظري بهذه الرسوم ؟ يجب أن أخبرك بأنني ذوّاق جيد للفن .

ـ قهقهت راحيل من أعماقها واجابت :

ـ لم يرها أحد بعد .

ـ الكنز الدفين ، سيان وجوده أوعدم وجوده . لقد قال لي عمك ، أنك تعطين دروساً في الموسيقى أحقاً هذا ؟

ـ حقاً .

ـ أتقبلينني تلميذاً لديك ؟

ـ الدرس بعشرة فرنكات .

ـ إذا كان السعر أغلى بماثة مرة أستطيع تحمل النفقات بسهولة .

وقهقهت راحيل من جديد .

ـ وإذا دفعت عشرة أضعاف المبلغ ؟

ـ سنحسب هذا فيما بعد . لكن علي أن أقول لك أنه يتعيّن عليك أن تأتي إلى منزلي .

رازت راحيل كفاتشي بعينيها كما يروز الشاري بضاعته وضحكت.

ـ حسناً ، سأتردد على منزلكم . . وسأدفع عشرين فرنكاً .

في ذلك المساء دقت راحيل على البيانو بيد واحدة وراحت تعذب كفاتشي :

ـ دو . . و . . و . . ري . . ي . . ي . . مي . . ي . . ي !

أوي ، ياإلهي يالك من تلميذ بليد غير موهوب ! مي . . ي . . ي . .
مي . . ي . . مي — مي ! . .

مط كفاتشي رقبته وقطع حباله الصوتية ومع ذلك لم يستطع أن يفرق بين علامة موسيقية وأخرى .

أخيراً استاءت راحيل وقالت بخشونة :

— يبدو أن حسك وحس هذا الكرسي متساويان . انتهينا أنا خارجة .

— انتظري قليلاً فأنا لم أبدأ بعد .

وبدأ . كان الصراع حامياً وقصيراً . استولى كفاتشي على متحف الفنون بعاصفة هوجاء .

تفحص كفاتشي وبالتفصيل ، لوحات ذاك الفنان الشهير مع أن معرفة كفاتشي بالفن لاتزيد عن موهبته الموسيقية . لكنه وجد كنزاً أثرياً . في أماكن مختلفة من جسد راحيل اكتشف وقرأ أسماء بعض زبائنها :

« جان » « بول » « ايجن » « بيير » .

وعرف كفاتشي بعد بضعة أسابيع وبمحض الصدفة ان راحيل تعمل في « احد البيوت» وتتلقى عشرة فرنكات لقاء عرض متحف رسومها واستمتاع زبائنها — أما كفاتشي فكان يدفع عن كل لقاء معها . .
لكن من يدري ومن يستطيع حساب نفقات ومداخيل كفاتشي ؟

« كيف انهار (حريم) كفاتشي »

لم يكن الدخول الأول لراحيل حدثاً عظيماً في حياة كفاتشي ، إلا أنه تذكر ذلك اليوم إلى الآبد ، حيث قاد سبب بسيط إلى نتائج كبيرة .

— « راحيل السادسة . ألا يمكن ان يحدث خطأ ما في التوزيع..».

وكي لايقع في خطأ فعليّ كتب الجدول التالي في دفتر ملاحظاته :

— الاثنين : مدام ليابوش .

الثلاثاء : ريفيكا .

الأربعاء : يلينا .

الخميس : راحيل .

الجمعة : سوزان .

السبت : تانيا .

الأحد : راحة .

كتب الجدول وسجل عناوينهن . وكان كفاتشي يضع دفتر الملاحظات هذا في جيبه على الصدر وأحياناً كان يلقي به على الطاولة أو في درجه .

حفظ كفاتشي جدوله عن ظهر قلب ، وأضحت كتابة هذا الجدول لاتعني بالنسبة إليه شيئاً . فأهمل في كثير من الأحيان ذلك الدفتر وتركه لفترات طويلة على المنضدة .

ومرت الأيام . وفي أحد أيام الجمعة جاءت سوزان معلمة اللغة

الفرنسية لتأخذ نصيبها . لم يكن كفاتشي في البيت . انتظرته طويلاً ثم تناولت الدفتر بفضول ودون شعور منها قلبت صفحاته حتى وقعت على ذلك الجدول وفهمت سوزان المجربة كل شيء في لحظة . كثيراً مايتشاطر ويتقاسم الرجال والنساء الحب ، لكن هذه الظاهرة لاتمر بسلام عادة . كانت سوزان تعلم بعض الشيء عن خيانة كفاتشي لها وتشك في أخلاصه،لكنها ارتجفت بعد أن رأت ذلك الجدول ، هاجت واتقدت غيظاً . نقلت ذلك الجدول والعناوين على صفحة جديدة ثم وضعتها في جيبها ومضت .

وبعد يومين استلمت خليلات كفاتشي مثل هذه المذكرة :

« حبيبتي العزيزة ! سأكون مشغولاً في اليوم المحدد للقائنا ، لذا أرجو زيارتك لي في يوم السبت في الساعة الخامسة تماماً . لك مني آلاف القبل انتظرك بفارغ الصبر » .

كانت سوزان تعلم أن كفاتشي لن يسمح لتانيا بالافلات ولن يتمكن من انتظارها لذا حددت يومها وساعة موعدها .

وفي يوم السبت جاءت تانيا قبل الجميع ، ثم جاءت في أثرها سوزان ، ريفيكا ، يلينا ، راحيل وليابوش .

ماان تخطت تانيا عتبة البيت حتى قرع جليل باب غرفة كفاتشي مخبراً عن قدوم سوزان ، وبعد عشر دقائق ارتدت تانيا ثيابها من جديد وخرجت من غرفة النوم إلى المكتب ومنه إلى غرفة الاستقبال حيث اجتمعت كل النساء .

تنقل كفاتشي كالديك الأحمق وهو يتمتم :

— أرجو ان تتعارفن . . تفضلن . . أجل ، طقس جميل ، بالأمس مساءً كنت في السيرك . . .

ثم تحيّنت كل منهن الفرصة وانتحت بكفاتشي جانباً وسألته نفس السؤال :

— أأنت بعثت إليّ بهذه الوريقة ؟ أليس كذلك ؟ علام دعوتني ؟

والويل لكفاتشي إن قال لا وان قال نعم .

استجمع كفاتشي قواه . اشتغل المخ المجرب ، لكنه لم يستهد إلى حل . وأحس بهلاكه .

— بيسو ، هيىء الشاي بسرعة . أجد ما دبّر مكيدة فايف أوكلوك (الساعة الخامسة) . استدع الجميع وادخل أنت أيضاً ، تولوا أمور هؤلاء النسوة وإلا سأهلك !

تهامست النسوة سراً متذمرات ، لاحظ كفاتشي ان سوزان كانت أكثر المهتمات ، وفهم ان يدها وراء ماحدث . لكن لسانه كان معقوداً ويديه مقيدّتان .

دخل ، أثناء ذلك رفاق كفاتشي لنجدة القائد واستقبل النسوة الست ستة من الرجال . تقاسموا النساء بحيث بقيت سوزان لكفاتشي .

جلس كفاتشي بقربها ، استفسر عن صحتها ، ابتسم لها وقرص يدها قرصة كادت تصرخ على أثرها ثم قال لها هامساً :

— سأريك ! انتظري قليلاً . . انتظري . .

— جليل ! — نادت سوزان جليلاً ، الذي نظر عبر الباب — جليل ، تعال هنا ! تعال واجلس . . كيف حالك ؟ ستسليني . حسناً أحك لي : هل تعجبك الفرنسيات ؟

أجلست سوزان جليلاً بالقرب منها واحتضنته تماماً .

أزهرت على وجه جليل ابتسامة عريضة وظلت مستقرة عليه . لمع بأسنانه البيضاء وبدأ يهشم اللغة الفرنسية بلا رحمة ، يتحدث باصابعه ويتصبب عرقاً :

— جليل ، اتعجبك هذه المرأة ؟ — سأله كفاتشي .

— جداً ، ياعزيزي ، يحب جليل المرأة البيضاء بشغف .

— في هذه الحال ، أهديها لك .

— شكراً أيها الأمير ، لكن . . لكنها لن تذهب مع جليل .

تقرّب كفاتشي منهن الواحدة بعد الأخرى ، لكن كنّ جميعهن كما لو كنّ قد اتفقن فيما بينهن : لم يكلدن كفاتشي وأدرن ظهورهن له ، حين قدّمت الشاي نهضن جميعاً على الفور صافحن أصدقاء كفاتشي وتوجهن نحو الباب .

— انتظرن . . إلى أين تسرعن ؟ أشربن الشاي . .

دعاهن كفاتشي لكنهن لم يستجبن ومضين دون أن يودعنه .

— ماهذا ؟ سأل الرفاق بعضهم بعضاً .

— هذه سوزانكا ، هي من دبرت الأمر لي — قال كفاتشي — لقد هلكت وخربت !

— لاشر بلا خير — قال بيسو مواسياً .

— أجل لقد قلت الحقيقة يابيسو ! — قال كفاتشي موافقاً — سأستريح وسيكون لدي مزيد من الوقت لعمل جديد .

هكذا هدمت ودمرت « سوزانكا » المتحمسة والمحبة للحياة مملكة الحريم لدى كفاتشي .

« أحد الأحاديث وعودة ثلاثة رفاق إلى الوطن »

استقر كفاتشي وزمرته في باريس وتعززت اقامتهم . في البداية ، وكطفل صغير ، وقفوا على اقدامهم بصعوبة بالغة . كانوا يتلفتون خجلين ، يسيرون خفرين ، يقتاتون بالشحوم التي نقلوها من بطرسبورغ بالوسائل المتاحة ، لكنهم انتعشوا تدريجياً ، تشجعوا وبدؤوا ثم انطلقوا كأحصنة جامحة :

ولماذا لاينطلقون ؟ لقد درسوا اللغة الفرنسية بشكل اصبحوا يستطيعون معه التفاهم ، اعتنقوا مثلهم وعاداتهم ، لبسوا القبعة الاسطوانية اخذوا يقلدون الناس ثم انطلقوا .

حام كفاتشي وزمرته حول الأسرة الفرنسية طويلاً ، دقوا ابوابها ، نوافذها وحتى مداخنها . محاولين الولوج و « تدبير الأمور » ، لكنهم سرعان مااقتنعوا ان الأسرة هناك كانت أشد انغلاقاً من السجن لدينا . اقتنعوا لكنهم لم يغتموا . تركوا الأسر ومضوا إلى الحدائق العامة حيث وجدوا كثيراً من المغفلين والمبذرين .

أمضى كفاتشي وزمرته مايقارب العامين في الاصطياد ضمن ذلك البحر العميق اللامحدود . من يقدر ، من يصف بطولة ، مرونة ، حذر ، فطنة ومهارة يدي كفاتشي ؟ !

جاؤوا قطيعاً من الوحوش لايخضع لأي حساب .

دار في فلك كفاتشي روس وبريطانيون وألمان ، وصاروا حماة وخدماً له ، وكان أي واحد من هؤلاء كأفضل رفاقه الآخرين بالنسبة له .

انها الشجاعة والبطولة واليد الجبارة !

وبعد أن اقتحم القطيع ذاك الحقل ، تقدموا إلى ماسواه ! ابتزوا ، سلخوا الجلود ، أثاروا غضب الرب في السماء .

جنوا مالم يزرعوا ، وعرقوا من « التدبير » .

كان الناظرون إلى كفاتشي يقولون : « أشبه بالحورة وبشجرة الجنة » .

ذات مرة وبعد أن « دبر » الرفاق عملين ضخمين وتدفقت الأموال كالتراب ، وبعد أن وزعوا هذا « التراب » فيما بينهم بشكل أخوي وصداقي جلسوا ثم فتحوا زجاجة « شامبانيا » وأداروا الحوار التالي :

— أيها الأمير ، أتدري ماسأقوله لك ؟ دعنا نثب إلى رشدنا — بدأ أفلابريان حديثه :

— ماذا تقول أيها التعيس ؟ ألست أنا في كامل عقلي ؟ — قال كفاتشي مستاء .

— إذا استمعت إلي وأخذت برأيي فأنت في كامل وعيك ، وإلا فهذا شأنك . لقد قمنا بعمل جيد . لم يحلم أبوك « سلبيسترو » أو أبي « غالوست » ان يرى أموالاً كهذه ، لن يتمكنا من عدها خلال أسبوع . تعال نتعقل ونترك الحماقة ! أنا أعلم أنك للآن لم تفكر بغير السكر والمنادمة . لكن هذه الأموال لابد ستنتهي ، ثم تجب البداية من جديد . ذات مرة سينكسر الابريق عند النبع — كما يقولون — وماذا بعد ؟ سيذهب كل شيء ادراج الرياح . لدينا المزيد من الأموال و « الحدود » تخطيناها . ان شئتم نتسكع قليلاً . كم شربنا ! وكم من

النساء « جربّنا » ، والآن فلنهدأ ونعش حياة خيرّة وبذا نفلت من السجن ونحافظ على ونكوّن أسرة ونجد عملاً حسناً ، هل راقت لكم هذه الفكرة ؟

— هذا الا « سيدراك أصبح ضيق الأفق — صاح كفاتشي بصوت مرتفع — نغادر باريس ونجري إلى جورجيا الخربة تماماً ؟ نترك تلك الأميرات الجميلات هنا لنتبع الفتيات الريفيات في « غفانك » ؟ نخرج من هذا القصر لندخل « سامترادسكي » أو حتى خم دجاج تفليسي .

— الخروج من « الأولمب » و « الميلن روج » « مقهى ريش » للعودة إلى اليهودي « دانييل » و « لاتادزي » و « يريمو » ؟ ! — قال تشيبو نتيرادزه مستغرباً أيضاً .

— كباريه « الأباشي » هنا والتنزه في « البولفار » الكبير يعادل كل جورجيا — أكد تشيكنجيلادزه قائلاً — لقد فقد هذا « السيدراك » عقله .

— عم تبحث ؟ ماذا أبقيت هناك أيها الأحمق ؟ — سأله كفاتشي .

— لقد قلت لك بعض الشيء ، وسأقول لك اشيئاً أخرى . أتدرون ماذا أبقيت في جورجيا ؟ عجوزين — أمي وأبي اللذين شقيا من أجلي وأقارب مساكين يهتمون بأي شيء يخصني وينتظرون عودتي .

قاطعه الرفاق بالضحك .

— لقد قلت أنه أصبح ضيق الأفق !

— ماذا تركت أنا ؟ وا..خ كل شيء : كروم العنب في (تيلافي) ، منظر « ديكفاري نسيم « تشيفكونباري » النبيذ « الكاخيتيني » بنيّا تنا ذات العيون البراقة والزملاء المخلصين .

قاطع « جليل » سيدراك :

— الزملاء الطيبين « الكباب الشهي » « الغنم والشوربة » « بيّات ازيري » وبالاضافة إلى ذلك ، زوجة القسيس البيضاء وبقية القصة . . .

— آه ياعزيزي ! — صاح غابوتشخوبيشفيلي متأثراً — ماذا خلفّت ورائي في غوريا ؟ القلعة الغورية — مجدّ الله ذكرى بانيها — والطاولة التي كنا نمدّ عليها المائدة في أعلى القلعة والشاشليك (١) ذا الرائحة الواخزة واغنيات الشراب وأصوات المزمار العذبة . قاطعه سيدراك قائلاً :

— وعازف الزورنا (٢) الذي يعزف أغنية الصباح من مكان عال مرسلا تحيته إلى الفجر . ثم قاطع بعضهم بعضاً :

— في الصباح يطوف الرمث (٣) عبر « الكورا (٤) وهناك نفرش المائدة ونجري كالسهم نحو الأسفل . .

— بعد أن تعرق من العمل في كروم العنب ، تجلس تحت ظل شجرة جوز عظيمة ثم تأكل خياراً بارداً و« تشخيرتما (٥) » و«ماتسوني» .

---

(١) شاشليك : لحم مشوي .

(٢) زورنا : الة موسيقية جورجية تشبه المزمار .

(٣) الرمث : خشب يضم إلى بعضه يستعمل للتنقل البسيط والنزهة في النهر .

(٤) كورا : نهر يمر عبر مدينة تفليس ويصب على الشاطىء الأزربيجاني .

(٥) تشخيرتما : شوربة دجاج جورجية .

— عندما تسبح مساء في نهر « ليانخفا » ثم تقطع مجرى أحد فروعه وتبدأ باصطياد السمك ثم تضرم النار هناك وتجهز « تسوتسخالي (١) .

— حين تعود من الصيد حاملاً حمامة برية وأرنباً تشويهما في الدغل . .

— ثم تدخل الغابة النائمة وتتبرد !

— ماذا حصل لهؤلاء التعساء ؟

— ظننت ان هؤلاء الفلاحين قد أصبحوا أوروبيين وصاروا مثقفين ومتحضرين ، لكنهم في الواقع آسيويون حقيقيون !

— من خلالهم اكتشف داروين قانون « الرجعة » اذا حسنوا سلالة شجرة فستجن تلك الشجرة وتعود إلى سلالتها القديمة وقد حصل لهم أيضاً حادث الرجعة .

— وماذا يفهم هؤلاء الأشقياء في الالحادية ! — قال كفاتشي خالطاً بين الالحادية والرجعة (٢) . مرة أخرى علل غابو رغبته وتعطشه للعودة إلى أهله وذكر بالوطن .

عند هذه الكلمة تماحكوا .

— كل العالم وطني — قال كفاتشي — مكان اقامتي هو في كل بلد متطور . أنا أحب الثقافة ، الحضارة ، التقدم ، الشارع النظيف ، المسكن النظيف ، اللهو اللطيف ، أهوى القبة المنشاة ، القبعة الاسطوانية ، الأحذية اللماعة ، أحب النساء النبيلات ، النظيفات المستحمات ، اللواتي يرتدين الأثواب الحريرية ويبدلنها مرتين في الأسبوع على الأقل .

---

(١) تسوتسخالي : سمك نهري يشوى طازجاً .

(٢) ثمة تشابه لفظي بين هاتين الكلمتين باللغات الأجنبية .

أنا لاأفهم كيف يمكن العيش في مدينة لاتتوفر فيها عدة مؤسسات للتعليم العالي العلمي والفني وعشرات المسارح وحيث الحياة الفكرية ضعيفة بل لاوجود لها البتة .

ــ حيث تتوفر لي قطعة خبز طيبة ــ هنال وطني ــ تدخل بيسو .

ــ كيف يمكنني ان أنتفع من وطن لايحوي سوى خممة (١) الدجاج والرعاة والمزارعين ــ قال « لادي » مستغرباً .

ــ هكذا إذاً ــ صاح غابو ــ يستنتج من ذلك : إذا كانت أمي عجوزاً مسنة مسكينة غير جميلة يجب ان أنبذها أتركها وأنساها !

ــ لاياعزيزي ، ــ تدخل جليل قائلاً ــ أنا أشفق على أبي جليل « سوين ايميك أوغلي » وعلى أم جليل « الخانم » لايجوز ، هذا يغضب الله !

ــ أم إذا كان والديّ ــ قاطعه سيدراك ــ شابين جميلين ، موفوري الصحة مثقفين وغنيين عندئذ عليّ ان اودي واجب البنوة ؟ أنا اشفق على العجوز « غالوست » أشفق على أمي « مارتا » الدرداء . أمن أجل هذا ضحيا بحياتيهما وبشبابيهما ؟ كيف يتخلى عنهما الجاحد « سيدراك » في الشيخوخة ويتركهما لرحمة الآخرين ؟

ــ هو أيضاً يحكي فقط ــ تابع غابو كلامه ــ يلعب بالكلمات ، وإلاّ علام يحمل كفاتشي أهله معه ؟

غيروا موضوع الحديث . مرة أخرى تطرقوا للطعام والشراب

---

(١) خممة : جمع خم = بيت الدجاج .

وذهبوا وراء سيدراك الذي وجد في تلك الأيام مطعماً شرقياً صغيراً في الحي اللاتيني .

دخلوه وقلبوا مأوى اليونانيين رأساً على عقب . داروا ، تنقلوا ، ثم جهزوا الطعام بشكل جماعي ، وضعوا الجبنة والخضار والنبيذ القبرصي والكونياك اليوناني والدجاج المشوي و « البلوف » و الكباب والخبز القفقاسي والشاشليك مع البصل وسمك الزخر وجبنة « الموتالي » وشوربة الدجاج والسمك النهري و « ساتسيغي »(١) . تنادموا حتى الصباح على الطريقة الجورجية ، استجروا اليونانيين ، سقوهم حتى الثمالة ثم تركوهم مطروحين على الأرض . بعدئذ بدأ غابو وجليل وسيدراك الجدال وهم في الطريق ، وفي اليوم التالي سافروا عائدين .

بعد عدة أشهر علم الرفاق الباقون في باريس ان غابو اشترى قطيعاً كبيراً من الغنم وبيتاً وارضاً زراعية وغابة ومرعى وان سيدراك افتتح مخزناً كبيراً في « تيلافي » وأضاف إلى كرمه ثلاثة كروم أخرى ثم وسع تجارته مع تفليس . أما « جليل » فقد اقتنى في تفليس محلاً تجارياً للفواكه والسكاكر واستأجر أحد الحمامات .

حقق الثلاثة رغباتهم : افرحوا أهلهم، ضاعفوا من أصدقائهم واقربائهم واشادوا اعشاشاً دافئة .

يتعب غابو وسيدراك من العمل فيستريحان تحت اشجار الجوز يتنادمان ، يعزفان على الناي أو الزورنا أو يسبحان أحياناً في النهر ويصطادان السمك والعصافير . كثيراً مايأكلان الشاشليك وحساء

---

(١) ساتسيغي : ديك رومي مع « صلصلة » الجوز .

الدجاج (تشيخيرتما) ، يشتريان النبيذ الكاخيتيني الأحمر ، ثم تأتي أغاني الشراب ، بعدئذ يتعقبان الفتيات البراقات العيون وكثيراً مايتذكران الماضي ، يتحدثان عن اصدقائهم بلسان فاحش ويغمغمان وهما يتحدثان عن بطرسبورغ وفيينا وباريس . وجليل أيضاً يعمل وينادم ، وبدلاً من حساء الدجاج والفروج المشوي كان يتناول « البلوف » وحساء الغنم وأحياناً كان يدعو الشاعر الشعبي عزيز ليغني له أغاني شعبية تتغزل بالروسيات الشقراوات اللواتي يميل اليهن جليل كثيراً .

تحققت كلمات كفاتشي : أصبح غابو وسيدراك آسيويين من جديد ، تخلفا عن العالم واصبحا جاهلين : قليلاً مايلمسان الصابون ونادراً مايغيران ملابسهما الداخلية ، ينظران شزراً إلى كل ياقة قميص بيضاء ، لايلمسان جريدة ، لايرتادان المسرح ويتحاشيان ابناء المدن النظيفين . بالمقابل فهما يعيشان في وطنهما يتنفسان هواءه ، يحرثان ارضه ويفرحان لفرحه .

أما كفاتشي و « بيسو » و « لادي » و « تشيبي » فقد مضوا يتنقلون في أوروبا ، يتنفسون نسائم حدائقها . عاشوا في المقاهي وتهافتوا على « الكباريهات » والمطاعم وذابوا أمام النساء . تصرفوا كـ « جنتلمان » — كالامراء و « الماركيز » ومن وقت لآخر « يدبرون » مكيدة ، أو مقلباً لضحية جديدة .

من يعرف من يفهم من الخاسر ومن الرابح . كفاتشي واصدقاؤه أم غابو وجليل وسيدراك ؟

« كيف أغرم كفاتشي و ليدي هارفي كل منهما بالآخر »

مرت عدة أيام بعد أن هدمت سوزانكا الصغيرة مملكة الحريم لدى كفاتشي . قيّم كفاتشي الوضع وزانه – مضى في ذلك اليوم إلى تانيا . لكن تانيا لم تستقبله. لكنه لبث واقفاً أمام بابها إلى أن اشفقت عليه وفتحت له الباب .

– ماذا تريدون ؟ انا لم أعد أعرفكم . . . لقد انتهى كل شيء فيما بيننا .

بدأ كفاتشي كعادته يقسم الايمان ، يتوسل ، يزجي الوعود ، يستعرض الماضي . . . الخ فقد كان يعرف جيداً ان خصامه مع تانيا يجب أن ينتهي دوماً كما انتهى في المرات السابقة :

طيّ الماضي ، حلف ايمان جديدة . وكان يعرف أيضاً ان أفضل وسيط بين العاشقين المتخاصمين هو الفراش الوثير الدافيء .

لذا انتهى هذا الخصام أيضاً بالفراش . ومن جديد أصبح الاعتماد المالي مفتوحاً أمام كفاتشي ، وفي اليوم التالي عادت السيدة « ليابوش » من تلقاء نفسها إليه ولم يعان في البحث عن البقية .

ذاق كفاتشي وخبر عادات وذوق الأوروبيين وكيف يحتفل الأوروبي صاحب الأموال باستعراض ممتلكاته ويتبجح بها أمام النساء :

كان يملك فندقاً في باريس ، « فيلا » فخمة في بيارتيس ، يختاً في نيس، عربة – صالة في المحطة ، ثلاث سيارات في الكراج ، خيولاً في الاسطبل ودفتر الشيكات في جيبه .

كان يتنزه في ذلك الصيف في « تروفيل » . خرج مساء إلى « البلاج »

حيث تعرض النساء السابحات في ذلك الوقت أجسادهن العارية . تفحص هذا المعرض بعين المشتري ، دغدغ قلبه واشبع عينيه بهذا المنظر النادر الفريد . نساء من كافة الأجناس والقبائل جئن يلقين على الشاطىء باجسادهن التي تكاد لاتغطي مختلف الأقمشة شيئاً منها .

انجليزيات طويلات ، منتصبات ، حمراوات ، نحيفات وغير ممتلئات . هولنديات ممتلئات كالاوزات ، ذات أكتاف وأوراك عريضة . اسكندنافيات والمانيات هيف بيض متباهيات ، اسبانيات لدنات ممشوقات القوام خفيفات شامخات سمراوات بلون البرونز ، إيطاليات مختلفات في القامة واللون . وفرنسيات نشيطات ذوات دلّ وغنج ، مياسات ورشيقات متوقدات وهائجات ، غزالات وبهجات ، خفرات وجريئات ، طويلات وقصيرات ، ممتلئات ونحيفات ، شقراوات وسمراوات « عذراوات » وسيدات ، « مس » و « مسز » « سيستريس » و « دونا » ومن شتى الأعراق والقوميات .

وفجأة ظهرت ، هناك من بين الأمواج الحورية — أفروديت بلون الزبد ، ابنة المحيط الرائعة الفاتنة الساحرة : شجرة سرو ، لدنة مرتفعة النهدين ضخمة الوركين دقيقة الخصر كغصن البان،جيداء ، شقراء الشعر ، مائلة للحمرة ، زرقاء العينين . لم تلحظ هذه الحورية كفاتشي . نزلت هناك عند اطراف الماء والقت بيديها البيضاوين وراء عنقها ، تثنت وتمددت بلذة .

— يالهي القدير ! — صاح كفاتشي مخاطباً نفسه — وفي الحال تحرق رغبة . ارتبك تضرج وجهه . . . هاهي أفروديت قد ولدت حية من جديد ، انها الحجر الكريم لهذا العالم ! هذه امرأة ! ساعدني

يارب ! أعنّي يا إلهي وبعدئذ أكون خادمك ، أقسم أيها الرب العظيم أن أشيد لك كنيسة أشعل فيها للأبد شمعة لا تخبو . اثناء ذلك التفتت الحورية . نظرت إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين وفُتحت أبواب السماء لكفاتشي عبر عينيها وابتسامتها الساحرة وأسنانها اللؤلؤية . أحرقته وحولته إلى رماد . ثم أغمضت عينيها فجأة ، مدت عنقها وبعدة قفزات غزالية وثبت إلى « الكابين » وهي تضحك ضحكات فضية .

بعد ساعة انتقل كفاتشي إلى الفندق الذي تقيم فيه تلك «الأفروديت». دس في يد البواب قطعة ذهبية واستفسر بالتفصيل عن ربة الجمال

ـ الليدي هارفي ـ أجاب البواب ـ أرملة اللورد هارفي الذي مزقه العام الماضي نمر البنغال في الهند أثناء الصيد . تحب الليدي السباحة واللعب بالروليت ولحم العجل المقلي وصيد السمك والأزهار وأمثالك من الرجال السمر .

أمضى كفاتشي الليلة كلها في الكازينو يحوم حول الليدي هارفي .

كان الروليت يدور كالذئب ومشرف لعبة القمار يكرر أعماله المألوفة . يجرف المحاسبون بقضيب صغير الأموال المكتنبة ثم يوزعونها . يبتسم الرابحون ويكفهر الخاسرون وكلهم ـ بعضهم بشكل خفي والبعض الآخر بشكل واضح ـ يضطرب ، يشتعل حماسة ويرتجف.. كان يقف إلى جانب الليدي هارفي مرافقتها « مس غوبكينس » ورجل نحيف أغطش (١) صارم ، كهل يدعى (تسربر) وشاب أشقر يقارب العشرين من عمره ، ناعم كالمرأة خجول ، مطيع ، منفوخ ، ساذج كسمكة رثكة صغيرة .

---

(١) اغطش : شبيه بالأعمش ـ ضعيف البصر .

لم يرفع الرجال أعينهم عن « الليدي » . مشوا وراءها كظلها لاحسين شفاههم مدغدغين قلوبهم ممتعين أعينهم .

خسرت الليدي هارفي مايقارب الألفين وخسر كفاتشي ثلاثة أضعافها .. ومن وقت لآخر كان الشاب المخنث يخرج من جيبه الجانبي النقود ويضعها في يد « الليدي » صامتاً . تصعق « مس غوينكينس » وتقطب الليدي هارفي جبينها الرباني وهي بالإضافة إلى ذلك لم تسمح لأحد بالاقتراب منها إلا لذاك الغلام المنفوخ .

أخيراً ثنت عنقها االبجعي ، أضاءت كل شيء بنور سماوي ، رفعت ذيل ثوبها الحريري وخرجت من القاعة سابحة بخطواتها المتماوجة ، ساحبة معها الضحكات والعيون الزيتية ورغبات الرجال .

تعقبها كفاتشي وأوصى البواب :

— أحمل لـ « الليدي هارفي » سلة من أجمل الزهور وأرفقها بهذه — وقدم إليه بطاقة تعريف . في اليوم التالي تلقى كفاتشي على طبق فضي بطاقة صغيرة موشاة بالأطلس كتب على أحد وجهيها : « أشكرك ، أحب الزهور كثيراً أثناء السفر ، لاتبحث عني ! » وعلى الوجه الآخر كان عنوانها مطبوعاً : ليدي اليزابيت هارفي . لندن ، وست إند . تشيرنغ — روس / ٢٧٦ / .

« ماذا ؟ لاتبحث ! عندما تقول النساء لاتبحث ، يعني العكس : يجب ان تتبعها وتبحث عنها

يابيسو ! أعرفوا حالاً إلى أين سافرت ؟ ومتى ؟ اسرع ! هيا رتب الأمر لاتتلكأ . . هل سافرت إلى الهافر على السفينة ؟ حسناً لعلها

تقصد لندن . بيسو أسرع واستأجر زورقاً نارياً . الطقس مناسب . سأتمكن من اللحاق بها هنا أو أصل إلى الباخرة التي ستتوجه إلى « انكلترا » .

استقلوا زورقاً كبيراً وتوجهوا إلى المافر . عندما اقتربوا تجاوزت السفينة الكبيرة الزورق .

شاهد كفانتشي « الليدي هارفي » على ظهر السفينة ممسكة بالحاجز . عرفته فابتسمت ولوحت له بمنديلها طويلاً .

اندفع كفانتشي إلى صاحب الزورق :

— إلى أين تسافر هذه السفينة ؟

— ستجتاز فرنسا والبرتغال ، ثم تمخر بمحازاة الشواطىء الاسبانية حتى تصل إلى مرسيليا .

— هل استطيع اللحاق بها ؟

— عن طريق السكة الحديدية في « برست » أو « سان نازار » هذا فيما لو توفر قطار سريع .

بعد ساعة كان كفانتشي مستقلاً قطاراً مستأجراً ذا عربة واحدة راكضاً وراء أسيرته الجديدة الفارة . فما للقطار البخاري جناحان صغيران . كانت القطر العادية ترتاح في المحطات مفسحة الطريق لكفانتشي المندفع .

طوى القطار « لوان » « لي مان » « انجي » « نانت » وفي الصباح الباكر أشرفوا على « سان نازار » .

— هل وصلت سفينة « بوردو » ؟

ـ سنرحل بعد ساعة .

ـ الحمد لله . أسرع يابيسو !

بعد ساعتين وعندما دخلت السفينة المحيط كانت الليدي هارفي على سطح السفينة الأعلى تتألق كشمس ثانية . وقف كفاتشي أمامها حانياً رأسه :

ـ سيدتي أرجو المعذرة والعطف . لقد كتبتم لي ألا أبحث عنكم ، وأنا لم أنفذ أول أمر لكم :

بدت السيدة المستغربة مذهولة وكأن لسانها قد قطع :

ـ كيف؟ من أين ؟ عندما خرجت هذه السفينة من الهافر كنتم في الطريق إليها .

ـ لقد لحقت بكم بقطار خاص مستأجر ، سيدتي ! لوأمرتني أن ألقي بنفسي في الماء لكان أهون علي ان أوافقك من أن أفقدك .

سحر كفاتشي القلب الانجليزي البارد وأغرقه بفروسيته وولعه .

على الحدود الفرنسية ـ الاسبانية في مدينة بيارتيس في منطقة الباسك غادر الاثنان الباخرة .

قبل أن ترسو الباخرة في الميناء أراها كفاتشي بالمنظار « الفيلا » المغربية الطراز ، الرائعة ، المعلقة على قمة صخرية وسألها ؛ :

ـ هل أعجبتكم سيدتي ؟

ـ إنها رائعة ، الحياة ستكون جنة على مثل هذا الارتفاع والحديقة هناك واسعة . لوكانت شاغرة لاستأجرتها !

– هي شاغرة لكم سيدتي . إنها فيلتي ! امنحوني الشرف ، هبوني السعادة !

– لك ؟ حقاً ؟ لوعشت فيها لحققت رغبة كبيرة لدي ... لكن ..

حدس كفاتشي الأمر :

– لا تهتمي سيدتي ، سأسكن في فيلا أخرى .

اتفقا . صارت الليدي هارفي في السماء السابعة من الفرح .

تنعم الاثنان نهاراً وليلاً ، عاشا بمرح وبحبوحة . مرة يمضيان إلى « البلاج » ويسبحان ، ومرة يخرجان إلى أعماق المحيط في زورق ناري ، وتارة يسافران إلى « بايون » أو يسافران في السيارة ويصعدان إلى سلسلة « البرينيه » ، وكثيراً ما أمضيا اليوم بكامله هناك يقضيان الوقت بين الباسكيين .

ذات مرة أجاب أحد الباسكيين ، صاحب المقهى ، الليدي هارفي قائلاً :

– نحن من أقدم الشعوب في أوروبا نحن ايبيريون (١) .

– ايبيريون ؟ أنا أيضاً ايبيري جورجي – قال كفاتشي مستغرباً .

حدق كل منهما في الآخر ، تبادلا النظر طويلاً . سأل كل منهما الآخر كثيراً، قارنا بين لغتيهما ، تطابقت بعض الكلمات لكنهما مع ذلك لم يتقاربا ولم يتآخيا .

فهم كفاتشي شيئاً واحداً هو أن الباسكيين كانوا يوماً ما بحارة

---

(١) ايبيريا : اسم أطلق على شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال .

أشداء وقراصنة ، وأنهم اكتشفوا المحيط المتجمد كما كانوا يشكلون دولة قوية ولم يخضعوا ابداً للرومان أو الاسبان . كما كانوا يشعلون نار الانتفاضية من وقت لآخر في سلسلة البرينيه ويروونها بدماء الحرية .

وحتى الآن مازال تعليم واستعمال اللغة الباسكية ممنوعاً . كل فرد من الباسك يفخر ويعتز بدمه وحبه للحرية . لم تعرف الرقبة الباسكية الفخورة نير العبودية أبداً . يقارب عددهم المليون شخص ، هاجر الكثير منهم إلى المكسيك وكوبا والأرجنتين في سبيل لقمة العيش . لاحظ كفاتشي أيضاً أن الباسكيين أقوى وأجمل وأسرع من الفرنسيين والاسبان ، يحلقون ذقونهم كاملاً ، يرتدون قبعات حمراً وزرقاء ونطاقاً و « أرخالوك »(١) قصيراً . يحبون كثيراً لعبة السيف والترس والرقص والأغاني والتجمعات الشعبية واللهو . تعتبر النساء عندهم معيلات يؤدين اعمالاً شاقة جداً .

اهتز شيء ما في قلب كفاتشي ، وغلت فيه دماء بعيدة خفية ، شعر لدقيقة بالقرابة والتقارب والوحدة الروحية مع ذلك الشعب ، لكن تلك الشعلة خمدت في الحال . ثم نسي كل شيء لأنه كان يخجل أمام الليدي هارفي الفخورة . ارتبك ، أحس بالاحراج ثم لم يكن لديه آنذاك وقت للتفكير في ذلك .

كان كفاتشي والليدي يتنزهان كل مساء في الغابات والحدائق ، يستمعان إلى الحفلات الموسيقية ثم يتناولان طعام العشاء في الكازينو مرة وفي سواه مرة أخرى وتعلقا بالروايت،يربحان القليل ويخسران الكثير .

---

(١) أرخالوك : الجزء العلوي من اللباس الرجالي للباسك .

أضنى قلبُ الليدي المتجمد كفاتشي فنحف وذاب قلبه الملتهب وذبل .

ذات مرة ، وبعد العشاء ، احتضن كفاتشي الليدي المنتشية قليلاً في ممشى حديقته المظلم وضمها إلى صدره . اشتعلا مرة أخرى ثم تحولا إلى رماد في نار الشهوة .

ارتمى كفاتشي على أقدام الليدي ، رجاها ، توسل إليها وهو يضم ساقيها إلى صدره ويسقيهما بدموعه .

قفزت الليدي من بين يديه ضاحكة وهربت داخلة البيت .

دار كفاتشي المتكدر في الممشى المظلم ، دق على صدره بقبضة يده ثم تمتم :

— هكذا ، حسناً أنا أعرف الآن . . أنا أعرف . .

عندما اطفىء الضوء في غرفة نوم الليدي صعد إلى الشرفة دونما ضجة وفتح النافذة التي كانت مفتوحة ليلاً .

— أيها الأمير . . فرانس . . جنتلمان . . ماذا تفعلون ! ثوبوا إلى رشدكم . . سأصيح . . آنسة « غابكينس » . . آنسة « غا . . . » .

أجبر كفاتشي الليدي الخائفة على الصمت بشفيته ، احتضنها وداعبها .

بعد خمس دقائق سمعت خلف الباب أصوات خطوات مس غابكينس وصوتها الوسنان :

— سيدتي . . سيدة هارفي . . هل ناديتموني ؟ اتبحثون عن شيء ؟

بصعوبة بالغة تمكنت الليدي هارفي المتقطعة الانفاس من ان تجيب مرافقتها بهمس متقطع :

ـــ لاشيء ، مس . . لاشيء . . وجدتها . . وجدتها . .

ـــ انتم وجدتم وأنا أيضاً لم أبق فارغ اليدين ! همس كفاتشي في اذن الليدي ضاحكاً بصوت خافت .

ـــ تس . . س . . أصمت أيها المجنون ! ـــ وأرغمته بدورها على الصمت بشفتيها الملتهبتين متحولة جذرياً وكتمت انفاسه بيديها الطويلتين القويتين وكادت ان تقطع أوداج الأمير الذي بذل جهداً في المحافظة على هدوئه .

ثلاثة أيام بلياليها لم ير أحدٌ الأمير أو الليدي هارفي في الكازينو أو على الشاطىء أو في الغابة أو في الحدائق .

أهدى كفاتشي السعيد السيدة المنهكة من الحب المفرط « الفيلا المغربية الطراز » عرفاناً بالجميل وزين صدرها المرمري العارم بعقد من اللؤلؤ بحجم الجوزة .

ثم تملك الاثنين جنون النشوة والشبق والحب . لم يستطيعا الاستقرار في أي مكان وتهدئة دمائهما المسعورة . كانا يهرعان مرة في الأسبوع على الأقل إلى المحطة يتنقلان تحت تأثير نار مشبوبة بين أماكن الاصطياف في كافة أنحاء أوروبا .

عن « تدبير » أحد الأعمال الكبرى

كازينو « مونت كارلو » مضاء بشكل ساطع . كل شيء يبرق ، يشتعل ويلمع : الذهب ، البرونز ، الفضة ، المرمر ، اللوحات الثمينة ، غوبلين (١) . السجاد ، الديباج ، المخمل والأطلس .

---

(١) غوبلين : نوع من النسيج المشجر .

في تلك الصالات يحوم القادمون من كافة أنحاء العالم كالذباب ، كي يجربوا حظهم . تسمع مائة لغة وترى بمائة قبيلة : روس شماليون شقر ، اسكندنافيون ، المان ، أنجليز رشيقون وحارون ، فرنسيون سمر ، ايطاليون واسبانيون ، أمريكيون كرماء جافون وحازمون ، مكسيكيون وبرازيليون حارون ، ثائرون عصبيون ، خلاسيون مهجنون ، عرب وأتراك ، فرس وهنود ، صينيون ويابانيون ، آسيا وأوروبا ، أمريكا وأفريقيا — كلهم اجتمعوا هنا يديرون دولاب الحظ محاولين الاثراء والغنى الفاحش

يتراءى الربح والخسارة على وجوه الجميع . يبتسم البعض ابتسامة الغبطة ، يمرحون ويضحكون بلا اكتراث ، ويندب الآخرون خسارتهم ، يقطبون ويكتئبون ، ويفلس بعضهم ويسقطون مستسلمين لليأس الكامل ويتسولون . وأحياناً يسقون بدمائهم الحديقة الاسطورية .

اعتاد البعض ارتياد « قصر الدموع والحظ » وشاخوا تحت زحمته . وهم يفهمون سر اللعبة وتوصلوا إلى أبواب الربح واكتشفوا طريقة الاثراء وأصبحوا يمسكون بأيديهم المفتاح الخفي — الحساب التفاضلي . الصيغ الرياضية المدونة على عشرات الصفحات . هي الطريقة الصحيحة المعصومة التي لاتخطىء وهي توليدة خسارة أموال طائلة وملاحظة دقيقة طوال خمس أو عشرات السنين .

إذا شئتم الربح ثقوا بهؤلاء الناس :

دفع بسيط والربح لكم . حين تربح اعطه قسطاً أو قدم له بضعة مئات من الفرنكات ثمناً ازوج من الأحذية وثياب داخلية .

وهم لايطلبون الكثير. الموت جوعاً أهون من الدخول إلى هذا الكازينو دون أموال معقولة.

ثياب نظيفة للغاية. لباقة فائقة. احترام مطلق — هذا ماتطلبه إدارة الكازينو من أولئك الناس لقاء الدخول المجاني إلى ذلك القصر.

جرب كفاتشي والليدي هارفي حظهما أيضاً كل ليلة في ذلك الكازينو. مرة يقبلون على « ترانت كاراش » أو « روج نوار » او « بتي تفو » وبقية الألعاب الأخرى.

نفد صبر الليدي هارفي حيال هذة اللعبة منذ زمن. لكن كفاتشي ساعدها. مع ذلك لم يتمكنا من التحكم بالحظ واستعادة الخسارة وغاصا في اللعبة تدريجياً. لعبا أحياناً وحدهما وأحياناً أخرى بمساعدة اللاعبين المفلسين ويوماً عن يوم إزدادا تلاشياً وهلاكاً.

وذات مرة أعيد « شيك » كفاتشي من البنك : رصيدك قد أنتهى.

اغتم كفاتشي، اغتم كثيراً.

— بيسو، سافرْ هذا اليوم إلى « اكسيلبين »، بعْ فيلتي خلال أسبوع وعدْ إليّ...

ماذا قلت؟ أعلم ليس ثمة من طريق آخر.

أحضر بيسو الأموال ونقدها كفاتشي جميعها لمشرف القمار.

— بيسو، سافرْ اليوم إلى باريس. بع فندقي خلال أسبوع ثم عدْ إليّ، حسناً، حسناً أنا أعلم أنني أسير في سبيل الهلاك. ليس ثمة طريق آخر... لاتخف ريثما تعود سأحضر عملاً آخر.

أثناء تلك الفترة قدم من لندن أخ الليدي هارفي اللورد بروكستون لمدة أسبوعين ، وهو شاب أنيق محب للحياة ثري وجنتلمان أصيل .

أعجب اللورد وكفاتشي كل منهما بالآخر . خلال اسبوعين تمكنا من « نكش » نيس ومونت كارلو . ادهشا السكان المحليين . ربحا قليلاً وخسرا مائة ضعف ماربحاه .

أخيراً قال اللورد لكفاتشي :

— فرانس ضيفتي في لندن .

— أول رايت ثنكيو . (حسناً أشكرك) .

— أنسافر معاً ؟

— يس (نعم) . بيسو جهز كل شيء .

وصلوا إلى باريس . دعا كفاتشي الأخ والأخت إلى فندقه الذي لم يعد يخصه إنما لم ينفذ إخلاءه بعد .

مكثوا عنده عدة أيام . ومرة أخرى اثبت كفاتشي جسارته وأدهش ضيفيه بقصره الرائع وزينته وكثرة الخدموبنفوذه الارستقراطي الحقيقي وذوقه وأسلوبه .

أعطى كفاتشي قبيل السفر أمراً سرياً لـ لادي تشيكنيجلادزي . أرسل بيسو وثلاثة من الخدم إلى لندن مع الكثير من الأمتعة، واصطحب كفاتشي أربعة آخرين من الخدم .

حين نزلوا من السفينة في الهافر استقبلهم بيسو بقطار خاص .

قال اللورد بروكستون مؤنباً :

— فرانس ، أنتم تتحملون نفقات باهظة .

— من أجل اصدقائي هذه النفقات الباهظة زهيدة !

— أنت ضيفنا !

— ستتحدث عن هذا في لندن .

جهز بيسو لكفاتشي سبع غرف في فندق « استوريا » مع سيارة وعربة خيل ومندوبين .

في اليوم التالي نشرت الجرائد خبر قطار كفاتشي : « وصل إلى بريطانيا حفيد الملك الأمير القفقاسي . . صديق انكلترا الكبير نصير الصداقة الروسية الانجليزية ترافقه حاشية متألقة . . استقر الأمير في « استوريا » . . . حجز سبع غرف . . . الصديق الشخصي للورد « بروكستون » . .

في اليوم التالي اصطحب اللورد بروكستون والليدي هارفي كفاتشي كي يلقي نظرة على لندن .

أرياه « البكاديلي » « وست إند » « ترانفالغارف » « تشيرنغ كروس » « سان جيمس » « غاوبر » « واترلو » معبد « بافل » وكثيراً من الأماكن المدهشة .

في « وستمينستر » استقبل المتحدث باسم القصر كفاتشي وفي المتحف البريطاني استقبله الأمين الأول للمتحف ، وفي ادارة الأسطول البريطاني استقبله القائد العظيم .

وفي ذلك المساء : أقام اللورد « بروكستون » مأدبة عشاء على شرف كفاتشي .

وفي اليوم التالي دعي كفاتشي إلى « اليخت كاوب » . وفي اليوم الثالث دعي إلى النادي الرياضي ، ثم بدؤوا يجرونه حو اليمين والشمال ولم يتركوا له فرصة للراحة .

بعد أسبوعين شكر كفاتشي الجميع فأقام حفلة أسطورية مازال الضيوف يذكرون حتى الآن ابهتها وجمالها ومشاهدها الفريدة .

حضر ذلك العشاء مايزيد على ثلاثمائة ضيف شخصيات لندن المختارة ، اللوردات ، الكونتات ، الدوقات ، الراجات الهنود ، وأصحاب المعامل وكثيرون آخرون من أصحاب رؤوس الأموال ومشاهير الشخصيات وأصحاب المناصب العالية

شاركت في العزف ثلاث من أفضل الفرق الموسيقية ، وغنى مشاهير المطربين المدعوين من مختلف الأرجاء : كارورو ، باتيستيني ، نيلي ، ميلبا ، مارباغاي ، تيتوروفو .

اتحد الفن الشرقي والغربي ، امتزج الاسلوبان لتسلية وترفيه ضيوف كفاتشي .

في اليوم التالي تحدث الناس في كافة أرجاء لندن ووسائل الاعلام عن الحفلة — وهذا ماأراده كفاتشي .

بعد أن وصل كفاتشي إلى لندن تلقى في اليوم التالي من باريس آخر عشرة الآلاف جنيه استرليني عن طريق البريد ، وفي اليوم نفسه أرسل بيسو هذا المبلغ من جديد إلى تشيكينيجيلادزي في باريس

في اليوم الثالث والرابع وصلت النقود من باريس إلى لندن ثم عادت من لندن إلى باريس عن طريق البريد .

اختار بيسو المدرّب جيداً الوقت المناسب وقدم البرقية التي تنص على وصول الأموال إلى سيده الأمير « باغزاتيوني » أثناء وجود ضيوف لديه .

اغتلز كفأتشي من ضيوفه :

— مستر ، عذراً ، يبدو . . . برقية عاجلة

ثم أعطى الأمر لبيسو :

— أقبض حالاً هذه العشرة آلاف جنيه استرليني . . وأبعث فوراً بأربعين ألف إلى مدير أعمالي في تفليس . . وجّه أمراً إلى مدير مصرفي في باريس ليدفع إلى سكرتيري الخاص الأمير « تروبتسكي » مليون فرنك شهرياً ، وأخبر رئيس مكتبي في بطرسبورغ ان عليهم تسيير كل أموري بأنفسهم . لاأريد ان يزعجوني ، لقد مللت !

— يخت سموكم قادم إلى لندن .

— حسناً . .

— مكتب تفليس يسألكم عن المبلغ الذي يمكنه إنفاقه على الأعمال الخيرية شهرياً ؟

— ثلاثمائة ألف روبل .

— ثمة برقية أخرى : الكونت اوزاروف موافق على السعر الذي اقترحتموه — بثلاثة ملايين روبل يبيعك مناجم الذهب في سيبيريا .

– أنا موافق أرسل برقية للمكتب الرئيسي . كل شيء آخر فيما بعد . . مرة أخرى اعذروني أيها الأصدقاء الاعزاء . قطعوا حديثنا في وقت غير مناسب .

كثيراً مايلجأ كفاتشي وبيسو إلى مثل هذا الحوار أو إلى ماشابهه بحضور لوردات مشهورين أو صيارفة .

كان يعلم كفاتشي جيداً ان حديثه العملي مع بيسو أمام رجال الأعمال سيثير الفضول ويؤدي غايته كما كان عليه يعلم ايضاً ان الضيوف لن يسخطوا على كفاتشي بل سيبتسمون ويقولون :

فوالا ان برنس ايترانجي (هوذا أمير أجنبي) .

أما صديقه اللورد بروكستون فكان يبرر سلوكه قائلاً :

– لكل قوم عاداتهم الخاصة !

ماذا يقصد كفاتشي بأعماله . لاأحد يدري :

مضى اسبوعان على العشاء الشهير الذي لم ينس حتى الآن .

كان كفاتشي يتصفح جريدة الصباح ، فلاحظ فجأة خبراً مطبوعاً بخط عريض يقول : « بدأ اضراب عمال البريد في باريس » . قذف الجريدة فوراً ثم استغرق في التفكير . ارتجف طويلاً تحت تأثير حرارة وحمى الابداع ، ثم خط شيئاً ما بقلمه ونادى بيسو :

– هاك لائحة باسماء معارفي واصدقائي اللندنيين . أرسل رسالة كهذه . خلال يوم واحد يجب ان أتلقى جواباً من الجميع . إقرأ . . . فهمت ؟ – ابتسم بيسو – فهمت يابيسو ؟ .

– حسناً – قال باقتضاب وخرج .

كانت الخطة في غاية البساطة .

في اليوم التالي تلقى مايقارب ستون شخصاً من اللوردات والوزراء والصيارفة مثل هذه الرسالة : « أيها اللورد المحترم / أو « مستر » أو « مسز » / علي أن ارسل غداً مبلغاً ضخماً إلى مكتبي الرئيسي في بطرسبورغ لتغطية نفقات لايمكن تأجيلها.قسم كبير منه بين يدي والباقي طلبته من مكتبي في باريس .

لكنني عرفت من صحافة اليوم خبراً مزعجاً جداً : البريد والبرق معطل في فرنسا بسبب الاضراب . هذا الظرف أخلّ بحساباتي وأعاق عملياتي المادية العادية . هذا شيء ، من المؤكد انكم علمتم ان البريد الانجليزي قد يضرب غداً أو بعد غد .

الظروف المشار إليها ترغمني أيها اللورد المحترم / أو « مستر » أو « سير » / على استغلال كرمكم وحسن ضيافتكم وثقتكم وصداقتكم.

خمسة آلاف استرليني / وقد كتب للبعض ثلاثة الآف وللبعض الآخر ألفين و كتب الفاً واحداً لبعض آخر منهم / قد تنقذني من ورطتي.

على أية حال أرسل اليكم حوالة لمدة عشرة أيام. سأبعث اليوم أحد السكرتيرين العاملين لدي إلى باريس لاحضار الاموال خوفاً من ان يطول الاضراب .

وأنا منذ الآن انتظر الفرصة المناسبة لرد جميلكتم وحسن ضيافتكم .

أرسل اليكم سلفاً أيها اللورد العزيز / أو « مستر » أو « سير » / شكري العميق لمساعدتكم واعتذاري اذا كنت مضطراً لازعاجكم .

تقبلوا مني تحياتي الخالصة واحترامي العميق .

أراكلي باغراتيوني — مهرانيسكي — الأميرياور

امبراطور كل الروسيا » .

تحققت خطة كفاتشي كاملة . لم يتمكنوا من ايجاد عناوين عشرة في ذلك اليوم ، والباقون سلمت الرسائل إليهم باليد وتلقوا الأموال من كل مكان تقريباً . قابله اللورد بروكستون شخصياً وأمر له بضعف ماطلبه . وأيضاً الليدي هارفي بعد ان علمت بمصاعب كفاتشي رهنت كافة المجوهرات التي كان اهداها إليها سابقاً . بل ورهنت كافة ممتلكاتها العائلية . اتصلت به هاتفياً وطلبت منه المجيء إليها ودسّت إليه بالإكراه الأموال التي قبضتها وأضافت إليها بسخاء ملاطفاتها الحارة وحبها .

أنّى ل « الليدي » المسكينة أن تعرف ان هذا هو الجنون الأخير !

في ذلك المساء جلس كفاتشي وبيسو وخصصا ساعتين لإحصاء النقود ، ثم رتباها وطلبا سيارة .

قال بيسو لمدير الفندق :

— سعادته مسافر إلى « برمنغهام » ليتفحص ويشتري معدات لمعامل عدة. سنعود بعد غد . سنترك الغرف على أسمنا (محجوزة) .

وركبا السيارة ومضيا . عبر شوارع لندن الضيقة وعبر نهر التايمز ثم ركبا البحر .

وفي اليوم التالي وجد كفاتشي وبيسو نفسيهما في « انتوربين » بدلاً برمنغهام . . .

«عن مستشفى المجانين : عن المبارزة،عن الفيلم السينمائي ، وعن اعمال بطولية أخرى »

بعد كل ذلك جرى كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ورمح عبر أرجاء الأرض تحت عشرات الأسماء هو الأمير « باغراتيوني » مرة،والامير ابن الأمير الأفغاني مرة أخرى ، وتارة الكونت « تيشكيفتش » وتارة أخرى الأمير الفارسي « كاجار » .

من يقدر،من يصف مهارة يدي كفاتشي ؟ كثرة الأشكال التي يظهر بها ! اناقة وطرافة أعماله !

وجد في نيويورك امرأة مناسبة له عقلاً وتجربة . بدآ بتمارين صغيرة . —

دخل كفاتشي أحد المحلات ليشتري ماساً . اختار خمسة احجار الواحدة منها بحجم الجوزة راح يتفحصها وينقلها من يد إلى يد . أثناء ذلك دخلت مساعدته الجديدة وبدأت تتحدث مع صاحب المحل. أفلت كفاتشي إحدى قطع الماس بخفة ، ارتمت بلطف على السجادة بحيث لم يسمع أحد لها صوتاً . غيرت المرأة وقفتها بحيث وضعت رجلها فوق الماسة ثم انهت حديثها وخرجت حاملة معها الماسة التي علقت بنعل حذائها .

لاحظ البائع فقدان الحجر الثمين ونظر شزراً إلى كفاتشي . استاء كفاتشي كثيراً وطلب تفتيشه . اقتادوه إلى غرفة أخرى ، عروه من ملابسه ثم اعتذروا منه ورافقوه إلى السيارة وكالدواء وضعوا عدة آلاف من الدولارات على الصدر الأيسر ليشفى ذلك المكان حيث شعر كفاتشي بألم في صميم كبريائه ثم مزقوا الادعاء وقذفوا به أرضاً .

في « انتوربين » مدينة الألماس أرسل كفاتشي صديقته إلى مشفى للمجانين مشاد حديثاً .

ـ أتعرفون « مسيوفيرمي » ؟ سألت المرأة مدير مشفى المجانين .

ـ للأسف لاأعرفه فأنا جئت حديثاً إلى « انتوربين » .

ـ « فيرمي » أبي . لقد جن المسكين ، طوال الوقت يفكر بالالماس واللؤلؤ ويهذي . لديه حقيبة صغيرة لاتفارق يديه يظن أنها ملآى بالالماس . أحياناً تسوء حالته فنضطر لاستخدام القوة لتهدئته . يجب أن تستقبلوه في مشفاكم .

ـ بكل رحابة صدر ايتها السيدة !

ـ أخذ مني كل المجوهرات التي أملكها ووضعها في تلك الحقيبة . يقول إنه سيفتتح محلاً تجارياً . أنبهكم سلفاً أنه سيقاوم كثيراً عندما ستحاولون أخذ تلك الحقيبة ، .

ـ لاشيء ، سنتجاوز ذلك . هل ستحضرونه بنفسكم ؟

ـ أجل سأحضره اليوم أو غداً .

ثم جاءت هذه المرأة الماهرة إلى محل « مسيوفيرمي »،اختارت قرطاً رائعاً وتاجاً كبيراً وعقداً جميلاً من حبات اللؤلؤ الكبيرة .

ـ كم ثمنها ؟

ـ هذا ثمنه مائة ألف وذاك ستون ألفاً وهذا ثمانون .

تساوما .

ـ تسعون آخر سعر .

نظرت المرأة إلى الساعة واكتأبت :

اعترف لك ، مسيوفيرمي ان عقد قراني اليوم . اهداني والدي سبعين ألفاً وفوضني باختيار الهدية . أعجبني هذا العقد كثيراً لكن ينقصني ألفاً . لن يضن أبي وسيزيد المبلغ ، لكن أخشى ان أتأخر . ريثما أعود إلى البيت ويكتب لي الشيك وأذهب إلى المصرف ، يكون المصرف قد أغلق أبوابه، لاتتلكأ هيا ، أذهب معي .

فكر مسيوفيرمي . غلبه حب الربح .

— حسناً فلنذهب .

— اصطحبْ القطع الثلاث . ربما اختار والدي القرط أو التاج . أنا معجبة بالعقد لكن مع ذلك . . من يدري . .

وضع « فيرمي » المجوهرات المختارة في حقيبة صغيرة ثم استقلا سيارة إلى ذلك المشفى الذي يشبه القصر أكثر مما يشبه مشفى للمجانين . استقبلوهما بلباقة وابتسامة :

— تفضلا . . أجلسا . . طقس جميل . . لن تنتظر طويلاً . .

تصرفت المرأة وكأنها في بيتها . أصدرت أوامرها يميناً وشمالاً ، ثم دخلت مباشرة إلى مكتب المدير .

وبقي مسيوفيرمي منتظراً في غرفة الاستقبال .

— لقد أحضرته . . لقد أحضر معه حقيبة صغيرة وضع فيها مجوهراتنا . . أحذرك سلفاً سيقاوم ، سيتفوه بترهات ، خذوا منه تلك الحقيبة .

— لاتهتموا، لقد اعتدنا ذلك . خبرتنا طويلة . خرجت المرأة والمدير إلى غرفة الاستقبال .

— مسيوفيرمي ، بونجور . . يشرفني التعرف إليك . . تفضل إلى هنا . . واقتادوا مسيوفيرمي إلى الغرفة الثالثة .

— بابا . هذه هي أشيائي — ألقت المرأة بكلماتها تلك وأخذت الحقيبة من فيرمي .

لم يدرك أحد من هو « بابا » هذه المرأة — فيرمي أم الدكتور .

أخاف جو الغرفة والعمال بلباسهم الغريب فيرمي فارتعد وارتبك . مد يده ليأخذ الحقيبة ، لكن المرأة انزلقت من بين يديه وخرجت راكضة من الغرفة فجرى ، « فيرمي » وراءها ، .لكن في تلك اللحظة أمسك ثلاثة رجال طوال اشداء ، متهيئون سلفاً للملك ، بالعجوز الضعيف وكأنه ريشة .

— اتركوني ، أيها الأشرار ياقطاع الطرق ! حقيبتي ! مجوهراتي . صرخ فيرمي منتفضاً كالعصفور محاولاً الاتجاه نحو الباب .

— اهدؤوا يامسيوفيرمي اهدؤوا ! ألماساتكم لن تضيع ..اهدؤوا ، نحن لسنا اشراراً،أنا دكتور ستتعارف. نحن . . انتم في المشفى . . ستتعافى قريباً وتعود من جديد إلى أسرتك .

— ماذا ؟ دكتور ؟ مشفى ؟ مشفى المجانين ؟ من المجنون أنا أم أنتم ؟ آه لقد فهمت لقد هلكت ! . . يالشقاء الأسرة المنكوبة ! ساعدني ياإلهي دعوني . . ساعدوني ! الماساتي ، مجوهراتي !

— أقول لكم ، اهدؤوا يامسيو فيرمي . مجوهراتك لدى ابنتك !

– ماذا ؟ لدى ابنتي ؟ ماذا تقولون ، بماذا تثرثرون ؟ هذه القذارة هي ابنتكم أنتم ! .

– ابنتي ؟ ليست لدي ابنة .

– وأنا أيضاً لا ابنة لي . . إذاً . . إذاً – وفجأة فهم كل منهم ، وكاد أن يفقد عقله فعلاً – والآن هل فهمتم أننا نحن المجنونان الاحمقان وان هذه اللصة قد خدعتنا نحن الاثنين . . اقبضوا عليها،الحقوا بها اسرعوا ، اسرعوا . أصيب المدير والعاملون بالذعر وتسمروا في أماكنهم . خلال خمس دقائق شرح فيرمي والمدير كل للآخر ماحدث له ، ثم اندفعا نحو الهاتف والشرطة والمخابرات،لكن بعد فوات الأوان .

لقد اختفى كفاتشي والمرأة وكأن الأرض قد ابتلعتهما .

وفي روما دفعت تلك المرأة أحد التجار ليحضر الكثير من الجواهر لـ « خطيبها » و « أبيها » – إلى كفاتشي .

– سيعود الأمير الآن .

كانت الأميرة والتاجر يجلسان في المكتب. فرشت المرأة الاحجار الكريمة وتفحصتها مرة أخرى . أثناء ذلك أخبر الخادم الأميرة :

– جاء الماركيز « بالافاتشيني » .

– خطيبي ؟ يالهي . . لاأريد أن يرى هذه الهدية قبل العرس . وفي طرفة عين وضعت هذه الاحجار الكريمة في خزانة حديدية مركبة ضمن الحائط ، ثم دست المفتاح في جيبها .

– معذرة !

دخل كفاتشي وقبل « خطيبته » باحترام وبدأ يتحدث إليها :

أطل الخادم من جديد :

ـ أيتها الأميرة ! أبوك يدعوك إليه لدقيقة « واحدة » .

ـ عفوا سأعود حالاً . . . ثم خرجت .

بعد دقيقتين خرج « المركيز بالافاتشيني » ـ كفاتشي ، وخيم على البيت صمت القبور .

مرت عشر دقائق . . خمس عشرة . . عشرون . . نهض التاجر متململاً ، دار ،ثم تنحنح وسعل مراراً،ثم خرج إلى الغرفة الثانية . لاأحد . نظر في الغرفة الثالثة : أيضاً لاأحد .

رجع إلى الغرفة الثانية المتصلة مع الغرفة الأولى حيث انتظر التاجر والمرأة « الماركيز » منذ نصف ساعة خلت .

لاحظ شيئاً واحداً : الخزانة الحائطية في الغرفة الثانية كانت مفتوحة . دقق في تلك الخزانة فأصيب بالرعب واغتم كثيراً . كان باب الخزانة الحديدية الحائطية مفتوحاً،وهذا الباب يؤدي ويتصل بنفس الخزانة الموجودة في غرفة الاستقبال حيث خبأت المرأة المجوهرات . إذاً وضعت المرأة الجواهر من جهة ليتلقاها كفاتشي من الجهة الثانية !

نتف التاجر المذعور ، وقد فقد وعيه ، شعر رأسه وجرى عبر الغرف الخالية وهو يصرخ :

ـ الشرطي . . ساعدوني . . سرقوني . . نهبوني !

واختفى كفاتشي وخطيبته مرة أخرى وكأن الأرض قد ابتلعتهما .

وفي فيينا استهدف كفاتشي أحد الأغنياء اليهود ـ البارونات . صدم كفاتشي في النادي ، ذلك اليهودي بيده بخفة وبدأ هو بالصراخ :

— كن حذراً ! . . قليل التربية . . سافل !

— عفوا . . أنا . . أنا . .

لم يترك كفاتشي مجالاً له الكلام ولطمه بأصبعيه على ذقنه بشكل خفيف .

حدثت مشادة وشغب انتهى بتبادل البارون وكفاتشي عنوانيهما .

في صباح اليوم التالي ذهب شاهدا المبارزة « بيسو » و « تشيبي نتيرادزي » إلى ذلك اليهودي وأعلنا :

— لن ينتهي الموضوع بلادماء — ثم اضافا بشكل عرضي — لاتستعجلوا أيها البارون،لاتعينوا الآن شاهدي المبارزة . . انتظروا إلى الغد . . الأمير الأفغاني رام شهير . . يصيب الذبابة الطائرة . . ان شئتم تستطيعون التأكد من ذلك بنفسكم . في الساعة الخامسة تماماً من هذا اليوم سيكون الأمير في ميدان الرماية « براتيرا » . أرسلوا أحداً ما ايرى . .

سنأتي هذا المساء آيضاً . . سنتحدث،يمكن حقن الدماء طبعاً إذا كنتم موافقين على . .

— لابد من المبارزة .

— نعم ستقام المبارزة بكل تأكيد ، اكن يمكن ان يتمّ الأمر دون سفك دماء . . فكروا سنأتي مساء . . إلى اللقاء !

من الساعة الخامسة وحتّى السادسة خرب كفاتشي وثقّب ذلك الميدان بطلقات المسدس وتأكد الرجل المرسل من قبل البارون ان الأمير الافغاني لايخطىء الذبابة الطائرة فعلاً .

– يعطي الأمير كلمة الشرف الأميرية – قال بيسو في ذلك المساء لذاك اليهودي الثري ، وأقسم باسم سيدنا محمد انه لن يسفك دمك إذا . . اذا اتفقنا . ستطلقان طلقتين ثلاثاً في الهواء، ثم تتصالحان بل وتتصادقان .

– فلندخل في الموضوع ، كم تريدون ؟

– حياتكم غالية . تمتلكون عشرة ملايين يكفينا منها مليون .

– أنا أفضل ان أختفي وأهاجر من فيينا اليوم .

– لن تهربوا من العار . سنشهر بكم ونحدث العالم كله عن جبنكم .

– اليهود لايتبجحون ابداً بالشجاعة ولايشترون لقب الشجاعة بثمن غال كهذا .

– لا تنسوا انكم بارون النمسا . نويلاك اوبليج (١) .

– فلنثته ، مائة ألف .

– تسعمائة ألف مع الدماء وثمانمائة ألف بلادماء !

– لم أفهم !

– ستنتهي المبارزة بأن يجرح الأمير من قبلكم ، كيف سنهيء ذلك ؟ هذا شأننا .

أعجب البارون بالمبارزة مع الدم .

– إذا كانت المبارزة ستنتهي بجرح الأمير ، سأدفع مائتي ألف .

– ثمانمائة ألف .

---

(١) وردت في النص بنفس اللفظ الانجليزي : لست مرغماً على فعل السوء .

— لن أضيف شيئاً إلى المائتين .

— في هذه الحالة نحن ننتظر شاهديك . إلى اللقاء !

انتظروا ثلاثمائة ألف ،لاأستطيع ان أدفع أكثر . وبشرط أيضاً — إذا سال دم الأمـــير .

اتفقوا عـــلى مبلغ نصف مليون دفـــع نصفـــه سلفاً . تبادل كفاتشي والبارون الرأسمالي التصاريح الخطية .

بعد يومين اثنين ، وفي الصباح الباكر خدش بيسو يد كفاتشي قليلاً ، ثم ربط الجرح ربطاً غير محكم واصطحبه إلى غابه « شنبرونسكي » حيث قابلوا البارون وشاهديه .

— لاتبدؤوا ، واحد اثنان . . ثلاثة !

أطلق البارون وكفاتشي ، كل بمسدسه الواحد باتجاه الآخر . رمى كفاتشي المسدس وأمسك بيده اليمـــنى يده اليسرى . وإلى أن جاء الدكتور كان كفاتشي قد قطع الرباط .

لاشيء جرح بسيط . . سيلتئم خلال ثلاثة أيام — قال الطبيب

— لاشيء جرح بسيط . . سيلتئم خلال ثلاثة أيام — قال الطبيب مطمئناً الجميع .

انتفخ البارون غروراً وقال مفاخراً :

— لقد جرحت الأمير الافغاني . . أصيب في يده . علمته أصول اللباقة . .

ومايزال البارون يردد ذلك كل دقيقة وحتى هذا التاريخ .

تلقى كفاتشي كامل حسابه في نفس اليوم . اعاد كل منهما التصريح الآخر وأقاما في نفس النادي مأدبة على شرف الصلح .

مرة أخرى تباهى البارون قائلاً لأصدقائه :

— الحمد لله ، اذ تغلبت على صديقي الأمير . أيها الأمير لنشرب متصالبي اليدين (١) انت محظوظ . . نعم ، ماذا كنت أقول .. محظوظ لأنني في البداية صوبت إلى قلبه مباشرة، لكنني اشفقت على شاب مثله . . فصوبت على يده واصبتها .

ابتسم كفاتشي وراح يربت من وقت لآخر على كتف البارون بمودة .

ومضت الأيام ، سرعان مابذر الأمير الافغاني أمواله . ضاقت الأحوال بـ « كفاتشي » ، ضاقت كثيراً . تملكته حمى الابداع ، تعذب كثيراً ، أجهد نفسه كالمرأة في حالة الوضع ، ثم خلق حيلة جديدة .

ربط الخيوط في البداية، ثم جدل الشبكة. وضع كل شيء في مكانه ثم ذهب إلى مدير أحد المصارف :

— فلنتعارف : أنا وكيل « باتي ». عليّ أن أصور مشهداً للسطو على أحد المصارف. لماذا نذهب بعيداً: هوذا المصرف وهؤلاء هم الممثلون مثلوا انتم وعمالكم وستبقى وجوهكم على الشاشة إلى الأبد وستكسبون اموالاً .

---

(١) شرب الخمرة عن طريق تصالب يدي النديمين — تقليد يرمز إلى الصداقة الحميمة ورفع الكلفة حيث يتخاطب الاثنان بكلمة « انت » بدلا من (أنتم) » .

فرح المدير :

— جيد جداً . . شكراً .

دعا عماله وأخبرهم بذلك . انتعش الجميع وسيطرت عليهم جميعاً لهفة التمثيل .

— سأعود غداً . وبعد غد سأستوضح كل شيء ونجري تدريباً بسيطاً . — قال كفاتشي — أجل فعلاً ، أخبروا الشرطة علماً أنني سأذهب اليهم بنفسي وأكلمهم .

خطف المدير سماعة الهاتف :

— ألو ، مسيو غراد ، هذا أنت ، أخبركم بأنني سأسطو على مصرفكم غداً أو بعد غد .

— ماذا ؟ من ؟ ماذا تقولون ؟

— اهدؤوا أيها الصديق، اهدؤوا. علينا ان نصور فيلماً للشاشة . . نعم . . نعم . سيصورونكم أيضاً . سيأتي اليكم المخرج « باتي» حالاً .

في اليوم التالي طاف كفاتشي ورئيس مركز الشرطة على رجال الشرطـــة العاملين في منطقـــة المصرف حيث قال رئيس المركز لكل شرطي :

— على هذا الشخص ان يقوم بتصوير مشهد السطو على المصرف . ستحدث جلبة مقصودة في المصرف والمنطقة المجاورة وسيصورونك أيضاً . لاتتحرك من مكانك إلا باذن من هذا الشخص . لاتتدخل في تلك الضجة . . فهمت ؟ بلّغ هذا لكل الناس. يجب ألا يضربوا ولا يلاحقوا الممثلين . حسناً كونوا شجعاناً !

ثم دخل كفاتشي وحاشيته المصرف حاملين جهاز التصوير :

— حسناً ، هيا ابدؤوا . . خذوا أمكنتكم . . اعملوا كما لو أن شيئاً لم يحدث .

عندما يرجع اللصوص يجب ان تخافوا جميعاً وتختبؤا تحت الطاولات . . يجب ان تتسللوا إلى المدير .. هكذا ، هكذا ، وأنتم لاتتمكنون من اغلاق الصناديق ترفعون أياديكم إلى الأعلى وتفغرون أفواهكم . . ليس أكثر . .

سأجري وراء العصابة إلى الشارع لتصويرها . . حسناً خذوا أمكنتكم . . تحركوا انتم نحو اليمين وانتم نحو اليسار . . لاتتلفتوا ، أديروا وجوهكم إلى هنا .

ثم دخل كفاتشي إلى المدير وقال له :

— سيقتحم هذا اللص مكتبكم ويشهر مسدسه عليكم ، وأنتم لاتستطيعون حراكاً من الخوف . سيقطع شريط الهاتف و . .

— المسدس غير محشو ؟

— لا ، لاتخافوا . . حسناً نبدأ من هنا . . اللص الأول . أبدأ !

اقتحم « تشيبي تشيبونتيرادزي » مكتب المدير ، أخافه ، قطع شريط الهاتف فعلاً . يدير المصور الشريط بهدوء .

— انتهى مشهد المدير والآن فلنذهب إلى أمانة الصندوق !

خرج الممثلون إلى الصالة العامة مصطحبين معهم جهاز التصوير .
— حسناً ، خذوا أماكنكم أجلسوا . . سنصور الآن الصندوق ، ثم يأتي دور بقية المشاهد . حسناً اللص الثاني والثالث والرابع هيا ابدؤوا .

اقتحم « تشيبي تشيبونثيرادزه » ، و « لادي تشيكينجيلادزي » و « بيسو شيكيا » الصندوق .

جرى كفاتشي صارخاً : ارفعوا أياديكم ارفعوا ! . . انتم افتحوا أفواهكم ! . . لاتبتسموا .. أديروا ظهوركم .. أديروا ظهوركم ، « بيسو » كدّس ! تشيبي انهب ! لادي تشجع ! . .

حسناً ياشباب اهربوا . . أمين الصندوق أدرّ ظهرك ! بينما كان كفاتشي يصدر أوامره كان المصور يحرك جهاز التصوير وأمناء الصناديق يمثلون أدوارهم ، أما البقية فكانوا يضحكون ببلاهة.أما بيسو وتشيبي ولادي فقد نهبوا الأموال فعلاً وكدسوها وفروا .

خامر الشك المدير وبعض الموظفين ، بدؤوا يتحركون تدريجياً . نهضوا وراحوا يضجون :

أخذوا الأموال . . أخذوا الأموال فعلاً . . أسرعوا ، انجدونا !

حوّل المصور جهاز التصوير نحو الموظفين المضطربين ، أما كفاتشي المعجب بتمثيلهم فراح يصرخ :

— هكذا ، هكذا . . رائع . . جميل . . ممتاز ! هيا فلنصور الآن مشهد الشارع . العصابة ، هيا وراءها !

اندفع المدير نحو الهاتف المقطوع . وجرى بقية الموظفين وراء كفاتشي ، لكن كان لصان يقفان بالباب قاطعين طريقهم

— قفوا ليس هكذا ! ..

— ساعدونا . . لقد سُرق المصرف . . امسكوهم . . اقبضوا عليهم !

– نعرف ، نعرف ! ابتسم رجال الشرطة غير مكترثين ودون ان يتحركوا من أماكنهم. نحن نعلم انكم تمثلون . . نحن لم نتلق بعد أوامر من ذلك الشخص .

– نقول لكم انهم نهبونا فعلاً –

– اخدع جدك ، لكن نحن نعرف عملنا !

وأخيراً اقنعوا بعضهم بعضاً بصعوبة بالغة وبدؤوا يتحركون . لكن مازالوا يبحثون عن المخرج (باتي) حتى تاريخه .

الأموال التي جاءت بسهولة تبخرت أيضاً بسهولة . نضب معين كفاتشي وبدأ يهتم بالتوافه .

لقد استنفد الأعمال الكبيرة ، أما الأعمال الصغيرة فلم تعط شيئاً يذكر .

ومن وقت لآخر كانت تصل إليه بعض الرسائل من « سيلبيسترو ». كتب إليه يقول :

« ولدي ياكفاتشي،تجري إلى حيث لاتدري ، لاأفهم.عد إلى ذويك وإلى « راسبوتين » العائد من القدس . أنا أعرف ان ذلك الانسان الشريف قد سأل عنك وكذلك الآخرون يبحثون عنك ، نحن أيضاً شخنا ياحبيبي كفاتشيكو ، ونريد ان نراك في شيخوختنا ، وإلا مافائدة أن يكون لي ولد ! « بوبي » و « نوتيو » يبكيان كل يوم وينتظرانك ، لكن لاأحد يراك ثم كيف استطعت ألا ترسل رسالة واحدة طوال هذه الأعوام ؟ » .

كتب « سلبيسترو » الكثير وانتظر رداً لكن كفاتشي لم يجد وقتاً ولم يرسل أية رسالة .

علم كفاتشي مصادفة ان « تانيا » انتقلت إلى « بادن ـ بادن » وبسرعة وجد نفسه في تلك المدينة . انعش الصداقة القديمة ، مسح عنها العفن والصدأ، ثم استعاد الثقةوالمكانة القديمتين بعد المداولات والأيمان .

لكن كيف يستطيع نسر حر كبير الجناحين الاكتفاء بالشقة والأكل واللباس ؟

كان كفاتشي يحتاج لكثير من النقود، للكثير الكثير . لكن تانيا المجربة والتي كابدت المصائب خصصت لكفاتشي راتباً شهرياً ولم تعطه روبلاً اضافياً واحداً .

دار كفاتشي طويلاً حول الدجاجة العتيقة ، لكن تلك المرأة الرحوم / التي تخشى ربها / كان لها قلب متحجر وطبع حديدي .

ـ حسناً ـ صاح كفاتشي الحانق ذات مرة قائلاً ل « بيسو » ـ بيسو تعلّم التصوير خلال عدة أيام .

بعد أسبوع أخبر بيسو كفاتشي :

ـ تعلمت التصوير واشتريت كاميرا .

جلسا وبدآ يتهامسان .

ذات يوم ، نهاراً وعندما كان كفاتشي وتانيا في أوج غرامهم انتفضت تانيا فجأة وخافت :

— قد تحركت ستائر الباب . . ماالسبب ؛؟

— خيل إليك ، لعل الريح تحركت ، اهدئي ياروحي !

منذ ذلك اليوم لم تر كفاتشي مرة أخرى . وبدلاً منه جاء إليها بيسو في اليوم التالي .

— نحتاج للنقود . نحتاج كثيراً .

— من أنت ؟

— ليس مهماً . على ان . . ربما خمنتِ بنفسك . بالأمس في غرفة « كفاتشا نتيرادزه » اتذكرين حين اهتزت الستارة ؟

— اذهب من هنا !

— حسناً سأذهب . لكنني أريد ان أترك لك شيئاً للذكرى .

واعطاها صورة .

شهقت تانيا قليلاً ، غطت وجهها بيديها ، أحمرت واشتعلت خجلاً .

— وداعاً !

— لحظة . . انتظروا . . ماذا تريدون . كم تريدون ؟

— ثلاثمائة ألف حالياً ، وأربعين ألفاً كل شهر .

— مستحيل . . حتى لوبعت مالدي لن اتمكن من الدفع .

— لاأستطيع ان أنقص المبلغ . فكري سأمر غداً .

ريثما باعت تانيا أملاكها مر شهر ، أعطت بيسو ثلاثمائة ألف ، ثم أخذت منه مسودة الصور واختفت من « بادن — بادن » .

لكن أنىّ لها أن تختبىء من عيون وأنف كفاتشي ! لاحقتها تلك الصور والتهديدات المرعبة والجشع إلى الملايين سواء إلى ايطاليا أو أسبانيا أو مصر . دفعت تانيا ماستطاعت دفعه . فيما تعهد لها بيسو عشرات المرات مؤكداً أنه لم يعد لديه « مسودة » أو أية نسخة عن الصورة.

وبعد أن استنفدت كل أموالها وضاع الأمل اختفت تانيا إلى الأبد .

قال البعض أنها سافرت إلى جزيرة « تاسمانيا » وقال الآخرون ، بل إلى سيلان ، والبعض الآخر ذكر اسم « الدير الجبلي للنساء » « أفونسكي » .

بحث كفاتشي طويلاً عن البقرة الحلوب الضائعة وعندما لم يجدها ، حاك وألقى شباكاً جديدة .

كانت الأسماك تجري بوفرة، لكن دوّى الرعد فجأة ، ولمع البرق في أوروبا . . . ، بدأت الحرب العالمية الأولى .

وأيضاً ، تحول كفاتشي حالاً : غيّر الجبهة ، ابتكر شباكاً وأفخاخاً جديدة ، وكحيوان صبغ وجهه بلون آخر ، لبس درعاً وخوذة تناسبان المرحلة متسلحاً بسلاح جديد .

* * *

القسم الخامس

عن العمل السرّي

ــ كفاتشي ، ماذا تظن ، هل ستندلع الحرب لأن ذاك الأمير اغتال « ايرتسغرتسوغ »(١) الانجليزي ــ سأل بيسو .

ــ أنا أيضاً فكرت بذلك طوال اليوم . اذا حامى كل عن صاحبه سيتشوشن العالم .

ــ هاك اقرأ الصحيفة . روسيا تقف مع صربيا ، ألمانيا مع النمسا .

قرأ وبدأ يتسكع في الغرفة ، هز أنفه بيده وتمشى طويلاً ، ثم التفت إلى أصدقائه وقال لهم منذراً :

ــ بيسو ، لادي ، تشيبي ، تذكروا كلمتي وانقلوا للتاريخ مايلي : لن يمضي اسبوعان حتى تضرب روسيا ألمانيا وتضرب المانيا روسيا . ثم تبدأ الحرب ويسيطر السخط . أنا أقول ستتخلى ايطاليا عن ألمانيا وتقف إلى جانب انكلترا وفرنسا . وستقف النمسا ، بلغاريا وتركيا إلى جانب المانيا . وأخيراً ستتدخل أمريكا أيضاً ويغرق العالم بالدم .

---

(١) ايرتسغرتسوغ : لقب الأمراء الحاكمين في النمسا وهنغاريا .

إذا متّ انقلوا مقالتي هذه للتاريخ . حسناً أيها الرفاق تحتاج الآن لليقظة والحذر .

قال ذلك ثم ارتدى ثيابه وذهب إلى بورصة برلين . كانت البورصة تشبه مشفى للمجانين ربط البعض مصيرهم ومقدراتهم بالحرب والبعض الآخر بالسلام . تقلبت أسعار الأسهم والسندات ومختلف الأوراق المالية وسواها / ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى / ارتفع البعض إلى أعلى درجات السلم وهبط البعض إلى الحضيض / ضربوا بالأسعار / .

أمسك كفاتشي بالحرب وفتح عينيه على أسهم المعادن والأسلحة / بدأ يتتبعها / . انتهز المناسبة وارتبط مع مجموعة سرية كانت تخفض هذه الأسهم ثم تشتريها بسعر رخيص .

هكذا فعلوا بأنفسهم « شنيد روكريزو » « شكودا » « أمسترونغ » و « كروب » . لم يترك لديه أموالاً سائلة / لم يحتفظ بها / .

ثم تبع حشداً متجمهراً يقارب عدده ثلاثة الآف وصرخ بضراوة في الشوارع والصحف والمقاهي والحدائق : ناخ باريس ، ناخ موسكو (إلى باريس إلى موسكو !) .

بعد عدة أيام سافر من برلين إلى فرنسا وهناك صرخ بأعلى صوته :

— أ — برلين ، أ — برلين ! (إلى برلين ، إلى برلين !) .

وبعدئذ عندما رجع إلى روسيا صاح بأعلى ما استطاع :

— إلى برلين ! إلى القسطنطينية !

بعد فترة من الزمن ، في مكان ما من « ساراجيفو » أطلق رجل شرارة التهمت العالم بنيران لاهبة .. رصاصة امير اثارت دوياً وزوبعة

في كل أنحاء العالم حتى طالت السماء . تحولت قطرة الدم في البداية إلى نهر، ومن ثم تدفقت بحراً لاحدود له . عشرون أو ثلاثون مليوناً من الجنود المساقين يندفعون ضد بعضهم بجنون وعنف . والآخرون تركوا كل شيء وقبعوا في مؤخرة الجنود المتشردين على مدى آلاف من القراسخ ومضوا يخدمون المريخ الدموي .

أثناء ذلك كان الجميع يصرخ بحقد واتكال :

— « معنا الله » فيما كانوا يصلبون بأصابعهم الملطخة بالدماء ويطلبون من السيد الرب أن يمتّن الاتحاد الحربي .

— الموت للمتوحشين ! عاشت الحضارة ! . . عاشت الحرية والأخوة والمساواة بين الأمم ! . .

في البداية غمس السفاح رجليه حتى الرسغ بدم الشعب ، ثم غاص حتى الركب بعدئذ . غاص حتى الخصر في حفرة الدم ، وأخيراً سبح في دوامة من الدم لاقرار لها . ثم بقي خمس سنوات يسبح هناك .

أصيب هذا العالم وعالم الجحيم أيضاً بالصمم . عميا وغرقا بالدم والدموع ، النواح والندب ، بالنحيب والولولة الصادرة عن الكثير — الكثير من البيض والسود ، الحمر والصفر المنتمين لهذا البلد أو ذاك من الأغنياء والفقراء ، الرجال والنساء .

وسبح كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وجماعته . خاضوا ، جروا ركضوا في بحر من الدماء والدموع عبر زوبعة النيران ووهدة الكآبة العالمية . ضارب بدأب كمجنون حاقد :

— بيعوا أسهم « شنيدر — كريزو » اشتروا « « كروب »، احتفظوا

بأسهم « امسترونغ »، تخلصوا من « شكودا » ! . . . احرقوا « كونارلين » ! اجمعوا السكر ! . . ارفعوا الدقيق !

ذات يوم طال القانون الفرنسي كفاتشي : .

— كفاتشي ! تفضل إلى الحرب !

كفاتشي في الجيش ؟ كفاتشي في الحرب ؟ في « بردين » أو في « جبال الأردين ». مابهم هل فقدوا عقولهم ؟ ! من أجل من ؟ أم من أجل ماذا ؟ أمن أجل الفرنسيين ؟ ولماذا ليس من أجل الالمان ؟ ماالذي جعل باريس أفضل من فيينا وبرلين ؟

فليفنَ الطرفان أو فليرتفعا إلى السماء ، ماعلاقة كفاتشي ؟ وماذا او أن قنبلة انفجرت بالقرب من كفاتشي ،أو أن رصاصة صفرت وسال دمه ! ثم أي دم ؟ ! الأمير كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ابن الملك الأفغاني ، أمير جورجيا « باغراتيوني » في جحيم الحرب ؟ مابهم ، هل جنوا ؟

وبما أن السفر إلى لندن كان خطراً حيث قام ، في حينه « بتدبير الأمور » فقد ظهر بعد ثلاثة أيام مع رفاقه في مدينة « مانشستر » .

بعد فترة صدر في بريطانيا قانون :

— كل رجل إلى الخوذة ! / أي التعبئة العامة . الجميع إلى الجيش ! .

— بيسو ، وهنا أيضاً فقدوا عقولهم . هيا إلى روما !

لكن الجميع فقدوا عقولهم ، كل وبدوره . بعد فترة وجيزة اختبلت ايطاليا ومرة أخرى سمع كفاتشي صراخ المجانين :

— كل رجل إلى الخوذة ! الجميع إلى الحرب !

هذا غير متوقع، لم يجن كفاتشي بعد كي يهدر دمه من أجل المعكرونة (١) .

– بيسو ، إلى جنيف !.

وما أن وصل كفاتشي إلى مكان أمين وصعد إلى قمة الألب ، نظر من جزيرة الأمان بهدوء إلى نار الحروب المعربدة حيث كان يقول بين الفينة والأخرى :

– اتذكرتم كلماتي التي قلتها في برلين ؟ اقد تحققت كلها .

حزن كفاتشي ، حزن كثيراً. لم يعد يستطيع ان يشتري ويبيع في السويد عشرات السفن من السكر والدقيق والمعادن والمؤن الأخرى . لم يعد يعلو ويزمجر صوته القوي :

– اشتروا ، بيعوا . . خفضوا !

أخيراً وصلت إليه رسالة « غريشكا راسبوتين » بعد أن دارت أوروبا كلها . كتب المعلم يقول :

« أخي ابواون !

مالك تتسكع في أوروبا القذرة ؟ تعال إلى هنا . فالحياة مملة بدونك . الأعمال كثيرة. ستجد هنا السلام والهدوء ، المجد والمال وخيرات الاله . اصطحب معك « يلينا » و « تانيا ».اريد هذا كثيراً ! نعم أنا ! غريغوري ، انتبه لاتتأخر ، نعم غريغوري (٢) » .

---

(١) المعكرونة : كناية عن الشعب الايطالي .

(٢) النص الروسي مليء بالأخطاء النحوية والاملائية تدليلا على جهل كاتب الرسالة – راسبوتين وأميته بوجه عام . وقد وجدنا من الصعب ارتكاب مثل هذه الأخطاء في الترجمة العربية .

جهز السفير الروسي خوفاً وفرحاً بتلك الرسالة رحلة مريحة لكفاتشي عبر البر والبحر راجياً اياه :

— اذكرني واو بكلمتين أمام الأب القديس « غريغوري » والوزير « سازونوف » . انقل اليهما تحيتي القلبية فليسهل الله رحلتك .!

وجد بيسو « يلينا » في مكان ما واصطحبها معه .

من يعلم أبتدبير شخصي ،أم بعناية إلهية حصل ماحصل في ذلك اليوم حين صعد كفاتشي إلى السفينة ووجد نفسه وقد اصطدم وجهاً لوجه مع « ريفيكا » .

— ريفيكا ، ريبي الحبيبة !

— أبولون ، ياحبيبي !

تعانقا . وبلحظة أشعلا النار الخامدة وتركا العنان لدمائهما الهادئة لتغلي . لم يتحدث أي منهما عن فراقهما ، وخرج من داخل السفينة اسحق ايدلسون .

— افلست وانتهيت ! — أوجز اسحق كلامه — أنا مسافر إلى بطرسبورغ ، إلى عمي « غينتس » .

— إلى « غينتس » ؟ غينتس عمكم ؟ لماذا لم تخبرني قبل الآن ؟ ماذا ؟ هل اعرفه ؟ كيف لاأعرفه ؟ لقد اشتغلنا سوية .

أمسك كفاتشي « ريفيكا » عدة مرات في زوايا الباخرة المظلمة ، لكنها أكدت باصرار :

— لا . . لا . . هنا لايمكن . ستوقف في ستوكهولم يوماً واحداً ، و . . لاتكن نافذ الصبر ، سنصل غداً أو بعد غد . . و . .

رست السفينة التي ترافقها الطرادات إلى « بارغن » . استقل الجميع القطار واجتازوا النرويج ثم وصلوا إلى ستوكهولم .

ماان بدل كفاتشي ثيابه في الفندق حتى دخل ايدلسون ورجل ألماني غرفته . تفحصا الغرفة ، اغلقا الأبواب ، جلسا واجلسا كفاتشي وبدؤوا يتهامسون ويغمغمون ساعتين .

اثناء ذلك كانوا يتطلعون إلى البهو بين الفينة والأخرى ويراقبون ماحولهم ويتابعون « العمل » الذي بدؤوه .

بعد ان اتفقوا أوصى بعضهم بعضاً ثم افترقوا . حين خرجوا من الغرفة التفت ايدلسون نحو كفاتشي وقال :

— منذ اليوم نحن لانعرف بعضنا بعضاً ولن نعرف ابداً . انت تعرف فقط مدرّستك،مدرسة اللغة الفرنسية « ريفيكا » . لاتنس شيئاً وإلا أنت تعرف ! سنخبر بعضنا بعضاً بالشيء الضروري عن طريق « ريبي » ، وداعاً !

وفي ذلك المساء أخبر ايدلسون كفاتشي عن طريق « ريبي » بعض المعلومات .

بدأ كفاتشي عملاً صعباً ومعقداً ، إذ أمضى الليل بكامله حتى تمكن من الاستماع إلى ماأرسله إليه اسحق وأعطاء التعليمات لـ « ريبي ».
وفي الصباح التقى كفاتشي بعض الجورجيين الذين همسوا إليه سراً :

— الأفضل لنا أن تنتصر ألمانيا .

— غير ممكن ، هذه خيانة .

— في هذه الحال ، اعملوا انتم في ذلك الاتجاه . ربما أعطونا حكماً ذاتياً كبولونيا .

— الحكم الذاتي لايناسب جورجيا . سيكون بمثابة استرجاع لنظام عبودية الفلاح .

— اذن ، علام يراق هذا القدر من دمائنا ؟ .

— في سبيل روسيا العظمى . اذا انتصرت نكسب نحن أيضاً وكل ماتبقى — اللغة ، الثقافة القومية ، الحقوق السياسية — أمل باطل مالك تتمسك بجورجيا الصغرى بحفنة من الشعب . سنغرق في تلك الحفرة . ان نتمكن من مدّ اجنحتنا وسنموت جميعاً . أنظروا إلى روسيا العظمى ، إنها سدس الكرة الأرضية . تقارب المائتي مليون من السكان . إذا كانت لديكم المهارة والحذاقة والرغبة افتحوا اجنحتكم وطيروا عبر هذا المدى اللامحدود . تهامسوا طويلاً في ذلك البيت الصامت . أخيراً أعطاهم كفاتشي جواباً مشجعاً :

— لامع هنا ولامع هناك ! الحذر والطاعة . لاتغضبوا أحداً ولاتتخاصموا مع أحد . سأوافيكم بالأخبار . أعطوني انتم كل ماتعرفون . غيرّوا كلمة التعارف مرة كل شهر ، وداعاً ! وقال في نفسه : « من يعلم ، ربما حصلت على شيء ما هنا أيضاً » .

— الأخ « أبولون » الأخت « بلينا » — ضمّهما « غريشا » فرحاً بعد أسبوع . بعد غياب عامين أمضوا يومين كاملين ليعرف الواحد منهم كل شيء عن الآخرين ، وليتحدثوا عن مغامراتهم . قص كفاتشي لـ « غريشكا » عن أوروبا المتفسخة ، عن جنونها ولا أخلاقيتها وفسادها

وشدد على القضايا الكنسية والروحية بالرغم من أنه لم يسمع ولم يقرأ لاعن هذه ولا عن تلك أي شيء في أوروبا .

وفي أسرة سلبيسترو علا صخب وضجة الفرح :

– وهل يجوز هذا يابني ؟ ألا تخجل؟ قال سلبيسترو مؤنباً كفاتشي .

– هذا لايصح يابني ،ان تنسى والدتك . وإلا . . . – قالت « بوبي» وهي تضم إلى صدرها ابنها المتوحش .

– وهل يعرفون عن « تأمينك » – سأل كفاتشي أباه أخبراً .

العالم كله يعرف . لقد هلكت أنا – قال سلبيسترو عابساً .

– سأدفع لـ « سالاماندرا » عشرة آلاف روبل مع فوائدها هذا والسلام .

ريثما شبع « غريشكا » و « يلينا » من بعضهما وملاّ ربط كفاتشي الكثير من الخيوط المقطعة وقدم خيوطاً جديدة .

خلال مايقارب الاسبوعين طرح كفاتشي في بطرسبورغ شبكة جيدة الجدل والحبك . نظّف الممرات والأقنية القديمة وشق أخرى جديدة . تخلص من الخدمة الازامية ، ثم تجول متباهياً ببزة «ريمستفو»(١) الحربية . ركبّ مهمازاً على جزمته وشعاراً حربياً على سترته وكتافيات ذهبية وعلق « البنود » وعاد الأمير من جديد ممشوقاً منتصب القامة وتفرغ للسيارات والخيول والمنتزهات والجادات والصيارفة والمطاعم الفخمة وللحاشية والحكام وللجميلات اللاتي تضاعفن خلال عامين وأضحيْنَ أكثر روعة .

(١) زيمستفو : مجلس محلي منتخب في الريف الروسي قبل الثورة .

« ساماريتيانين الطيب » والنجاح الجديد لكفاتشي

ذات يوم افتتح في شارع « نيفسكي »(١) مكتب ضخم تحت أرومة ذهبية :

« الجمعية الخيرية لمساعدة جرحى وقتلى الحرب » « ساماريتيانين الطيب » .

لدى صاحبها والمستفيد منها « كفاتشي كفاتشا نتيرادزه » تسعة « سكرتيرين » ونفس العدد من المستشارين الشخصيين وما يقارب المائتين من الموظفين والهوسار (٢) من السلالة المختارة ، وتوجد بين هؤلاء الناس بالاضافة إلى ضاربات الآلة الكاتبة الفاتنات امرأة — سكرتيرة ، مدرسة اللغة الفرنسية « ريفيكا ايدلسون » .

جمع كفاتشي كل الأصدقاء القدامى ماعدا « غابو » و « سيدراك » اللذين سيقا جنديين عاديين لاحتلال استامبول .

وقد خلصهما كفاتشي فيما بعد من الجيش نظراً لحاجته اليهما كمختصين في عمله المعقد و « البطولي » وانتظرهما . أخيراً آن الأوان ووصلا :

— واخ ، أيها الأمير ، أصبحت جنرالاً ؟

تعانقوا وفي تلك الليلة احتفلوا بالتئام الأسرة القديمة في مطعم أركادي .

أصدر كفاتشي ألف أمر في اليوم الواحد :

---

(١) نيفسكي : أحد الشوارع الرئيسية في بطرسبورغ .
(٢) الهوسار : عسكر الخيالة في النظام القيصري وبعض دول أوروبا الشرقية .

ـ أعطوا الفيلق الثاني ألفاً من الأحصنة . . استجرّوا مائة عربة شعير للجيش الثالث في منطقة الدون . . صدرّوا إلى وارسو مائتي عربة من الدقيق . . أعطوا الجيش الرابع « عشرة آلاف » بدلة داخلية . . اصرفوا للمموّن ايفانوف مائتي ألف . . بيعوا ، اشتروا ، فكّوا الرهان . . اخزنوا اطلبوا ! . .

انتفخ كفاتشي من الربح . كثيراً ماكانت حساباته الجارية تصل إلى درجة الصفر . يعمل نهاراً ويمضي الليل مع غريشكا والفاتنات ومشاهير الناس .

كان أحياناً يعطي « ريفيكا » وثيقة صغيرة مكتوبة بالشيفرة مدونة على ورقة سجائر ويتلقى عن طريقها مهمة صغيرة . كانت ريفيكا تدس الوثيقة التي تتلقاها في شعرها المنفوش وتخرج . أحياناً كان يبدو غريشكا حزيناً عابساً ، وكثيراً ماكان يصلي بأمل كبير ، يتأوه يتألم ويبكي .

ـ أيها المعلم الكبير ، ماالذي يقلقك ، أي هم يشغلك ؟ ـ سأله كفاتشي ذات مرة .

ـ أخي ابولون ! قلبي يحدثني أحاديث بشعة لايريد الله أن يقدس لي هذه الحرب . سنخسر ، سنهلك ستندمر، نعوذ بك اللهم من الشيطان ! أغفر اللهم ذنوبنا ! ابولون ، صلّ ، صلّ أنت أيضاً ، يجب أن تصلي كل روسيا . يجب ان تبقى الكنائس مفتوحة نهاراً وليلاً .

يجب أن تقرم الخدمة الدينية في كل يوم . يجب أن يقدس الله انتصارنا ، وإلا . . . مع أنني ياأبولون حينما بدأت الحرب ، ارتميت

على قدمي القيصر ، حذرته ورجوته باكياً : نيقولاي ، لاتحارب !
ستهلك الشعب ، ستدمر روسيا وستفقد العرش ، ستهلك نفسك
وتهلكنا معك ! » .

منذ البداية أجابني بالرفض . لم تلق نصحيتي قبولاً لديه . كان
القذرون والمجانين أقدر منا ووقفنا نحن على جهة خشية ان نلام .
وما زال غباؤهم وفشلهم يسقط بلية على رؤوسنا. حتى الآن الأمور
تسير بشكل سيء . ابولون جيوشنا تتكبد الهزيمة ، ووراء تلك الهزيمة
أشياء مرعبة : الثورة ، الفوضى ، مذابح دموية ، جوع ، انهيار
روسيا وسقوط العرش . الأمير « ميشرسكي » الذي يدعى « الثعلب
العتيق » أذكى انسان في روسيا . هو يعرف كل شيء ، يفهم كل شيء .
حين يتحدث يبدو كغراب ينعق . يرتجف جسمي بكامله
ويمتلىء رأسي بضباب أسود.. شيطان من الجحيم وطد الحلف بين روسيا
المقدسة وفرنسا الكافرة . ماالذي يجمعنا وذلك الشعب ؟ لاإيمان لديه
ولا أخلاق ولاعقل . إنه شعب متفسخ ، نتن فاسد . بالأمس أمضيت
يوماً كاملاً في الصلاة ومرة أخرى صليت للاله : ياإلهي ، ياإلهي ،
طهّر روحي الشريرة، أغفر لي ذنوبي وافتح أمامي طريق المستقبل !
« مرة أخرى أغمضت الأيقونة عينيها ، ومرة أخرى زرفت دموعها .
ايقونتي تبكي طوال الوقت ياأبولون ، تبكي وهذه دالة تعني أن روسيا
ستهلك . ابولون، أنا رجل ريفي جاهل حتى أنني لاأعرف قواعد اللغة
كما يجب . ليست لدي ثقافة ، لكن الله وهبني عقلاً قروياً نيراً
وعيناً بصيرة وحساً دقيقاً . لذا أنا أفهم على هذه الأرض أكثر من أذكياء
كثيرين . ابولون تذكر كلمتي : إذا لم نتوقف عن الحرب حالاً

سنهلك وستتدمر روسيا . اقترب أبولون، اقترب ولنصلّ مرة أخرى للإله من أجل بلادنا روسيا !

وافق كفاتشي غريشكو على كل ماطرحه ووعده أن يعمل في سبيل السلام ، مع أنه كان يشعر جيداً ويرى أن الاهتمام بذلك مازال خطراً وقبل أوانه إذ ان كلب الحرب الأجرب ذا الأنياب الحادة قد وجد الكثير من الأنصار والمؤيدين واتخذ منحى بحيث ان الطبقة المتنورة في المجتمع اصبحت تفضل الانتحار على الخيانة الصريحة والحنث بقسمها .

تحول غريشكا إلى جانب بريطانيا . وقد تضاعف تأثيره وقوته إلا أنه كان دائم الشكوى حتى ان أحداً لم يثق به ولم يسأله شيئاً .

ذات مرة ، وعندما كان غريشكا وكفاتشي يتمشيان ارتمى بعض المارة ، وفي مناطق ثلاث ، على اقدام غريشكا ، قبّلوا يديه وأطراف ثيابه وتوسلوا آملين :

— عيسى المسيح ، يامنقذنا ! صلّ من أجلنا نحن الآثمين، فالرب يستجيب لك . صلّ وإلا سنهلك .

— باسم الاب والابن والروح القدس ، آمنوا بالله ياأخوتي وأخواتي ، سيحين موعد عودة المسيح . اصبروا وتذكروا آلامه . آمين — ثم مسح دموعه في الظلام والتفت إلى كفاتشي — قضيتنا انتهت . . هانحن نهلك . .

بعد عدة أيام أطلع غريشكا كفاتشي على البرقية المرسلة من قبل القيصرة التي كتبتها من سيبيريا المتضمنة أنها لاتستطيع ان تحيا يوماً

واحداً بدون غريشكا وأنها تعاني من أزمات مستمرة واضطرابات عصبية وأن الأمير ابن القيصر كثيراً ماينزف دماً من مكان الرض ، وقد أبدى أمهر الأطباء عجزهم .

بعد أن عاد غريشكا من سيبيريا اطمأنت القيصرة فقد تمكن الطبيب بادمايف — الذي أحضره غريشكا من التيبت — من ايقاف نزيف الأمير . ومنذ ذلك اليوم سقط القيصر والقيصرة بشكل مطلق في قبضة راسبوتين ولم يسمحا لـ « غريشكا » وللطبيب بادمايف بمغادرة القصر . في تلك الفترة حاول اعداء غريشكا الايقاع به ، وردا عليهم دخل غريشكا القصر وهدد القيصر والقيصرة بحضور النبلاء :

— أنا أعلم ان أعدائي يحفرون قبري . لاتصغوا إليهم ولاتتركوني ابتعد عنكم ، وإلا ستفقدون وريث العرش والعرش أيضاً .

جثت القيصرة أمام راسبوتين على ركبتيها وقالت بصوت مرتفع :

— نحن لانستطيع مفارقتك أيها القديس . أنت نصيرنا وصديقنا الوحيد . باركنا أيها الأب المقدس باركنا !

منذ ذلك الحين لم يتلق غريشكا رفضاً من أحد . ونادراً مامرّ يوم لم يقل أو يكتب للقيصرة فيه :

أحيلوا هذا . . أحيلوا ذاك على التقاعد . . عينوا . . انقلوا . . رفّعوا، خفضوا من مكانة فلان .. القيصر لايفعل شيئاً دون استشارة القيصرة،والقيصرة والقيصر لايخطوان خطوة واحدة ولايقومان بأدنى عمل دون موافقة غريشكا .

ذات مرة جاء راسبوتين والجنرال « سوخوملين » إلى مكتب كفاتشي

وسلماه بمهابة وامتنان ومباركة وبعد القبلات ، منّة القيصر / قراره / ميدالية وصليب لكفاتشي ـــ وصليب لكل واحد من رفاقه .

أثناء ذلك أحضر « بيسو » كتابين ضخمين ، جيدي الاصدار ، مزدانين بالصور . توجه كفاتشي أولاً ، بحديث ملتهب ومليء بالدموع إلى راسبوتين وسوخوملين ، ثم قدم كتاباً إلى كل منهما . تصفحاهما . قرآ على أحدهما « حياه ة وأعمال الجنرال سوخوملين » وعلى الكتاب الثاني العنوان التالي : « حياة وأعمال الأب القديس غريغوري » .

وقد طبع على الكتابين بخط عريض « وضع واصدار فليغل أدبوتانت (١) . الأمير نابليون ابولونوفيتش كفاتشا نتيرادزه » ـــ من ضباط حاشية عظمة الامبراطور .

ومن جديد بدأت الخطابات والاطراءات والعناقات والقبلات الرنانة . وعندما علم الجنرال ـــ سوخوملينوف ان كفاتشي قد أصدر الكتابين باللغتين الفرنسية والانجليزية ووزع الآلاف منهما في أوروبا أقسم على التآخي مع كفاتشي ووعد بأن يرد له الجميل ، ثم قال راسبوتين لكفاتشي :

ـــ ابولون ، أسمعني : اعداؤنا يؤكدون لـ « خفراتسيا » (٢) انني اطالب بايقاف الحرب فوراً .

---

(١) ضابط كبير من ضباط الحاشية .
(٢) فرنسا – وهذا دليل أمية وجهل راسبوتين .

فعلاً هذه هي قناعتي ، لكن « بابا » و « ماما » يرغبان ان أطمئن السفير « الحفراتسي » .

خذ هذه الرسالة إليه :

جلس متوتراً يخط : « (١) فلتبق روسيا تعيش مثال هي بلاد ملوم مثال لامسحق منذ حالا ، الأروض يظهر قوة ترون حفور قوة السموات النصر معكم ولوكم راسبوتين (٢) .

سلم كفاتشي السفير الفرنسي « موريس باليولوغ » هذا الهذيان الغامض .

طبعاً لم يتمكن السفير أو كفاتشي أو أي شخص آخر من فهم محتوى تلك « الرسالة » . ! وفي نفس المساء صفّى كفاتشي حسابه نهائياً مع الصحفي « كنولمان » لقاء اعداده سيرة حياة راسبوتين وسوخوملينوف .

بعد عدة أيام دخل غريشكا وكفاتشي قصر أحد رجال الحاشية الكبار (كان القصر قد حوّل إلى مشفى عسكري) حاملين هدايا للجنود الجرحى .

التقيا مع السفير الفرنسي في احدى الغرف الكبيرة . قال كفاتشي :

ـ أرجو ان تتعارفا : غريغوري راسبوتين ، السفير موريس باليولوغ .

أحمر غريشكا فجأة وأضطرب :

---

(١) هذه وثيقة تاريخية – المؤلف . . . –

(٢) حاولنا قدر المستطاع نقل الأخطاء الواردة في النص الروسي – المترجمان

ـ كنت أود رؤيتك . . ابولون ترجم له ـ روسيا تنهار والشعب يعاني والملايين تتألم وتموت . . آن الأوان لانهاء الحرب وإلا سننتهي نحن أو سينهينا الشعب ، نعم آن الأوان . غريشكا راسبوتين أنا أقول كل هذا ! نعم أنا !

بعدئذ اندفع فجأة نحو « باليولوغ »،ضمه إلى صدره ودون أن ينتظر جواباً خرج مسرعاً ملوحاً بيديه وهو يصيح :

ـ أية سياسة هناك ! أنا فلاح وأحب الصراحة الفلاحية ، أي وقت للسياسة ! الشعب مستعد لرمينا بالحجارة ! السلام ! السلام بسرعة وإلا سنهلك !

« كيف « دبر » عملا حربياً ضخماً »

مرت الأيام . مرة أخرى استعاد غريشكا قواه . كان كفاتشي ضيفاً دائماً على وزير الحربية سوخوملينوف ، نظراً لأن « ساماريتيانين الطيب » كان على صلة متينة مع ادارة الجيش التي كان يزودها بكميات كبيرة من المؤن والخيول والثياب الداخلية والذخيرة . ومما زاد في ارتباطهما وتآخيهما كتاب « سيرة حياة سوخوملينوف » وصديقهما المشترك راسبوتين .

كان كفاتشي ، كما في السابق ، يتحكم بعدة صحف تطريه بمناسبة وبلا مناسبة وتمدح وزير الحربية ونبوغ الاثنين وموهبتهما الابداعية وحسن تدبيرهما ومقدرتهما الاسطورية في الادارة .

وعرفاناً بالجميل وكتعبير عن الثقة العميقة قدم سوخوملينوف صليبين لكفاتشي وقال له :

ـ نابليون ابولونيتش ؟ عليّ أن أعهد اليكم بعمل حكومي غاية في الأهمية . لايمكنني أن اثق بأحد سواكم . عليكم ان تسافروا إلى أمريكا وتحجزوا هناك على كميات من الأسلحة والبارود والطلقات لمعاملنا . موافقون ؟

ـ هذا صعب عليّ ، صعب جداً ، لكن لن تستطيع الهرب من خدمة الوطن ،أنا مستعد للخدمة .

ـ لكن تذكروا أنكم مكلفون بمهمة عظيمة وخطرة جداً . يجب ألا يدري أحد بذلك ، ليس كما . .

بعد عدة أيام سافر كفاتشي إلى أمريكا مزوداً بالنصائح والأموال وعلب مختومة بالشمع الأحمر .

في محطة ستوكهولم استقبله جنرال يعرفه :

ـ أنت مسافر إلى أمريكا بمهمة سرية . .

تهامسا مرة أخرى . تجادلا طويلاً وتساوما . ثم انكب الخطاطون على علب كفاتشي وكتبوا مثلها حتى ان أحداً لم يكن يستطيع التفريق بين النسخ الأصلية والنسخ الجديدة ، إنما ادخلوا تصحيحاً بسيطاً في النسخة . لقد اختصروا العدد بعض الشيء .

في اليوم التالي سلموا كفاتشي العلب مختومة كما في السابق بالشمع الأحمر مع شيك متمنين له سفراً سعيداً ، ثم سافر إلى برلين .

بعد اسبوع أوصل طراد إنجليزي كفاتشي إلى نيويورك . دعا

كفاتشي والملحق العسكري الروسي أصحاب المعامل ، تساوموا ثم أتفقوا . بعد أن وقع كفاتشي العقد وتلقى شيكاً آخر تنفس بحرية وتفرغ لأعماله .

اشترى بأموال طائلة مايقارب عشر سفن محملة بالمؤن والمواد الحربية . أرسل هذه السفن إلى « أرخانغلسك » باسم الادارة العسكرية وسافر هو عبر المدن القريبة .

عبر فيلاديلفيا ، واشنطن ، بوسطن وشيكاغو . وفي كل منها « دبر عملاً — عملين » وأعطى الفرصة للنساء الباردات ان يتذوقن الدم الجورجي الحاد،ثم اجتاز كل أمريكا وشق المحيط العظيم . عرّج على اليابان وتذوق « الغيشات (١) » . ثم عاد إلى بطرسبورغ بالطريق السيبيري اللامحدود .

حمل هدايا ثمينة لـ « غريشكا » و « يلينا » و « للاصدقاء»والحاشية . كان الجميع له شاكرين وازدادوا منه اقتراباً وقدم تقريره للجنرال « سوخوملينوف » :

— الأسلحة والطلقات من ذلك العيار كانت معدة لجهات أخرى ، إنما دفعت لهم ثمناً أكثر قليلاً . سنستلم نصف الكمية الآن والنصف الآخر سيشحن بعد ثلاثة أشهر ، وهكذا كسبنا الوقت .

الكميات الضخمة من الأسلحة الفاسدة غير الصالحة المقتناة من أمريكا اشتريت دون تدقيق أو فحص من قبل الادارة الحربية .

---

(١) الغيشا : تسمية الراقصة والمغنية اليابانية التي تدعى إلى البيوت للهو والتسلية

بعد أسبوعين استدعي كفاتشي إلى القرية القيصرية . أثنى القيصر والقيصرة على كفاتشي بحضور « سوخوملينوف » « راسبوتين » « فريد يريكس » والكثير من الحاشية والأمراء والنبلاء وقدم إليه بزة عسكرية فخرية وقلده أيضاً ثلاثة صلبان مختلفة .

أجلس القيصر كفاتشي بجانبه أثناء تناول الغداء وسأله عن الأحوال . فتح كفاتشي فمه ، وتحدث بنشاط وذكاء ووضوح وطلاقة عما رأى وعما لم يره ، عما سمع به وعما لم يسمع . وأخيراً ، وبعد صمت قصيرة ، قال خافضاً صوته قليلاً :

— علمت أن عظمتكم ترغب بمعرفة رأي الرجل الأمريكي الوجيه بهذه الحرب الرهيبة .

— طبعاً يسرني هذا جداً .

— الحقيقة ماكان أحد ليقول لي رأيه بشكل رسمي ، إلا أنني التقيت الكثير من الوزراء والرؤساء الحاليين والسابقين ، قابلت الجميع مراراً وبشكل ودي : « تافت » ، روزفلت ، ويلسون ، يوز ، أديسون ، مورغان ، ر وكفلر ، وكثيراً من الوزراء وأصحاب الملايين والنواب الامريكيين ومختلف الوجهاء . سأوجز لكم : جميعهم يتمنون النصر لنا ، ولكن . .

— لكن ؟

— لكن . . أنا لاأستطيع أن أخفي شيئاً عن قيصري وأحسب أن من واجبي قول الحقيقة حتى ولو كانت غير سارة . جميعهم تقريباً يؤكدون ان هذه الحرب الرهيبة ستستمر حوالي العامين تقريباً .

— يالهي العظيم !

— سيكون النصر لصالح حلفنا لكن روسيا . . إذا لم تتحمل حتى النهاية . .

صمت الجميع وقطبوا وغمز غريغوري كفاتشي إشعاراً بالموافقة .

فكر القيصر بعمق . احنى رأسه وتوقف عن الطعام وخيم الصمت وكأن جثة قد ألقيت على المائدة ، ثم تفرقوا صامتين . القيصرة فقط تطلعت نحو كفاتشي بعيني الرضى ، ومدت إليه يدها الباردة التي قبلها كفاتشي الخائف منهم .

— مرحى لك أبولون مرحى ! قال غريشكا مادحاً — الآن يليق بك جداً صليب القديس جيورجي . يؤسفني أن اسمح لك بالمغادرة، لكن ماالعمل ؟ هيا تنزه في الجبهة مدة أسبوع ، وعد مع صليب « جيورجي » ماقولك ؟

ماذا يقول كفاتشي !وهو يعلم جيداً أنه لوشاء غريشكا وسوخوملينوف لمنحاه صليب القديس جيورجي حتى ولو أطلق طلقة واحدة على بعد مائة فرسخ من الجبهة .

— ابولون ، لاتخف — قال راسبوتين لكفاتشي مطمئناً — سيكتب الجنرال « سوخوملينوف » إلى القائد الأعلى ايحافظ عليك كبؤبؤ العين ، قف بعيداً ، تعرف إلى المنطقة ، أطلق طلقة ثم عد .

شيء رائع . تحت هذه الشروط قرر كفاتشي ان يحصل على صليب القديس غيورغي .

واتجه « أمل سليبستر و » / ابنه / إلى جورجيا .

التقى كفاتشي الدكتور كورانا شفيلي في محطة بطرسبورغ . هو أيضاً كان مسافراً إلى الجبهة التركية مرتدياً بزة دكتور عسكري .

سأل كل منهما الآخر عن احواله . دعا كفاتشي الدكتور كورانا شفيلي إلى مقصورته .

أمضيا اسبوعاً حتى وصلا مدينة أرضروم . خلال ذلك الاسبوع لم ينبس كورانا شفيلي بكلمة واحدة عن الطب أو أية مادة أخرى ، بل افعم كفاتشي بالحديث عن الآثار والتاريخ من الصباح وحتى المساء وهو يئز في اذنه كذبابة الخيل :

أرورتو ، تاييري ، كارين ، سومريين ، أدارسة ، أنغوش ، شاردان ، بيرغاموس (١) . . .

أخيراً خلط كفاتشي بين كل الأسماء والعصور ثم اعترف :

ـ أخ لم أفهم شيئاً . التاريخ ليس مهنتي !

« كيف تحول كفاتشي بشكل عجيب ، وكيف كسب معركة خاسرة »

وصل كفاتشي إلى تركيا بعد عشرة أيام وتوجه إلى الأركان ، فهم أعضاء هيئة الأركان المجربون في الحال شخصية كفاتشي والغاية من سفره لمدة أسبوعين .

مضى الأسبوع الأول في المنادمة . تذكر رئيس الأركان وكفاتشي المثل القائل :

« صب لي كي أصب لك ! » فساند بعضهما الآخر . سلم رئيس

() أسماء مدن وشعوب ــ المترجمان

الأركان كفاتشي إلى جنرال سكير ،قائد أحد الفرق وأعطى توجيهاته إليهما على انفراد وأرسلهما إلى الجبهة . اصطحب كفاتشي ثلاث عربات ذات دولابين محملة بالنبيذ والكونياك والفودكا ومختلف الحاجات وتبعه رفيقاه المؤتمنان — غابو تشخوبيشفيلي ولادي تشيكينجيلادزه ورجلان روسيان مجربان .

سافروا على الخيل يومين كاملين . كانت الطريق ملأى بالعربات وعربات النقل والعربات المحمولة والمشاة والفرسان،وبالمدافع وصناديق الذخيرة ، بالجرحى والمرضى .

الجميع يتهادى بكسل وبلا رغبة،وكثيراً ماكانوا يستريحون على جانبي الطريق .

كان الجنرال الثمل يقذف بسخاء الشتائم المقذعة ، ومن وقت لآخر يصدر الأوامر ويسيّر سائقي العربات في شتى الاتجاهات .

وصلوا مساءً إلى بلدة مهدمة محروقة / حيث كانت بلدة / :

عمل الجميع في قيادة المعسكر حتى وقت متأخر . تلقوا الأخبار وأصدروا الأوامر،ثم جلسوا وراء طاولة عامرة . بدؤوا يشربون ببطء ثم اشتعلت دماؤهم وتأججت تدريجياً . بدؤوا يغنون : « مرافالجامير » « ألافردي » و « اليوم الأخير القصير » وكثيراً من أغاني الحرب والوداع .

أثناء ذلك ، ومن وقت لآخر ، كانوا يتوعدون بقبضاتهم الأتراك غير المرئيين ويتفوهّون بكلمات إرهابية ويصرخون دونما حماسة مميّزة :

— إلى استامبول . . سنحطمهم . . سنحطمهم ! . . ! اضرب !..

هيّا ! . . بعد منتصف الليل أعلن الجنرال الذي احتسى الكثير من الخمور :

ــ حسناً أيها الأصدقاء،سننام الآن ، فالمقاتل الذي لاينال قسطاً وافراً من النوم لايعدل قرشاً مهشماً . أشربُ للمرة الأخيرة نخب النصر (نصر الغد) هورا !

ــ هورا ــ هدروا صارخين بلا رغبة، ثم حطموا كؤوسهم وتفرقوا .

استلقى كفاتشي دون أن يخلع ثيابه . أغمض عينيه وراح يفكر بمعركة الغد . تسلل شيطان إلى قلبه . « غداً ستحدث المعركة . . . ستسيل الدماء ، سيقتلون ويحرقون بعضهم بعضاً . . سيبترون يد هذا ورجل ذاك وسيقطعون أعضاء أخرى لرجل ثالث ، ربما بقيت جريحاً على أرض المعركة، ولن يأتي أحد لنجدتي،سأموت جوعاً وعطشاً . . ربما بقرت بطني شظية حامية ، ربما اخترقتني رصاصة أو ذبحت بسيف قصير أو اخترقت حربة خاصرتي . . » .

وفعلاً ، اعتلت في البداية خاصرة كفاتشي التي اخترقتهاحربة، ثم بدأ جوفه ، الذي بقرته شظية حامية بالالتهاب وتخدر رأسه المقطوع بحربة واشتعلت احشاؤه الممزقة بطلقة .

« لا ، هذه حماقات رأسي . .تخبط وهذيان ! قال كفاتشي لنفسه ــ من جرك إلى هذا المكان القصي من أجل صليب يدعى صليب القديس غيورغي ؟ رفي سبيل من ؟ ومن أجل أي شيء يجب أن أموت ؟ تضخمت وترهلت ولم يعد يتسع لك جلدك . ماذا ينقصك ؟ لديك أموال طائلة ونساء لاحصر لها ووسام البزة العسكرية ولقب الأمير

وسلطة لاحدود لها وقصر وخدم ، احترام وحياة رغيدة ــ كل رغباتك تحققت واضحت واقعاً .

بماذا ترغب أيضاً ؟ وراء أي شيء تجري ؟ عم تبحث ؟ « عنزة عندما سمنت أرادت أن تصارع الذئب » هذا المثل ينطبق علي تماماً .

يقولون أن كفاتشي رجل ذكي – هراء ! أي رجل ذكي ذاك الذي يتخلى عن حياة الملوك ويجري وراء الموت في سبيل صليب يعدل روبلاً ؟ ! لقد وعدني غريشكا وسوخوملينوف ألا اسمع طلقة صدئة ، وهنا زجوني في قلب المعركة ، ومن حسن الحظ أن الطلقة لم تصب بعد سوى المؤخرة أو منطقة لينة . ماذا لوبترت الطلقة اليد أو الرجل أو مزقت الأحشاء . .

لم يهدأ الألم في بطن كفاتشي الممزق ، بل على العكس ازداد ألماً . أقامت الشياطين في رأسه جوقة موسيقية ، اشعلت ناراً جهنمية ثم صبت فيها حديداً مصهوراً . احترق كفاتشي بتلك النار ، تقلب طويلاً في الفراش الدافيء ، أخيراً نهض وخرج إلى الشرفة . كانت الكلاب تنبح برعب في تلك المدينة المهدمة . في الأسفل كان يسمع صهيل خيل وصرير عربات وهدير مدافع . كان المعسكر قد استيقظ ويتهيأ للانتقال إلى مكان ما .

فجأة لعلعت طلقة ، ثم ثانية وثالثة وخامسة .

ــ ماذا حدث ؟ ماالخبر ؟ جرى كفاتشي نحو الروسي القريب منه والذي استيقظ لتوه .

ــ لاشيء ــ قال الحارس مطمئناً كفاتشي ــ الخرائب هنا مليئة

بالكلاب السائبة . انها تختبيء نهاراً وتخرج للصيد ليلاً مقلقة الجنود ، تنقض على الجرحى والموتى فيقتل الجنود تلك الكلاب لاأكثر .

طلع الفجر . نهض المعسكر وتابع طريقه وسارت قيادة المعسكر في إثره . فجأة لعلع مدفع في البعيد . سرى هذا الهديربكل الآذان، ثم تكرر هذا الهدير بشكل أصم .

– بدأت – قال أحدهم .

من جديد تسللت الشياطين إلى قلب كفاتشي . كان الآخرون هادئين ، حتى ان البسمة قد لمعت على وجوه البعض . كان الجنود يتهادون بسكون وكأنهم ليسوا في معركة بل عائدون من الحقل إلى البيت .

– فعلاً ، ليست المعركة رهيبة كما يقول البعض عنها – وجه كفاتشي كلامه إلى تشخوبيشفيلي .

– كن شجاعاً ! هؤلاء التتر القذرون لن يصيبونا بأذى – قال غابو مشجعاً كفاتشي – لقد تغلبنا عليهم في « حسن كالا » وفي « أرضروم» وفي « وان » وفي أماكن أخرى . في البداية أنا أيضاً ، خفت ، ثم تعودت بسهولة .

صعدوا إلى مرتفع سطحه مستو . أقاموا خيمة القائد في وهدة صغيرة . ترجلوا عن الأحصنة ، ثم زحفوا نحو الرّابية .

انكشفت ساحة المعركة أمام ناظري كفاتشي : امتدت الخنادق والملاجيء على طول الرابية بصفوف غير مستقيمة . كانت القوات الروسية تختبيء في الثنايا الشمالية للرابية ، وعلى امتداد الرابية كانت

الطريق المغبرة غير المرئية تغص بالقوات المترجلة . وفي الجانب الصخري من الفج العميق كانت فرقة ضخمة من الخيالة تتلوى نحو اليمين كأفعى سوداء ، وعلى أحد التلال كان الجنود والخيول يجرون المدافع بصعوبة كبيرة وكانت في الميدان قلة من السعاة يسوقون الأحصنة .

وكانت السلسلة الثانية تمتد باتجاه الجنوب بموازاة السلسلة الأولى ، وبين السلسلتين يتوضع سهل عار نحيف ضيق طويل يغشاه الضباب الصباحي جزئياً حيث كانت تقوم فيه خمس أشجار واحراج ومسايل وحدائق .

رأى كفاتشي من على سطح الرابية وعبر المنظار خصمه متململاً كالنمل ، وفجأة سمع صوت كأزيز الزنبور ، ثم تحول هذا الأزيز إلى ضجة غريبة وعاصفة حديدية وارتفعت تلك العاصفة نحو الرابية كالبرق وتلألأت قوساً من الحديد والنار . أحنى الجميع رؤوسهم أمام تلك الومضة ، في دقيقة واحدة انحنى البعض قليلاً أمام هذا الغضب الرباني وبعضهم أحنى ظهره والبعض الآخر جلس القرفصاء .

ارتمى كفاتشي دون ارادته على قفاه ، والتصق بالأرض . أثناء ذلك انفجرت تلك الومضة برعب على سطح الرابية بالقرب من المعسكر وارتفع عالياً عمودٌ من اللهب والدخان والتراب والحجارة وامتد حتى طاول السماء .

ضحك البعض وفرك البعض الآخر عينيه خوفاً .

وقف كفاتشي الشاحب بصعوبة بالغة . كان مصعوقاً ، تطلع فيما حوله ، ثم تمتم بكلام غير واضح :

ـ فليأخذه الشيطان . . كدتُ أن أخاف . . كدتُ أن أهلك . .

ـ هذه واحدة ستأتي ألف غيرها ! علله غابو ـ من الآن فصاعداً سترى كم سيأتي غيرها . هذه مجرد تحية .

ـ لقد كشفونا ـ صرخ أحدهم .

ـ لا ، جاءت طلقة مصادفة .

ـ إذا كانت طلقة طائشة قد أحدثت ماأحدثت فكيف لوكانت مقصودة ! ـ قال كفانتشي لنفسه .

ـ أبداً ! أصدر القائد أمره .

تحرك السعاة . راح الهاتف الملقي على الأرض يطقطق .

المدفع الجبلي الماكر ينبح كجروٍ والمدفع السهلي يتألم ويبكي ، ومدفع « المورتر » يبكي ويقصف ومدفع الهوتزر يهدر ويدمدم و و « المترليوز » يقزف كدجاجة بياضة. كانت القذائف تتوالى وتتساقط كحبات القمح على الأرض والسماء تبكي وتزرف كالثلج حفنات من القنابل الوردية والصفراء والبيضاء . الأرض مغطاة بلهب الطلقات والدخان وأعمدة الحصى والتراب وكان الهواء مشبعاً بالقصف والهدير والارتجاج ، بالطنين والفحيح ، بأنين المحتضرين والجرحى ، بالنشيج واللعنات ، بصراخ المحاربين وزعيق الهاربين ، بالضجة ، بوقع الأقدام على الأرض وصليل الحديد وبمختلف الأصوات والصراخ المبهم .

أثناء ذلك ومن وقت لآخر ، كان خطا الدفاع في ذلك الميدان يتبادلان الهجوم على شكل موجات ، تارة من جانب وتارة أخرى من الجانب الآخر ، يتصادمون مرة فيكسر أحدهما الآخر ، أو يتراجعون من منتصف الطريق ويختبئون في الحفرات والمسايل .

كان الوقت بعد منتصف النهار . جلس الجنرال التعب من السباب والصراخ يتغدى في ظل أحد الصخور وجلس الآخرون يمضغون .

– يعاني موقع « ديمر – تيبي » من صعوبات كثيرة – قدم رئيس أركان الفرقة تقريره – لقد دمر اللواء الرابع تقريباً .

– ادفعوا بالثالث – أجابه الجنرال باقتضاب وهدوء .

– بقي النصف من هذا اللواء أيضاً .

– ادعم النصف الباقي بلواءين ، وأخبرهم ان مصير المعركة يتوقف على تل « ديمير – تيبي » .

خمدت المعركة في الوسط ، لكنها ازدادت اشتعالاً في الناحية اليمنى . . وكان دويّ متواصل يسمع من ديمرتيبي . فجأة ، ومن الجهة الأخرى ، تحركت عدة موجات سوداء قادمة من المسايل وثنايا الجبال .

– جاؤوا مهاجمين . الخيالة تهاجم ! – صرخوا من عدة جهات .

أمسك الجميع بالمناظير وراحوا ينظرون إلى الاعداء نظرة ثاقبة .

التفت الافاعي السوداء الزاحفة من أوكارها في الميدان الكبير وتحولت إلى تنيّن ضخم .

– أرغمهم على الصمت ! – أصدر الجنرال أمره وهو يستقبل ذلك التنين بابتسامة فرح .

سكتت المدافع والمترليوزات وكافة الأسلحة تدريجياً . تحرك القادة ، وصلوا الخيوط المقطوعة ، نسقّوا الصفوف المشوشة وتهيؤوا لمواجهة المهاجمين .

تمدد التنين الأسود ، استوى ثم انتصب على يديه ورجليه متحفزاً للوثب .

مرة أخرى قدم رئيس أركان الفرقة تقريره :

– ديمر – تيبي في خطر داهم !

– ألا ترونا ! أي رعد يهدر فوق رؤوسنا . أنا لاأستطيع ان أقدم لهم أي عنصر لمساعدتهم ! أدفع بالقطعات الاحتياطية إلى الأمام وأبعث إلى « ديمير – تيبي » الأمر التالي :

«آمر الجميع ان يصمدوا حتى الموت في ديمير – تيبي ، ومن يتراجع اطلقوا النار عليه فوراً .

– أيها الجنرال ان امراً كهذا . .

– أنا قلت وأنهيت الأمر .

ثم تحول وراح ينظر من جديد إلى أرتال الاتراك المهاجمة . تطلع إليهم ، ثم قفز مبتهجاً وقد نفش شعره :

– شجعان ، شجعان أيها الأتراك ! على أية حال سأدمركم خلال نصف ساعة . سأحطمكم وابعثركم ومع ذلك أنا معجب بكم أيها الأنذال الكفرة !

صرخ كالمجنون ملوحاً بيديه ، قفز ، هدد العدو بقبضتيه وهو يلقي بأوامره المقتضبة .

– صوبوا كل المدافع ! جهزوا المزيد من الطلقات قبل ان يصلوا . لاتطلقوا الآن حافظوا على رباطة جأشكم ، انتظموا ضمن الأرتال . تخندقوا !

انشطرت الفرقة التركية . وضعوا العرب ذوي البرانس البيضاء في الوسط مع الأكراد بعمائمهم المميزة . تقدمتهم خيالة سريعو الحركة حاملين بيرقاً أخضر يتودون الجنود وهم يصلون وفجأة اهتز الفضاء جراء تأوه وأنين ذلك التنين :

— الله ! . . الله ! . .

تقدموا وساروا متمهلين ثم وسعوا خطواتهم تدريجياً ، وجروا بعدئذ كالريح . كانوا يحملون في المقدمة الرايات والاعلام الخضر ، أعداداً لاحصر لها من السيوف تلمع تحت اشعة الشمس . غطت أعمدة الغبار المؤخرة . كانت الأرض ترتج وقد طاول صراخ وزعيق المهاجمين السماء .

— الله ! . . . اللـ . . . ـه ! .

وفجأة دوّت وهدرت كل المدافع المهيأة للدفاع دفعة واحدة ، وحالاً غرق التنين المهاجم الشجاع بالدخان والرمال والغبار . ارتبك قليلاً ، بدأ يتلوى ويتلكأ ثم تخطى القتلى والجرحى قافزاً من ضباب الدخان والغبار وتقدم مرة أخرى نحو الأمام .

اختلط هدير ودوي وصليل المدافع والمترليوزات وآلاف الأسلحة وشكلت هديراً وصليلاً واحداً .

انشقت السماء وسقطت على الأرض صاعقة رهيبة . وفجأة طار هذا التنين إلى التل وأطبق بأنيابه على الخنادق والملاجيء .

— اقتل ، هيا ، أقطع !

— الله . . . اللـ . . . ـه ! .

— صوبوا ، أطلقوا النار ! اذبحوا !

وأختلط الحابل بالنابل : المدافع والأسلحة ، السيوف والحراب ، الخيالة والمشاة ، الاعداء والاصدقاء .

— انتهينا ، انتصروا علينا ! انقذوا انفسكم ! — هذى كفاتشي الأصم ثم جرى بلا عقل باحثاً عن وكر فأرة يحميه . لكن ليس ثمة من أثر لأي حصان ولم يكن يعرف الطريق . واختبأ ، مرة خلف مجموعة من الأشجار الحراجية ، وأرتمى مرة أخرى في القناة ثم دخل بين مجموعة من المقاتلين دون ارادته .

— أيها الأمير كفاتشيا نتيرادزه — صرخ الجنرال في أذن كفاتشي المتحجر المشلول — انقل هذا الأمر إلى الأسفل وسلّمه إلى أركان الفرقة . هناك في المسيل في المكان المغطى ! أترى هذا الجبيل يدعى ديمير — تيبي ! أخبرهم شفوياً ان هذا « الجبّيل » مفتاح المعركة ، إذا سلمناه للعدو لن يخرج أحد منا من هذا الجحيم،سنقع جميعاً أسرى لدى الاتراك .

الهاتف مقطوع . حسناً مصير الجيش بين يديك أسرع وداعاً !

وجد كفاتشي اصدقاءه بشيء من الصعوبة . . ركبوا الأحصنة وأنطلقوا ، لاحظوا في الطريق من بعيد فصيلة من الخيالة مشكوك بأمرها .

— قطعوا علينا الطريق . هاهم الأتراك على اليمين .

غيروا اتجاه الأحصنة في المسيل ، صادفوا الفصيلة الطبية . كانوا يرتدون الملابس البيضاء مشمرين عن سواعدهم . كان الدكتور كورانا

شفيلي والآخرون يقطعون وينشرون الجرحى بثبات بالمناشير والسكاكين . كان كل ماحولهم غارقاً في الدم حيث تناثرت الأيدي والأرجل المبتورة بين الجرحى والمشوهين . البعض مضمدون والبعض الآخر ينتظر دوره .

عند رؤية هذا الدم المراق دارت رأس كفاتشي وأظلمت الدنيا في عينيه وساءت حاله . أمسك به أحد مرؤوسيه من تحت ابطه وأخرجه من ذلك الجحيم . استعاد كفاتشي وعيه ، قفز من جديد على الحصان وابتعد رامحاً ، طار دون أن يعرف طريقه ودوّي المعركة يلاحقه .

أجتاز الحصان الرامح صخرة حادة وفجأة دخل جامحاً وسط رتل تركي . أخاف الهجوم المفاجيء ، الاتراك فتشتتوا . لكن على اليمين كان جرف صخري شديد الانحدار وعلى اليسار فج عميق . لذلك التصق الاتراك الخائفون بالصخرة مفسحين الطريق لكفاتشي ومهيئين أسلحتهم .

« إذا تابعت السير إلى الأمام سأهلك وان سرت إلى الوراء سأهلك أيضاً ! » — برقت الفكرة برأس كفاتشي ، وفي لحظة أوقف الحصان بقوة فأقعى على مؤخرته وقائمتيه الخلفيتين . في تلك الثانية انتضى كفاتشي مسدس « الناغان » وارتد نحو الوراء .

اثناء ذلك كان مرافقوه قد تجاوزوا الصخرة وبانوا .

— قفوا — صرخ كفاتشي بصوت مدوٍ في حراسه . أوقفوا كتيبة الخيالة الأولى وراء الصخرة ولتقف الثانية على الصخرة من الأعلى ولتتحد سريعاً مع الكتيبة الثالثة التي تقع في مقدمة الكمين . هيا بسرعة ، بخفة أكثر ! وفي تلك الدقيقة توجه إلى الضابط التركي باللغة الفرنسية :

ــ أيها السيد النقيب لو أن شجاعتكم وسفككم للدماء سيجديان أي شيء لما نصحتكم بالاستسلام لكن كما ترون لقد وقعتم في الفخ لن يخرج أحد حياً من هذا المكان ، لذا ألقوا سلاحكم .

أجابه النقيب :

ــ أنا أرى انني وقعت في الحصار . ماذا يمكنني أن أفعل تجاه هذه الكتائب العديدة ؟ لقد حاصرتمونا حتى أننا لانعرف على من سنطلق النار ، هاكم سلاحي ! وألقى بسلاحه على الطريق وتبعه الآخرون ملقين بسلاحهم محدثين قرقعة .

ــ أجمع السلاح في مكان واحد . أمر كفاتشي ذاك النقيب التركي .

نقل النقيب الأمر إلى عساكره وبعد خمس دقائق كانت مئات الأسلحة مكدسة وسط الطريق .

ــ غابو ، رافق هذين الروسيين ليقودا هؤلاء الأسرى التتار . حسناً وسنسير أنا وأنت وراءهم .

سار مائة عسكري خلف ثلاثة وسار اثنان من ورائهم .

ــ حسناً أيها النقيب حركوا جنودكم .

ــ حالاً لكن اين كتائبكم ؟

ــ لو كانت لدي كتائب لما أسرتكم فقط بل كنت أسرت فيلقكم بكامله .

بدأ الأتراك يضربون رؤوسهم ويدمدمون بصوت عال :

ــ أي كوب ، أوغلي . دونغوز . . شيطان ! . . نقيب شيطان !

ضحك كفاتشي والنقيب التتري أحدهما فرحاً ومن أعماق قلبه ، والآخر حزناً ومرارة .

فجأة التقى رتل كفاتشي بمجموعة كبيرة من الجنود . كانوا مذعورين يجرون لايلوون على شيء وهم يصرخون :

ــ التفوا حولنا قطعوا الطريق علينا . انجوا بأنفسكم أهربوا !

خرج من تلك المجموعة بشيء من الصعوبة جنرال شاحب لم يره كفاتشي من قبل معصوب الرأس ووقف أمام كفاتشي :

ــ أيها النقيب ! ساعدونا أترى ذاك التل ! لقد أخذه الاتراك ، أسروا قيادة أركان الفرقة ، قتلوا كل ضباطنا تقريباً . لقد بقيت وحدي .

إذا لم نسترد الآن ذلك التل سيقع كافة جنودنا في الأسر لدى الاتراك . الأمل معقود عليكم وحدكم . تذكروا وطننا ، القيصر ، الواجب . حاولوا . . ساعدوا. وسقط الجنرال الجريح في الغبار .

ماذا حدث في قلب كفاتشي تلك الدقيقة ؟ أي شيطان مكث فيه ؟ من وكيف ولد من جديد فجأة . هذا مالم يفهمه أحد لا كفاتشي ولا الآخرون .

ــ قفوا ، قفوا ! أقول لكم أيها الأنذال ! صرخ كفاتشي في وجه القطيع وقطع طريقهم وأطلق حصانه عليهم مباشرة .

ــ لقد التفوا علينا ! أنقذونا !

ــ أقول لكم قفوا وإلا . .

وصوب المسدس على صدر الرجل الذي يتقدمهم .

سلم مرافقو كفاتشي الأسرى الاتراك إلى الآخرين ثم وقفوا إلى جانب كفاتشي المثار مهيئين أسلحتهم .

حدث شيء غريب غير مفهوم . تحولت انكسرت حياة وطباع كفاتشي في تلك الدقيقة وبدت للعالم معجزة مدهشة : مات كفاتشي السابق واختفى في تلك الدقيقة ولد كفاتشي آخر مجهول وجديد ، شجاع لاينحني . جريء لايهاب شبيه بـ « ليونيد تيرموبيلسكي » أو الاسكندر المقدوني أو هرقل كاخيتنسكي (١) أو نابليون أركالسكي .

فجأة نما لكفاتشي جناحا نسر وتحت هذين الجناحين إختبأ الملاك جبريل وقد سلمه سيفه القاطع الناري . أضحى في صدره قلب أسد ودخل روحه رئيس شياطنة الجحيم مصطحباً معه ألفاً من الشياطين الصغار . وبالرغم من طوله ازداد طوله شبراً . أضاء وألهب القطيع الشارد بعينيه الناريتين وأصمهم بصوت كالرعد :

– قفوا ، اجتمعوا !

مرة أخرى جرى المائة الفاقدون رؤوسهم . طار كفاتشي حول الميدان كالنسر ورمى سبعة رجال منهم بسبع طلقات ، ثم انتصب على حصانه بثقة وابتسم للآخرين ثم دب فيهم ناراً إلهية :

– أيها الأخوة مصير القطعات بين أيديكم . الطريق أمامنا مقطوعة سينتن في الأسر وان نستطيع النظر في عيون الناس من الخجل . أيها الأخوة عدة آلاف من رفاقكم ، القيصر والوطن ، جميعهم ينظرون إليكم ويسألونكم تأدية الواجب الأخوي الرفاقي الوطني . لاجبناء

(١) هرقل كاخيتنسكي : قيصر جورجيا .

بيننا . من يخونكم ويهرب سيلقى نفس مصير هؤلاء الكلاب الذين قتلتهم بيدي منذ برهة . سأمضي للأمام وأنتم لن تتخلفوا فلنمض ولنؤدِ واجبنا .

ــ افراد صف الضباط تقدم ! انتم منذ هذه اللحظة ضباط . شكلوا ووزعوا فصائلكم !

بعد نصف ساعة تحولت الكتيبتان إلى أربع كتائب ضمن ثلاثة أرتال .

ــ استديروا ورائي !

ومضى بخطوة هادئة نحو ذلك التل .

ــ انتظموا بسرعة سوية !

ترأس لادي تشيكينجيلادزه الجناح الأيسر و « غابو تشخوبيشفيلي » الجناح الأيمن ، ورافق الأرتال الثلاثة جدارٌ متحرك حديدي . غابة ثابتة غليظة غير هيابة قوامها أربعة آلاف من الحراب ، جميعهم أحنوا ظهورهم وشدوا حرابهم إلى الكتف الأيسر وتحركوا إلى الأمام .

ــ صفاً واحداً ، بسرعة سوية !

في البداية شملت الضوضاء ذلك التل ، ثم انهالت منه الطلبات كحبات البرد . سقطت على ذلك الرتل ــ الجدار الحديدي أحجار قرميدية ومع ذلك لم يتوقف أحد ، لم يتخلف أحد ، لم يطلق أحد طلقة واحدة .

ألقى هذا الهدوء والمسيرة الحماسية الرعب في قلوب العدو وتوترت أعصابهم ، تهامس الاتراك المغتاظين :

ــ شيطان غيلير ! الله ، الله . . . ! ــ وهم يطلقون النار بأيد مرتجفة .

ومرة أخرى سار كفاتشي في مقدمة الجدار الحديدي طويلاً منتصباً . كان أحياناً يلتفت نحو الوراء يخترق الجدار بعينيه الناريتين ، ثم يلوح بحربته صارخاً مرة أو مرتين :

ــ ورائي صفاً واحداً !

واقترب الجدار الحديدي صامتاً من التل ، وتسلقه كالدب . ضغط ثم انهال على رؤوس الأتراك .

ــ هيا ، أضرب ، أقطع ! ، يصرخ كفاتشي فاقداً صوابه ، متجولاً وسط نار المعركة سيفه يلمع كالبرق ، وعيناه الناريتان تنظران إلى الجميع من عال .

اشتعلت معركة قصيرة ورهيبة . اشتبكوا بالسيوف والحراب والخناجر وأعقاب المسدسات والبنادق ، بالأيدي والأرجل والأسنان .

ــ اسرى ! سنستلم ! ــ سمعت أصوات الجنود الأتراك من مختلف الجهات .

ــ لقد انتصرنا ! أضربوا ! ــ قال كفاتشي هادراً .

بتر يد أحد الاتراك وقطع شرايين رقبه تركي آخر وشق صدر الثالث وجدع اذن الرابع ووجه رأس السيف إلى جبين الخامس وكان عربياً ممشوق القامة . لكن فجأة لمعت في عيني كفاتشي طنت في أذنيه الاجراس وغطى وعيه ضباب أسود ثم وضع يده اليسرى إلى صدره ، لوّح بيده اليمنى جانباً رمى بانسيف بعيداً محدثاً صليلاً وأرتمى كعمود مقطوع على ظهره على الأرض .

« هذيان غريب »

يستلقي كفاتشي كفاتشا نتيرادزه وحيداً في ميدان واسع على ظهره ، فيما حوله رمال صفراء فقط ، الصحراء تنفث حراً ، والهواء مشبع بالبخار الحار .

يستلقي كفاتشي وحيداً ـ وحيداً على الرمال الحامية ، يكاد يختنق من القيظ والعطش .

على صدره الجريح حط غراب أسود ، ينقر جراحه بمنقار يشبه المخرز . مخالبه الحارة تبقر في احشائه تنقب في قلبه وكبده وأحياناً ينقز الغراب في عينيه ثم يستريح بهدوء ناظراً إلى الصحراء باعتداد .

غير بعيد جثمت ضبع شغشناء سوداء الفم رهيبة أخذت مكانها تنتظر حلول الظلام ، فهي تعلم أن كفاتشي سيكون من نصيبها عند الفجر وفي نفس المكان لن يبقى من كفاتشي سوى عظام بمعراة .

سقطت سلسلة ذهبية من السماء . تسلق جرو صغير تلك السلسلة ويصب على كفاتشي الخمر الأحمر . يسيل الخمر حول فم كفاتشي . يفتح كفاتشي فمه كالزرزور محاولاً ان يقتنص ولو قطرة واحدة ، لكنه لايستطيع ان يحرك يديه ورجليه الخدرة ولايتمكن من زحزحة رأسه التي اشتعلت حرارة من مكانها .

يعذب الجرو كفاتشي طويلاً : يمزح ، يضحك يكز على اسنانه يكشر ، وفجأة يتسلق نفس السلسلة ويختفي في السماء .

فجأة انتعشت تلك الصحراء بشكل عجيب ، يرى كفاتشي بوضوح المنتزهات الباريسية ، الجادات ، الحدائق ، المقاهي ، الساحات ، الناس الذين يعرفهم والذين لايعرفهم .

يجري « غريشكا » الثمل قافزاً مع « يلينا » العارية الصدر . تخطر في مشيتها كالطاووس الليدي هارفي — عشيقة كفاتشي اللندنية .

تحرق مُدامُ ليابوش كل ماحولها بعينيها المتقدتين كالجمر . تميس « ريفيكا » ذات العينين الزرقاوين برشاقة بطلاقة وثقة ، ضاحكة بابتسامة سعيدة يمشون :

تانيا ، سوسانكا ، اسحق ، فيرا ، سيدراك ، بيسو لادي ، تشيبي وألف من معارف كفاتشي — النساء والرجال .

لكن أحداً لاينظر نحو كفاتشي ، لاأحد يلحظه .

مرة أخرى اقعت الضبع ذات الفم الأسود تنتظر الظلام ، ونقر الغراب الأسود قلب كفاتشي ومد نفسه باتجاه عينه .

— ماء ، ماء ! صرخ كفاتشي في نفسه لكن أحداً لم يسمع صوته .

سعى كفاتشي جاهداً ، استجمع قواه ، حاول الصراخ ، لكنه لايستطيع ان يصدر صوتاً ، لايمكنه ان يحرك اية عضلة من عضلاته .

اختفت المدينة واختفى الناس أيضاً ، وبدأ الغراب الأسود ينعق مرة أخرى والضبع ذات الفم الأسود تنتظر الظلام .

فجأة وقف بالقرب من كفاتشي « كورانا شفنيلي » بلباس غريب يحمل قوساً ونبالاً ويرتدي صدرية ودرعاً .

— كفاتشي ، قف واتبعني !

ركب الاثنان حصانين مجنحين وطارا . طار الغراب الأسود في اثرهم وكذا جرت الضبع على الأرض .

ـ كالسهم يجري حصان احلامي ، ويقتفي الغراب أثرنا ناعقاً بتجهم ـ هكذا بدأ كورانا شفيلي بالغناء ثم قال لكفاتشي :

ـ آه ، آه ، هي ذي مرتفعات « جولامركا » وسلسلة « جيوارته » . . رواندزوز . . خانقين . . سامراء . .

في كل مكان يسعى الجنود ذهاباً واياباً . القتلى هامدون على ظهورهم ، والجثث تنقرها الغربان وتنهشها الوحوش ، عرف « كفاتشي » و« كورانا شفيلي » الكثيرين من بين الموتى والأحياء .

ـ أيها الأخوة عمّ تبحثان هنا ؟ مااللذي أتى بكما إلى هذا المكان القصي ؟

ـ لاندري ، نجري وراء قدرنا ، نبحث عن قدرنا .

وفي إيران تعرفا أيضاً على بعض الأحياء والأموات ، الجدود والجدود القدماء .

ـ أيها الأخوة ، لماذا استبدلتم وطنكم بهذه الصحراء . ؟

ـ هذا العالم الثاني اجبرنا على الاستبدال .

وفي انغانستان كانت حدود « هرات » و « قندهار » مهدمة ، وسفوح « الهندوكوش » مروية بدماء الأقرباء . نهض الجدود من قبورهم :

ـ أيها الأخوة من سقى آسيا الوسطى بدمائكم ؟

ـ القدر . لقد ناصرنا « نادرشاد » ، كنا أول من تسلق جدران قلعة هرات وقندهار . اجتازا سلسلة سليمان والبنجاب والغانج المقدس واقتربا من العاصمة الهندية « دلهي » شاهجان اباد سابقاً . قابلا في كل

مكان هياكل عظمية وأرواح الأقرباء الذين جروا معهما وقد تعلقوا بحصانيهما باصابعهم العظيمة متوسلين .

— خلونا ، ارجعونا ، وحدونا !

— من جاء بكم إلى هذا المكان القصي ؟

قفز باتاراكاخي (١) متقدماً :

— لقد أحضرت البعض معي ، والبعض الآخر استقدمه غيري .

— عمن تبحثون ؟ من طاردتم ؟

— جرينا وراء قدرنا — بحث البعض عن المجد والرغد والبعض الآخر ساقتهم قوة غريبة . جرى كفاتشي وكورانا شفيلي عبر الجزيرة العربية ومصر وبلاد آشور وبابل ، عبر الدول القديمة والحديثة .

اضنى الجري والصراخ في البحر اللامحدود من الهيا كل العظمية كفاتشي وأصمه وأخيراً قال لـ « كورانا شفيلي » منهاراً شاكياً :

— ماذا تريد مني ؟ لماذا تجرني معك عبر هذا الجحيم ؟ اخرجني من هنا كفاني تعذيباً . سأله كورانا شفيلي :

— كفاتشي ، ماذا تريد في تركيا البعيدة ؟ من جاء بك إلى هنا ؟ عم كنت تبحث ؟

— الشيطان يعرف ماأريده ! ماء ، أعطوني ماء ، أعطوني ولو قطرة !

ونزل الجزو مرة أخرى من السماء على السلسلة ، ثم اساح ابريقاً من الخمر أمام كفاتشي ، لكن قطرة واحدة لم تقع على لسانه . مرة أخرى اختفى كل شيء .

---

(١) باتارا كاخي : قيصر جورجيا الهرقلية .

كفاتشي مستلق في حديقة الجنة . على جبينه حط الغراب ، وعند أقدامه جثمت الضبع من جديد .

بدا لكفاتشي أنّ كل شيء معروف بالنسبة إليه : سماء الوطن ، الجبال ، الحقول الدوالي والبنـــاء كل المناطق المحيطـــة . تذكر بـ « سامتريديا » وباطومي وكوتايسي وتفليس . وفي مكان غير بعيد يحوم جمهور غفير من الناس : أهل واصدقاء كفاتشي ،معارفه واقرباؤه ، غريشكا وتانيا ، يلينا وغينتس ، النبلاء والحاشية الحمقى والمذنبون ، الناس البسطاء ورجال القصر .

الجميع يشيرون باصبعهم إلى كفاتشي متململين :

ـــ اقبروه ، ضعوه في التابوت ، انزلوه إلى الأرض ! يصرخ البعض ويسوقون أهل كفاتشي واقرباءه واصدقاءه إلى ناحية جانبية .

يعارض البعض هؤلاء الحمقى ، يطلبون البكاء والغفران .يستمر الصراع طويلاً وأخيراً يظهر القيصر والقيصرة ويأمران :

ـــ أقبروه !

تحرك الجميع من امكنتهم وركضوا نحو كفاتشي . صرخ البعض منتصرين وصرخ البعض الآخر حزينين نادبين . أدّى القيصر والقيصرة ومشاهير الحاشية وكبار القادة الروحيين قداس الجناز على كفاتشي .

ثم شكل غريشكا والحمقى والمذنبون وكافة الزملاء جوقة مجنونة . قفز الجميع ، تمايلوا صروا على أسنانهم :

ـــ سنأخذه إلى الجنة إلى الجنة !

ـــ لاأريد الذهاب إلى الجنة لاأريد ـــ زعق كفاتشي ، لكن

أحداً لم يسمع صوته . ثم علا صوت نشيج رهيب . فجأة اندفع الجميع نحو كفاتشي وكدسوه في تابوت كبير

— ماما ، بابا ، ماذا بكما ؟ أنا حي ! بيسو ، شيلزاك !

يبكي البعض ويفرح البعض الآخر . يضغط الواقفون في المؤخرة على المتقدمين ويصرخون :

— كفاتشيكو يمضي إلى الجنة ، إلى الجنة !

— ماما ، بابا ، يتوسل كفاتشي — إذا كنتما لاتستطيعان المساعدة ، تنحيا جانباً ، لاتحملا في عنقيكما خطيئة موت ابنكما !

تبكي بوبي وتهمس له :

— ان يصيبك مكروه يابني ، هذا أفضل لك صدقني !

مرة أخرى حط الغراب على رأسه وقبعت الضبع على ركبتيه . زحفت الأفعى السوداء إلى التابوت والتفت حول عنق كفاتشي . أغلقوا التابوت بغطاء خشبي وسمروه بالمسامير ، اخترق أحد المسامير جبهة كفاتشي وخرج من نقرته . انزلوا كفاتشي المختنق في قبر سحيق وودعوه بصراخ النصر وضوضاء الفرح ، ثم بدؤوا يردمون التراب عليه ضاجين ، وتدريجياً هدأت الضجة وسكنت

كفاتشي مسجى في أرض سوداء . أنه يلفت إلى حركة تنفسه . الغراب الأسود ينقر في عينيه والأفعى تزحف إلى حلقه وتنهش الضبع صدره وتخفر الديدان الرطبة جروحه . كفاتشي ملقى في الأرض السوداء نشوى بلا رحمة يختنق يستلقي وهو يفكر :

ـ آه ، عبثاً فعلتم هذا . . لن أموت لأنني لاأريد أن أموت ولأن هذا غير مدون في الكتاب المحفوظ ويحكم ! ـ وقام مرة أخرى .

فجأة أصبح له قوة مائة مارد ، ضغط ورفع البلاطات المدعمة بالطوب وقذف بها ككومة من القش . هبّ واقفاً ، انتصب وأصبح أعلى من الجبال .

عند اقدامه جلس الدافنون بحجم النمل حول مائدة التأبين العامرة . حين رأوه صرخوا وزعقوا . داس كفاتشي المائدة ومعس « غريشكو » و « ميتيا » و « كوليابا » والحمقى ومئات من رجال الحاشية .

في تلك الثانية دبت قوة جبارة في يديه ورجليه .

ـ دعوني ـ يصرخ كفاتشي ، يتغاب في نومه يتمطى فاتحاً عينيه .

ـ أهدأ كفاتشي ، أهدأ ـ قال الدكتور كورانـا شفيلي بصوت حلو .

أمسك الممرضون بأطراف كفاتشي بشدة .

ـ قتلوني دفنوني ! . . لكنني بعثت من جديد نهضت كسرت تغلبت حطمت !

هذى كفاتشي كالسابق .

خرج الغراب من النافذة طائراً. طوت الضبع ذيلها وخرجت من الباب وانسلت الأفعى السوداء .

ـ عبر ثقب في الحائط القى كفاتشي برأسه إلى الوسادة مبللاً بالعرق ، خائر القوى .

تطلع فيما حوله مغمض العينين نصف اغماضة ثم قال :

— ماء ، من أجل الإله ماء !

صب الدكتور كورانا شفيلي في فم كفاتشي جرعة من النبيذ وقال بصوت حازم :

— سيتعافى ! — وخرج من الغرفة .

يجلس ملاك أبيض بالقرب من رأس كفاتشي ،ملاك مرتد ثياب التمريض ، على صدره صليب احمر ، يمسد بحنان ولطف شعر كفاتشي الأجعد وجبينه الذي يتفصد عرقاً ، ويغني له بصوت ناعم ليلكي أغاني الفروسية ويهمس إليه بحكايا الشجاعة .

« خصام كفاتشي مع النبلاء »

كان اللعاب يتطاير من فم « سوخومابنوف » الشاحب الثائر :

— مامعنى هذا أيها الأمير؟ ! لقد بدأنا حرباً كبرى عاقدين الأمل على قذائفكم . لكن اتضح ان هذه القذائف من عيار مختلف . تفجرت المدافع وخسرنا المعركة وقتل الكثير من الناس ولم يعد لدينا قذائف . نحن الآن نتراجع ونقاوم العدو بالهراوات . أنا أسألكم مامعنى هذا ؟

— لاأدري،أنا لاأفقه شيئاً عن اسئلة المدفعية — أجابه كفاتشي بهدوء مبتسماً وهو يلعب بالصلبان الثلاثة المعلقة على صدره .

— تشتم رائحة الخيانة أيها الأمير . انا اعتقلكم ، سأطلق النار عليكم !

انتصب كفاتشي مستاءً :

ـ كنْ أكثر حذراً أيها الجنرال !

وقف غريشكا بين كفاتشي والجنرال مهدئاً الاثنين . هزّ كفاتشي أصبعه أمام أنف الجنرال :

ـ لولم تكونوا وزير القيصر لأعدت تلك الكلمات إلى حلقكم. عندما سأنحيكم عن منصبكم احذروني سأثقبكم بالرصاص .

وخرج حانقاً صافقاً الباب بشدة حتى كاد زجاج النوافذ ان يسقط .

تعقدت الأمور وتشابكت . استدعاه القاضي الفرد العسكري واستجوبه :

ـ ماذا ؟ أباع كفاتشي الوثائق ؟ اعطاها للألمان ؟ أين ؟ في ستوكهولم ؟ أي هراء قالوا ؟ أي اتفاق حاكوا ؟ ! في ستوكهولهم لم ير كفاتشي ولم يقابل أحداً .

آه ـ آه شيء مضحك لا أكثر . ليكف كفاتشي عن المزاح والضحك؟! ليس كفاتشي المازح بل يبدو أن القاضي الفرد العسكري هو من يمزح . لا لن يتمكنوا من اهلاك كفاتشي بتلك الطرق .

حرر القاضي الفرد العسكري محضراً وقال :

ـ من توجه إليه مثل هذه التهمة الكبرى يجب ان يدخل السجن ، لكن احتراماً لصديقك الأب القديس غريغوري،وبأمر منه مازلت طليقاً . وقّع هذا التعهد بأنك لن تسافر خارج بطرسبورغ .

وقع كفاتشي ، خرج ثم هرع إلى غريشكو .

ـ أيها المعلم المقدس ماهذا ؟ يبدو أنهم لايمزحون . ساعدني بأي شكل وإلا سيبدأ اعداؤنا بي أولاً ثم يأتي دورك .

قال غريشكو متذمراً :

ـ اسمعني يا « ابولون »،نحن متآخيان،لم أتوان عن شيء . نفذت لك كل شيء . أمنت لك الثروة والامارة والقبعة المستديرة والصلبان وتسميتك رجلاً من رجال الحاشية والاحترام والسلطة . الزمن تغير. الآن لم تعد لدي القوة الكافية . أعداؤنا ينتصرون . بلادنا كلها تتحدث عنك . يطالب الجميع باعدامك نظراً لأن وزر الهزيمة الأخيرة يقع على كاهلك . أنا لاأدري من هو المحق ، من هو المذنب . هذا ماستكشفه المحكمة . لقد ساعدتك مااستطعت .

لن يعتقلوك مالم تصل الوثائق الأخرى . اعتزل.الناس لاتتجول في أي مكان ، أصمت وعش قليلاً في الظل . هذه هي نصيحتي.لاتطلب مني أكثر من ذلك .

فعلاً لزم كفاتشي البيت . أدى أنف لادي ويداه المدربتان جيداً دور الاعلام على الوجه الأكمل . كان يتلقى كل يوم ومن عشرات الجهات،الأخبار الصادقة . على أية حال باعوا « ساماريتيانين الطيب » وكافة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة إلى غرينتس ، وخبؤوا تلك الأموال لدى سلبيسترو الذي أصبح يعيش من جديد في بطرسبورغ .

أدانت بعض الصحف كفاتشي وذكرت اسمه بلا احترام . أرسل كفاتشي إلى الجرائد التي كان يتعامل معها رداً مناسباً . ثلاث صحف نشرت رده مع الملاحظات ـ والاختصارات،والصحف الأخرى أرسلت اشعاراً بامتناعها عن النشر .

« الحقيقة ــ الوضع سيء » ــ فكر كفاتشي .

وفي نفس الوقت لم يحمل بيسو ، لادي وبقية العملاء أية انباءسارة .

ــ لاتسير الأمور كما يجب ــ عبّر بيسو عن رأيه ضاناً بالكلمات .

ــ اهربْ من هنا ــ قال تشيكينجيلادزه ناصحاً .

ــ آه ، هذا لاينفع لم يحن الحين بعد ــ أجاب كفاتشي .

جرب حظه مرة أخرى . زار معارفه من الوزراء وأصحاب المناصب العالية ورجال الحاشية . كان يقال له في كل مكان: « هم غير موجودين في البيت » أو لاوقت لديهم »« أو « انهم مرضى ». رد أيضاً غريشكو نفس رده السابق ـ:

أنا لاأستطيع أكثر من ذلك !

ابتعد الجميع عنه ،أغلق الجميع الأبواب في وجهه وغسلوا أيديهم منه.

ــ أهرب ــ نصحه لادي وبيسو مرة أخرى .

ــ آه ، ابداً ــ ــ قرر كفاتشي وقال متوعداً : سأرى قريباً من سيذهب إلى الآخر راجياً . لن يروا ساعة هلاك كفاتشي بل قريباً سيهلكون .

في اليوم التالي دخل تشيبي راكضاً :

ــ هلكنا ، انتهينا.لقد اعتقلوا آل « ايدلسون » .

ــ الاثنين معاً .

ــ الاثنين ــ اسحق وريفيكا . هيا انقذوا أنفسكم اختبؤا . أركضوا ، اسرعوا !

قال كفاتشي بهدوء واختصار :

ـ الآن فعلاً حان الحين .

ثم خلع أوسمته وصلبانه وقذف بها قائلاً بغضب :

ـ يكفيني مارأيت من جورهم ! فليذوقوا الآن طعم انتقامي وكفى !

في ذاك اليوم غير جهته بزاوية تسعين درجة .

« عن تنبؤات كفاتشي وكيف سقط في المصيدة »

ذات مساء أخبرت يلينا كفاتشي عن طريق بيسو : « تعال إليّ حالاً ولن تندم . ربما ساعدك ذلك في حل مشكلتك » .

بعد نصف ساعة صعد كفاتشي إلى بيت يلينا .

أرجو ان تتعارفا ـ وقدمت يلينا كفاتشي ا « بوريشكفيتش » الأصلع ذي اللحية السوداء .

فوجيء كفاتشي وسرّ . فكر : « يستطيع فعلاً، هو يستطيع » .

تعارفا.بدأ كل منهما يزن الآخر ويسبر أعماقه . تحادثا وتهامسا طويلاً .

في اليوم التالي عرف بوريشكفيتش كفاتشي بالامير العظيم « ديمتري » والأمير « فيليكسون يوسوبوف » والنقيب « سوخوتين » والطبيب « لازوفرت » .

استمر العشاء والهمس حتى مطلع الفجر.اتفقوا على كل شيء ، رسموا الخطة ، اقسموا على الاخلاص فيما بينهم ، ثم تفرقوا .

بعد ان تفرقوا قال لبيسو وللرفاق الآخرين بابتسامة تقطر سماً :

ـ يجري الصياد وراء الوحش والوحش يصطدم به من تلقاء نفسه . هذا مايحصل لهؤلاء الحمقى . لقد جن أولئك البلهاء تماماً . يأكلون أنفسهم بأنفسهم. يهدمون بيوتهم الخاصة فوق رؤوسهم . يقطعون بدأب وحماس محموم الغصن الذي يقفون عليه . تنتن السمكة بدءاً من رأسها . قيل هذا المثل في مثل هؤلاء الناس . يبدو أنهم قلبوا البلاد رأساً على عقب ، ثم بدؤوا من الأعلى ! ها ! ها ! يرجونني : علينا ان ننتحر فساعدنا . حسناً أيها السادة في عمل خير كهذا، طبعاً سأساعد بكل تأكيد . سأساعد، لكن هؤلاء الحمقى لايعرفون أن قطرة الدم التي هدرتها اياديهم ستتحول إلى تيار سيغرقون هم فيه قبل الآخرين . لايعرفون ان النسمة التي تطلقها اياديهم ستتحول إلى زوبعة تمحو أثرهم من على وجه الأرض، كما محت الريح وجففت ثلج العام الماضي . .

هاها ! بيسو أليست اعجوبة مضحكة ان عدوك الذي تقتفي أثره لتقتله يضع بنفسه المسدس في فمه ويطلب منك المساعدة ؟ ! قال السيد المسيح : ساعد قريبك في محنته وكذلك تعلمني مسؤوليتي الانسانية والحسابات تقول لي ذلك وضميري يملي علي مثل هذا ها . . ها نعم أيها السادة نعم ، سأساعدهم في هذه المسألة طوعاً وبكل سرور سأساعدكم ! .

ثم لوح بأصبعه في الهواء وكأنما يتوعد أحداً ما وتنبأ كالغراب :

ـ انتظروا.اعطوني مهلة . سيحين الوقت وستندمون بمرارة . ستضربون رأسكم بالحائط. ستشربون من دمكم وستمزقون لحمكم ولاتلوموا سوى انفسكم، وسيكون الوقت قد فات على عض المرفق ووجع الرأس وصرير الأسنان !

انتصب كفاتشي فجأة ، تمطى ، ثم شمخ تماماً كما فعل ذات مرة عند سفح تل « ديمير — تيبي » . ارتجف صوته ولمعت عيناه :

— أيها الرفاق تذكروا كلمتي .وإذا متّ مبكراً انقلوها لكل العالم، للتاريخ . إنني أقول انا كفاتشي سلبيستروفيتش كفاتشانتير ادزه، أقول أنه حين دخلت روسيا زوبعة الحرب العالمية في الرابع عشر من تموز عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر ذبحت نفسها بيدها . هذا أولاً . بعد عدة أيام ستجتث مجموعة من النبلاء ورجال الحاشية قطباً من أقطاب روسيا هذا ثانياً . وبعد مايقارب الشهرين ستساعد تلك المجموعة القوى الساخطة السرية وتتفق معها وتعطي مخرجاً لذاك « السد » العميق اللامحدود والذي تراكم خلال ألف عام ، هذا ثالثاً . وسيتحرك هذا « السد » بشكل مرعب إلى أن يغرق روسيا الحالية ، هذا رابعاً . وهذه القوة ستتضاعف بعدئذ وستثير عاصفة وستسقط السلطة الجديدة محدثة ضجة ودوياً هائلاً .

تحدث كفاتشي وكأنه سابح في خياله. اشتعلت عيناه بنار خفية وصار صوته لاهباً جراء اشراقة غريبة . لم يعد يلحظ أو يرى أحداً . كان كعرّاف غارق في الوحي محاط بقوة خفية :

— أيها الرفاق — تابع كفاتشي قوله — لي الكثير من الاعداء . أعلم أنهم يسعون لمحو أثري وحذف اسمي من التاريخ . لكنني أعلم أيضاً أن لدي الكثير من الأصدقاء امثالكم . من يدري ربماقتلت، لكنكم لن تسمحوا للمؤرخين بأن يرموا باسمي في مزبلة النسيان .

هذى كفاتشي وتفاخر وقال الكثير من المراء ، لكن رفاقه لم يتذكروا سوى ماذكر اعلاه ، وقد فقد التاريخ كنزاً ثميناً .

لقد قلت لكم ذات مرة : التاريخ الثرثار يكذب دائماً . هذه الحقيقة البسيطة تأكدت مرة أخرى فيما يتعلق بكفاتشي . كُتب عن روسيا خلال عشرة أعوام كتبٌ لاتتسع لها مائتا عربة . قرأ البعض هذه المادة المكتوبة من البداية وحتّى النهاية ، لكن هاكم جحود العالم — لم يعثروا على اسم كفاتشي في أي مكان . لقد نسب الآخرون لأنفسهم أعمال كفاتشي العظيمة وخدماته اللامحدودة واهتمامه الذي لايقدر بثمن . اختلسوها وتقاسموها . لكن والحمد لله مازال لدى كفاتشي الكثير من الشهود الأحياء . ثمة على الأقل « بيساريون شيكيا » « تشيبي تشيبونتيرادره » « سيدراك افلابريان »«لادي تشيكينجيلادزه » « غابو تشخوبشفيلي » أو حتّى « جليل ايمين اوغلي » وكثيرون آخرون الذين يؤكدون ماذكر اعلاه وما سيأتي ذكره . حاولوا الا تصدقوا !

« عن العرفان بالجميل وتشويه التاريخ »

في اليوم التالي اجتمع كفاتشي مع بوريشكيفيتش ، يوسوبوف وآخرون من جديد .

— سنقتله برصاصة مسدس — قال أحدهم .

— سنخنقه ! — قال ثالث .

— هذا غير مجد ! — قال كفاتشي أخيراً — يجب كسر المحور الذي تدور حوله روسيا الحالية .

اعجبوا بذلك أشد الاعجاب .

ـ سنكسر ، سنكسر ! ـ تصايحوا مقاطعين بعضهم بعضاً . بعدئذ تفحصوا خطة كفاتشي ، أثنوا عليها ثم انصرفوا .

ـ أيها المعلم العظيم أيها الأب القديس ـ قال كفاتشي لـ « غريشكا راسبوتين » في ذلك المساء ـ لقد اهتممت بي كثيراً ، أريد أن أرد بعضاً من جميلك إذا كنت رائق المزاج ـ خمس حسناوات يرغبن الاستحمام . .

وهمس مبتسماً في أذنه كلمات قليلة. تألق وجه غريشكا وصارت عيناه زيتيتين .

ـ أين ؟ متى ؟

ـ هذه الليلة ، لدى الأمير يوسوبوف. ندعوك أنا و « فيليكو » فنحن مدينان لك .

ـ جميلات ؟

ـ الخمس ، جميعهن جميلات ، احداهن سوداء الشعر والأخرى . . .

لم يسمح له غريشكا باتمام حديثه . ضم إلى قلبه صديقه الشكور وحارسه الأمين .

حين أوشك الليل على الانتصاف ركب كفاتشي ويوسوبوف السيارة إلى بيت غريشكا ، وصعدا السلم .

ـ لا ، لا استطيع ! ـ فجأة همس « فيليكس » مستنداً إلى الحائط .

ـ أيها الأمير شيء مخجل ! ـ قال كفاتشي متأبطاً الأمير المترنح ، كن أكثر رجولة ، انت لست فتاة في سن الزواج !

ـــ هذا صعب علي . . هذه خيانة ؛انا سأقتله هنا . . لكن أن أستدرجه إلى بيتي ـــ لا هذه ليست رجولة .

ـــ أقول ، شيء مخجل أيها الأمير ، كان عليك ان تفكر بهذا من قبل .

ـــ فعلاً ـــ صحا فيليكس ، صعد الدرج راكضاً ثم قرع الباب .

عانق الاثنان غريشكا الذي كان مرتدياً ثيابه بأناقة . قال كفاتشي لـ « غريشكا » متكلفاً الضحك :

ـــ حسناً أيها الاب المقدس ، فلنمض إلى تلك الأماكن المقدسة !

بدا « غريشكا » وكأنه ذاق دودة الشك :

ـــ ابولون قُبلتك تشبه قبلة يهوذا ! وتطلع نحو الاثنين . لمعت في عينيه نار الريبة وأحس في نفسه بالخطر .

وأغرق كل منهما الغدر والمكر والرياء في بحر الضحك والمزاح

ـــ ابولون نحن متآخيان . . قدمت لك الكثير . إذا كان ثمة شيء في نفسك فاذكر الاله واخرجا وإلا . . .

ـــ أيها المعلم العظيم ، أيها الأب المقدس أنتم تمزحون أم . .

قالها كفاتشي باخلاص فانطفأت نار الشك لدى غريشكا في الحال .

ـــ مجنون ألا تفهم المزاح ؟ـــقال غريشكو وضرب باصبعتيه ذقن كفاتشي وحدق في عينيه مرة أخرى وهدده ـــ « احذر كيدي » .

بعد عشرين دقيقة كان الثلاثة يجلسون في الطابق الأسفل من قصر يوسوبوف يتحادثون بطيبة ، يأكلون ويشربون .

شرب كفاتشي وفيليكس الشامبانيا وللمرة الرابعة قالوا لـ« غريغوري » :

ــ أيها الأب المقدس هو ذا شرابكم المفضل « مارسالا »، لماذا لاتحتسونه ؟

ــ لا أريده الآن .

ومن الطابق الأعلى كان يسمع صوت الحاكي .

ــ لم ينفضّ الضيوف بعد ، حماتي هنا أيضاً . . قال يوسوبوف لـ « غريشكو » للمرة الثالثة ــ سيمضون الآن وسيأتي دوركم . النساء هنا لدينا .

فجأة افرغ غريشكا كأسين من « المارسالا » و « تمزمز » بفطيرتين صغيرتين .

ــ لماذا لاتأكلون من هذه ؟ سألهما غريغوري وعرض عليهما الفطائر .

شحب الاثنان ونظر كل منهما نحو الآخر .

ــ شكراً أيها الأب أنا لاأحبها .

ــ لقد هيأناها لك بشكل خاص أيها الاب المقدس . . أنا أعلم أنها طبقاك المفضل . . .

كل فطيرة كانت تحوي ثلاثة أعشار الغرام من سم سيانور الزئبق من أشد الأنواع سمية ، والشراب كان مسمماً أيضاً .

انتظر كفاتشي وفيليكس بقابين خافقين تأثير السم . لكن لم يبد له أي أثر على غريغوري .

— لن يموت — فكر الاثنان وهما ينظران إلى وجه غريشكا — ياله من كلب قوي الشكيمة أم ان هذا السم فقد مفعوله !

بدأ السكر يدب في أوصال غريشكا :

— صبا أيضاً !

ملأ كفاتشي كأساً آخر ، وصب لنفسه شمبانيا مرة أخرى .

احتسى غريشكا كأسين متتاليين و « تمزمز » بفطيرتين أخريين ، ولا أثر . .

— لايؤثر . . لايموت . . كمية السم كافية لقتل خمسة من الثيران . رجل حديدي ! — فكر كفاتشي وتطلع مرة أخرى نحو فيليكس .

شحب وجه فيليكس الناعم ، لم يعد قادراً على تحمل هذه اللعبة والخديعة .

شحب حتى الموت . اهتزت شفتاه ، ارتجف حاجه الأيسر واهتز ، نهض فجأة وأمسك بياقة قميصه وكأن أحداً يخنقه :

— تأخروا . . أنا سأذهب . . سأعود حالاً . . حالا سأعود . .

— تمتم مقطعاً كلامه وخرج من الغرفة مترنحاً .

في الطابق العلوي كان الأمير العظيم دميتري والنقيب « سوخوتين » والطبيب لازوفيرت ، ينتظرون النهاية . كلهم شاحبون ، متوترو الأعصاب ، قلقون .

يدخل فيليكس تلك الغرفة مسرعاً آناً ويقول بشكل هستيري :

ـ لاأستطيع . . لاأستطيع ! . .

ـ ماهذا ؟ ماالقضية ؟ ماذا حصل ؟

ـ انه لايموت الآن . . لم يؤثر . . أكل عشر فطائر وشرب زجاجة من المارسالا ، لكنه لايموت .

ـ إنك تبالغ ! لقد أعطيت سماً كثيراً ! ـ قال الطبيب لازوفيرت متمتماً .

ـ أيها الأمير فيليكس ! عدّ حالاً واعطِ الاشارة للأمير كفاتشا نتيرادزه بأن دوره قد جاء.دعه يبدأ ! وضع هذا في جيبك أيضاً ، ربما احتجت إليه .

وضع المسدس في جيبه بعد ان استيقظ وتنشط ، ثم هبط نحو الأسفل .

بدأ غريشكا بالزمجرة قليلاً . مرة أخرى صبّ كفاتشي خمراً له وأجبره على جرعة بشكل متتالٍ .

يضحك فيليكس فرحاً بتكلف :

ـ النساء هنا . . أيها الأمير جاء دورك . .

جاء دور كفاتشي ؟ رائع سيؤدي كفاتشي واجبه !

ثم التفت إلى غريشكو :

ـ أيها الاب المقدس المعلم العظيم ! هذه النساء خجولات ومؤمنات ، لن يتناولن المأدبة بحضورنا ، نحن ذاهبون . ستدخل النساء حالاً . . هنا الحمام سنكون نحن في الطابق العلوي .

إذا دعت الحاجة استدعنا وخرج الاثنان .

دخلت خمس نساء بحياء وخجلٍ على غريشكا الثمل تماماً . كن جميعاً يشبهن الملائكة . ساندن بعضهن البعض وأدرن حديثاً عذباً .

حمي غريشكا واشتعل . طار نحو النساء الخمس وهو يدق صدره بقبضتيه ويصرخ :

ــ أنا مقدس ! . . لايقربني الرجس والشهوة القذرة . سأبرهن لكن حالاً . . سأبرهن انتظرن ! . .

ودخلن كلهن إلى حمام القصر الدافىء .

ــ سواء تمتّن علي أم بجانبي . . هكذا . . أترون ، لم يظهر علي أي أثر . . تقلبّن بجانبي كالحطبات . . لاأشعر بشيء . . حتى ان الدم لايغلي . . لقد رأيتن ، لقد اقتنعتن والآن لقد هجرني الروح القدس ، لقد اصبحت الآن من جديد انساناً . . الآن حسناً . . فلنبدأ . .

هربت النساء فوراً من الحمام واغلقن الباب السميك من الخارج بالمزلاج . القى الجاموس الهائج بنفسه على الباب ثلاث مرات وفي اللطمة الرابعة انخلع الباب البلوطي واندفع الوحش العاري خارجاً من الحمام مزمجراً مدمدماً .

جرى مسرعاً ، ثم انعطف . ارتفعت دمدمة وجلبة على السلم .

ــ هرب ! هرب .

انقض راسبوتين العاري على الباب الأول ثم على الثاني . أخيراً هشم الثالث واقتحم إحدى الغرف . قطع يوسوبوف الطريق أمام الوحش العاري وأطلق عليه ثلاث طلقات من المسدس .

أنّ راسبوتين مرة أخرى وارتمى .

— مات ! انتهى ! قرر الجميع ، ثم دخلوا غرفة أخرى وبدؤوا يتشاورون .

بعد وقت قصير اجتاز كفاتشي الغرفة الأولى.حملق في غريغوري المطروح على ظهره ، ثم انحنى وأخذ يده بيده . فجأة تراجعت يد الميت وأحاطت بكفاتشي كحلقة حديدية .

— النجدة ! النجدة ! — صاح كفاتشي بصوت أجش وانتفض من بين يدي غريشكا .

ترك راسبوتين يد كفاتشي فجأة . نهض ، انعطف وخرج إلى البهو واثباً . قام المتآمرون من جديد ، جروا وراء المقدس وكل منهم يصرخ للآخر :

— لقد انتهينا ! . . اجروا وراءه ! اقتلوه ! . . اقتلوه ! . .

لمع السلاح في أيدي فيليكس وكفاتشي :

— اسرعوا وإلا سيهرب .

قفز غريغوري إلى حديقة القصر . جرى كفاتشي بوثبات النمر ومشى وراءه يوسوبوف الذي شحب خوفاً .

لاح الفجر وبدأت الطريق تتكشف بصعوبة بالغة . إلى أين هرب ؟ إلى اليسار ؟ إلى اليمين ؟ نحو الأمام ؟

سمع كفاتشي أنيناً خفيفاً من ورائه . التفت .

ترنح فيليكس وسقط .

أثناء ذلك قفز بوريشكيفتش :

— انقذوه ! لقد أغمي عليه .

أخذ بوريشكيفتش مسدس فيليكس وركض نحو كفاتشي .

— اين هو ؟ إلى أين هرب ؟

قفز ظل من بين الشجيرات إلى الطريق المغطاة بالثلوج .

— إنه يبتعد ! أسرعوا !

صوّب كفاتشي على بعد عشرين خطوة ، ثم أطلق النار .

— وأنت أيضاً ياأبولون ؟ قال غريشكا آنئذ . أهكذا رددت الجميل ؟ !

وبعدة قفزات اقترب كفاتشي منه وأطلق طلقتين أيضاً عن بعد خمس خطوات .

ترنح راسبوتين وسقط على ركبتيه وانغرز في الثلج . ثم نهض من جديد وهرب زاحفاً وهو يزمجر كالدب :

— غداً سأشنقكم جميعاً ، سفلة . . قطاع طرق .

أثناء ذلك جرى بوريشكيفيتش .

— اطلقوا النار ! اطلقوا النار !

مرة أخرى اطلقوا عليه مايقارب العشرة طلقات وثقبوا جسده .

تمسك غريشكا بهذا العالم بأسنانه وأصابعه الحديدية ، تلوّى ، تمايل ، أنّ وقذف بكلمات غريبة . مد يده مرة أخرى، ثم وقف على ركبة واحدة .

فجأة جاء فيليكس راكضاً بعد أن صحا من غيبوبته .

— اضربوه ، اطلقوا النار عليه اقتلوه ! — صرخ يوسوبوف مهتاجاً فاقداً صوابه وراح يضرب الميت على رأسه بشمعدان برونزي كبير هشم رأسه وتضرج بالدم

وبصعوبة تمكن كفاتشي وبوريشكيفيتش من فصل فيليكس الثائر والفاقد صوابه عن جثة راسبوتين .

— كفى أيها الأمير ! غريشكا ميت ! فلنذهب وإلا قد نمرض من البرد .

— دعوني .. اتركوني عليه ! . . ! اضربوه ! . . اقتلوه ! . . تابع صراخه محاولاً أن يمد نفسه إلى غريشكو الملقى بلا حرام ، ثم سكن فجأة وفقد قواه مغمياً عليه .

— حسناً فلنغرق هذه الجيفة في نهر النيفا

لفوا الجثة في جبة وجرموق ثم ألقوها في السيارة وانطلقوا . اجلسوا الجثة وسووها بشكل بدت معه كراكب ثالث . اسندها كفاتشي من جهة ومن جهة أخرى أسندها لازوفيرت .

— هيا من هنا ، أسرع ، سق بسرعة أكثر — يصرخ كفاتشي قائلاً للنقيب سوخوتين الذي يقود السيارة مسابقاً الريح .

ترمح السيارة المجنونة في شوارع المدينة الميتة / النائمة / حاملة معها محور ودعامة الحكم الاستبدادي تلك الدعامة التي أخرجها كفاتشي تلك الليلة من القبو .

كانت الريح الباردة تصفع المسافرين في وجوههم صافرة متوجعة وتصعقهم .

ينكمش كفاتشي خافضاً رأسه مقشعر الجسم حاشراً نفسه في أسفل المقعد .

فجأة انزلقت يد غريشكا التي كانت مستقرة على المقعد واحاطت برقبة كفاتشي . انتفض كفاتشي كالملسوع وهجم على اليد الباردة . لكن تلك اليد اصبحت حديدية ، متخشبة ثم التوى غريشكا واستلقى كالدب على كفاتشي بكتلته الثقيلة طاوياً ومسمراً أياه تحته مما جعله يئن متحشرجاً هو نفسه بشكلٍ غريب

حاول كفاتشي مرات عديدة النهوض ، لكنه تعثر ولم يستطع رفع تلك الجثة الثقيلة

— ساعدوني ! . . لقد خنقني ! . . ساعدوني !

لم يسمع السائق كفاتشي المتألم والسيارة تجري كالزوبعة وكان لازوفرت يتعذب بشكلٍ أخرق وقد اضناه التعب .

— النجدة ! . . ! أنا اختنق ! . . النجدة ! . .

أخيراً تخلص بشكلٍ ما وخرج من تحت الجثة .

— توقفوا ! قفوا !

وخرج كفاتشي المضطرب من السيارة .

— لاأريد . . ان أذهب معكما . . خذاه وحدكما .

— ماالأمر ؟ ماذا حدث ؟

يرتجف كفاتشي وتصطك أسنانه .

— لاأريد . . لاأستطيع . . انقلاه انتما .

ـ أيها الأمير ، شيء مخجل ! عد إلى صوابك !

ـ لاأستطيع . . هذا لايحتمل . .

ـ أيها الأمير ، عد إلى رشدك . تمالك نفسك . يوسوبوف شاب ضعيف ، أما أنت رجل،لايليق مثل هذا الجبن ببطل « ذيمير ـ تيبي » حامل صليب القديس غيورغي ، أضف إلى ذلك أنت جورجي ! شيء مخجل !

وكأن هذه الكلمات مطرقة قرعت رأس كفاتشي . تحرك ، اهتز شدّ شرايينه ، ثم نزع ظل الخوف من قلبه .

ـ ها ـ ها ـ ها ! ضحك من أعماق نفسه ، قفز إلى السيارة ، أمسك بياقة غريشكو .

ـ هيا ، أسرع ! . . وأنت أيها الاب المقدس اهدأ واسكن إلى الأبد وإلا ـ وهزّ الجثة .

اصطكت أسنان غريشكا وهز كفاتشي رأسه ، وكأنه يؤكد شيئاً ما أو يتوعده . توقفوا عند جزيرة « كريستوفسكوي » بالقرب من الجسر الصغير ورموا الجثة في ثغرة فتحت ذلك الصباح في جليد النهر .

على اطراف تلك الثغرة طفا خف غريشكو الذي لم يلحظه أحد .

في اليوم التالي أعد كفاتشي اجتماعاً :

ـ لقد وقعت الواقعة ، لقد جردت النظام الحاكم من ركيزته ، لقد انشق البناء وانهار .

ـ لاتستعجلوا ! البقية ستأتي من تلقاء نفسها . في حال اعتقالهم لي أضرموا النار أكثر ، وإذا فكروا باعدامي رميا بالرصاص احرقوا وفجّروا هذه البلاد النتنة العفنة المتفسخة .

أمنيتي الأخيرة ، ثورا في الوقت المناسب . لاتسمحوا بقتلي ، اذ أنني أرغب أن أفرح مرة أخرى وأرى بأم عيني هلاك الشعب الذي يقذف بجحود في حاويات القمامة بابنائه / أراد كفاتشي أن يقول : من أمثالي المخلصين .

هنأوا كفاتشي بتحقيق ذلك الانجاز المجيد . وأحنوا رؤوسهم أمام شخصيته القوية وطبعه الجريء .

في اليوم الثالث وجدوا جثة غريشكا في نهر النيفا . انتشر هذا النبأ في كافة أرجاء البلاد .

هبّت روسيا واجتاحت الاضطرابات مدينة بطرسبورغ . تبادل الناس التهاني والقبلات فرحاً . أقام المؤمنون الصلوات وأشعلوا الشموع وأصبح موت غريشكا على كل لسان .

تخفي بوريشكيفيتش ، لازوفرت ، سوخوتين في الجبهة ، كما أرسلوا الأمير العظيم ديمتري إلى الجبهة الفارسية ، ونفوا الأمير يوسوبوف إلى ضيعته الاقطاعية ، وأختبأ كفاتشي عند أبيه .

أخذت القيصرة جثة غريشكا . نقلوها إلى دير « تشسمينسكي » حيث سلمت إلى صديقته الراهبة « أكيلينا » .

حاولت زوجة راسبوتين وابنته واقرباؤه رؤية المرحوم وتوديعه ، لكن لم يسمحوا لأحد منهم بالاقتراب من الجثة .

غسلت « أكيلينا » الميت ، مسحت جروحه بمرهم وألبسته بزة جديدة ثم وضعته في التابوت ، ووضعت على صدره الصليب ، وفي يده رسالة القيصرة حيث كتبت فيها :

« شهيدي العزيز ، انعم علي ببركتك التي كانت رفيقتي في طريقي الشائك ، ذاك الطريق الذي يجب علي اجتيازه عبر هذا العالم. اذكرني في السماء اثناء صلواتك المقدسة » .

« الكسندرا »

في اليوم التالي وفي حين كانت روسيا تمجد أبطالها المنقذين وتحمد ربها شاكرة كانت القيصرة تصلي مع أولى صديقاتها — احدى نساء الحاشية « فيروبوفا » على جثة غريشكو المتورمة .

صلتا بدموع حارة ، راكعتين حتى الأرض متواكلتين ، نادبتين أملهما وقديسهما وركيزتهما وصديقهما ومنقذ البلاد .

حين أعيتا من البكاء والحزن وتعبتا حتى الارهاق حملتا قميص غريشكو المدمى ومضتا . وجعلت القيصرة من ذاك القميص الذي شبه المادة الكيماوية « بلاديوم » ذكرى مقدسة وإحدى محفوظات العائلة المالكة . حولت ذلك القميص إلى ايقونة مقدسة .

تخفى كفاتشي في جزيرة يلاغينسكي .

— لاشر بدون خير — قال سلبيسترو — لولم تحصل تلك الحكاية ماكنا لنراك بعد عام .

— يابني ياولدي كفاتشي — قالت أمه « بوبي ». لقد كبرت جداً وشمخت كثيراً ، أكان هذا العمل يعنيك ! ماالذي ربطك بهذا الـ « راسبوتين » . الآن ستجري البلاد كلها في إثرك كي يعتقلوك ويقبضوا عليك .

اعتقال كفاتشي ؟ لن يستطيع اعداؤه انتظار هذا ، سيموتون هم ،

كان بيسو يتردد عليه كل يوم حاملاً الأخبار الطازجة والصحف والمجلات . .

— البلاد كلها تتحدث عن مقتل راسبوتين — قال بيسو — والصحف أيضاً تكتب الكثير عن ذلك . عرفت البلاد كلها أسماء القتلة ، لكن لم يتحدث أحد عنك بشيء .

— لقد قلت لك يابيسو ان اعدائي كثر — قال كفاتشي ممتعضاً — يريد أعدائي ان يقتلوني بالصمت ، لكن سنرى ماسينالون . في نهاية الأمر سيظهر أحد ما ويكتب عن مغامراتي . ماذا سيقول الكتاب والمؤرخون المتغطرسون حينئذ ؟ .

خيوط كثيرة كانت تربط كفاتشي ببلاده التي كانت تتورم وتنتفخ يوماً عن يوم — هذا ماكان كفاتشي يراه بوضوح ودقة — وتكاد البلاد تنفقىء وتنفجر بين لحظة وأخرى .

وفي هذه المرة أيضاً كان بيسو ناقلاً للأخبار . لم يكن الآخرون يعرفون مكان إقامة كفاتشي .

كان كفاتشي يتجنب الآخرين،يخشى غفلتهم . ويقول : لربما احضروا جاسوساً دون علمهم ودون ان يتمكنوا من اكتشافه !

لكنه مع ذلك لم يستطع الافلات من الخطر .

« كيف وقع كفاتشي في أحد المصائد ، وكيف استطاع الخروج منها »

ذات يوم بدل كفاتشي ثيابه ، تزين ثم قصد حي « أختيننسكي » لمقابلة أحد أعضاء مجلس الأعيان واعطائه أمراً .

أنهى كفاتشي مهمته وعاد إلى بيته راضياً . تخلف بيسو عنه قليلاً . فجأة وضع أحد ما معدناً بارداً (مسدساً) في صدغه :

ــ قفوا ! ارفعوا يديكم ! الديكم سلاح ؟ لا إذاً ضعوا أيديكم وراء الظهر وامشوا . اذا حركتم يدكم سأقتلكم حالاً ، هيا امشوا .

سار كفاتشي في البداية أمام ذلك الرجل المجهول ذاهلاً ، خانعاً دونما كلام . ثم استجمع افكاره ، انتعش وأدار مع الرجل المجهول الحوار التالي :

ــ من أنتم أيها المواطن ؟

ــ رجل مخابرات .

ــ اسم العائلة .

ــ هذا لايخصكم !

ــ اسم عائلتكم « فيكيروف » أنا اعرفكم !

ــ تعرفون ؟ إذاً كنتم تعرفون علام تسألون ؟ .

ــ هكذا سألت ، لماذا تعتقلوني ؟ ربما تبحثون عن رجل آخر ؟ ألم تخطئوا ؟

ــ لا ، لم أخطىء بحثت عن الأمير كفاتشا نتيرادزه ووجدته .

ــ لامانع وجدتموه فعلا . حسناً أيها المواطن قولوالي من فضلكم ، ماالمكافأة التي ستتلقونها لقاء القبض علي ؟

ــ هذا ليس شأنكم .

ــ صحيح . . لكن مع ذلك ؟ اتبحثون عن مركبة؟ وقتوا كل شيء، لاضرورة للسرعة ، سنتحدث قليلاً . ألم تخطىء الحساب ؟ لم تخطىء ! يعني سيكون الأمر على الشكل التالي :

ستنال لقاء اعتقالي مكافأة بسيطة وما يقارب المائة أو المائتي روبل .

ــ وما علاقتكم بذلك ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— هذه قضيتي . سنتفق .

— اسكتوا وإلا

— دع المزاح ، خذ ألفاً .

— لاتقولوا سخافات ، امشوا !

— وهل الوقت ، وقت الحديث عن السخافات ؟ ! تذكروا أن أزمنة جديدة ستحل غداً وبعد غد ، ستحتاجون أيها الصديق ،فكروا !

أدّت مسالة الخطر المستقبلي المحدق والألف روبل مفعولها ، فكر رجل المخابرات ملياً ، ذاب الجليد تدريجياً ، وأخيراً تصدع وانكسر .

— لن أوسخ يدي من أجل ألف روبل .

— فلتكن ألفين .

— خمسة وتنتهي فوراً .

— حسناً ! لكنني لاأحمل نقوداً . فلندخل مطعماً لنتناول القليل من العشاء ثم تذهب إلى بيتي .

فكر الرجل مرة أخرى ، ثم تجاوز الخوف ووافق .

دخلا مطعماً صغيراً، جلسا في الزاوية ، ثم طلبا طعاماً وشراباً دخل بيسو وجلس غير بعيد على طاولة مجاورة . كان المطعم خالياً .

تبادل كفاتشي وبيسو اشارات معينة وتفحصا المطعم .

ثم خرج بيسو من الباب الثاني إلى فناء البناية وعاد بعد عشر دقائق : تبادلا الاشارات مرة أخرى ، ثم كتب بيسو مايقارب الخمسة أسطر

على ورقة واقترب من منصة الخدمة وطلب فودكا . نهض كفاتشي اثناء ذلك ، نهض وراءه رجل المخابرات أيضاً واقتربا من المنصة .

في لحظة واحدة انتقلت الورقة إلى جيب كفاتشي .

شربا وانتشيا قليلاً . بدأ رجل المخابرات يزقزق . غلى . دفع الحساب ومضوا .. حين اقتربا من الباب انطفأ النور الكهربائي فجأة وعم الظلام في الصالة .

تخلف كفاتشي عن رجل المخابرات في طرفة عين والتصق بالباب : في تلك الثانية ركض بيسو عبر ارجاء القاعة مديدباً برجليه .

— قفوا ، قفوا وإلا اطلقت النار ! اجتاز فيكيروف القاعة صارخاً ، ثم قفز إلى الفناء . لاح ظل من الباب إلى الشارع .

عادت القاعة مضاءة كما كانت . وجلس بيسو من جديد في مكانه السابق . ولم يعد من اثر لكفاتشي .

سمع رجل المخابرات في الفناء :

— امسكوا به ، هرب ، أيها الشرطي !

مرة أخرى اقتحم فيكيروف القاعة . علت جلبة وجري . وقف أمام رجل المخابرات :

— ماذا ؟ هرب المعتقل ؟ هل امعنت التفكير بذلك ، كيف يمكن افشاء مثل هذا السر ؟ ! ماذا فعلتم هنا مع المعتقل ؟ سيعتقلونكم ويسرحونكم من الخدمة .

ماان وعي رجل المخابرات مقالة بيسو حتى أدرك الموقف ورجا الحاضرين خائفاً :

ـــ لاتهاكوني ... اصمتوا . . لدي أسرة . . قولوا لقد صرخ أحد السكارى .

اصطدم رجل المحابرات بالشرطي عند مدخل المطعم :

ـــ لاشيء ايها المواطن، لاشيء ... لقد صرخ أحد السكارى . فلنذهب على أن . . هيا فلنشرب كأساً من الفودكا .

شربا في البداية كأساً! ثم سعلا (ارتفع صوتهما) ثم تابعا الشراب واستقبلا الفجر في ذلك المطعم :

خرج بيسو على رؤوس أصابعه، ثم انعطف نحو اليسار واختفى في الظلام .

« كيف وقع كفاتشي مرة أخرى في المصيدة وكيف أفلت من حبائلها وكيف تفجرت البلاد »

التقى كفاتشي وبيسو في مكان محدد .

ـــ آه ، ان اتمكن من العودة لن إلى البيت هذه الليلة ـــ قال كفاتشي ـــ سنعرج على الرفاق . قريباً سيحل الفجر . ستذهب انت إلى « سلبيسترو » وتستخبر : هل راقبوا شقتنا . اذا كان كل شيء هادئاً سأعود .

دخل الاثنان شقة الرفاق . نهض الجميع حالاً : وبدأت جلبة وضجة وفرح .

ـــ شكر الله (١) قال جليل ـــ لقد أراني الله أميرنا مرة أخرى .

ـــ أقسم بـ « سورب ـــ كاريبت » انني لم أفرح ابداً كما فرحت

---

(١) شكر الله : شكر الله وردت العبارة في النص الأصلي بلفظها العربي .

برؤيتك اليوم — قال سيدراك — حسناً ياجليل افرش الطاولة وأنت أيضاً تحرك ياغابو !

.. تحركا بسرعة . بعد برهة وجيزة جلسوا حول المائدة وبدؤوا. عند بزوغ الفجر قال كفاتشي :

— أيها الرفاق، بعد ثلاثة أيام سيحدث الانفجار . من يدري ربما وجدنا أنفسنا في خضم هذه التحولات . ربما نرى بعضنا للمرة الأخيرة اليوم . ربما كانت المنادمة الأخيرة لنا . مهما حدث يجب ان تعلموا شيئاً واحداً : لقد تآمر أعدائي علي وقرروا دفني عن طريق الصمت . لكن يجب ان تقسموا لي على الا تنسوا سيرة حياتي وتكشفوها للعالم .

— نقسم ، نقسم ! — قالوا بقوة .

— أيها الرفاق — تابع كفاتشي كلامه . بعد ثلاثة أيام ، وفي الصباح ، سترونني في هذه الشقة واعلموا انني إذا لم أحضر يعني ان كفاتشي كفاتشا نتيرادزه قد مات .

— سنأتي ، سنأتي ! — قال الرفاق ..

— نعم ان بقيت حياً . انتظروني هنا بعد غد / بعد ثلاثة أيام ، وإذا لم أعد اذهبوا من هنا مباشرة إلى الكنيسة وأقيموا القداس على روحي. بيسو ، عدت ؟ لاشيء في بيتي ، حسناً إذاً انا ذاهب . وداعاً ايها الرفاق ! — عانق وقبّل الجميع ، ثم خرج .

اجتاز الشارع الأول وانعطف نحو الثاني ، وعلى الزاوية اصطدم وجهاً لوجه مع رجل المخابرات « فيكيروف » وشرطي .

— قفوا . نحيي الأمير كفاتشا نتيرادزه والآن هل ستهربون مني ؟

— ليس ثمة من سبيل آخر . هذا يعني ان هذا هو مصيري ...

استقل كفاتشي ورجل المخابرات الثمل مركبة وانطلقا .

— ستذهب معي إلى البيت وتقبض الخمسة آلاف — ساومه كفاتشي مرة أخرى .

— عشرة آلاف كلمة واحدة .

ريثما تساوم كفاتشي وفيكيروف ، اقتربت المركبة من ادارة الشرطة وفجأة لحقت بالمركبة مركبة أخرى وسمع منها صوت مرح :

— آ . . آ . . تحية للأمير كفاتشا نتيرادزة ! كيف حالكم !

قفز الشرطي بافلوف من المركبة وأوقف مركبة كفاتشي .

مابكم ؟ قطع لسانكم ؟ لابأس سنرغمكم على الكلام . حسناً هيا تفضلوا .

أخذ بافلوف من ذراعه واقتاده، ومشى فيكيروف وراءهما صاراً على اسنانه بعد ان خرج بلاشيء .

بعد عشرين دقيقة جلس كفاتشي أمام بافلوف المسرور وقد تصبب عرقاً بارداً .

— اين وكيف التقيتم ؟ — سأل بافلوف كفاتشي وقدم له قدحاً من الشاي وسجارة .

منذ عشرة أعوام التقنيا في أوديساوكنا اصدقاءجيدين ، اما الآن ...

— والآن ؟ تساءل كفاتشي ونظز محدقاً في عيني بافلوف — هل ثمة مايمنع التصادق الآن ؟

— لا ، مستحيل — أجاب بافلوف بصوت جليدى .

— أنا اعتقد انه يمكن ان نتصادق بشكل أقوى مائة مرة من السابق .

— بمائة مرة ؟ ! هـ . . سم ! افهم لكن . . لن أخدعكم : صداقتنا مستحيلة . فاعمالكم حتى في القصر معروفة . اضف إلى ذلك لدينا وثائق تكفي لان نحسب قضيتكم منتهية .

على كل حال فلنبدأ العمل . منذ البداية الصحكم: لاتتعنتوا، فالنفي لن يجديكم نفعاً على أية حال . وهكذا لنبدأ .

بدآ ، تعذبا وتصببا عرقاً طوال ساعتين . ركب كفاتشي بغلا (ركب رأسه) وحرن .

نسي كل الكلمات ماعدا كلمة « لا » .

— هاتوا « اسحق ايدلسون » وزوجته — أمر بافلوف أخيراً .

انتظر كفاتشي قدوم ايدلسون بهلع . امتدت الدقائق العشر كعشر ساعات . ظهر ايدلسون وريفيكا بالباب . كاد كفاتشي الا يتعرف على الجميلة الشقراء . لقد تكدر الاثنان وشاخا عشر سنوات .

لم ينظر اسحق وريفيكا نحو كفاتشي . نكسا رأسيهما وتجاوزاه . جلسا وحدقا في الجدار .

— أتعرفون بعضكم بعضاً ، سأل بافلوف كفاتشي .

— بشكل جيد — أجاب كفاتشي بنشاط وصوت قاس — اسحق ايدلسون وأنا عدوان لدودان . أما ريفيكا فهي عشيقتي السابقة التي طردتها بسبب خيانتها. وألّف في لحظة قصة جميلة بحيث ان الجميع فغروا أفواههم طوال خمس دقائق .

— ألا تذكران باريس ؟ ! سأل كفاتشي آل إيدلسون — هل نسيتما بهذه السرعة ؟ ربيي ، قولي الحقيقة ألم تكوني عشيقتي ؟ أقول : قولي وإلا سأثبت هذا على أية حال !

— نعم . . كنت . . نعم ، كنت . . لكن — تمتمت ريفيكا ولم تكمل كلامها ، بل أجهشت بالبكاء ، أما اسحق فقد شاخ أكثر خلال هذه الدقائق الخمس وشحب لونه .

أمضوا أيضاً ساعتين أخريين . عذب الرجال الثلاثة والمرأة كل منهما الآخر . لكنهم لم يستطيعوا أن يرغموا كفاتشي على قول « نعم » .

— خذوهم ، خذوهم عني ! — قال أخيراً بافلوف واقتادوا الثلاثة إلى الزنزانات المظلمة الرطبة .

وفي المساء استدعى بافلوف كفاتشي من جديد ، عالجه بالكماشة ، لكنه لم يستطع ان يقتلع سناً واحدة من جذرها المتين . تارة يلاطفه ويمسد شعره ويبتسم له ويعده بالرأفة وتارة يهجم مهدداً بضرب بقدميه ويذكره بالمشنقة ، لكن كفاتشي ظل يردد كالببغاء « لا » ونسي للأبد كلمة نعم .

— حسناً ، فليكن هذا : — قال بافلوف — اذهبوا ، على أية حال بعد غد صباحاً سنعلقكم ونطرح جثتكم للكلاب .

— بعد غد صباحاً ؟ — ابتسم كفاتشي — بعد غد صباحاً ، حسناً سنرى بعد غد : من سيشنق من !

— ماذا ؟ أتهددون أيضاً ؟ على أي اساس تبنون أملكم ؟ .

— عن هذا سنتحدث بعد غد ، ثم تحكمون بنفسكم : انا ذاهب

الآن ، وداعاً ! انحنى لـ « بافلوف » باحترام وعاد إلى الزنزانة مبتسماً .

في اليوم التالي لم يستدع للاستجواب . وفي اليوم الثالث مَثُلَ الثلاثة أمام محكمة عسكرية ، عينوا لهم أحد النقباء محامياً للدفاع .

قرؤوا عليهم المحضر خلال خمس دقائق ونصحوهم :

— اعترفوا بارتكابكم الجريمة .

— لن اعترف ابداً — أجاب كفاتشي بخشونة .

عرض اسحق وريفيكا كل مايعرفان ، ثم بكيا وراحا يتوسلان .

— عندما سافرتم من هنا إلى ستوكهولم ، من استقبلكم في المحطة ؟

— سألوا كفاتشي .

— لاأحد .

— ممن استلمتم في اليوم التالي « الشيك رقم / ١٣٧٤٢٩ / بمبلغ مليون كرون ؟ .

— لم أستلم من أحد .

— هاكم الشيك موقع من قبلكم . اعترفوا !

وقدموا إليه صورة عن الشيك تحمل توقيعاً « استلمت ، الأمير كفاتشا نتيرادزه » .

ثار كفاتشي ورمى قوله بجرأة :

— مزيف !

انتهى كل شيء خلال نصف ساعة . قرأ الجنرال الأدرد رئيس المحكمة عليهم قرار المحكمة :

— « الأمير كفاتشا نتيرادزه ، اسحق ايدلسون ، ريفيكا إيدلسون ، انتم مجردون من كافة الحقوق ومحكوم عليكم بالشنق » .

قرؤوا القرار وانصرفوا فوراً من القاعة . ولولت « ريفيكا » وارتمت . صمت اسحق ، شحب وجه كفاتشا نتيرادزه ، ولم يحرك حاجبيه . شمل القاعة بنظرة ، ابتسم لرفاقه ول « يلينا » ثم قال :

— إلى اللقاء أيها الأصدقاء ، سأراكم بعد غد .

كان الرفاق قد شحبوا وأبيض لونهم كاون الحائط .

نقلوا كفاتشي إلى سجن قلعة « بتروبافلوفسكايا » ورموه في زنزانة رطبة . جلس على كرسي حديدي وغرق في التصورات .

في تلك التصورات مرّ يوم كامل وليلة ثانية . ماذا قال الجنرال الأدرد ؟ يجب ان يشنق الأمير كفاتشا نتيرادزه ؟ كفاتشي ابن سلبيسترو ؟ كفاتشينكو ؟

« آه ، هذه حماقة لاأكثر ! » .

تسلل عفريت صغير إلى روحه يخمش داخله ويقهقه :

— ماذا ، كأنهم لايتجرؤون على ذلك ؟

— أيتجرؤون على شنقي أنا ؟ ابن القيصر الروحي — / فليون اليد اليمنى للعرش !

— هيه — هيه ! — صوصأ العفريت من أعماقه — قل الحقيقة ولو مرة واحدة أمام ضميرك ، ممن تخجل الآن ؟ حسناً ، تشجع ، ابدأ ، لاتكن كتوماً للأبد ، هيّا افتح أمام نفسك روحك الدفينة ، أأنت ابن القيصر الروحي / فليونه / وهل خدمت العرش القيصري باخلاص ؟ .

— وتل « ديمير — تيبي » ؟ من أنقذ ذلك القدر من الناس من براثن الموت والعار ؟

ـ أنا ، أنا من أنقذ ، نعم أنا ! كان الجسم جسمك والروح روحي ، لقد جريت دون ان تلوي على شيء ، ففقدت وعيك من الخوف ، فجلست أنا في روحك ورفعتك إلى « ديمير — تيبي » . بطولتك اذهلت البلاد كلها ، إذ كانوا يعرفونك جيداً ولم ينتظروا منك مثل هذه التضحية . وكنت أنت أكثر الذاهلين بالأعمال التي قمت بها .

ـ من أنت ؟ لماذا تنسب بطولتي إليك ؟

ـ هيه — هيه ! ألم تعرفني حتى الآن ؟ أرجو أخذ العلم : أنا كفاتشا نتيرادزه ابن سلبيسترو .

ـ لاتتحامق انا كفاتشي .

ـ أنا أيضاً كفاتشي ، ألست انا من كان « النبيل اشورديا » والأمير ياور القيصر والنشال و « الفونس » والخائن . كفاتشي الحقيقي — أنا هو .

ـ مالك علقت بي ؟ ماالذي تبغيه مني ؟

ـ أريد أن أسمع منك ولو مرة واحدة كلمة صادقة . هاهم سيشنقونك ، على الأقل الآن ، لاتكن مزدوج الشخصية .

ـ لأي شيطان نحتاج للحقيقة ؟ الحقيقة يقولها الأحمق والبريء والولد الصغير .

ـ والقلب الصدوق ؟

ـ نحن لسنا قديسين !

ـ والاخلاص ؟

ـ الاخلاص لـ نيقولاي و « غريشكا»(١) ؟ انا لم أفقد عقلي بعد !

ـ الاخلاص لأولئك الذين رجعت إليهم . هل أعطيتهم حقهم ؟ هل قدمت إليهم قلبك النقي المخلص ؟

ـ اصمت ! ولا كلمة ! هيا من هنا !

واندفع كفاتشي الحانق على شبيهه ، لكنه اصطدم بالهواء .

ـ هيه ـ هيه ! قهقه العفريت من أعماقه وخرج عبر شق الباب الضيق .

اندفع كفاتشي نحو الباب وراح يقرعه بقبضتيه :

ـ ماذا تريد ؟ لماذا تدق الباب ؟

ـ سيجارة ! اسرعوا أعطوني سيجارة واحدة !

ـ ماذا ؟

ـ سيجارة واحدة أقول ، ولو سيجارة واحدة !

دار الحارس صامتاً ومشى بهدوء . دار كفاتشي ايضاً واصطدم بـ « غريشكا راسبوتين ». هزّ « المقدس » رأسه المدمّى وقال :

ـ اهكذا رددت جميلي ؟

هجم كفاتشي الشاحب على الحائط في البداية ، ثم انقض على « المقدس » ، لكنه اصطدم بالهواء مرة أخرى . ومن أعماق الزنزانة تألقت « فيرا سيدوروفنا » ثم مدت الأرملة « فولفوغا » رأسها ، ثم جاءت في اثرها « تانيا »، « يلينا » صوفيا شيفادزه والمفتش « غوفشتين »، «ناديا أرميلادزه »، « فيرا كالوشفيلي والكثير الكثير ممن يعرف وممن لايعرف

---

(١) نيقولاي : القيصر ، غريشكا : راسبوتين .

من ضحاياه . هجم الجميع نحوه فرادى في البداية ثم جماعات ، جره البعض إلى ناحية والبعض الآخر إلى الناحية الأخرى ، يبصق البعض في وجهه ، يزعجه يقهقه ويصرخ :

— هذا جزاؤك ! هذا جزاؤك سيشنقونك، اليوم سيشنقونك، هذا حق ، هذا حق !

انقض كفاتشي على هذا وجرى وراء ذاك ورمى الثالث أرضاً وجلس عليه، ثم انقلب كاللعبة وبدأ بالصراخ والعويل ملوحاً بيديه ورجليه :

— النجدة ! النجدة !

— مالك تصرخ ؟ سأله الحارس داخلا الزنزانة — لماذا تصرخ ؟

يسقط كفاتشي على السرير الحديدي شاحباً مدمى اليدين . اعاد الماء البارد وفرك الاذنين . عاد الوعي إلى كفاتشي .

— لاتصرخ ، لن تحصل على شيء بالصراخ . اصبر أيضاً ساعة أخرى وينتهي كل شيء — نصحه الحارس بهدوء ، ثم خرج .

هدأت نفس كفاتشي الهائجة تدريجياً وسكنت . تابع التفكير :

— هذا يعني أنهم سيشنقونني ؟ لن يساعدني الرفاق ! قد يتأخرون ؟ هكذا أحقاً ؟ حماقات ! لاأستطيع ان أصدق ! كيف يتجرؤون ؟ ! لابد أنهم يخيفونني . . . يريدون تحطيمي أم أن . . لكن من يدري : ربما تنصب المشنقة الآن . . ياإلهي العظيم !

ماان تذكر الإله حتى حل شبح خفي في نفسه وقال :

— دنت نهايتك : أرقد في الآثام . قريباً ستمثل أمام ربك !

خمد كفاتشي وسلم قلبه المتملق لذاك الشبح الخفي ومشى

في إثره . فهم فجأة أنه بعد ساعة أو بضع ساعات لن يبقى كفاتشي على هذه الأرض ، سيموت كفاتشي . . سينتقل إلى الظلمة الأبدية، إلى اللاوجود ، حيث لاظلمة ولا زمان ولا مكان . . ماذا سيحدث بعدئذ ؟ اللاوجود ؟ يعني ثمة شيء ما طالما ان اللاوجود سيكون . يعني انني سأعيش في ذاك اللاوجود . . إذاً ماذا ؟ لن يكون لي وجود ؟! أية حماقة ! ياللسخف ! لن يكون كفاتشي في اللاوجود ؟ ! انها سخافة مطلقة ! مستحيل !

— ستكون ! — همس الخفي بحلاوة — أنت خالد . . الانسان خالد . . أبدي . . سأقودك إلى هناك « . . » « إليه » حياتك.ستكون أيضاً أبدية سرمدية إلى ابد الآبدين .

صلِّ وسيغفر لك . . أدعُ وسيُستجاب دعاؤك !

— ابانا الذي في السموات ! — همس كفاتشي بقلب مرتجف ومد نفسه نحو السماء — الذي في السموات . . فليتقدس اسمك وليأت ملكوتك ولتكن مشيئتك . ! قطع فجأة صلاته . لم يدر ممن ، أو ماذا يجب ان يطلب . توتر القلب المسترخي من جديد ، وأصبح كالصوان ، وخرج الشبح الخفي من قلبه .

— آه ، هذه حماقات ! — تمتم كفاتشي وبدأ يدور كالوحش الهائج في القفص ، ثم اندفع كرة أخرى نحو الباب :

— سيجارة ! اعطوني ولو سيجارة واحدة واطلبْ ماشئت !

أخرج الحارس كلمة واحدة فقط من حفرته الدرداء :

— حالاً — ومشى بهدوء مرة أخرى .

بعد عشر دقائق صرّ المزلاج الحديدي ثم الباب المصفح بالحديد .

حمل الحارس العجوز البسيط ذو العين الواحدة سيجارة بيد وكماشة باليد الأخرى . حرك فمه الأسود الذي يشبه الحفرة وقال بصعوبة :

ــ اعطني السن أولاً ؟

ــ ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ــ السن اعطني ، قلت لك .

شمل كفاتشي الزنزانة بنظرة :

ــ السن ، أي سن ؟

ــ سنك ، سنك الذهبية .

ــ مابك ؟ هل جننت ؟

ــ أنا ؟ أبداً ، أنا في كامل عقلي .

وعوج فمه ــ الحفرة السوداء ــ كأنه يبتسم ووصوص بعينه الشهباء كحبة الفاصولياء حجماً .

ــ انت سجين جديد . إذا فانت لاتدري . ماحاجتك إلى هذه السن الذهبية ؟ فأنت لن تأخذه معك ؟ على أية حال سيشنقونك بعد ساعة.

ــ حسناً ، وبعد ؟

ــ أقول ، ماحاجتك لهذه السن الذهبية ؟ فأنت لن تأخذه إلى العالم الآخر ؟

آه من يعلم عدد الأشخاص الذين انتزعت منهم اسنان ذهبية بهذه الكماشة . في البداية يستغربون عادة ثم يستسلمون . لاتخف لدي تجربة في خلع الاسنان . سأخلعه حتى دون ان تشعر .

ــ اتبيع السيجارة بثمن غال كهذا ؟

ـ أعطي البعض سيجارة وآخذ من البعض الرسالة الأخيرة ، وأرسلها إلى أهله .

ـ تأخذها وتمزقها طبعاً ؟ على كل حال لن يدري أحد .

ـ لا ، لا ! همس العجوز بخوف وغمغم بفمه الشبيه بحفرة وصلّب :

ـ لاقدر الله أن اقترف مثل هذا الاثم ! الرسالة الأخيرة ـ شيء مقدس . .

ـ حسناً وسترسل رسالتي ؟

ـ طبعاً ، بعد ان ندفنك سأعرج أولا على الكنيسة ، أصلي من أجلك وبعدئذ أضع رسالتك في البريد .

لمعت عينا كفاتشي في دماغه المشتعل . خطرت له فكرة كالبرق :

ـ حسناً ، أنا موافق . . انقل الرسالة بنفسك إلى أبي وسيهديك مائة روبل ، أنه يعيش قريباً من هنا . اعطني ريشة وحبراً وورقة .

ـ حالاً . . حالاً ـ أسرع العجوز في حركته .

استلقى كفاتشي على السرير وسكن . حبس أنفاسه ، دخل العجوز حاملاً قلماً وورقة .

ـ ضعها على المنضدة ـ قال كفاتشي بهدوء .

دخل العجوز إلى الزنزانة ، مضى إلى الزاوية ، حيث تقوم منضدة صغيرة مثبتة على الحائط .

في تلك الثانية قفز عن السرير نمر . ارتفعت حشرجة قصيرة . استخدم كفاتشي طريقة قطاع الطرق المجربة : في لحظة واحدة حمل

العجوز ظهراً لظهر ، لفّ يده اليمنى إلى الخلف ، وأمسك برقبة الحارس ، أيضاً ادار يده اليسرى إلى الخلف وأمسك برجلي العجوز اللتين كانتا ترفسان .

وقف كفاتشي محنياً فترة طويلة ممسكاً على ظهره بالعجوز الذي يختنق مطوي الظهر ثم أنزله على السرير وضغط على رقبته باصابعه الحديدية .

تطلع العجوز المخنوق إلى كفاتشي بثبات بعينه الفاصولية الحجم ، المتجمدة وتعجب من خلال فمه — الاعوج تعجب من كفاتشي الجاحد .

استبدل ثيابه بثياب الحارس . وبعد خمس دقائق اقترب من مدخل الفناء دونما ضجة . بعيداً في الزاوية كانت تجثم المشنقة « مشنقتي » « فكر ابن سلبيسترو » بهذا وارتجف .

بزغ الفجر ، كان الصقيع مسيطراً . اجتازت سيارةٌ المدخل . توقفت وبدأت تزمر . خرج من السيارة رجل عسكري يرتدي معطفاً من الفرو ، ثم دخل إلى إدارة السجن .

لقد عرف كفاتشي فيه المخبر الذي يروم قتله .

لفّت السيارة، ثم توقفت في نفس المكان . قفز السائق أيضاً من السيارة وذهب إلى الثكنة . أحنى كفاتشي رأسه واجتاز المدخل راكضاً . وبعد دقيقة كانت السيارة تتوجه نحو المدخل .

فتح الحارس المتعب الباب فوراً ولم يفرك عينيه إلا بعد فوات الأوان .

ارتفعت جلبة في الفناء . جرى السائق يصيح ملوّحاً بيديه حاسر الرأس :

— امسكوا به ، أطلقوا عليه النار !

اجتازت السيارة في لحظة جسر « ترونتسين » ثم قطعت كالسهم « مارسو فوي بولي » واختفت في الشوارع الفرعية المجاورة وتوقفت في احدى الزوايا . قفز منها كفاتشي وانعطف راكضاً نحو الشارع الفرعي . دخل شقة رفاقه مندفعاً وصاح :

— أيها الاصدقاء، انهضوا استيقظوا اسرعوا اسرعوا ، أقول لكم :

التفّ الأصدقاء المذعورون المصعوقون دون أن يلبسوا ثيابهم حول القائد المنتصب كالعمود الذي بدا في تلك الدقيقة تماماً كما كان على تل « ديمير — تيبي » .

— لقد وفيت بوعدي . جئتكم في الزمان والمكان المحددين !

خلال عشر دقائق كان الجميع قد تسلحوا بشكل كامل .

— استدعوا الآخرين !

حدث هذا في السادس والعشرين من شباط عام ١٩١٧ .

التقى العدوان اللدودان على مدى الازمان وجهاً لوجه .

في ذلك اليوم اعاد كفاتشي الاعتبار لاسم سلفه العظيم « نابليون » الذي سرق اسمه دون إرادته منذ عشر سنوات خلت .

في ذلك اليوم هبت على الامبراطورية المنخورة ، العفنة المدثّرة بالفراء عاصفة لامثيل لها . فجأة تصدع البناء الضخم المشاد على مدى ألف عام بعرق ودماء عشرات الملايين من الناس ، تصدع فجأة وانهار رادماً تحته السكان والمدافعين والحراس .

* * *

القسم السادس

ولادة حزب جديد
وبناء جسر جديد

في صباح السابع والعشرين من شباط ، جلس كفاتشي على كرسي المكتب وبدأ باستعمال الهاتف .

يومان كاملان لم يبتعد عن كرسيه وتلفونه .

اكتفى رفاقه بالنظر إلى دمار البلاد وسفك الدماء من خلال النافذة أو المدخل ، واحياناً كانوا يخرجون إلى أول الشارع ، وقد يصلون إلى زاويته إذا كان الهدوء سائداً فيما حولهم ، يسائلون المارة ، يشتمّون رائحة الجو وينقلون الاخبار إلى القائد .

كان تشيبو نتيرادزه يجري مندفعاً بين الفينة والأخرى صائحاً ناتفاً شعره :

– انتهينا ، أنقذوا انفسكم .

وكان بيسو يدخل مبتسماً ويقول بهدوء :

– لا تهتج تشيبي ! كل شيء يجري كما يجب .

كان جليل يلازم النافذة ويقول أحياناً لكفاتشي :

– ثمة قطعات عسكرية تجوب الشوارع وكلهم ضاحكون . من المؤكد أنّ وضع الشاه سيء .

— آه لاينتهي — قال سيلراك مغتاظاً .

— لم أعد استطيع التحمل . أبسوس موى سيغناج ! (دعاء) .

في اليوم الثالث طاف بيسو نصف أحياء المدينة حانياً رأسه ثم عاد ونقل لكفاتشي :

— انتهى كل شيء .

حدث كفاتشي رفاقه عن الخطة التي فكر بها طوال اليومين الماضيين وفرش أمامهم الشبكة التي حاكها من جديد ، ثم نهض وقال :

— حسناً ، والآن فلنبدأ نحن . هياورائي !

مضى واقتاد وراءه رجالاً مدججين بالسلاح . في المقدمة سار جليل حاملاً راية مرفوفة ، غريبة وكبيرة ، ومشى الرفاق بسرعة وهم يصرخون :

— أيها المواطنون هيأ وراءنا ، قوموا بواجبكم ، فليسقط الطغيان والعبودية .

لاحظ كفاتشي ، في رتله عميل المخابرات « بيكاريف » الذي عتقل كفاتشي منذ خمسة أيام مضت . شد أحدهما على يد الآخر وابتسم كل منهما للآخر كأفضل الأصدقاء . كما لاحظ كفاتشي ان بيكاريف صاح كثيراً ومزق حنجرته .

بعد ساعة وصل ألفان إلى قصر تافريتشسكي تحت قيادة كفاتشي . قطع الحراس الطريق على الجماهير المحتشدة ، لكن الرفاق هاجموا الحراس ذوي القبعات الاسطوانية ، صرخوا في وجوههم ، هددوهم بالسلاح ، اعلنوا الثورة متكلين على الشعب واقتحموا القاعة البيضاء بصلف وثقة ووعيد .

استأثر كفاتشي ورفاقه بخمس غرف في قصر تافريتسكي والصقوا اعلانات بخط اليد « جمعية حماة وانصار الثورة » ، « قبول الأعضاء والتبرعات » . وعلى باب إحدى القاعات الكبيرة كتب « رئيس الجمعية » ، وفي الغرفة التالية وفوق مكتب « شيكيا » سمرت العبارة التالية : « قسم الوثائق والرخص » وفي مكان ما علقوا اعلاناً بحجم الكف :

« اللجنة العليا لحزب الاشتراكيين الاحرار » .

استلم سيدراك مهمة المحاسبة وأخذ تشيبو نتيرادزه على عاتقه مهمة الاستخبارات واختص تشيكينجيلادزه بمنصب السكرتارية ، وتكلف تشخو بيشفيلي بمهمة الاشراف على المستودعات ، وانتصب جليل مسلحاً بالبندقية والمسدس والخنجر أمام مدخل مكتب كفاتشي . واقتنع بيكاريف مؤقتاً بعمل صغير : جلس وراء مكتب الحزب وانكب على تسجيل الاعضاء .

بعد عدة أيام احتدم العمل حتّى تصبب الرفاق عرقاً . عملوا خمس عشرة ساعة في اليوم ، وتمكنوا بصعوبة من كتابة الوثائق الغريبة المتنوعة ومن استلام التبرعات واحصاء الأموال .

أبواب الوزراء التي كانت مغلقة بتسعة أقفال اضحت مفتوحة أمام كفاتشي باستمرار . وأنّى شاء يدخل غرف رجال الحاشية دونما استئذان ، يجلس بجرأة لافاً رجلاً على رجل ، ويبدأ حديثه بلا اكتراث لكن بقوة وعجرفة :

– جمعية حماة وأنصار الثورة ، وحزب الاشتراكيين الاحرار الذي يضم مايقارب الأربعمائة فرع ومليوني عضو أصبح محور المجتمع

ويقف حارساً في سبيل سعادة الشعب . لكننا نحتاج للملابس والحاجات ، للسلاح والمال . الجمعية ترجوكم بالحاح أيها المواطن الوزير . .

يجب . . .

في تلك اللحظة يسرد عليه محاضرة تتضمن كلمة « يجب » بثقة فائقة وينظر إلى ذلك الوزير باعتداد ، حتى ان صاحب القرار يكتب على الطلب دون ان يقرأه : « ينظر فيه » .

تلقى كفاتشي ورفاقه المزيد يوماً عن يوم . تضخمت الجمعية والحزب سريعاً ووصل الاعضاء إلى خمسة ملايين وعمل في مكاتب الادارة ستون موظفاً وفي الفروع عمل مايقارب المائتي موظف .

كان رتل الواقفين بالدور أمام الصندوق من حاملي الأموال طويلاً بحيث يلتف أربعة اطواق فيما حول الصندوق .

وأمام قسم الوثائق كان عدد المنتظرين يصل إلى المائة .

فرش حزب كفاتشي جناحيه حتى طال جناحه الأيسر منطقة « أرخا نغلنسك » وجناحه الأيمن فوق تفليس ومنقاره في منطقة « فيستول » وذيله في « فلاديفوستوك » . ومن جميع زوايا البلاد جرت روافد المتبرعين الذين شكلوا أنهراً كبيرة ، حيث التقت هذه الأنهر في بطرسبورغ ، وجرت في تيار جارف إلى صندوق وجيوب كفاتشي لدرجة أنها كادت أن تغرقه ورفاقه .

والتفت بيكاريف لعمل آخر . عاد لمهنته السابقة وأصبح مساعداً لـ « تشيبو نتيرادزه » .

ــ لاتثق به ثقة مطلقة وبالمقابل لاتبعده عنك كثيراً ، إنه جاسوس

ممتاز إذا دعت الحاجة ينجز عمليات رائعة . استخدمه، إنه رجل ضروري
– قال كفاتشي ناصحاً تشيبونتيرادزه .

حل رجل الشرطة بافلوف في نفس الزنزانة التي أمضى فيها كفاتشي تلك الليلة الرهيبة التي لاتنسى .

ذات مرة تذكر كفاتشي « ريفيكا » و « إيدلسون » فسأل بيكاريف عن مصيرهما .

– مازالا قابعين كما في السابق – أجاب بيكاريف – باقيان في السجن ينتظران رحمتكم .

– ماذا ؟ هذان النذلان خاناني ، وعلي الآن أن أقدم اليهما المساعدة ؟

– لاليس هكذا – قال بيكاريف مبتسماً – كان يجب ان أقول لكم منذ ذلك الوقت، لكنني لم أجد الفرصة المناسبة . لقد خانكم انسان آخر ، خمّن !

– غينتس ؟ كنوبلمان ؟ هاينشتين ؟ من هو الذي خانني ؟

– ماذا كان بامكان غينتس والآخرين ان يعرفوا عن قضيتكم ؟ سأقول ثمة صيرفي يدعى « غانوس » رفيقكم الذي اغدقتم عليه الامتيازات في تركستان .

– وبعد ؟

– فيما مضى ، مع زوجته التي كانت . . كيف تدعى ؟

– عشيقتي تدعى ، عشيقتي ! ثم بعد ؟

– نعم يبدو أنكم استدنتم منها بعض المال و . .

– ولم أعده . . وكيف عرف ذاك العجوز ، كيف عرف ؟

— هه . . سم ! كان يعتبر هذا العجوز عميلاً ألمانياً في بطرسبورغ ، وفي نفس الوقت كان عميلنا .

كثيراً ماكان يسافر من هنا إلى ستوكهولم لتنفيذ مهمة لنا ، اذكان يعطي اعداءنا معلومات مزيفة ويحضر من هناك وثائق اصلية . .

— أحقاً ؟

— طبعاً . اظن ان العكس هو ماحدث في الواقع .

— أها ! فهمت ، لقد فهمت الآن . الويل لك أيها العجوز « غانوس » ان وقعت بين يدي ! هكذا حسناً . . اشكركم سآخذ هذا بعين الاعتبار وماذا ستقولون عن اسحق وريفيكا ؟ .

— لقد أوشى بهما غانوس أيضاً ، ونحن ارغمناهما على ذكر اسمكم . لاتغضب عليهما ، حتى لوكانا حديداً لتمكن بافلوف من شقه.

— حسناً . . سأفكر . . سأفكر . .

وفي تلك الأيام دخل إلى مكتب كفاتشي الثعلب العجوز غينتس وصاًصاً :

— من يتذكر الماضي فلتخرج عيناه من محجريهما، فلنتصالح أيها الأمير !

— فلنتصالح ! — وافق كفاتشي واستقبله بابتسامة — اجلس ياصديقي القديم واحك لي ماالذي يزعجك ؟ فأنت لولا حاجتك ماذكرتني !

— طبعاً غينتس المسكين يجري دائماً وراء حاجاته . انت تعرف أيضاً ، لقد أصبحت الآن رجلاً كبيراً جداً — في دلك اليوم بالذات

خاطب غينتس كفاتشي « أنت » بدلاً من « أنتم » ، رافعاً الكلفة فيما بينهما .

- أحقاً ؟ فعلاً ؟

— كأنه لايدري ! انت الآن أكبر مما كنت سابقاً . اللعنة على الماضي وعلى ماهو قديم .

لي حاجة لديك . لكن انتظر سأريك أولاً — وفتح كفاتشي مجلة أسبوعية ملونة . كانت صورة كفاتشي تحتل الصفحة الأولى وقد كتب تحتها : المدافع المخلص وحارس الثورة اليقظ ن . أ . كفاتشا نتيرادزه » ، وعلى الصفحتين التاليتين طبعت سيرة حياة كفاتشي بقلم كولنمان . استعرض كفاتشي المقالة بعينيه بسرعة وابتسم : أولاً لم تشر المقالة إلى الامارة أو إلى كفاتشي الياور أو إلى غريغوري راسبوتين أو إلى أي شيء يمكن ان يسيء إليه حالياً .

ثانياً : كانت المقالة تركز على « الماضي الثوري » لكفاتشي والذي اضطره للهرب خارج البلاد .

ثالثاً : وبعد عودته من الغربة انخرط من جديد في العمل السري مؤسساً الحزب الاشتراكي ، وقد وصلت الأمور إلى ان حكم عليه بالشنق لكن « الأسد القوقازي » مزق جدران قلعة « بتروبافلوفسكايا » قتل أربعة وجرح العشرات داعماً ، في الوقت المناسب ، قضيته الحبيبة — الثورة » .

— هذه المقالة كتبها رجل ذكي — قال كفاتشي — من صاحب المجلة . ؟

— أنا . لكن منذ الآن ستصبح هذه المجلة مجلتنا . اعطها اسم حزبك وجمعيتك وأنا . .

— وأنت / وتحول كفاتشي أيضاً نحو مخاطبته بـ « أنت » بدلاً من « انتم / تعطيني نصف الايرادات أليس كذلك ؟ خمنت طبعاً ؟ !

— طبعاً .

— حسناً . منذ الآن سيضاف إلى المجلة « لسان حال الحزب الاشتراكي الحر وجمعية حماة الثورة » .

كتبوا العقد واضافوا العبارة وعدلوا في حجمها وعدد نسخها .

ولم يعد يمضي يوم دون ان يستقبل كفاتشي في مكتبه - وزراء سابقين أو رجال حاشية منحنين أمامه واهبين له العطايا أو طالبين منه الحماية والمساعدة . تذكر كفاتشي ذلك الزمن بعد عودة راسبوتين من القدس ، كيف اخرج لسانه ودخل طالباً الحماية من أولاء — رجال الحاشية . بعضهم لم يكترث لكفاتشي ، والبعض الآخر تظاهر بعدم وجوده في البيت ، وآخرون عاملوه وكأنهم لايعرفونه .

تذكر كفاتشي كل ذلك وقارن تلك الحاشية بهذه فازداد حيوية « لصالح الثورة » حتى ان بعضهم كاد ان يفلس والبعض الآخر دفع سبعة أضعاف . أما تصفية الحساب مع غانوس فقد أجله كفاتشي إلى وقت آخر .

اعتاد سابيسترو وبوبي وخوخو ونوتيو على الحياة في بطرسبورغ كما اعتادوا على الحياة سابقاً في « سامتريديا » و « كوتايسي » . كان الأربعة يلبسون على الطريقة الأوروبية ينفخون أشداقهم ويتبجحون :

— انتفخ ابني كفاتشي ، انتفخ كثيراً — قال سلبيسترو — أخشى عليه من الانفجار . لكن فما عدا ذلك لابأس .

— آه ، أنت لاتعرف كفاتشي جيداً ! — قالت نوتيو مهدئة سلبيسترو .

— حبيبي ياكفاتشينيا — مرة أخرى قالت بوبي التي اشرفت على الخمسين. والتي مازالوا يدعونها « بوبيكو » — لم يلد بعد ذلك الانسان الذي يستطيع قتله . وماذا سيحدث بعدئذ ؟. الله وحده يعلم .

— الحمد لله — اختتم خوخو الحديث — إنه حامي كفاتشي وحامينا وإلا كنا متنا عشر مرات !

ذات مساء قال بيسو لكفاتشي :

— ثمة شخص كان يريد رؤيتك لقد قال : سنحرق اليوم ، ليلاً ، جثة راسبوتين ، فليأت هو أيضاً .

— أجل لقد سمعت أيضاً ان بعض الاشقياء والرعاع يريدون ان يصلوا على قبره . فعلاً يجب ان تحرق جثته والا سينبشون القبر ويدورون بالجثة كافة أرجاء الروسيا مدعين انه قديس .

كان الوقت مابعد منتصف الليل حين وصل كفاتشي وجليل بالسيارة إلى الغابة حيث جمعت الاغصان والحطب، وسريعاً ماأحضروا التابوت ووضعوه فوق الحطب ، ثم صبوا الكيروسين من صفيحة كبيرة على الحطب . التهمت النيران على الفور ، التابوت ، وانتشرت رائحة الجيفة المتفسخة المحروقة . اضطرمت النار تدريجياً وارتفعت للأعلى وصبغت الغابة والمرج الصغير ووجوه العشرين الحاضرين بلون أحمر — دموي .

دار الجميع حول النار من الجهة التي يهب منها النسيم ، ثم شرعوا يتحدثون عن ماضي ومستقبل روسيا وانبلج الفجر من الشرق .

وقف كفاتشي جانباً يتطلع نحو التابوت الذي التهمته السنة اللهب ، وفكر بماضيه ومستقبله . في تلك الدقيقة بدا لكفاتشي الغارق في الدرامية ان ماضيه المبرقش قد احترق في تلك النيران مع جثة راسبوتين ، وان كفاتشي جديداً قد ولد مطهراً بنيران الثورة معمداً بيد الشعب الذي وهب نفسه له صادقاً ، نظيفاً .

. . خمدت النيران ، اطفؤوا الجمر المتقد بالماء ، ثم عبؤوا الرماد والفحمات في « كيس » ونظفوا المرج كراحة الكف ، ثم قذفوا بالفحمات والرماد المختلط برماد القديس « غريغوري » في نهر النيفا ثم عادوا إلى البلدة .

— بيسو ! — قال كفاتشي المسهد لرفيقه المخلص — كفانا ان نحيا بلا جدارة . سئمنا . منذ هذا اليوم لاتذكرني أبداً بأي شيء يمكن ان يوسخني . منذ الآن كل شيء للشعب وعلينا ان نخدمه بشرف ، وأنقل هذا إلى بقية الرفاق .

— حسناً ، أجاب بيسو بشيء من الخشونة ، لكنه قال في نفسه . شيء طريف ! أية ذبابة قد عضت كفاتشي ؟ لعله سمع موعظة ما فصدقها وإلا . . آه أعرف لن يستمر أكثر من الغد ثم ينسى . سنرى ، أية فائدة ترجى من موعظة قسيس ما .

فوق البناء المتهدم ، الذي كان شامخاً ، يدور اناس صغار ، يتبلملون ، يمشون على أيديهم .. يفكرون بأرجلهم ويشدون باصابع ايديهم لتقوية قطعة الجليد التي توشك ان تتكسر . لكنه لم يشأ أن يقف

منتصباً او أن يميل نحو اليمين . يحكه جانبه الأيسر لكنه يحاول بعناد ان ينقلب على نفس الجانب . أجل صبي عاص هو التاريخ ! كأنه لم ير بحر البشر الذين طاولت جبال جثثهم السماء ، أو تيار الدم الذي لاحدود له . ولم يشعر بالاصابع المتشبثة بجانبيه ولم يسمع ضجة وأنين الشعب — مخاوفه وآماله وأفراحه . كان يمشي أعمى أصم عبر فضاء أسود ولم يدر أحد طرق الموكب الخفية .

لقد شعر ورأى كفاتشي بالحاسة الخفية ان السلطة العمياء والتاريخ العاصي يسيران في طريقين مختلفين ، وانهما يتصارعان ، وهذا الصراع الغبي يجب أن ينتهي بدمار البشر المذهلين حتى الجنون .

ومن وقت لآخر كان كفاتشي يقول لرفاقه ، وقد شعر بالنهاية المؤكدة الحتمية لذلك الصراع :

— أيها الرفاق ! لايتمسك بالمجنون سوى الأهبل الذي سيفقد عقله أيضاً . من يتعلق بالجثة سيصبح جثة هو الآخر ، من يتمسك بالغريق سيغرق هو أيضاً . سيتخبط « الغانية » كيرنسكي (١) ويصأصئ عدة أشهر ثم يسقط في هوة التاريخ . السلطة الحالية مقضي عليها .

هي تؤكد بعناد أنها ستخرق سلسلة القوقاز بانفها، لكنهم لن يخرقوا السلسلة بل سيكسرون أنوفهم . لن نجري وراء هؤلاء المجانين . لكن نهاية « الغواني » لم تحن بعد كي نتركهم وندعم الجديد . حين يحين الوقت سأعطيكم توجيهات جديدة ، لكن اعلموا ان روسيا حملت مرتين :

جاء ابن شباط (٢) خديجاً . اليوم أو غداً سيمد ساقيه وستلد أمه

(١) كيرنسكي : عين بعد ثورة شباط وزيراً للعدل ثم للحربية ثم خلف لفوف في رئاسة الوزارة .

(٢) اشارة إلى ثورة شباط (فبراير) .

ولداً ثانياً . علينا ان نمد خيطاً صغيراً للمولود الثاني الذي يتخبط الآن في بطن أمه حتى ليكاد يحطم رحمها ويخرج مسرعاً قبل أوانه . دعوا هذه المسألة لي . سيتحول هذا الخيط في الوقت المناسب إلى جسر يجنبّنا الخطر ويفضي بنا إلى الضفة الأخرى من تيار الدم والدموع والنار .

— امض وقدنا ! — صرخ تلاميذه — حيث يكون القائد سنكون نحن .

في تلك الفترة طلب كفاتشي للمرة العاشرة من وزير الجيش لشؤون الدفاع عن الثورة عشرة آلاف زوج من الألبسة ومواداً غذائية وعشرين مليوناً من الروبلات .

لم يكن مزاج الوزير رائقاً فاختصر المواد المطلوبة إلى النصف. كان هذا الأمر بسيطاً يمكن ان يتقبله كفاتشي بيسر وكان بامكانه ان يعوض ثلاثة أضعاف النواقص خلال اسبوعين. لكن أنىٰ يستطيع كفاتشي ان يتحمل مثل هذا العار : منذ بداية الثورة سيطر عليه تعطش لايقاوم للسلطة،وحتى الآن لم يستطع ان يشبع تلك الرغبة ويهدأ . حام طويلاً حول السلطة العليا . حاول في البداية ان يجلس على كرسي أحد الرفاق الوزراء، ثم طالب بمنصب مدير منشأة اقتصادية،لكنه لم يوفق لذلك . وقد تنازل لدرجة انه كان موافقاً على انتقاله إلى الريف بصفة « محافظ » فنلندا مثلاً أو تركستان أو جورجيا.حتى ان كفاتشي تقدم بمشروع للدولة / ومن يدري من كتبه ؟ / .

ينص المشروع على ان تعطى المناطق الأطراف في الروسيا حكماً ذاتياً . خطوته هذه تولى شرحها بيسو شيكيا :

ـ هذه قضية تكتيكية ياعزيزي بيسو . بهذه الطريقة سنضعف الحكومة المؤقتة ونسقطها . وبعدئذ . . سيتغير التكتيك مرة أخرى .

في ذلك اليوم الذي علم فيه كفاتشي باختصار الوزير للمواد والأموال المطلوبة ، عرف أيضاً بسقوط مشروع تعيينه محافظاً .

ـ حسناً ـ قال كفاتشي المهان متوعداً الحكومة وقد اضيف ابريق إلى قطرة السم الموجودة في نفسه .

في ذلك اليوم حول كفاتشي إلى غينتس للمرة العاشرة البضاعة المرسلة من الوزير ، ثم اشترى من جديد مجوهرات بالملايين التي تلقاها ، ثم ذهب مساء إلى الاجتماع وهو يفكر في نفسه :

« ادفع الساقط فسرعان مايسقط . . الساقط . . هشّم رأسه ، سيكون ذلك عملاً خيراً ، هذا جزاؤه » .

في ذلك الحين اقترب شهر تموز . لم يعد الولد اللعوب يطيق البقاء في بطن أمه . صار يجري بجنون محاولاً الخروج . كان الجو مشبعاً برائحة العاصفة وتلبدت السماء بغيوم رصاصية توشك اليوم وغداً ، ان تنشق وتغرق البلاد . واظلمت الدنيا في كافة أرجاء روسيا ، رعدت هنا وهناك ، ومن وقت لآخر كان البرق الصاعق المتعرج يشق عنان السماء والأرض بأسهم قاتلة .

عندما حلت الصواعق في الشوارع كان كفاتشي واصدقاؤه يجلسون في مخبأ مريح أمين يلعبون بـ « الطرة والنقش » : من سينتصر : السيد كيرنسكي أم البلاشفة ؟

مرة أخرى جرى تشيبي تشيبونتيرادزه رامحاً زاعقاً :

ـ انتهينا ! اسلموا بأنفسكم ، انعطفوا نحو اليسار، لا بل اخطأت نحو اليمين !

ـ لا تحتد ، تشيبي ـ قال كفاتشي مهدئاً تشيبي الهائج ـ أياً كان المهزوم سننتصر نحن .

اضع رجلاً في معسكر اليمين والرجل الثانية في معسكر اليسار . فاذا انتصر « كيرنسكي » انقل رجلي اليسار إلى اليمين حالاً ، وإذا انتصر الحمر انقل رجلي اليمين نحو اليسار واحمرّ أيضاً . هذا لايحتاج وقتاً وتفكيراً طويلين . خلال خمس دقائق نغسل الطلاء الأبيض عن وجوهنا ونصبغها بالطلاء الأحمر .

هذا كل مافي الأمر !

دخل بيسو شيكيا مساء وقال بهدوء :

ـ لقد انتصر كيرنسكي !

ـ لقد قلت ذلك ـ قال كفاتشي ونهض ـ حسناً أيها الرفاق اعمالكم محددة والمكان معروف ، والآن امضوا واجتمعوا في ذلك المكان .

توزع الرفاق على ثلاث مجموعات وتقدموا نحو « القصر الشتوي » من جهات ثلاث .

ـ أيها المواطنون ! ـ صرخت كل مجموعة وهي تسوق الناس عن الأرصفة إلى الوسط الشارع ـ أيها المواطنون كونوا عوناً للحكومة المؤقتة ، انضموا الينا ، أدوا واجبكم . وانضم الناس إلى مجموعات المنتصرين وساروا في التيار العام .

في كل مجموعة انضم إلى العشرين عشرون آخرون ، وإلى الثلاثمئة ثلاثمائة آخرون وإلى الألف ـ ألف آخر ، وإلى الخمسة آلاف خمسة

آلاف آخرون . التقى التيار مع التيار ، والنهر مع النهر ، فتشكل بحر حول « القصر الشتوي » ، وبدأ كفاتشي مع راية جمعيته / البيضاء ـ الحمراء وسط ذلك البحر اشبه مايكون بالجزيرة . ومن تلك الجزيرة دوى صوت قائد الجمعية :

ـ أيها المواطنون منذ الآن ستنامون بهدوء، ستحرس حلمكم جمعية انصار الثورة والحزب الاشتراكي الحر الذي انقذكم اليوم من الشياطين الحمر وأخذ على عاتقه مهمة التصدي للخطر المخيف .

ـ أيها المواطنون ، جمعيتنا وحزبنا مستعدان لبذل الدماء على مذبح الثورة ، لكننا بالمقابل نأمل ان ننال اهتمامكم ، وهذا يساعدنا بعض الشيء . أيها المواطنون ـ انهى كفاتشي خطابه الصاخب والحماسي ـ ونتقدم اليكم ، سلفاً ، بالشكر الجزيل على التبرعات التي سنتلقاها يومياً في قصر « تافريتشسكي » . رفع التلاميذ كفاتشي على أيديهم وصعقوا ذلك الحي بصراخهم « هورا » .

بعد عشر دقائق دخل كفاتشي مسرعاً مكتب الوزير وقال بصوت عال :

ـ أهنئكم بالنصر ! هورا !

استقبله رجال القصر بالصراخ وفرح الأطفال . وجه رئيس مجلس الوزراء كلمة خطابية لكفاتشي واسماه « منقذ الثورة » ، وبدأ شكر الآخرين على شكل صراخ وشد على الأيدي .

ـ أيها الأمير ، ساعدوا الحكومة بفاعلية ، تعالوا للخدمة معنا ! ـ قال أحد الوزراء لكفاتشي .

ـ صعب علي ، صعب جداً لكن . . اذا نادى الوطن . .

— في أي ميدان تفضل الخدمة ! ؟ .

— في مصاحة القروض أو في القوقاز .

— حسناً طالما انني أخذت موافقتكم سأتحدث مع بقية الوزراء . ثم أخبركم بالجواب . على أية حال تقدر الحكومة عالياً بطولتكم التي أبديتموها هذا اليوم ...

بعد عدة أيام قدروا خدمات كفاتشي الخالدة وأعماله الخيرة على الشكل التالي :

اتخذت الحكومة مرسوماً اعلنت فيه شكرها و .. ليس أكثر. وفي الحال جرى كفاتشي إلى مقر الحكومة وسأل :

— لاشيء غير هذا ؟

— لاشيء .

— إذاً ، الوداع !

في اليوم التالي نقل تشيبي — المسؤول الاعلامي لكفاتشي :

— لقد انتهينا . فلنهرب. بعد غد سيأتي الينا رجال المخابرات .

— نادِ غابو — أجاب كفاتشي . همس كفاتشي في أذني « غابو » و « شيكيا » بضع كلمات .

في ذلك اليوم نقلت عشرون شاحنة المواد الغذائية والبضائع من مستودعات الجمعية إلى مكان ما . قبل ان يحل المساء وفي ذات الليلة حدثت مصيبة كبيرة بشكل مفاجيء :

لقد أتت النيران على مستودعات الجمعية لأسباب مجهولة . لكن تلك النيران خمدت بسرعة بعد ان احترقت آخر « خرقة » .

تفحص رجال المخابرات المكان ، زانوا الأمر ثم خفضوا انوفهم .

في تلك الليلة طمأن القائد جمعيته الحزينة :

— لاتدعوا قلوبكم تهتز أيها الرفاق ! والآن فلنبدأ العمل قبل فوات الأوان .

في اليوم التالي ، ومنذ الصباح ، تفرغ بيسو وسيدراك للاهتمام بتنظيم عمل احدى السيارات الكبيرة .

لقد أخطأ بيسو : المستودعات الثلاثة الضخمة المستأجرة لاتتسع للمواد التي تمّ التبرع بها خلال يوم واحد . وبدلاً من الأيام الثلاثة المقدرة لحصي أموال الجمعية أمضى خمسة اشخاص اسبوعاً كاملاً لإنجاز ذلك .

« كيف (احمرت) الجمعية وكيف تهيأت ولادة أكتوبر »

— أيها الرفاق ! — علّم كفاتشي تلاميذه قبيل اقتراب أكتوبر — تشبه السياسة البقرة . البعض يرعونها والبعض الآخر يحلبونها ويتغذون بحليبها وسمنها . الرجل هو الذي لايريق دمه وعرقه في الجري وراء البقرة . فليجر وراءها المجانين يرعونها ويعتنون بها ، وعلينا نحن ان نحلبها ونكتنز سمنها . حلب البقرة ليس أمراً عظيماً : جامل ، لاطف ، ابتسم ، هذه هي السياسة الوحيدة الذكية . لاتسأل عن لون البقرة ، سواء أكانت سوداء أم بيضاء أم حمراء ، لاتقس عليها كي لاترفس وتمنع حليبها ، وإذا حاول أحد معاقبتها قفوا في زاوية واجمعوا الريش وغنائم هذا الصراع . عندما يتقابل طرفان فالرابح هو الرجل الثالث .

لكن على الانسان ان يبقى يقظاً كي ينتقل إلى جانب المنتصر في الوقت المناسب . يجب البصق على المهزوم وتهنئة المنتصر في الوقت المناسب .

عندما أقترب اكتوبر أمر كفاتشي سيدراك ان يحول ممتلكات وذهب الجمعية إلى أحجار كريمة خلال عشرة أيام .

ذهب كفاتشي ذات مرة ليرى (يلينا) . ماأن دخل حتى اصطدم بـ « بافلوف » الذي كان مزمعاً على الخروج .

– آ ، نابليون ابولونيتش – سلامات !

عاين كفاتشي الدهش مهلكه ، ودون شعور منه مد إليه يده :

– من أخرجكم من السجن ؟

– الثورة أيها الصديق ، هاأنذا ذا كما ترى مرتد الزي الأوروبي وأعمل في المكان نفسه .

– أي ان ثورة شباط غيرت للنظام القديم ثيابه فقط – قال كفاتشي مبتسماً .

– للنظام القديم ولك أيضاً ! اضافت يلينا .

– فليذهب للشيطان شباط وآذار ، حسب قناعتي المطلقة نحتاج لـ « فيلهيلم » بالرغم من كل شيء . ضباط صفه فقط سيقدمون لنا السلام ، الخبز والقانون – قال بافلوف .

– القانون والخبز والعبودية – أضاف كفاتشي .

– القانون والخبز والعبودية أفضل من الفوضى والجوع الحاليين – مرة أخرى تدخلت يلينا .

– وإذا لم يأت فيلهيلم ؟ – تساءل كفاتشي .

– في هذه الحال البلاشفة أفضل – أجابت يلينا ووافقها بافلوف هازاً رأسه .

– أحقاً لاتدرون أين ايدلسون ؟ – سأل كفاتشي .

— نتيجة لهروبكم من السجن ، أجلوا شنقهما إلى اليوم التالي ، وهذا ماساعدهما ، اذ ان الانقلاب حدث في روسيا في نفس اليوم ، وهما الآن في سجن بتروبافلوفسكايا .

— كما أرى لم تتضرروا انتم من هذا الانقلاب — مرة أخرى ركل كفاتشي بافلوف .

— انا لم أتضرر وانتم أثريتم .

— من أين ؟ وكيف ؟

— يبدو انكم تظنون انني نائم ، أنا أعلم كل شيء عن حياتكم . هاكم مثلاً . . . وفرش له الطور الأخير من حياته كراحة الكف .

— معلوماتكم لاأؤكدها ولا أرفضها . أريد فقط أن أعرف اذا كانت هذه المعلومات صحيحة ، لماذا لاتعتقلونني ؟

— لأن . . يجب أن يكون السبب واضحاً لكم . لماذا ؟ من أجل من ؟ ولأي سبب ؟ من يجب عليّ ان أفرح ؟ من يقدر اخلاصي ؟ أضحت روسيا بلا مالك ، لذا لن يقول لي أحد شكراً . لماذا أجعل منك عدواً لي دون طائل ؟ من يدري اين سنلتقي وكيف سيحتاج احدنا الآخر ! .

— الانسان الذكي يتصرف بذكاء دائماً . مع أنكم ستنالون ترقية لقاء اعتقالكم لي ، لكنني سأرد الجميل يوماً ما .

— رده اليوم .

— أمركم !

— انتم ترتادون ادارة « سمولني » كل يوم وتعملون تحت امرة ايفانوف .

— صحيح .

— أخبره بأنني سألقي القبض . هذه الليلة ، على اثني عشر بلشفياً . لديهم جميعاً ، شقق سرية ، لكن عناوين شققهم الجديدة في جيبي . اكتبوا الآن هذه اللائحة . اذا نفذتم لي هذا الرجاء وذكرتموني بكلمتين أمام ايفانوف ، تكونون قد أديتم دينكم تجاهي . كنت سأرسل بيكاريف ، لكن بما انني قابلتكم . .

— اما زلتم على علاقة مع بيكاريف ؟

— لا ، ليست لي معه أية علاقة . . نادراً ماالتقي به . أما بالنسبة لـ « ايفانوف » ستكون لي معه لقاءات عدة في المستقبل . لذا ستعمل معروفاً فيما اومكنتني من اللقاء به سراً . اكتب اللائحة .

نقل كفاتشي اللائحة . ودع بافلوف وهو يقول في نفسه : « سأدبر لقاءك مع ايفانوف وأكون جسراً .

هكذا أفضل ، ستكونان معاً في قبضة يدي .

خرج بافلوف . استقبلت يلينا كفاتشي ببرود . فقد تأرجح الجسر بينهما وانهدم بسبب مشاغل الحياة .

انشغل كفاتشي ببناء جسور جديدة متعددة . وبعد شهر ، شهرين وجد وقتاً لـ « يلينا » التي أقامت بدورها جسوراً جديدة لكفاتشي جديد .

— يلينا أتعرفين بافلوف منذ فترة طويلة ؟

— منذ ستة أشهر . .

— أهو صديق حميم لك ؟

— وأنت ماشأنك ؟

— أحقاً فقدت الحق حتى في سؤالك . ؟

— أنت من حرم نفسه هذا الحق .

— تقولين الحق فأنا لاأراك مرة واحدة في الشهر . ماالعمل هذا قدرنا ! هذه لوحات رائعة لقد شاهدتها في مكان ما .

— هذه لوحات (تانيا) . أتذكر تانيا ـ سألته يلينا بشكل لاذع .

— حقاً ، تانيا ! ياللمرأة المسكينة ! كيف اختفى أثرها ؟

— بالنسبة لي لم تختف . انها هنا الآن . يجب أن تأتي خلال دقائق. أنا انتظرها .

— حقاً ؟ اضطرب كفاتشي قليلاً — فأنا لم أرها منذ خمس سنوات . تسعدني رؤيتها لكن . .

— أحقاً تسعدك ؟ لاأصدق . لاتسرع في الخروج . بعد خمس دقائق ستكون تانيا هنا .

نظر كفاتشي إلى الساعة . .

— آه ، لقد تأخرت كثيراً . وداعاً ياصديقتي الطيبة . لقد تذكرت ، أريد أن أنصحك ، بيعي كل ماتملكين . اليوم أو غداً ستهدر الصاعقة وتضيعين كل شيء .

— لقد بعت منذ فترة طويلة وانفقت وكذا فعلت تانيا . .

— حسناً فعلتما اذ بعتما . حسناً وداعاً ياعزيزتي .

وجرى كفاتشي على السلم مسرعاً ، وكأن أحداً يجري وراءه . حين خرج إلى الشارع . لاحظ مركبة تانيا من بعيد ، فدخل أحد المخازن بسرعة واسترق النظر من هناك . حصانان أسودان يتهاديان .

تانيا ترتدي ثياباً سوداء . لقد هرمت وازدادت ذبولاً . تذكر كفاتشي ، للحظة ، الماضي الأرقش .. إلا أنه اغلق سريعاً باب الذاكرة ، ثم اوقف عربة أجرة ووصل بعد نصف ساعة إلى قيادة أركان الحمر .

ـ مرحباً أيها الرفيق ـ قال كفاتشي مسلماً على ايفان ايفانونيتش ـ لدي موضوع سري جداً . هل يوجد أحد غريب هنا ؟ حسناً اسمعوا ها كم هذه اللائحة . سيعتقل هؤلاء الناس هذه الليلة . ألا تصدقون ؟ أقول لكم انهم يعرفون شققهم السرية . من اين عرفت ؟ لاأستطيع قول هذا . غداً صباحاً ستعرفون ، أصحيحة معلوماتي أم لا . أما الآن فاتخذوا اجراءاتكم . لقد قمت بواجبي تجاه الثورة . انا ذاهب الآن الآن . وداعاً !

ذهب إلى الاجتماع السري وتلذذ بثرثرته . كرر مائة مرة ماقاله وأضاف كلمات يستطيبها الفارون من الجيش مثل :

ـ أيها الرفاق نفذ صبر الفلاحين الروس . لقد بدؤوا بمصادرة وتوزيع الأراضي وقد انتهوا في مناطق كثيرة من مسألة التوزيع . أتدرون أيها الرفاق ـ وأخبروا الآخرين بذلك ـ من يتأخر لن ينال حصته من الأراضي . ألا فلنسقط الحرب الجهنمية ، اتركوا الخدمة ، اقذفوا الرتب في وجه الحكومة ، وعودوا حالاً إلى أسركم وأراضيكم . عاش شعارنا الجديد :

« إلى البيت ! إلى الأسرة ! إلى الأرض » .

ـ إلى الأسرة إلى البيت ! ـ صرخ بصوت أعلى المتعطشون لامتلاك الأرض والناس الذين تعبوا من الحرب ، ثم تحركوا كالتيار وراء الراية الحمراء التي كتب عليها بأحرف نارية :

« السلام والخبز » « الحرب للقصور والسلام للأكواخ »، « الأرض للفلاحين والسلطة للمجالس ـ السوفييتات ! » .

تحققت مقالة كفاتشي . نقب بافلوف في تلك الليلة مايقارب العشرين شقة، لكن لم يجد ولم يقبض على أحد ممن يجب ان يعتقلهم . ومنذ ذلك اليوم ارتفع اسم كفاتشي وتضاعفت الثقة به في عيون وقلب الحمر عشرة أضعاف على الأقل .

حين اقترب أكتوبر قال كفاتشي لسلبيسترو :

ـ بين ليلة وأخرى سيندلع جحيم هنا لن يستطيع الشيطان نفسه الخروج منه ، لذا انصحك بالنزوح غداً إلى جورجيا .

وافق الجميع ماعدا « بوبي » التي لم تشأ ان تفارق ابنها . لكنها رضخت لكفاتشي في نهاية الأمر ، وبعد ثلاثة أيام أمّن كفاتشي أهله في القطار وسفّرهم إلى وطنهم .

« عن بعض الأعمال اللاأخلاقية »

ازدادت « جمعية انصار الثورة الحمراء » انتشاراً وازدهرت أكثر وأكثر . فالسلطة الجديدة لم يكن لديها وقت لتتفحص كفاتشي ، لذا سار كل شيء في عرين كفاتشي وفق الخطة التي رسمها كفاتشي نفسه .

لكن جاء وقت وتذكروا تلك الجمعية في ادارة « سمولني ». اشتم كفاتشي رائحة الخطر على الفور فأطنب قائلاً في مقر قيادته ·

ـ هنا سنلوي الرقبة . لقد آن الأوان كي نغادر بهدوء عشّنا الذي احتوانا وادفأنا عاماً كاملاً . اذا تصدع البناء لايجوز البقاء تحت

سقفه . حان وقت الوظيفة . ومن يدري ، ربما كان من الأفضل التخفي وراء الوظيفة . اصبحت المفوضية الآن قوة جبارة تستحق في سبيل الحصول عليها ان نعمل بلا راتب .

ونفذوا ماقرروه . خلال اسبوع امّن كفاتشي كراسي جديدة للجميع . تمكن من ان يسمي نفسه قوميسيراً / مفوضاً / لاحد المصارف الفخمة وعين افلابريان اميناً للصندوق في المصرف ذاته ، ودس غابو تشخوبيشفيلي بين عناصر الصليب الأحمر ، وزج بـ لادي تشيكنيجلادزه في مؤسسة اصدار النقود ، أما « تشيبي » و « بافلوف » و « بيكاريف » فقد اطلقهم في طريق التجسس والاستخبارات .

وحل بيسو شيكيا مكان كفاتشي في « جمعية الثورة الحمراء » : حل الجمعية وباع ممتلكاتها خلال شهر منفذاً ماطلب منه على الوجه الأكمل . واستطاع كفاتشي ان ينفذ خطته أيضاً .

كل يوم تقريباً كان يأتي إليه بيسو وتشيبي ولادي ويقدمون اليه عدة ملايين من « الاعتمادات المالية » على شكل شيكات أو أوراق مالية أخرى فيوقعها كفاتشي بهدوء : « تُصرفْ » .

ويقول افلابريان للجميع : « لاتوجد نقود » ، ثم يعدها ارفاقه .

هذه الأموال كان ينقلها هانشتين إلى البورصة ويعود مساء حاملاً الذهب والأحجار الكريمة .

كل يوم في منتصف النهار يمسك كفاتشي بالهاتف ويجري مع بيسو مثل هذا الحديث الماكر :

ـ بيسو ، اهذا أنت ؟

ـ نعم أنا .

— سجل اليوم طلباً بخمسة ملايين .

— حسناً . .

بعد ساعة يتلقى المصرف طلباً باسم جمعية كفاتشي أو أية مؤسسة أخرى بمبلغ خمسة ملايين . كان الرفاق يجتمعون في شقة كفاتشي في كل مساء يتناقلون الأخبار ، يجرون الحسابات ويخططون لمصائد جديدة .

كانت السماء توشك ان تحترق والبلاد غارقة بالدماء والشوارع مشبعة بأنين المتقاتلين والأرض ترتجف من الانفجارات .

كان لكفاتشي وزمرته آلاف الآذان والعيون ، يراقبون كل شيء ويعملون بشكل حثيث وحذر وجشع . عصروا ماأمكنهم عصره وجمعوا كل ماتساقط ، وكلما ارتمى انسان اخذوا مالديه . اندسوا في الشقوق بسهولة ، استحوذوا على الممتلكات التي لاصاحب لها والتي لها صاحب . اشتغل بافلوف في عمله الجديد وكأنه في بيته وأصبح في وقت قصير الساعد الأيمن لكفاتشي . لم يعد يمر يوم دون ان يعطي بافلوف امراً لكفاتشي :

— ينتج عن هذا الموضوع . . . هذا خطر . . لافائدة ترجى من هذا . . هذا يعرفونه . . ذاك لايعرفونه . .

أصدر كفاتشي منذ زمن أمراً لزمرته :

— تصرفوا بحيث تكونون جاهزين دائماً للرحيل عن البلد في أية دقيقة . على الرجل الحذر في زمن كهذا ان يبقى حصانه مسرجاً دائماً .

يبدو ان اسحق وربيكا قد خرجا من السجن وسافرا إلى أوديسا .

ومع ان كفاتشي قد صفح عنهما اذ ضعفا، إلا أنهما قررا عدم اللقاء معه وارسلا له تحية واعتذاراً عن طريق « بيكاريف » ، ثم اختفيا فجأة ، ولم يكن ثمة من اثر لـ « يلينا ».

انتقل مقر الحكومة إلى موسكو، وكان على كفاتشي ان يلحق بها مع ادارته ، لكنه تلكأ قليلاً ، اذ كان عليه ان ينهي بعض الأعمال .

— غابو ! كيف حال الصديق « غانوس » ؟ — سأل كفاتشي في تلك الأيام غابو تشخوبيشفلي .

— مات منذ فترة وجيزة .

— مات من تلقاء نفسه ؟ — تساءل كفاتشي دهشاً .

— لقد ساعدته قليلاً — ابتسم غابو ونظر إلى نفسه وفهم كفاتشي .. كانت ساعة ذهبية تتدلى في جيب غابو . وبين يديه علبة دخان ذهبية وتلمع في اصابعه عدة خواتم غالية الثمن .

— أحسنت ! — مدحه كفاتشي — سأرد لك جميلك .

ضاعفت زمرة كفاتشي من سرقاتها . بالغوا في السرقة، اذ جمعوا خلال اسبوع أكثر من كل ماجمعوه قبل ذلك .

في ذلك الوقت امتلأت سماء كفاتشي بالسحب الداكنة وانذر الجو بالعاصفة . في مكان ما ابرقت . أخيراً دخل تشيبي تشيبونتيرادزه ذات مساء مندفعاً وصرخ :

— لقد انتهينا ! عرفوا كل شيء ! . . هيا اهربوا ! . . هاكم اقرؤوا !

فتحوا جريدة المساء وقرؤوا « اندس ، أيضاً في صفوف الثورة الأمير كفاتشا نتيرادزه صديق راسبوتين والخادم الأمين للقيصر الذي ..».

— اخوتي آن لنا ان نمضي ! — قال جليل واسنانه الحصانية تلمع .

جاء بافلوف بعد « تشيبي » وقال بهدوء وايجاز :

— لقد عرفوا كل شيء . يجب ان نجهز انفسنا للسفر قبل ان تفوت الأوان .

— حسناً ، بعد ساعة سنكون في المحطة — أعطى كفاتشي أمر التعبئة .

كان كل شيء على مايرام . بعد ساعة التقى الرفاق في المحطة .

— لقد هلكنا ! — مرة أخرى صرخ تشيبي — لايوجد أي قطار .

— لاتصرخ يا« تشيبي » — أسكت كفاتشي المخبر المتكدر المزاج — اذهب يابيسو ودبّر قطاراً بأي ثمن .

عاد بيسو بعد عشر دقائق .

— سيسيرون عربتين حالاً . . اظن ان مائة قطعة ذهبية ثمن غير غال .

— غير غال — أجاب كفاتشي موافقاً .

بعد نصف ساعة كان قطاراً مؤلفاً من عربتين يجري مسرعاً باتجاه موسكو . جلس في العربة — الصالة تسعة اشخاص ، تسعة أعضاء في ادارة جمعية مدافعي وانصار الثورة الحمراء التي انيطت بها مهمة « تنظيم حركة قطارات الجنود الثوريين » .

— هل ستجدي هذه الوثيقة ؟ — تساءل سيدراك خائفاً .

— لن تجدي فقط ، بل ستغير رأساً على عقب — أجاب لادي .

— العشاء ياجليل ! — طلب كفاتشي — أحضر الفوكا ونبيذ القرم وشامبانيا « كريستال » .

بعد نصف ساعة كان كل شي جاهزاً . شرب الرفاق وغنوا ورقصوا حتى ساعة متأخرة .

اقترب القطار صباحاً من احدى المحطات . كان الرفاق قد غسلوا وجوههم وبدؤوا يتحركون بكسل ويتهيؤون لتناول الفطور . كانت المحطة تغص بإصحاب المعاطف الرمادية وتئز كسرب من النحل :

ــ قادم ! قادم !

حين وصل القطار إلى الرصيف ، اضطرب بحر المعاطف وبدأ يعول :

ــ هيا ! خذ ! أقذف !

ابتلع الجنود ، المحملون بالاسلحة والصناديق والحقائب والمرطبات ، القطار في لحظة ، واقتحموا العربتين صارخين متوعدين ، ثم اخذوا أماكنهم .

بعضهم دخل عبر الأبواب وبعضهم الآخر اندس عبر النوافذ .

ــ ايها الرفاق ! ــ صرخ كفاتشي واصدقاؤه ــ توقفوا ! هذا لايجوز ! هذا قطار المندوبين . مهمتنا تنظيم . . هاكم الوثيقة الرسمية .

لكن أحداً لم يشأ أن يسمع أو يرى هذه الوثيقة . ردوا على وعيد كفاتشي بالضحك والوعيد أيضاً .

صرخ أحدهم :

ــ أيها الرفاق ! يكفينا ماامتصه هؤلاء البرجوازيون من دمائنا . هيا القوا بهم من النوافذ !

فلذفوا بكفاتشي ورفاقه من النوافذ صاخبين وسط الشتائم والقهقهات والتهديد باطلاق النار .

ـ اسرعوا ، انقذوا الامتعة ! ـ أمر كفاتشي .

داروا طويلاً حول القطار ، رجوهم ، وعدوهم بالمال والفودكا لكنهم لم يتمكنوا حتى من الاقتراب من العربتين . اخيراً انطلق القطار غاصاً بالناس ، حاملاً معه كل مايخص الرفاق ـ ملابسهم ، ومؤونتهم ، اموالهم وجواهرهم ثمرة عمل الماضي والأمل واللعنات والدموع .

جلس الرفاق في صالة المحطة منكسين وجوههم في الأرض وبدؤوا يولولون :

ـ لقد هلكنا ! ـ صرخ تشيبي غارقاً بالدموع .

ـ إلى أين لاحقنا عقاب الاله ! ـ تنهد غابو .

ـ أجل لقد ساءت الأحوال ـ وافقه باقلوف .

ـ لقد انتهى امرنا والله (١) . لقد انتهى ـ قال جليل هازاً رأسه .

كان بيسو يفرقع باصابعه وتشيبي مستغرقاً في الضحك وبيكاريف غاطساً في دخان السجائر . أما كفاتشي الهائج فكان يجري كالوحش الحبيس في قفص ، ومن وقت لآخر يمسح جبينه المقطب .

أخيراً صمت الجميع ، تطلعوا بأعينهم نحو قائدهم ، صمتوا طويلاً منتظرين حكم كفاتشي .

ـ كيف هي حالك ياكفاتشي ـ تجرأ بيسو أخيراً .

ـ حالة الكلاب .

ـ ماذا تقول ؟

ـ لاشيء ، ماذا انقذتم في تلك الحقيبة ؟

---

(١) وردت كلمة (والله) في النص بلفظها العربي .

ــ لاشيء يذكر . الخاتم وحروف الطباعة .

ــ لاشيء يذكر ؟ ! بل لقد انقذتم كل شيء ، أنت انسان طيب .

فرك كفاتشي جبينه ، ابتسم وقال بصوت قوي مشجعاً رفاقه :

ــ لاتحزنوا أيها الرفاق . سيعود الينا كل مافقدناه خلال شهر إذا لم يخنا الحظ ، وسيساعدنا الرب ، هيا انهضوا ، تماسكوا ورائي :

« عن سامتريدزه »

كان العمل يجري في مقر اللجنة التنفيذية المنطقية على قدم وساق ، دخل ثلاثة رجال إلى مكتب رئيس اللجنة بثقة وجرأة . قطع الحارس طريقه :

ــ ممنوع الدخول فاللجنة مجتمعة !

ازاح الرجل المتقدم الحارس بيد ، وفتح الباب باليد الثانية ، ثم دخل وتبعه الاثنان الآخران .

قطع الاجتماع وتوقف المتحدث عن خطابه . وحدّق الجميع في الرجال الداخلين .

ــ اعذروني أيها الرفاق ! ــ قال كفاتشي بعجرفة باردة ــ أرجوان تتعرفوا علي . أنا عضو المجلس الثوري الحربي (بافل سامتريدزه) وهذان عضوا هيئة اركاني (بافلوف) و (شيكيانتس) واشار إلى بافلوف وشيكيا .

نهض الجميع وتقدموا . أظهر كفاتشي قدراً أكبر من الصلافة والبرودة وتابع :

ــ تجري الشناعات في بلدتكم وانتم تأخذون اماكنكم وتتحادثون . هاكم : كنت مسافراً مع اركاني بقطار خاص . اخبروني وأنا في

الطريق ان خونة بورجوازيين يهرّبون خارج الحدود احجاراً كريمة وذهباً ، فتشت القطار واتضح ان الاخبارية صحيحة . طبعاً انتزعت منهم المجوهرات واطلقت النار على الخونة الحقيرين في نفس المكان . لكن امام انوفكم وفي المحطة هجم علي جنود متمردون وقذفوا بنا خارج القطار واستولوا على كل مابحوذتنا وسافروا في قطارنا . أيها الرفاق ! ماذا تقولون بهذا الصدد ؟

اضطرب الرفاق وبدؤوا الجري واشتغلت الهواتف وتحركت السيارات .

— أأنتم رئيس اللجنة ؟ — سأل كفاتشي أحدهم — نحن تسعة أشخاص . سأبقى انا هنا ، خذوا البقية معكم . ارسلو برقية على الفور كي يوقفوا هذا القطار في أية محطة صغيرة . جهزوا قطاراً بخارياً وألحقوا بهم . وإلا سيغتصب الجنود القطار بالقوة . افهمتم خطتي ؟

— أجل فهمت أيها الرفيق ! سنجهز القطار بمئات المسلحين وسنلحق بالقطار ونطوقه . .

— حسناً،أرجو لكم النصر . نعم تفضلوا وشاهدوا وثائقنا — وفتح كفاتشي امامه خمس وثائق طوالاً . جمد الجميع حيال هذه الوثائق المهيبة وارتجفوا ، ولم يجرؤ أحد على ان يأخذها ويقرأها . أعادها كفاتشي إلى جيبه ، ثم قال :

— حسناً ، هيا تولوا الأمر ، وداعاً أيها الرفاق !

ثم انتحى بـ « بيسو » جانباً وقال له :

— هيا يابيسو حياتنا بين يدلك ، ريثما تعودون سأرتب كل شيء على طريقتي الكفاتشية .

بقي اثنان في المكتب ــ كفاتشي ذو الريش ورئيس اللجنة .

ــ اجلسوا أيها الرفيق ! ــ سمح كفاتشي له بالجلوس ــ اجلسوا وحدثونا ، ماذايجري في محافظتكم ؟ .

تعب رئيس اللجنة من الحديث . عرض خلال ساعتين أمام كفاتشي الوضع الراهن وعمل السلطة في المحافظة .

ــ حسناً ، حدثونا الآن عما لديكم من مخزونات ؟ ماذا لديكم من القمح والبطاطا والدقيق والسكر وبقية السلع ؟

وبعد ان استمع إلى الأجوبة سأله مرة أخرى :

ــ هل صادرتم بعض البضائع من التجار ؟

ــ صادرنا القليل .

ــ وهل استوليتم على الذهب والاحجار الكريمة ؟

ــ لا لم نستول بعد .

ــ أنا أرى انكم متخلفون جداً عن العاصمة . لكن لابأس سأساعدكم . انا صاحب تجربة ، سنعمل معاً وستتمرنون سريعاً . والآن استمعوا ، احتاج الآن إلى عشر غرف وهاتف وثلاث سيارات وآله كاتبة واثاث ومعدات مكتبية . اصدروا أمراً بذلك .

بعد ساعتين اجليت ثلاث أسر من طابق يقع في الشارع الرئيسي ، ثم أخبروا كفاتشي :

ــ الشقة جاهزة . مساء سنحضر الهاتف وبقية المتطلبات . حان وقت الغداء ، تفضلوا معنا أيها الرفيق !

بعد المحاضرة شرّف كفاتشي رئيس اللجنة المنطقية ومالحه ، ثم استلقى في غرفته واغفى .

كانت الشمس على وشك الغروب حين ايقظ جليل وبيسو كفاتشي :

— هيا استيقظ ياكفاتشي ، لقد اعدنا كل شيء ماعدا الخمرة ، حتى اننا لم نفقد ابرة ، لقد احتسى الجنود الفودكا والكونياك والنبيذ والشامبانيا بكاملها .

— صحة ! ألم ترق الدماء ؟

— ولاقطرة !

— بيسو ، أنت ذكي ، ذكي جداً — قال له جليل مادحاً .

— مرحى لك بيسو ،مرحى لك جليل ! — دعوني اقبلكما ! أنا أيضاً لم أجلس بلا عمل . كل شيء جاهز — وقبلهما القائد بأخوة .

— لاحاجة ياكفاتشي . كم استعدنا من الثروات ، ماذا تريد ؟ غداً سنسافر وإلا .. من يدري ؟ الخطر كبير .

— فلنسافر أيها الأمير ، فلنسافر وإلا سيغضب الله علينا ! — قال جليل راجياً .

— عزيزي بيسو ، انت حتى الآن لاتعرف طبعي . المهم ان تنجز عملاً حقيقياً ، أما الثروة لوحدها فلا اكترث لها ! قال أحدهم : الاعتزاز بالمجد أفضل بكثير من التمتع به / شوتاروستافيلي — « الفارس في إهاب النمر » .

— سيرموننا بالرصاص ياكفاتشي !

— لن يفعلوا شيئاً بنا ، بل اذا دعت الحاجة انا من سيرمي السكان المحليين بالرصاص .

في اليوم التالي انتقل كفاتشي وهيئة اركانه إلى الشقة الجديدة ، وفي نفس اليوم أعطى كفاتشي الأمر والنصائح إلى بافلوف :

ـ عد انت إلى بطرسبورغ ، ونظم جيداً شبكة استعلامات .
إذا كان خطر ما يهددنا ابعث لنا برقية كهذه : « عودوا حالاً » .
وأنت يا « سيدراك » ستسافر إلى موسكو ، أما أنت يا « لادي » فستستقر في « سمولينسكي » .

ستتلقون جميعاً السلع والتوجيهات من وقت لآخر ، وسترسلون احياناً ، سلعاً إلى مناطق أخرى .

بيسو وزع عليهم التعليمات والوثائق . إذا ساءت الأمور سنلتقي جميعاً في « روستوف » .

أمضى بيسو طوال اليوم في تلقين وتدريب الرفاق ، واعتباراً من اليوم التالي شغل كل منهم بعمله .

كان مكتب كفاتشي مؤثثاً بشكل جيد ، وديوانه مؤلف من ثلاث غرف . يقف على ابوابه حرس ومراسلون ، وجليل أيضاً كان مميزاً . الآلة الكاتبة تضج وانين الهاتف يسمع كل دقيقة . المشترون كثر . كان على بيسو شيكيا ان يغربلهم ويشرف على المكتب ، وكان تشيبي وغابو وبيكاريف يتجولون بين الناس مالكي الأموال ليجدوا المشتري .

احتدم العمل خلال أسبوع واحد . كان كفاتشي يقيم كالعنكبوت في مدينة كالشبكة تلتقي فيها خمسة خطوط حديدية . الحركة مضطربة والطرق الحديدية مشلولة والعربات منهوبة كالخبز .

الطرق ملأى بالقطر المحطمة التي تم الحصول عليها بأغلى من الدم . وأقبل كفاتشي على العربات بنشاط .

من وقت لآخر كان كفاتشي يستدعي المتنفذين المحليين ويقول لهم :

ـ هاكم ، اقرؤوا !

ويقرؤون البرقية « إلى عضو المجلس الثوري — سامتريدزه : أرسل حالاً خمس عربات من الدقيق ، خمس عربات من الملفوف ، ونفس القدر من البطاطا وبقية المحاصيل .

— متى ستكون جاهزة ؟

— بعد ثلاثة أيام .

— أنا سأرسلها بنفسي حملوها ، ثم اخبروني .

ويرسل القطار المعبأ إلى موسكو أو بطرسبورغ ، ثم يختفي هناك في حفرة كفاتشي . وكثيراً ماتلقى كفاتشي من « سمولنسك » ومختلف المدن الأخرى بضائع وسلعاً متنوعة تتحول خلال يومين إلى ذهب وأحجار كريمة .

في كل يوم تقريباً كان كفاتشي يقوم بحيلة كهذه : كانوا يقتبادون إلى كفاتشي أحد التجار أمثال « سبيكولوف » أو « ديريكوجوف » :

— أريد خمس عربات إلى موسكو .

— ثمنها خمسمائة قطعة ذهبية .

يتفقان . يكتب كفاتشي « الأمر — الوثيقة « وأشهد ان خمس عربات من البضائع أرسلت إلى الفرقة الخامسة استثناء من الدور » .

وفي اليوم التالي يغادر قطار « سبيكولوف » المحمل بالبضائع إلى موسكو . يرافق القطار سبيكولوف نفسه الذي يحمل في جيبه وثائق كفاتشي التي يبلغ طولها امتاراً . تنص هذه الوثائق على تفريغ الحمولة في موسكو حيث تباع سريعاً بجهود ومساعي أفلا بريان .

وبنفس الوثائق ، وبمساعدة « سيدراك » ، ينطلق أيضاً قطار محمل بالبضائع من موسكو حيث يصار إلى بيعه تحت رعاية كفاتشي .

ومن وقت لآخر كان كفاتشي والسلطة المحلية يتلقون أمراً كهذا : « صادروا ذهباً واحجاراً كريمة أو محاصيل أو منسوجات أو بضائع أخرى ، تحت قيادة عضو المجلس العسكري سامتريدزه المكلف باحضار مايتم جمعه إلى موسكو » .

وفي حين كان صراخ وعويل الاغنياء والتجار يطال السماء كانت البضائع ترسل إلى موسكو أو بطرسبورغ ، حيث كان سيدراك وبافلوف ينتظرانها بحفاوة وترحاب . واحياناً كان كفاتشي ينصب الأفخاخ حتى في المحطة . حين يمر قطار كان يقع في شباك كفاتشي الصغيرة . كانت جماعته تطوف بالركاب تفتشهم وتنتزع منهم السلع الممنوعة ، وكثيراً ماكانوا يصادرون السلع غير الممنوعة . كان البكاء والعويل يستمر من الصباح وحتى الصباح في تلك المحطة ، حيث تسمع الشتائم المقذعة واللعنات والتهديدات وصأصأة وشكوى المسافرين المنهوبين . لكن رجال كفاتشي كانوا لايخشون شيئاً طالما ان تلك الدموع واللعنات تتحول في أيديهم إلى ذهب ولم يبد أيّ خطر داهم : كان كل شيء يحترق فيما حولهم ويتهدم ، لذا كانت صأصأة وشكوى المسحوقين لاتسمع في تلك الزوبعة ، تماماً كمواء القطة في زوبعة هوجاء .

ــ كفاتشي كفى ! ــ كان بيسو ينذره أحياناً .

ــ آه انتظر قليلاً أيضاً ! يهدىء المستهتر كفاتشي صديقه الخائف ويستمر في التمزيق والسرقة والنهب .

ذات مرة قام كفاتشي بنفسه بتفتيش أحد القطارات . كانت في

أحدى العربات مجموعة من الرفاق الحقيقيين المدججين بالسلاح ، وكان يجلس بينهم ايفان ايفانيتش — القصير البصير الذاهل والكثير النسيان.. خاف كفاتشي ،حدق كل منهما بالآخر.. فهم كفاتشي بلمحة بصر ان ايفان ايفانيتش لم يعرفه .

— أيها الرفاق — سأل كفاتشي بلباقة وصوت قوي — ألديكم حاجات ممنوعة أو فائضة ؟

— لاشيء — قال أحدهم — لدينا القليل من الكونياك ، لكن . .

كان الرفاق قد تناولوا طعام الغداء ، أمامهم الخبز الأسود والخيار المخلل والسمك والبطاطا الباردة ، وثمة زجاجة من الكونياك .

— هاتوا هذه الزجاجة — قال كفاتشي ذلك ومدّ يده باتجاهها .

— أيها الرفاق ! نحن لم نشرب بعد — قال الأول مسترحماً .

— لاتكن قاسياً هكذا — رجاه الثاني .

— تفضلوا — قال الثالث ومد الزجاجة — القانون هو القانون ونحن ننصاع له !

— مرحى أيها الرفيق — قال الرابع — الحقيقة هي الحقيقة فالمرسوم نحن من وضعه وعلينا إذاً ان نخضع له قبل الآخرين .

تابع ايفان ايفانيتش التحديق في وجه كفاتشي ، فرك جبينه وفكر : « يالهي ، اين رأيت هذا الانسان ؟ ! » .

انطلق القطار ، تجادل الرفاق طويلاً حول سلوك كفاتشي ، شتمه البعض والبعض الآخر اعجب بصلابته .

— لقد أخطأنا كثيراً اذ لم نسأل عن اسم عائلته — قال أحدهم — إنسان كهذا صلب ، وصادق يجب ألا يتعفّن هنا .

ـ اعرف هذا الانسان ، اعرف لكن . .تمتم ايفان إيفانيتش ـ لاأتذكر اين ومتى تعرفت عليه ، يبدو . . .

وظل يفرك جبينه إلى أن وصل إلى موسكو ، حيث تذكر حين شارف القطار على الوصول إلى موسكو ، قفز ايفان ايفانتش وضرب جبينه وصرخ :

ـ تذكرت !

ـ أي شيء ؟ ماذا حدث ؟ ـ سأله زملاؤه .

ـ تذكرت ! احضروا ورقة بسرعة . ابعثوا برقية ، اقبضوا على ذاك القذر وإلا سيقلب البلاد رأساً على عقب ، أسرعوا ! .

ـ ايفان ايفانيتش ! من سيقلب ؟ أي شخص يجب اعتقاله ؟

ـ هو ، هو الذي أخذ الكونياك . يدعى كفاتشا نتيرادزه له ثلاثة أو أربعة اسماء :

كفاتشي ، ابولون ، نابليون و . . الشيطان يدري ! أسرعوا اعطوني ورقة. تذكرت ! لكن تذكرت متأخراً .

« عن كارابيت شولافريانتس »

بعد عشر دقائق كتب ايفان ايفانيتش برقية مرعبة . لكن بيسو شيكيا كان يقف وراءه . قرأ تلك البرقية، ثم ابتسم ابتسامة خفية أرسل بعدها برقيتين إلى صديقيه بافلوف ولادي ثم استقل القطار التالي حيث كان كفاتشي وزمرته في انتظاره وقال لكفاتشي :

ـ لقد تذكرك ايفان ايفانيتش بصعوبة وأرسل برقية باعتقالنا . لقد قرأتها منذ فترة وجيزة .

— ها ، ها ! — ضحك كفاتشي — لقد تأخر صاحبي ايفان ايفاييش تأخر ! فليبحثوا عني الآن . سيدراك اقرأ هذه الورقة ، ثم قل هل سيلحق بنا رجال الأمن .

قرأ سيدراك وثيقة طويلة جاء فيها : « إلى كارابيت ميناسيتش شولافريان ورفاقه / ذكر عشرة أسماء منهم / يطلب اليكم القبض على المخرب وعدو الثورة المشهور كفاتشي كفاتشا نتيرادزه . اسمه أيضاً « اينبوديست » و « ابولون » و « نابليون » و « بافل سامتريديدزه ».

— ياه ، ياه ! — فغر سيدراك فمه . يعني انك الآن تلاحق نفسك ؟

يلاحق كفاتشي كفاتشا نتيرادزه نفسه . بعد ان يصل إلى بلد ما أو محطة كان يفتح أمام أصحاب السلطة الوثيقة الطويلة ويسأل :

— ألا يوجد هذا الانسان / كفاتشي كفاتشا نتيرادزه / في مكان قريب ؟

ثم يطلب سكناً وهاتفاً وسيارة ويبدأ بالبحث عن ثغرة بعدما أصبحت الطرق مغلقة . تحولت « روستوف » وبقية المدن من البيض إلى الحمر ، فعاد مرة أخرى إلى البيض . رقص الكارديل (١) الدامي لم ينته بعد .

سرعان ماهاجم كفاتشي نفسه . لكن رجال الأمن تعقبوه . تارة كانوا يتقدمونه وتارة أخرى يسيرون في اثره . استخدم كفاتشي عشرات الأساليب وجهز بينو مرة أخرى عشرات المراسيم والوثائق . نادراً ماكانوا يجتمعون . كانوا يريدون اختراق الجبهة ولو لعدة خطوات ، لكنهم كانوا يصطدمون بالأفخاخ في كل مكان .

---

(١) الكاديل : رقصة جماعية ينتظم الأفراد الذين يؤدونها في صفين متساويين ، يقترب الصفان من بعضهما تارة ثم يبتعدان بحيث يتبادل الصفان الأمكنة .

ذات مرة قال جليل لكفاتشي :

ــ أيها الأفندي ! لقد رأى جليل الليلة حلماً مزعجاً . لقد سبحت بالدماء ، أخشى ان يعتقلوك .

ــ لاتخف ياجليل ــ قال كفاتشي مهدئاً ــ فالله حامينا .

وكان الله الى جانبهم فعلاً ، لكنه أغمض عينيه لدقيقة واحدة .

وكبا كفاتشي فجأة في أحد البيوت الفلاحية حين كانوا على وشك اجتياز احدى الثغرات .

صرخ رفاقه :

ــ كفاتشي انهض ، انهض سريعاً .

وانتصب كفاتشي في لحظة .

ــ لقد هلكنا ! لقد هلكنا هذه المرة ــ صرخ تشيبونتيرادزه وهو ينتف شعره ، لقد وجدونا !

ــ ماالخبر ؟ ماذا حدث ؟

ــ انهم قادمون ، قادمون !

ــ من ؟ من أين ؟ ؟ كم عددهم ؟

ــ أربعون فارساً على الأقل يزحفون عبر الوديان وعشرة أشخاص يلتفون من جهة اليسار .

ــ حسناً ، هيا اخرجوا إلى فناء الدار وإلا سيكون هذا القفص قبراً حقيقياً لنا ــ صرخ كفاتشي ، وقفز من البيت . تلفت فيما حوله ، وفي لحظة قدر الموقف : ــ حسناً أيها الأصدقاء ، لقد حان وقت المسؤولية . خير لنا ان نموت في المعركة من ان نعدم بالرصاص . بافلوف تستر انت وبيكاريف ولادي وراء هذا الحائط واحموا هذا الطريق الذي لايمكنهم تجاوزه . خذوا رشاشاً واحداً . البقية هيا ورائي ! حافظوا على الطلقات ، لاتتسرعوا !

تمركز ثلاثة خلف الجدار المهدم واختبأ البقية في كمين أمام المدخل راصدين السهل المكشوف والمسيل الواسع .

توقفت أحصنة الحمير عند المسيل ، وتقدم الجنود عبر الطريق الضيق متسللين بخطى بطيئة .

— سبع وعشرون . ثمان وعشرون أحصاهم كفاتشي — مجموعهم اثنان وثلاثون ونحن ستة .

— تسعة — قال غابو .

— أنا لاأحسب اولئك الثلاثة ، فلهم عدوهم الخاص ، فيما لو تمكنا من الصمود حتى الظلام سيسهل بعدئذ كل شيء . حسناً غابو ، أجلس وراء الرشاش ، فأنت تجيد الرماية به .

— لقد انتهينا ، كفاتشي ! — فحّ تشيبيي .

— صمتاً ، كيوفا أوغلي ! — أرغم جليل « تشيبيي » على الصمت .

— واخ ، ماذا حل بي؟ — غمغم سيدراك وقد اصطكت اسنانه — من المؤكد انني اصبت بالبرد ، فالسلاح يهتز في يدي .

— لاتتجمعوا ! — خاطب كفاتشي رفاقه — تفرقوا ، اتركوا مسافة عشر خطوات بين الواحد والآخر .

انبطح جليل على يمين كفاتشي وتشخوبيشفيلي على يساره ، وتمركز بيسو في جناح وجلس سيدراك القرفصاء في الجناح الآخر .

توقف الحمر واخذوا أماكنهم في الكمين . تقدم قائدهم وصرخ :

— أي . . ي ! كفاتشا نتيراهزه أيها اللص ، استسلم !

ابتسم كفاتشي . وسيدد ، ثم دوت طلقة . لوّح الأحمر بيديه ، قذف بالسلاح جانباً ، وسقط على ظهره ... وفي تلك الدقيقة لعلعت

أفواه ثلاثين بندقية من أطراف المسيل وكأنها تنثر الحمص فوق فناء البيت وبدأت معركة لاهبة عنيفة .

– لاتطلقوا النار عشوائياً – كان كفاتشي يأمر زمرته من وقت لآخر – صوّبوا ، اطلقوا النار ، اقتلوا !

– آي ، كيوفا اوغلي دونغوس كيرميز شيطان ! شيطان أحمر !

– تمتم جليل .

– جندلت شخصاً آخر – قال تشخوبيشفيلي فرحاً – الصعوبة تكمن في البداية .

– أوي ! – سمع فجأة عن يمينه .

التفت كفاتشي . كان سيدراك منكباً على وجهه وقد دس وجهه في الثلج وبدا وكأنه يسرق الثلج بيد واحدة . أحنى تشيبي رأسه وأطلق النار بشدة في السماء .

– تشيبي ! – صرخ كفاتشي – على من تطلق النار ؟ إلى أين تطلق النار ؟ انتصب ، صوّب ! احنى تشيبي رأسه أكثر ، وفي تلك اللحظة أصدر أنيناً ثم سقط على ظهره .

– جليل ! – صرخ كفاتشي – انزع السلاح والطلقات منها وآتني بها . لقد حمي سلاحي حتى اصبح يحرق يدي .

نهض الحمر فجأة وركضوا صائحين « هورا » !

حسناً ياكفاتشي ! تشجع لاترتجف ! لاتحوّل ظهرك لعدوك وإلا هلكت انت واصدقاك ومغانمك .

– هيا أيها الأصدقاء – صرخ كفاتشي وقد اشتعل حماسة – اذبحوا ، صوّبوا ، اطلقوا النار .

— كا — كا — كاكا — قرق الرشاش كالدجاجة بين يدي غابو .

— تراخ — تا — راخ : استراخ — تراخ ! دوت الأسلحة الخمسة .

مرة أخرى تسللت إلى قلبه جراء «ديمير — تيبي » حيث سحرته الجراء دون ان يفهم سبباً لسعارها .

وهو الآن يدافع عن حياته بتصميم وهدوء . لا ، لن يموت كفاتشي الآن ، لن يموت دونما رحمة في قرية اوكراينية نائية ! لن يموت كيفاتشي مالم يعانق سليبسترو وبوبي ، مالم يجر في كوتايسي وتفليس ، سامغوري ومشتائد ، فيرمي ومتاتسميندي . لن يموت مالم يقلب رأساً على عقب مطعمي « يريمو » و « لايتادزي » في كوتايسي ويلعب « الباكارا (١) » في نادي جورجيا ويثير الجميع بحيث يذكرون اسم كفاتشي لمدة عشرة أعوام .

إنقطع هتاف « هورا » فيما حول السور . انكفأ الحمر فجأة وهربوا تاركين على التل عشرات القتلى والجرحى . وفي نفس الوقت انقطع دوي الرصاص . تطلع كفاتشي فيما حوله . كان غابو قد سقط ميتاً فوق سلاحه حاضناً بيديه سلاحه اللامع كما لو كان يحتضن عشيقته . واستند بيسو شيكيا إلى الحائط وقد اختفى لونه وأصبح كلون الثلج ، يضمد رجله المجروحة . لاأثر ا « تشيبي » .

— جليل ! ساعد بيسو .

وجرى كفاتشي نحو بافلوف . كان لادي ملقى على ظهره ، وضع كفاتشي اذنه على صدره ، تفحص جراحه . كان ميتاً وكان بيكاريف منطرحاً ووجهه في الأرض . كان أيضاً ميتاً . ركض كفاتشي نحو

(١) أحدى لعب القمار الحماسية .

بافلوف . كان يتنفس ويئن . حي ، حي ! حمله كفاتشي إلى البيت الريفي وضمد جراحه .

اقتاد جليل بيسو وصرخ :

— الله ، الله ! لقد ولى الشياطين الحمر ياكفاتشي بيك . لقد انتصرنا !

كان بيسو يصعر خده من الألم ، وجلس كفاتشي منكساً رأسه وراح يبكي اصدقاءه الميتين . لقد نسي نشوة النصر ، اذ فقد خمسة من رفاقه المخلصين الذين ترعرع معهم .

لن يعودوا إلى أهاليهم وأقربائهم واصدقائهم . مسكين لادي ! مسكين تشيبي ! مسكين سيدراك ! بيكاريف ! غابو ! انتهى كل شيء بالنسبة إليهم ولقد انتهوا بالنسبة للآخرين .

لم يعد بامكان غابو وسيدراك ان يقيما المآدب تحت شجرة الجوز ، أو ان يسبحا في مياه « لياخفا » و « ألازاني » النظيفة أو أن يعانقا النساء ذوات العيون البراقة ، أو ان يتلذذا بالجبن الطيب وبالنبيذ الكاخيتيني وتشاخوخبيلي وتشيخير تماوتشكيا والشاشليك (١) . مازال آباؤهم وامهاتهم ينتظرون قدومهم بفارغ الصبر ويكتبون الرسائل اليهم بعيون باكية .

— جليل ! — قال كفاتشي متنهداً — إذهب إلى القرية وأدع مايقارب العشرة من الفلاحين كي يفتحوا قبراً . وخرج أيضاً كفاتشي ليلقي نظرة أخرى على القتلى . نظر إليهم وعندئذ فقط تذكر انه منذ

(١) أسماء أطعمة جورجية معروفة حتى الآن — المترجمان

فترة لم يلحظ تشيبي . في حمأة الهجوم سقط تشيبي كالميت أو كأنه أصيب بجراح خطيرة . تفحص المكان الذي سقط فيه تشيبي، فلم يجد أثراً لقطرة من الدم .

كانت ترى آثار أقدام في الثلج ، لعله اختبأ في مكان ما .

— تشيبي ، أين انت ؟ تشيبي !

لاجواب . وفجأة تحركت دودة الشك لدى كفاتشي ، طار في مثل لمح البصر إلى البيت الريفي واندفع نحو المجوهرات . كان كل شيء منبوشاً ولا أثر للكنز . أثناء فتح القبر كان كفاتشي يتميز غيظاً .

— أوخ . يالك من حاجد مخادع ، خائن . عار على كفاتشي ان لم تبك املك على قبرك .

— دونغوز — زمجر جليل — ليس انساناً ، بل كلب !

فجأة اقتحمت كتيبة من البيض القرية . عندئذ فقط فهم كفاتشي سبب تراجع الحمر .

لقد شاهدوا من بعيد كتيبة كبيرة تقترب . فتساءلوا حذرين :

— ماهذا ؟ ماذا حدث — سأل الضابط قائد القوزاق .

— نحارب في سبيل القيصر وفي سبيل روسيا العظمى — أجاب الأبن الوحيد لـ « سلبيسترو » باعتزاز واستطال وعظم كسابق عهده .

« كيف رجع كفاتشي إلى وطنه حاملاً معه تابوتاً »

في اليوم التالي قص كفاتشي على قائد البيض بالتفصيل عن مغامراته . أحيل الأربعة إلى إحدى المدن الصغيرة وأدخلوا المستشفى . شفي كفاتشي وجليل بعد اسبوع وانتقلا إلى الفندق ، أما الجريحان بافلوف وبيسو فقد أمضيا وقتاً أطول في المشفى .

· كان كفاتشي يندب باستمرار أمله الضائع ، ويردد أسم تشيبي كثيراً وهو يقول :

— بيسو ، جليل ! تذكرا كلمتي : اقسم بالله وبشرفي انني لن استكين مالم أجعل أم تشيبي تبكي على قبر ابنها .

ومرت الأيام . شفي أيضاً بيسو وبافلوف ، وخرجا من المشفى وسافر الأربعة إلى أوديسا .

تذكر كفاتشي ماضيه البعيد في الحال وأيام الشباب الحلوة والعامين الخاليين من الهموم .

تذكر « خوفشتين » ، « ريفيكا » ، « اسحق » ، « سيدوروف » وابنته فيرا والكثير من معارفه واصدقائه آنذاك .

هذه الذكريات ارغمت كفاتشي ان يطوف على كافة أرجاء المدينة ويشتم ويزن الأمور . لكنه لم يكن يشعر بالحرية . كان يمشي محني الرأس ، شارداً ، اذ لم تعد لديه أموال تكفي ليقتات غذاء يومه .

وعندما فقد كفاتشي وعيه من الافلاس جلس بيسو بجانبه وأخرج من جيبه منديلاً وفتحه فاستضاءت الغرفة وبيسو وكفاتشي . كانت عشر ألماسات تتلألأ في راحة بيسو ، الواحدة منها بحجم بيضة الدوري.

— لقد احتفظت بهذا الكنز لمثل هذا اليوم . خذها ستنفعنا — قال بيسو .

— بيسو ، بيسيك ! — قال كفاتشي ذلك وعانق صديقه . لو لم أكن كفاتشي لتمنيت أن أكون بيسو ، بيسيا !

وبكى كالأطفال من الفرح ونشر جناحيه.اثار جلبة في الفندق ثم دار

على كافة المطاعم . وعندما سكن زار قائد البيض في تلك المنطقة وأجرى معه حديثاً كالتالي :

— الحمر اعداؤنا المشتركون . اليوم يمارسون التعسف عليكم ، وغداً سيأتي دور جورجيا . نحن حلفاء بحكم الطبيعة .

— حقاً ، أكد الحليف .

— انتم تحتاجون للجنود والضباط والكيروسين والبنزين وآلاف الأشياء الأخرى ، ونحن نريد الدقيق والمنتوجات . يعني . .

استوضح ذاك القائد كل شيء عن شخصية كفاتشي ، ثم اتفق معه في اليوم الثالث .

ريثما استعاد بيسو صحته تماماً أمضى كفاتشي يومه وليله خارج البيت . تنفس بحرية ، استراح في المطاعم واستمتع بالجلوس في المقاهي وجمع المعلومات من معارفه القدامى .

المفتش مازال مفتشاً ، والقبطان سيدروف مازال قبطاناً وابنته فيرا . . آه كم هو صعب لمس الجرح القديم !

ذات مساء شاهد كفاتشي امرأة تلبس ثياب ممرضة فعرف فيها صديقته السابقة « فيرا » الشقراء المائلة للسمنة والقصر ، وكان يمشي بجانب فيرا صبي في حوالي العاشرة من عمره ابن كفاتشي ! نسخة طبق الأصل عنه !

آنذاك ، ومنذ عشر سنوات تساءل طلبة أوديسا : من هو ابو الطفل؟ لم يتمكنوا حينئذ من حل هذا اللغز . لكن كفاتشي كان يعلم في ذلك الحين ، كما يعلم الآن ، ان هذا الصبي الأسمر من دمه وهو ثمرته .

اشتعل وجهه حرارة وتدفقت الدماء إلى رأسه : طأطأ رأسه بسرعة وهرب داخلاً إلى المخزن .

مرت عدة أيام . استعد الأصدقاء للسفر . كان كفاتشي وحيداً في غرفته . فجأة ظهرت رأس تشيبي ويد جليل بالباب . قاوم تشيبي متمسكاً بالباب ، لكن اليد الممسكة به من رقبته دفعته حتى وسط الغرفة . دخل جليل في إثره .

اغلق الباب بهدوء وقال بالهدوء نفسه :

— كفاتشي آغا ! لقد سقت إليك تشيبي . لقد اقسمت فاعمل عملك الآن !

— تشيبي ! — عوى كفاتشي واندفع اليه بقفزتين .

— كفاتشي ! — فحّ تشيبي وارتجف كورقة خريف — أنا . . أنا مذنب .. لكن لم يبق شي . أقسم بالله لم يبق شي .. اخذوها كلها . . أنا . . أنت . . أنا . .

— أنا أعلم دون شك انهم أخذوها . لكن يبقى تشيبي كلباً ولذلك . . — قال جليل معقباً وشمرّ عن ساعديه .

واندفعت يدا كفاتشي الحديديتان والتفتا حول رقبة تشيبي . وفي الدقيقة نفسها قفز جليل إليه . بعد خمس دقائق ابتعد الاثنان عن تشيبي الذي استلقى جثة هامدة على الأرض مخنوقاً ، جاحظ العينين

— جليل ، هيا ، لفه .

— يجب ان نأخذه إلى « غوزرجيستان » — قال جليل — لقد أقسمت بالله ان تجعل امه تبكي على قبره لذا . .

— اعرف . لفّه ، يجب نقله لأمه .

بعد يومين صعد جليل وكفاتشي إلى ظهر الباخرة « بوشكين » التي كانت تتجه إلى جورجيا .

تجاهل القبطان سيدوروف وكفاتشي بعضهما، وكأنما لايعرف أحدهما الآخر . كان على بافل بعد شفائه ان يسافر إلى تفليس . هكذا اتفق كفاتشي مع القائد الأبيض . مرّ أسبوع آخر ورست السفينة في باطوم .. تذكر كفاتشي تلك الليلة منذ نيف وعشرين عاماً ، عندما وقف كفاتشي الشاب في مقدمة السفينة قاصداً الشمال . أي شيء لم يره خلال هذه السنوات العشرين ! كم من البلدان زار ؟ ! كم مرة امسك بقدره الكريم وافلته ! انه فارس لايهزم ! عشر مرّات بل عشرين مرة كان يمكنه ان يمتطي حصان النصر حاملاً الراية ويعود بمهابة وصخب إلى بلدته الصغيرة الفقيرة حيث كان بامكانه ان يتصدر ويتربع بسهولة .

لكنه فضل المكان الثاني بين الغرباء ، فضل مصارعة المخاطر الدائمة والجري وراء الظلال الجديدة والجديدة . آه لماذا لم يوافق كفاتشي منذ خمسة أعوام على اقتراح المسكينين غابو وسيدراك ؟ ! لماذا لم يوقف آنذاك مصيره الجامح ؟ ! لماذا لم يرجع آنذاك غنياً معافى إلى موطنه الصغير ؟ ! من يدري كيف كان يمكن ان تتحول عجلة حياته وبقية اصدقائه الذين هم الآن في صقيع . . . بعيداً في أحد الحقول . . . مستلقون تحت التربة السوداء .

لكنه يعود الآن متراخياً مخزياً خاوياً إلى والديه العجوزين اللذين لايملكان شيئاً . منذ عشرين عاماً عندما كان لكفاتشي جناحان ، خاض هذا البحر وابتسمت نجمة الصباح له وبشرته بالنصر . وهي

الآن خافتة اللمعان والضياء ، يتألم قلب كفاتشي لسبب خفي ، تنخر دودة العار نفس الولد الفاسق الذي اضاع شبابه وقواه هناك في امكنة شتى ، والآن فقط تذكر حاضنته ــ الأرض التي ربته وانشأته .

ــ كفاتشي مابك ؟ ــ تساءل بيسو بعد ان شاهد في ضوء القمر جبين كفاتشي المقطب وشفتيه المرتعشتين .

ــ لاشيء ــ قال كفاتشي بصوت مرتجف ــ فلنذهب لحزم الأمتعة .

أراد كفاتشي ان يسافر أولاً إلى موطنه كوتايسي ليرى أهله . لكنه علم صباحاً في الفندق ان سليبسترو قد اشترى بيتاً جميلاً في تفليس وانتقل إلى العاصمة بشكل نهائي .

ــ لعله اشترى هذا البيت بتلك الأموال التي اعطيتها له عند سفره من بطرسبورغ ــ قال كفاتشي والتفت نحو جليل ــ جليل جهز الأغراض ، سنسافر غداً إلى المدينة .

حزم جليل الأمتعة ، ثم وقف أمام كفاتشي متباطئاً وقال بابتسامة :

ــ آغا ، يريد جليل ان يسافر لفترة قصيرة .

ــ إلى أين ياجليل ؟ إلى أين تسافر ؟

ــ لقد شاهدت أحد أصدقائي . إنه هنا وهو مسافر إلى ستامبول وأنا أريد أيضاً ان اسافر . اريد ان ارحل قليلاً واجرب حظي ثم اعود إليكم .

ــ بيسو ، سنبقى وحيدين ــ ثم التفت نحو جليل ــ بدونك ستكون حالتي صعبة لكن طالما فكرت . . سافر ياجليل برعاية الله .

– تشوخ ساغول آغا تشوخ زازمام . كان الله في عونك . سلامات أيها الأمير ، سأجدك قريباً . سأمضي الآن ، سلامات !

قبلوا بعضهم بعضاً ثم افترقوا .

أرسل كفاتشي ليلاً تشيبي المحشور في التابوت إلى أهله الذين انتقلوا إلى باطوم . وذهب في اليوم التالي لحضور دفنه .

– كفاتشي لاتذهب – نصحه بيسو بارتباك .

– عليّ ان انفذ القسم حتّى النهاية يابيسو – أجاب كفاتشي ببرود – يجب ان أرى بكاء أمه .

ذهب ورأى . كان والداه العجوزان لايقويان على الوقوف على أقدامهما . وصل عويل أمه إلى السماء ، أما أبوه فكان يتمتم بكلام غير مفهوم .

– لقد خنقه قطاع الطرق – قال كفاتشي لأهل تشيبي – وجدت جثته بصعوبة فحملتها إليكم .

بعد ان انتهت مراسم الدفن بدأ كفاتشي خطبته وكانت أول خطبة له في جورجيا الجديدة .

– عزيزي تشيبي – خاطب كفاتشي صديقه – لقد كنت دائماً جورجياً ، قلباً وروحاً. كنت جورجياً وناضلت من أجل وطنك ، وفي ذلك النضال تحول قلبك الواسع وحياتك الصعبة إلى رماد .

لكن ذكراك المقدسة ستبقى خالدة في قلوب أصدقائك وشعبك وسيكتب وطنك الحافظ للجميل اسمك الطاهر في سجل الخالدين

بحروف من ذهب وسيجعل من ميتتك البطولية مثالاً يحتذى به للأجيال المقبلة . واختتم حديثه بالنشيج .

في ذلك اليوم طاف كفاتشي ارجاء باطوم . التقى اصدقاءه القدامى واكتسب آخرين جدداً . وفي صباح اليوم التالي دخل مقصورته وفتح الجريدة ، قرأ مقالة تأبين تشبيي وتصفح الكلمة التي ألقاها .

لقد غالى بيسو قليلاً حين كتب : لقد حمل كفاتشي المخاص جثة تشبيي من كييف إلى أوديسا على ظهره على الزلاقة في أوج الشتاء .

حقاً لقد كان بيسو شيكيا رجلاً رشيقاً .

القسم السابع

كيف نشر كفاتشي جناحيه على الأرض

كلما توغل القطار أكثر في قلب جورجيا كلما ازداد كفاتشي اضطراباً وقلقاً .

ـــ هاهي « ناتانيبي » . . « ساجافاخو » . . « سامتريديا » موطني . يزداد قلبي خفقاناً وكأني قادم إلى عشيقتي بعد فراق طويل .

غادر كفاتشي القطار في سامتريديا . طاف المحطة ورأى عشرات المسنين الذين يعرفهم

ـــ مرحباً ، بونلو . . تحياتي دزابوني . . كيف حالك ايسيدر ؟... أنا ؟ . . ها ، لقد عدت ، عدت نهائياً . أنا أيضاً أريد ان أعمل من أجل جورجيا . أنا مسافر الآن إلى المدينة ، لكن سأعود حالاً للقاء أهالي سامتريديا وكوتايسي . تحياتي للجميع حسناً ، إلى اللقاء . وقفز إلى عربة القطار الذي انطلق . وبعد فترة اضطرب :

ـــ بيسو ، هذه هي منطقتنا ! هي ذي كوتايسي . يقولون أنها أصبحت خاوية . هاجر كل سكانها إلى تفليس . بقي فيها « بريمو » « لايتادزي » ، واليهودي دانييل . كم هو جميل شعب جورجيا ! وكم هي جميلة البلاد الجورجية . في كل دقيقة كان يردد كلمة جورجي أو جورجيا مظهراً انه كان ابن عصره ويكن لوطنه كل الاحترام .

ساد الظلام . لاحظ كفاتشي من بعيد أنوار تفليس فازداد اضطراباً. لم يشعر أبداً في أي زمان أو مكان بمثل هذا الاضطراب . اضطراب القلب والنفس .

جرى على رصيف المحطة مسرعاً . جلس كفاتشي في عربة مكشوفة وصاح كطفل فرح :

— إلى سولولاكي (١) أمام سر !

بدت لكفاتشي العاصمة تفليس بعد المدن الروسية كمدينة باريس . الشوارع المضاءة بسطوع تغص بالناس . في كل مكان ضجة وثرثرة مرحة .

ويشمخ جبل القديس « داؤد » كقنديل جبار في بحر من الأنوار يرصعه تاج من النجوم الكهربائية .

اجتازا شوارع « كوكوا » (٢) الطويلة وجسر فيرسكي . صعدا ثم دخلا شارع روستافيلي (٣) . المشجر . لم يستطع كفاتشي ان يتمالك نفسه :

— بيسو ، أنظر ، هوذا فندق « نوح » وهذا هو « دار الشعب » . هذا هو نهر الكورا ، هذه دار الأوبرا . . « الدراما » . . « كاشويتي » ، وهذا هو فندقي « أورينت » ، وهذا هو القصر . . المتحف ! أصبح كل شيء لنا الآن بيسو ، لنا !

بعد عشر دقائق دخل كفاتشي بيته مندفعاً كالمجنون ، وكاد ان يخنق أهله الذين صرخوا من الفرح — سلبيسترو ، بوبي، خوخو، نوتيو الذين كانوا يبكون تارة ويضحكون تارة أخرى ، يدورون كمن

---

(١) (٢) (٣) : أسماء قديمة في مدينة تفليس .

أضاع طريقه من شدة الفرحة وتارة يقفون مبهوتين ، وراحوا يصخبون ويكثرون من الحركة .

« الخطوات الأولى »

في اليوم التالي زار كفاتشي الوزراء وممثلي السلطة .

— أقدم نفسي : أنا كفاتشي كفاتشانتيرادزه القادم تواً من الجحيم الأحمر . يبدو أن الضجة التي أثيرت حوله قد وصلت من الشمال البعيد إلى جورجيا نفسها . لكن أصواتاً فضية رنانة كانت قد زينت تلك الضجة . وعاد اسم كفاتشي إلى جورجيا نظيفاً لامعاً بعد ان كان ملطخاً بعض الشيء في روسيا البعيدة .

في حين كان كفاتشي يتمتع بدلال أهله وحبهم ويتعرف على أصحاب السلطة كان بيسو شيكيا الرشيق يطوف أرجاء المدينة ويردد اسم كفاتشي دون كلل أو ملل .

اجتاح خبر قدوم كفاتشي مدينة تفليس كالبرق ، صار الجميع يتحدثون عن مجيئه . تناقلت الجماهير مايشبه هذه الأحاديث :

— أعرفت الأخبار ؟ — يسأل أحدهم الآخر في الشارع أو النادي أو المسرح أو المطعم — لقد عاد كفاتشي كفاتشا نتيرادزه من السفر !

— أحقاً ياعزيزي ؟ ! الحمد لله !

ويشتعل النقاش بين هذه الجماهير :

— يبدو ان لديه في مصارف أوروبا أربعين مليوناً من الأموال المنقولة — قال أحدهم .

— بل مائة وأربعون — قال آخر مصححاً .

— يبدو انه سيحول هذه الأموال إلى هنا ويضعها في التداول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— سأقول بشكل دقيق . سيقرض الدولة عشرين مليوناً لدعم الأوراق النقدية ، وسينفق عشرين مليوناً على طرق المواصلات وأربعين مليوناً على كهربة البلاد وعشرين لاقامة المعامل وعشرة لرواتب الموظفين وأربعين على قطعات الجيش . صدقوني لقد علمت هذا من مصدر موثوق .

ويتكرر نفس الحديث في مكان آخر ثم يتذكرون ماضي كفاتشي :

— لقد أنقذ كفاتشي روسيا من المصير الحالي منذ عشرة أعوام خلت ، اذ اراد القيصر التنازل عن العرش ، ولم يستطع أحد ثنيه عن عزمه . أخيراً تولى كفاتشي هذا الأمر وبقي القيصر على العرش .

— خلال أسبوع واحد استطاع كفاتشي ان يقلب بورصة لندن وباريس رأساً على عقب !

— أسر « أنور باشا » كل جنود الروسيا ، لكن كفاتشي مع حفنة من الجورجيين قلب الأمر رأساً على عقب ، أسر الجنود الأتراك وكاد ان يمسك بـ « انور باشا » نفسه .

— أي شيء هذا ؟ ماذكرتموه لاشيء .لقد اتضح أن أمريكا ارسلت إلى روسيا سفناً من الأسلحة فدمرتها المانيا ، لكن كفاتشي أخذ الأمر على عاتقه ووصلت اربعون باخرة سليمة .

— يقال انه رأسمالي نابغة !

— ليس نابغة بل عبقري ، عبقري زمانه

— يبدو ان البلاشفة ارغموه على العمل . اغتاظ كفاتشي وقام بأعمال كادت ان تؤدي إلى سقوط حكومة موسكو ، عرفوه ، إلا أنه عرف هو أيضاً فهرب ..

سار معه خمسمائة رجل مسلح ، ثم ازدادت كتيبته حتى وصل عدد أفرادها إلى خمسة آلاف .

شقوا طريقهم بالمدافع . استردوا كييف وخاركوف وروستوف ثلاث أو خمس مرات من الحمر . ثم سار باتجاه موسكو إلا أنه لم يتفق مع دينيكين . كان ذاك ملكياً وكان كفاتشي جمهورياً خالصاً كالماء القراح . اذا كان الأمر كذلك — قال كفاتشي — فليذهب إلى الشيطان البيض والحمر !

تراجع ، ثم سافر . لقد حطم البيض والحمر واستولى بالقوة على أوديسا واقتاد خمس عشرة سفينة ترسو الآن في باطوم .

— يبدو ان تلك السفن محملة بالدقيق والسلاح . لقد تبرع بها إلى جورجيا .

— يعني سيكون عندنا قريباً خبز أبيض !

واشتعلت نار تلك الآمال واجتاحت كل القوقاز وبينما كان بيسو ينفخ تلك النار ، كان كفاتشي يسيطر على عقول رجال السلطة متحدثاً عن البيض والحمر .

— لقد هلكت روسيا أيها السادة ، هلكت ! هذه البلاد لايستطيع المسيح الإله بذاته ان ينقذها . روسيا الحمراء عقاب من الله علينا وروسيا البيضاء لعنة .

أكان كفاتشي يعتقد بهلاك روسيا ؟ لا لم يعتقد . « حتى ولو كان بامكان روسيا هز ذيلها كان ذلك كافياً لنا » — قال كفاتشي ذلك لنفسه ، اذ لم يكن بمقدوره ان يجهر به خوفاً من ان يعتبر عميلاً أحمر وتفشل كل خططه .

طاف كفاتشي وبيسو في المدينة مساء .

كان النادي الجورجي قد أقام أمسية خيرية . وزع كفاتشي الهبات فيها بسخاء وفي مقهى « سلوان الأخوان » استطاع كفاتشي ان يستميل إلى صفه العاملين الشباب – المثقفين والنبلاء – بحديثه الأخوي وسلوكه الشهم .

وفي « الخيال العجيب » حضر أمسية شعرية لعدد من الشعراء الذين استقبلوه بالقرون المليئة بالخمرة وبمقطوعات شعرية .

تبادلوا الكلمات المعسولة والمديح المرصع والابتسامات العريضة . هم فعلاً لايعرفون بعضهم كما يجب ، إلا ان شهرة ومجد الفارس الجورجي قد وصل من بعيد إلى اسماعهم الشاعرية الدقيقة الحساسية . ألفوا خمس موشحات هناك، ثم قرؤوها أمامه بأصوات عالية وهم يرتفعون باجسادهم نحو الأعلى ويمدون اجسامهم عرضاً ، وباغتوا باشعارهم وبمدائحهم المعلم كفاتشي حتى أنه فكر بابتهاج :

« لقد قدروك ياكفاتشي ، قدّروك ، وتعلّم أنتَ من هؤلاء الشباب الشعراء أنّ الفن الصعب يحقق المتعة » .

حاول كفاتشي مراراً أن يخرج من « القرن المقنطر »،لكن لم يكن النهوض عن مائدة الشعراء والخروج من دائرة القوافي اللذيذة بالأمر السهل . .

وزع كفاتشي الهبات بسخاء ، وكلفه كل سطر من الأسطر ثمن وليمة كاملة .

بزغ الفجر . خرجوا بصعوبة من قبو الاشباح . منْ قاد منْ ؟

من اصطحب من ؟ من رافق من ؟ لم يعد أحد يذكر — لاالشعراء ولا كفاتشي .

في اليوم التالي قرأ كفاتشي في الجرائد مااختلقه بيسو : « عاد إلى جورجيا مواطننا كفاتشي كفاتشا نتيرادزه المختص الشهير بالمالية ، ولقد عايش في الجحيم الأحمر العام الماضي ، أحداثاً عجيبة رهيبة سنفرد لها مقالة خاصة . أما الآن نتمنى لأخينا المجيد الهدوء على صدر أرضه الأم والعمل المثمر لصالح الشعب ولمجد الوطن » . كان يتوقع لتهنئة كهذه جواب مناسب . في نفس اليوم زار كفاتشي هيئة التحرير ، تعرف عليهم وعرفهم بنفسه . ومنذ ذلك اليوم اصبحوا مرتبطين به بأوتار أخوية خفية . كان كفاتشي يلينّها وينظفها بالبلسم من وقت لآخر .

مدّ كفاتشي خلال أسبوع آلاف الخيوط المرئية وغير المرئية . أحاط الأصدقاء القدامى والجدد ، كالذباب ، بكفاتشي المطلي بالعسل . كان الجميع ينظرون إلى عيني كفاتشي وجيوبه منتظرين حدوث معجزة ، وكفاتشي يحوك شباكه بدأب ويذر الرماد في عيون البلاد ويخطو باتجاه السلطة والمال .

اعطاه كورانا شفيلي دروساً في الشؤون الجورجية . وكان بيسو شيكيا يزوده بالمعلومات الصحيحة وينفذ أوامره اليومية . وكان البقية يقومون باخلاص وطواعية بخدمة القضية الكبرى التي يجب ان تنمو وتتحول اليوم أو غداً إلى بقرة حلوب اسطورية .

غيّر كفاتشي اسلوب وطريقة عمله جذرياً . في روسيا الحمراء كان يجري مدهوناً بالفلفل ويثرثر بعناد ، أما هنا فقد أغلق فمه بالمفتاح ونادراً ماكان يخرج إلى الشارع . لكن وبجهود بيسو شيكيا والآخرين

كان ثمة عشرة آلاف شخص يتحدثون عن كفاتشي من الصباح وإلى الصباح .

من سيقدم الخبز الأبيض إلى جورجيا ؟ كفاتشي كفاتشا نتيرادزه . من سيدعم عملتنا النقدية التي تفقد قيمتها يوماً عن يوم ؟ أيضاً كفاتشا نتيرادزه، من سيسوق الثروات المكدسة منذ خمس سنوات من النفط والمنغنيز والصوف والقطن والتبغ وشرانق الحرير والأخشاب والخمر وبقية البضائع الأخرى ؟ كفاتشي ، كفاتشي وحده فقط . في أي بلد من بلدان أوروبا وأمريكا لايوجد صاحب مصرف أو تاجر كبير أو رجل صناعة لايعرف كفاتشي جيداً ويثق به كأخيه . كفاتشي يعرف كل شيء ، كفاتشي يتقن كل شيء ، كفاتشي يقدر على كل شيء! يعيش « قارون جورجيا » في سولولاك، في بيته — الطابق الثاني . أذهبوا إليه وقدموا له ثقتكم وأموالكم وسلعكم. كفاتشي ساحر . تكسب بالروبل عشر روبلات . لاتخجلوا، أقصدوه ، تفضلوا ! في كل يوم تخرج وتدخل بيت كفاتشي المفتوح مختلف السلع . وكان كفاتشي يتحدث طويلاً عن العمل ، لكن بشكل ضبابي . اصبح في جورجيا إنساناً جديداً . يعرف القليل عن الاقتصاد المحلي ، لكنه يعلم جيداً أنه لايجوز اظهار عدم المعرفة . لقد وعد اصحاب السلع ان يبيعها بأسعار مجزية .

صاحب الملك يريد مالاً ، ان يكسب أكثر . لابدّ من تأسيس جمعية تجارية مصرفية لتدوير الأموال وما تبقى سيقوم به السكرتيريون . من أجل ذلك عيّن ثلاثة — أرمنياً وتترياً وجورجياً .

أخيراً جاء إلى المصيدة وحش . كان كفاتشي ينتظر امثاله .

جاءه ذات يوم ضيف انجليزي ــ أحمر الشعر « جون راولينسون ».
انهى جون وكفاتشي عملهما في ساعة واحدة . يتولى جون مسألة
التمويل والادارة ويقوم كفاتشي بمهام شبكة التسويق وتشغيل الأجهزة
والمعدات .

كان كفاتشي وجون لايحبان التسويق . بعد أقل من اسبوعين
كان الطابق العلوي من أحد البيوت في ساحة الحرية قد زينته لافتة
كبيرة مكتوبة بحروف ذهبية : « شركة سيبونيون المحدودة »، وافتتح
في الطابق الأول « المصرف الانجلو ــ قفقازي » .

خلال فترة قصيرة امتلأ القفقاس بـ « السيبونيون » واحتدمت الأمور .
لكن شركة « سيبونيون » لاتشتري البضائع بثمن مقبوض ، هاتوا
صوفكم أو قطنكم أو تبغكم أو نفطكم أو خمركم أو شرانقكم
كدين قصير الأجل . اعتمدوا على « سيبونيون » ، ستنقل الشركة
سلعكم إلى أوروبا ، تبيعه ثم تصفي حسابها معكم .

مالن يشحنون البضائع حتى تمتلىء المستودعات من جديد . مائة
من الموظفين يعملون بسرعة فائقة .

كان جون راولينسون دائم السفر من تفليس إلى باكو ، ومن
باكو إلى لندن . كانت الجرائد تكتب كل يوم : « شحن كفاتشا
تتيرادزه عشرين ألف بود »(١) من الصوف . . باع ستين ألف بود
من التبغ . . استورد مائة ألف بود من الدقيق . . أخذ عهداً على نفسه
بتمتين قدرة الدولة . . تبرع بمائة جنيه استرليني . . سافر . . وصل . .
قال . . صرح . . استقبل . . زار . . اقام حفلة استقبال . . » .

(١) يعادل البود : ١٦,٣٨ كغ .

وسرعان ماحمل بافلوف عقود « البيض » بعد ان شفي ووصل إلى تفليس ، وبدأ عمله . نفذ كفاتشي وعده باخلاص . اعطى بافلوف ثقته وسلمه جهاز الموظفين .

اقتصرت شركة « سيبونيون » على التجارة، فهي تنفذ الطلبات التجارية ، ترسل الضباط والنفط والبنزين والزيت والثياب وآلاف الحاجات الصغيرة والكبيرة . وما شأن كفاتشي إذا كان الجنود البيض يتلقون هذه الحاجات ! ماعلاقته بالسياسة ! فهو يستورد بدلاً منها الدقيق الأبيض وكثيراً من المنتوجات الأخرى التي — في الغالب — لاتفوح منها رائحة الدم ، لا ان يتدخل كفاتشي في السياسة بعد الآن مع أنهم جروّه في نهاية الأمر واستغلوه .

« لامع هذا ، ولا مع ذاك »

اتجه الطماع المجنون ، الثور الأبيض الأعمى ، دينكين ، نحو جورجيا واقتحم « أبخازيا » .

آنذاك كان الصوت الأحمر يكرر نداءه : « أيها الجورجيون ، قفوا معنا ، اتحدوا معنا ، فلنضرب معاً الجنرال الأبيض ولنقذف به إلى البحر الأسود ، هيا ابدؤوا ، أضربوا . . . !

ماذا يفعل كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟ لم يحتمل المكوث في البلاد . ف « كفاتشي » جورجي أيضاً ! إنه ابن جورجيا البار ، إذاً رعاك الله شمرّ عن ساعديك ياكفاتشي ! اشعل في قلبك الالهي نار البطولة ! تذكر أعمالك الأسطورية في تل « ذيمير — تيبي » وفي سهول روسيا الرحبة قرب كييف ، حيث يرقد اصدقاؤك المخلصون رقدتهم الأبدية ! قم بواجبك تجاه وطنك ياكفاتشي ! فأنت لم تستعمل سلاحك منذ

مدة ولم ترق قطرة واحدة من أجل الوطن ، ولم تصرخ مرة واحدة بصوتك القوي :

— ورائي ! صفاً واحداً . . بسرعة ، هيا ، اضرب . . اقطع !

أسرع ياكفاتشي أسرع ! اسرع وإلا ستأتي الموجة البيضاء.ستأتي وتغرق شركتك « سيبونيون » مع وطنك الذي التقيت به بالأمس فقط بفضل قوى خفية . لقد أعجبك هذا الوطن وأحببته،فلماذا تفكر ؟ لماذا تتردد ؟.أسرع ياكفاتشي أسرع ، وإلا . . لماذا تتذبذب كالارجوحة؟ ماالذي يقيد يديك ورجليك ؟ لماذا لاتريد مساعدة الحمر ؟ لماذا تخاف أحضانهم الأنيسة ؟ وكأن عظامك تتكسر ! إذاً قف مع الثور الأبيض المجنون الذي يدعوك . سيقودك وراءه وسيريك كيف تحمرّ وتسود وتبيض موسكو الحمراء !

لاتريد هذا أيضاً ؟ تخشى من يذكر الآثام القديمة ؟ لكن كيف يمكن التفكير بمثل هذا ؟ من هو الآن بلا ذنب ؟ من لديه ماض أشرف من ماضيك ؟ حسناً ، اسرع . . اختر . . وإلا . .

— سيحمل لنا البيض « الآه » والحمر « الايه » :

اهذا قرارك ؟ وماذا تريد ؟ بمن ستلوذ ؟ بـ « أليبون » ؟

— لامع هذا ولا مع ذاك ، أنا اقف جانباً لاأسيء إلى أحد ولا أعادي أحداً . لا مع هذا ولا مع ذاك ! .

كفاتشي ماذا بك ؟ من أغلق حاستك الشهيرة باستشفاف الأمور ؟ من قتل لديك حدسك الصادق ؟ من ، بل أي كابوس أحمق أقنعك بأن أحداً لن يمسك بسوء مالم تسيء إليه ؟ ! من استغلك وجعلك تكتب على الرصيف الذي تتمدد عليه بهدوء ذلك اللغو الطفولي : هنا

ينام حمل وديع دونما سلاح . يرجى عدم إزعاجه . يمنع المرور على هذا الرصيف » .

وإذا لم يقطعوا إلى الجانب الثاني ؟ إذا دفعك أحدهم بيد . أو مرّ فوق رأسك أو اقتحم بيتك ؟ ، ستصيح طبعاً ! ستصرخ ، ستشكو للعالم كله ، حسناً . وبعدئذ من سيدافع عنك ؟ الديمقراطية ؟ فهي لاتملك مسدساً ولا جندياً .. إذاً أملك معقود على صراخ وضوضاء الديمقراطية ؟ جيد جداً . لكن كيف لم تفهم حتى الآن ان عشرة ملايين جرعة منها لن تفيد أكثر من لن تجفل الغربان والعقاعق ؟ ألم تدرك شيئاً ؟ ألم تقرر السير في طريق الحمر والبيض ؟ حسناً تمسك بأطراف ثوب « ألبيون » . لاتريد هذا أيضاً ؟ ! تخشى الضجة الديمقراطية ؟

— لامع هذا ، ولا مع ذاك ! — مرة أخرى ردد الببغاء .

— كفاتشي ممن تخاف ؟ ممن تخجل ؟ سيفصلونك من الحزب ويستخرجون من فمك زبلا غنيا ؟ تخشى هذا ، لذا ملأت فمك ماء ؟ جيد جداً .

مرة أخرى صد « ألبيون » الثور الأبيض وأنقذك مؤقتاً . لكن الظروف تغيرت من جديد : حسناً أنظر ! لقد سقط في البحر الأسود الثور المجنون الخائر القوى والذي اشبع ضرباً وتسلق الغراب الأحمر مرتفعات القفقاس وهو يراقبك من هناك .

ألا ترى الرايات الحمراء التي ترفرف فوق « ايابروس » في داغستان وفوق كازبيك ؟ ألا تسمع هدير المنتصرين ؟ ألا ترى مايفعله ألبيون ؟ اجمع حوائجك وانزح عن القفقاس إلى باطوم ، كما لو كنت تترك هذا البلد لرجل آخر . أنظر الآن نحو الشرق ، أنظر باهتمام : أترى

أيدي الصداقة الممدودة بين كل من موسكو وانقرة وطهران وكابول ؟
ألا ترى كيف يلحون على الأممية ؟

نطاق النار يلتف حولك ياكفانتشي ! تتكاثف الغيوم الحمر فوق رأسك ياكفانتشا نتيرادزه ! صار الدوي يسمع من بعيد، يلمع البرق الأحمر وتمتد زوبعة النيران ، ان لم تصل اليوم فغداً .

أصح ياكفانتشي ، ادفع الأشباح عنك ، أزحْ الضباب ، استيقظ . أنجْ بنفسك والا ستصرّ على اسنانك وتعض اصابعك بعد فوات الأوان !

لا ، لن يتمكن كفانتشي من الاستيقاظ . يبدو أنه مصابٌ بمرض غريب . لقد علت غشاوةٌ عينيه الحادتين وأصيب انفه بالزكام ، ومخه النظيف غشاه الضباب .

يقف متكئاً على عصاه يقرقر بلا معنى كببغاء عجوز مخبول :

ــ لامع هذا ، ولا مع ذاك . . لابرداً ولاحراً . . لاأحمر ولا أبيض . . ولن اسيء إلى أحد مطلقاً ، وآمل الا يسيء أحد إلي . .

تذكر ياكفانتشي : هكذا هلك حمار « بوريد سينوف » . كانوا يسكبون له الشعير من جهة والشوفان من جهة أخرى . فلم يستطع ان يحتار . استغرق في التفكير : ايهما أفضل الشعير أم الشوفان ؟ .

لم يستطع الاختيار . فكر ، وفكر ، وفي ذلك التفكير والتردد أسلم الروح من الجوع . كفانتشي ، هل فهمت فحوى هذه الحكاية ؟ ألم تفهم ؟

جيد جداً . دخل قطار غاص بالغربان الحمر إلى باكو بهدوء وسكينة وكأنه يدخل بيته . وفي اليوم التالي سينعطف نحو جورجيا ويكاد يسمع دوي المعركة في العاصمة . اصبحت « يرفان » حمراء

أيضاً . كانت النيران تحدق بجورجيا من جهات ثلاث ، وبدأت الأرض تشتعل تحت أقدام كفاتشي وألسنة اللهب تنتشر هنا وهناك .

كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ! أنت حتى الآن لم تفهم شيئاً ؟ حتى الآن لم تر غيوم العاصفة المقبلة ؟ .

يعني رأيت وأدركت ؟ أخيراً ! جيد جداً ماذا تقول الآن ؟

يجري كفاتشي مندفعاً كساعي البريد ، يجري ويصرخ في كل مكان وبأعلى صوته :

— هيا ، أخرجوا انجوا بأنفسكم ! . . الخطر مقبل ، اخرجوا . . اضربوا ! . . اقطعوا ! . .

بماذا تفكر أنت ياكفاتشي ؟ مااللذي تزمع فعله ؟ لماذا لايكون مكانك هناك حيث يلعلع الرصاص وتسيل الدماء ؟ لاوقت لديك ، أليس كذلك ؟ لقد أديتَ واجبك ، أجل ! ارسلت مائة علبة من الدخان إلى العساكر ووجدت نفسك مع بضائعك ومجوهراتك في باطوم مباشرة ؟ ! .

شعب غريب والله ! قال البعض مؤكدين ان كفاتشي يشبه تماماً « تانديل » .

لم يفقد تانديل أو البلاد سوى حياة تانديل نفسه . أما كفاتشي . . يعدل كفاتشي عشرة آلاف تانديل ! كيف ستحيا جورجيا وسلبيستر و وبوبي بدون كفاتشي ! من سيتدبر شؤو ن آلاف الأعمال الوطنية ؟ لولم تكن لدى كفاتشي تلك الممتلكات الهائلة كان يمكن ان تقع في أيدي الحمر ، لذا يركض كفاتشي حاملاً معه ثروة لاحصر لها ، ينفق منها على العاملين الهاربين معه .

مرت العاصفة تاركة في نفس كفاتشي آثارا عميقة . لقد وجد بعدها الدواء : انكلترا — المجير ! هيا جدوا نصيراً قوياً وإلا فأيامنا معدودة !

وبدأ كفاتشي عمله ، كلم في البداية رفيقه جون راولينسون . لكن مع ذلك تصرف بشكل يستطيع معه أن يرتب أموره ويحزم امتعته خلال يومين . تحرك كفاتشي بسرعة وتصبب عرقاً :

— اسمعوني ، صدقوني ايها الاصدقاء والا ستندمون . كل ما قلته قبل الآن تحقق واقول الآن :

استقلالنا حكاية خرافية . اولادنا — اولاد « كاكوليا » و «راجدينا» لن يستطيعوا أن يقيموا دولة ، اصبحت البلاد بلا صاحب . ليس لدينا قانون أو مال . تتجمع حولنا قوى جبارة . لن نتحمل « نفقة اصبع » منها ، لقد قسموا جورجيا كما قسمت عكازة المسيح . اذا كان القيصر هرقل قد خلع تاجه من أجل الشعب ، أفلا يجب على « النبيل لانتشحوت » و« تشوخاتاورسكي » ان ينزعوا قبعاتهم القشية التي تشبه الفزاعا ت؟ !

ما الأمر يا كفاتشي ؟ قل ما ترغب قوله ! لا تخجل من شيْ . قل وانته . مرة اخرى تخشى أن يطردوك من الحزب ؟

— القضية يا سيدي انه يتوجب علينا أن نلتجئ الى اوروبا .

قل بصراحة يا كفاتشي قل ! عند من ، وكيف علينا أن نختبئ ؟

— يجب أن نطلب حماية انجلترا وفرنسا .

حماية ؟ تبعية ؟ حتى ولو كانت هكذا ! كفاتشي لا يعرف الكلمات غير الصحيحة . باختصار يجب ان تطهر الجيوش الاوروبية جورجيا او .. اذا لم يحصل ذلك .

– اذا لم يحصل ذلك من الافضل عندئذ ان نتفق مع الحمر .

كيف نتفق ؟ اتدري ما تقول يا كفاتشي ؟ دع التحدث عن طريق التلميح . قل فكرتك بوضوح ودقة .

– حسنا ، سأقول .. مع أنه .. ليس من السهل القول .. لكن طالما ليس من سبيل آخر سأقول :

يجب أن نرفع الراية الحمراء فوق القصر ، ونسلم السلطة للحمر .

ها – ها ! لقد قال كفاتشي فكرته . والآن فلتفعلوا به ما تشاؤون ، فلتنتفوه أو تطردوه من الحزب أو حتى فلتقتلوه !

ماذا قلت يا كفاتشي ، ما الذي تثرثر به ؟ كيف تجرأت على ذلك ؟ فهذه خيانة ، خيانة ، حقيقية !

لقد تجرأ كفاتشي ، وقال الحقيقة ، اصبح الامر امركم . لقد ادى واجبه .

– لقد ارتكبت فيما مضى حماقة كبيرة اذ كنت انعق كالعقعق « لا مع هذا ولا مع ذاك » .

لا أريد الابيض ولا الاحمر .. انا لن أسيء اليك ، وبالمقابل لا تسيء الي ، والآن اريد ان اقول : اما مع هذا او مع ذاك الابيض أو الاحمر ، اما لندن أو موسكو – هذا هو برنامجنا الحالي .

حسنا ، لكن انت شخصياً كيف ستتصرف يا كفاتشي ؟ استبقى هنا أم ستهرب ؟ لا ، لا يستطيع كفاتشي البقاء لأن للحمر حسابا معه ، وحتى لو لم يكن هذا هو السبب ، فعلى كفاتشي ان ينقذ امواله . من يقول الحقيقة عليه أن يبقي حصانه مسرجاً ، لقد صدق هذا المثل فيما يخص كفاتشي .

أصبح قائل الحقيقة ، فيما بعد: مضغة في أفواه الناس . قال بعضهم: لقد جن وقال البعض الآخر . هو خائن .

بقي صوت كفاتشي صرخة في صحراء . ابعدوا عنهم الناصح الذي لم تطلب نصيحته وكرهوه .

سكن كفاتشي واخفى افكاره والشك والخوف في قلبه .

في ذلك اليوم الذي كان يتوجب فيه على آخر الجنود مغادرة باطوم كان كفاتشي وبيسو حاضرين ايضا . صعد البريطانيون إلى السفن ببطء صامتين ، جافين ، غليظي القلوب ودخلت القوات الجورجية وأولو الامر الى مدينتهم مبتهجين مغتبطين من الفرح ، وهم يصرخون ويضجون . انزلوا العلم البريطاني من أعلى الصارية بهدوء وببطء ، وفي نفس الثانية ارتفع على نفس الصارية العلم الجورجي ذو الالوان الثلاثة مرفرفاً وعم الفرح والصخب والضجيج .

– والآن لقد هلكنا ! – قال كفاتشي ابيسو وهما يجلسان في المطعم ، بينما كان الشعب المتحمس يصخب ويدوي في كل مكان – تذكر كلمتي يا بيسو : لا أحد تقريباً يفهم معنى الاحداث الحالية . هي ذي السفن الانجليزية تغادر، تركتنا أوروبا واصبحنا وحيدين في آسيا .

هذه البواخر أخذت معها املنا الاخير وتركت لنا « الاستلال(١)» ايها النادل « سيرغي » احضر زجاجة من « اللافيت » .. انظر فيما حولك بيسو ! الناس يفرحون يضحكون يحتفلون ! ها .. ها .. ها ! اسأل يا بيسو اسأل هؤلاء الحمقى ، لماذا يضحكون ؟ ما الذي يفرحهم ؟

(١) انقص من الاستقلال حرفاً كي يؤكد فقدانهم لذلك الاستقلال .

لو كانوا يملكون عقولا لكان بامكانهم ان يروا ذلك اليوم ، ولبكوا دموعاً مرة واناحوا من الآلام المقبلة . سيتذكر اصحاب السلطة الحالية هذا اليوم ، سيذكرون كفاتشي كفاتشا نتيرادزه لكن بعد فوات الأوان. كان لدينا قبل الآن طريقان :

روسيا أو اوروبا . لكن الآن بقيت طريق واحدة ـ طريق موسكو ، وهي فوق كل هذا حمراء ذات اشواك .. ايها النادل : فواكهكم غير جيدة ، احضر زجاجة من الشامبانيا وقهوة تركية .

لاحظ ، يا بيسو هذه الظاهرة ، : اعداؤنا اكثر فرحاً لخروج الانجليز ، لعلهم في موسكو يقفزون على رجل واحدة ، وهذا فأل سيء . يجهز الحمر سلاحهم ويستعدون لتسيير حملتهم .

لقد علمني كورانا شفيلي ان اجدادنا قالوا : الهرب في الوقت المناسب محمود .

ـ الهرب طواعية افضل من الارغام عليه ـ قال بيسو شيكيا .

ـ حسناً قلت يا بيسو وقد قالوا ايضاً : حين تنقلب العربة تصبح الطريق اكثر وضوحاً .

نسأل الله ان ينطبق هذا المثل علينا .

ـ لقد تحقق الكثير حتى الآن .

ـ نظرا لأن حوذيينا مهرة ، فقد قلب هؤلاء الحوذيون العربة المختلة في الوادي ، بحيث يستحيل جمع اجزائها المكسرة .

فيما مضى ترددت ، قلت في البداية : لا مع هذا ولا مع ذاك ، لكن اتضح ان ذلك السبيل غير صحيح ، ثم انحزت إلى اوروبا : لجورجيا الزهرية أو الحمراء قيمة واحدة في اعيننا ، وهذا صحيح

أيضا ، أليس من الأفضل بالنسبة لنا ان نحمر ؟ ان نضيع شيئاً سوى بعض الاعداء الصغار ، لكن سنربح الكثير ، سيظهر حام قوي وستكون لنا حكومة حمراء . نتحاشى الدماء والجيش الغريب . منذ الآن يا بيسو هذه طريقتنا الوحيدة ، وعلي ان اخدم تلك القضية ، اذا وثقوا بي سيكون ذلك خيراً للجميع ، والا فليأخذهم الشيطان وأكون قد قمت بواجبي .

— وقضيتنا ؟

— اصبحت القضية منذ الآن من الصغائر . لن استطيع أن أكون بعد الآن صاحب حانة ، لم تعد لدينا اعمال كبرى ، ولن تكون غدا او بعد غد حتى ولو كان بالامكان القيام باعمال كبيرة فأنا لم افقد عقلي بعد كي اجهز للحمر سلعاً او انشئ لهم مصانع . سأحول كل شيء الى مجوهرات وذهب . ايها النادل ! هات كرسياً ، شرفنا أيها السيد الوزير ! اجلسوا — ايها الصبي أحضر زجاجة أخرى من الشامبانيا وفاكهة وقهوة !

— لعلكم تفضلون « شارترز » أو « شيبر » ؟ تفضلوا — إذاً أحضر « شيبر ». كنا نتحدث ايها السيد الوزير عن .. تفضلوا ايها السيد الوزير تفضلوا ، سيكار رائع ذو نكهة زكية وخفيف . تفضلوا دخنوا .. لا ..لا شقه اولا ، اعطوني اياه ، سأشقه لكم .. هكذا .. اشعلوه الآن نعم ، عم كنت اتحدث ؟ انتم اليوم فرحون ، اما انا فالشياطين تخنقني . السبب ؟ سأقول لكم .

وتحدث بهدوء وتفصيل وبراعة . بعد ان انهى كفاتشي كلامه حملق الوزير ، في البداية ، بعينيه ، ثم سحب السيكار من فمه ووضع

الكأس المملوء بخمرة الشيبر جانبا.ونظر الى كفاتشانتيرادزه نظرته الى راعي خنازير شاءت الاقداران تدخله الى قاعة عرش السلطان ويقول له : « ايها السلطان المعظم ستتصرفون بحكمة فيما لو سمحتم وتنازلتم لي عن هذا العرش وقدمتم لي السلطة » ..

منذ ذلك اليوم ذاع صيت كفاتشي كعميل لموسكو ، الا انه لم يكترث الملك ، بل قال :

– لهذا بالذات انصحكم بان تتنحوا عن السلطة كي تتجنبوا غضب موسكو .

حين سيأتي رجال موسكو يتوجب علي في نفس اليوم الهرب من جورجيا ، اذ أن في عنقي عدداً لا يحصى من الذنوب القديمة .

أضحى كفاتشي مثلا يقتدى به ، لكن ايمانه كان قويا بحيث دفعه كوطني مؤمن على أن يقول ويردد في كل مكان – في الشوارع والبيوت في الساحات العامة مخاطباً رجال السلطة :

– اتفقوا .. تنازلوا عن السلطة .. انهوا ذلك بسلام . . لا تلعبوا بالنار . فقد تندلع الحرب بين يوم وليلة ، لا تتكلوا على الديمقراطية ، انهم يخدعونكم .سيساعدونكم كما اساعد إنا «غوتينتوت»(١) . أو شعوب الهند الصينية صدقوني .. اقسم لكم . . خلوا بنصيحتي ..

لم يصدق احد كفاتشي تقريباً ، واولئك الذين صدقوه لم يكن لهم أي وزن ، حتى أن كفاتشي حذر مراراً : اذا لم تلزم الصمت واذا كنت معجباً بالحمر فسنطردك من الحزب ونفيك الى روسيا الحمراء .

---

(١) غوتينتوت : الشعب الذي يسكن وسط وجنوب ناميبيا في جمهورية اتحاد جنوب افريقيا .

لو كان الوقت غير ذلك الوقت لما صمت كفاتشي ولما خنع ،فهو لم يصمت ولم يختبئ حين قررت حكومة القيصر شنقه ، حتى انقذه كيرنسكي . لكن هنا في جورجيا وجد كفاتشي نفسه في مأزق .

هل يخون السلطة وينحاز لموسكو ؟ لا .. لم يقدم كفاتشي على عمل كهذا ، اذ كان يخاف خطاياه الماضية وكانت ثمة قوة خفية تقيد يديه ورجليه

اراد كفاتشي تغييراً سلمياً او محلياً ، لكن عندما لاحظ ان الطريقين لا أمل فيهما ، قال لأصدقائه الحمر :

– صدقوني انتم على الأقل ، ايها الرفاق . إذا كان من الصعب تفجير الزنزانة من الداخل اليوم ، ستصبح هذه المهمة غداً أو بعد غد اسهل من تفريغ تلك الزجاجة . حسناً ، تمعنوا في حياتنا جيداً : يشقى الشعب دونما رعاية ، لا أحد يدري هل لدينا قوانين ، لا يدرون من صاحب السلطة: الحكومة ، أم الحرس أم الحزب أم المدبنة أم المجلس الريفي أم قطاع الطرق ! غداً وبعد غد سيطرق الشعب بنفسه بابكم باحثاً عن دولة قوية وعن السلام والقوانين .

اؤكد لكم أن السلطة الحالية تخدم الآن قضيتكم اكثر مما تخدمونها انتم.لا تكونوا نافذي الصبر ،لا تتسرعوا ،اصبروا قليلا وكل شيء يحصل من تلقاء نفسه .سنقوم بعملنا من الداخل ،لا تتكئوا على الآخرين والا ....

هذه هي طريق كفاتشانتيرادزه التي لا تقود الى الجنة ، حسب رأيه ، لكنها تقود حتما إلى مكان آمن .

اخيرا سئمت السلطة من جلد كفاتشي الأزقش : وذات مرة حين كان يغدق المديح على الحمر ، اقترب منه أحد الاصدقاء وقال له :

ـ الليلة الماضية دار الحديث عنك ، لقد فصلوك من الحزب .

فصلوا كفاتشي من الحزب ؟ ؟ قضية عظيمة ! لقد دخل الحزب وخرج منه عشر مرات . هذا لا يثير دهشة كفاتشي ، وهو الآن يبصق على الحزب وعلى اصدقاء المستقبل ، فليذهبوا الى الشيطان ! لكن كفاتشي لم يستطع ان يتنحى جانباً ويتعلق في الفراغ ، لذا ، متن الخيوط الحمر وتذكر بافلوف الذي كان يضع رجلا بين الحمر والرجل الاخرى في القرم آملا ولو جزئياً بانتصار جنود « فرانغل » .

لكن كفاتشي لم يعوّل على هؤلاء الجنود .

ـ انتم مثلنا ايها الصديق مقضي عليكم ... قال كفاتشي ذات مرة لبافلوف ـ قريبا جدا سيلقي بكم الحمر في البحر . !

وفعلا سرعان ما سقطت تلك القوات وابتلعها البحر . منذ ذلك اليوم عاد بافلوف الى كفاتشي الذي استقبله كأخ واسكنه بجانبه ، فهو يتذكر خيره دائماً .

بعد شهر تحولت أموال « سيبونيون » الى احجار كريمة . باع كفاتشي البيت أيضا واحتفظ لنفسه بشقة . بكى سابيسترو وبوبي وتوسلا اليه . فقد كان حلمهما في الحياة بناء مثل هذا العش في تفليس ، لكن كفاتشي اسكتهما بسهولة :

ـ ألا تريان ان سعر البيوت يتدنى يوما عن يوم . بالاضافة الى ذلك سيأتي الحمر غدا أو بعد غد ، وسيأخذون البيت ، واذا لم يأتوا سأشتري لكم بيتاً فورا بهذه الأموال ـ واشار كفاتشي الى قصر اور خانتس الذي نال اعجاب آل سلبيسترو :

ـ اذا ادخلتني يوماً ما هذا البيت ـ اجاب سلبيسترو ـ سأضم يدي إلى صدري واموت مبتسماً، الامر لك الآن ، بعه !

« كيف حارب كفاتشي »

كاد كفاتشي ان يطير فرحا ، لقد علم آنذاك خبرين جديدين : اورخيانتس يعرض قصره وعشرة آلاف بود من الصوف للبيع بسعر بخس . تحمس كفاتشي ككلب مسعور ، فكر وهو يؤشر بيديه محاولا مقاومة الاغراء ، لكنه ارتكب الحماقة في النهاية . لقد قال : « اذا نقلت الصوف من توشيتيا على عجل ثم شحنته سأبيعه بثلاثة اضعاف ثمنه . اما القصر، آه هذا قصر ! انه قصر جميل مؤلف من ثلاثة طوابق مزدان « الكارياتيدا » (١) وشرفاته مصنعة من البرونز واعمدته مائلة للحمرة وادراجه رخامية . عادة لا يأخذ كفاتشي بنصائح الآخرين، لكن الجميع ، هذه المرة ، الحوا عليه وجعلوه يتصرف بحمق .. عمل بنصيحة بيسو وبافلوف وسابيسترو وبوبي . اشترى ذلك القصر والصوف .. واحرق يديه ..

انتقل كفاتشي واسرته الى القصر . ولكي يعمدوه اقاموا حفلة بهذه المناسبة مازال اصدقاء كفاتشي يذكرونها حتى الآن ! سافر ثلاثة اشخاص لينقلوا الصوف من توشيتيا ، ووضع اورخانتس ذهب كفاتشي في جيبه ثم غادر في اليوم التالي جورجيا بأقصى سرعة ، مر أسبوع . وذات صباح دخل بيسو الى غرفة نوم كفاتشي مسرعا وقال :

---

(١) الكاريانيدا : عمود في وسط البناء على هيئة امرأة .

— كفاتشي انهض ، لقد حدث تمرد الليلة الماضية .

— تمرد . إذاً لقد هلكت !

اجل يا كفاتشي ! كان خوفك في محله مرة أخرى ، اصدقتك حاستك المجهريّة الحقيقة . مرة أخرى اخترقت عيناك المجربتان حجب ظلام المستقبل ، مرة أخرى اشتمّ انفك الحاد رائحة البارود من بعيد ، لكنك اخطأت التقدير حين أطعت الآخرين . ما حاجتك لمثل هذا القصر ؟ وكيف ستنقل في مثل هذه الدوامة تلك الكمية الضخمة من الصوف من توشيتيا إلى باطوم ؟

عبثا ركض ودار بيسو وعشرة من السماسرة . لا أحد يحتاج لقصرك ولا يوجد شار لصوفك . دع ، يا كفاتشي ، صوفك وقصرك وغادر . ربما بقي لديك من الاموال فهي تكفي وتزيد . دع اهلك يا كفاتشي ، فهم سيجدون رزقهم كيفما اتفق . أما « خوخو » و« نوتيو » فقد اصبحا على حافة القبر وسيدفنونهما بدونك غداً أو بعد غد .

وطنك ؟ جورجيا ؟ ماذا اعطاك الوطن ؟ ما هو بالنسبة اليك ومن أنت بالنسبة اليه ؟ ! سيونيون » ؟ ! امتياز ؟ البضائع المشحونة للقومسيون وعشرات الأعمال « المدبرة » ؟ وقمت ايضا باعمال اخرى حيث لقمك الاجانب قطع الخبز ! وهنا لم يعرضوا عليك حتى منصب قوميسار محلي نظراً لأنك لا تنتمي للكنيسة الارثوذكسية الحاكمة . لقد تنبأت بالمستقبل وحذرت السلطة وقمت بواجبك بشرف ، لكن لم يصدقك أحد . بل هددوك وكادوا يطردونك من عشك الخاص . لقد اديت واجبك يا كفاتشي ، خذ معك بيسو وبافلوف وابدأ مرة

اخرى تطوافك بين الغرباء و«دبّر » اعمالا بطولية . خسنا امض طالما توفر الوقت والطريق ، والا ستتأخر وتندم . امض ، طرْ أسرع يا كفاتشي أسرع ! لماذا تطوف في الشوارع كإوزة ضائعة ؟ لماذا تسير على غير هدى ؟ ماذا تتتبع ؟ ما الذي يدهشك ؟ ما الذي يثير استغرابك ؟ الحرس المنتصرون في أول معركة تفرقوا وملؤوا البلد . يبحثون عن طريق يقودهم الى بيوتهم ؟ هذا يدهشك ؟ نعم وان خسروا المعركة ماذا سيفعلون ؟ ينتعل بعضهم احذية جديدة ، لكنهم يقولون جميعا لن نذهب الى الحرب مالم تعطونا احذية جديدة .

تلقوا ايضا حذاء جديدا، ثم حملوه الى « البازار » وباعوه ويطلبون الآن زوجا ثالثا من الاحذية — انت دهش يا كفاتشي . لا تستغرب ايها الاخ لديك شركاء اكثر مما كنت تظن سابقاً ، الاحذية وترك ارض المعركة والعودة الى البيت — كل هذا سبب مسوغ للاتجاه نحو الحمر . هم لا يحاربون لأنهم لا يرغبون وبالتالي لا يريدون أن يصبحوا حمرا مختارين . فهم ينتظرون الخبز الأبيض والسكر المجاني والسلع المجانية ورفع الضرائب والدخول الى الجنة الحمراء .

— اين القطعات ؟ اين فرساننا الخمسة والستون الفا ؟

ولا تدهش لذلك ايضا يا كفاتشي ! خمسة وستون الفا كانوا مسجلين على الورق كي يتلقوا من الخزينة عشرة أضعاف الكمية من النقود ولترضية البسطاء من الناس امثالك . كانوا يقتادون الناس العراة الجائعين ايام الشتاء القارس الى « كارايازي » ليقطعوا الاخشاب لصالح قطعات الجيش ، لماذا لم يحفروا خندقاً واحدا بالقرب من « شافناباد » أو « تاباخميل » ؟

ـ نحن لا نحسن استعمال الاسلحة الانجليزية ، لماذا لم تدربونا حتى الآن على استعمال تلك الاسلحة ؟ .

ـ لم تتمكن طائراتنا من الاقلاع ، لقد عطلوا الميزاب .

ـ يعرف الحمر كل اسرارنا من اين ؟ كيف ؟ ممن ؟

اهدأ يا كفاتشي ! لقد فات اوان الصراخ ونتف الشعر . انت تحب الامثال الحكيمة ، إذأ تذكر : « ينضح الاناء بما فيه » ،أو « يهلك العقعق لسانه » أو « عندما تنقلب العربة تصبح الطريق .. » :

يعرف كفاتشي هذا المثل . يعرفه ، لكن مع ذلك لم يعد قلبه الحار قادراً على التحمل :

ـ هذا كثير وغير معقول ! كم من الزيف والخداع ! هذه سخرية من البلاد مريرة ! بل هذا خداع وقح للذات وللشعب ! اه منكم ايها الانذال السفلة المراؤون ، الخونة المراؤون ! .

لا يا كفاتشي لا ضرورة للحدة بهذا الشكل ! اصمت واهدأ سيحين وقت الجزاء . عندئذ ابحث عن الخونة وسمّرهم على عمود العار . اما الآن فالخطر داهم ، والرايات الحمر ترفع فوق « نافناباد » و« كوجوري » ، و« فازياني » .

لا تجرِ في المدينة كثور رافع ذيله . بدلاً من الصياح تناول سلاحك ، اخفض رأسك وامش في ارض المعركة كيفما استطعت ! لماذا تتردد ؟ مالك سكنت ؟ اتخاف ؟ وهل خبت روح « ديمير — تيبيني » في نفسك ؟ لقد أرقت الدماء في سبيل الغرباء وتضن بها على الأقرباء ؟ اذا كان هذا صحيحاً اجمع امتعتك واقصد المحطة ، اذهب ولا تلتفت والا سينالك مكروه !

. كفى ! لقد تقرر كل شيء لا يستطيع كفاتشي الهروب ، لا يستطيع أن يتحمل العار حتى القبر ! على كفاتشي ان يؤدي واجبه المقدس تجاه وطنه وأن يسد حلق الاعداء .

سيبين للجبناء كيف يموت كفاتشا نتيرادزه في سبيل وطنه ! ها يا سيد ، اعطني السلاح والطلقات ومعطف الفرو والقبعة (الباشليك). اطلب سيارة ، وداعا يا سليبيسترو ، لا تبكي يا بوبي ، اصمتا يا « نوتيو » و« خوخو »! على كفاتشي أن يقوم بواجبه ، إما أن يعود منتصرا، أو لن تروا وحيدكم الى الأبد . ضعوا في السيارة خمرا وشايا وسكرا وخبزا وكعكا وسجائر وشامبانيا وسجقاً ولحم عجل . حسنا وداعا ! اجلس يا بيسو ! هيا الى كوجوري انطلق ! ضاعف السرعة ! هيا ! .

من أعلى الهضبة المغطاة بالثلوج كان يسمع دوي المدفعية وسقسقة الرشاشات وطلقات البنادق . اجتازت سيارة كفاتشي الجبال واقتربت من أرض المعركة.

كان الجرحى والمرضى والتعبون يجرون انفسهم عبر المنحدر ، وكان البعض يجلسون في عربة ذات عجلتين ، والبعض الآخر يتنقلون على الاحصنة . يصعد الناس بثيابهم المختلفة الالوان نحو الاعلى . بعضهم يجرون مسرعين بسياراتهم والبعض الآخر يصعدون سيراً على الاقدام .

بعد نصف ساعة اصبح كفاتشي على مقربة من موقع « تابا خميل ». اين ارض المعركة ؟ هاك يا كفاتشي ! هناك أمام عينيك .. بعد مائة خطوة . الكل يجري الى هناك ، حيث تسمع طلقات البنادق وسقسقة

الرشاشات ودوي المدافع والصراخ . لا تتراجع ، يا كفاتشي ، رجلك تؤلمك ؟ اعرج ؟ اختبئ وراء تلك الشجيرات وستطلق من هناك ؟ ؟ حسناً فليكن هذا ! لكن لا ترم عــلى رفاقنا هيــا ، صوب !

– راخ – راخ – راخ .. راخ .. راخ .

اطلقت الطلقات الخمس كلها ؟ ولماذا توقفت ؟ لا ترى من هنا ؟ إذاً اقترب ، اقترب أكثر ، يا للشيطان ! لقد شعرت بالبرد . تجمدت اصابع كفاتشي ، حتى لم يعد يستطيع الضغط على الزناد . لم يدر كفاتشي انه سيبرد والا .. إذا كنت لا تستطيع اطلاق النار حارب بالحربة ، اخرج من بين الأشجار وساعد رفاقك ! هيا تقدم عشر قفزات وتجد نفسك في خضم المعركة .

الحفرات التي احدثتها القنابل تقترب أكثر فأكثر من المدفعية ، ها قد سقط واحد ثم تلاه الثاني والثالث والعاشر ، وهذا احدهم يجري بالحربة وراء آخر . وهنا ايضا مقاتلان مشتبكان بالأيدي ، وها هما اثنان يتبادلان اطلاق النار في آن واحد فيسقطان على ظهريهما ، وهذا فارس احاط به ثلاثة . ساعده يا كفاتشي اقفز ، اطلق النار على الأقل . لقد فات الأوان : هلك احد الفرسان ، ماذا حل بك يا كفاتشي ؟ ؟ أية روح شريرة عكرت قلبك بالخوف ؟ من قيد يديك ورجليك ؟ تذكر « ديمير – تيبي . اين تلك الجرأة الالهية التي امسكت بك آنذاك من تحت ذراعيك ورفعتك نحو السماء ؟ اين هم أولئك السحرة الذين حملوك عبر سهول أوكراينا ؟ لماذا تخلوا عنك ؟ هجروك في الوقت الذي تحارب فيه على ارضك وتدافع عن نفسك ! .

آه يا كفاتشي ! لقد فرغت روحك وعلا قلبك جليد الشك ونخرت دودة الريبة مخك ! هي ذي سيارتك ! اركبها وعد الى سلبيسترو ،

اعد الوعي لا « بوبي » التي اغمي عليها ، هدئ ايضا خوخو ونوتيو .
عد ادراجك يا كفاتشي ! لقد اخطأت ، كان عليك الا تصعد ،
لا عمل لك هنا . اذهب ، كفاتشي اذهب !

« عن الخامس والعشرين من شباط وكيف احمر كفاتشي مرة أخرى »

لا تنم يا كفاتشي ! أحقاً لا تسمع وقع جزمات الجنود المحني
الرؤوس وحوافر الخيل وهدير السيارات وصرير العربات ؟ استيقظ
يا كفاتشي ! اوشكت العاصمة ان تقفر . الجميع يهاجر . طريقا
« ديغومسكايا » و « افتشالسكايا » يغصان بالناس . يمضي القطار تلو
الآخر .

النساء والاولاد مذعورون يحملون على ظهورهم صرراً مختلفة
وقد دسوا ملابسهم البالية تحت آباطهم ومشوا يجرون انفسهم عبر
الوحل .

استيقظ يا كفاتشي !

افاقت المدينة بكاملها ، يوقظون بعضهم بعضا ، يطرقون النوافذ
منادين للسفر .

يقع قصر كفاتشي في شارع هادئ ، لكن الهرج سيطر ايضاً على
ذلك الشارع .

عمّ الصباح . دقت الساعة العاشرة .. بين لحظة واخرى ستدخل
القوات الحمر تفليس . من استطاع الهرب فقد هرب . الشوارع خالية ،
ونادرا ما كان يتراءى عابرون منكسو الرؤوس يتلفتون فيما حولهم
يبتغون الإختباء .

ــ كفاتشي ، انهض !

- ما الخبر ؟ ماذا حصل ؟

- حصل ان غادرت حكومتنا وقواتنا المدينة .

- ماذا تقول يا بيسو ، متى ؟ ولماذا لم نعلم نحن ! لماذا لم يخبرنا أحد ؟

- احضر السيارة . ضعوا فيها الملابس والثياب الداخلية والوثائق الشخصية ! سلبيسترو ، هاك النقود لا تخافوا ! اسكتي يا بوبي !

كفاتشي مسافر ، لكنه سيعود لمساعدتكم سريعا ، لا ، لا يستطيع كفاتشي اصطحابكم معه الآن ، فيما بعد ! حسنا وداعا بيسو ، بافل ! إركبا ! هيا الى المحطة !

اقلع القطار الاخير امام عيني كفاتشي ، لقد تأخر كفاتشي ،

- ايها السائق الى « أفتشالا » ...

يقف الفرسان الحمر عند « غرما - غيلي » .

انعطف ، ارجع الى الوراء ! سر في طريق « ديغو مسكايا » أسرع ! زد من سرعتك !

وجرت سيارة كفاتشي مسرعة ، اجتازت جسر « فيريسكي » كالسهم وطارت كالعصفورة في الطريق الحربية الجورجية . كانت القوات الحمر تقطع الطريق بالقرب من حانة بيضاء اللون .

- قف ايها السائق ، عد الى الوراء !

رجعت السيارة ومضت عائدة . إستغرب كفاتشي

- عجيب ! لماذا لم يطلقوا النار علينا ؟ لماذا سمحوا لنا بالعودة ؟

- سنلقى هذا المصير - قال بافلوف مطمئناً - انهم غير مستعجلين فالأمر سيّان ، لقد قطعوا علينا كافة الطرق .

كانوا جميعاً شاحبين ينتظرون وقوع مصيبة ما ، وحين دخلوا البيت ربطت السنتهم .

– كفاتشي ماذا تقول ؟ – سأل اخيراً بيسو كفاتشي الغارق في التفكير والذي كان يجري في الغرفة بعصبية :

– قل شيئا ، انصحنا – قال بافلوف بصوت كالمواء .

– قل شيئا ، كفاتشي يا بني ! لماذا تتابع الصمت ؟ ايقظ سلبيسترو وبوبي ابنهما كفاتشي المستغرق في التفكير .

واستيقظ كفاتشي ...

– اعطوني ورقة سميكة وحبراً احمر .

احضروا له ما أراد حالاً .

– بيسو اكتب بحروف كبيرة بالروسية والجورجية « اتحاد اصدقاء جورجيا الحمراء » ... . انتهت ؟ والآن انقلها وعلقها في الخارج على بابنا .، انتظر ، فلنتفق قبل ذلك . في حال الضرورة قولوا جميعا ما يلي : انشئ الاتحاد الشهر الماضي ، أنا رئيسه، بيسو وسلبيسترو عضوان في مجلس الادارة ، والبقية اعضاء في ذلك الاتحاد ، لدينا فقط ثلاثمائة عضو ، بيسو اكتب الميثاق اليوم . اتذكر ميثاق جمعية انصار الثورة ؟ احضروا الى هنا أي شخص تلتقون به ليوقع على هذه الورقة .. خلال ثلاثة ايام سيوقع ثلاثمائة بل وثلاثة آلاف . اذهب يا بيسو . علق هذه الورقة واحضر سيارة . بوبي !

– انا هنا يا بنيّ !

– انزعي غطاء لحافي الاحمر واحضريه الي . هيا بسرعة يا نوتيو !

– أنا هنا يا بنيّ .

ـ احضري رايتنا القومية الكبرى . هيا اسرع يا سلبيسترو !

ـ ماذا تريد يا بني ؟

ـ اعطني عصاك الطويلة .

قدم سلبيسترو عصاه واعطته بوبي غطاء اللحاف الاحمر . قاس كفاتشي الغطاء الحريري على العصا ، ثم قال :

ـ مناسبة ، فنحن لا نملك راية حريرية . هيا يا « بوبي » ! اشبكيها على هذه العصا . أجئت يا بيسو ؟ انظر ، مثل هذه الراية لا يملكها الحمر انفسهم . كان لدينا ورق ذهبي ايضاً .

ـ لدينا عدة اوراق .

ـ قص منها نجمة خماسية واشبكها في وسط الراية . أسرع ! نوتيو ! اعطني الراية الجورجية .

اخذ منها الراية القومية التي يقارب طولها المترين ، ثم مزق اللونين الاسود والابيض من زاويتها العليا واخاط بدلا منها قطعة حمراء . وهكذا تحولت الراية القومية ذات الالوان الثلاثة الى اللون المناسب في يوم واحد .

ـ بوبي ! خذي هذه الراية وضعيها على الشرفة . سأحتاج اليها فيما بعد . من يقرع الجرس ؟ بيسو اذهب وافتح الباب !

كانوا جيران كفاتشي ـ كوليا باليكادزه ، غريشا كاليلري ، فولوديا تشوريشفيلي .

دخل الثلاثة شاحبي الوجوه ، مربوطي الالسنة وحدقوا في وجه كفاتشي .

ـ ثوبوا الى رشدكم ! مالكم خائفون هكذا ؟ ! ـ قال كفاتشي

نزقاً ـ لا تصغوا للأكاذيب ! لن يحدث شيءٌ : انا اعرف جيداً اولئك الناس . في وقت كهذا تجب مراعاة المنتصر وموافقته . فلنغن نشيد الأممية ولنصبغ وجوهنا باللون الاحمر . هذا والسلام ! هيا امشوا ورائي وافعلوا ما أفعل ! واندس الرجال الستة في السيارة .

ـ الى « نافتلوغ » !

جلس بيسو شيكيا بجانب السائق يحمل بيديه راية حمراء بحجم اللحاف .

وبعد أن وصلت السيارة الى مرتفع « تسيسيا كوفسكي » بدأ بيسو يصرخ كما لقنّه كفاتشي :

ـ ايها المواطنون ، اجتمعوا ، هيا ورائي ! .. سنستقبل ! سنرحب بالحكومة الجديدة .

اجتمع الناس خائفين حائرين ومشوا جماعات خلف كفاتشي . كان كفاتشي يسير ببطء وعدد الناس يتضاعف تدريجياً ، على جانبي طريق « نافتلوغ » كانت كوكبة من الفرسان المستطلعين يحملون العلم الاحمر . اقترب هذا العلم من راية كفاتشي :

ـ ايها الرفيق ـ سأل كفاتشي قائد السرية ـ نحن وفود نريد ان نرحب بالحكومة الجديدة وبقائد الجيوش وبالقيادة العامة . اين هم ؟

ـ لا أعلم شيئاً عن الحكومة ، أما القيادة فقادمة ورائي .

ـ ايها الناس استعدوا ـ قال كفاتشي آمراً ـ هاتوا الضيافة !

ـ ليتقدم الحرفيون الى الامام ، التجار قفوا هناك .. وانتم تنحوا قليلا ، بيسو اعطني الراية ، لقد جاؤوا ، هورا ! ـ هورا.. .. !

ـ هورا .. ! ، هورا .. ! ـ ارتفع الصراخ المشوب بالخوف .

ـ ايها الرفاق ـ علا صوت كفاتشي الجالس في السيارة ـ اهلا بكم. لقد انتظرت البروليتاريا الجورجية المنهكة والمتكدرة جراء غياب القانون ، الراية الحمراء ثلاثة اعوام ، هذه الراية التي سترسخ سلطة الكادحين . ومنذ اليوم ستدعم الحرية القومية وتثبت الشرعية والسلام . انها تحمل الأرض للفلاحين والسلطة للعامل والاخوة للجميع . لقد ولى الحونة ـ أكلة لحوم البشر الى غير رجعة .

اهلا بكم ايها الرفاق . تقبلوا منا تحية أخوية والضيافة ـ الخبز والملح . انتم ضيوفنا .. نرحب بكم ! عاشت السلطة السوفيتية ! هورا ا .. ا.. !!

مرة أخرى صرخوا « هورا » ، مرة اخرى قذفوا بقبعاتهم الفروية في السماء ، ثم عادوا الى المدينة .

تنقل كفاتشي عدة ايام بالسيارة متذكراً اصدقاءه ومعارفه القدامى ولم يهمل من لا يعرفه . ومن جديد راح يستقبل في المحطة الشخصيات ويؤمن لهم شققاً للنوم او اثاثاً ، او يقيم لهم غداء أو عشاء دون ان يهمل حاجاتهم الصغيرة .

استطاع كفاتشي ان يتماسك بصعوبة على الرغم من أن أحداً لم يعرف ولم يتذكر اعمال كفاتشي الجزيئة ومقالبه في روسيا الحمراء . ولم يخف كفاتشي من ماضيه البعيد فقد اصبح مغطى بـ « الملحفة العملية » وببطولات شباط ، لكن كن حذراً يا كفاتشي ، كن حذراً اذ لا وقت للمزاح . ثمنك قرش فلا تركض جامحاً . لا تظهر امام اعين الجميع . لا تملأ العالم صراخاً عن نفسك وإلا ستندم ،

ـ انت على حق يا بيسو ـ قال له كفاتشي بعد عدة ايام ـ يجب

ان ندخل الظل ونلازم الصمت والا ستتعرض للنقد . سنعمل بهدوء كي نبقي رؤوسنا وندّخر اكبر قدر ممكن من الدهون .. هذا هو برنامجنا كحد اقصى .

عمل كفاتشي عدة ايام بهدوء، لكنه اضاف بعد عدة ايام عبارة جديدة « لحوم إلى الجنود الحمر » .

اختار اثنين ممن يعرف كممثلين للسلطة واجلسهما بقربه . ومن باب الحيطة انضم كفاتشي الى لجنتين صغيرتين ودس في جيبه وثيقتين صغيرتين واطمأن مؤقتاً . غادر بافل تفليس . سافر الى توشيتيا وامتلك صوف كفاتشي .

واندس بيسو شيكيا في احدى القوميسريات / المفوضيات / واستلم ادارة القسم الاقتصادي .

خلال ايام قليلة تغير شكل ووتيرة الحياة في البلد . كان العمال يعملون تارة ويمشون حاملين الرايات الحمر تارة اخرى ، القوالون يقولون وعمال التنظيفات يكنسون الشوارع ، والحمالون ينقلون الامتعة صاخبين ، والسائقون يجرون كالمجانين يصعقون المدينة بزماميرهم ، ضاغطين على صدور الناس الذاهلين .

وامتلأ مائة بيت بالمكاتب والادارات الجديدة . اشبعت تفليس حتى التخمة بالقادمين اليها . اضحت المدينة اشبه بخلية ضخمة هائجة حول مائدة فرشت بلا نظام ، والنحلات تحاول طوال الوقت كسب الموقع الأفضل وحيازة مكان مريح .

وظهر في مكان أناس جدد ، بعضهم صعد من الحضيض الى الأعلى وبعضهم الآخر سقط من الاعلى نحو الحضيض . كل ما كان

في البلد من الشمع الاحمر استهلك على ابواب محلات ومخازن وشقق الفارين . تعب النقاشون من صنع الأختام الجديدة ، وارهق الحمالون والاحصنة والثيران في نقل الاثاث من شقق الى أخرى . وانهمك الكتبة والناسخون في احصاء واستلام السلع من المخازن والمحلات أمام أعين اصحابها ، وتحولت البنايات الكبيرة ملكية عامة للمدينة وللعمال . واصبحت قوائم الجرد لا حصر لها . وقد ادخل كثير من الناس في دفاتر الجرد ، الأوراق والكتب والآلات والكيروسين والسكر والدقيق والأسلاك والادوات الحديدية والحرفيين والاطباء والمهندسين والاحصنة والبقر والطيور وآلاف السلع الاخرى الصغيرة والكبيرة ما يمشي منها على اربع أو على اثنتين .

وهدأ كفاتشي كالشرشور(١) . همد كحمل القربان وكأن الجميع قد نسوا اسمه وبيته واملاكه .

وبقيت لوحة « اتحاد اصدقاء حورچيا الحمراء » عند مدخل بيت كفاتشي كالملاك الحارس .

وظلت عبارة « لحوم للجنود الحمر » تؤدي مفعولها بفضل جهود سلبيسترو . لكن ، ذات مرة استدعي « مدير اللحوم » كفاتشي الى الثكنة واشاروا الى الحيوانات المذبوحة :

— ماهذا ، أعجل ، أم جاموس ؟

— عجل ، مع ان ...

— مع انه جاموس ، اليس كذلك ؟ حسناً هات العقد !

ما لكم تعاكسون كفاتشي ؟ دعوه وشأنه . وهو بالمقابل سيدعكم ،

(١) الشرشور : أحد أنواع الطيور المغردة .

غرامة ؟ حسنا تفضلوا ووداعاً . ابحثوا عن رجل آخر بدلا من كفاتشي !

لعل الرجل البديل سيحضر لكم بقرة بدلا من الجاموس وخروفاً بدلا من البقرة .

كيف لا !

في ذلك اليوم تملص كفاتشي الماهر من الانشوطة .

ومرت الايام . نسي الجميع اسم كفاتشي . لكن تذكروه مرة أخرى . جاء عمال الى بيته وسألوه :

— كم شخصاً يعيش في هذا البيت ؟ تسعة ؟ ؟ تسعة اشخاص في تسع غرف ؟ هذا لا يجوز يجب أن تضغطوا أنفسكم .

قاسوا الشقة ، حسبوها ، اعطوا التسعة اشخاص خمس غرف قائلين :

— هذا كثير على البورجوازيين . كفاكم ما مصصتم من دمائنا !

— فلتكن مشيئتكم ، وشكراً لكم على هذا ايها الرفاق — غمغم كفاتشي لكنه كان ضمنياً يصر على اسنانه ويقول مهدداً « آه يا قطاع الطرق لوأعطاني الله القوة يوما واحداً لأريتكم معنى « شكراً لكم » !!

أثناء تلك الفترة تسلل بافلوف الى المدينة وقال لكفاتشي :

— طبعاً ، لقد صادروا الصوف .

وقبل ان يصحو كفاتشي من هذا الخبر ، وقبل أن يتمكن من قول اية كلمة ، جاء إثر بافل بعض العمال وقالوا بعجرفة :

— سينتقل عمال الى هذا البيت ، عليك اخلاؤه من الآن وحتى الغد .

ايها الرب العظيم ! اية كارثة وقعت على رأس كفاتشي ! إخلاؤه غداً ؟ وإلى اين سيذهب هو ؟

– لقد جهزوا لكم شقة جميلة هناك في « وادي الكلاب » .

في ذلك المكان الضيق الكريه الرائحة ؟ في تلك الأكواخ ؟ هي فعلا ، « وادي الكلاب » . وكم غرفة يعطون لتسعة أشخاص ؟

– ثلاث غرف تكفيكم وتزيد . كفاكم ما مصصتم من دمائنا ! دع الاثاث ، لا تعبث به والا ..

بلغ السيل الزبى ! البيت والشقة والصوف ! فليخلعوا عنه « سره الله » هذا ما ينقص كفاتشانتيرادزه !

– لدي وثيقتان ، فأنا اعمل في لجنتين .

– احتفظ بهما ، فلن نحول اعيننا عنك بسببهما .

– يا الهي ، اي زمن حل علينا ! حتى الوثائق فقدت قيمتها . لا ، هذا مالا يستطيع كفاتشي تحمله .

آه يا « اوريخيانتس » اسم عائلة كهذا يليق بك ايها المكار النذل النشال ! لعلك الآن تنفق وتتمتع بأموال كفاتشي في باريس أو استامبول ؟ ان شاء الله لن تستمرئ اموال كفاتشي !

حقاً ! إن هذه الشقة تعوذ لـ « اتحاد أصدقاء جورجيا الحمراء » . كاد كفاتشي أن ينسى هذه الحجة العظيمة !

واستخدم كفاتشي كالدرع الأوراق التي نبشها بيسو :

– انا رئيس مجلس الادارة وها هما – سلبيسترو وبيسو عضوا مجلس الادارة . لقد ادينا خدمة جليلة للحكومة السوفيتية مثلا ..

قطع أحد العمال « سيل » كفاتشي قائلا :

– هات هذه الاوراق . سيتم النظر فيها هناك !

فعلا بلغ السيل الزبى ، لن يتحمل كفاتشي هذا ، سيعترض وسينال

حقه .في وادي الكلاب ؟ في شق مظلم حيث تعيش الدجاجات والاوز والخيول والبقر والخنازير فقط ! هذا لا شيء .

في اليوم التالي تخلص كفاتشي من الأمر ، لكن قيمة الاثاث عشرة آلاف روبل ؟ ما هذا العقاب الرباني ؟ بيسو اذهب الى « تشيورادزه » واقلب هناك كل شيء ! سلبيسترو أنت تعرف جيداً « مجافادزه » ؟ ابحث عنه فوراً وذكره بمعروفنا القديم . بوبي ، اذهبي وقابلي زوجة « شيرادزه دزابولي » وارغميها على التحرك ، أنا ايضا سأتخذ اجراءاتي .. هيا بسرعة ! تحركوا ولا تتباطؤوا والا سنصبح في الشارع .

في المساء عادوا جميعاً آملين ، يحمل كل منهم مذكرة مخيفة ووعداً بالمساعدة . وجاء العمال في اليوم التالي الى شقة كفاتشي .

— هيا ، تفضلوا واخلوا الشقة !

هذا ما لن يكون . هذه رسالة من القوميسار ، وهذه مذكرة عضو الحزب الشيوعي ! وهذا امر من البلاشفة ! لقد ادى كفاتشي عمله بالأمس . هيا انصرفوا من هنا من تلقاء انفسكم . !

مزقوا أمام أنف كفاتشي المذكرتين والرسالة ، وقذفوا بالجميع الى الشارع مع بعض الامتعة .

رموا هذه الامتعة في السيارة وصرخوا :

— هيا الى وادي الكلاب !

انتهت معركة الشقة ، خسرها كفاتشي ، أُصيب بهزيمة منكرة . لكن على قلبه مازال يثقل حجر كبيرة وعليه ان يرمي بها حالا والا سيهلك للأبد ! لا لم يعد يجدي اسلوب العناد ، على كفاتشي ان يستخدم سلاحاً آخر .

ورفع هذا السلاح . أحنى فجأة رقبته الشامخة واصبح ناعماً كالقطن . تصنّع كالثعلب :

ـ حسناً ايها الرفاق ! حسناً فليكن كل شيءٍ حسب رغبتكم . انا ابن النظام . ارادة العمال بالنسبة الي هي القانون الأعلى . انا مؤمن بدكتاتورية البروليتاريا ، لكن ماذا تفعلون مع هذا الانسان العامل المسكين ؟ ! واشار الى بافلوف الذي كان يقف في الزاوية متظاهراً بالمسكنة . نظر الجميع الى بافلوف وسألوه :

ـ من انتم ؟ وماذا تحتاجون من هنا ؟

ـ انا ؟ انا .. حارس الاتحاد .

ـ نعم هذا الشخص حارس اتحادنا ـ قال كفاتشي مؤكداً ـ ارجوك ايها الرفيق ، اتركوا هذه الغرفة للاتحاد . انها منفصلة عن بقية الغرف ، فنحن وانتم لن يضايق احدنا الآخر .

ـ غرفة جيدة ولكن ..

ـ نعم غرفة جيدة . انها مكتبي .

ـ لكن سنأخذ اثاثها .

ـ كما تشاؤون ـ قطّب كفاتشي جبينه ـ اتركوا هذه السجادة الصغيرة .. انها ذكرى من زوجتي . لم يبق عندي شيءٌ آخر من آثار تلك المسكينة التي ماتت قبل اوانها على هذه السجادة . دعوها على الحائط كما هي . اذا لم احضر لكم غداً أو بعد غد سجادة مثلها أو أفضل منها عندئذ خذوا السجادة والغرفة وافضحوني .

ـ هذه مسألة بسيطة . وهكذا سنسجل السجادة في القائمة وانت

ايها الرفيق — قال مخاطباً بافلوف المنكمش على نفسه — ابق في هذه الغرفة ، حسناً فلننته ! اخرجوا الآن من هنا واحملوا امتعتكم .

في ذلك اليوم طرد كفاتشي واسرته الى ذاك الجحز النتن ، فأغمي على بوبي وعوت نوتيو نادبة ..

« وظيفة كفاتشي الميمونة ومساعدة « السيدة » نيب »

في اليوم التالي احضر كفاتشي لـ « نزلائه » سجادة جديدة افضل ، مبقياً على السجادة الجدارية في مكانها . ولا يدري كفاتشي أيقول لبافلوف أم لا ان وراء هذه السجادة صندوقاً حديدياً مركباً ضمن الحائط ؟ وان هذا الصندوق يحوي كنز كفاتشي ؟ لا لن يقول كفاتشي شيئاً . يجب أن يكون على حذر . من يدري ربما لن يتمالك بافلوف نفسه.لا ، لا سيلزم كفاتشي الصمت ، لكن سيرتاد هذه الغرفة باستمرار ويراقب الكنز .

يجري بيسو بين مسؤولي السكن ويرتب بشكل حسن مسألة الشقة الجميلة . يصر كفاتشي على اسنانه ويزمجر سلبيسترو وتبكي بوبي دموعا مرة ، أما نوتيو فتقذف باللعنات المقذعة .

كان باستطاعة بيسو أن يحصل على شقة لنفسه،لكن كفاتشي ! لو كان كفاتشي موظفاً لحصل على كل شيء تقريبا مجانا : الشقة والماء والكهرباء والبطاطا والسكر والخبز والمقانق . لكن كفاتشي مازال حرا ، يعني انه يقف موقفا غير قانوني ، أي انه مجرد من اية حقوق .

لا تكشر يا كفاتشي ،لقد تعمدت في روسيا بالعلم الأحمر ، وبهذا العالم ابتليت ايضا في بلادك الجديدة،فلماذا نستغرب ؟ بدلا من

الامتعاض تلاءم مع الظروف ، وبدلا من الشتائم انسجم مع الحياة الجديدة واجعلها تتوافق معك . هذا والسلام ! هيا تحرك ! ادخل ، اخرج ! اضحك حين تريد البكاء ، وابك حينما ترغب بالضحك ، حسنا افردُجبيتك وارسم الابتسامة على شفتيك ، حل لسانك ، احن رقبتك ، ضعها تحت نير مساعد سكرتير متمرن .

بعد يومين اصبح كفاتشي امام خيارات عدة . لم يدر أي مكان سيحتل الاول أو الثاني أو الخامس . أخيراً قال :

— أنا اعرفهم ، اعرف طينتهم . يدسّون لك منصبا كبيراً ويعينون عليك خمسة جواسيس . رجل شريف مثلي لن يثبت في منصب كهذا شهرين في أكثر الاحتمالات ، ثم « طراخ » و .. طبعا لا يا أخي لن يخدعوني ، انا رجل صغير ويناسبني مكان صغير . وفعلا اختار كفاتشي الصغير مكاناً صغيرا . عمل في شرطة احد المواقع البعيدة واصبح مواطنا لا يلحظه أحد . وبعد أيام انتقل الى شقةلو عرضت عليه سابقاً لرضي بها عن طيبة خاطر .

اقبل كفاتشانتيرادزه على عمله بكسل وحذر وعدم رغبة . أصبح قوميسيرا لينا طيبا ، لم يتخط عتبة القانون وتجنّب الصدامات ، اختبأ في الظل وملك زمام نفسه بثبات .

كان كفاتشانتيرادزه غاية في الحذر. يمشي بلا ضجة ويتكلم همسا ويتقلب كبهلوان مربوط بحبل متين . لديه بدلا من عينيه الاثنتين عشرون عينا، وبدلا من زوج الآذان عشرة أزواج . كان عقله اليقظ يعمل كالساعة . أحياناً فقط عندما كان يئن في الظلام وحش متهور ، كان كفاتشي يقفز برشاقة كصياد هندي ويرمي ذلك الوحش دون

أن يتمكن من الصأى ، حتى أنـه لا يرى يد الصـيـاد . فيما حوله ثمة وحوش صغيرة. لكن كفاتشي لا يلوث يديه بسمكة صغيرة ، وحوت السلمون نادراً ما يقع في شبكته .

ـ كن أكثر حذراً ، بيسو كن اكثر حذراً . كثيراً ما كان كفاتشي يكرر لصديقه الذي كان يحقق النجاح في كل شيء : كمدبر للشؤون الاقتصادية وكوسيط ، بالاضافة الى آلاف الاعمال الاخرى الصغيرة منها والكبيرة .

« اتحـاد الاصدقـاء » لم يعد له وجود . ومـع ذلك بقي بافلوف يحرس غرفـة الاتحـاد وكنز كفـاتشي . قرر كفاتشي ان ينقله مرات عديدة ، لكنه لم يتجرأ . قال لنفسه « لا يستطيع الانسان ان يهرب من هؤلاء دون ان يجدوه . سيذكروني يوما ما ويعروني . لا فليبق الكنز حيث هو . لن يتمكن أحد من العثور عليه » .

كان بيسو الحذر يقول له بين الفينة والاخرى :

ـ كفاتشي ، فلنهاجر إلى الخارج قبل ان يوقعوا بنا في احدى القضايا .

ـ انتظر ، لا تتسرع ! ذاك الكنز الذي نملكه في سولولاك يكفينا طوال حياتنا ، لكن الحياة تتغير باستمرار . بدأنا عملين ننهيهما ثم نفكر ..

لكن بعد العملين جاءت اربعة اعمال ، وكرر كفاتشي كلامه :

ـ سننهي هذا ايضا .. طالما بدأنا به ، سنستمر حتى نهايته .

لم يستمر كفاتشي أكثر من شهرين في منصب « القوميسير » ، اذا شكّوا بأمره ذات مرة ، حققوا معه ، دققوا عمله وقالوا له :

ـ أنت مفصول عن العمل .

فصل كفاتشي ، لكنه وجد مكانا آخر . عمل أميناً لاحد الضناديق المالية . وما ان مرّ شهرٌ حتى قيل له :

ـ يفصل من العمل !

فصل كفاتشي . بعد ذلك استلم مدير المعمل ، لكن بعد حين أوصوا بما يلي :

ـ يطرد من العمل !

طُرد كفاتشي من عمله . بعد فترة قصيره عثر على عمل في أحد المستودعات . بعد التفتيش عليه كتبت اللجنة في ختام تقريرها :

ـ يسرح !

سرح كفاتشي ما يقارب العشر مرات ، لكنه بقي يعمل . كان في كل اسبوع يكتب استمارة أو اثنتين . يسألونه : المهنة السابقة لوالدك؟ الجواب : عامل زراعي ، الثقافة ؟ الجواب : فلاح . ماضيك الثوري ؟ ويملأ كفاتشي عندئذ صفحة كاملة . اين كنتم في شباط (فبراير) ١٩١٧ ؟ الجواب : في حضم الثورة . وفي ثورة اوكتوبر ؟ الجواب : في بطرسبورغ الى جانب الحمر .

ـ في أي حزب عملتم ؟

ـ لم انضم إلى أي حزب ـ ساندت ثورة اوكتوبر .

ـ والآن الى أي حزب تنتمون ؟

ـ لا انتمي الى أي حزب .

ـ الى أي الاحزاب تميل ؟

= الى الشيوعيين فقط .

يكتب كفاتشي الاستمارات وكتب التعهد بالاخلاص والولاء ، ثم يتلقى بعدئذ جوايا كهذا :

– يطرد .. يسرح .. لا يسمح له بالاقتراب !

ما السبب ؟ ماذا حدث ؟ لماذا لا تدعون كفاتشي كفاتشانتيرادزه وشأنه ! لماذا تلاحقونه ككلاب الصيد ؟ لماذا تطاردونه حيثما وجد ككلب أجرب ؟ الا يجب أن يعيش احد سواكم في هذا العالم ؟ قولوا في وجهه سببا لهذه الملاحقة !

كفاتشي أمير ؟ هذا ليس صحيحا ! من النبلاء ؟ . كذب !

من سمع أن كفاتشانتيرادزه أميرٌ أو من النبلاء ؟ كفاتشي فلاح ، فلاح حقيقي ! « وأشورديا » ؟ – هذا ايضا كذب ! احسبوا ذلك بانفسكم . لقد كان عمر كفاتشي حينذاك خمس سنين فقط .

ياور القيصر ؟ صداقة راسبوتين ؟ – محض افتراء ! ألم يدفع كفاتشي ثمن عار كهذا عشرات المرات ؟ وهل ما قام به كفاتشي تجاه الثورة عمل يسير ؟

الوثائق – ؟ – الشهود ؟ – جيد جداً ، سيقدم كفاتشي الف وثيقة ويبرهن أن ..

كن حذرا يا كفاتشي ، دع الوثائق والبراهين جانبا . اذا بدأ البحث سيجدون الى جانب الوثيقة الخامسة الوثيقة السادسة . اذا وجدوا وثيقة واحدة سيدسون أنوفهم في الوثيقة الثانية والثالثة وعندئذ .. اذا نزعوا عنك ثيابك سيخلعون قميصك ويعرونك بشكل لن تبقى معه نقطة واحدة مخيفة . دع الماضي ، لا تفتح قلبك ، لا تخلع ثيابك ، لا تتدخل في انشوطة مصيرك والا لن تتمكن من الخروج ، ولو حاولت عشرات المرات ، بل ستلتف على رقبتك وان ينفعك مكرك .

إذاً دعوا كفاتشي وشأنه . وهو بدوره سيكف عنكم . لم يعد يرغب بالخدمة لديكم أو باعترافكم بجميله أو بترشيحكم له للحزب ، ولم يعد يرغب بالاسم الثوري . لقد مات كفاتشي ، لم يعد له وجود ! اهدموا عمله . مزقوا معروضه . اضربوا بتلك الاوراق عرض الحائط !

هكذا .: نعم هكذا ! شكراً ، شكراً جزيلا لكم . والآن انسوا للأبد كفاتشي ووداعا ! مرحبا ايتها السيدة « نيب – السياسة الاقتصادية الجديدة » ! أهلاً بك ! ممجد يوم ميلادك وممجد اليد اليمنى التي كانت سببا في ايجادك، وأخيراً انقشعت الظلمة ، أخيرا انبلج النور وعم الضياء . اجلسي ايتها السيدة — « السياسة الاقتصادية الجديدة » ، افتحوا المجلات والاكشاك التجارية ، تنزهوا من الصباح والى الصباح ، اقيموا الحفلات من المساء والى المساء ! ، اديروا « الروليت » ، العبوا « التسعة » و « البنك(١) . اشتروا ... بيعوا .. اربحوا .. اخسروا .. كلوا ، أشربوا ، عيشوا ودعوا الآخرين يعيشون .

كفاتشي كفاتشانتيرادزه ! أهنئك بالفصح ! لقد عادت اليك أيامك الماضية . تحررت يداك ورجلاك . هيا تحرك برشاقة مرة أخرى ! أظهر لمن اضاعوا حقوقك، عضلاتك وسرعة رجليك ، افتح ذراعيك القويتين وليتقد ذهنك الصافي ، مد خيوطك الحريرية ، انصب افخاخك الذهبية . والق يشباكك الظالمة ! هيا تحرك ؛ انشط بسرعة ومهارة ! هيا ! اضرب ! .

كان كفاتشي كفاتشانتيرادزه يعمل ويلف بحيث لا يبقى من اعماله وآثاره سوى زوبعة من الدخان والغبار .

---

(١) التسعة والبنك — لعبتان من لعب الورق .

وانتعشت شركة « سيبونيون » من جديد وافتتحت خمسة اقسام لها . ومن جديد اصبح يعمل ، لدى كفاتشي ، جيش من الموظفين .

ـ بافل ، انتقل انت الى باكو واشتر الصوف المحلي والنفط والكافيار وشرانق الحرير والقطن . وأنت يا سلبيسترو انتقل الى غرفة بافل واحرس كنز كفاتشي الذي سينمو باضطراد . وأنت يا «كوليا» سافر الى باطوم . باطوم الآن معين ذهبي لا ينضب . حسنا . تحركوا بسرعة ، تهيؤوا للسفر ! اسلكوا بجرأة ومهارة !

ـ جليل يا صديقي جليل ! الحمد لله لأنك عدت . تعال لأضمك !

ـ آغــا كفاتشي شكر الله(١) أنا مسرور لرؤيتك حيا .

ـ أين كنت يا جليل ؟

ـ في احدى النواحي . جمعت بعض المال .

ـ اية ناحية يا جليل ؟

ـ هناك شاهدت استامبول قليلا ، وعشت في مناطق اخرى .

إذاً انت حي ايها الامير ؟

. شكراً لله .

ـ جليل اترغب ان تكون رفيقي مرة اخرى ؟

ـ جليل صديقك دائماً .

ـ حسنا اهلا وسهلا . اعطني يدك ، حان الآن موعد الذهاب الى النادي ، هيا ورائي !

كان اليوم بالنسبة الى كفاتشي يتألف من مائة ساعة . فالاعمال

(١) وردت تلك العبارة بلفظها العربي

لديه كثيرة . لذا كان يطير بدلاً من المشي ويلف كالدوامة اثناء العمل .

كان يعيش كفاتشانتيرادزه وكأن العام قد تحول الى يوم واليوم قد تحول إلى ثانية . .

لم يعد يدري سلبيسترو عــدد الاموال والنساء ، لم يعد يدري كفاتشي ممن وكم سيقبض ! حمل بيسو كافة الحسابات في رأسه . في البداية اخطأت الدفاتر الحسابية التي امتلأت كتابة،ثم غطاها الغبار واصبحت طعاماً للفئران . في كل يوم كان كفاتشي يتلقى عشرات البرقيات : « هبط سعر الدولار .. ارتفع سعر الجنيه الاسترليني .. ارتفع سعر السكر .. رخص التبغ .. »

كان كفاتشي يمضي اليوم خارجاً داخلا الى مكتبه ، يحسبون ، يبيعون ، ويشترون ويكاد الوقت لا يكفي كفاتشي لاصدار اوامره الكثيرة :

ـــ اشتروا .. بيعوا .. لا أريد ! .. اعطوا .. استبدلوا .. احسبوا ..

في الصباح يكون صندوق كفاتشي ممتلئا تماما . وبعد ساعة يصبح فارغا لا يتوفر فيه دولار او روبل واحد . وبعد نصف ساعة تمتلئ الغرفة بالأكياس الممتلئة بالأوراق النقدية يحيط بها الموظفون ، يجهزونها رزما ـــ رزما ويضعونها في عربة ويستبدلونها بـ« شيك » صغير .

يشتري كفاتشي السلع ويبيعها دون أن يعاينها ، وما حاجته الى ذلك ؟ لقد اعادت « السياسة الاقتصادية الجديدة ـــ النيب » النظام القديم . في الحقيقة لم يمر يوم واحد دون ضجة وجدال في مكتب كفاتشي ! .

بقي القليل من الدساسين ، وأي شيء لا يكون سبباً للصراع مع

كفاتشي ؟ ! إما أن يكون « شيكه » مشكوكاً في أمره،أو ان اكياسه تنقص منها عدة ملايين،وإما أن يكون سكره مبللا ، أو تكون خيوطه فاسدة . لم يصعد كفاتشي الى الباخرة ولم يدخل الى عربة قطار ، لم يصب الماء على القطن ولم يضف حجارة الى الصوف ولم يخرج اموالا من الأكياس،وهو لا يدري : امزيف شيك المصرف البريطاني أم لا .. ارسلوا هذا الشيك الى لندن واستفسروا عما اذا كان الشيك مزيفاً ، ابحثوا عن جون رواليسون . اما فيما يخص القضايا الأخرى ، اشتكوا ضد كفاتشي ان شئتم . ارفعوا دعاوى في المحكمة وانتظروا عاماً او اربعين . حسناً ، انهوا الحديث ، لا تصرخوا ولا تشتموا والا .. يا جليل هيا رافق هذا السيد حتى الباب ! أمازلتم تهددون ؟ عبثاً تحتدون.لو عرفتم مقدرة جيوب كفاتشي وقوة تأثيره لما اضعتم وقتكم .

ماذا يفعل كفاتشي ؟ لا شي أبداً . يبيع ويشترى كل ما تقع عليه يداه : عملة صعبة ، أوراقا مالية ، منابع نفطية ، أوراقا حكومية ، اسهما باطلة ومختلف الوثائق الاقتصادية ورخص التجارة الخارجية لتصدير مختلف السلع ، يكدسها في بيته دون طلب من قبل أصحابها.أحياناً يبيع الهواء ، وأحياناً يلتزم تعهدات لايقوم بتنفيذها ..

لكن لابأس . المهم ان يتلقى كفاتشي العربون ويدخله في التداول / الدورة المالية / . وكل الامور الباقية تسوى من تلقاء نفسها ، أحب كفاتشي بشكل خاص الشركات والمعامل والتعاونيات ، حيث تتوفر لها الاموال والبضائع والاداريون الاغرار . .

يثقون بكفاتشي ؟ واي سؤال هذا ؟ اذا لم يثقوا بكفاتشي فبمن يثقون اذاً ؟ لديه ثروة لا حصر لها : القصر الذي ستعود ملكيته اليه ، عاجلا أم آجلا بعد أن يغادر الحمر أو بعد أن يتنازلوا عنه طواعية ،

البيت الصيفي والحديقة في سوخومي ومزرعة في باطوم ، البضائع التي ليست له والمكدسة في مستودعاته ، الأسهم التي لا تقدر بثمن ، مختلف الاوراق القيمة .. واخيرا : كلمة الشرف ! نعم كلمة الشرف التي لم تخدع انساناً ابدا .

لكن ذات مرة تغير شيءٌ ما في مكان ما . فجأة دخلوا مكتب كفاتشي ، نقبوه وحملوا كميات كبيرة من العملة الصعبة واقتادوا كفاتشي قائلين :

ـ انتم تتعاملون بالمضاربة والربح غير المشروع .

ـ أنا أتاجر ، لي الحق في التجارة قانونا .

ـ هذه ليست تجارة،بل ربح غير مشروع

ـ بل تجارة .

ـ اقول ، ربح غير مشروع .

بعد عدة ساعات تفصدوا عرقا وهم يبحثون عن الحدود الفاصلة بين التجارة والمضاربة . أخيراً قالوا :

ـ اخرجوا . لكن اذا ضبطناكم مرة اخرى ..

ـ واموالي ؟

ـ اشكرنا اذ لم نرسلك الى سجن « ميتخسكايا » .

ـ سأحتج !

ـ عندئذ ستذهبون الى « ميتخسكايا » .

ـ لا ، لا اعذروني ! لقد فهمت الآن الفرق . اسحب كلماتي . الى اللقاء ! .

رجع كفاتشي الى بيته وهو يشد على قبضتيه ويصر على اسنانه

ويشتم باللغة التترية . لم يبتسم طوال أسبوع ولم يجف السم عن شفتيه ، لكن لم يسترح رأسه ورجلاه ساعة واحدة .

بدأ من جديد بالسعي خافض الرأس وهو « يدبّر » الاعمال بحذر كبير .

مر اسبوعان اثنان . رمم كفاتشي ما ضاع منه ، ووقف منتصباً ونسي الغرامة ، لكن الآخرين لم ينسوا .

مرة اخرى أمسكوا بتلابيبه وأفرغوا جيوبه وصندوقه .

— لقد اشتغلتم بتبديل العملات ؟

— نعم اشتغلت .

لم يخرج كفاتشي من ذلك البناء قبل مضي شهر ، لكنه عانى الحزن هناك وترك الغيظ في نفس المكان .

احنى رقبته كثور الحراثة وسار في طريقه من جديد .

— بيسو ، قال احيانا لصديقه المخلص — لم يعد العمل مجديا هنا على ما يبدو . لا يمكن تصدير أو استيراد البضائع أو القيام باعمال تكسب العملة الصعبة . لقد جاؤوا بهذا الـ « تشيرفونيتس(١) » نكاية بنا فحرمونا من الربح الذي نجنيه من تبادل العملات ، حسب القانون الجديد لن يسمحوا لنا بالاقتراب من الشركات ، والمصارف لا تقدم قروضاً بعد الآن . سنغطس اليوم أو غدا ، من يعلم عدد المفلسين ؟

— فلنسافر يا كفاتشي ، فلنسافر من هذه البلاد وإلا متنا جوعا . تستحيل الحياة هنا لغير العاملين .

---

(١) تشيرفونيتس : بطاقة نقدية ذات اعتماد مصرفي من فئة العشرة روبلات ، طرحت في التداول من عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ .

ـ انتظر ، بيسو ، انتظر ،سنسافر بعد أن استعيد ما أضعته .

لكن الخسارة تلت الخسارة ، والغرامة جاءت تلو الغرامة والسجن وراء السجن .

اضمحل كفاتشي يوماً عن يوم . في البداية أغلق مكتب «سيبونيون » في باكو ، ثم كسدت التجارة في باطوم ، وضيقوا على كفاتشي مما اضطره اخيراً لأن يصفق باب مكتبه ويقول لبيسو :

ـ بع كل شيء غداً أو بعد غد ، وسرح كافة العاملين واعلن لكافة الزبائن بأن « سيبونيون » قد اغلق ، انتهى كل شيء ، اصبحت الحياة والعمل هنا أمراً مستحيلا . فلنمض يا جليل ! منذ ذلك اليوم تحول كفاتشي من جديد الى مواطن حر . يتجول بلا عمل في شارع « روستافيلي » ، ويمضي الليالي في النوادي والمطاعم ، يشرب ويلاحق النساء ويلعب القمار ، ورجع سلبيسترو مرة أخرى الى كوتايسي واشترى في شارع « بالاخفانسكايا » بيتاً عتيقاً ، واستقر فيه . نصح سلبيسترو مراراً كفاتشي بالانتقال الى كوتايسي ، لكن كفاتشي لم يشخ بعد كي يعود الى كوتايسي الخاوية .

ذات مرة دخل بيسو غرفة كفاتشي مقطباً وأعلن بهدوء :

ـ لقد انتهينا الآن

ـ ما الأمر يا بيسو ؟

ـ لقد هرب بافل .

ـ ماذا تقول يا بيسو ؟

ـ اقول لقد هرب ، حمل امتعته وهرب أول أمس .

ـ والكنز ؟

ـ فتح الصندوق الحديدي وأخذ كل شيءٌ .

لم يتمكن كفاتشي من أصدار أي صوت . صمت بيسو وحملق جليل بعينيه منتظراً استجلاء الأمر . أخيراً نهض كفاتشي كازاً على اسنانه وقال :

ـ جهزوا انفسكم ! ستسافر يا جليل الى باطوم ، وانت يا بيسو ستسافر الى فلاديفستوك ، ومن هناك ستصعد الى روستوف . أما انا فسأسافر الى باكو . هيا بسرعة ، سنسافر اليوم .. آه ايها الوغد لو تمكنت من القبض عليك !

سأل جليل :

ـ أنا لا أدري أيها الآغا ماذا اقترف بافل ؟

ـ سرق ، سرق الاموال !

ـ سرق الاموال ؟ أي . . ي كيفلـ ـأوغلي ات دونغوز !

ـ اسمعاني ـ اعطى كفاتشي نصائحه لصديقيه ـ لا تنبسا بكلمة . لا تخبرا الشرطة والا سيفهمون كل شيءٌ ، وعندئذ سنهلك جميعا . إذا وجدتما بافل اخنقاه ان لم يحضر الكنز حالا ، واستدعياني ببرقية . هيا جهزا نفسيكما !

ومضى الثلاثة في طرق ثلاث وراء بافل الذي ابتلعته الأرض .

بعد اسبوع رجع كفاتشي الى تفليس ، وعاد في تلك الفترة جليل وقال :

ـ لم أجد ابن الكلب .

وبعد اسبوع آخر وصل بيسو ايضا .

ـ لم أجد أثراً له .

ومنذ ذلك اليوم بدأ كفاتشي يشحب يوما عن يوم . تغلب الحزن عليه وذاب . فقدت النقود قيمتها في نظره واضحت الحياة مملة. كان احيانا يحصل بقفزة ماهرة على محفظة نقود ذهبية ، لكن في اليوم التالي لا تبقى لديه قطعة ذهبية واحدة . وفقد عمله ظرافته السابقة ـ اضاع كفاتشي مرونته ومهارته وألمعيته ، واصبح ذكاؤه يخبو كثيراً وغدت عيناه أقل حدة في الرؤية ، وظهرت خشونة يده على اعماله « المدبرة ».لم ينطق بكلمة واحدة في السياسة ، وبفضل الله لم ينبش أحد ماضيه .

اخيراً ، نحل ابن سلبيسترو وضعف ، واستدان من هنا وهناك الذهب دون أن يفكر بغده .

« كيف خطب كفاتشي »

ـ هيا ، طر !

ـ انتظروا ، ايها الرفيق ، فالظلام دامس .

ـ ادخل ، يقال لك !

تنفس اليكسي اريمادزه الصعداء ، تشجع ثم خطا عبر الظلمة ، وفي تلك الدقيقة اغلق الباب خلفه وسمع صرير المفتاح ودقات الحزمة الثقيلة للحارس الذي ابتعد . ثم ساد الهدوء .

فجأة سمع من أعماق الظلمة :

ـ أي .. ي ، من هناك ؟

فرح اريمادزه ، عادت اليه ملكة النطق وهمس كما يهمس المسنون:

ـ هذا أنا ، سجين . ساعدني من أجل الاله : ارني الطريق .

ـ انا لا أومن لا بالشيطان ولا بالاله !

ـ من أجل الاله ! ـ قال اريمادزه بصوت أجش .

ـ لقد قلت لك انني لا أؤمن بالله ، لكن اذا كان لديك تبغ اساعدك !

ـ لقد اخذوا تبغي .

ـ فلتأخذهم الشياطين .. هم .. بم اسمع ، كائناً من كنت ، امش بمحاذاة الحائط وعد عشرين خطوة . بهدوء فالدرج رطب ، لا تنزلق اذ ستسقط في الهاوية . حسناً هل ستمشي ؟

ـ ها انا امشي ـ اجابه وهو يعد خطواته ـ خمسة .. عشرة .. خمس عشرة .. عشرون ! والآن أأمشي مستقيماً ؟

ـ قف حيث انت لا تتابع والا سقطت في البئر .

ـ ماذا تقول ايها الاخ ؟ كيف يكون بئر هنا ؟

ـ اقول لك لا تتجاسر والا هلكت ، في وسط القبو بئر محفورة ، وهذه البئر مليئة بالأفاعي والسحالي والضفادع والكلاب . انعطفْ نحو اليمين وامش بمحاذاة الحائط . لا تفلت الحائط من بين يديك والا هلكت . ها أنا قادم ، أين أنت ؟ .

ـ انا هنا ـ قال اريمادزه بصوت كالمواء والتصق بجسده بالحائط الرطب وغمغم اثناء ذلك : ـ لا يؤمنون بالله ، ما هذه التعاسة . يقذفون انساناً حياً في هاوية سحيقة طعاماً للأفاعي والسحالي ؟ ايها الرب القدير كم هو شديد هذا الظلام . وزحف عبر تلك الظلمة بحذر باحثاً بيديه ورجليه متفحصاً يقيس كل فيرشوك *

---

* فيرشوك : وحدة لقياس الطول تساوي٤٫٤

— كن حذراً ايها الزميل . كن حذراً ، اقول لك والا حدثت مصيبة . سقط اليوم صباحاً احد الأرمن . حسناً ، أين انت ؟

— انا هنا .. قادم .

واخيرا تصادما في الظلمة . وامسكا أحدهما بيد الآخر .

— مرحباً .

— فليهبك الله الصحة !

— حسناً ، امش ورائي ، كن حذراً ، لا تسحب يدك عن الجدار .

مشيا ما يقارب العشر خطوات .

— وصلنا الى مكان امين . اجلس الآن وحدثنا !

— لك جزيل الشكر ، وليمنحك الله السكينة . ما اشد هذه الظلمة !

— اجلس وستعتادها . قص علي الآن ما الجديد في المدينة ؟ فانا لم ار السماء منذ شهر

— انتظر يا عزيزي . لقد قلت منذ برهة أن أرمنياً وقع هذه الصباح في الهوة ؟

ثمة شخص ضحك ضحكاً مكبوتاً .

— أيوجد احد هنا غيرنا ؟

— مالك اتضحك ايها التتري ! صرخ الاول — يدعى هذا التتري جليل ، مم تضحك ؟ قل !

— جرذ اكل رجلي ، اقسم بالله اكلها !

— ايها التتري ، لا تقسم بربنا . ان شئت القسم فاقسم بسيدك محمد .

هل اكل الجرذ رجلك ؟ بالأمس سرقوا قبعتي الفروية ، وجروها الى الوكر .

— أوى ! ماء اريمادزه وقفز — لقد نط جرذ ضخم على ركبتي .
قهقه السجينان الآخران بشكل اهتزت معه الجدران .
— هذا يضحككما ، اذا اعتدتما ،لكن كم هو صعب علي —
تمتم اريمادزه قائلاً :
— اجلس ايها الزميل ، اجلس ، يجب ان تعتاد . الجرذ بلبلٌ بالمقارنة مع الأفاعي.ماذا ؟ خفت . لابأس . استلق بيننا هكذا ! جليل احرس الضيف الجديد من جهتك . سنعتني بك . ماذا عن الأرمني ؟ اجل هذا الصباح تزحلق وسقط في الحفرة ، التصق بالجدار،لا تزحف نحو الأسفل والا .. لقد سقط في البئر والآن تأكل الافاعي والكلاب جثته ، ماذا قلت؟عميقة ؟ قلت لك : لا قرار لها . هاكِ اسمع !سأرمي حجرة صغيرة واحد — اثنان — ثلاثة . قذفتها .
صمت الجميع وانصتوا . بعد عشر ثوان وصل صوت خافت وكأن تلك الحجرة قد سقطت في هوة سحيقة .
— ايها الرب العظيم ! — قال اريمادزه وهو يئن .
قهقهة التتري من جديد .
— يعني ايها الزميل ، اذا ابتعدت عن الجدار ثلاث خطوات تنتقل الى جوار جدي خلال ثلاث دقائق وتختنق من رائحة الجثة .
بدأ أريمادزه يتشمم ما حوله .
— فعلا رائحة الجثة . من يدري عدد الذين ماتوا !
—.ومن يعدهم ! اسمعني ايها العم سأعرفك بالقوانين المحلية . سيفيدك هذا .
تذكر جيداً : ما تراه وتسمعه اليوم يجب ان يبقى سراً دفيناً .

اذا همست بأية. كلمة ينتهي امرك . يمسكون بك فوراً ويلقون بك في هذه الهوة . فهمت ؟ حفظت هذا جيداً ؟ .

— ساعدنا يا رب ! فهمت وحفظت . شكراً جزيلا من اجل هذه الموعظة . لقد سمعت في المدينة انه اذا ما نبس أحدٌ بكلمة واحدة... يتحدثون كثيراً عن هذه الاماكن .

— يقولون الحقيقة . كل ما يرى يسمع هنا يعتبر سراً حكومياً ، يعاقبون الثرثار كما يعاقب الخائن أو الجاسوس . والآن انت تعرف كل شيءٌ ايها العم والامر يعود لك فيما تبقى !

— شكراً جزيلا يا عزيزي . انا ممتن لك . انا لم أكن ثرثاراً في شبابي ، فكيف في شيخوختي ؟ اظن ان الشيطان نفسه لا يستطيع إغوائي .

— فعلا من أنت ايها العم ؟ وعلام وصلت الى هنا ؟ آن الأوان لنتعارف !

— أنا أريمادزه يا عزيزي ، اليكسي اريمادزه .

— أليكسي اريمادزه . اصابني الله بالعمى ، لماذا لم تقولوا لي منذ البداية يا عزيزي . عارٌ على أليكسي اريمادزه في هذا القبو ؟ ابو صديقي « سيلوفان » ، عارٌ على رأسي يا لحزني انا الشقي !

وبدأ الرجل المجهول يتحرك في العتمة مستعجلا ، يتلمس بيديه ويصرخ في وجه التتري آمراً :

— أسرع يا جليل ، اعطني معطفك ، وها هو معطفي ، افرشه على الأرض ، ايها العم أليكسي والا تعرضت للمرض ، وماذا عندئذ سأقول لصديقي سيلوفان ؟ تعال الى هنا ايها العم ، التصق قليلا فليبلني

الله بالعمى . لماذا لم تقل هذا منذ البداية ايها العم . لقد كادوا ان يلقوا بالعم اليكسي .

جليل احضر : هيا ، خبزاً وماء . ماذا انتهى الخبر ؟ اعذرونا ايها العم ، حتى بالخبر لا نستطيع ان نضيفك آى . آى اين قابلت ابا صديقي « سيلوفان » ومن انا ؟ الأخ والصديق المفضل لدى سيلوفان — كفاتشي كفاتشانتيرادزه تعرفني . من بعيد ؟ لقد عشت مع سيلوفان خمس سنين في بطرسبورغ آه.. يا عزيزي سيلوفان ! لن تجد له مثيلا في العالم كله . هو الآن في المانيا أليس كذلك ؟ اعرف ، ايها العم اعرف . حينما سافر لم أكن موجوداً في المدينة ، والا لما استغنى عني ساعة واحدة .

انا أيضا كنت مزمعاً على السفر الى المانيا ، لكن ذلك لم يتيسّر لي .

حبيبي سيلوفان ، يا له من شاب ! يا له من شهم ! ليس له شبيه في جورجيا كلها . سيصبح عالماً ويشغل العالم بالحديث عنه .

تذكر كلمتي هذه ايها العم الكسي . اذا اخطأت لا تدعني اقرب منك ، آه يا صديقي سيلوفان الذي لايمكن أن أجد بديلا له .

خلال عشر دقائق وصف كفاتشي بكلمات سريعة حياته المشتركة مع سيلوفان : دراسته غرامياته ،ونضاله وسجنه ونفيه وعودته وألفاً من الحوادث الأخرى .

لا أحد يعلم كم مرة ضحى كفاتشي بنفسه في سبيل سيلوفان ، وكم مرة انقذه من خطر داهم !

حقا ، منذ عشر سنوات بقيت في ذمة سيلوفان بعض « الفلوس » ! لكن اشياء صغيرة كهذه لا يجوز الوقوف عندها . كم ؟ ما يقارب

الثلاثمائة روبل . لا تقلق ايها العم اليكسي ، حين سيعود سيلوفان ، سيسدد لك كفاتشي وسيلوفان المبلغ . ثم اتضح التالي :

منذ عشرة ايام فتشوا المربي المحترم الكسي اريمادزه ووجدوا لديه منشوراً ، أصر الكسي على موقفه : لقد دس الي هذا المنشور ولم أتلقاه يداً بيد . لذا لا استطيع ان اسمي أحداً . وكان المحقق واثقاً من ان الكسي قد روج لهذا المنشور ، ونظراً لاصرار الكسي على النكران فقذ القوابه في هذا القبو المظلم الرطب. هذا كل ما حدث لا أكثر .

— وكيف حصلت الحادثة كم ؟

— هكذا فعلياً بكل بساطة !

يصادف الخامس من نيسان عيد ميلاد « يلينا » — الابنة العازب لألكسي . أقيمت ، كالعادة ، حفلة عشاء حضرها عشرات الضيوف . امضوا وقتا ممتعا ، ثم انصرفوا في السادسة صباحا . انحنى الكسي وهمس في اذن كفاتشي . :

— احدهم تجسس علي ، ثرثر في مكان . انا الآن متهم بانني قرأت هذا المنشور في حفلة العشاء . انّى لي أن اخفي شيئاً عن اخ وصديق ابني سيلوفان ! انا فعلا قرأته . كانت لدي عدة نسخ ، وقد وزعتها علي الضيوف . أحدهم غدر بي .

وقص كفاتشانتيرادزه ايضا على الكسي قصته التي هي اكثر بساطة وبراءة من قصة الكسي .

في أحد أيام الربيع ، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، سُرق رجل ارمني في شارع تسخنيتكسكايا ، وبعد شهر ، ودون أي سبب ، قبضوا على كفاتشي ورموه في هذا القبو . يسألونه اين كنت في الخامس

من نيسان الساعة الثانية صباحاً ؟ كفاتشي لم يعد يتذكر . هو ليس صبياً كي يكتب مذكراته . أمضى شهراً وهو يفكر، لكنه لم يستطع التذكر . يهددونه بالاعدام . صاحب الشقة التي يسكنها كفاتشي وزوجته والاصدقاء يكررون بعناد :

نتذكر جيداً ان كفاتشي لم يكن في البيت ليلة الخامس من نيسان . لعلهم تآمروا عليه وقرروا هلاكه ، فثلاثتهم رجعيون ، أما كفاتشي فالبلاد كلها تعرف انه ثوري . لقد سجن ونفي . هذا هو السبب الحقيقي لعدائهم .

شيء مضحك ! كفاتشي كفاتشانتيرادزه يتهم بسلب انسان ! لعل جورجيا بأكملها تضحك من هذا . أيعقل هذا : امن أجل هذا أنفق سلبيسترو كفاتشا نتيرادزه روبلا ذهبياً ، وهيأ له الفرصة ليطوف كافة انحاء العالم ؟ كي يصبح قاطع طريق ؟ ! ومن ؟ كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟ آه ، آه ! لماذا لاينقلب هذا العالم آه . آه صرخ كفاتشي فجأة .

كان واضحاً ان افكاره قد قادته بعيداً . وبدأ الكسي حديثاً مع جليل عن مصير السجناء ، وعن الانظمة المحلية وعن الحفرة ، فجأة أمسك كفاتشي بيد الكسي وقال له وقد أشرف على البكاء :

— ايها العم الكسي ، ساعدوني .

— كيف يا بني ، كيف سأساعدك ؟

— سيلوفان حبيبي ، ايها العم ، من أجله ساعدوني ، انقذوني . أنا معيل لوالدي العجوزين وعشرات الأقارب . انا شاب بعمر ابنكم

سيلوفان . سأموت يوماً . إعلم انه لا مناص من ذلك .. انتم تستطيعون مساعدتي تستطيعون . . ايها العم . . يا عم .. وفي نفس الوقت أغرق يدي الكسي بالدموع وقبلهما .

أشفق الكسي عليه وقبله في جبينه صامتاً ومسد شعره .

— قل ، ايها البائس . قل . ان استطعت سأساعدك وكيف لا أساعدك .. نحن مسيحيون ، نحن اخوة ، قل ، كيف ساساعدك ؟

— في الخامس من نيسان كانت لديك حفلة العشاء ، اليس كذلك ؟

— نعم في الخامس من نيسان وبعد ؟

— انا ايضاً في الخامس من نيسان ارتكبت .. كما يدعون في الثانية صباحا سلبت ذاك الأرمني . في هذه النقطة عليكم مساعدتي ايها العم ، يجب أن تكون شاهداً . قولوا انني كنت ايضاً في تلك الحفلة . أستحلفكم بشيبتكم ان تقولوا هذا وسأصبح عبداً لكم !

— حسناً . لكن .. لقد شارك في هذه الحفلة اكثر من عشرة ضيوف .

— هذا لا شيء ، ايها العم ، ان شئتم كل شيء . اسمعوا .. سيطلقون سراحك اليوم أو غداً . حتماً سيطلقون سراحكم ، لديكم الكثير من الناس الذين سيساعدونكم حين تخرجون . اذهبوا الى ضيوفكم وزوروهم . لا تدعوني اهلك . حين سأخرج سأكافئ الجميع .. بعد اسبوع من خروجكم سأتذكركم واطلبكم شاهداً — في الخامس من نيسان كنت لدى اريمادزه .

— حسناً ، ولكن ..

— انتظروا ، ايها العم . انتظروا . ستطلبون من الضيوف ان يقولوا

بان كفاتشي كفاتشانتيرادزه قد حضر الحفلة . لقد اكملت الخامسة والثلاثين من عمري ، طويل ، اسمر ، أجعد الشعر ، حليق الذقن دقيق الشاربين . وثمة آثار جرح على اسفل ذقنه . لا تخافوا ، لن يدري احد بما اتفقنا عليه ، لا سيما وان لدينا محققين مختلفين . كونوا مطمئنين والآن قولوا من كان في ضيافتكم ؟

– فانو كالياشفيلي دوركوبيبيا .. بيتسو غوغوليا .

– اعرف غوغوليا وبيبيا ، والباقون ؟

– بوبي لوميدزه ، داريسبان شيليدزه .

– اعرف الاثنين ايها العم ، اعرف وغيرهم ؟

– سيلوفان شيرادزه .. ميخابير يشفيلي .. تاكو الافيدزه ..

– اعرف ، ايها العم ، اعرف الجميع تقريباً ! – كرر كفاتشي كلامه فرحا .

– حسناً يا بني حسناً . اذا أخر جوني سأمر على الجميع واطلب اليهم ذلك .

اصبح كفاتشي في السماء السابعة فرحاً . اعتنى بألكسي ، ولم يعد يدري كيف يحقق له رغباته . صرخ :

– جليل ، ايها التتري ، الا تدري مع من تتحدث ؟ لن تجد في جورجيا كلها رجلا مثقفا وعالماً كهذا . لو أن لدى التتريين رجلا مثله لأجلسوه على عرش السلطنة يا جليل ! اقترب قليلا كي لا يقع العم الكسي في الحفرة . عندئذ سألقي بك وراءه ..

عفواً ايها العم عفوا ! انا لا استطيع ان احقق لكم رغبة ، يا لحزني ! اين قابلت العم الكسي ! لا يتوفر طعام أو شراب أو تبغ .

ماذا افعل ! ؟ اذا ساعدتموني ايها العم وخرجت حينذاك اعرف كيف أرد الجميل .

ـ لا عليك يا بني . لابأس علي،سأتحمل كل شيء . الفئران والجرذان يزعجونني .. لكن ...

ـ جليل أدّ واجبك ، لا تدع واحدة تقترب ، والا الويل لك . هيا.!

ـ تك ـ تاك ، أيها الملاعين ـ قال جليل وضرب الارض بيديه وماء : مياو ، مياو ، مياو ...

اثناء ذلك ضحك الجميع من أعماقهم وتمازحوا .

ـ جليل ، حدّث العم الكسي عن صديقتك « ماروسا » ـ قال كفاتشانتيرادزه وبدأ يضحك سلفاً .

ضحك جليل ايضاً متنهداً ساخراً في نفسه ، وكتعبير عن الندم بدأ يلطم جبهته ويقول :

ـ أوى ، احمق ، احمق انت يا جليل اوى ، أوى ، أوى !

اخيراً بدأ قصته .

ترعرع جليل في جورجيا ، توظف تارة وتاجر تارة اخرى ، واستأجر الحمام ذات مرة . ساعد ، أثناء ذلك،وبشكل خفي ، الثورة والاتراك وكان له تأثيره . أقام ايضاً في ايران بين قوات « ستّارخان » . اصطحبه الأكتع فلاس مغيلارزه .

طاف هنالك طويلا ، وعاد ببعض الغنائم ، ثم سافر الى اوديسا ليتاجر ، وصادف في طريقه كفاتشانتيرادزه ـ آغا والتصق به . ورافق منذ ذلك الوقت كفاتشي في تجواله في هذا العالم . كان جليل يتخلف أحياناً عن كفاتشي ويسير مستقلا في طريقه ، لكن مهما ابتعد كان يعود بعدئذ إليه ليرافقه . حارب في « اندريابول » وفي « تشاتابلجا »

وساعد السكان العرب في طرابلس ، فأسره الايطاليون . ثم عاد من جديد ببعض الغنائم وعمل بالتجارة . اين كان جليل زمن الحرب العالمية الاولى ؟ كان جليل يتحاشى تذكر ذلك .

بعد عودة الجنود الروس إلى ديارهم كان جليل في « قارص » ، وحين استولى الاتراك على باطوم كان جليل قريباً منها . وعندما زار البطل البغدادي « خليل باشا » مدينة تفليس استقبله جليل ، وقام بخدمته ؛ وهو يعرف جيداً « نوري باشا » ، « كاظم - بك » وقدم للجميع مختلف الخدمات ، جليل مقدام ، شاب قوي ، سريــع محب للعمل لا يشرب الخمرة ولا يلعب الورق ، يشرب الكونياك فقط « كدواء » نظراً لأن حرارته مرتفعة ، ويعاني ايضاً من عيب كبير : يحب الشقراوات بافراط .

كم مرة وقع جليل في مطبات بسبب الشقراوات ، كم مرة احسسنه بالندم ، وكم مرة أدمينه وسلبنه ، أقسم مراراً على الا يقربهن ، لكنه لم يراع القسم .

اخيراً تمكنت احدى الشقراوات من لوي رقبته السوداء .

ذات مرة ، وقبل اسبوعين ، حين خرج جليل الى الشارع ، شاهد امام الباب شقراء جميلة ، عرضت المرأة على جليل « شالاً » فارسياً رائعــاً . دعا جليـل الحسنـاء الشقراء الى بيته ، ضيفتّها « شربات(١) » وشيئاً من الحلويات . حدث كل شيء :

ضحك ومزاح وقبل وملاحقة ،ثم ضجة وخصام . لم تستسلم الحسناء الطومبونية.عرض عليها جليل روبلين ذهبيين ، لكن بلا فائدة .

---

(١) وردت في النص بلفظها العربي - المترجم

ضحكت المرأة وقهقهت ، وقلبت غرفه وحولت بيته الى فوضى كاملة . جعلت دمه يغلي وحرقته ، أضنته وتصبب عرقاً ، ثم هربت .. وفي ذلك اليوم أودعوا جليل هذا القبو المظلم .

اتضح ان « ماروسا الطومبونية » سرقت ورقة من جليل اثناء المطاردة والقبلات ، هذه الورقة اعطاها خليل باشا الى جليل . كان نصها : « جليل ، هو متنا ، انه تتري قام باعمال جليلة فساعدوه » .

وهكذا وقع جليل وهو الآن ينتظر المساعدة . لكن لا اثر لتلك المساعدة . العم رجل طيب جداً ، لعلهم سيطلقون سراحكم اليوم أو غداً .. ما يرجوه جليل أمر يسير : ارسال برقية الى باكو على الشكل التالي :

« شارع كوبينيسكايا — محمد أمين أوغلي : جليل مريض جداً .

ولن ينسى جليل لكم هذا مدى العمر .

جليل يرجو . لكنه يخجل ويشعر بالصغر ، لانه يزعج العم الذي لا يعرفه جيداً . أخيراً قال :

— ايها العم ، اقسم لك ، اذا شاهد جليل امه مرة أخرى سيرد جميلكم . هذا كل شيء يمكنه فعله . لقد اقسم .

وعد الكسي أن ينفذ طلبه ، طاب مزاج جليل ، وبدأ يمزح . قص حكايات « الملاّ نصر الدين » .

وعند الحديث عن « ماروسا » علت الضحكات والمزاح والنكات الطريفة . اخيرا تنهد جليل وقال :

— نحن الآن نضحك والله يرى كل شيء ، لعله ارسل شيطاناً وقال له : اذهب واقبض روح الوحيد جليل . لعل جليل سيلتحق بربه هذه الليلة .. الله !

بعد كلمات جليل جفت حلوق الجميع وشعروا بالبرد ، ارتجفوا ، صمتوا ، ثم دخل كلٌ قوقعته .

مر وقت طويل ، لم يدر أحد هل هم في منتصف النهار ، أم حلّ الليل ، وهل الجو بارد أم حار ، هل الطقس ممطر أم مشمس . ومن وقت لآخر كانت تسمع توسلات كفاتشي الباكية . . .

— ايها العم ، يا عزيزي ! الأمل معقوداً عليك .. ان ساعدتني سأصبح عبدك . وتُسمع تمتمات الكسي :

-- نعم ، يا بني نعم ، سأنفذ كلمتي طاااانك صديق سيلوفان ، وقد اعتنيت به وعاملته كأخ لك .

تذكر كفاتشانتيرادزه مغامراته ومصاحب سيلوفان ومساعدته الايخوية اه . .

فجأة سمعت قرقعة الابواب ، تيقظ الجميع .

— اليكسي ايمادزه !

— أنا هنا ! انه هنا !

— هيا ، اخرج بسرعة !

ساد الهرج .

— ايها العم . الأمل معقود عليك ، عليك فقط .

نعم يا بني ، كن مطمئناً ! سأفي بوعدي . وداعاً يا بني كفاتشي ! وداعاً جليل !

— وداعا وداعا . يا جليل فلنساعده . كن حذراً ايها العم لا تسقط في الحفرة فنهلك جميعاً . امسك به الاثنان من تحت ابطيه ورافقوه بحذر كبير بمحاذاة الجدار حتى انهما حملاه على السلم

ـ وداعاً ! ـ مرة اخرى قال كفاتشي متأوها ولامس بشفتيه يدي الكسي .

ـ وداعا ايها العم .. لا تنس شارع « كوبينسكايا » محمد امين ـ اوغلي . جليل مريض جداً .

ـ هيا اخرج بسرعة . مالكم تثرثرون !

ـ انا قادم ، ايها الرفيــق قادم !

خرج اريمادزه . اغلقت الابواب من جديد ، وراح كفاتشي وجليل يقهقهان ويملآن ارجاء القبو بضحكاتهما حول قصة الحفرة والافاعي والكلاب التي صدقها اريمادزه بسهولة ، ثم استلقيا في زاويتهما واستسلما لأحلام المساجين : شمس دافئة ، شارع مرح ، شغب ، نساء جميلات ، شقة مفروشة ، اصدقاء ، أقارب ، غداء لذيذ ، سرير مريح .

خرج الكسي اريمادزه بخطوات سريعة . دخل بيته خلسة . استقبلته ابنته يلينا ذات الثلاثين ربيعاً ضاحكة باكية . تعانقا وكأن الكسي قد عاد من العالم الآخر . حدّث الوالد ابنته كما لو انه امضى يوماً في عرّقة رائعة ، ثم اضاف :

ـ يا ابنتي علينا ان ننقذ من الموت رجلاً طيب القلب ، لدى سيلوفان صديق حميم يدعى كفاتشي كفاتشا نتيرادزه عاشا معا خمس سنوات في موسكو وفي سجن سيبيريا هذا الـ « كفاتشي » انقذ حبيبنا سيلوفان مراراً من أخطار كبيرة . .

لو لم أقابل كفاتشا نتيرادزه لما عدت حياً من هناك ، وهو الآن في خطر ، في خطر شديد .

ذالك الانسان الطيب الشريف ، اسمعيني جيداً يا ابنتي . اذا سألك احد عنه قولي انك تعرفينه . في الخامس من نيسان كان عندنا في حفلة العشاء ، ولم يخرج حتى الصباح . هو طويل يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، اسمر ، دقيق الشاربين وثمة آثار جرح في اسفل ذقنه ، حفظتها جيداً ؟ . . .

— اجل يا والدي ، وسأقول هذا ، لكن ماذا سيقول بقية الضيوف ؟

— سأذهب الآن اليهم واكلمهم بذلك ، اتريدين الذهاب معي ؟

— فلنذهب !

ذهبا ، في تلك الليلة واليوم التالي مرا على الجميع ولقناهم ما يجب قوله :

— طويل اسمر .. اثر جرح في اسفل ذقنه .. رجل طيب شريف .

هل يعرفون كفاتشي ؟ كيف لا ! كل البلاد تعرفه : طويل اسمر ..

وافق الجميع. كما ارسل اليكسي برقية الى باكو « جليل مريض جداً » .

بعد عدة أيام استدعى المحقق كفاتشي كفاتشانتيرادزه . دخل كفاتشي مسرعاً غرفة المحقق فرحاً وصاح :

— لقد تذكرت ! لقد تذكرت !

— ماذا تذكرت ؟

— تذكرت بعد جهد .. لقد امضيت ليلة الخامس من نيسان من الساعة التاسعة مساء وحتى السادسة صباحاً في حفلة عشاء لدى الكسي اريمادزه .

ثم وصف الحفلة بالتفصيل وعدد كافة الضيوف الذين شاركوه العشاء .

– اذكر الكسي اريمادزه وابنته يلينا وعشرة ضيوف . ارجو استدعاءهم جميعاً واستجوابهم ، ومن ثم كتابة المحضر .

وصف كفاتشانتيرادزه القصة بحماسةٍ واخلاص ووضوح مما جعل المحقق يتردد ويحتار .. كتب المحضر واعادوا كفاتشا نتيرادزه من جديد الى القبو المظلم .

بعد عدة ايام تم فعلا استدعاء الكسي اريمادزه ويلينا والضيوف العشرة كلهم . ادلوا بشهادة مفادها ان كفاتشي امضى الليلة بينهم في حفلة العشاء تلك .

كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟ من لا يعرفه ؟ إ عمره خمس وثلاثون سنة ، طويل ، اسمر ، على ذقنه اثر جرح ، اليس كذلك ؟

– أجل يوجد أثر لجرح .

– لقد بقي معنا حتى الصباح في تلك الامسية . كان ملحوظاً اكثر من الجميع ، لقد غيّر كل شيء . رقص وغنى وشرب وانتشى فرحا .

اقسم الاثنا عشر شخصاً واكدوا على اقوالهم ،ثم وقعوا المحضر .

بعد اسبوعين جاء كفاتشي كفاتشا نتيرادزه الى بيت الكسي اريمادزه حاملا امتعته ، وبدأ الفرح والعيد مختلطين بالدموع والعناق والقبلات والصياح . التصق الكسي ويلينا بكفاتشي كما لو كان ابناً واخاً .

– حسنا فعلت اذ جئت الينا مباشرة ايها العزيز كفاتشي !

— ماذا افعل ايها العم ، لم ارد ازعاجكما، لكنني لم استطع صبراً ، لا يجوز تأجيل تقديم الامتنان ! .

بعد تناول الفطور وتبادل أسئلة بسيطة قال كفاتشي بثقة لألكسي :

— ايها العم حتّى لو طردتموني لا يمكنني الذهاب الى اي مكان . لقد اخذوا غرفتي ، عليكم ان تقبلوني عندكم اسبوعاً واحداً وتقرضوني بعض المال . لقد سافرت امي الى سوخومي كي تبيع البيت .

— حسناً ، كفاتشي ، سأتخلى لك عن مكتبي . كم تريد من المال ؟

— احسب كما تشاء ، لقد تعفنت ثيابي علي ، وقد سرقني صاحب الشقة ، اضعت كل شيء ، تكبدت الفي روبل خسارة . قدمت شكوى فقبضوا على الزوج والزوجة ووجدوا كل شيء تقريباً ، لكنك تعرف شهيةالبلاشفة ، قالوا : اثبت انا من اين وكيف حصلت عليها. لولا ذلك لكانت لدى كفاتشي ثروة ضخمة ، قصر ضخم في سولولاك . الكسي يعرف ذاك القصر جيداً . اضف الى ذلك كان يملك كفاتشي اربع شقق رائعة في باطوم وسوخومي ، اخذوا اثنتين منها وبقيت اثنتان ، بالاضافة الى انه يملك في « غوريا » و« منغريلي » و« سوخومي » ثلاث حدائق ومنشرتي خشب والكثير — الكثير من الممتلكات الاخرى ، لكن .. . .

— تعلمون الوضع الراهن : ثلاثة موظفين وامي — العجوز المسكينة يعتنون بهذه الاملاك ، لقد استعدنا اكثر من نصفها وما تبقى سيعيدونه لنا قريباً .

بالاضافة الى كل هذا اصدقاؤه مدينون له بعشرين الفاً من الروبلات.

باختصار مائة روبل تكفي كفاتشي مؤقتاً ، اعطاه اليكسي فوراً خمسين منها على ان يقترض له مساء باقي المبلغ ، ثم أضاف قائلا :

– اذهب يا بني الى الحمام أولاً ، ثم تنزه بعد ذلك وزرْ أصدقاءك واقضِ اشغالك .

وفي المساء دعا كفاتشا نتيرادزه الكسي ويلينا الى السينما ثم رافقهما الى الحديقة ، ودعاهما لتناول العشاء . ومنذ ذلك اليوم اصبح كفاتشي أحد افراد اسرتهم . لم يعودوا يخجلون من بعضهم البعض واصبح كل شيء مشتركاً فيما بينهم .

كان كفاتشا نتيرادزه يستيقظ قبل الآخرين . لم يمض يوماً واحداً بلا عمل . كان دائم الحركة والاهتمام بكل شيْ ، أصلح ما كان مكسوراً وألصقه .

اعاد كفاتشي الدين الى الكسي شاكراً ، وأبان بشكل عرضي حزمة من الروبلات قائلا :

– لقد اعادوا قليلا من الديون وما تبقى ربحته من أحد أعمالي .

وبدا هذا « القليل » كثيراً بحيث اصبحت عينا الكسي في جبهته .

كثيراً ما كان كفاتشي ويلينا يختليان في الزاوية،أو يتنزهان معاً . سرعان ما تغيرت يلينا : كانت تمشي ذاهلة ، قلقة باستمرار ، وعندما كان كفاتشي يغيب عن البيت ، كانت تبقى ساعات طويلة وحيدة وهي تفكر بشيء ما .

قرر كفاتشي خلال وقت قصير الانتقال الى شقةاخرى، لكنهما لم يسمحا له بالمغادرة . قال ذات مرة لألكسي :

— ايها العم ، بيتكم كان يعادل سابقاً عشرين الف روبل ، اما الآن فلا يدفعون أكثر من ثلاثة الاف ثمناً له .

— ثلاثة الاف ؟ بل اذا دفعوا الفين أبيعه ، لقد كرهت هذا البيت لدرجة القرف اذ جفف دمي وأشاخني . خلال خمس سنوات لم يعط روبلا واحداً ، بل أنفق ثلث راتبي على البيت ، قررت بيعه منذزمن، لكن يلينا لا ترغب بذلك .. ما العمل ؟ هذا البيت هو مهرها و ....

— الفا روبل تعطي الآن الف روبل شهرياً على الأقل .

— هذا ما اقوله.لكن ما العمل ،فأنا لست شارياً وسيلوفان ليس هنا .

هيأ كفاتشا نتيرادزه الكسي تدريجياً ، فهو يتقن العمل التجاري وخبرته واسعة .

كان لديه عمل ممتاز ، إلا انه لم يبق عليه . وهو الآن يبيع ويشتري بضائع الآخرين ويربح من ذلك اموالا طائلة . لديه اصدقاء في السوق السفلى ، ثمة رجل افلس يبيع بضائعه بنصف ثمنها ، ولذا فهو مستعجل للبيع واذا جاؤوا وشاهدوا سيكون هذا افضل . جاؤوا وشاهدوا . اصطحب الكسي تاجرا يعرفه فعلا الدكان والبضاعة تعادل ضعف الثمن المطلوب . فكر الكسي ملياً . والتاجر المفلس على عجل من امره ، قال كفاتشانتيرادزه :

— قرروا ايها العم ، لقد وضعت في هذه العملية الفي روبل . الكثير من الاصدقاء يرجون ويتركون لنا فرصة للراحة .

وقفت يلينا في صف كفاتشا نتيرادزه ، في البداية بشيء من التردد ؛ ثم طالبت بعناد بيع البيت . ستصبح يلينا امينة صندوق وكفاتشي سيتاجر ، والكسي سيراقب ، سيدقق الدفاتر مرة كل اسبوع .

كانت يلينا سابقاً متعلقة بالبيت . والآن أصبح الكسي مستغرقاً في التفكير .

بعد اسبوع اصطحب كفاتشي الكسي ويلينا مرة ثانية الى السوق ، وأراهما نفس الدكان مليئا بالبضائع واعلن ان كفاتشي شريك مناصفة . كان اثنان يبيعان في الدكان .

أكد بيسو شيكيا كلام كفاتشي واضاف :

– هاك يا كفاتشي ،خذها الى المصرف . ثلاثة آلاف روبل تماماً ، خذها في طريقك ولا تتكاسل ! وأعطاه مغلفاً مليئاً .

دس كفاتشي المغلف في جيب سرواله الجانبي .

تساءل الكسي :

– كم تبيعون في اليوم ؟

– اذا حسبت معدلا وسطياً سيكون خمسمائة روبل .

– وربحها ؟

– ثلثها ربح صاف .

عندما رجعوا تخلف الكسي عنهم . مشى وحيداً واستغرق في التفكير وحسب :

« .. في اليوم يحصل على ١٥٠ روبل ، في الشهر ما يقارب الاربعة آلاف ربحاً . اربعة آلاف ! ستكون حصتي منها الفاً وثلاثمائةواذا حولت الى القسائم سنحصل .. سنحصل .. » .

« اذا اضفت الى الرأسمال الاساسي مبلغي – الالفين ستوسع التجارة الى ما يقارب الثلث وسيرتفع بالتالي الربح الصافي الى ستة آلاف في الشهر ،وستكون حصتي منها الفين اي سبعين في اليوم .. ايها الرب

العظيم كيف يمكن صرف مثل هذا المبلغ ! » ينفق الكسي الآن ستين روبل في الشهر ، اذا تضاعف هذا المصروف خمسة اضعاف سينفق ثلاثمائة ، يعني انه سيتمكن من ادخار ١٥٠٠ ـ ١٧٠٠ روبل ، وفي العام الواحد عشرين الفاً ـ أي انه سيشتري عشرة بيوت مثل هذا البيت الذي يملكه الآن .

واذا ما وضعنا الربح الشهري في الاستثمار سيصبح الوفر السنوي ٤٠ـ ٦٠ الفاً .

اخطأ الكسي في الحساب . يستحيل الحساب الدقيق شفوياً ، لابد من قلم وورقة وخلوة .

دخلت الأبالسة نفس الكسي . ضاعف من سرعة خطواته . كان مستعجلا ليصل الى الرقم الحقيقي ، ولم يلحظ ان كفاتشي قد تخلف عن المحيّ الا بعد وصوله الى البيت . قال في نفسه :

« لعله مرّ في طريقه على المصرف ليودع الاموال » .

اغلق مكتبه وراءه وبدأ يحسب . حسب بحذر شديد . ضاعف النفقات وقلص الدخل ، ومع ذلك بقي الوفر اربعين الفاً . لم يصدق نفسه فخرج الى الشارع ، تحدث مع بعض معارفه ، وأكد الجميع ان التاجر يعطي الآن ٢٥ ـ ٣٠٪ ، يعني ان التجارة تكسب ٤٠ ـ ٤٥٪ في الشهر . عاد الكسي اكثر ثقة واقتناعاً وانتظر بفارغ الصبر عودة كفاتشي ، ثم تحدث مع يلينا :

ـ المتقاعس والمبذر فقط يحتفظ ببيته أو بأمواله هذه الايام ـ قالت يلينا ـ الجميع يقولون ان الروبل يعطي في الشهر روبلا آخر . اما فيما يتعلق بكفاتشي ، فأنا لم ار في حياتي رجلا شريفاً ومحباً للعمل

مثله . يدور اليوم بكامله ، يخرج من الصخر عصيراً . كم يكسب من الاموال ! أطنبا في مديح كفاتشي ، ثم هجعا .

جفا النوم عينيّ ألكسي . مرة يحسب الارباح الهائلة ومرة أخرى يفكر كيف سينفقها وكي يطرد الشياطين وينام. راح يكرر ٢×٢ = — ٣ × ٢ = ، . . . » لم يعد كفاتشا نتيرادزه تلك الليلـــة . حين اغفى الكسي كانت الديوك تصيح للمرة الثانية ، في اليوم الثالي انتظر الكسي كفاتشا نتيرادزه بفارغ الصبر . جاء وقت الغداء، فتحت يلينا له الباب وسألته بشيء من التعنيف اين كان كما تسأل الزوجة عادة زوجها .

قبل كفاتشي يد « يلينا » ، ثم سمع همس وساد هدوء طويل .

سعل الكسي منبهاً كفاتشي ، قالت يلينا وقد احمرت خجلا :

— بابا ، لقد وصلت ام كفاتشي .

فرحوا ، بما ان كفاتشي لا يريد احراجهما فقد نزلت امه عند اقربائها ، لكنها طبعاً ، ستأتي غداً للتعارف وتقديم الشكر .

بعد ان انتهى كفاتشا نتيرادزه من تناول طعام الغداء قال باختصار ووضوح :

— ايها العم الكسي ! آن لنا ان نعلن أفكارنا الدفينة ، لا تخرجي يا « يلينا » يجب ان تحضري حديثنا . لماذا الاخفاء ، انا و« يلينا » نحب بعضنا . وافق وبارك لنا !

اذهلت المفاجأة الكسي . صمت في البداية، ثم حرك رموشه ، فرك عينيه وتمتم :

— يلينا .. حبيبي كفاتشي ! يا اولادي .. فلتلازمكما السعادة وعانقهما كلا بدوره .

.. بكت يلينا ، يمشي كفاتشانتيرادزه متبختراً منتصباً وقد امتلأ غروراً . لقد انقذ ذات مرة الكسي من الموت ، وها هو الآن قد ادخل الى تلك الاسرة الخير والسعادة .

بعد فترة قصيرة دخل كفاتشي والكسي الى غرفة المكتب . قال كفاتشي :

ـ يجب أن تعطيني عهداً ايها العم الكسي بألا تذيع هذا الخبر وتبقي عليه سراً هاماً مدة اسبوعين على الأقل . ستصمت يلينا ايضاً . سنقيم الحفلة رسمياً فيما بعد ، وانا ايضاً لن أقول لأمي ـ لا تسألوني عن السبب ، سأقوله في حينه .

وعده الكسي وكشف عن اهتمامه المكنون . لقد قرر أن يبيع البيت ففي عصرنا هذا ، المتقاعس المبذر هو من يحتفظ بماله أو بيته . يريد كفاتشي ان يجعل من الكسي رفيقاً له في الاعمال التجارية .

فكر كفاتشانتيرادزه ، ثم بدأ يتكلم كلاماً غير واضح :

ـ الحقيقة ، تمشي الامور بشكل مرض لكن .. لقد احضرت ام كفاتشي خمسة آلاف روبل ، وهذه الاموال ايضاً سيوظفها في العمل . توسيع العمل مسألة هامة ، لكن .. لكن كفاتشي يخاف . هو انسان حذر ودقيق في الحساب . لكن .. ربما .. باختصار ، سيفكر . أخيراً كاد كفاتشا نتيرادزه أن يتراجع وأصبح الكسي يطالبه راجياً . صحيح ان هذا البيت مهر لكن مادام الكسي حياً فهو يرغب بالراحة والحياة الرغيدة .

لان كفاتشا نتيرادزه ووعد بان يسأل رفيقه . ماذا ، اليوم حالا ؟

حسناً مادام الكسي مستعجلا فسيأتيه الجواب اليوم . السعر الاخير للبيت ؟ ثلاثة آلاف ؟ لا . هذا البيت لايمكن بيعه الآن بثلاثة آلاف .. حسناً سيبحث كفاتشانتيرادزه عن شار . سيحرص على بيعه بمبلغ خمسة آلاف . السعر الاخير الفان وخمسمائة ليرة .

شربوا نخب الخطيبين . كان الثلاثة في فرح وعيد وسعادة . بكى الكسي من جديد واشتعلت يلينا فرحاً وهي تضحك . ومرة اخرى ابتسم كفاتشانتيرادزه وطار غروراً .

في اليوم التالي احضر الصهر كفاتشي رجلاً ثرياً ليرى البيت . وبدأت المساومة . اطراء وذم البيت . رفع مقامه وحط منه . وبعد ثلاثة أيام ذهبوا الى الكاتب العدل .

وفي المساء نقد الكسي كفاتشا نتيرادزه مائتين وخمسين ليرة ذهبية واخذ منه ايصالا .

ــ من باب الحيطة ، من يدري ، فنحن بشر .

« على كفاتشي كفاتشانتيرادزه التنازل لـ الكسي اريمادزه عن ثلث المخزن وصافي الارباح » .

« ربما كانت العقود التجارية بين الرفاق تكتب على هذا المنوال »
ــ هكذا فكر الكسي وهو يضع ايصال كفاتشي كفاتشا نتيرادزه في درج الوثائق لديه .

في اليوم التالي انتقل كفاتشي الى شقة اخرى . لم يعد البقاء مع اسرة الكسي مريحاً بالنسبة للصهر ــ ثلاثة ايام لم يظهر له أثر . لم يعد باستطاعة يلينا العبوس ان تركن على حال . ذهب الكسي ثلاث مرات

الى السوق السفلى ، لكنه لم ير كفاتشا نتيرادزه ولا رفيقه شيكيا . أخيرا قالوا له .:

– نحن لا نعرف كفاتشي كفاتشانتيرادزه .

– كيف ؟ لمن هذا الدكان ؟ من ؟ شفيليا ؟ كان شيكيا عاملا عنده ؟ الا تدرون اين يقيم شيكيا ؟ سافر الى روسيا ؟ يا إلهي العظيم !

مشى الكسي ذاهلا مصعوقاً وهو يترنح . نخرت دودة الشك قلبه وتمتم بشفتيه الشاحبتين :

– قينا اللهم شر الفضيحة والتعاسة ! ..ياإلهي الجبار ! ياالهي العظيم !

صعد ونزل ثلاث مرات الى شارع فارديسوبانسكايا إلى حيث انتقل كفاتشانتيرادزه . قالوا له في كل مكان : « هو لا يعيش هنا .. لا نعرفه .. لم نسمع به .. » . أحدهم شاهد كفاتشي بالامس في «أرتو» يلعب الروليت. كان زائراً دائماً لهذا النادي . كان يلعب بأموال كثيرة ترافقه « راحيل » اليهودية . ألا يعرف الكسي من هي راحيل ؟ كل البلد يعرفها .

في البداية كانت عشيقة جانويان ثم ماميدوف ، ثم عشيقة تاجر النبيذ . لقد ربح كفاتشا نتيرادزه من الجميع : حين كان يظهر في النادي كان اللاعبون يتيقظون جميعاً . لم يكن يجلس على مائدة العشاء مالم يجلس الى جانبه عشرة رجال وعشر نساء .

منذ التاسعة مساء يدور الكسي عند مدخل « أرتو » . في الساعة الحادية عشرة وصل كفاتشي الى مدخل النادي بالسيارة . خرج اربعة : امرأتان ورجلان . كان الأربعة متأنقين ، حتى ان الكسي المخزي

تنحى جانباً مفسحاً لهم الطريق ، ثم رفع قبعته ولحق بكفاتشي الساتر باعتزاز وتمتم بابتسامة خجلة :

— كفاتشي ، يا بني .. كفاتشي !

التفت كفاتشا نتيرادزه نصف التفاتة وقال قاذفاً كلامه بخشونة :

— لا وقت لدي — ثم اختلط بالناس .

ايضاً في تلك الليلة لم ينم الكسي ويلينا . كان الكسي الغاضب يزرع الغرفة جيئة وذهاباً ويهدر متوعداً كفاتشا نتيرادزه .

— هكذا سأريك ايها السافل الوغد ، النشال ! انتظر ! انتظر انتظر !

في اليوم التالي وجد الكسي شقة كفاتشانتيرادزه . انتظر ساعتين أمام مدخل البناية ، اخيراً خرج كفاتشي ، قطع الكسي طريقه . لم يتبادلا السلام .

— اريد ان اقول لك كلمتين ايها السيد . ما معنى هذا ؟

— لا شيء ! — اجاب كفاتشا نتيرادزه بهدوء وبصوت خافت ، سأفتتح قريباً المخزن الموعود .

— كيف ستفتحه ؟ لقد قلت حتى تاريخه ان الدكان يخصك انت وشيكيا !

— ليس صحيحا ، لقد قلت اننا وشيكيا نحاول شراءه .

لا يفهم كفاتشي ما يرمي اليه الكسي . أقرض الكسي كفاتشا نتيرادزه مبلغ الفين وخمسمائة روبل . يعني أن كفاتشي مدين لالكسي بهذا المبلغ . هذا كل ما في الأمر ! متى سيتاجر كفاتشا نتيرادزه ؟ قريباً .. لا يستطيع التحديد بدقة . لقد سافر شيكيا الى استامبول بغية التجارة . اذا كان الكسي لا يستطيع الانتظار ولا يرغب أن يصبح

شريكاً له يمكنه ان يستعيد امواله .. متى ؟ بعد ان يحضر شيكيا الضاعة وبيعها ، هذه كل الحكاية !

لماذا لا يعود كفاتشا نتيراحزه إلى اسرة الكسي ؟ سؤال محرج جداً .. كفاتشي لا يمكنه ان يتحدث عن هذا ، لكن مادام الكسي يريد ان يعرف السبب بالحاح . حسناً سيقول كفاتشي :

ـ آنذاك لم ادر ان ! « يلينا » حكاية مع فانو بريميلي .

ـ ماذا ؟ كانت هذه القصة منذ اثني عشر عاماً . لهو عادي بين تلميذ وتلميذة ! تنهدات وانين من بعيد لبعيد ، نعم ؟ لا يعرف كفاتشا نتيرادزه ، ليس واثقاً ، من الممكن ان يكون قد حدث اكثر من ذلك . لا أحد يدري ! كفى ! اسرة كفاتشي ليست من ذلك الصنف بحيث تقبل ان تضم اليها أثاثاً مكسوراً أو تمثالا مهشماً .

ـ ماذا ؟ تهددون ايضاً ؟ بماذا ؟ كيف ؟ لا تنسوا انني كنت لديكم في حفلة العشاء ليلة الخامس من نيسان ، وانكم قرأتم المنشور والقيتم خطاباً مضاداً للثورة ، اثناعشر شخصاً اكلوا خطياً وجودي معكم . حصل هذا ؟ ماذالم تقرؤوا المنشور؟ ولم تلقوا الكلمة ؟ اربعة من ضيوفكم أكلوا هذا أمام عدد من الشهود ، ألا يكفي عشرة شهود ؟ ألم تقولوا ذلك هناك في القبو ؟ الا تذكروا جليلاً ؟ هو شاهد أيضاً .

ينصح كفاتشانتيرادزه الكسي بالصمت والا .. مصلحة الكسي تتطلب ذلك ، لقد عامل كفاتشا نتيرادزه الكسي باحترام كبير . احترم اسمه واسرته وشرفه فهو حتى الآن .. باختصار من الافضل أن يلزم الاثنان الصمت. لا وقت الآن لدى كفاتشا نتيرادزه . لديه عمل عاجل ، لقد تأخر ، لذا .

— وداعاً ! هيا يا جليل فلنسافر !

ثم مشى بأبهة الى السيارة التي كان يجلس فيها الى جانب السائق رجل تتري ابتسم كثيراً ! « الكسي » .

مضى الكسي أشبه بالميت .

لم تأكل يلينا شيئا ، ولم تخرج من البيت . بكت وراحت تعنف والدها بلا انقطاع . كل كلمة من كلماتها ، حزنها ، دموعها — فلفل يلهب قلبه ، خلال شهر انحنى الكسي ، ، شاخ وشاب ، نحف واصبح صغيراً . وكان من وقت لاخر ،وبعد ان يتذكر بيته الضائع وابنته الخائبة يشتعل غيظاً ويجري من غرفة لأخرى كالمجنون ويصرخ متوعداً . كفاتشانتير ادزه بقبضتيه :

انتظر .. انتظر .. سأريك ايها السافل ! انتظر ، انتظر ..

ذات مرة دخل التتري الطويل غرفة الكسي :

— مرحباً ايها العم ! أنا جليل — وابتسم بعينيه الكبيرتين ولمعت اسنانه الناصعة كأسنان الحصان .

— جليل ، أهذا انت ؟ — فرح الكسي الحزين .

— أجل ، جليل ، ألم تعرفني ؟ « هناك » كان الظلام دامساً .

— اجلس يا جليل ، اجلس ،حدثني كيف تعيش ؟

— تشوخ رازيام .. شكراً ايها العم،لقد ساعدني أخي . تلقى برقيتك تشوخ رازيام ، تشوخ ! تقبل هذه الهدية ايها العم . فك جليل عقدة صغيرة ، ثم فرش سجادة رائعة طولها متر :

— جليل ، لماذا عذبت نفسك ، علام ؟ من أجل اي شيء ؟

— ايها العم ، لقد ادت برقيتك مفعولها . خذها ايها العزيز والا سأزعل منك .

رجاه جليل مبتسماً ، شكره الكسي من أعماق قلبه ، وقدم له الشاي بالكونياك والفواكه .

— انا اعمل الآن عند كفاتشا نتيرادزه . انه رب عمل جيد . لديه اموال كثيرة . إنه مزوح جداً لقد مزح معكم مزحة بشعة « هناك » وقد خدع اناساً آخرين . ضحكنا كثيراً . لقد وقع نفسه في الحفرة ذات مرة .

— ارتمى ؟ وكيف خرج منها ؟

قهقه جليل .

— لقد مزح كفاتشا نتيرادزه ايها العم ، لا توجد هناك اية حفرة ها ! ها ! ها !

قارن الكسي بلا شعور منه بين كفاتشي المصقول وبين هذا التتري الجلف الفظ . انقبض قلبه واضطرب .

وبعد ان انصرف جليل هدد الكسي الهواء بقبضتيه وتمتم :

— انتظر .. انتظر ايها النشال ، النذل ، انتظر .. انتظر !

قريباً سيحين يوم انتقام الكسي وحساب كفاتشا نتيرادزه . مرة اخرى اعتقلوه ورموا به في نفس القبو « الى الافاعي والسحالي والضفادع والكلاب » . وقبل ذلك بعدة ايام اوقفوا صديقه « شيلادزه » الذي اعترف وقال انه في الخامس من نيسان في الساعة الثانية بعد منتصف الليل سلب هو وكفاتشا نتيرادزه رجلا من الأرمن .

جرى الكسي في غرفته متأثرا وهمهم مغتاظاً :

- ها هم يطاردون الوغد بالعربة ويلحقون به . ايها الرب العظيم مدهشة افعالك وقضاؤك لايرحم ! والآن ماذا ستقول ايها الوغد ؟ من سيساعدك الآن ؟ لعلك تأمل بمساعدة الكسي اريمادزه ؟ . .

سأساعدك جيداً ، سأرميك بحجر !!

استعد الكسي للانتقام لكن ..

استدعى المحقق الكسي ويلينا وضيوفهما العشرة للمرة الثانية والثالثة . بعدئذ لم يعد الكسي يهدد . ها قد مر الشهر الثالث وهو يجزى الى ضيوفه ويهمس في الغرف المغلقة بخوف وحذر :

- لقد شهدت مرة أخرى ان كفاتشي كفاتشا نتيرادزه في تلك الليلة .. باختصار لم اغير شهادتي ..

لا تغلطوا والا .. انتم تعلمون جزاء شهادة الزور ؟ بالاضافة الى ذلك ستفتح من جديد حكاية « المنشور » . أنا فعلا وزعت المنشور ، وقرأته وخطبت فيكم ، لكنكم استمعتم الي وتحدثتم معي وحملتم المنشور .

واتفق الشهود الاثنا عشر على ان هذا القفل الاميركي لم يتمكنوا من فتحه لا بالكماشة ولا بالمفتاح ، لا بالوعد ولا بالوعيد . امضى الكسي ليله ونهاره بالاهتمام بهذا . فصّل وقاس ، لقن الجميع ووقف بعناد وصلابة وجرأة ضد التحقيق .

اخيراً حل يوم البت في القضية . كرر الشهود جميعهم كرجل واحد مقالتهم بعناد وصلابة وعجرفة :

- اعرف جيدا كفاتشي كفاتشانتيرادزه . كان معنا في الخامس من نيسان في حفلة العشاء عند الكسي اريمادزه .. جاء في التاسعة مساء وغادر في السادسة صباحاً . كان ثملا تماماً ، لم يخرج من الغرفة ولا مرة .

ماذا فعل ؟ ماذا يفعل الناس عادة في العشاء ؟ تحدث ، غنى ، لاطف ، رقص ، شرب ، فرح ومرح .. نعم اقسم على ذلك وأؤكد .

هذا ما اثبتوه . ولم تغيّر شهادة شيلادزه شيئاً . واتضح بجلاء ان شيلادزه اراد الانتقام من كفاتشانيترادزه والاستيلاء على امواله . عشرون شاهداً أكدوا ان بينهما حساباً جارياً منذ زمن بعيد ، وان شيلادزه قبض من كفاتشا نتيرادزه الف ليرة ليشتري بها بضاعة من استامبول. لكنه بذرها ، ولهذا اراد جرّ كفاتشا نتيرادزه الى صفه وإهلاكه. لكن ..

— لكن الحقيقة مازالت سائدة في هذا العالم — صرخ المحامي قائلا — اطبقت « نميريدا » بقبضتها الحديدية على رقبة شيلادزه التي يتخبط عبثاً محاولا تبييض اسمه الأسود عن طريق تلويث كفاتشا نتيرادزه البريء ، فليتحمل الآن المسؤولية وحده ! اما كفاتشي كفاتشا نتيرادزه. فتجب اعادته الى امه الشريفة ، الى خطيبته البريئة ، والى اصدقائه الكثيرين الذين ينتظرون حكمكم العادل . عينا ربة العدالة معصوبتان ، لكنها ليست عمياء . لقد رفعت الميزان . ايها القضاة ! اعيدوا لنا هذا الشاب والانسان الشريف غاية الشرف المبدع ، الذكي ، السريع اليقظ ، والعضو النافع في مجتمعه ، لا انتم لا تستطيعون ادانته . سترتجف اياديكم وتخفق قلوبكم — هكذا انهى محامي كفاتشي دفاعه .

فعلا خفقت قلوب القضاة وارتجفت اياديهم . هلك شيلادزه وهبط كفاتشي كفاتشا نتيرادزه درجـات المحكمة بابتسامة فرحة وبمظهر بريء . عن يساره مشت « خطيبته البريئة » راحيل ، وعن يمينه امه ، والمحامي من خلفهم .

شد كفاتشا نتيرادزه على أيادي معارفه واقربائه يميناً وشمالاً قائلاً :

ــ شكراً ايها الاصدقاء ، شكراً ! لقد انقذني الاله من خطر كبير . شكراً وألف شكر لكم .

أحاط الجميع به عند الباب وفجأة اصطدم بـ« الكسي » و « يلينا » .

ــ العم الكسي ! الآنسة يلينا ! .. يا الهي ! .. احتضن الكسي وقبل يد « يلينا » . اشكركما من اعماقي . أنا مذنب بحقكما . لكن آمل أن تكونا قد صفحتما عني . من يقع في ورطة كهذه يغفر له كل شيء . ايها العم الكسي ! ــ ثم انتحى بـ« الكسي » جانباً ــ أرأيتم ماذا فعل بي هذا النذل شيلادزه ؟ لقد حصد مازرعه . كم بذّر اموالنا وكاد ان يهلكني . لا تقلقوا ايها العم الكسي . الرب كبير . سأدفع دينكم قريباً ، قريباً جداً سأدفع .. ثم التفت نحو الآخرين :

ــ ايها الاصدقاء ! يجب ان أكافئكم عن عشاء الخامس من نيسان هذا اليوم . ارجو ان تشرفوا في الساعة العاشرة في « أرتو » . ايها الاب الكسي ، أيتها الآنسة يلينا ! ارجو ان يحصل لي شرف مشاركتكما مرة اخرى . شكرا لكم ، اتمنى لكم دوام الصحة . وهكذا انا بانتظاركم جميعاً في العاشرة مساء .

ابتسم البعض عند ذكر عشاء الخامس من نيسان وضحك البعض الآخر . ..

اسرع جليل بالسيارة . سافر كفاتشا نتيرادزه وخطيبته « البريئة » راخيل وامه ومحاميه ، وتفرق البقية على مهل .

بعد ان تذكرت يلينا بيتها الضائع عضت اصابعها ندماً . انقطعت

عن الطعام ، جلست حابسة نفسها في الغرفة تبكي وتتحرق . وعاد الكسي يجري في غرفته يهدد بقبضتيه النحيلتين صهره هامساً :

— انتظر .. انتظر ، أيها النشال الوغد . الرب كبير سيقتص منك .. انتظر .. انتظر ..

— مهارة رائعة ! — كان جليل يقول هذا حين يتذكر تلك الحكاية .

« قصة خيانة راحيل »

جبلان لا يلتقيان لكن الانسان مع أخيه الانسان ملتق حتماً . القدر القاسي برهن صحة ذلك المثل فيما يخص كفاتشا نتيرادزه .

في ذلك المساء قطع كفاتشا نتيرادزه الخيط الذي يربطه مع راحيل . امرأة غريبة تلك « الراحيل » !

كانت تحمل كل ثروتها التي جمعتها خلال عشرين عاماً بعرق الجبين ، ومن خلال عملها الشاق ، وبالنباح والهربر ، حملت بعض تلك الثروة في رقبتها وبعضها في اذنيها ، والبعض الآخر في اصابعها وعلى صدرها .

ذات ليلة ، وبفضل كفاتشي ، افرطت راحيل في الشراب . ثملت لدرجة ان كفاتشي اوصلها بصعوبة بالغة الى الطابق الثاني . أوصلها وعاد بعد عشر دقائق الى السيارة حيث كان ينتظره فاليكو كيلمادزه .

— هيا فاليكو ، هيا ، لقد سنحت لك الفرصة . تتحدث راحيل عنك وحدك .

كان فاليكو ينتظر دوره في الدخول على راحيل ، إلا انه استغرب تنازل كفاتشي عن دوره .

— أأنت تقول ذلك يا كفانتشي ؟

— نعم اقول ؟ لقد سئمت ، لم أعد ارغب .

صعد فاليكو الى راحيل وعاد كفانتشي الى بيته .

في اليوم التالي وبعد ان صحت راحيل هرعت الى كفانتشي :

— كنزي ! .. اقراطي ! .. خواتمي ! .. سرقوها .. سرقوا كل شيء !

— من ؟ من سرقها ؟

راحيل لا تعرف . اما كفانتشي ، وإما الخادمة أو فاليكو ..

— فاليكو ؟ وهل كان فاليكو عندك ليلا ؟

— اجل دخل دقيقة ، على ان راحيل لم تعد تذكر شيئاً ، اذ كانت في غاية السكر .

دخل دقيقة ؟ ها ! ها ! ها ! اذاً يعرف كفانتشي كل شيء ، لقد خرج فاليكو من بيت راحيل في الخامسة صباحا . منذ زمن طويل يراقب كفانتشي راحيل . اخيراً وفي صباح هذا اليوم اتضحت له الحقيقة . يالك من مرائية ! ايتها العاهر ، الخائنة ! اغفر لراحيل يا كفانتشي ، لقد كانت ثملة فعلا . انت السبب في خيانة راحيل لك . لماذا الححت بالامس ؟ لماذا ارغمتني على شرب مثل هذه الكمية من الشمبانيا ؟

لا لقد انتهى كل شيء ! انتهى . لا يستطيع كفانتشي ان يسامح . يجب ان تسيل الدماء ! عبثاً تتوسلين يا راحيل ، عبثاً تزرفين الدموع فوق الخدود التي بدأت تشيخ . لقد اضعت في ليلة واحدة العشيق الغني والكنز الذي جمعته خلال عشرين عاماً ! الذنب ذنبك والفعلة فعلتك !

لا تشربي مرة اخرى . عليك ان تبدئي الاهتمام من جديد بايام شيخوختك والعمل بوسائل انتاجك القديمة ! لا تبكي ! دموعك لن تغسل العار عن كفاتشي . كنزك ؟ سيساعدك كفاتشي ، لا تنتظري من كفاتشي اكثر من ذلك . سيساعدك ويجد ما ضاع ،لكن بشرط واحد : ولا همسة عن القضية ، بحيث لا يُفضح فاليكو صديق كفاتشي ، فاسمه غير ملطخ . لا تهلكي الشاب الفتي ، لا تفضحي اهله الشرفاء !

بدأ كفاتشي وفاليكو عملهما . لقد اتفقا بشكل ما . هذا « الغد أو بعد الغد » لن ينتهي . سيكون بيسو وسيطاً . سكب في اذني راحيل الذاويتين السم الجميل : « راحيل! سينسى كفاتشي خيانتك .. مازال يحبك أكثر من السابق ، سيعود كفاتشي اليك ، سيعود حتماً ، عليك فقط ان ترحمي صديقه فاليكو . يجب ألا تهلكيه ، سيعوضك كفاتشي ضعفي ما اضعت .. » .

هدأ كفاتشي وعاد الى راحيل . نسي كفاتشي خيانتك يا راحيل ! تصالحا ورتقا خيوط الحب الممزقة . لا يجوز الحديث عن الكنز الضائع بالمقارنة مع حب كفاتشي . وبالمقابل عليك ان تنسي النشال فاليكو وبهارجك المسروقة . كم تساوي اشياؤك ؟ عشرة آلاف ؟ لا تخافي ! وهل يستوجب هذا هلاك فاليكو ؟ هذه الاموال سيعوضها لك كفاتشي خلال شهرين ، سيعوضها للأبد . سيشتري لك شبيه تلك الاشياء أو سيعوض لك ثمنها نقداً اذا تصالحنا ؟ نسينا المجوهرات الضائعة والخيانة ؟ جيد جداً . واي شيء افضل من السلام والحب لروحيكما وجسديكما يا راحيل وكفاتشي ، عيشا ، عيشا كأخ وأخت وزوجة بهناء ، وكآدم وحواء ، على اية حال لا يبقى سوى الحب واللذة من هذه الحياة المريرة .

لذا احبا بعضكما كفرخي حمام ، احتضنا بعضكما كقردين ، تسافدا كقطين ..

صمتاً يا كفاتشي صمتاً ، لا تمزق خيوط الحب المهترئة ، لا تفتح بخشونة قلبك التعب من صدر راحيل الداوي ! حذار .. بهدوء .. رويداً — رويداً .. هكذا اسحب هذا الخيط بيسر،أنت مريض هذا اليوم غداً ، لن تجدك في البيت بعد غد ، لديك عمل لا يحتمل التأجيل. بعد بعد غد ستسافر الى كوتايسي ، ثم ستداهم بيسو في فراش راحيل . لا ، كفاتشي ، لا تطلق النار ! لا تطلق النار على بيسو ، لا تقتل راحيل ! اهدأ يا كفاتشي ، اهدأ .. ثب الى رشدك .. انتهى حبكما ، انتهى للأبد ، تحطم القلبان المتحدان . لقد خرب عش الحمام . لا تبك يا كفاتشي لا تبك .. لقد خانك صديقك ، وخانتك عشيقتك . آه ايتها الافعى الصغيرة ! يا للأصدقاء المخادعين، يا للأصدقاء الجاحدين المرائين ! وداعاً راحيل .! وداعاً بيسو ! كان الله في عونكما . طالما انكما تحبان بعضكما لن يضايقكما كفاتشي ، لن يفرق بينكما .. وداعاً ! وداعاً .

« عن إحدى المعجزات »

حدثت هذه القصة في تلك الليلة ، في تلك الليلة الرهيبة التي لا تنسى حيث لا يلتقي جبلان ، الا ان كفاتشي انفصل عن راحيل ، وعلى سلمها اصطدم برجل منسي .

— قفوا ! ارفعوا أيديكم،لا تتحركوا والا قضيت عليكم !

اطمئنوا ايها المواطنون ، اهدؤوا ! سيقف كفاتشي طبعاً سيقف .. وسيرفع يديه ولن يتحرك ! كفاتشي لا يحمل سلاحاً ، لذا ارجوكم

وبكل طواعية ان تخفضوا امسدساتكم، او ان توجهوها جانباً والا .. مصادفة ، من يدري ، تحدث آلاف الحوادث .

— ومع ذلك من تريدون ؟

— أأنت كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟

— نعم انا . ماذا تبغون مني ؟ أنا لا أعرفكم .

— الا انني اعرفكم .. لكن كأنكم لا تعرفونني ؟ هيا انظروا الي وتذكروا !

يا الهي العظيم ! في موسكو ومنذ خمس سنوات مضت لاحقه هذا الانسان ، كما يلاحق القط الفأر. لكن كفاتشي ناوره بشكل استطاع ان يرمي هذا القط تحته .

حينذاك ادى بافلوف وبيسو « نمرة » رائعة : حفظهما كفاتشي واوقعا القط في المصيدة . ثم هرب « التشيكيست * » ثم حدثت معركة حامية .. قتلى .. دماء « هذا جزائي ! جزائي ! » . زمجر كفاتشي وهو يلاحق رجال المخابرات .

لقد تمكن سابقاً من الفرار مائة مرة ، وتأجل مائة مرة . أراد مضاعفة ثروته ، اربعة خمسة اضعاف . يفقد البخيل الأحمق ارنبه اثناء جريه وراء ارنبين اثنين . لماذا لم يقنعني بيسو . لماذا لم يجرني بالقوة من « الجنة » الحمراء . !

فتشوه ، كتبوا عنه ، وبعد ساعة اقتادوه من جديد . وبدلا من المحقق انقض عليه ثلاثة محققين وجلس هناك رجل الامن يبتسم بمهابة . يا الهي ! يبدو انهم يعلمون كل شيء !

---

* رجل الامن

لقد قرؤوا حياته كرواية جيدة صفحة صفحة ، ورقة فورقة ، وأخيراً قالوا :

– اعترفوا .

ابتسم كفاتشي بدلا من الاجابة وسأل :

– قولوا من فضلكم من اين وكيف جمعتم كل هذه المعلومات ؟

– أليست جميعها حقيقية ؟

– اكثر من الحقيقة . لو انني كتبت مذكراتي لما استطعت كتابتها بشكل افضل .

شمخ الثلاثة بانوفهم عظمة بعد الاطراء واعتزازاً بعملهم الجديد .

– نعم هكذا ! – قال الرجل الذي لاحق كفاتشي – هكذا نعمل بشكل جيد .

– ايها الرفاق ، انا لا أبالغ . انا لم ار حتى الآن عملا رائعاً كهذا ، ولم اقرأ رواية اجمل .

– يعني ..

– يعني لو بقيت هنا عشرة أعوام وانا أفكر،لن اتذكر أكثر مما ذكر . كل شيء ملون .

عمل مدهش ، مدهش ! تفضلوا،ليتناول كل منكم سيجارة . إنه تبغ ممتاز .

– اذا ، نبدأ الكتابة ؟

– ابدؤوا .

– كتبوا ثلاثة ايام بلياليها . واخيراً قال بعد ان انتهوا :

– لستم بحاجة اليّ بعد الآن . تفضلوا وليأخذ كل منكم سيجارة ،

ثم حولّوني الى « ميتيخي. تبغ جيد ، أليس كذلك ؟ بيعه أحد الجنرالات القدامى . رخيص وجيد . يقيم هذا الجنرال في شارع « مامادافيتسكايا » رقم ٤ . حوّلوني الى « ميتيخي » ، اضحت ايامي معدودة .

ــ وكأنما ستنتهي قضيتكم على هذا النحو ؟

ــ طبعاً . انا جاهز . لقد مشيت طريق حياتي . ويل لمن لا يعيش ، أما انا فقد اخذت نصيبي من الحياة ، بل اغتصبت حصص آلاف غيري . اذا : رجائي الاخير ان تحولوني الى ميتيخي .

ــ حسناً سنفكر بالأمر .

فكروا اسبوعاً ثم استدعوه ، وحولوه الى سجن ميتيخي . اقتادوا كفاتشي الى مكان تطل نوافذه على الحمامات ونهر الكورا . فتحوا الزنزانة واغلقوا الابواب وراءه . توقف مبهوتاً . كان بافلوف يجلس امامه على السرير . تطلع اليه فاغراً فمه :

ــ بافل ، أنت ؟ هنا ؟

حوّل بافل وجهه ، ثم استدار من جديد وتمتم :

ــ انا .. انت .. انا .. وروّى لحيته بدموعه ولم يستطع ان يقول اي شيءْ . وقف ومسح عينيه .

ــ اجلس وقص علي .

أجلسه كفاتشي بصعوبة وجلس بجانبه . بكى بافل من جديد وهمس :

ــ هذا جزائي ! هذا جزاء الخائن ! انت .. أنا سافل حقيقي ! اليوم أو غداً سينهون حياتي .. انا لا استحق اكثر من ذلك .

صمتا طويلا ، ثم وضع كفاتشي يده على كتف بافل ، وقال بعذوبة :

– باφل ! اهدأ واحكِ كيف حدثت القصة .

– ببساطة رجوناك عشر مرات ، مائة مرة ، فلنسافر من هنا ، فلنبتعد عن الخطر .

– صحيح !

– لكنك لم تسمع منا .

– هذا ايضاً صحيح . لم أستجبْ واخطأت التقدير .

– لم استطع السفر وحدي ، لم تكن لدي نقود .

– ولماذا لم تطلبها مني ؟

– لأنني ما كنت لأسافر بدونك ، ثم اصطدمت مصادفة بالصندوق المركب في الحائط ، فتحته و .. لم اتمالك نفسي . جزائي هذا جزائي !

– وبعد ؟

بعد ذلك .. اخذت الكنز وسافرت الى باطوم . في الطريق اقتفى أثري أحد الرجال ولاحقني الى باطوم . دخلت الفندق فسار في إثري . اعطوني احدى الغرف ، فأسرعت وخبأت الكنز في مدفأة حديدية عالية ، ونثرت الرماد فوقه ، ثم انتقلت الى غرفة اخرى مباشرة . بعد ساعة واحدة اعتقلوني .

في تلك اللحظة فقط انتبه كفاتشي لوجود السجين الثاني الراقد على السرير الثاني ، وهو يصفر اثناء تنفسه .

– لا تخف – هدّأه بافلوف – هذا السجين ينام بعمق بحيث لاتوقظه المدفعية وهو لا يعرف اللغة الروسية .

– تابع .

ـ اعطني سيجارة اولا ، شكراً ، فتشوا الغرفة التي وجدوني فيها ولم ينظروا باتجاه الغرفة الثانية .

ـ حسناً والكنز ...

ـ لعله مازال في مكانه . الوقت صيف لا أحد يشعل النار . ولن يفكر احد بجرف الرماد . اعتقلوني . امضيت شهرين في سجن باطوم ، ثم نقلوني الى هنا . اردت ان اخبرك ، لكن كنت خجلا ، اضف الى ذلك ، بمن سأثق ؟ اي شخص سأقول له سيمضي بنفسه الى باطوم ويستولي على هذا الكنز . جلست اتعذب وانا انتظر شيئاً ما . ماذا كنت انتظر ؟ انا نفسي لا أدري .

ـ لعلك كنت تنتظر هذا اليوم .

فرح بافل :

ـ اجل هذا اليوم ، هذا اليوم السعيد . سيطلقون سر احك قريباً ، سيطلقون سراحك .. و ..

ـ اهدأ يا بافل ، سيطلقون سراحي ، كما سيطلقون سراحك . لن نخدع بعضنا . لقد انتهى امرنا .

ـ بكل تأكيد ـ وافقه بافلوف .

ـ يجب ان نخبر سلبيسترو وبيسو بما جرى ، فليستفيدا منه على الأقل. انتهينا من هذا الأمر ، والآن قل لي من هذا المتمدد بهدوء .

ـ هذا ؟ أحد الحمقى . اعتقلوه مصادفة . سيفرجون عنه اليوم أو غداً . انه مريض ..

ـ ما به ؟

ـــ مصاب بمرض النوم . يستيقظ كي يأكل فقط . قلت لك ان المدفع لا يوقظه .

يجلس كفاتشي بالقرب من النافذة الصغيرة ويتطلع الى المدينة ، تحت الصخرة تتراءى صفحة نهر « كورا » . على الضفة الاخرى يسعى التتر ودباغو الجلود . وفي اعماق المسيل ، حيث تجري مياه الحمامات الدافئة ، تغسل النساء الثياب وقد جلسن القرفصاء مشمرات عن سوقهن الى مافوق الركب .

إلى اليمين تتراءى « ناريكالا » ، وتحت البرج والصخرة تقبع حديقة النبات . إلى اليسار والامام وعبر الممرات الجبلية ينقل البعض الفحم والماتسوني (اللبن) . على ضفة الكورا ، وعلى شرفة واسعة ، جلست اسرة تترية تشرب الشاي . وفي بيت آخر يرتفع صوت مسجلة بغناء مبحوح . وفي مكان ما يخن صوت أورغن غير محكم الدوزان .

يجلس كفاتشي ويفكر بمصيره . كيف والى اين ساقه قدره المضطهد ! كيف انتهت حياته الرقشـــاء الآثمـــة ! أهكذا ببساطة ودونما إنسانية ؟ ! .من يحصي عدد المرات التي هرب كفاتشي فيها من الموت المشؤوم ، وكم مرة تخلص من الانشوطة المدهونة بالصابون .

كل العالم طارد كفاتشي ، لكنه كان يلبس طاقية الاخفاء على مرتفع دعمير ـــ تيبي » .ثقبوه بالحراب ، قطعوه بالخناجر . لكنه نهض واختبأ في قلعة بتروبا فلوفسكايا . اقاموا المشنقة له ، لكنه طار من هناك . وفي سهول اوكرايينيا تغلب مع تسعة من رفاقه على اربعين رجلا . لقد افلت من مصيدة الحمر اكثر من عشر مرات . والآن .. هنا ـــ في وطنه .. احقاً ؟ احقاً لن يستطيع كفاتشي ان يثقب الجدار السميك ، وهل سيتمكن مرة اخرى من صهر القفص الحديدي ؟ !

ايها الرب العظيم ، أعن كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ! ايها الرب الجبار ، ساعد مرة اخرى عبدك الملحد ! يا رب السماء ، حقق المعجزة مرة أخرى وسيعود عبدك الضائع الى ملكوتك والى الأبد ! سيقيم لك ثلاث كنائس وسيمجد اسمك المقدس بصدق وسيخدم كنيستك الخالدة باخلاص . اسمع يا رب صلاة كفاتشي ، اظهر معجزتك له . امنح عبدك الحرية والحياة والسعادة .

صلى كفاتشي كفاتشا نتيرادزه متكلا على ربه . يفكر ابن سلبيسترو بحذاقة وحدّة ، يشتعل دماغه . بدت على جبينه عشر تجاعيد ، عيناه تقدحان شرراً . يختلج قلبه وتغلي نفسه .

اخيراً توقف وسكن . برقت ابتسامة على شفتيه المطبقتين بإحكام ، وانفرج جبينه ، واندفع فجأة نحو السجين النائم ، وبدأ يحركه :

— أي .. ي أيها الزميل ، انهض ، اتسمع ، استيقظ ، أقول لك !

قلبه مرات عديدة ، شدّه من رجله ، بدأ يفرك اذنيه حتى استطاع بصعوبة ان يرغمه على فتح عينيه .

— استيقظ ، اقول لك ! ما اسمك ؟ ايفان ؟ اكتب يا بافل ، اسم الأب ؟ اسم العائلة ؟ تشيليكا شفيلي ؟ اكتب يا بافل ! كم عمرك ؟ من اين انت ؟ لا تخطىء يا بافل ! ما سبب اعتقالك ؟ حسناً ، كفى . والآن نم من جديد — ثم التفت نحو بافل — أتسمع يا بافل ، سأخرج اليوم أو غداً ! .. اقول لك سأخرج ! تريد ان اشرح لك؟ طبعاً سأشرح. عليك بمساعدتي ايضاً . قل هل يعرف حراس السجن هذا السجين ؟

— لا أحد يعرفه . لقد احضروه أول أمس ، وهو حتى الآن لم يخرج قط الى الفناء .

— جيد جداً . والآن قل لي في اي وقت يسرحون السجناء ؟

— مساء بعد الساعة التاسعة مساء .

— جيد جداً والآن علمني كيف استطيع ان احصل على البروم ؟

— لدي بروم ، لقد اعطاه الطبيب لي .

— حقاً ؟ إذاً لقد قبل الله صلاتي . الساعة الآن الثالثة اي .. ي ، انهض يا ايفان أنت لست وحيداً في هذا السجن ! بافل ابستلق على سريرك ولا تسمح لهذا الاحمق بالاقتراب منك . مهما رجاك لا تدعه يقرب هذا السرير . ايفان،انهض اقول لك ! ثمة سريران ونحن ثلاثة . منذ يومين لم يغمض لي جفن . سأنام . اما انت فنم مساء ، هيا انهض لا تتكاسل . باقل ايقظني في تمام الساعة السابعة .

استلقى كفاتشي على سرير ايفان . أما ايفان فما ان فتح عينيه وفركهما حتى ترنح كالدب ومشى في ارجاء الزنزانة .

في الساعة السابعة مساء ايقظ بافل كفاتشي :

— ايها الزميل ، ألست مريضاً ؟ سأل كفاتشي ايفان .

— اجل تؤلمني معدتي .

— المعدة ؟ انت انسان طيب . لماذا لم تقل لكفاتشي حتى الآن ؟ كفاتشي طبيب . طبيب شهير .

لقد اشفى الآلا ف من امثالك . ها هو الدواء . اعطه هذا البروم ! هيا اشربه ونم ؟ بعد خمس دقائق شخر ايفان بلذة . كان كفاتشي يجري في الزنزانة بعصبية . التاسعة..العاشرة .. الحادية عشرة . اطلقوا سراح كل المساجين الذين يجب ان يخلى سبيلهم ، وهدأت تدريجياً الضجة واللغط في السجن .

لا ينام كفاتشي ولا يسمح للمسكين ايفان بالنوم . يستلقي ايفان على السرير وينظر في السقف . لا يعطي « دواء المعدة » ! « تشيليكا شفيلي » الا في المساء ، حينذاك ينام . ينهض عند الفجر ويوقظ ايفان . كان ايفان يستلقي احياناً على الأرض ، لكن كفاتشي في ذلك الوقت بالذات يريد ان يتمشى في الغرفة . عندما يتمدد ايفان على السرير يرغب عندئذ كفاتشي بالنوم على السرير . لا يخرج كفاتشي للنزهة ولا يسمح لايفان بالخروج .

ينتظر كفاتشي شيئاً ما ، وتتحرق نفسه وتتأذى .

مضى اليوم الرابع طويلاً مملاً . قاس كفاتشي الزنزانة للمرة الألف ، واستند ايفان المنهك القوى الى الجدار دون ان يتجرأ على الاستلقاء على السرير الذي اغتصبه كفاتشي .

حين بدأ الغبش اعطى كفاتشي بقايا البروم لايفان وقال آمراً :

ــ اشرب ونم .

شربها ايفان واستلقى . نام تشيليكا شفيلي كالمقبرة الترية التي تتراءى على الضفة الاخرى للنهر ، تحت الجبل الصغير .

الساعة الثامنة . يجري كفاتشي في الزنزانة كضبع لم تألف جو الغرف بعد . الثامنة والنصف .. التاسعة .. التاسعة والنصف . يقف كفاتشي في البهو بجانب النافذة المطلة على الفناء . يصيح موظف السجن . نادى اسم العائلة ، لأربعة مساجين .. الخامس .. السادس .. السابع .. وفجأة سمع صوت عبر الفناء :

ــ ايفان تشيليكا شفيلي !

— ايفان تشيليكا شفلي ! ايفان تشيليكا شفيلي — ردد بقية الحراس الاسم

— هنا ، هنا ، صرخ كفاتشي وجرى نحو الزنزانة — وداعاً يا بافل !

— وداعاً والى الابد ! همس بافلوف وهو يحتضن كفاتشي .

ونام ايفان تشيليكا شفيلي من جديد كالحجر ، لف كفاتشي وجنتيه وذقنه وشفتيه ، بمنديل . « كفاتشي تؤلمه اسنانه » . وأسدل قبعته الموبرة حتى عينيه وحمل صرة تحت ابطه وخرج الى البهو .

اجتاز البهو مسرعاً ، هبط الدرج وخرج الى الفناء ، استرخى وانكمش ونكس رأسه فوق صدره واجتاز الفناء ، غرفة صغيرة أمام الباب .

— اسم عائلتكم واسمكم ؟ سأل موظف السجن وهو يقلب دفتراً سميكاً .

— انا ايفان تشيليكا شفيلي ايها العزيز — قال كفاتشي بلهجة فلاحية .

— كم عمرك ؟

— لعله ثلاثون .

— ثلاثون ؟ — تساءل موظف السجن وحدق في كفاتشي .

— لعله .. أنى لي ان اعرف ؟ يمكن ان يكون اكثر أو أقل .

— ما بكم ؟ ما لكم ملثمون هكذا ؟

— اسناني تؤلمني ايها العزيز — صأى كفاتشي

— متى نقلوكم الى ميتيخي ؟

— منذ ما يقارب الاسبوع .

لماذا علق هذا الانسان على كفاتشي ؟ لماذا تقدح عيناه شرراً ؟ ماذا يريد من كفاتشي ؟

— لماذا أوقفوكم ؟

— تشاجرنا وكأنني ..

لم يعد حارس السجن يستمع . يضع في يده ورقة ويقول له :

— دع هذه الورقة معك ، والا قد يعتقلونك من جديد . والآن هيا اذهب ولا تدعني اراك مرة اخرى ، والا ..

— لن اعود مرة اخرى ايها العزيز !

فتح الباب محدثاً صريراً . وهذا هو الباب الثاني والثالث .. دار رأس كفاتشي فرحاً وكاد قلبه ان يقفز من صدره . تفحصه حراس الابواب الاخرى وكأنهم يعرفون كل شيء .

ها هو يمشي بجانب احد الجنود ثم اجتاز شارعاً ضيقاً وسار منحدراً. كان ثمة حراس ايضاً عند اطراف السجن . كاد كفاتشي ان يجري . ابتعد عن السجن . اجتاز ساحة صغيرة ثم جرى عبر جسر « افلابارسكي » ثم قفز الى عربة مكشوفة .

— هيا الى سيوكي !

بدت العربة وكأنها تزحف . اجتازت سيوكي ، انتشيسخاتي . المصرف ، ثم سارت على ضفة الكورا وصعدت الى ثكنة الهندسة العسكرية ، ثم انعطفت نحو اليسار ثم دخلت آخر شارع زوستافيلي المشجر .

مكان لعين ! مصيدة حقيقية ! يجب على كفاتشي ان يمر على «فيرا»

ثمة صعوبة في اجتياز ناصية شارع « موسكو » هنا بين الخطوة والاخرى يقف عميل مخابراتي مصيدة ، مصيدة حقيقية . !

— ايها الزميل ، اسرع !

انكمش كفاتشي وصغر قامته ودس رقبته بين كتفيه..وارخى قبعته الفروية حتى انفه ولف المنديل حتى شفتيه . اختبأ كفاتشي وتصبب عرقاً بارداً .

— اسرع ! .. أسرع ! ! والآن انعطف نحو اليمين .. قف !

والآن سيتابع كفاتشي طريقه سيراً على الاقدام . سيدخل ويخرج كي يضيع أثره فمن يعلم .. فاليكو اخي فاليكو .. الحمد لله اذ وجدتك في البيت. هيا اسرع تحرك ! ابحث عن بيسو وجليل . جدهما حالا . بيسو يتخفى ؟ اتعرف شقته اقريبة ؟ جيد جداً . هيا استدعه ، أسرع ! — وبعد نصف ساعة — بيسو يا صديقي المخلص .. كيف حالك ؟ وكيف حال جليل ؟ كم لديكما من النقود ؟

مرحى لك يا بيسو ! يا لك من صديق حقيقي ! إذا عملت كي تحرر كفاتشي من السجن ، اردت ان تختطفه ؟ كان كل شيء جاهزاً ؟ لقد خرج كفاتشي دون مساعدتك ، لكن مع ذلك حياته كلها لك وللأبد ! بعْ املاك كفاتشي كلها وحولها الى نقود . نعم ! انت جاهز للسفر نعم ! غداً ؟ تعال بيسو تعال يجب أن يحتضنك اخوك الاكبر كفاتشي مرة اخرى . والآن اجر وافرح « جليلا » ايضاً .

— إذاً ، غداً في الفجر تستقل انت وجليل سيارة وتسافران في القطار حتى « متسخيتا ». البسا على الطريقة الفلاحية — العمالية ، ارسلا ذقنيكما ولا تغسلا وجهيكما ، بل على العكس ، لطخا نفسيكما جيداً .

اتركا الحقائب الاوروبية ، واحملا ثيابكما البالية وحوائجكما البسيطة في سلة وصرة بسيطة . حسناً الى الصباح ! بيسو فليباركك الله الآن ودائماً والى أبد الآبدين جراء اخلاصك !

«كيف غادروا الوطن الجاحد»

دخل كفاتشي وبيسو وجليل احد فنادق باطوم بعد ان ارتدوا ملابس عمالية — فلاحية .

— أتوجد غرفة ؟

— توجد وكيف لا ! ايها الاخ .

كانت الغرفة رقم /٧/ مشغولة — لذا نزلوا في الغرفة رقم /٦/ . تجوّل بيسو مستطلعاً الغرفة السابعة ونزلاءها .

توشيوش جليل نوري مع المهربين في « البازار » وانتظر كفاتشي الرد النهائي ، وكالوحش دار وجرى وتصبب عرقاً .

— آغا ، كل شيء جاهز . نستطيع السفر الليلة .

عندما حان وقت الغداء قال بيسو :

— حان الوقت يا كفاتشي ، لقد ذهب النزيل لتناول الغداء .

وقف جليل بجانب الدرج ، فتح بيسو باب الغرفة رقم ٧ بيسر . اندفع كفاتشي نحو المدفأة ، أزاح الرماد وهتف صائحاً :

— وجدته ، بيسو ، وجدته !

بعد خمس دقائق خرج الجميع من الفندق . وبعد ساعة ارتدوا ثياباً اجارية(١) . وخرجوا من باطوم .

(١) اجاريون : أحد شعوب جمهورية روسيا السوفيتية .

مشى كفاتشي في المقدمة كرجل اجاري حقيقي : هادىء، خفيف الحركة ولامع العينين .

حمل الأربعة عصياً على اكتافهم ، وفي طرف كل عصا علقوا صرة صغيرة .

اجتازوا اولا « فورت ستيانوف » ، ثم الاحراج المجاورة وعبروا بعدئذ جسر « تشوروخي » وانعطفوا نحو اليسار . مشوا فترة طويلة متسللين بهدوء الى ان وصلوا الى قرية « سيمنونيتي » . دخلوا خلسة بيتاً صغيراً وجلسوا .

اختفى الرجل الاجاري . كانت الشمس على وشك الغروب ، وحين عمّ الظلام دخل الأجاري البيت خلسة وقال :

— هيا ، ايها السادة :

خبّ الرجل الأجاري في سيره متمهلا ، ومشى خلفه كفاتشي وبيسو وجليل . كانت حقول الذرة تبدو كالأحراج ، احراج ضمن الغابة الغافية . تحولت الطريق في البداية الى ممر صغير ، ثم اختفى هذا الممر نهائياً . كان خط السير يزداد ارتفاعاً والقمر لا يرى في الغابة النائمة . مشوا في الظلام وهم يتعثرون مقتفين آثار بعضهم البعض .

اوشك الليل ان ينتصف . اجتازوا الجبل ودخلوا اطراف الغابة .

— انتظروني هنا ، ايها الاخوة — قال الأجاري واختفى بين الأحراج . التزموا الصمت ، وحين الضرورة تهامسوا . بعد ساعة عاد الأجاري من جديد مصطحباً رجلا آخر .

تابعوا سيرهم . مشوا من جديد يتعثرون ويتصببون عرقاً . استراحوا قليلا ، ثم بدؤوا بصعود الجبل المغطى بالأحراج . مشوا بحذر ودونما

ضجة . كثيراً ما كان الأجاري الثاني يبتعد عن الطريق مستطلعاً المنطقة . يتنصت ثم يعود ويضاعف الحذر . وفي احد الأمكنة انبطح الجميع ، زحفوا ساعة متحركين ببطء . اخيراً ، وحينما دخلوا أحد الحقول ، التفت الأجاري وقال :

ـ ايها الاخوة ، نحن الآن في الأراضي التركية . لقد انتهت الأراضي الروسية .

ضج الهاربون فرحاً ، هنأوا بعضهم بعضاً ، لم يعودوا يخافون ، لذا مشوا بحرية . تراءى ضوء في مكان قريب ؛ ساروا باتجاهه ، ودخلوا مقهى صغيراً ، اختفى الأجاري في العتمة ، ثم عاد عند بزوغ الفجر مصطحبا رجلين من اللاز(١) . سلموا الرجال الهاربين الى اللازيين ، قبضوا الاموال ، تمنوا للجميع حظاً سعيداً، ثم عادوا حاملين على ظهورهم المواد المهربة .

سرعان ما دخل المقهى أناس جدد . كان احدهم خفيراً والبقية عساكر(٢) . نظر الخفير الى رفاق الطريق وتحدث مع جليل بالتركية . من هم ؟ من اين قدموا ؟ ألديهم جوازات سفر وموافقة على عبور تركيا ؟ ردد الخفير كثيرا كلمة « بلشفيك »

ـ غيل غيداخ ـ امشوا ورائي .

خرجوا جميعاً . انبلج الصباح . جلسوا في بيت احد الرجال ساعتين ، ووقف بجانبهم جندي حاملا سلاحه . اخيراً استدعوا الثلاثة .

ـ بارلي فوفرانسي ؟ ـ سأل كفاتشي الضابط الطويل .

---

(١) اللازيون : أحد الشعوب التي تقطن جورجيا وقسماً من تركيا .

(٢) وردت في النص بلفظ « عسكر » .

ــ نون ، نون بيلمرام ــ لا لا أعرف ! ــ اجابه الضابط ، وبدأ حديثاً طويلا بالتركية مع جليل ، ثم قال الضابط شيئاً للحارس . فتش الحارس الثلاثة من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ثم وضع الاشياء التي وجدها ــ الكنز ومحفظات النقود على الطاولة ، ووقف جانباً يرف بعينيه .

ــ ابتسم الضابط . عد النقود وأكل المجوهرات بعينيه : ترجم جليل :

ــ يقول (علي بك) ان الامراء اغنياء جداً .

كان كفاتشي يعلم جيداً ان البيك يمكنه ان يأخذ ما يحلو له دونما تأكيد أو تأييد ، لذا قرر كفاتشي الا يقاوم :

ــ جليل ، قل لــ « علي بك » ان يختار ويأخذ ما يعجبه .

في البداية اختار علي بك قطعة واحدة .

ــ علي بك يشكرك .

ــ قل لعلي بك ان شكره اغلى من الهدية

انتقى علي بك قطعة ثانية وثالثة .

ــ علي بك يتساءل : ألستم بلاشفة ؟

ــ قل لعلي بك ، يا جليل ، ان البلاشفة قدروا رؤوسنا بمائة الف ليرة .

نقل جليل كلام كفاتشي . جذب علي بك نحوه قطعتين كبيرتين من اللؤلؤ .

ــ يقول علي بك اننا ضيوفه هذا اليوم .

ــ جليل ، قل لعلي بك ان الشكر لله وحده .

ــ يقول علي بك اقرضوه بعض المال .

ــ قل له « نكرنم » يا جليل ــ قال كفاتشي مغتاظاً بصوت اجش لكننا مسافرون نحن الثلاثة الى استانبول ، وقد لاتكفينا نقودنا نفقات طريق . لذا قل لعلي بك ان يعرفنا على شخص يمكنه ان يقرضنا نقوداً .

ترجم جليل كلام كفاتشي . ضحك علي بك ورد قائلاً :

ــ يقول علي بك انه يعرف رجلا كهذا .

ــ من هو ذلك الانسان يا جليل ؟

ــ علي بك .

ضحك كفاتشي ضحك المشنوق .

ــ جليل ، قل لعلي بك انني سأعيد اليه نقوده بفائدة مئوية . واذا سافر علي بك الينا في استامبول واصبح صديقنا سأقدم اليه مهراً عربياً وسيفاً دمشقياً لا مثيل لهما في تركيا كلها .

ــ قال علي بك اذا كنتم لا ترغبون بصداقتي عودوا من جديد الى موسكو .

ــ عبثاً تأثر علي بك من كلماتي ، يا جليل لقد قلت في البداية أن صداقة الشياطين افضل من صداقة اهل موسكو . رؤوسنا واموالنا ومجوهراتنا هذه نقدمها هدية لعلي بك

ابتسم علي بك من جديد ، ثم عد الفي ليرة وقدمها لكفاتشي قائلاً :

ــ بوي آور ، افندي ! ــ تفضلوا ايها السادة . اقرضكم . لا تقولوا ان هذا قليل .

في ذلك اليوم كان كفاتشي ضيفاً على علي بك . لقد التصقا كأخوين حقيقيين لم يريا بعضهما منذ عشر سنوات . لاطف كل منهما الآخر

واستماله اليه . قصا الحوادث التي جرت لكل منهما وتبادلا العناوين ، ثم اتفقا على ان يصبحا أخوين الى الأبد وان يتراسلا .

في اليوم التالي اعطى علي بك كفاتشي وثيقة تحول دون التعرض لكفاتشي . جهّز لهم احصنة وارسل معهم عسكرياً وسلمهم هذا الى عسكري آخر ثم سلمهم هذا الآخر الى عسكري ثالث .. والخامس الى السادس .

بعد عدة أيام وصل كفاتشي الى « طرابزون » ، استقبل الوالي المحلي كفاتشي مثلما استقبله علي بك بودٍ واحترام . لكنه لم يقرضه مالاً كما لم يستلف منه نقوداً . لكنه اجبره على الانتظار شهراً كاملا ثم اعطاه اذناً بالسفر .

ـ الحمد لله ـ قال كفاتشي بعد ان صعد الى الباخرة ـ بقي لدينا القليل من المال .. لكن ...

ـ لكننا احتفظنا برؤوسنا ـ قاطعه بيسو .

ـ شكراً لله(١) ـ قال جلبل معزياً الاثنين ـ استامبول افضل من « سابورتالو » .

« تحديد الماضي »

اقتربت السفينة من البوسفور . كان الثلاثة يقفون على سطحها بجانب كفاتشي . كما كان هناك احد الامريكيين اسمه « واطسون » ربح منه كفاتشي في تلك الليلة ثلاثة آلاف دولار في لعبة البريدج .

ـ لقد طفت هذه المنطقة سيراً على الأقدام ، حتى انني أعرف ان تلك القلعة التي ترى من الجهة اليسرى تدعى باللغة الجورجية كاريبتشي(١)

(١) وردت في النص بنفس اللفظ العربي .
(١) البوابة .

— كاريبتشي ؟ صرخ كفاتشي مستغرباً — فعلا تسمية جورجية لكن من .اين ؟ وكيف ؟

— ايام البيزنطيين شيد الجورجيون ديراً هناك واسموه كاريبتشي ، ثم حولوه الى قلعة .

تلوّت السفينة في خليج البوسفور . كان واطسون يشير باستمرار باصبعه نحو اليسار واليمين ولا يفتأ يتحدث :

— هذا قنديل رومل .. وهذا هو قنديل « اندولا » . هاك ناحية اليمين تتراءى ، « بيوك — ديري » والى اليسار « اندال غيسار » .

طاف كفاتشي شتى انحاء العالم ، لذا لم ينتظر ان يرى شيئاً مدهشاً في تركيا . لكن البوسفور لفت نظره ونظر بيسو .

— كم هو جميل ! يا للجمال ! يا للمنظر البديع ! — كان كفاتشي وبيسو يكرران مديحهما كل دقيقة .

— هوذا « رومل غيسار » — تابع الأميركي كلامه — اورتاكيو .. وانيكيو ..

اقتربت السفينة من القسطنطينية .

ها هو قصر تشورغان وذاك قصر دولما بوخنشي .. السفارة الالمانية .. مسجد محمودية .. توبخانه .. غالاتا !!

رست السفينة في الميناء ، نزل الجميع في منطقة « بيرا » واقاموا في افضل فندق اوربي .

بدأ كفاتشي حياة جديدة ، لكنها شبيهة بالحياة السابقة قبل ان يأتي شباط او « العاهر كيرنسكي واكتوبر أو جهنم الحمراء » .

ثلاث غرف في فندق فخم ، عشر بذلات ، طعام فاخر ، نزهات ،

مقاهي ، لهو خشن ونساء . نساء ، نساء يهوديات يونانيات ، ارمنيات ، تركيات ، عربيات ، سوريات . باختصار جميلات من شتّى اقطار الشرق . يعرفه كفاتشي الغربيات منذ زمن بعيد ، لقد تذوقّهن منذ امد . يعرف لونهن ، طريقه حبهن ومئات الاساليب في معاشرتهن . وهو الآن يعجب بالنساء الشرقيات ، واسعات العيون سمزاوات ، خاملات ، وحارات ناعمات كقطط أنقرة ، لدنات كأفاع جنوبية ، تارة حارات كأجصنة عربية وتارة أخرى متثاقلات كنمور شبعة . عيونهن بحر مظلم تتلألأ فيها نجمة الصبح . جلودهن اشبه بعاج الفيل القديم وشفاههن كرمانات متشققة . وكفاتشي نفسه لم يعد يشبه المهر السابق . لقد غدا مهراً راشداً : هادئاً ، مجرباً ، محنكاً .

وهو الآن يفهم نصائح ايدلسون التي تلقاها في منتزه بولونسكي منذ عشرة اعوام خلت . ماذا قال آنذاك ايدلسون المجرب ؟

المرأة الشابة التي لم تعمد بالحب ولم تروض بعد كالنبتة بلا جذور . . اما المرأة الراشدة فشجرة سنديان ضاربة الجذور في الأرض : الشابة تزرع والراشدة تحصد ، وهي تتعلم وتعلم ، الاولى تبتسم بحياء أو تنفجر ضحكاً او تزرف الدموع بنعومة ، أما الثانية فتجهد وتعوي وتهر وتصرخ . غزل الشابة كالنسيم ، اما غزال الراشدة كالزوبعة . غرام الشابة كاللهب ، اما غرام المرأة الراشدة كالجمر المتقد . الفتاة اللعوب تفوح برائحة الورد والبنفسج ، اما المرأة المتخمرة فتنضح بالمملحات والجبن . .

اصبح كفاتشي يفهم الآن ذوق إسحق . يفهم ويجري في كل مكان : يبحث وينتظر . لكن ملعون من اخترع النقود — ليرات ،

دولارات تجري كالماء . لقد سلخ كفاتشي عدة مرات جلد واطسون الناعم واثنين آخرين من المبذرين الأوروبيين . لكن كفاتشي غير محظوظ ! إما ان المبذرين الاوروبيين قد اختفوا من استامبول أو أنهم اصبحوا خبثاء مثل كفاتشي !! .

لم يترك مجالا لكفاتشي للاقتراب منهم ، اما الأرمن واليونانيون واليهود المحليون فهم انفسهم يتصيدون ما في جيب كفاتشي الصغيرة ، يا الهي اي شعب هؤلاء اليونانيون والارمن واليهود ! كانوا وكأنهم يحملون كفاتشي على رؤوسهم . لم يستطع كفاتشي اقامة مصيدة واحدة وحوله نصبت خمسة افخاخ . قبل ان يتمكن من حياكة شبكته وقع في حبال شباك خمس. فخ كفاتشي بالنسبة اليهم... كتاب مفتوح يقرؤونه بسرعة فائقة . اساليبه — قضبان يابسة يكسرونها باصبعين اثنتين . سحره — قماش « تول » مهترىء يتشقق من تلقاء نفسه .

لا ، هنا يستحيل « تدبير » عمل ما ! لا يمكن العيش في بلد لعين كهذا !! هيا الى باريس ولندن وروما من جديد ... لكن لا يسمحون لكفاتشي بالدخول الى أوروبا ، لا يعطونه تأشيرة دخول لعلهم يعرفون من هو كفاتشا نتيرادزه ، أو لعل اعداءه يلحقون به الضرر هناك .

أخيراً استسلم كفاتشي لقدره .

لكن الحياة بلا نقود ، وفي استامبول بالذات ، امر مستحيل .

استامبول — عاصمة المغتربين ، تسمع فيها اللغة الروسية اكثر من التركية . المقاهي والمطاعم الفخمة ونوادي اللهو الليلية تغص بالاميرات الروسيات وبالناس الذين كانوا بشراً . اعتاد كفاتشي على ارتياد تلك الاماكن وعلى معاشرة هؤلاء الذين كانوا بشراً . ينتقل من مطعم لآخر ،

ومن مقهى الى مقهى ، يقوم بعمل ما ، يبحث عن أحد ما ، يحوك شيئاً ما . كان احياناً يجد المطلوب ويدبر اعمالاً صغيرة ، يتعرف على امرأة مميزة يستهويها فيقدمها الى واطسون ، أو الى سواه من الشارين . ومن مائدة واطسون ورفاقه الى مائدة شارين آخرين . وعن مائدة واطسون ورفاقه كانت تتساقط بعض الفضلات المرة .

عرفّ واطسون كفاتشي باحد الاطباء ، وأحال هذا الطبيب كفاتشي الى امرأة عجوز . حدقت العجوز فيه ، جربته ثم قالت له ذات مرة :

ــ ثمة نساء كثيرات في هذا البلد لا اولاد لهن . عندهن ازواج طبعاً ، لكن .. ، هل فهمتم ؟

فهم كفاتشي وكيف لا يفهم ! على كفاتشي ان يعين السيدات اللواتي لا ابناء لهن ، جيد جداً . الثمن ؟

ــ سنتفق . لكن لا يحق لك أبداً ان تنزع القناع عن الزبونة .

ــ حسناً ، أقبل بمثل هذا الشرط . قبل به وطبقه بشرف وعاش يوماً بعد يوم .

نظر كفاتشي ذات مرة الى أحد البيوت الصغيرة وسأل :

ــ اهنا يعيش مستر « ديربلي » ؟

ــ لا ، لا يعيش هنا مستر ديربلي .

يا الهي العظيم ! من صاحبة هذا الصوت ؟ من تلك التي تقف على هذه الشرفة الصغيرة ؟ من صاحبة هذا الشعر الذهبي الثمين ؟ لمن هاتان العينان الزرقاوان اللامعتان ؟ وتلك الشفتان الشاحبتان والمرتجفتان بعض الشيء ؟

نظر كل منهما الى الآخر برهة وجيزة ، ثم تهادت الابتسامة على شفاههما .

— ريفيكا اهذه انت ؟

— انا ، أنا ، ألم تعرفني .

— يا عزيزتي ريفيكا ! ربيي !

اجتاز كفاتشي الفناء بعدة قفزات ، وضم ريفيكا الى صدره . اجابت ريفيكا المتأججة العواطف على قبلات كفاتشي الحارة بقبلات خجلة . نظرت حائرة الى الوراء . كانت امرأة اخرى تقف بالباب الصغير .

— ايها الرب العظيم ! يلينا ! انت ايضاً هنا !

احتضن يلينا وتمتم :

— الاثنتان معاً . . الاثنتان في يوم واحد وفي شقة واحدة .. سعادة مزدوجة .

— ادخل الى البيت ! — دعته يلينا .

دخل الثلاثة الى الغرفة ، غرفة واطئة مظلمة وصغيرة . كان مسكن ربيي ويلينا ينضح فقراً ورطوبة وبؤساً !

نظر كفاتشي الى الاثنتين . كانتا تلبسان ثوبين من « الشيت » الرخيص ، وكان الثوبان ، الى جانب ذلك ، مرقعين مرفوين ، في اصابعهما آثار الأبرة وعيونهما متهدلة من قلة النوم ، وسالت دموع ريفيكا انهاراً .

— ربيي لماذا تبكين ؟ ماذا حدث لك ؟ ربيي ، حدثي صديقك ابولون عن شجونك . احكي لصديقك القديم عن أسباب دموعك .

لا تخجلي من الرجل . لقد نسي جحودك وضعفك ، حين لم تصمدي أمام بافلوف حيث قلت له ما كان يجب الا تقوليه . لقد فرجت همه وغسلت السم . لقد نال بافلوف جزاءه .

— منذ شهر مضى أعدموه رمياً بالرصاص في تفليس .

لم يفرح هذا ريفيكا ، وشحبت يابينا قليلا . « آه حقاً — تذكر كفاتشي — لقد احب بافلوف و« يلينا » بعضهما يوماً ما منذ اربع سنوات خلت , لقد اصاب هذا السهم يلينا وكأنهما لم يفترقا . كان بافلوف رجلا جميلا ، يا للمسكين ! »

تحدثت يلينا وريفيكا لكفاتشي عن نفسيهما .

منذ خمس سنوات خلت هاجر من بطرسبورغ اسحق وريفيكا ويلينا وبعض معارفهم . توقفوا في محطة صغيرة بالقرب من موسكو ، سُرق الثلاثة ولم تبق معهم كسرة من الخبز ، وصلوا الى اوديسا فارغي الأيدي . امضوا خمسة اشهر في الطريق . كانوا يقتاتون بما يحصلون عليه من التسول والاعمال الوضيعة . التقوا في كييف بـ« فيتغينشتين » يتذكر كفاتشي ذلك الشاب الصغير الذي لم يكن يقارن في باريس بأبولون السعيد .

— أذكر ، اذكره جيدا .

لقد ساعد « فيتغينشتين » « يلينا » لكنه سرعان ما قتل .

— من قتله ؟

— من يدري ! حينذاك كان كلٌ يقتل الآخر ، بتلورا ، سكوروبادسكي ، ماخنو ، الالمان الحمر ، البيض ...

ثم وصلوا الى اوديسا . كان أقرباء اسحق وريفيكا عراة فقراء ، وعندما وصل الحمر الى المدينة هرب الثلاثة الى القسطنطينية . كان اسحق رجلا ماهراً .

— ما معنى كان ؟ اين اسحق ؟ — عندئذ فقط سأل كفاتشي عنه .

— مات المسكين — قالت ريفيكا .

وبكت ريفيكا من جديد وتابعت يلينا :

— كان اسحق رجلا ماهراً . افتتح مطعماً ، وكان دخله جيداً عملنا انا وريبي في نفس المطعم . كان الراتب يكفينا ، وهكذا عشنا ، منذ ستة اشهر مضت مرض اسحق ومات !

— مسكين ! — صاح كفاتشي . .

كان المطعم مديناً فبيع ، وبقينا فارغي الأيدي . نحن الآن نخيط الثياب . وهكذا نعيش ، لكن أية حياة هذه !

ثم حدثهما كفاتشي عما حصل له .

— لقد فقدت في الحرب تشخوبيشفيلي ، أفلابريان ، تشيكينجيلادزه ، تشيبونتيرادزه وبيكاريف .

— مسكين ! مسكين ! .. — كانوا يقولون بين لحظة واخرى .

— لقد نال بيكاريف جزاءه . صاحت ريبي — لقد اعتقلني

— حقاً كيف هي تانيا ؟ — تذكرت يلينا .

— ماتت من الجوع — قال كفاتشي بهدوء .

اهتاجت يلينا :

— وأنت ، الم تساعدها بشيء ؟

— لم تخبرني بشيء . اردت مساعدتها . ارسلت لها بعض الاشياء فلم تقبلها .

— وغانوس وزوجته ؟

— قتلوا غانوس وزوجته الآن تغسل الثياب .

تساءلوا وتذكروا اشياء واناساً كثيرين ، مات بعضهم جوعاً وغماً وبعض آخر قتل من قبل آخرين . وبعضهم في أوروبا واستامبول وروسيا يغسلون الثياب أو يمسحون الاحذية ، أو يخدمون في المقاهي والمطاعم أو يقومون باعمال وضيعة أو شاقة ، منهكين انفسهم ذائبين كالشمع ثم يموتون الواحد تلو الآخر .

دعا كفاتشي الاثنتين الى المطعم ، لكنهما شكرتاه فقط ، اذ لم يكن لديهما ثياب لائقة للخروج . أخيراً اتفقوا على النحو التالي : دعاهما كفاتشي الى مطعم شعبي يتناسب مع ثيابهما الفقيرة ، وافترقوا مساء بصعوبة .

ماذا يفعل كفاتشي ؟ كيف سيتصرف ؟ كما في الماضي أم سيعتني بهن كعشيقات هجرهن منذ سبع سنوات ؟ هل كفاتشي مجبر على حمل اعباء الاثنتين ؟ طبعاً غير ملزم .

في الزمن الحالي كان الثلاثة يتلقون مبلغا لابأس به . واعطوا ايضاً مبلغاً لابأس به ، ثم مشى كلٌ منهم في سبيله .

لكن مع ذلك .. نحن جميعاً بشر ، من يدري !

في اليوم التالي دعاهما الى مطعم ليلي . كان الحضور في ذلك المطعم سكارى .

تزعق الموسيقى فوكستروت ، تانغو ، هز البطن ، كان المكان يضج بالعهر والفضيحة والرذيلة . ثمة نساء يقمن بخدمة الحاضرين وكن من وقت لآخر ، يخرجن مع احد السكارى إلى مكان ما ثم يرجعن متأخرات . جلسوا وطلبوا الطعام والشراب . لم يحول كفاتشي نظره عن ضيفتيه . أدام النظر الى وجهيهما وكأنه ينظر في مرآة . نظر ورأى بوضوح الانطباع الذي تركه المطعم الليلي في نفسيهما .

ماذا لو ان ريبي أو يلينا عملتا في مطعم كهذا سواء كان المطعم نظيفاً أم قذراً عارياً ، أم مكسواً ؟ سواء حوى المطعم نساء أم بلا نساء ؟ هل هن معتادات أم انهن غير مجربات ؟ محنكات أم غير محنكات ؟

قرأ كفاتشي في لحظة الجواب في وجهيهما . لقد اشمأزتا قليلا من منظر المطعم . حسناً يعني انهما شبه مروضتين .

— اولاء النسوة يكسبن نقوداً كثيرة — قال كفاتشي .

— يعملن حتى يشخن — ردت ريبي .

— يعملن لكن بشبه من مرتب — اضافت يلينا .

— طبعاً التعامل ليس سهلا مع أناس قذرين كهؤلاء — تابع كفاتشي حديثه — لكن توجد اماكن أخرى حيث البناء رائع والناس نظيفون مهذبون . اشربي يا يلينا ، هذا « شارتريز » .

فعلاً النساء المحليات يعشن كأميرات ونهاياتهن سعيدة ، كلهن تقريباً يجدن نصيبهن ويتزوجن .

تنهدت ريبي .. ابتسمت يلينا ابتسامة خفيفة وتابع كفاتشي حديثه :

— في نهاية الامر ، واذا قلنا الحقيقة ، اولاء النسوة لسن تعيسات بالدرجة التي يصورهن فيها كتاب الروايات . ريبي لماذا لا تشربين ؟ اشربي فالانسان يتعود على كل شيء ، وهذا الاعتياد سلاحه الرئيسي وسر سعادته .

تلك النسوة يتبحبحن ويملكن ما يحلم به الملايين من الناس : لذة الجسد — وهذا امر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ، حتى انهن لايعرفن عناء العمل الذي تعانيه الانسانية جمعاء . كل شيء يأتيهن مجاناً : الشقة الجميلة والغذاء الفاخر والثياب الرائعة ، واذا استخدمت المرأة ذكاءها وتحملت قليلا وطرحت جانباً ولو مؤقتاً حبها الكاذب لذاتها ستسلك بيسر طريقها وتعيش شيخوختها بسعادة . ريبي اشربي ، لا تقصري ، يابلينا !

— يتطلب هذا جمالاً بالدرجة الاولى — قالت ريبي وتنهدت مرة اخرى .

— طبعاً ! — وافقها كفاتشي فوراً .

— ثم الشباب .

هذا ليس صحيحاً . وما هو الشباب ؟ بعض النساء اللواتي يبلغن سن الأربعين يظهرن اكثر شباباً من النساء اللاتي عمرهن خمسة وعشرون عاماً .

— صحيح — تنهدت يلينا .

— بالاضافة الى ان المرأة الكهلة افضل بعيني الرجل المجرب من فتاة طائشة في سن الزواج . صدقاني !

— وهذا ايضاً صحيح ! — اكدت ذلك ريبي ويلينا .

ــ علي أن اقول لكما ان الانتساب لأسرة كريمة والتربية الصالحة أهم بكثير من الجمال والشباب . يلينا اشربي جرعة واحدة ، ريبي لا تقصري !

اشتعلت ريبي ويلينا من خمرة « الليكيور » . النساء والرجال يتغازلون بجرأة ودون خجل ، حتى ان الأواني والاثاث اشبعت برغباتهن .

« انهما مستعدتان ، لقد نضجتا » ــ فرح كفاتشي . واضاف لهما طعاماً وشراباً .

ــ غارسون ، هات شمبانيا ، سرطانات ، فواكه ، وبعدئذ قهوة .

حين عاد الثلاثة الى تلك الغرفة الرطبة كان الصباح قد حل . تظاهر كفاتشي بالسكر ، لا يستطيع ان يغادر ، ليست لديه اية قوة . سينام هنا ، يضم السريران هكذا . لماذا تضحكان ؟ ما المضحك في الأمر؟ كنتما فيما مضى تحبان كفاتشي وكنتما تعلمان هذا . ماذا يضيرلو تذوقنا اللذة الماضية نحن الثلاثة معاً ؟ تخجلان ؟ غير مستحب الواحدة تجاه الأخرى ؟ الم تتخلصا بعد من هذه الأخلاق « البليدة » ؟ ! الم تغسلا نفسيكما من هذه القيم البورجوازية ؟ ! صعب عليكما ؟ جيد جداً سيستلقي كفاتشي في السرير ويغفو وانتما ناما واقفتين اولا تناما مطلقاً . ها .. ها ! لا يوجد مخرج آخر ؟ إذاً اخلعا ثيابكما .. هكذا ، يلينا لا تطفئي النور فأنت تعلمين عادات كفاتشي ، هل نسيت ! حسناً فليبارك الله اللعبة « الثلاثية » !

في تلك الليلة تفحص كفاتشي كالتاجر المرأتين . تفحصهما كما

يتفحص الصياد المجرب كلباً سلوقياً . الم تمتلىء يلينا اكثر من اللازم ؟ الم تتحف ريبي قليلا ؟ الم ترتخ جلودهن ؟ الم تفقدا ليونتهما ؟ الم تصبحا ثقيلتين ؟ الم تفقدا دفأهما ؟ اصبحتا اكثر ثقلا . فيما عدا ذلك كل شيء على ما يرام . طيب . حسن حسن جداً .

« كيف أخرج كفاتشي قصة
الحب القديم على أرض الواقع ، وكيف أصبح رباً لأسرة ونهاية كل الأخبار »

نظفَّ كفاتشي جيوبه وألبس عشيقتيه القديمتين لباس الأثرياء . ألبسهما واقتادهما ذات ليلة ، للمرة الثانية الى ذلك « البيت » الذي اراهما ، قبلا جماله وروعته واصطحب معه بيسو وجليل .

كان « البيت » الكبير النظيف مضاء ، سلالمه المرمرية مفروشة بالسجاد ، ومزيناً بالتماثيل والنباتات الاستوائية . القاعة الطويلة مزدانة بلوحات نساء عاريات وبلوحات كبيرة وثقيلة ، كما كانت تغص بالنساء و« الضيوف » .

تقع في نهاية القاعة غرفة حمراء تحوي أريكة تركية . على تلك الأريكة تجلس امرأة بثبات ضامّة رجليها تحتها كآلهة بوذية .

اقتاد كفاتشي المرأتين الى تلك الغرفة .

— ليزا — خانم ، ارجو ان تتعرفي على اختّي — واخذ كفاتشي يد « ليزا — خانم وقبّلها باحترام .

ليزا — خانم امرأة بدينة جداً ، في حوالي الخمسين من عمرها ، شعرها الكثيف المصبوغ بالأسود مثبت بدبابيس الماسية . يحيط برقبتها اللينة طوق من الاحجار الكريمة ، وفوق ذلك العقد يتدلى غبغب(١)

(١) الغبغب — الجلد المتغضن فيما تحت الذقن .

عظيم . صدرها العاري الكبير كصدور الأبطال ومعصماها الغليظان واصابعها السمينة كالخيار المعافى – كلها مسربلة بالياقوت الاحمر والزمرد الاخضر والفيروز الأزرق والاميتست البنفسجي .

تفحصت ليزا – خانم المرأتين بعيني التاجر . تفحصتهما كما يتفحص التاجر الاحصنة بغية المتاجرة بها . اخيراً قالت بصوت مجرّح :

– اختي – قالت مخاطبة يلينا في البداية – عيناك اكثر سواداً من العقيق اليماني ، فيهما يتلألأ انعكاس انوار النجوم ، وعلى شفتيك ارى شبقاً غير مشبع ، نهداك لم يذبلا بعد ، والله لا يرغب لك جسداً افضل ، انت من رأسك حتى اخمص قدميك تتألقين تهذيباً ونبالة . اجلسي .

ثم توجهت الى ريفيكا :

– شعرك ذهب حقيقي . عيناك تذكران بنجمة الصبح . في هذه السماء تلمع ماستان اثنتان ، شفتاك تشبهان سلاحاً ملمّى . جسدك لدن وحيوي ، وركاك عاليان ودقيقان ، وهذه ميزة نادرة في عصرنا هذا . ويبدو من خلال يديك ورجليك ان دماً حاراً يتدفق في شراينك . واجلسوا انتم ايها الامير – التفتت نحو كفاتشي – اذا تكرمتم بالجلوس معي ، تفضلوا واجلسوا بجانبي على الأريكة . اخذت بهدوء جرساً فضياً وقرعته ، ثم قالت للعربي الذي ظهر فوراً :

– حسين ، اربعة قهوة وشراب « الشيير » .

جلسوا يشربون ويتحدثون بمتعة .

– أنا مسيحية – قالت ليزا – خانم مبتسمة – دمي الاغريقي صاف

تماماً . نسائي — وعددهن ثمان وعشرون — يصلون من اجلي وينادونني ماما . حتى الآن لم تخرج شكوى واحدة من هذا البيت . نسائي من مختلف الملل ، وكلهن يصلين حسب معتقداتهن ، وانا لا اتدخل في مثل هذه الامور .

هدايا نسائي ملأت غرفة كاملة . غادرتني الف منهن ، والف اخريات تزوجن . لكنهن لا ينسين ليزا — خانم . اتلقى اكثر من اربعين رسالة في اليوم . في هذه الاسرة يأكلن حتى الشبع ، الثياب لا حصر لها ، اللهو لا حدود له . دكتور ، محامي وخادمة — مجاناً . وماذا يحتجن اكثر من ذلك ؟ لاشيء . يجلسن وينتظرن الزوج ، وهن في نهاية الامر ، يجدنه لا محالة . سيتزوجن وينجبن اولاداً ويعشن بسعادة . هي ذي الاسرة ليزا خانم . تنغمت ليزا — خانم بحلاوة وهي تردد بأنها زوجت الفاً من النساء وكونت الف اسرة سعيدة . تغنت ثم شربت واسقت واطعمت ضيوفها . أخيراً قالت :

— يا عقيقي ! يا ذهبي ! اذهبا وتمتعا . انتما اليوم ضيفتاي . غداً ندقق في الأمر . اخرج كفاتشي ريبي ويلينا الى القاعة ، وتركهما مع بيسو ، ثم عاد وجلس من جديد لدى ليزا — خانم ، جلس قريباً منها بحيث اصبح كل منهما يسمع تنفس الآخر .

جلس وسأل :

— ماذا تقولين يا ليزا — خانم ؟

صمتت ليزا — خانم طويلا ، ثم انعمت عليه بالجواب :

— ذات العيون السود سمينة ، والشقراء كهلة .

ـ ليزا ـ خانم ـ همس كفاتشي لها ـ عمرك يزيد على عمر الشقراء بخمسة عشر عاماً ، وذات العيون السود ، اذا ما قورنت بك ، طفلة نحيفة . لكن اقسم بالله وبحياتي اناث ، بالنسبة لي ، افضل من كل النساء الأخريات .

ودس يده مطبطباً على مؤخرتها العريضة . نظرت ليزا ـ خانم في عيني كفاتشي وابتسمت ابتسامة عجوز محنكة ، وحركت سبابتها الغليظة وضربت بها اسفل ذقن كفاتشي بلطف قائلة :

ـ ايها الأفندي ، لا تسخر !

ـ لو كنت في فراشك لبرهنت لك في لحظة ان الامير كفاتشا تقيرادزه لا يسمح بالسخرية من ليزا ـ خانم .

ـ متى تبرهن ؟

ـ ولو في هذه اللحظة .

نهضت ليزا ـ خانم ومشت باتجاه الباب بخطوات اوزة ومشى الحصان العربي وراء تلك الاوزة بخطوات وئيدة .

بعد « البرهان » عادا وجلسا في مكانيهما . امتلأت جيب كفاتشي برزمة جديدة من النقود ، وفي اصبعه الكبيرة لمع خاتم جديد ضخم . كان هذا ثمن المرأتين و«البرهان » معاً .

مرة اخرى جلست ليزا ـ خانم ضامة رجليها تحتها وراحت تتطلع في القاعة بعينين زيتيتين ثم قالت :

ـ أبولون ، يبدو ان امرأتيك الروسيتين جيدتان . « فير تشكا »

مرحة جداً . انظر كيف تمرح ! و« كاتنكا » ايضا لاتقل عنها روعة ، سيرغمان الزبائن على الدفع .

ــ وكيف كانت « نادنكا » يا ليزا ــ خانم ؟

ــ نادراً ما رأيت مثل هذا الرقص . يبدو ان يدك ماهرة . والآن اذهب فأصدقاؤك ينظرون الى هنا . غداً انقل الاثنتين الي . فليعيشا مؤقتاً ، هناك في ذلك البيت المقابل ، ثم ستعتادان عليّ تدريجياً ، وبعدئذ تنتقلان الى هذا البيت تلقائياً والبقية اعرفها . وداعاً يا أسدي !

حين ستزمع على الخروج مرّ عليّ في غرفتي ، وتعال غداً قبل الآخرين .

هكذا اخرج كفاتشي في تلك الليلة قصتي الحب اللتين غطاهما العفن ، وهكذا ايضاً حصل على صديقة جديدة ــ ليزا خانم ، هي ايضا غطاها العفن ، الا انها سمينة وذات مستقبل .

ومرت الأيام . اصبح كفاتشي عضواً في « اسرة » ليزا ــ خانم . « أختاه » ريبي ويلينا وخمس نساء أخريات غدون بنات لـ« ليزا ــ خانم » .

وكان كفاتشي « يبرهن » كل ليلة ان عواء وقهقهة المرأة المجرية الكهلة افضل من مواء وضحك فتاة شابة في سن الزواج ، وان رائحة ليزا ــ خانم التي تشبه رائحة جبنة « روكفور » تغطي على رائحة الورود والبنفسج .

كان كفاتشي وليزا ــ خانم يجلسان على الأريكة التركية يحتسيان القهوة وشراب الليكيور ، يتناولان الحلويات ويدخنان التبغ المصري ،

يتحادثان بلذة ويتطلعان الى القاعة المشتعلة نشاطاً وحماساً .

قالت ليزا – خانم لكفانتشي ذات مرة :

– مون ابولون ، حبيبي،آن لنا ان نحدد اعمالنا ! اسمعني وفكر . لدي بيتان كبيران والثالث بيت صيفي في « كاديكيو » اشتريته منذ فترة وجيزة ، بالاضافة الى انني املك نصف شركة« بوناندا بولو »، وما تبقى تعرفه: شقة مفروشة بأفخر الاثاث وعربة والكثير من المجوهرات والحلي وما يقارب مائتي الف من النقود .

دخلي السنوي يربو على الستين الفاً . توفي زوجي العام الماضي ، انت تعرف هذا وانا لا أولاد لدي – وهذا ما تعرفه ايضاً – اقربائي ينتظرون موتي – وقد حدثتك ايضاً عن هذا . لكنني لا أنوي الرحيل عن هذا العالم ، كما واني لا أنوي ترك مهنتي . انا احب ان اعمل واحب عملي الذي اعتدت عليه . لكن العمل بدون رجل يشبه الى حد كبير حصاناً بثلاثة ارجل . هكذا سيزحف العمل ولن يتمكن من الجري ، بالاضافة الى ان مدة الحداد على زوجي قد انتهت . انا لم اعتد على الوحدة . انت ترى بنفسك ان الرجال – شباباً واغنياء – يدورون حولي كالذباب منتظرين الجواب .

صمت الاثنان وهما يدخنان التبغ .

– افهمت ؟ – سألته اخيراً ليزا – خانم .

– ليزا خانم ! – اجاب كفانتشي – انا احترق خجلا لأنك سبقتني . لقد كنت مزمعاً على التحدث اليك غداً ، لكن طالما سبقتني ليس ثمة من مخرج آخر .

يجب الانتهاء من الامر ، ليزا – خانم. لقد حدثتك سابقاً عن نفسي وعن مغامراتي الماضية . انا امير – هذا اولا . شاب في الثامنة والثلاثين من عمري ثانياً . نلت إجازتين جامعيتين – ثالثاً . وبما انني ترعرعت في قصر اميري ، لذا تشكل لدي ذوق وعادات خاصة – هذا رابعا ، وقد استولى الحمر على املاكي ومع ذلك احصل على المال وانفق كما اشاء وهذا خامساً .

صمتا مرة اخرى وتنهدا . أخيراً سأل كفاتشي :

– ليزا – خانم ، هل فهمت جوابي ؟

– فهمت يا عزيزي أبولون . يحتاج الرجل لمصروف الجيب . زوجي الاخير كان يصرف مائتي ليرة شهرياً .

– ليزا – خانم – قاطعها كفاتشي – لم يكن زوجك اميراً وكان يكبرك سناً وغير مثقف .. لذا ...

– لذا يجب أن تكفيك ألف ليرة .

– ليزا خانم – انا انفق ثلاثة آلاف ليرة .

– اتكفيك الف وخمسمائة ليرة ؟

– ليزا – خانم .

– فلننه المسألة . الفان تكفي وتزيد . اضف الى ذلك سأقبل اصدقاءك في الخدمة وبدلا من العربة سأشتري لك سيارة وسأهديك عربة يقودها حصانان . انتهينا هات يدك .

تصافحا ، ثم تعانقا ، ومرة اخرى « برهنا » على صداقتهما الأبدية واتحادهما .

* * *

كل شيء يجري في بيت « الاميرة » ليزا — خانم كفاتشا نتيرادزه في مجراه الطبيعي. حين يحل الليل تخرج بنات ليزا — خانم الثلاثون متبرجات وشبه عاريات الى القاعة الكبيرة حيث يجتمع « الضيوف » على مهل .

واخيراً تتهادى الاميرة ليزا — خانم كالاوزة وتجلس على الأريكة التركية وتتصلب كتمثال « بوذا » وتتلذذ بسعادة أفراد أسرتها .

يجلس بيسو خلف الصندوق ويقف جليل بثيابه الحمراء المزركشة ، مسلحاً امام الباب مصالباً يديه على صدره .

ويتجول زوج ليزا — خانم وعمدة « البيت » — كفاتشي كفاتشا نيترادزه كديك رومي ضائع . تارة يجلس بجانب اميرته وتارة يتبادل كلمة مع بيسو أو يتحدث كلمتين مع جليل ، وتارة ثالثة يرحب بالضيوف ، أو تارة أخرى يطل على المطبخ .

يتجول كفاتشي كفاتشانتيرادزه وهو يزمجر في داخله . كان احياناً يكاشف بيسو بهمومه ويبدأ بالشكوى كالأرملة ، واحياناً كان يتسلل خلسة الى احدى الزوايا ويبدأ بالنشيج وسفح الدموع .

لماذا يقطب هذا الجبين الواضح المنبسط ؟ مابك يا « كفاتشوني » ؟ انت متخم بالطعام ، لديك مختلف انواع الملبوسات ، تقودك ينبوع

لا ينضب ، نساؤك مختارات ، احصنة ، سيارة ، خدم ، اصدقاء — قدماء وجدد . ما الذي ينقصك يا كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟

اصدقاؤك الذين قتلوا ؟ لقد نسيتهم منذ أمد .

سلبيسرو وبوبي ؟ انهما يعيشان بشكل جيد .

المجد والالقاب ؟ لقد نلتها وتخليت عنها من تلقاء نفسك .

سماء وارض الوطن ؟ تنتظرك « سابورتالو(١) » .

إذاً ماذا ينقصك يا كفاتشي كفاتشا نتيرادزه ؟

الطواف الدائم ؟ الجري وراء قدرك ؟ الركض بين البلدان دونما هدف أو نظام ؟

تحطيم القفص الذهبي والطيران ؟ إذاً ، ماذا تريد ، ماذا ؟ انت نفسك لا تدري !

انا أفهمك يا كفاتشي كفاتشانتيرادزه !

افهمك يا كفاتشيكو !

افهمك واعرفك .

عام ١٩٢٤

---

(١) سابوتالو : يقصد بها مقبرة « سابورتالو » .

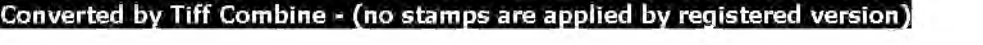
الفهرس

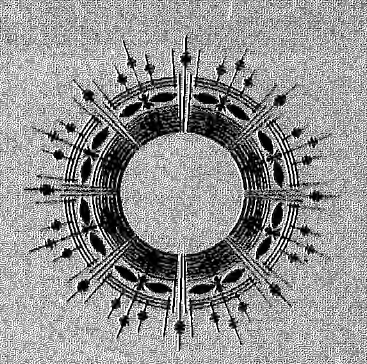
الفهرس

الفهرس

٣٠٠٠ ط١ /٢/١٩٩٤







الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٤

سعر النسخة داخل القطر	في الأقطار العربية ما يعادل
١٧٥ ل.س	٣٥٠ ل.س